مطبوعات المجمع العلمي العراقي

تاريخ العرب

قبل الإسلام

الدكتور جواد علي

الجزء الخامس

القسم الديني


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

بسم الله الرحمن الرحيم

خصصتُ هذا الجزء ، وهو الجزء الخامس من كتاب تأريخ العرب قبل الإسلام ، بالحياة الدينية للعرب قبل الإسلام . وهو متمم للأجزاء السابقة ، تتلوه ان شاء الله أجزاء في بقية التأريخ الثقافي والتأريخ الاجتماعي وتأريخ الفن العربي قبل الإسلام .

وقد جمعتُ مادة هذا الجزء من الموارد التي أشرت اليها في حواشي الأجزاء السابقة ، ومن موارد سأشير اليها في الحواشي عند ورودها لأول مرّة . وسترد فيه أسماء أصنام وأوثان لم يعرف أسماؤها المتقدمون ، ولا سيما ابن الكلبي صاحب كتاب الأصنام ، عرفت حديثاً بفضل عثور العلماء على كتابات لم يعرف الأخباريون من أمرها شيئاً ، لأنها كانت قد نسيت ودرست معالمها قبل الإسلام بزمن مديد .

وقد صنعت في هذا الجزء ما صنعته في الأجزاء السابقة من تأجيل سرد أسماء الكتب التي استعنت بها في تأليف الكتاب ، وأسماء مؤلفيها ، ومواضع طبعها ، وأماكن وجودها ان كانت مخطوطة ، وكذلك الفهارس على اختلافها ، الى خاتمة أجزاء الكتاب ، لما أوردت من الأسباب من قبل ، وسوف يجدها القارئ هناك مرتبة منظومة . ورجائي ملاحظة ذلك قبل مراجعة الفصول .

والفضل في إخراج هذا الجزء الى الوجود يعود بالطبع الى المجمع العلمي العراقي الذي أنفق عليه ، وتولى نشره ، فلولاه لم أكن لأتمكن من نشره وإخراجه . وهناك على الكتاب فضل آخر ، هو فضل الإرشاد والمساعدة والمعاونة ، وهو فضل ظهر منذ كان الكتاب في عالم الخط وما برح مستمراً حتى الآن ، مصدره وصاحبه ومنبعه أستاذي العلاّمة السيد محمد بهجة الأثري نائب رئيس المجمع الأول وعضو المجمع العامل ، أسجّله مقروناً بشكري وتقديري .

ثم لا بد لي أيضاً من تقديم شكري الى صديقي السيد كوركيس عوّاد ، ملاحظ خزانة كتب مديرية الآثار القديمة العامة ، فقد أجهدته وأتعبته بكثرة ما طلبت منه من كتب ، وما زال متفضلا عليّ باخباري بكل أثر جديد يرد على الخزانة المذكورة مما له صلة بتأريخ العرب قبل الاسلام . وعليّ أيضاً واجب الثناء على السيد قدري عبد الرحمن ، ملاحظ الشعبة الفنّية في المجمع ، لمؤازرته ايّاي فى قراءة تجارب المطبعة ، ومعاونته في طبع الصور ، فله شكري وتقديري .

أما المادة ، فهي كما قلت فى الأجزاء السابقة ، مادتي ، وما أنفقت فى تحصيلها من جهد واجتهاد هو أقصى ما قدرت عليه وغاية ما بلغه علمي ، فما كان فيها حسناً فهو للعلماء الذين اعتمدت عليهم وأخذت منهم ، أو كان فيها ما يؤاخذ المرء عليه فأنا وحدي المسؤول عنه ، ولا عصمة لإنسان ما ؟

جواد علي



الفصل الأول

أديان العرب

والعرب قبل الإسلام مثل سائر الشعوب الأخرى تعبدوا لآلهة ، وفكروا في وجود قوىً عليا لها عليهم حكم وسلطان ، فحاولوا كما حاول غيرهم التقرب منها واسترضاءها بمختلف الوسائل والطرق ، ووضعوا لها أسماء وصفات ، وخاطبوها بألسنتهم وبقلوبهم . سلكوا فى ذلك جملة مسالك ، هي ما نسميها في لغاتنا بالأديان . وموضوعنا فى هذا الجزء هو أديان العرب قبل الإسلام .

تقابل كلمة دين العربية لفظة « Religion » فى الانكليزية والألمانية والفرنسية المشتقة من أصل « لاتيني » هو « Religere » أو « Religare » . وآراء العلماء المعنيين بتأريخ الأديان وفلسفتها على اختلاف كبير جداً فى وضع حدّ علمي مقبول بين الجميع لموضوع الدين ، وربما لا يوجد موضوع فى العالم اختلفت فى تحديده الآراء كهذا الموضوع : موضوع ماهية الدين وتعريفه ، حتى صار من المستحيل وضع إطار يتفق عليه لصورة يجمع على أنها تمثل الدين . والشيء الوحيد الذي يمكن أن يفعله كاتب ، هو أن يكتب رأيه بوضوح فيما يعنيه من « الدين » فاذا فعل ذلك ، صار من المعروف ما قصد صاحبه منه [١] .

---

(١) Sir James G. Frazer, The Golden Bough, A study in Magic and Religion, Vol. I, Abridged Edition, London 1947, P. 50. وسيكون رمزه : Golden

وقد عرّف بعض العلماء الدين أنه إيمان بكائنات روحية تكون فوق الطبيعة والبشر ، يكون لها أثر فى حياة هذا الكون[1] . وعرّفه آخرون أنه استمالة واسترضاء لقُوًى هي فوق البشر ، يؤمن أنها تدير وتدبر سير الطبيعة وسير حياة الانسان[2] . وهو عند بعض آخر شعور وتفكير عند فرد أو جماعة بوجود كائن أو كائنات آلهية ، والصلة التي تكون بين هذا الفرد أو تلك الجماعة وبين الكائن أو الكائنات الآلهية[3] . وهو يطلق بهذا الاعتبار على الاسلام كما يطلق على اليهودية والنصرانية وعلى المجوسية وعلى غيرها من أديان سواء أكانت سماوية أم غير سماوية كما يصطلح على ذلك بعض العلماء .

وهناك تعريفات وحدود كثيرة أخرى للدين ، نشأت من اختلاف أنظار الباحثين بالقياس الى مفهوم الدين . فهناك مسائل كثيرة مختلف فيها : هل تدخل فى نطاق حدود الدين أو لا ، كما أن مفهومه قد تغير عند الغربيين باختلاف العصور[4] .

وليس من السهل وضع حدود معينة لمعنى الدين ، فإن وجهات نظر الأديان نفسها تختلف فى هذا الباب . وللدين فى نظر الشعوب البدائية مفهوم يختلف كل الاختلاف عن مفهوم الدين عند غيرهم ، ومفهومه فى نظر الأقوام المتقدمة يختلف أيضاً باختلاف دينها وباختلاف وجهة نظرها الى الحياة . وهناك أمور تدخل في حدود الدين عند بعض أهل الأديان ، على حين أنها من الأمور الأخلاقية أو من أمور الدولة فى نظر بعض آخر . ومن هنا تظهر الصعوبات فى تعيين المسائل التي تعد من صلب الدين فى نظر الجميع[5] .

---

(١) E. B. Tylor, Primitive Culture, I, P. 424, Ency. Brita., Vol 19, p. 103.

(٢) J. G. Frazer, The Golden Bough, Vol., I, P. 222, (3ed. ed.), Golden, P. 50.

(٣) Schmidt, S. 551.

(٤) Hastings, Encyclopaedia of Religion and Ethics, vol., 10, pp. 662, art: Religion, Ency. Ethi : وسيكون رمزها Encyclopaedia of Social Sciences, vol. 13-14, pp. 228, Ency. Soci. : وسيكون رمزها Ency. Brita, vol., 19, pp. 103, Friess and Schneider, Religion in Various Cultures, New York, 1932.

(٥) Ency, Relig., 10, pp. 263. Ency. Saci., vol., 13-14, p. 228.

وللدين مهما قيل فى تعريفه ، شعائر تظهر على أهله ، فتميزهم عن أتباع الديانات الأخرى ، كما فى العبادات والمأكولات والمعابد واللغات وما شاكل ذلك [1] ، ولهـذه الأمور أثر بالطبع فى النواحي الاجتماعية والثقافية ، إذ تطبع أتباع الدين بطابع مميز خاص .

والدين هو ايمان وعمل [2] : ايمان بوجود قوى هي فوق طاقة البشر ، لها تأثير في حياته وفى مقدراته ؛ وعمل فى أداء طقوس معينـة تمين شكلها الأديان للتقرب الى الآلهة ولاسترضائها . والايمان هو قبل العمل بالطبع ، فلا بد للقيام بالشعائر ، أي باداء العمل ، من وجود ايمان عند الشخص أو الأشخاص بوجود آلـه أو آلهة [3] . حتى يقوم بعمل ديني .

ويصنف بعض علماء الأديان الأديانَ الى صنفين : أديان بدائية « Primitive Religions » وأديان عُلْيا « The Higher Religions » . غير أن هذا التقسيم لا يستند الى التسلسل الزماني ، وإنما يقوم على أساس دراسة أحكام الدين وعقائده وعمق أفكاره . فالأديان التي تقوم على أفكار بدائية وعلى السحر « Magic » وعلى المبالغة فى التقديس وتقديم القرابين« Sacred » ، والتي تنحصر عبادتها بافراد قرية أو قبيلة واحدة ، وأمثال ذلك مما يشرحه علماء تأريخ الأديان وعلماء فلسفة الأديان ، هي من أديان الصنف الأول . فاذا توسع مجال الدين وشمل قبائل عديدة ، وتعمق فى أحكامه وفي تشريعه وفلسفته . وصار الالـه أو الآلهة إلـهاً ذا سلطان واسع أو آلهة ذات سلطان واسع عد الدين من الأديان العليا [4] .

ومن قدماء من اشتغلوا بتقسيم الأديان : الفيلسوف الألماني « هيكل Hegel » ، و « أدورد كيرد Edward caird » ، و « تيل Tiele » . وفى تقسيم كل واحـــد منهم صعوبات ومآخذ تحول دون الأخذ به . وأما تقسيم الأديان الى « أديان قبيلية Tribal Religions » و « أديان قومية National Religions » وأديان مطلقة عامة « Absolute Religions »

(١) Ency. Relig.., vol.., 10, p. 663

(٢) تاج العروس (٢٠٧/٩ وما بعدها) .

(٣) Bough.., P. 50.

(٤) Ency. Brita, 19, P. 107.

« Universal Religions » ، فإنه ، وان كان تقسيم واضحاً ظاهراً بالقياس الى الطرق الأخرى لتقسيم الأديان ، يَرِدُ عليه أنه تقسيم بنى على أسس وحدود ليست لها أرض صلبة في جوهر الدين وأركانه ، فهو بعيد عن المبادىء الأساسية التي تجب مراعاتها في تقسيم كل علم أو موضوع(١). كذلك تجابه التقسيم الثلاثي للأديان الى « ديانة الطبيعة Natur Religion » و « ديانة الشريعة Gesetzes Religion » و « ديانة الخلاص Erlosungs Religion »(٢) عند بعض العلماء الألمان صعوبات كبيرة تجعل السير على أساسه في دراسة تطور الدين أمراً عسيراً شاقاً .

وتستند دراسات علماء تأريخ الأديان لتطور الأديان والأدوار التي مرّت بها الى دراسة أمور كثيرة تأريخية ونفسية واجتماعية واقتصادية ، ولهم في ذلك جملة طرق ، منها طريقة الدراسات المقارنة « The Comparative Method » وهي تعتمد كما يتبين من اسمها على المقارنات بين الأديان ، فتتناول جميع النواحي بالبحث ، لتجد ما بينها من مطابقات ومفارقات . ومنها طرق البحث التأريخي والاجتماعي « Historical and Sociological Methods » ، وتستند الى الدراسات التأريخية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والجغرافية والعوامل الأخرى للناس وللمنطقة التي عاشوا فيها ، وأثر كل هذه العوامل في نمو الأفكار الدينية وظهورها(٣). وطرق عديدة أخرى تذكر في كتب تواريخ الأديان .

وقد تقدمت دراسة تأريخ الأديان تقدماً كبيراً ، ولا سيما بعد اتباع أساليب الطرق التجريبية والبحوث المقارنة والتحليل النفسي في هذه الدراسة . وظهر بحث جديد شائق طريف ، هو « فلسفة الدين The Philosophy of Religion » ، أفاد كثيراً في معرفة دراسة تطور الأديان ومبادئها الأساسية ، كما ظهرت فروع أخرى كهذا الفرع لها صلة بدراسة الدين وتقدمه ، كالفرع النفسي الذي يعتمد على الدراسات النفسية للدين وهو فرع نستطيع أن نسميه بـ « علم النفس الديني The Psychology of Religion » في الانكليزية

---

(١) Ency. Brita., Vol. 19, P 111.

(٢) Schmidt. S. 552.

(٣) Ency. Relig., 10, P. 964. ff.

و « « Religionspsychologie » فى الألمانيـة [1] . وكالفرع الذي يعتمد على أسـاليب بحث علم الاجتماع وطرقه لدراسـة الدين باعتبار أن الدين نفسـه ظاهرة من ظواهر الحياة الاجتماعية [2] .

وهناك عوامل عديدة لها أثرها فى تطور الأديان ، وفى « تكييفها » ، منها أثر « العوامل الطبغرافية Topographic factors » وأثر « المحيط Climatic factors » كما يظهر ذلك فى الديانة الهندية القديمة والديانة الزردشتية ، وكلتاهما من أصل واحـد هو « الديانة الآرية » « Aryan Religion » ، وكما يظهر ذلك فى عبادة الشمس والقمر عند الساميين ، من أثر الطبيعة في النفوس ، حيث يشاهد جلاله وروعته في الليالي القمرة العليلة بعد حرّ شـديد يهد الأجسام في النهار وتدرك شدة الشمس ووهجها فى الصيف . ولهذا نجـد اختلافاً بيّناً بين ديانات أهل السهول وديانات أهل الجبال ، وبين ديانات الساميين الشماليين وديانات الساميين الجنوبيين ، تظهر فى « الأساطير Mythology » وفى تصور الآلهة وتقديمها وتأخيرها وما شابه ذلك من أمور [3] .

كذلك للحالات النفسية أثرها فى « تكييف » الدين ، وفى تصور الناس لآلهتهم . ولهذا تصور اليونان مثلا آلهتهم على شاكلتهم ، تصوروها ذات أخلاق وصفات تشبه أخلاق البشر وصفاتهم ، تتخاصم وتتصادق وتتباغض ويحسد بعضها بعضاً ، تشرب الخمر ، وتحزن وتفرح ، وتسرق أيضاً . وتجد فى الـ « ايدا Edda » نفسية الشعوب الشمالية الأوربية ممثلة فى الأساطير التي تتحدث عن الآلهة والأبطال [4] .

ولشكل المجتمع أثره كذلك فى تطوير الدين وفى أحكامه . فمجتمع يقوم على الزراعة يختلف

---

(١) Strattons, Psychology of The Religious Life 1911. Ency. Brita., 19, P 111, Schmid, S., 554.

(٢) Schmidt S. 554. J. Wach, Einfuhrung in die Religion, 1941.

(٣) Ency. Soci., 13 - 14, P. 232

(٤) Ency. Soci., 13 - 14, p. 232.

فى تفكيره عن مجتمع يعيش على الصناعة أو على الرعي فى بوادٍ واسعة ، كذلك للسياسة ولأشكال المجتمعات السياسية دخل فى تطور الأديان . وقد كان التعاون وثيقاً جداً فى الأيام الماضية خاصة بين السلطات الزمنية وبين السلطات الدينية حتى كان الحكام الزمنيون كهاناً فى كثير من الأوقات ، كما حدث أنْ وقع اختلاف بين السلطتين أدّى الى حدوث تغيير فى عقيدة الحكومة أو أكثرية الشعب .

وطالما أدى قهر مدينة أو قبيلة أو شعب الى قهر آلهتها معها وموتها ، والى عبادة آلهة القاهرين المتغلبين باعتبار أنها أقوى وأعظم شأناً من آلهة المغلوبين التي لم تتمكن من حمايتهم من تعديات الغالبين . وقد تبقى تلك الآلهة فتندمج في آلهة المغيرين ، فيزداد بذلك العدد ، وتتعدد الآلهة ، وتختلط الأساطير بعضها ببعض وتتداخل . ولهذه الناحية أهمية كبيرة فى تحليل عناصر هذه الأساطير ، ورَجْعها الى منابعها الأولى .

كذلك يكون للجوار وللصلات التأريخية والروابط الثقافية أثر فى ديانات الشعوب وفي « تكييفها » ويكون للثقافة خاصةً أثر بارز فى هذا التوجيه .

غير أن للأديان كذلك أثرها فى توجيه الأفراد والقبائل والشعوب ، وفيما ينتج عن عمل الإنسان من مجتمعات وسياسة وثقافة واقتصاد[1] . فهذه نواحٍ يجب أن تلاحظ كلها فى دراستنا لتأريخ الأديان .

هذا ويجب ألا نتصور أن أديان العرب قبل الإسلام لم تتأثر بمؤثرات خارجية ، فلم تأخذ من الأمم والشعوب التي اتصلت بها شيئاً ، جرياً على نظرية القائلين بعزلة العرب وبعدم اتصالهم بالخارج ، وبأنهم بدو ، لاعلم لهم ولا رأي ولا دين . وهي نظرية نشأت عن عدم وقوف القائلين بها بأحوال العرب قبل الإسلام . واذا وافق أولئك على أن اليهودية والنصرانية كانتا فى جزيرة العرب قبل الإسلام كما نص على ذلك القرآن الكريم ، وأن من العرب من كان على دين يهود ، وأن منهم من كان على دين النصارى ، فلن يستطيعوا إنكار ورود اليهودية والنصرانية الى العرب من

---

(1) Ency . Soci , Vol . , 13 - 14 , PP. 234 .

الخارج بعمل الهجرة والتبشير والاتصال بفلسطين والعراق . وسيوافقون أيضاً على أن الوثنيين قد تأثروا كذلك بوثنية غيرهم ، كما نص على ذلك الأخباريون وأنهم أثروا في غيرهم أيضاً .

إن معارفنا عن أديان العرب قبل الإسلام ، مستمدة في الدرجة الأولى من النصوص الجاهلية بلهجاتها المتعددة من معينية وسبئية وحضرمية وأوسانية وقتبانية وثمودية ولحيانية وصفوية ، وهي نصوص ليس من بينها نص واحد وياللأسف في أمور دينية مباشرة ، مثل نصوص صلوات أو أدعية دينية أو بحوث في الكلام وما شابه ذلك . غير أن هذه النصوص المذكورة ، ومعظمها كما قلت سابقاً في أمور شخصية ، حوت مع ذلك أسماء آلهة ذكرت بالمناسبة ، وبفضلها عرفنا أسماء آلهة لم يصل خبرها الى علم الأخباريين ؛ لأن ذكرها كان قد انطمس وزال قبل الاسلام . ومن هذه النصوص استطعنا أن نستخرج آلهة القبائل العربية القديمة ، وأن نرجعها الى المواضع التي كانت تتعبد بها لها ، وأن نعين العصور التي كان الناس فيها يتعبدون لها على وجه التقريب .

كذلك تعد المؤلفات « الكلاسيكية » ، مورداً مفيداً لمعرفة أديان العرب قبل الإسلام بعد النصوص . وقد وردت في هذه المؤلفات أسماء أصنام قليلة قديمة ، وشيء من عباداتهم ، وفي اسم بعض هذا المذكور تحريف كبير ، أبعده عن الأصل ، حتى صار من الصعب علينا معرفة الصنم المقصود[1] . وقد ذكر « هيرودوتس » عرباً كانوا يقيمون في المدن الفلسطينية على ساحل البحر المتوسط « Philistaische Kuste » سماهم « Arabioi » ، كانوا يتعبدون للاصنام . كذلك ذكر « أريانوس Arrianus » و « سترابون » و « أوريجينوس Origenus » أسماء آلهين هما : « ديونيسوس Dionysos » ، و « أورانيا urania » . وذكروا أن العرب كانوا يتعبدون لهما[2] ، ولكن كيف نستطيع تعيين هذين الصنمين لاسميها الأعجميين ؟

---

(١) Handbuch , I , S. 182.

(٢) Arrian. VII , 20 , Strabo , III , 16, Origenes , Contra Celsum , 5 , 37.

أما أديان العرب قبيل الإسلام وعند ظهوره ، فالقرآن الكريم هو مرجعنا فى هذا الباب . ففيه تفصيل لِما كان عليه الناس فى هذا الزمن من عبادات وآراء ، وفيه أسماء بعض الأصنام الكبرى التي كانت تتعبد لها القبائل . وفى تفسير القرآن الكريم تفصيل وشرح لما جاء موجزاً في الآيات البينات ، ويضاف الى ذلك ما ورد عن هذا الباب فى الحديث .

وفى الشعر المنسوب الى الشعراء الجاهليين اشارات الى بعض عقائد الجاهليين ، والى بعض الأصنام ، تعرض لها شرّاح الدواوين بالمناسبات ، وترد هذه الاشارات في القصص المروي عن أخبار الجاهلية وعن أنساب قبائلها وأيامها وأمثال ذلك وفى كتب الأدب واللغة والمعجمات ، وهي تعيننا بالطبع على زيادة مادتنا فى هذا الموضوع .

ويضاف الى ذلك ما ورد في كتب السير والمغازي وفى كتب التواريخ من كتب خاصةٍ مثل تأريخ مكة ، ومن كتب عامّةٍ عن عبادات القوم قبل الوحي وفى أثناء الوحي وعن أمر الرسول بتحطيم الأصنام المنصوبة والأوثان المرفوعة . وقد ورد بهذه المناسبة أوصاف بعضها ، وذكرت بعض المواضع التي كانت قائمة فيها ، والقبائل التي كانت تتعبد لها ، وما أُدِيرَ حول بعضها من قصص ، أو ماقيل عنها وفيها فى الجاهلية وفى أثناء تحطيمها في الاسلام .

وقد ألف بعض العلماء مؤلفات خاصة فى الأصنام ، وصل الينا منها كتاب الأصنام لابن الكلبي[1]. أما المؤلفات الأخرى ، فلم يصل الينا منها إلاّ الاسم . وممن ألف فى هذا الموضوع أبو الحسن علي بن الحسين بن فضيل بن مروان[2]. والجاحظ[3]. وقد استفاد ياقوت الحموي فى كتابه معجم البلدان من كتاب الأصنام لابن الكلبي ، وأورد ما أخذه منه فى الكتاب .

---

(١) « كتاب الأصنام » بتحقيق المرحوم أحمد زكي باشا ، القاهرة ١٩٢٥ الطبعة الثانية . « مطبعة دار الكتب المصرية » ، وسيكون رمزه : الأصنام .

(٢) « كتاب الأصنام وما كانت العرب والعجم تعبد من دون الله تبارك اسمه » ، الفهرست (١٢٥) ، الأصنام (ص ٢٣) ، « الرد على عبدة الأوثان » ، معجم الأدباء (١/١٣٢) .

(٣) الأصنام (ص ٢٣) .

أما النسخة التي اعتمد الحمويّ عليها ، فكانت بخط عالم مشهور وروايته هو الجواليقي[1] .

وقد تعرض ابن الكلبي لذكر الوثنية والأصنام فى مؤلفاته الأخرى عَرَضاً ، وأشار ياقوت الحموي فى بعض المواضع الى روايات أخرى لابن الكلبي عن الأصنام ، ذاكراً أنها ليست من كتاب الأصنام[2] . كما استقى من منبع آخر ، هو محمد بن حبيب[3] .

ولم يرتب ابن الكلبي ولا غيره من الأخباريين الأصنام بحسب الترتيب الزمني ، إذ لم يكن ذلك في استطاعتهم ، فإن معارفهم عنها لم تكن — كما قلت مراراً — تتجاوز الجاهلية القريبة من الإسلام والمتصلة بها ، ومنشأ ذلك اعتمادهم على الروايات الشفوية ، وعدم أخذهم من النصوص . ثم إن الآلهة العربية القديمة مثل « المقه » إلـه سبأ الكبير الذي لمع اسمه فى مملكة سبأ زهاء ألف عام ، وبنيت له المعابد الضخمة ، وتقرب اليه المؤمنون بالهدايا النفيسة وبالضحايا وبأعز الأشياء ، كانت قد أصيبت بالخمول وبالكساد ، فاختفى اسمها من الوجود ، ولم يبق مؤمن بها قبيل الاسلام . فلم يكن فى وسع حفظة الأخبار القديمة الوقوف على شيء من أخبارها ، ولذلك كان من الطبيعي عدم وصول شيء عنها الى الأخباريين من أمثال ابن الكلبي ، فلم يشيروا اليها مع أنها من أقدم الأصنام عند العرب الذين عاشوا قبل الاسلام وقبل الميلاد[4] .

وأكثر الأصنام التي ذكرها ابن الكلبي وغيره ، لم ترد أسماؤها في نصوص المسند ، ويدل على أن عبادتها لم تكن شائعة بين أهل اليمن وبقية العربية الجنوبية ، وإنما كانت من أصنام أهل الحجاز وأطراف نجد الغربية . وأما ما ذكره الأخباريون عن عبادة قبائل يمانية أو قبائل منتسبة الى اليمن الى الأصنام التي ذكروها ، فيجوز أن تكون عبادة هذه الأصنام قد دخلت تلك القبائل فى الأيام القريبة من الإسلام باتصال هذه القبائل بقبائل أهل الحجاز ونجد وباحتكاكها بها ، وذلك إذا آمنا بروايتهم هذه وقبلناها . وهذه القضية مع ذلك تحتاج الى

---

(١) الأصنام (ص ٢٤) .

(٢) J. Wellhausen, Reste Arabischen Heidentums, Berlin 1927, S. 12.
وسيكون رمزه : Reste

(٣) راجع معجم البلدان في المواضع التي سيرد ذكرها في هذا الكتاب عن الأصنام .

(٤) Handbuch, I, 182.

دراسة ، ولا يمكن الحكم فيها حكماً علمياً فى نظري إلا بالاستناد الى النصوص .

ولكنّ هذا لايعني أن هذه الأصنام لم تكن معروفة البتّة فى العربية الجنوبية بأسمائها المسماة بها عند الأخباريين أو بأسماء أخرى . فقد عثر على اسمي الصنمين سواع والعُزّى فى نصوص المسند[1] ، وهما كما نعلم من الأصنام المشهورة عند قبائل الحجاز ونجد . وقد يعثر على أسماء أصنام أخرى . كما أن عدم ورود أسماء أصنام يكثر ورودها فى نصوص المسند فى كتاب ابن الكلبي أو فى المؤلفات الأخرى ، لايعني أن هذه الأصنام كانت خاصة باليمن وبحضرموت ، وأنها لم تخرج عن حدود هذه الأرضين ؛ لأن علم أصحاب هذه الآثار عن الجاهلية لا يرتفع كما قلت سابقاً مراراً عن الاسلام بكثير . وقد كان ذكر أصنام المسند قد اختفى من العربية الجنوبية نفسها فى هذا العهد الذي تعيه ذاكرة الأخباريين . فطبيعي اذن ألاّ تعيذاكرتهم هذه الأصنام فى الأماكن الأخرى من جزيرة العرب .

والواقع أننا لا نستطيع أن نتصور أن أديان العرب الجنوبيين كانت مستقلة عن أديان العرب الذين هم خارج اليمن وحضرموت ، وأنها « تكيفت » وظهرت ونمت دون أن تكون بينها مؤثرات واتصالات . بل اننا لا نستطيع أن نتصور امكان دراسة أديان جزيرة العرب كلها قبل الاسلام من غير أن نتطرق الى أديان بقية الساميين لنتمكن بواسطتها من معرفة كيفية تطور الأديان فى جزيرة العرب .

وقد ألف أبو عبد الله الحسين بن محمد بن جعفر الخالع كتاباً فى أديان العرب وآرائهم ، اسمه « آراء العرب وأديانها » ، وقف عليه ابن أبي الحديد ، وأشار الى بعض هفوات رآها فيه[2] . وللجاحظ مؤلف اسمه « أديان العرب » استفاد منه أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني المتوفى سنة ٥٤٨ للهجرة[3] .

---

(١) Handbuch. I.S. 190. E. Glaser. Suwa ' und Al-Cuzza und die altjemenischen inschriften. Munchen 1905 . M . Hartmann . Revue. di l 'hist. des relig . p. 173. ff .

(٢) بلوغ الأرب (٢/٣٠٨) .

(٣) Brokelmann . Suppl. I , S. 946.

وقد عُنِيَ المستشرقون بهذا الموضوع ، فكتبوا بحوثاً فيه . ومن هؤلاء : « ولهوزن » « J. Wellhausen » صاحب كتاب « بقايا الوثنية العربية Reste Arabischen Heidentums »[1] ، و « دتلف نيلسن Ditlef Nielsen » صاحب كتاب « Die altarabische Mondreligion »[2] ومؤلفات أخرى فى هذا الموضوع ، و«لودولف كريل Ludolf Krehl » ، وغيرهم[3] .

وقد اعتمد « ولهوزن » على ما نقله ياقوت الحموي من كتاب الأصنام ومن غيره ، ذلك لأن كتاب الأصنام لم يكن مطبوعاً ولا معروفاً أيام ألف « ولهوزن » كتابه عن الوثنية العربية .

ويعد كتاب « ولهوزن » أوسع مؤلف فى موضوعه كتبه المستشرقون عن الوثنية العربية . وقد كتب المستشرقون حديثاً جملة بحوث عن الأصنام العربية التي عثر عليها فى الكتابات فات ذكرها فى كتاب « ولهوزن » ؛ لأن أكثر النصوص الجاهلية لم تكن قد نشرت يومئذ ، ولأن كثيراً منها قد نشر حديثاً ، فلم يكن فى استطاعة « ولهوزن » بالطابع أن يبحث فى شيء من التفصيل فى الوثنية يبلاد العربية الجنوبية . لذلك كان أكثر ما جاء فى كتاب « ولهوزن » مستمداً من روايات الأخباريين . فمن الضروري اضافة هذه البحوث الجديدة الى ما كتبه هو وأمثاله ، لنحصل على صورة شاملة عن أديان العرب قبل الاسلام .

وتأريخ أديان العرب قبل الاسلام ، فصل مهم جداً من فصول تأريخ العرب عامة قبل الإسلام وبعدها ، بدونه لا يمكن فهم عقلية القوم الذين نزل الوحي بينهم وطريقة معرفة تفكيرهم ووجهة نظرهم الى الخالق والكون ثم الاسباب التي دعت الى نزول الوحي ، بل هو أيضاً فصل مهم جداً لفهم كثير من الأمور الواردة فى التوراة والإنجيل ، إذ كان العرب قوماً من هذه

---

(١) استعملت الطبعة الثانية ، وقد طبعت ببرلين سنة ١٩٢٧ م .

(٢) Ditlef Nielsen, Die altarabische Mondreligion und die Mosaische Ueberlieferung, Strassburg, 1904.

(٣) Ludolf Krehl, Uber die Religion der Vorislamischen Araber, Leipzig. 1863.

اذا أردت أسماء بعض المراجع عن هذا الموضوع ، فارجع الى :

D. G. pfannmuller, Handbuch der Islam - Literatur, 1923.

الأقوام التي كانت لها صلات قديمة بأرض الوحي التي نزل بها الكتاب المقدس بعهديه ، وعضو حيّ فعّال فى هذه المجموعة المسماة بالشعوب السامية . ما نعثر عليه من جديد فى الناحية الدينية ، يكشف عن غوامض عديدة من غوامض العهدين ، لجدير بالعلماء وبنا إذن الانصراف الى البحث والاستقصاء للعثور على الصفحات المفقودة من هذا الفصل .

وتفيد الاعلام الجاهلية المركبة « Theophorus Names » المدونة فى النصوص الجاهلية وفى الموارد الاسلامية فائدة كبيرة فى معرفة الأصنام ، وفى تكوين فكرة عنها . ففيها أسماء آلهة ، وفيها بعض الصفات الالـهية التي كان يطلقها الناس على آلهتهم . ونجد هذه الأسماء المركبة عند بقية الشعوب السامية كذلك . ومن مقارنة هذه الأسماء بعضها ببعض ، استخرج العلماء أسماء آلهة اشترك فى عبادتها جميع الساميين(١) .

ونعني بـ « Theophorus » الأعلامَ المركبـة من أسماء آلهة ومن كلمات أخرى مثـل « عبد » و « عطية » و « ودّ » و « سعد » و « أوس » و « عائذ » و « عوذ » و « وهب » . ترد قبل اسم الصنم أو بعده ، فيتألف منها ومن أسماء الأصنام أسماء أعلام ، مثل : عبد الاسد ، وعبد الله ، وعبد سعد ، وعبد العزّى ، وعبد محرق ، وعبد ذي الشرى ، وعبد يغوث ، وعبد ودّ ، وعبد قيس ، وعبد شمس ، وأمرئ القيس ، وأمثال ذلك من أعلام(٢) .

ومعظم هذه الأعلام المدونة فى مؤلفات الإسلاميين ، أسماء أشخاص عاشوا فى الجاهليـة القريبة من الإسلام ، حفظتها ووعتها ذاكرة الرواة ، ومنهم تناقلها أهل الأخبار . والغالب عليها الابتداء بكلمة « عبد » للرجال و « أمت » أي أمة للنساء ، ترد قبل اسم الصنم . أما الأسماء المبتدأة بكلمات أخرى غير « عبد » ، فمثل : « أحمس الله » و « امرئ منـاة » ، و « امرئ القيس » و « أنس الله » و « أوس الله » و « تيم اللات » و « خيليـل » و « زيد اللات »

---

(١) Dr . H . Brau . Die altnordarabischen Kultischen Personennamen . in WZKM , Bd . , 32 , 1925 . S . 31 ff . 85 . ff . Reste , 1 . ff . Ency . Relig . , I . P . 659 .

(٢) Handbuch , I . S . 182 .

و « زيد منـاة » و « سعد اللات » و « سـعد مناة » و « سـعد ودّ » و « سكن اللات »
و « سـلم اللات » و « شـراحيل » و « شرحيـل » و « شـرحبيل » و « شمش اللات »
و « شكم اللات » و « شهميل » و « شيـع اللات » و « عائذ الله » و « عمرو اللات » و « عوذ
مناة » و « عينيل » و « قسميل » و « مطرويل » و « وهب اللات »[١]. وهي قليلة من
حيث الاستعمال بالقياس الى الأعلام المبتدأة بـ « عبد » .

وهذه الأسماء التي حفظتها ذاكرة أهل الأخبار ، تخالف أكثر الأعلام العربية والسامية
القديمة المدونة في النصوص وفي مؤلفـات اليونان والرومان والسريان وغيرهم من حيث الصيغ
والتراكيب . فقد ابتدأت هذه الأعلام كما رأينا بكلمات تلتها أسماء الآلهة . أما الأعلام القديمة ،
فقد كانت على العكس تبدأ باسم الصنم ، وبعده الألفاظ الأخرى ، مثل : « الشـرح » « ايل
شرح » و « اليفع » « ايل يفع » و « الذرح » « ايل ذرح » و « الكرب » « ايل كرب »
و « السمع » « ايل سمع » و « اليثع أمر » « ايل يثع » وأمثال ذلك . أو تبدأ بكلمات ثم تليها
أسماء الأصنام ، إلا أنها ليست فى حالة الإضافة ، بل على صورة الاخبار والفاعلية ، مثل « يذكر
ايل » و « يثع ايل » و « يدع ايل » و « يشرح ايل » . و « يسمع ايل » . و « ايل » هنا
هو اسم الإلـه « ايلو » « ايل » المعروف عند جميع الساميين[٢].

وعثر على كتابات يونانيـة فى مصر وفى القاطعة العربية : « الـكورة العربيـة Arabia
Provincia » ، وجـدت فيها أعلام من هذه الأعلام المركبة التي تتضمن اسم الالـه الساميّ
القديم « ايل » « ايلو »[٣].

ويلاحظ على بعض الأعلام المركبة ، مثل : عمرو اللات ، وعوف ايل ، وجد اللات ، وسعد
مناة ، وودّ إيل ، أن الـكلمات الأولى من هذه الأسماء تتأخر فى أعلام أخرى ، فتسبق بكلمة

---

(١) Reste , S. .f.

(٢) Reste , S . 1 , Noldeke , uber den Gottesnamen El , in Monatsberichte der K . Akademie der Wissenschaft Zu Berlin , 1880 , S . 761 . 1887 , S . 1175 .

(٣) Reste , S . 5 .

توضع قبلها ، فيتكون منها علم مركب جديد كما في الأسماء التالية : عبد عمرو ، وعبد عوف ، وعبد جدّ ، وعبد سعد ، وعبد ودّ . وقد كانت متقدمة فى الأعلام الأولى . أما فى هذه الاعلام ، فصارت فى المنزلة الثانية . وقد يوضع حرف الجر ، وهو « اللام » « لامد » ، فى الاسم ، ليدل على تعلق الاسم بالإلـه ، مثل « لحى عثت » فى النصوص العربية الجنوبية ، وقد عثر على طائفة من هذه الأعلام فى الـكتابات الفينيقية والعبرانية[1].

وقد تهمل الكلمة الثانية من الإسم المركب ، ويقتصر على اللفظة الأولى ، كما فى : أوس ، وزيد ، ووهب ، وتيم ، وسعد ، ونصر ، وعائذ ، وعبد ، وأمثال ذلك من أعلام . فإنها اختصار لـ « أوس الله » ، و« زيد اللات » و « زيد مناة » ، و « وهب اللات » ، و « تيم اللات » ، و « سعد مناة » ، و « سعد ودّ » ، و « سعد اللات » ، و « نصر اللات » ، و « عائذ الله » ، و « عبد عمرو » ، و « عبد ودّ » ، وغير ذلك . وقد يحدث العكس ، فتسقط الكلمة الأولى ، وتبقى الكلمة الثانية التي هي اسم الإلـه ، ويصير هذا الاسم اسماً لشخص أو لأسرة أو لقبيلة ، مثل : مناف ، وغنم ، وشمس ، وإساف ، ونائلة ، وزهرة ، وقيس ، وعُطارد ، وهُبَـل ، وجدّ ، وأمثال ذلك . فان هذه هي أسماء آلهة فى الأصل ، سبقت بـكلمات مثل « عبد » ، ثم أهملت هـذه الكلمات الأولى ، وبقيت أسماء الآلهة حيّة ، ولـكنها صارت أسماء لأشخاص وأُسَـر وقبائل ، تسبقها لفظة « بنو » فى بعض الأحيان ، لتدل على الانتماء الى ذلك الاسم[2]. ولهذا الانتماء أهمية كبيرة فى نظر الباحثين فى فلسفة الأديان وتأريخها .

ويلاحظ أن بعض الأعلام المركبة المبتدأة بـ « عبد » مثلاً ، لا تتكون كلمتها الثانية من اسم إلـه أو شخص مقـــدس ، إنما تكون اسم موضع أو اسم شخص أو اسم جماد ، مثل : عبد حارثة وعبد المطلب ، وعبد أمية ، وعبد الحارث ، وعبد الدار ، وعبد الحجر ، وما شاكل ذلك[3]. ولبعض العلماء تفاسيرُ وتعليلات فى العوامل التي أدت الى هذه التسميات ، منها أن

---

(١) Reste , S . 7 , Noldeke , in Wiener zeitlschrift fur die Kunde des Morgenlandes , Bd . , VI , S . 313 .

(٢) Reste , S . 7 . ff .

(٣) Rest , S. 3.

بعض هذه الأسماء هو لآلهة قديمة ، نسيت فظن أنها أسماء أشخاص ؛ وأن بعضاً آخر منها هو أسماء أسلاف كانت لهم قدسية خاصة ، فتبرك الناس بتسمية أولادهم عبيداً لهم ، وهو شيء يحدث حتى الآن ؛ وأن بعضاً آخر هو مسميات لمجتمعات ، مثل : عبد أهله ، وسعد العشيرة ؛ أو أنه نسبة الى طوطم او جماد مقدس فى نظر الناس[1].

والأساطير « Mythos » « Myth » [2] ، ونعني بها هنا الخرافات والأقاصيص المتعلقة بالآلهة ، هي مصدر مهم لمعرفة تطور الأديان وتطور فكرة الألوهية عند الشعوب . وهي قد تكون شعراً ، وقد تكون نثراً ، وفى كلتا الحالتين مادة خصبة للباحثين .

ومعارفنا عن الأساطير العربية الدينية قليلة جداً . وهذا مما حمل بعض المستشرقين على القول بأن العرب لم تكن لهم أساطير دينية عن آلهتهم ، كما كان عند غيرهم من الأمم كاليونان والرومان وعند بقية الآريين ، بل حتى عند بعض الشعوب السامية الأخرى مثل البابليين [3]. وفى رأيي أننا لا نستطيع أن نجزم فى مثل هذه الأمور ؛ لأن أحكامنا عن اليونان والرومان والبابليين إنما استنبطناها من نصوص ومؤلفات وصلت الينا . أما العرب الجاهليون ، فلم يصل الينا منهم حتى الآن نصٌ ما في هذا الموضوع ، يمكننا من الحكم بعدم وجود الأساطير الدينية عند العرب الوثنيين .

ومشكلتنا أننا لا نملك كما قلت نصوصاً دينية جاهلية ، ولا كتبا كتبها يونان أو لاتين أوسريان أو غيرهم عن أساطير العرب فى الجاهلية نستطيع استخراج حكم منها عن أساطير العرب . ولكن هذا الوضع لا يخولنا نفي وجود الأساطير عند العرب ، بحجة بداوتهم وضيق أفقهم وبساطة تفكيرهم ، كما أنه لا يخولنا أيضاً الحكم بوجود أساطير عندهم من طراز عال كما نجده عند اليونان مثلاً . ويتبين من بعض روايات الأخباريين ، وهي قليلة ، أن العرب كانت

---

(١) Robertson , P . 42 , Reste , S . 4 .

(٢) « Mythos » كلمة يونانية تعني أيضاً « خرافة » « Legend » .
D . D . Runes , The Dictionary of Philosophy , London , 1945 , P , 203 . Schmidt , S . 429

(٣) Ency . Relig . , I , P . 660

لهم أساطير كالذي رووه من « أن « العَيوق » عاق « الدبران » لما ساق الى الثريا مهراً ، وهي نجوم صغار نحو عشرين نجماً ، فهو يتبعها أبداً خاطباً لها ، ولذلك سموا هذه النجوم القلاص»[1] .
وكالذي رووه عن « العَبُور » و « الغُمَيْصاء » و « سُهَيْل » . وقد كانت هذه النجوم مجتمعة ، فانحدر سُهَيْل فصار يمانياً ، وتبعته العَبُور فعبرت المجرَّةَ ، وأقامت الغُمَيْصاء فبكت لفقد سهيل حتى غمصت[2] وكالذي رووه من أن « الزُّهَرَةَ » كانت امرأة حسناء ، فصعدت الى السماء ومسخت نجماً[3] ، وأمثال ذلك من قصص يظهر أنه من بقايا قصص أطول قديم .

وإذ لم تصل الينا نصوص دينية جاهلية ، صعب علينا تكوين فكرة صحيحة عن مفهوم الدين عند العرب ، وعن كيفية عبادتهم لآلهتهم ، وعن كيفية تصورهم للآلهة ، خاصةً عند العرب الذين عاشوا قبل الميلاد .

وقد ذهب « رينان Renan » الى أن العرب هم مثل سائر الساميين الآخرين موحدون بطبعهم ، وان دياناتهم هي من ديانات التوحيد . وهو رأي يخالفه فيه نفر من المستشرقين[4] .

وقد أقام « رينان » نظريته هذه في ظهور عقيدة التوحيد عند الساميين من دراسته للآلهة التي تعبد لها الساميون ، ومن وجود أصل كلمة « ايل » في لهجاتهم ، فادعى أن الشعوب السامية كانت تتعبد لإله واحد هو « ايل » ، الذي تحرف اسمه بين هذه اللهجات ، فصار « يهو » و « يهوه » و « الوهيم Elohim » عند العبرانيين ، و « اللات » و « الله » و « إلـه » عند العرب ، والأصل عند الجميع هو الإلـه « ايل »[5] .

وقد تعيننا أسماء الأصنام والأعلام المركبة في تكوين وجهة نظر عن صفات آلهة الجاهليين . فكلمات مثل « ودّ » و « شرح » و « سعد » و « سمع » ، أو تعابير مثل « ذات حميم »

---

(1) بلوغ الأرب (٢/٢٣٩) .　　(2) المصدر نفسه .
(3) البلخي : البدء والتأريخ (٣/١٤) .　　(4) Ency. Relig., Vol., 11, P. 383.
(5) E. Renan, Histoire General et Systeme Compare des Langues Semitques, Paris, 1855, Vol., 1, Chap., I, P. 1. ff.

و « ذات صنم » و « ذات رحبن » و « ذات بعدن » و « ذو قبض » وما شابه ذلك ، لا بد أن تكون لها معان خاصة تشير الى صفات الأصنام التي قيلت لهـــا ، فتفيدنا فى فهم عبادة الجاهليين وتفكيرهم فى تلك الأصنام .

واذا كانت بعض أسماء الأصنام أو صفاتها واضحة مفهومة تمكن الاستفادة منهـا فى تكوين فكرة عن الآلهة ، فإن هناك بعضاً آخر يحيط بمعناه الغموض ، فلا نستطيع شرح معناه أو ترجمته الى اللغات الأخرى . وليس من المعقول بالطبع عدم وجود مدلول أو مراد لأسماء هذه الآلهة عند من وضعها لها ، ونسبها اليها ، وانما المعقول هو أن هذه المسميات نسيت بتقادم الزمن وزوال دولتها وعظمتها من الوجود ، وضاعت معالمها ، فلم يبق منها إلا الأسماء المجردة[1] . ولعل معانيها كانت غامضة حتى على من كان يتعبد لها ، لاختفائها منذ أمد طويل ، وعدم ورود نصوص مدونة الى المتعبدين لها في هذه المعاني . وهذا شيء مألوف معروف .

تختلف نظرة البشر الى الخلق باختلاف تطوره ونمو عقله ، ولهذا نجد فكرة « الله » التي تقـابل كلمة « Deus » في اللاتينية وكلمة « Theos » فى اليونانيـة وكلمة « God » فى الانكليزية ، تختلف باختلاف مفاهيم الشعوب ودرجات تقدمها . فهي عنـد الشعوب البدائية القديمة والحديثة فى شكل يختلف عن مفهومها عند الشعوب المتحضرة . كذلك اختلفت عند سكنة البوادي عن سكنة الجبال والهضاب ، ويفرق بعض العلماء مفهوم فكرة الله عند الشعوب السامية عنها عند الشعوب الآرية ، لأسباب عديدة يذكرها أصحاب هذه البحوث ، لا دخل لها فى موضوع هذا الـكتاب[2] .

وهناك أشكال عديدة لعبادة الخالق والآلهة ، تمثل تعدد وجهة نظر الانسان بالقياس الى

---

(١) Handbuch, S. 189

(٢) راجع كلمة « god » في :

Ency. Relig. Vol., 6. PP. 243. W. Robertson Smith, Lectures on the Religion of the Semites, London 1894, PP. 5. Robertson : وسيكون رمزه Ency. Brita, 10. 450 " God "

مفهوم الألوهية لديه . فهناك عبادة تسمى عبادة آباء القبائل ، حيث أسبغ على أجداد القبائل ما يسبغ عادةً على الآلهة من نعوت وصفات . ونجد هذه العبادة عند القبائل البدائية . وقد يكون هؤلاء الأجداد أجداداً حقيقيين ، وقد يكونون أشخاص خلقتهم الأساطير . ومهما يكن من شيء ، فقد أعطي هؤلاء صفات الربوبية ونعوتها ، ونظر اليهم نظرة من فيه قوى خارقة ذات هيمنة على العالم والخلق . وقد اصطلح على تسمية هذه العبادة بـ « All Father » في الانكليزية وبـ « Verehrung des Stammesvaters » و بـ « Urvaters » في الألمانية[١] ، لأنها تقوم على أساس عبادة الرؤساء .

وألّه بعض الأقوام والقبائل الظواهر الطبيعية ، لتوهمهم أن فيها قوى « Spirit » روحية كامنة مؤثرة في العالم وفي حياة الإنسان ، مثل الشمس والقمر وبعض النجوم الظاهرة . وقد كانت الشمس والقمر أول الأجرام السماوية التي لفتت أنظار البشر اليها ، لما في الشمس من أثر بارز في الزرع والأرض وفي حياة الإنسان بصورة مطلقة . كذلك للقمر أثره في نفس الانسان بما يبعثه من نور يهدي الناس في الليل ، ومن أثر كبير يؤثر في حس البشر . فكانا في مقدمة الأجرام السماوية التي ألّهها الإنسان . عبدهما مجردين في باديء الأمر ، أي دون أن يتصور فيهما ما يتصور من صفات ومن أمور غير محسوسة هي من ما وراء الطبيعة . فلما تقدم ، وزادت مداركه في أمور ما وراء الطبيعة ، تصور لهما قوى غير مُدْرَكة ، وروحاً ، وقدرة ، وصفات من الصفات التي تطلق على الآلهة . فخرجتا من صفتهما المادية البحتة ومن طبيعتهما المفهومة ، وصارتا مظهراً لقوى روحية لا يمكن ادراكها ، انما تدرك من أفعالها ومن أثرهما في هذا الكون[٢] .

واذا كانت هذه العبادة قد اقتصرت على الظواهر الطبيعية البارزة المؤثرة ، فإن هناك توسعاً

---

(١) في الأصل « ابونا Father ours » ، وقد أطلق « Howitt » الاصطلاح « All Father » عليه .
Howitt, Native Tribes of S. E. Australia, London, 1904, Making of Religion, London, 1898, Ency. Relig. Vol. , 6, PP. 243.

(٢) Schmidt, S. 232.

فى هذه العبادة نراه عند بعض الأقوام البدائية ، يصل الى حد تقديس الأحجار والأشجار والآبار والمياه وأمثال ذلك ، اذ تصوروا وجود قوى روحية كامنة فيها ، فعبدوها على أن لها أثراً خطير فى حياتهم . ونجد فى أساطير الشعوب البدائية أن الانسان من نسل الحيوان ومن الأشجار أيضاً ، كذلك نجد أمثلة عديدة من هذا القبيل فى أساطير اليونان والرومان والساميين .

وهناك الشرك ، وهو عبادة آلهة عديدة ، كما أن هناك عقيدة التوحيد التي تدين بوجود إلـه واحد خالق لهذا الكون . وليس للشرك بالطبع عدد معين من الآلهة ، فقد يكون بضعة آلهة ، وقـد يكون عشرات . والشرك هو الدين المعاكس لدين التوحيد ، ويعرف باسم « Polytheism » فى الانكليزية ، من كلمة « Polys » اليونانيـة ومعناهـا « كثير » و « تعدد » ، ومن كلمة يونانية ثانية هي « Theos » وتعني « الالـه »[1] . ويختلف الشرك عن عقيـدة الـ « Polydaemonism » القائلة بوجود الأرواح والجن من حيث الطبيعـة « Nature » كما يختلف عن أديان التوحيد « Monotheism » من حيث القول بتعدد الآلهة ، وعن القائلين بمبدأ « الحلول Pantheism » من حيث حلول الالـه فى الخلق والخلق فى الالـه[2] .

وتطلق فى العربية كلمة « إلـه » على الالـه الواحد ، وكلمة « آلهة » فى حالة الجمع ، أي فى حالة القول بوجود آلهة عـديدة . وتقابل كلمة « إلـه » كلمة « ايلوه eloah » فى العبرانيـة الواردة في سفر « أيوب » . ومنها كلمة « ايلوهيم Elohim » فى حالة الجمع ، أي آلهة المستعملة فى العهد القديم بالقياس الى آلهة الوثنيين[3] . وكلمة « الـه » لا تعني على كل حال الـها معيناً على نحو ما تعنيه لفظة « الله » فى العربية التى يراد بها الله الواحد الأحد ليس غير .

أما « الله » ، وهي كلمة الجلالة ، فهي « اسم علم » خاص به على رأي ، وهي « علم مرتجل » فى رأي آخر . وقد ذهب الرازي الى أنه من أصل سرياني أو عبراني . أما أهل الكوفة فرأوا أنه من « الـ الـه » ، أي من أداة التعريف « ال » ومن كلمة « الـه » . وهناك آراء لغوية أخرى

---

(١) Schmidt, S. 505.   (٢) Ency. Religi, Vol. . 10, P. 112.

(٣) Hebrew Lexicon, 42 . Ency. , II, P. 464. Hastings, P. 299. Ency. Religi. , Vol. , 6, P. 248, Ency. Biblica, III, Col. 3323.

فى أصل هذه اللفظة[١] .

ولم يعثر على لفظة « الله » فى نصوص المسند ، وإنما عثر فى النصوص الصفوية على هـذه الجملة : « فـ هـ ل هـ. » ، وتعني « فـ الله » أو « فيا الله » . و « الهـاء » الأولى هي أداة التعريف فى اللهجة الصفوية كما فى العبرانية ، وتقوم مقام « ال » فى لهجتنا . وقد وردت الجملة على صورة أخرى فى بعض الكتابات الصفوية . وردت على هذا الشكل : « فـ هـ ل ت » ، أي « فالات » « فيا الآت » أي فى حالة التأنيث . وتقـابل « اللات » ، وهي صنم مؤنث معروف ذكر كذلك فى القرآن الكريم[٢] .

ويظن بعض المستشرقين أن « الله » هو اسم صنم كان بمكة ، أو أنه « إلـه » أهل مكة ، بدليل ما يفهم من القرآن الكريم فى مخاطبته ومجادلته أهل مكة من إقرارهم بأن الله هو خالق هذا الكون[٣] . وأرى أن « الله » هو الالـه فى نظر من كان يدين بالتوحيد من العرب عند ظهور الاسلام . وقـد كانت هـذه العقيدة معروفة فى اليمن كذلك ، ظهرت فى الأيام القريبة من الاسلام .

وترد فى العربية كلمة أخرى من الكلمات المختصة بالخالق ، هي « ربّ » وجمعها « أرباب » . وهي من الكلمات العربية الجاهلية المذكورة بكثرة فى القرآن الكريم ، ولها معنى خاص فى اللاهوت وفى الأدب العربي النصراني . وتقـابل كلمة « Lord » فى الانكليزية[٤] . وكلمة « بعل » ، و « ادون Adon » فى اللغات السـامية الأخرى[٥] . ووردت كلمة « ربت » « ربّة » فى النصوص الفينيقية ، أي فى حالة التأنيث .

وتؤدي لفظة « ادونى Adonai » « أدون Adon » فى الأنبياء معنى « ربّ » بالطريقة المفهومة من علاقة السيد بالعبد ، أي علاقة الله بعبيده ، كما تؤدي معنى « بعل » بالمعنى المفهوم من

---

(١) الطبري : تفسير (١/٤٠) ، اللسان (١٧/٣٥٨) ، الكشاف (ص ٨) ، تفسير الرازي (١/٨٤ وما بعدها) ، البيضاوي (١/٤) طبعة « Fleisher » ، Ency., II, P. 464.

(٢) Ency. Relig., Vol., 6, P. 248.

(٣) Ency. Relig., 6, P. 248.

(٤) Ency. Relig., Vol., 6, P. 248. Ency., III, P. 1088.

(٥) Robertson, P. 68.

الزوجية في عربيتنا[1] . فهي في العبرانية في مراد « بعل » في عرف أهل اللغة عندنا .

وأما « بعل » ، فمعناها مالك وصاحب وربّ في اللهجات السامية[2] . فترد بعل الوضع الفلاني ، أي صاحب ذلك الوضع وربّه . ومؤنث الكلمة هو « بعلت » . وأما الجمع في العبرانية ، فهو « بعليم » ، أي أصحاب وأرباب ، فيقال مثلاً « بعليم » المدينة الفلانية ، أي أصحابها ومواطنوها الأحرار[3] . وترد كلمة « بعل » بمعنى زوج في العربية ، وقد وردت بهذا المعنى في مواضع من القرآن الكريم[4] ، وأما الزوجة ، فهي « بعلة » « بعلت » أي في حالة التأنيث .

ولما كانت لفظة بعل تعني الربّ والصاحب ، صار اسم الموضع يرد بعد « بعل » ، فيقال « بعل صور » و « بعل لبنان » و « بعل غمدان » ، أي رب المواضع المذكورة وسيدها . أما اذا وردت اللفظة مستقلة دون ذكر اسم الموضع المنسوب اليها بعدها ، فتعني عندئذ ربّ العباد ، أي رب المتعبدين المؤمنين[5] .

وقد ورد في القرآن الكريم في صدد الكلام عن الياس « Elijah » « وانّ إلياسَ لَمِنَ المرسلين . إذْ قال لقومِهِ : ألا تتّقون ؟ أتدْعُونَ بعلاً وتَذَرُونَ أحسنَ الخالقين ؟ »[6] . وقد ذهب الطبري في تفسير « بعل » في هذه الآية الى أن بعلا تعني ربّاً في لغة أهل اليمن ، أو أن المراد ببعل صنم[7] .

ومن رأي « روبرتسن سمث Robertson Smith » أن العرب اقتبسوا المعنى الديني لبعل من الأقوام السامية المجاورة لهم مثل سكان « طور سيناء » أو موضع آخر ، أخذوه من تلك الأقوام التي عرفت باشتغالها بالزراعة ، ولا سيما زراعة النخيل ، وأن هذا المعنى دخل اليهم

---

(1) Hastings. P. 299. (2) Ency., I, P. 610.

(3) Roberstson, P. 94.

(4) البقرة : الآية ٢٢٨ ، هود : الآية ٧٥ ، النور الآية ٣١ .

(5) Robertson, p. 94.

(6) الصافات (الآية ١٢٢ وما بعدها) . (7) تفسير الطبري (٢٣/٥٣) Ency., I, p. 610

بدخول زراعة النخل الى بلاد العرب ، وأنه استعمل عند العرب الزارعين . أما البدو والرعاة ، فإنهم لم يستخدموا تلك اللفظة بالمعنى المذكور [1] . وهو رأي يخالف رأى بعض المستشرقين من أمثال « نولدكه Noldeke » و « ولهوزن Wellhausen » الذين يرون أن عبادة « بعل » هي عبادة سامية قديمة كانت معروفة عند قدماء العرب كذلك منذ أقدم العهود [2] .

ويرى بعض المستشرقين أن لفظة « بعل » أطلقت خاصة على الأرض التي لا تعتمد فى زراعتها على الأمطار أو على وسائل الري الفنية ، بل على المياه الجوفية وعلى الرطوبة فى التربة ، فينبت فيها خير أنواع النخيل والأثمار ، فهي تمثل الخصب والنماء . والظاهر أن الساميين كانوا يخصصون أرضهم بالآلهة ، لتمن عليهم بالبركة واليمن ، فتكون فى حمى ذلك الإله « بعل الموضع الفلاني » . ومن هنا صارت جملة « بعل سميم » « بعل سمين » تعني « رب السماء » ، ويعني بذلك المطر الذي هو أهم واسطة من وسائط الإسقاء والخصب والنماء فى جزيرة العرب وفى البلاد التي يسكنها الساميون [3] . ورأى مستشرقون آخرون أن جملة : أرض « بعل » تعنى الأرض التي تسقى بالأمطار [4] .

ويجد الانسان اليوم سذاجة مضحكة فى بعض العقائد الدينية التي كانت عند الشعوب القديمة ، ويستصعب تصور اعتقاد الناس بها ، وهو ينسى أن هذه العقائد ، أو بعضها على الأقل ، لا تزال معروفة بين بعض قبائل إفريقية وأستراليا ، وأماكن أخرى من العالم ، وأن العقل الإنساني في تطور مستمر ، وأن هناك بشراً يؤمنون بعقائد ورثوها عن آبائهم لا تقل غرابة عن غرابة بعض المعتقدات التي نؤاخذ بها قدماء البشر .

قد يصعب على الانسان اليوم تصور وجود فائدة أو ضرر من أشياء جامدة لا يمكن قطعاً أن تضر أو أن تنفع ، ولكن أجدادنا القدماء تصوروه مع ذلك واعتقدوه . واذا قلت أجدادنا

---

(١) Robertson, pp. 97.

(٢) Noldeke, in ZDMG., Bd. 40, 1886, S. 174, Reste, S. 146, Handbuch I, S. 240.

(٣) Robertson, pp. 97, Ency. Religi., I, p. 664.

(٤) Reste, S. 146

القدماء ، فلست أعني أجدادنا في هذه البقعة التي نعيش بها من العالم ، وإنما أعني أجداد البشر كافة من حاميين وساميين وآريين وصفر ، ومن أي جنس آخر تكون وستكون له تسمية عند العلماء ، قدسوا الأحجار والأشجار والحيوانات ، وتدسوا الأرواح والآباء والأجداد ، وتعبدوا لها ، ولهذه العبادات أسماء علمية خاصة اصطلح على تسميتها العلماء .

ويقوم الدين على ركنين : إيمان ، وعمل . والعمل تابع للإيمان ، فهو شمائره ومظهره . وهو أبرز عند الأقوام البدائية من الإيمان لدرجة عقليتها ومجال تفكيرها الضيق . ومن هذه الشعائر الرقص والأفراح الدينية والسحر والقرابين والكهانة والمعابد والصلوات [١] .

وقد أقر الإسلام أشياء من أمور الدين كان يمارسها الجاهليون في جاهليتهم ، لأنها لا تتعارض مع مبادىء الإسلام . ودراسة أمثال هذه الأشياء توضح لنا نواحي خافية علينا في الزمن الحاضر من الحياة الدينية عند الجاهليين ، لذلك أرى من الضروري تتبع هذه الأشياء لتدوين تأريخ صحيح للدين عند الجاهليين . وأرى من الضروري كذلك تتبع الأساطير والعادات الموروثة التي لها صلة وعلاقة بالدين الجاهلي بين الأعراب والحضر في كل أصقاع جزيرة العرب ، ولا سيما القرى العربية النائية عن العمران المنعزلة عن الأعاجم ، فإن معظم هذه الأساطير والتقاليد هي من بقية الوثنية العربية القديمة ، بقيت جذورها ثابتة راسخة في الأفئدة حتى اليوم .

ولا بد أيضاً لدراسة الدين عند الجاهليين دراسة صحيحة من الرجوع الى أصول الأشياء ، وأعني بأصول الأشياء هنا ديانة الساميين الأولى بشكلها البدائي القديم . فمن تلك الشجرة تفرعت أديان الشعوب السامية ، وفي ذلك الدين نجد الأصول والأسس التي بنيت عليها الديانات الفروع .

أما كيف نتمكن من الرجوع الى الأصل ومن معرفة ديانة الساميين القديمة ، فموضوع ليس

---

(١) Ency. Brita., vol., 19. p. 108.

بالسهل اليسير ، ونحن ، وان كنا نملك بعض المؤلفات عن أديان الساميين مثل مؤلف « روبرتسن سمث Robertson Smith » عن ديانة الساميين [١] وأمثاله ، لا نستطيع أن نجرؤ فنقول إن البحث قد نضج فيه ، وإن القوم قد استوفوه من أطرافه وأكلوه ، بل أنا لا أستطيع أن أقول إن العلماء قد اتفقوا على ما أقره « روبرتسن سمث » وأمثاله وما توصلوا اليه من نتائج ، بل أستطيع أن أقول العكس ، وأن أدعي أن كثيراً مما تطرقوا اليه هو موضع جدل واختلاف ، وأننا لذلك لم نتوصل الى الآن من تقرير الشكل العام لديانات الساميين أو ديانتهم .

وللتوصل الى ذلك لا بد من دراسة النصوص الدينية السامية كلها ، ودراسة كل ما له صلة بالدين عند الساميين ، ومقارنة الأديان السامية بعضها ببعض ومراجعة الأصول اللغوية للمصطلحات الدينية عند جميع الشعوب السامية للتوصل منها الى الأسس العميقة المدفونة التي أقيم عليها بنيان ديانة الساميين . ثم لا بد أيضاً من دراسة المؤثرات الخارجية التي أثرت في الساميين من عوامل طبيعية ومن عوامل أخرى غير طبيعية ومن الأثر الثقافي الذي كان لغير الساميين في الساميين .

والتأريخ اليهودي هو التأريخ الوحيد الذي حفظ أسماء الأنبياء ، وسجل شيئاً من رسالاتهم الى بني قومهم ، وفيها تقريع لهم ولوم على خروجهم على تعاليم آبائهم وأجدادهم وعلى اتباعهم عبادة الأوثان متأثرين بمن اختلطوا بهم من شعوب . أما تأريخ الشعوب السامية الأخرى ، ومنها تأريخ العرب الجاهلي ، فلم يحدثنا عن أنبياء وعن زعماء قاموا في قومهم باداء رسالة سماوية ، أو بادعاء نزول الوحي عليهم قبل نزول الوحي على الرسول ، ولم تتحدث النصوص الجاهلية عن رسالة ما من هذا النوع .

ويتبين من دراسة الأساطير السامية وجود شكل من أشكال التوحيد « Henotheism » عندالقبائل السامية البدائية ، يتمثل في اعتقاد القبيلة بوجود إلـه لها واحد أعلى ، غير أن هذا لا يعني نفي اعتقادها بتعدد الآلهة . فاننا نرى أن تلك القبائل كانت تعتقد ، في الوقت نفسه ، بالأرواح

---

(١) Robertson Smith, Lectures on the Religion of the Semites. London 1894.

كأنها كائنات حيّة ذات أثر وسلطان فى مصير هذا الكون ، وفى ضمنه الانسان ، وبآلهة أخرى مساعدة للإله الكبير [1] .

والديانات الساميّة ، وان كانت فى الأصل من ديانة قديمة ، قد تطورت وتغيرت بعوامل عديدة من العوامل التي تؤثر فى كل المجتمعات البشرية فتحدث فيها انقلاباً فى التفكير وفى طراز الحياة . ومن هذه العوامل المؤثرات الخارجية والمحيط الجديد . وسنجد أن ديانة العرب الجنوبيين ، وإن كانت فى الأصل من تلك الديانة السامية القديمة بدليل وجود جذور الأفكار الدينية السامية الأصلية فيها مثل « ايل » وأمثال ذلك ، قد غيرت فى ديانتها ، وبدلت فى تصوراتها للآلهة ، حتى صارت في بعض معتقداتها على نقيض مع معتقدات الساميين الشماليين .

وهذا الجزء هو فى الحياة الدينية للعرب قبل الإسلام ، فليس من اختصاصه البحث فى الحياة الدينية عند جميع الساميين ، ولا البحث فى أصول الديانة السامية بحسبانها المنبع الذي استقى منه جميع الساميين أفكارهم الدينية . ولذلك سأقتصر فيه على ذكر الحياة الدينية للعرب الجاهليين ، إلا اذا احتاج البحث الى توضيح ومقارنة مع عقائد الشعوب الساميّة الأخرى ، فإن ذلك يضطرنا الى التوسع بعض الشيء ، والى التنقيب هنا وهناك لإيجاد ما يساعدنا على ايضاح الأمور التي تحتاج الى ايضاح .

والرأي المعروف بين الناس حتى الطبقة المتعلمة منهم ، أن العرب الجاهليين كانوا على جانب عظيم من الانحطاط الديني قبل الإسلام ، وأن تفكيرهم فى ذلك تفكير منحطّ لا يتجاوز تفكير القبائل البدائية . وهو رأي خاطىء تعرضت له سابقاً ، والقرآن الكريم يفنده . واذا كان ما يقولونه صحيحاً بالقياس الى بعض القبائل ، فإنه لا يصح أن يكون حكماً على الكل ، ولا سيما على المتحضرين وعلى من كان لهم اتصال بالعالم الخارجي .

---

(1) Ency. Religi. , 11. p. 383.

الفصل الثاني

عبادة الروح

لعلماء البحث فى تطور الأديان وفلسفتها مصطلحات أطلقوها على أنواع من العبادات هي صفحات مختلفة من صفحات كتاب الأديان ، منها : « Shamanism » و « Totemism » و « Fetishism » و « عبادة الأسلاف Ancestor - Worship » و « Animism »[1] ، وغيرها من مسميات سيرد الحديث عنها فى هذا الكتاب .

أما الـ « شمانية Shamanism » ، فقد أخذت من كلمة « شمن Shaman » ومعناها كاهن أو طبيب « شمان » ، أو من كلمة « شمن Shemen التي معناها « صنم » أو معبد ، أو من أصل آخر . فقد أطلقت على ديانة سكان المنطقة الممتدة من مضيق « برنك Bering » حتى حدود « اسكندنافية » ، ثم توسع فيها فقصد بها ديانة تعتقد بالشرك ، أي تعدد الآلهة « Polytheism » ، أو بعبادة الأرواح « Polydaemonism » مع عبادة الطبيعة « Nature - Worship » لاعتقادها بوجود أرواح كامنة فيها[2] . ويعتقد فى هذا الدين أيضاً بوجود آله أعلى هو فوق جميع هذه الأرواح والقوى المؤلهة . وبتأثير السحر[3] .

ويستعين الـ « شمن Shaman » ، وهو الكاهن أي رجل الدين ، بالقوى الخارقة التي لديه والتي لا يملكها الرجل الاعتيادي في اعتقاد أبناء هذا المذهب فى الاتصال بالأرواح وبما وراء الطبيعة للتأثير فيها . ولدى هذا الكاهن أرواح مأمورة بين يديه للقيام بما يطلب منها القيام به .

---

(١) A. A. Bowman, Studies in The Philosophy of Religion, London 1938 , p. 67.

(٢) Ency Relgi. Vol 11, p. 441. Schmidt, p. 571.

(٣) Ency. Relig. , Vol 11, p. 441.

وهو يمارس أعمالاً سحرية للتأثير في الأرواح (١) . فالسحر في هذا الدين أهمية ومقام . ويقوم الـ « شمن » عند أكثر المتدينين بهذا الدين بأعمال الطبيب .

وأما الـ « طوطمية Totemism » ، فهي من « Ototeman » ، وهي من لهجة قبيلة « Ojibwa » من هنود أمريكا (٢) . اشتق منها « لانك J. Lang » كلمة « Totem » ، ومنها أخـذ اصطلاح « طوطمية Totemism » (٣) الذي يعني اعتقاد جماعة بوجود صلة لهم بحيوان أو حيوانات تكون في نظرها مقدسـة ، ولذلك لا يجوز صيـدها أو ذبحها أو قتلها أو أكلها أو إلحاق أذى بها (٤) . وتشمل « الطوطمية » النباتات كذلك ، فلا يجوز لأفراد الجماعة التي تقدسـها قطعها أو الحاق الأذى بها . وقـد يتوسع بها فتشمل بعض مظاهر الطبيعة مثل المطر والشمس (٥) .

ويؤلف المتقدون بالطوطم جماعة تشعر بوجود روابط دموية بين أفرادها ، أي بوجود صلة رحم بينها . والرابط بينها هو ذلك الطوطم الذي تنتمي الجماعة اليه وتلتف حوله ، ليكون حاميها والدافع عنها في الملمات . ومن أصحاب هـذا المذهب من لا يذكر اسم الطوطم ، بل يُكنّي عنه . ويجوز أن يكون ذلك خوفاً منه ، أو احتراماً له . وقد يرسم له شعار تحمله الجماعة وأفرادها . ولها قوانين خاصـة وآراء في موضوع الزواج الذي تترتب عليه بالطبع قضية القرابة وصلات الرحم (٦) .

وللعلماء نظريات وآراء في الطوطمية . وهي منصبة في الأكثر على دراسة الناحية الاجتماعية

---

(١) Ency. , Religi. Vol. , 11. p. 441.

(٢) Ency. Relig. , Vol. . 9. p. 454, Peter Jones, History of The Ojebway Indians, London, 1861, Ency. Relig. , Vol. , 12, p. 393.

(٣) Voyages and Travels of an Indian interpreter and Trader, London, 1791.

(٤) Lang. Voyages, p, 87. Wesleyan, Journals of two Expeditions of Discovery in N. W. and W. Australia, London, 1841. II, 225, ff, , 391.

(٥) Ency. Relig. , Vol. , 12, p. 394.

(٦) Ency. Relig. , Vol. , 12, p, 394, J. Lubbach, Origin of Civilisation, 1905. A. Lang. The Secret of The tot. , 1905, Frazer. Totemism and exogamy, 4 Vol. , 1910, S, Freud, Totem and Tabu, 5 ed. 1934, Schmidt. S, 668.

منها ، من حيث كون « الطوطمية » نظاماً اجتماعياً يقوم على أساس مجتمع صغير مبني على العشيرة أو القبيلة . أما الدراسات الدينية للطوطمية ، فهي بعد هذه الدراسة من حيث التوسع والتبسط في الموضوع . وأكثر هذه الدراسات أيضاً عن قبائل هنود أمريكا الشمالية وعن قبائل استراليا ثم إفريقية أما أثر الطموطية عند الشعوب القديمة مثل اليونان والشعوب السامية فإن بحوث العلماء في المراحل الأولى من البحث ، وهي مستمدة بالطبع من الاشارات الواردة في الكتابات أو المؤلفات أو من دراسات الأسماء .

ومن أشهر أصحاب النظريات في موضوع الطوطمية « تيلر Sir E. B. Tylor »[1] و « فريزر Sir J. G. Frazer » ، وهذا الأخير يرفض نظرية الذاهبين الى أن الطوطمية في شكلها الأول هي ديانة ؛ لأن الطوطم لا يعبد كما يقول على صورة صنم[2] .

ومن أسماء الحيوانات التي تسمت بها البطون والعشائر : كلب ، وذئب ، ودبّ ، وسلحفاة ونسر ، وثعلب ، وهرّ ، وبطة ، وثور ، وغير ذلك من أسماء حيوانات تختلف بحسب اختلاف المحيط الذي تكون فيه عبدة الطواطم . يضاف الى ذلك أسماء أشجار ونباتات أخرى وطائفة من أسماء الأسماك . وقد ذكر « بطرس جونس Peter Jones » أربعين بطناً من بطون قبيلة الـ « Ojibwa » لها أسماء حيوانات[3] .

ونحن اذا أخذنا بهذه النظرية وقمنا بدراسة أسماء القبائل لمعرفة علاقتها بالحيوانات والنباتات ، نجد أن هناك طوائف عديدة من أسماء بطون وعشائر وقبائل هي أسماء حيوانات ، لا عند العرب وحدهم ، بل عند غيرهم من المجموعة السامية أيضاً . فـ « كلب Caleb » مثلا اسم قبيلة عند العرب وعند العبرانيين وعند غير العبرانيين ، كما إنه اسم علم لأشخاص . وقد ذكرت اسم « كلب » القبيلة العربية الشهيرة بني كلب بن وبرة ، كما ذكرت اسم بني كلب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة[4] . وهناك جملة بطون عرفت بـ « بني كلب » ، كما وردت كلمة « كليب »

---

(1) Tylor , Primitive Culture , Vol. , I , p. 402

(2) Bowman , p. 98 f.

(3) Ency. Relig. , Vol. 12, p. 394.

(4) المحبر (ص ١٧٨) .

علماً أيضاً وهي تصغير « كالب » .

وقد وردت لفظة « كلب Caleb » اسماً لأفراد كما وردت اسماً لبطن فى مواضع من التوراة [١] .
وتشير هذه التسمية الى « الطوطمية » عند العبرانيين [٢] .

وأما الـ « Fetishism » ، من كلمة « Feitico » البرتغالية المشتقة من أصل لاتيني هو « Factitius » بمعنى السحر ، أي القوى المؤثرة الخفية « Magic » [٣] ، فللباحثين فى تأريخ الأديان آراء متعددة فى تعريفها وفى تثبيت حدودها . والرأي الغالب الشائع بينهم أنها عبادة أو تقديس للأشياء المادية الجامدة التي لاحياة فيها لاعتقاد أصحابها بوجود قوة سحرية فيها ، وقوى غير منظورة فى تلك الأشياء تلازمها ملازمةً مؤقتة أو دائمة . ويحمل الـ « Fetish » لجلب السعد الى صاحبه . وهو في نظر « تيلور Dr Tylor » بمثابة « إلـه البيت » وقوة فاعلة خفية تطرد الخبائث عن صاحبه ، وتجلب الخير له . ولحدوث الأحلام ونشوئها فى نظر الأقوام البدائية دخل كبير فى رأي العلماء في ظهور هذه العقيدة [٤] .

وأصحاب هـذه العقيدة لا ينظرون الى تلك الأشياء المادية على أنها نفسـها ذات قوة فعّالة خفية ، وأنها الرمز أو الصورة للإلـه المنسوب ذلك الشيء اليه ، بل هم يرون أن تلك الأشياء ليست سوى منازل أو مواضع لاستقرار تلك القوى المؤثرة التي يكون لها دخل فى إسـعاد الانسان . وهو يقدس الأشياء المادية كالحجارة مهما كانت صغيرة أو كبيرة ، مهندمة ومصقولة صقلتها يد الإنسان ، ومستها أو لم تمسها يد ، بل كانت على نحو ما وجدها فى شكلها الطبيعي ؛ لأنه حينما يتقرب الى تلك الحجارة ، لا يتقرب اليها نفسها ، بل يتقرب الى الروح التي تحل فيها . فالروح هي المعبودة ، لا الحجر الذي تحلّ الروح فيه ، وليس الحجر أو المواد الأخرى إلا بيتاً أو فندقاً تحل الروح فيه .

---

(١) قاموس الكتاب المقدس (٢/٢٢٧) « مادة كالب » . (٢) Hastings . p. 109.

(٣) Schmidt , S. 182 , Ency. Religi . Vol. , V , P. 894.

(٤) Ency. Brita. , Vol. 9 , P. 202. f , Waitz , Anthropologie der Naturvolker , II , 174. Dr. Tylor , Primitve Culture , II . P. 143 ,

ولم يعبد الجاهليون الجماد ولم يتخذوا التمائم أو العُوَذ أو الرُّقى، ولم يحملوا كعب أرنب أو بعض العظام المعينة مثل سن ثعلب أو سن هرة، لاعتقادهم أن هـذه الأشياء تنفع في حدّ ذاتها. كلاّ، إنما حملوها لاعتقادهم أن فيها قوة سحرية عجيبة تنفع أصحابها، وتجلب اليمن السعد، وتطرد عنهم الأذى والحسد والمكاره[1].

أما عبادة الأسلاف «Ancestor Worship»، فهي فرع من أهم فروع الدين في نظر بعض العلماء، بل هي الأساس الذي قام عليه الدين في نظر آخرين ولا سيما عند «سبنسر «H. Spencer»[2]. وأما الأسباب التي دعت البشر الى هذه العبادة، فهي الحب والتقدير للأبطال والرؤساء والأمل في استمرار دفاعهم عنهم وحمايتهم للجماعة التي تنتمي اليها كما كانت تفعل في حياتها وردّ أذى الأعداء الأموات منهم والأحياء. فتمجيد الأبطال والخوف منهم، هو الذي حمل البشر على عبادة الأسلاف على رأي. وهناك من رأى أن تمجيد الأبطال والاشادة بذكرهم، هو الذي أوجد هذه العبادة، ومنهم من نسبها الى الخوف منهم حسب[3].

وسواء أكان منشأ هذه العبادة الحب والتقدير أو الخوف أو كلاهما، فإن أساس هذه العقيدة هو الإيمان ببقاء الروح، روح الميت؛ وأن بإمكان هذه الروح نفع الأحياء أو الحاق الأذى بهم. وهذه العقيدة هي التي حملت بعض الشعوب على مخاطبة الأرواح من فجوات مخصوصة في الأرض ومن مواضع أخرى لاستشارتها في بعض الأمور التي تهمها، وللتحدث معها في مسائل خطيرة كتقديم مشورة أو أخذ رأي أو استفسار عن اسم قاتل أو سارق. ولهذه الغاية اتخذت مواضع مقدسة «Oracle» يتقرب فيها الى الأرواح وللاستفسار منها. فكان في اليونان مثلاً موضع شهير عرف باسم «Thesprotia»، وموضع آخر عرف باسم «Phigalia» في «أركاديا «Arcadia»[4]. وكان في إيطاليا موضع للتنبيء يقع على بحيرة «أفيرونس «Avernus»[5].

---

(١) راجع عن بعض هذه العادات بلوغ الأرب (٢/٣١٥ وما بعدها)، الأساطير العربية قبل الاسلام: للدكتور محمد عبد المعيد خان (ص ٥٣ وما بعدها)، القاهرة ١٩٣٧. «والتميم جمع تميمة كالتمائم»، التاج (٨/٢١٣)، اللسان (١٤/٢٣٦).

(٢) Ency. Relig., I, p. 425, 427.

(٣) Jevons, Introduction to History of Religion, P. 54.

(٤) Herodotus, V, 92. Pausanus, III, 17, 8, 9.

(٥) Diodorus, IV 22. Strabo, 5, 244.

وكانت العادة في هذا الموضع أن يتقرب الراغبون في استشارة الأرواح الى الموضع المقدس بتقديم ضحية ، وعندئذ ينام السائل في الموضع المقدس ، فتظهر له الروح في المنام ، فتحدثه بما يحتاج اليه[1] .

ويظن أن لعبادة السلف علاقة بالطوطمية . ولكن ما هذه العلاقة ، وكيف نشأت ، ومن من العقيدتين سبقت الأخرى ؟ هذه أسئلة لم يتفق على أجوبتها حتى الآن . وللباحثين في أمثال هذه الموضوعات آراء[2] . كذلك لعبادة السلف علاقة بعبادة الأصنام (Idôlatry) . ويلاحظ أن عبادة السلف تقود أتباعها في بعض الأحيان الى الاعتقاد بأن قبيلتهم تنتمي الى صلب جد واحد ، أصله حيوان في رأي الأكثرين ، أو من النجوم في بعض الأحيان . وهذا ما يجعل هذه العقيدة قريبة من « الطوطمية »[3] .

ولهذه العبادة أثر كبير في نظام أصحابها الاجتماعي ، اذ هي تربط الأجيال الحاضرة بالأجيال الماضية بروابط متينة ، وتؤلف من أصحاب هذا المذهب وحدة قوية ، كما أن لها أثراً مهما في الأسرة ، فهي في الواقع عبادة تخص الأسرة قبل كل شيء[4] .

وللعلماء في منشأ عبادة السلف وظهورها عند الساميين نظريات متباينة[5] ، ومهما كان من شأن هذه النظريات فإن عبادة السلف كانت معروفة عند الساميين مثل البابليين والعبرانيين . أما العرب ، فإن معارفنا من هذه العبادة عندهم قليلة ، غير أننا نستطيع أن نستنتج من أمر النبي بتسوية القبور ونهيه عن اتخاذها مساجدَ ومواضع للصلاة أن الجاهليين كانوا يعبدون أرواح أصحاب هذه القبور . ولعل في عبارة « قبر ونفس » أو « نفس وقبر » الواردة في بعض النصوص الجاهلية ما يؤيد هذا الرأي ، فإن النفس هي الروح .

ومن آثار عبادة السلف عند العلماء حلق الرأس واحداث جروح في الجسد واحتفالات دفن

---

(١) Ency. Religi., 1, p. 428.

(٢) Ency. Religi.. Vol., I, p. 430, Crooke, Popular Religion. I, 179, Wilken, Het Animisme bij de Volken Vanden Indischen Archipel, 1884 - 1885, I, 74. ff.

(٣) Ency. Religi., I. p. 536.

(٤) Tylor, primitive Culture e's, 1891, Ency. Relig., Vol., I, p. 432.

(٥) Ency. Religi. I, p. 437.

الموتى ولبس المسوح والعناية بالقبور والصلاة عليها أو إقامة شعائر دينية فوقها أو علامات خاصة بالميت أو الموتى للتقديس[1] . ونحن اذا استعرضنا روايات الأخباريين نجد آثار هـــذه عند الجاهليين .

وأما الـ « Animism » ، فهو اعتقاد بوجود أرواح مؤثرة فى الطبيعه كلها « Nature »[2] ، ولذلك يؤله كثيراً من المظاهر الطبيعية المرئية وغير المرئية منها ، لاعتقاده بوجود قوى هي فوق الطبيعة ، منها ما يكون فى جسم ، وهو « النفس Souls » ؛ ومنها ما لا يكون فى الأجسام وهو « الروح Spirit » .

ويمكن تقسيم هذه العبادة الى ثلاثة أصناف : عبادة النفس ، نفس الانسان أو الحيوان وخاصة منها عبادة الأموات « Necrolatry » ، وعبادة الأرواح « Spiritism » ، وعبـادة الأرواح التي تحل فى المظاهر الطبيعية إما بصورة مؤقتة وإما بصورة دائمة « Naturism »[3] .

والآراء فى هذه المعتقدات لا تزال فى مراحلها الأولى ، وهي موضع جدل بين العلمـاء ، لأنها قائمة على أساس الملاحظات والتجارب التي حصلوا عليها من دراساتهم لأحوال المجتمعات البدائيه لهنود أمريكا ولقبائل افريقية واسترالية ، ولا يمكن بالطبع حدوث اتفاق فى الدراسات الاستقصائية المبنية على المشاهدات والملاحظات . وإذ كانت هـذه الدراسات غير مستقرة وغير نهائية حتى الآن ، فقد صعب بالطبع تطبيقها على معتقدات العرب قبل الاسلام ، وزاد في هذه الصعوبة قلة معلوماتنا فى هذه الأمور . وليس من الممكن فى نظري أن نتوصل الى نتائج علمية غير قابلة للأخذ والردّ في هذه الموضوعات فى الزمن الحاضر ، بل ولا فى المستقبل القريب ، مالم يحدث ما ليس فى الحسبان ، من العثور على نصوص دينية تكشف لنا عن عقائد الجاهليين .

ونستطيع أن نقول إجمالا إن من الجاهليين من كان يدين بعبادة الأرواح على اختلاف طرقها ، ويؤمن بأثرها . وللعلماء من مفسرين ولغويين وغيرهم تفاسير عديدة للروح ، تفيدنا

---

(1) Hastings, p. 300, Ency Religi. 7, pp. 325, „Ancestor-Worship "

(2) Schmidt, S. 24, f. (3) Ency. Religi. I, p. 535.

كثيراً في معرفة آراء الجاهليين عنها ، كما أن للاخباريين قصصاً عنها وعن استقلالها وانفصالها عن الجسد بعد الموت واتصالها بالقبر ورفرفتها فوقه اذا صاحبها رجلا مقتولا ، لم يؤخذ بثأره .
ونحن لا نستطيع بالطبع أن نقول بالتعميم ، أي بشيوع مذهب واحد مثلاً من مذاهب القول بعبادة الروح بين جميع العرب ، فلم يكن للعرب مجتمع واحد ولا حكومة واحدة ذات عقيدة واحدة ، بل كانوا كما قلت سابقاً أهل وبر وأهل مدر . وأهل الوبر قبائل ، كل قبيلة مجتمع خاص قائم بذاته ، له أصنامه وعقائده ، وإن كنّا لا نستطيع نكران تأثير عقائد هذه القبائل بعضها في بعض بالجوار والاتصال والحروب وأمثال ذلك . وأهل المدر هم سكان مدن وقرى . ثم إن أكثر هذه الأخبار التي يرويها الأخباريون مما يتعلق بالعقائد الدينية تخص قبائل الحجاز والقسم المتصل من اليمن بالحجاز ونجد الغربية . أما العربية الجنوبية والشرقية ، فمعارف أهل الأخبار عنها قليلة ، فاستنتاجاتنا في هذه الأمور هي عن هذه المواضع في الأكثر .

أما كيف تصور الجاهليون الروح ، وكيف عرفوها ، فنحن لا نستطيع تبيان ذلك ، لعدم وجود نص جاهلي لدينا يشرح لنا هذا الموضوع . ولكن الذي يستنتج من القرآن الكريم ومن أخبار الرواة أنهم تصوروها شيئاً مخالفاً للجسم ، أي للمادة ، وأن الروح ما به حياة الأنفس[1] . وهي مثل النسيم أو الهواء من حيث عدم امكان رؤيته . وقد كان موضوع الروح في جملة المسائل التي أراد اليهود امتحان الرسول واحراجه بها ، فنزل الوحي : « ويسألونك عن الروح . قل : الروح من أمر ربيّ ، وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلا »[2] . ويشير هذا السؤال الى اهتمام القوم من يهود ومن غيرهم في ذلك الزمن بقضية الروح .

وقد تصور بعض العرب « النفس طائراً ينبسط في الجسم ، فاذا مات الانسان أو قتل لم يزل يطيف به مستوحشاً يصدح على قبره » . وكانوا « يزعمون أن هذا الطائر يكون صغيراً ، ثم يكبر حتى يكون كضرب من البوم ، وهو أبداً مستوحش ، ويوجد في الديار المعطلة ومصارع

---

(١) القاموس (٢٢٤/١) ، اللسان (٢٨٩/٣) ، تاج العروس (١٤٧/٢) .
(٢) الإسراء : الآية ٨٥ ، جامع البيان (١٠٤/١٥) .

القتلى والقبور ، وأنها - أي النفس - لم تزل عند ولد الميت وخلفه لتعلم ما يكون بعده فتخبره »[1] . وقصد بالنفس هنا روح الميت التي قد يخلط بينها وبين الجن .

ويظهر من شعر لـ « شداد بن الأسود بن عبد شمس بن مالك يرثي به صرعى قريش يوم بدر أن عقيدته وعقيدة المشركين أن الإنسان اذا مات أو قتل اجتمع دم الدماغ أو أجزاء منه ، فانتصب طيراً هامة ، ترجع الى رأس القبر كل مئة سنة »[2] . وهناك أبيات عديدة لشعراء جاهليين واسلاميين تؤيد اعتقاد الجاهليين الوثنيين بذلك . وقد ورد في روايات الأخباريين أن « العرب تزعم أن روح القتيل الذي لم يدرك بثأره تصير هامة ، فتزقو عند قبره ، تقول : إسقوني ، إسقوني . فإذا أدرك بثأره ، طارت »[3] . وورد أيضاً أن العرب كانت ترى أن ارواح الموتى تصير هامة فتطير . وقيل : بل عظام الموتى . وذكر أن الطائر الذي يخرج من هامة الميت ، هو الصدى .

ومن معاني كلمة « الهامة » عند اللغويين الرأس أو الجزء المقدم منه أو بعض أجزائه ، ذكرها أصحاب المعجمات ، لا تهمنا حدودها ، إنما الذي يهمنا من التحديد أنهم قصدوا رأس الانسان كله أو بعضه . ومن معانيها عندهم كذلك أنها طير من طير الليل ، أو طائر صغير يألف المقابر ، أو البومة الطائر المعروف[4] . ولكل هذه المعاني صلة مباشرة بأسطورة الجاهليين وقصصهم عن الروح .

وترد مع هذه الأسطورة أسطورة أخرى ، تتعلق بحياة الانسان بعد الموت ، هي أن بعض الجاهليين كانوا يعقلون ناقة عند قبر صاحبها ويتركونها حتى تبلى ، وتسمى لذلك البليّة ؛ وكانوا يزعمون أن صاحبها يركبها يوم القيامة ، ولا يمشي الى المحشر[5] . وفي هذا المعنى يقول جريبة بن أشيم :

---

(١) بلوغ الأرب (٢/٣١١) . (٢) بلوغ الأرب (٢/١٩٩ ، ٣١١) .
(٣) القاموس (٤/١٩٣) ، اللسان (١٦/١٠٨) ، تاج العروس (٩/١١٢) .
(٤) اللسان (١٦/١٠٨) ، تاج العروس (٩/١١٢) .
(٥) القاموس (٤/٣٠٥) .

وَلَقَلٌ لي ممــا جعلت مطيّــة في الهام أركبها إذا ما رُكّبوا [1]

وطريقتهم فى ذلك أن الكريم الرئيس منهم اذا مات ، بلوا ناقته ، فمكسوا عنقهـا الى مؤخرها مما يلي ظهرهـا ، أو مما يلي كلكها أو بطنها ، ويأخذون ولية فيشدون وسطها ، ويقلدونها عنق الناقه ، ويتركون الناقة فى حفيرة لا تطعم ولا تسقى حتى تموت ، وربما أحرقت بعد موتها ، وربما سلخت وملىء جلدها ثماماً [2] .

ولأسطورة الهامة صلة بأسطورة الصدى . والصدى هو طائر يخرج من رأس المقتول إذا بَلِيَ . وقيل : هو الهامة ، أو ذكر البومة ، أي مذكر الهامة . وقد كانت العرب تقول : الصدى فى الهامة ، والسمع فى الدماغ [3] . والظاهر أن الهامة والصدى من أسطورة واحدة . وقد فرق بينهما بُعْدُ زمن الأسطورة عن الأخباريين .

وقد نهى الرســـول عن الاعتقاد بهذه الأساطير فقال : « لا عدوى ، ولا هامة . ولا صفر » [4] .

وبهذه العقيدة الجاهلية ورد فى شعر أبى دُواد :

سلّط الموت والمنون عليهم فلهم فى صدى المقابر هام [5]

وكذلك فى شعر للشاعر لبيد :

فليس الناسُ بعدَكَ فى نقيرٍ وليسوا غير أصداء وهام [6]

وذكر بعض العلماء أن المراد من « صفر » فى الحديث النبوي المذكور دابة يقال إنها أعدى من الجرب عند العرب ، فأبطل النبي أنهـا تعدى . وقال بعض آخر أراد به النسيء الذي كانوا يفعلونه فى الجاهليــة ، وهو تأخيرهم المحرم الى صفر فى تحريمـه وجعل صفر هو الشهر الحرام ، فأبطله الرسول [7] .

---

(١) تاج العروس (٩/١١٢) (٩/٤٣ وما بعدها) ، « حربية بن الأشيم الفقعسي » ، بلوغ الأرب (٢/٣٠٧) .

(٢) بلوغ الأرب (٢/٣٠٧ وما بعدها) . اللسان (١٨/٩٢) .

(٣) القاموس (٤/٣٥١) ، اللسان (١٩/١٨٦) ، تاج العروس (١٠/٢٠٧) .

(٤) الموارد المذكورة .

(٥) التاج (١٠/٢٠٧) ، اللسان (١٩/١٨٦) . (٦) اللسان (١٩/١٨٦) .

(٧) اللسان (٦/١٣٣) .

ويظهر من مخاطبات الوثنيين للأصنام كأنهم كانوا يتصورون أن لها روحاً وأنها تسمع وتجيب . وقد ورد في رواية لابن الكلبي عن مالك بن حارثة أن والد مالك هذا كان يعطيه اللبن، ويكلفه بأن يذهب به الى الصنم ودّ ليسقيه، فكان مالك يشربه سراً ويخل به على صنمه[1]، كما ورد أن المشركين كانوا يرون أن الشمس ملك من الملائكة ذات نفس وعقل[2] .

ويتبين من تشديد النبي في تسوية القبور مع الأرض كما أشرت الى ذلك قبل قليل، ومن لعن المتخذين على القبور المساجد والسُرُج، ومن النهي عن الصلاة الى القبور، ومن حديث: «اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[3]، أن المشركين كانوا يقدسون قبور أسلافهم، ويتعبدون لها على طريقة عبادة السلف، ولهذا حاربها الرسول، وأمر بتسوية القبور، كما أمر بطمس التماثيل .

وللأرواح قدرة على الظهور للانسان بأشكال مختلفة . وقد تحل على رأيهم في بعض الحيوانات . ومن هنا ظهرت على ما أظن ــ عقيدة التشاؤم والتفاؤل والخوف من بعض الحيوانات ــ ولدينا قائمة بأسماء عدد من الحيوانات تفاءل وتشاءم أو خاف منها العرب قبل الإسلام : فالغراب والديك والبومة والغول والحيّات والسعالي والعفاريت وأمثال ذلك، هي حيوانات لها أثر في حياة الانسان، تجلب له الخير أو الشر، كما أن بعضها هي جنّ في هيأة حيوان، ولا سيما الحيّات التي يروي الناس عنها قصصاً في هذا الباب[4] .

وتحل الأرواح أيضاً في بعض الأشجار . ولهذا السبب نظر اليها الانسان نظرة تقديس، وأعرض عن إلحاق الأذى بها، أو قطعها خوفاً من انتقام الروح الحالة بها منه . وهناك روايات تشير الى هذه العقيده والى شعور هذه الأشجار بما يقال لها أو يطلب منها كشعور الانسان[5].

والملائكه هم روحانيون، أي من أرواح في نظر أهل الجاهليـــة . ويدل ورود الملائكة في

---

(١) بلوغ الأرب (٢/٢١٤) . (٢) بلوغ الأرب (٢/٢١٥) .
(٣) بلوغ الأرب (٢/٢١٤) . (٤) Reste, S. 153.
(٥) عجائب المخلوقات (ص ٢٣١)، الدكتور محمد عبد المعيد خان : الأساطير العربيـة قبل الاسـلام . (القاهرة ١٩٣٧) (ص ٥١) .

مواضع عديدة من القرآن الكريم ومن الآيات التي تشير الى مجادلة المشركين ومحادثتهم للرسول في الملائكة ، أن فكرة الملائكة كانت معروفة شائعة بينهم ، وأن بعض العرب كانوا يعبدونها ، كما يظهر ذلك من الآية : « ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة : أهؤلاء إيّاكم كانوا يعبدون ؟ قالوا : سبحانك أنت وليّنا من دونهم ، بل كانوا يعبُدُون الجنّ ، أكثرهم بهم مؤمنون »[1] .

وللغويين والمفسرين آراء في كلة « ملك » و « ملائكة » من حيث أنها عربية أصيلة أو أعجمية معرّبة[2] . والذي نعرفه أنها لم ترد في النصوص الجاهلية حتى الآن ، ولكن عدم ورودها في نص جاهلي لا يكون حجة لادّعاء أنها غيرعربية ، وأن العرب أخذوها من العبرانيين أو السريان أو غيرهم ، فالعرب هم من هذه السلالة التي استعملت الكلمة . ولا يمكن الحكم باقتصار الاستعمال لهذه الكلمة لفريق دون فريق ، مع القول بأنها سامية الأصل وأنها من الألفاظ السامية القديمة ، وأنها « ملأك ، ملئخ » « Mal'akh » في الأصل بمعنى « رسول» . وقد استعملت في الكنعانية والفينيقية والعبرانية[3] .

ويظهر من القرآن الكريم أن القائلين بعبادة الملائكة كانوا يرون أنها بنات الله وأنها إناث[4] . وهذه العقيدة هي عكس العقيدة التي كانت عند العبرانيين حيث تصوروا أن الملائكة هم أبناء الله كما يستنتج ذلك من تعبير « بني ايلوهيم Bene 'elohim » الوارد في العهد القديم[5] ، ومعناه « بنو الله » « أبناء الله »[6] .

ويفهم من القرآن الكريم أيضاً أن من العرب من كان يعبد الجنّ « قالوا : سبحانك ،

---

(١) سبأ : الآية ٤٠ـ٤١ .

(٢) جامع البيان (١/١٥٠) ، اللسان (١٢/٢٧٢) ، المعري : رسالة الملائكة (ص ٥) تحقيق (محمد سليم الجندي) دمشق ١٩٤٤ .

(٣) Ency. , III , P. 189

(٤) الصافات : الآية ١٤٩ وما بعدها ، الاسراء : الآية ٤٠ ، الزخرف : الآية ١٥ وما بعدها .

(٥) التكوين : الاصحاح السادس ، الآية ٢ وما بعدها .

(٦) Hastings, p. 31.

أنت ولينا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجنّ ، أكثرهم بهم مؤمنون » [1] ، وأن منهم من كان يرى وجود نسب بينهم وبين الله نشأ من المصاهرة « وجعلوا بينه وبين الجِنّة نسباً . ولقد علمت الجِنّةُ انهم لمحضرون » [2] . وورد أن الله تزوج الجنّ ، وأن الملائكة هم بناته من هذا الزواج [3] . وتقابل لفظة « جن » « الجن » لفظة « Demons » فى الانكليزية [4] .

وليس لدى المفسرين أو أهل الأخبار علم واضح عن كيفية اعتقاد العرب بألوهية الجن وبمصاهرتها للآلهة أو الإله . وما ورد عن ذلك فى القرآن الكريم ، مجمل . والظاهر أن ذاكرة الأخباريين لم تتمكن من حفظ تفاصيل هذه العقيدة والعقائد المماثلة الأخرى ، فأضاعت علينا أشياء مهمة كثيرة نحن فى حاجة ماسة اليها لمعرفة أديان العرب وعقائدهم قبل الاسلام .

وأهم مواطن الجنّ فى نظر الجاهليين ، هي المواضع الموحشة ، والأماكن التي لا تطرق إلا نادراً والمحلات التي لا تلائم الصحة . وقد ورد أسماء بعضها مثل « برهوت » و « يبرين » و « صيهد » وغيرها [5] .

وقد زعم أن « يبرين » كانت فى الأصل مواضع عاد . فلما هلكت ، سكنتها الجن . وقد ورد مثل هذه الأقوال عن مواضع أخرى كانت عامرة آهلة ، ثم أقفرت ، مثل الحجر موضع ديار ثمود [6] ، مما يدل على أن من اعتقادات العرب قبل الاسلام هو أن المواضع التي تصيبها

---

(١) سبأ : الآية ٤١ ، « وجعلوا لله شركاء الجن ، وخلقهم ، وخرقوا له بنين وبنات بغير علم » ، الأنعام الآية ١٠٠ ، بلوغ الأرب (٢/٢٣٣) محمد عزة دروزة عصر النبي (ص ٢٣١) الكشاف (٢/٣١) . راجع كتب التفسير عن معنى هذه الآيات .

(٢) الصافات الآية ١٥٨ .

(٣) « وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن مجاهد . قال : قال كبار قريش : الملائكة بنات الله . فقال لهم أبو بكر الصديق : فمن أمهاتهم ؟ قالوا : بنات سراة الجن » ، لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي : حاشية على تفسير الجلالين (٢/٨١ وما بعدها) « طبع المطبعة المليجية » .

(٤) Ency . Religi . I . p. 669, Ency. . II . p. 1045 . Van Vloten : in Wiener Zeitschr. fur Kunde des Morgenl., Bd. , VII . VIII.

(٥) Reste . S. 150 . Ency. Religi . I . p. 669.

(٦) Reste . S. 150.

الكوارث تكون بعد هلاك أصحابها مواطن للجن . ونجد مثل هذه الأساطير عند العبرانيين ، وعند غيرهم من الشعوب[1] .

وكما اختارت الجن المواضع الموحشة والأماكن المقفرة والبعيدة مساكن لها ، كذلك اختارت الظلام وقتاً لظهورها . فإذا انبلج الصبح ، ولت ، واختفت . وقد ورد أن المسافرين ليلاً في مثل هذه المواضع المأهولة بالأرواح كانوا يحيّونها بقولهم « عموا ظلاماً »[2] يقولونها خوفاً ورهبة من الجن واستجلاباً لعطفها عليهم ، فلا تمسهم بسوء .

كذلك سكنت الجن المواضع المظلمة من الأرض والفجوات العميقة فيها وباطن الأرض ، ولذلك قيل لها : ساكنو الأرض[3] ، كما سكنت المقابر . والمقابر هي من المواضع الرئيسة المهمة المأهولة بالجن ، ولذلك يخشى كثير من الناس ارتيادها ليلاً . وهي لابد أن تكون على هذه الصفة ، فهي مواطن الموتى ، وأرواح الموتى تطوف على القبور ، والهامة ترفرف على قبر القتيل ، والموت نفسه شيء مخيف ، والجن أنفسها أرواح مخيفة ، فهل يوجد موضع أنسب من هذا الموضع لسكنى الجن ؟

والمواضع المذكورة هي المواضع المفضلة المختارة لسكنى الجن ، غير أن مواطن الجنّ غير محدودة ولا معينة ، إنها تسكن في كل موضع ومكان ، حتى بيوت الناس لا تخلو منها ، بل حتى البحار والسماء لا تخلو منها كذلك ، فدولتها اذن على هذا الوصف أوسع وأشمل من دولة الإنسان . إنها شعوب وقبائل وفصائل مثل الإنسان ، ولها ملوك ورؤساء وحكاّم . ومنها المؤذون ومنها الطيبون . فعلى الإنسان أن يفتش عن الطيبين منها وأن يسترضيهم لئلا يصيبه من هذه الأرواح شر ومكروه .

وطالما فسر حدوث العواصف والزوابع بفعل الجن . وقد تتقاتل طوائف منها فيثير قتالها عواصف الغبار . ونجد هذه الفكرة فكرة احداث الرياح والعواصف مدونة في المزامير[4] ، أي

---

(1) Robertson P. 120. (2) Reste S. 151.

(3) Reste. S. 151. (4) المزمور ١٠٤ ، الآية الرابعة ، Reste. S. 151.

أنها كانت معروفة كذلك عند العبرانيين .

ولما كانت المواضع المذكورة مخطرة مرعبة ، تبعث الفزع والخوف والملل في نفوس من يضطر الى اجتيازها والدخول اليها ، كان من الطبيعي القول بأنها تسكنها الجن ذوات الطبائع الخبيثة المؤذية ، فهي ترعب وتؤذي ، فصار الناس في الجاهلية يخشونها ويتجنبون التقرب من مواضعها . ولكن هـذا لا يعني عدم ورود أخبار عن اعتقاد الجاهليين بوجود بعض الجن الصالحين النافعين[1] .

والجن وان كانت مثل الملائكة من الأرواح أي أنها غير منظورة ، يرينا القصص القديم أن العرب كانوا يعتقدون بامكان رؤيتها ومخاطبتها والتزوج منها ، وهي تتمثل عندهم في الغالب في صور حيوانات وخاصة في أشكال حيوانات مشعرة أي ذات شعر كثيف[2] . ومعنى هذا أنها لم تكن في نظرهم أرواحاً خالصة ، إنما في استطاعتها أن تتجسم متى شاءت . فتظهر على هيئة جسم من الأجسام . اذ أن للجن قدرة على التشكل بالشكل الذي تريده ، تظهر في صورة حيوان أو في صورة انسان أو غير ذلك . ومن هنا نجد قصص مصاهرة الانسان للجن ، وظهور نسل وأسر من هذا الزواج . وفي استطاعتها بالطبع تغيير الشكل الذي ظهرت به بشكل آخر حيث تشاء[3] . ومن هنا تختلف طبيعتها عن طبيعة البشر والحيوان .

وصورة الجاهليين هذه مستمدة من الصورة العامة التي رسمتها مخيلة الشعوب السامية عن الجن . فالجن عنـد تلك الشعوب ذات شعر كثيف كذلك « سعريم Se'irim » تختار الأماكن الموحشة القفرة في الظلام ، مثل رهبان الليل « ليليث Lilith » ، وتذهب مع الحيوانات التي تنفر من الانسان مثل النعامة[4] .

وتتألف الجن من عشائر وقبائل ، تربط بينها رابطة القربى وصلة الرحم . ولبعض هـذه

---

(١) Ency. Religi. I, P. 669.

(٢) Reste. S. 151. f. , Robertson, p. 120. Ency. Religi. I, P. 669.

(٣) Robertson, p. 120.

(٤) Robertson, p. 120, B. C. Thompson, Semitic Magic, London 1908, p. 57.

القبائل أسماء ذكرها الأخباريون [1] ، كما أن لها ملوكاً وحكاماً . فهي في حياتها تحيا على شكل نظام حياة الانسان . واذا اعتدى معتد على جان انتقمت قبيلته كلها من المعتدي أو المعتدين . فبين الجن اذن عصبية شديدة على نحو ما نراه في عصبية القبائل ودفاعها عن المنتسبين اليها ومن ارتبط بها بجوار [2] .

ويذكر الرواة قصصاً عن الجن مع الانسان . يذكرون أن « تأبط شراً » رفع كبشاً تحت إبطه ، وأخذه معه الى الحيّ ، فصار يبول عليه في الطريق ، حتى إذا قرب من مكانه ، ثقل عليه ، فرمى به ، فإذا هو الغول [3] . ويذكرون أن ابن امرأة من الجن أراد الحج في الجاهلية ، فخافت عليه أمه من سفهاء قريش ، ولكنه ألحّ عليها بأن تسمح له بالذهاب . فلما أكمل الطواف ، وصار ببعض دور بني سهم ، عرض له شاب منهم فقتله ، فثارت غبرة شديدة بمكة ، ومات من بني سهم خلق كثير قتلهم الجن انتقاماً منهم لمقتل الجان . فنهضت بنو سهم وحلفاؤها ومواليها وعبيدها ، فركبوا الجبال والشعاب بالثنية ، فما تركوا حيّة ولا عقرباً ولا عضاية ولا خنفساء ولا شيئاً من الهوامّ يدبّ على وجه الأرض إلاّ قتلوه ، حتى ضجت الجنّ ، فصاح صائحهم من على أبي قبيس يطلب وساطة قريش بينهم وبين بني سهم الذين قتلوا منهم أضعاف ما قتله الجن من بني سهم ، فتوسطت قريش ، وأنهى النزاع ، وتغلبت على الجن [4] .

والجن مثل البشر ، يعتدون كذلك ، ولا يردعهم عن اعتدائهم إلا القوة . هذا رجل من بني سهم يقصّ علينا في الاسلام أنه كان بـ « تَبالَةَ » يراجع نخلاً له ، وبين يديه جارية له ، فصرعت ، فأدرك أن الجن هم الذين صرعوها ، فوقف عليها قائلا : يا معشر الجنّ ! أنا رجل من بني سهم ، وقد علمتم ما كان بيننا وبينكم في الجاهلية من الحرب وما صرنا اليه من الصلح والعهد والميثاق أن لا يغدر بعضنا ببعض ، ولا يعود الى مكروه صاحبه ، فان وفيتم وفينا ، وان

---

(1) Robertson, p. 127. (2) Reste, S. 149.

(3) الأغاني (١٨/ ٢١٠ وما بعدها) ، Reste, S. 154.

(4) الأزرقي (٢/ ١١ وما بعدها) « طبعة المطبعة الماجدية » بمكة . Ency. Religi. , I, p. 669.

غدرتم عدنا الى ما تعرفون . فخافت الجن من هـذا التهديد ، وأفاقت الجارية ، ولم يصبها بعد ذلك مكروه [1].

وقـد يسرق الجن الأطفال والرجال والنساء [2] ؛ وللأخباريين أمثلة يروونها في ذلك . وينسب فقدان الأشخاص في البوادي إلى الجن في الغالب [3] . غير أنها قد تنفع الأشخاص أيضاً ؛ لأن من الجن من هو طيب النفس ، مفيد نافع ، ولا سيما اذا ما تقرب اليها الانسان ، وأحسن اليها . رأي الشاعر عَبيد بن الأبرص حيّة ، فسقاها . فلما ضل جمل له وتاه ، نادى هاتف بصوت مسموع سمعه عَبيدُ بن الأبرص مشيراً الى الموضع الذي ذهب الجمل اليه . فذهب عَبيدٌ الى المكان ، وجاء بجمله [4] . وكان هذا الهاتف هو صوت الحيّة التي هي جان من الجن .

وتقوم الجن بأعمالها بشكل غير منظور في الغالب ؛ لأنها أرواح . وهي قد تحذر الانسان أو ترشده الى شيء يريده بصوت جهوري مسموع ، يقال له : الهاتف ، دون أن يرى الشخص أو الأشخاص صاحب ذلك الصوت . وهي تنبيء عن المستقبل كما تتحدث عن الماضي .

وقد يتصاهر الانسان مع الجن ، فقد كان لعمرو بن يربوع بن حنظلة التميمي مثلا زوج من الجن ، ولكنها لم تبق معه ، بل اختفت بعد ذلك عند ظهور البرق [5] . ونسبت بعض الأسر والقبائل مثل بني مالك وبني شيصبان وبني يربوع بن حنظلة وعرفوا ببني السعلاة الى الجن [6] . ونجد مثل هـذه الأقاصيص عند غير العرب أيضاً ، ففي العهد القديم أن أصل الانسان من الحيّة ، والحيّة هي من الجن . ويرجع الاحباش نسب أسرتهم الحاكمة الى الحيّة كذلك [7] . وينسب بعض الأخباريين نسب بلقيس وذي القرنين الى الجن [8] .

---

(١) الأزرقي (٢/١٢ وما بعدها) . (٢) Reste, S. 154.

(٣) Reste, S. 155. (٤) الأساطير العربية (ص ٧٩) . Reste, S. 155.

(٥) الحماسة (١/٥٦١) « طبعة Freytag » ، بلوغ الأرب (٢/٣٤٠) ، Reste S. 154.

(٦) الأساطير العربية (ص ٧٥) . (٧) Reste. S. 154. (٨) بلوغ الأرب (٢/٣٤٩) .

والحيّـة هي بنت الجـان ، وهي من أكثر الحيوانات وروداً في القصص الذي يرويه الأخباريون عن الجن . هي فصيلة مهمة من فصائلها ، ونوع بارز من أنواعها . ولما انتقم بنو سهم من الجنّ ، اجتمعوا فخرجوا وقتلوا من وجدوا من الحيّـات والعقارب ، حتى اضطرت الجن الى طلب الصلح لما نزل بها من قتل فظيع . هو هذا القتل الذي حلّ بالحيّـات والعقارب . ولما قام حرب بن اميّـة جد معاوية بن أبي سـفيان مع مرداس بن أبي عمرو باصلاح أرض لهما لزرعها ، فأحرقا ما كان عليها من أعشاب ، هلعت الجن التي كانت تستوطن هذه المنطقة ، وطارت على هيأة ثمابين بيض فما لبث أن مات الرجلان ، أماتهما الجن[1] . ويعلل « نولدكه » وفاتهما بفعل الاختناق من الغاز الذي تصـاعد من الإحراق[2] . ولعلهما ماتا بعضة ثعبان من الثعابين التي كانت سا كنة بين تلك الأعشاب وقد هاجتها تلك النيران . ومثل هـذه المواضع تكون موئلا للحيّـات والحشرات فابتدعت مخيلة القصاصين هذه القصة عن فزع الجن وطيرانها في صورة ثعابين بيض .

ولم تنفرد مخيلة الجاهليين وحدها باختراع أسطورةِ أن الحيّات هي من الجنّ ، وأنها جنس منها ؛ فإن غير العرب من الساميين مثل العبرانيين كانوا يقولون أيضاً بهذا القول . وكذلك قال بهذه الأسطورة غير الساميين[3] ، مما يدل على أنه من الأساطير القديمة جداً التي انتشرت عند البشر ، بسبب ما قاسوه في أيام بداوتهم من هذا الحيوان . ونجد قصة الحيّـة في سفر التكوين . وهي في هذا السفر أشد الحيوانات حيلة ، فهي التي خدعت حوّاء خدعتها الشهيرة ، وسببت طردها وطرد زوجها آدم من الجنة الى الأرض[4] .

وينسب الناس الى الجن إحداث كثير من الأمور غير الطبيعية ، مثل الأمراض والأوبئـة والجنون خاصة . وبين الجن والجُـنون علاقة لفظية بالطبع . وللتغلب على هذه تجب مكافحة الجن ، وطردها بطرق مختلفة يقوم بها السحرة والـكهان والناس .

---

(١) Robertson . p. 233. . (٢) Ency. Religi.. I. p. 670.

(٣) Ency. Religi. I. P. 669. (٤) السفر الثالث من التكوين : الآية ١ وما بعد .

وفكرة أن الجنة من عمل الجن ، ومن تلبس الجن بالإنسان ، عقيدة قديمة وجدت عند غير العرب كذلك . يرى « نولدكه » أنها دخلت العرب من جيرانهم الشماليين ، وأنها دخلت فلسطين من الايرانيين . كان الايرانيون يطلقون على المجنون لفظة « ديوانه Devana » ، أي الذي به « ديو dev » من الأصل « ديوه daiva » ، ومعناها « demon » أي جان . ومن هذه الفكرة دخلت فى العهد الجديد من الكتاب المقدس . ومن الفارسية دخلت « ديوان daiwan » فى الارمية بينما دخلت الى الفارسية كلمة « شدها Shedha » من أصل « شدهان hedhan ؟ » الإرمي واستعملت فى مقابل « ديو dev » أي جان . و « شيده Shedh » فى الإرمية الجان [1] .

ويأتي « نولدكه » بدليل آخر على اثبات نظريته فى أن فكرة الجن فكرة مستوردة من الخارج شيوع قصص بناء جنّ سليمان مدينة تدمر بين الجاهليين ، وهو قصص ورد من قصة بناء سليمان لـ « تامار Tamar » فى العهد القديم ، وتفسير « تامار » بتدمر عند المفسرين العبرانيين [2] .

وليست الأرواح الخبيثة التي تجلب الخبائث للناس إلا نوعاً من الجن ، إنها من الفصيلة المؤذية . ولذلك كانوا اذا خافوا على الرجل الجنون أو التعرض للأرواح الخبيثة ، حاولوا التغلب على تلك الأرواح وطردها باستعمال أشياء تنفر منها تلك الأرواح وتهرب مثل استعمال عظام الموتى أو خرق الحيض [3] .

واتخذ الجاهليون طرقاً عدة للتخلص من الجن ، ولا سيما من الخطفة والنظرة ، أي من خطف الجن للاطفال ومن حسدها لهم . فهداهم تفكيرهم الى تعليق بعض الأشياء على الصبي ، مثل سنّ ثعلب ، أو سنّ هرة ، وتقطير شيء من السوائل فى عينيه عند الولادة لتنفير الجن منه . وتسمى هذه الأمور المنفرة للجنّ النفرات [4] . وقد يكون تعليق بقايا الحيوانات على الصبي من بقايا العقيدة « الطوطمية » لاعتقاد القوم أن هذه الأجزاء ستخيف الجن ، وتذكرهم

---

(1) Ency. Religi . I, p . p. 670.
(2) Ency. Religi. I. 670.
(3) بلوغ الأرب (٢/٣١٩) .
(4) بلوغ الأرب (٢/٣٢٥) ، التاج (٣/٥٧٩) .

بذلك الحيوان الذي يحتمي به الصبي .

ومن النفرات التحايل على الجنّ بتغيير الأسماء ، بتغريبها أو إتقاء شرها وهو التنفير ، كأن يسمى الصبي بأسماء بعض الحيوانات الصغيرة أو الأشياء التافهة الحقيرة [1] ، وبذلك تنفر الجن منه ، فلا تفكر فيه ، ولا تمسه بسوء . « قال أعرابي لما ولدت قيل لأبي نفر عنه ، فسمّاني قنفذاً وكنّاني أبا العدّاء » [2] .

وليست النفرات بأمر خاص بالجاهليين ، إنما هي شيء عام معروف بين غير العرب أيضاً . كان شائعاً بين الرومان واليونان والعبرانيين وبين غيرهم ، يستعملون عظام بعض الحيوانات أو البشر ، ويستعملون غير العظام من أحجار أو معادن لتنفير الجن والأرواح الخبيثة واخافتها فلا تقترب من حامليها أو من المواضع التي يراد حمايتها من الجن أو الأرواح بتعليق هذه النفرات عليها في موضع بارز واضح مرئي .

والاستعاذة بالجن تفيد أيضاً في نظر الجاهليين في حماية الشخص من أذاهم . فإذا أستعيذ بعظيم الجن ، استجاب العظيم نداء المستعيذ . فكان المسافرون اذا خافوا من طوارق الليل ، عمدوا الى وادٍ ذي شجر ، فأناخوا رواحلهم ، وعقلوها ، وخطّوا عليها خطّاً ثم نادوا : نعوذ بعظيم هذا الوادي ، أو نعوذ بصاحب هذا الوادي . فيستجيب عندئذ عظيم الوادي لنداء المستعيذ ، فلا يسمح لأحد أن يلحق به أذى . وقد أشير الى ذلك في القرآن الكريم [3] . ومع ذلك لم تنفع هذه الاستعاذات في حماية الانسان من أذى الحيوانات والطبيعة ، فكان يتعرض لأنواع الأذى ، مما يخرجه عن عقيدته ، فينكر في ساعته عظيم الوادي ، وقد يشتمه ويكفر به .

وقصص الغول هي من أشهر القصص الجاهلي المذكور عن الجنّ ، وكذلك قصص السعلاة . ومع خطر الغول وشراسته في رأي الجاهليين ، ورد في قصصهم تزوج رجال من الانس منهم .

---

(١) بلوغ الأرب (٢/٣٢٥) .

(٢) اللسان (٧/٨٥) ، التاج (٣/٥٧٩) « نفر » .

(٣) « وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن ، فزادوهم رهقا » ، سورة الجن الآية ٦ .

وورد أن الشاعر « تأبط شراً » تعرض بغيلة . فلما امتنعت عليه ، جللها بالسيف فقتلها . وهم يروون أن من الممكن قتل الغول بضربة سيف . أما اذا ضربت مرة ثانية ، فإنها تعيش . وهكذا نرى قصصهم يروى تغلب الانسان على الغيلة فى بعض الأحيان . وأكثر قصص الغول منسوب الى « تأبط شراً » [1] . وللقب الذي يحمله هذا الشاعر أو حمل عليه دخل ، ولا شك ، فى ظهور هذا القصص .

ويرى اللغويون أن من معاني « الغول » التلون ، والظهور بصور مختلفة ، والاغتيال . ويرون أن الغول أنثى ، وأما ذكرها فيسمى « قطرباً » [2] . ومع أن الأنثى تكون فى العادة أضعف من الذكر ، لم تعترف المخيلة العربية ، على ما يظهر ، بقدرة القطارب وبفواقها على الغيلان . وإلاّ ما احتلت قصص الأغوال هذا المكان الواسع من قصص الجن .

ولصفة التلون والظهور بصور مختلفة سموا الغول حيتموراً ، وهو كل شيء لا يدوم على حالة واحدة ، ويضمحل كالسراب [3] . وذكر فى وصف غدرها بالانسان أنها اذا أرادت أن تُضِلّ إنساناً أوقدت له ناراً ، فيقصدها ، فتدنوا منه ، وتتمثل له فى صور مختلفة ، فتهلكه روعاً ؛ وأن خلقتها خلقة إنسان ، ورجلاها رجلا حمار [4] .

وللبادية بالطبع أثر كبير فى خلق هذه الصورة التي رسمها القصاص للغول . فصورة الغول هي صورة حيوانات وحشية من هذه الحيوانات التي تسكن البادية . وأغلب الظن أنها من أنواع القردة ذات الشعر الأسود الكثيف ، تقفز بخطوات سريعة فى البادية ، فيكون لمنظرها أثر كبير فى مخيلة المسافرين القاطعين ليلاً تلك البراري الموحشة . و « النسناس » وهو الحيوان الذي ترك له أثراً كبيراً في مخيلة أهل البادية الجنوبية وبار ، هو صورة من هذه الصور التي ولّدت قصص الغول . وللأخباريين قصص جميل عن هذا الحيوان . والنسناس ، هو ، فى نظرهم ،

---

(١) بلوغ الأرب (٢/٣٤١ وما بعدها) ، الأغاني (١٨/٢٠٩ وما بعدها) .
(٢) بلوغ الأرب (٢/٣٤٦ وما بعدها) ، الحيوان (٦/٤٨) .
Ency. . II, p. 165, Reste, S. 137.
(٣) بلوغ الأرب (٢/٣٤٧) . (٤) بلوغ الأرب (٢/٣٤٨) .

ضرب من الجن ، أوهم قوم عاد مسخوا فصاروا هذا الحيوان[1] .

وأما السعالي ، وواحدتها السعلاة ، فذكر أنها سَحَرة الجن ، وقيل : إن الغيلان جنس منها ، وأن الغيلان هي إناث الشياطين[2] ، وأنها ـ أي السعالي ـ أخبث الغيلان ، وأكثر وجودها في الغياض ، وأنها اذا ظفرت بإنسان ترقصه وتلعب به كما يلعب القط بالفأر ، وأن الذئب يأكل السعلاة[3] .

ويلاحظ أن الأخباريين والقصاص قد خصصوا بكل من الغيلان والسعالي مناطق سكنى ونفوذ . خصصوا الفلوات بالغيلان وخصصوا الغياض بالسعالي .

وللجن حوار مع الإنس وكلام نجده منثوراً كما نجده منظوماً في شعر ينسب الى الشعراء الجاهليين . ويروى الأخباريون شعراً ينسبونه الى جذع بن سنان ورد فيه وصف ملاقاته للجن ومحاورته معها ودعوته اياها الى الطعام وامتناعها عن الأكل ، كما رووا شعراً لغيره يصف ملاقاة بين الجن وبين أصحاب هذا الشعر[4] . وهو قصص لم يبخل على الجن فأعطاها شعراً من هذا الشعر الجاهلي الفصيح !

وهناك لفظة لها صلة بموضوع الجن ، هي كلمة : « الحنّ » ، وهي عند بعض أهل اللغة ضرب من الجن ، وعند بعض آخر كلاب الجن وسفلتهم[5] ، فهي اذن شر أنواع الجن ، والطبقة السافلة منها ، ولِمَ لايكون للجن سفلة وأشرار ، وللإنسان سفلة وأشرار ؟

ويرى « نولدكه » أن الجاهليين لم يتعبدوا للجن ، ولم يتخذوها آلهة على نحو ما نفهم من معنى الآلهة ، وأنّ « عبد الجن » ، وإنْ دلّ على التعبد للجن ، إلا أن هذه التسمية لا تدل حتماً على عبادة للجن[6] .

ويرى « روبرتسن سمث » وجوه شبه كبير بين فكرة العرب عن الجن وبين فكرة بعض القبائل البدائية عن الحيوانات . ان رأي الجاهليين في الجنّ في رأيه يشبه رأي المتوحشين

---

(١) البلدان (٢٩٢/٨ وما بعدها) « مادة وبار » . (٢) بلوغ الأرب (٣٤٦/٢) .

(٣) بلوغ الأرب (٣٤٨/٢ وما بعدها) . (٤) بلوغ الأرب (٣٥٠/٢) وما بعدها) .

(٥) بلوغ الأرب (٣٥١/٢) . (٦) Ency. Religi, I, P. 670.

الطوطميين فى الحيوانات الوحشية . وفى القصص الذي يرويه البدائيون عن الحيوانات الوحشية وعن أرواحها وامكان احداثها الأمراض والأذى بالانسان شبه بهذا القصص المروي عن الحيوانات الوحشية ، مما جعله يتصور أن فكرة الجن عند الجاهليين هي تطور لهذه النظرة القديمة التي تكون عند الطوطميين . انتقلت اليهم من عقيدة سابقة تطورت من عهد عبادة الطوطم [1] . وان الجن « طوطمية » دون أن يكون لها قوم يشعرون بوجود صلة نسب وقربى بها [2] .

ولكن من الصعب تصور ظهور فكرة الجن عند عرب الجاهلية برمتها من الطوطمية ، لأن هناك أموراً عديدة لايمكن تفسيرها على وفق هذه النظرية . ولكننا نستطيع أن نقول إنها نوع من أنواع الـ « Animism » [3] . وقد وجدت عند العبرانيين فى عهودهم القديمة ، كما كانت عند البابليين وغيرهم .

وكان ممن عبدوا الجن بنو مليح من خزاعة ، وهم رهط طلحة الطَّلَحات [4] ، وفيهم نزلت : (إنَّ الذين تَدْعُونَ من دُونِ اللهِ عِبادٌ أمثالُكم) [5] .

---

(١) Robertson , PP. 128.

(٢) المصدر نفسه (ص ١٣٠) .

(٣) Hastings , P. 188.

(٤) الأصنام (ص ٣٤) .

(٥) ١٩٤ ك الأعراف ٧ .

الفصل الثالث

الخالق والكون

يطلق على الديانات الثلاثة : اليهودية والنصرانية والاسـلامية ، ديانات سماوية وديانات التوحيد . ولهذه الديانات كتب مقدسة وأحكام وفلسفة ، وهي تؤمن بإله واحد لهذا الكون أوجده من العدم وصنعه فأحسن صنعه . قيل لها ديانات التوحيد ، لأنها تدين بإله واحد . ويطلق في الانكليزية على هذا النوع من الديانات مصطلح « Monotheism » أي التوحيد ، وهو مشتق من « Monos » أي واحد و « Theos » بمعنى إله أي « إله واحد »[1].

وأنقى هذه الديانات الثلاثة والأديان العالمية كلها وأصفاها من حيث عقيدة التوحيد هي الديانتان اليهودية والإسلام . والإسلام خاصة نقي جداً في التوحيد وفي تنقية الدين من عبادة غير الله الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . وتجد خلاصة التوحيد الإسلامي في الآيات القليلة الأربعة التي تتألف منها سورة الاخلاص : « قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد »[2].

وكانت ديانة اليونان والرومان وفلسفتهم قد تطورت كثيراً ، وتقدمت نحو عقيدة التوحيد ، « حتى إن النصرانية حينما عرضت على العالم عقيدة التوحيد ، لم يجد اليونان والرومان فيها شيئاً غريباً جديداً بالقياس اليهم »[3] . وهناك أديان أخرى حررت نفسها من الشرك وتقربت من عقيدة التوحيد ، ولكنها لم تكن ديانة توحيد خالص ، فلم تستطع تحرير نفسها من جميع

---

(١) Schmidt, S. 421.
(٢) سورة الاخلاص : رقم ١١٢ الآية ١ وما بعدها .
(٣) Schmidt, S. 421.

شوائب الشرك .

ويقال للشرك الذي هو ضد التوحيد « Polytheism » . وهو من كلمتي « Polys » بمعنى تعدد وكثرة و « Theos » بمعنى إلـه ، أي تعدد الآلهة [١]. وهو يختلف عن مرحلة الـ « Polydemonism » من حيث الطبيعة « Nature » وعن مذهب الحلول « Pantheism » والتوحيد « Monotheism » من حيث التعدد ، أي القول بتعدد الآلهة [٢].

إننا لا نستطيع أن نتحدث عن عقيدة التوحيد عند العرب قبل الاسلام استناداً الى ما لدينا من كتابات جاهلية ، لعدم ورود شيء عن ذلك . فالنصوص التي وصلت الينا ، هي نصوص فيها أسماء أصنام ، وليس فيها ما يفهم منه شيء عن التوحيد عند العرب قبل الميلاد وبعده ، إلاّ ما ورد في النصوص العربية الجنوبية المتأخرة من عبادة الإلـه « ذوسموى » ، أي صاحب السماء ، بمعنى إلـه السماء . وهي عبادة ظهرت متأخرة في اليمن بتأثير اليهودية والنصرانية اللتين دخلتا اليمن ووجدتا لهما أتباعاً هناك ، بل حتى هذه العبادة لانستطيع أن نتحدث عنها حديثاً يقينياً ، فنقول إنها عبادة توحيد خالص تعتقد بوجود إلـه واحد على نحو ما يفهمه أهل القول بالتوحيد .

ان جملة « ذسموى » ، أي « صاحب السماء » أو رب السماء ، تشير الى فكرة قديمة كانت معروفة عند الساميين وعند غير الساميين ، خلاصتها أن السماء هي موطن الآلهة . والواقع أن منطق الانسان يدفعه الى التفكير دائماً أن الآلهة هي فوق الإنسان ، وأنها أعلى منه . ولما كانت السماء فوقه ، كانت المكان اللائق بالآلهة ، ولا سيما في نظر من عبدو الكواكب ، والكواكب في السماء . وقد ذكرت جملة « ذسموى » في نص مع الإلـه « تالب ريام » رب قبيلة همدان [٣]. ويدل ذكر هذه الجملة هنا مع إسم إلـه آخر على أن عقيدة التوحيد لم تكن قد تركزت بعد ، وأنها كانت في بدء تكونها ، فلما اختمرت في رؤوس القوم ، ذكرت وحدها في النصوص المتأخرة ، دون ذكر أسماء الأصنام الأخرى ؛ مما يشير إلى حدوث هذا التطور في

---

(١) Schmidt , S. 505.   (٢) Ency. Religi , 10, P. 112.   (٣) Handbuch , I. S. 88 .

العقائد وإلى ظهور عقيدة التوحيـد بإلـه السماء عند جماعة من العرب الجنوبيين . وقد أكملت هذه العقيدة بأن صار إلـه السماء رب السماء والأرض[١] .

وأما عبادة « الرحمن » « رحمنن » ، فهي عبادة توحيد كذلك . وقد وردت كلمة « رحمنن » ، أي « الرحمن » ، فى نص يهودي كذلك[٢] وفى كتابات أبرهـــة ، وردت بشكل آخر بالطبع[٣] ، بمعنى قريب من مفهوم « الرحمن » فى الإسلام[٤] .

وقد جاء فى النص اليهودي المذكور : « الرحمن الذي فى السماء واسـرائيل وإلـه اسرائيل رب يهود » . وقـد حمل هذا النص بعض الباحثين على القول بأن العرب الجنوبيين قد أخذوا هـذه الكلمة وفـكرتهم عن الله من اليهوديـة ، وأن فـكرة التوحيد هذه إنما ظهرت بتـأثير اليهودية التي دخلت الى اليمن . غير أن من الباحثين من رأي خلاف هذا الرأي . رأى أن افتتاح النص بذكر الرحمن ، ثم إشارته بعد ذلك الى إلـه يهود ، وورود كلمة « الرحمن » فى نص آخر يعود الى سنة « ٤٦٨ » للميلاد . كتبه صاحبه شكراً للرحمن الذي ساعده فى بناء بيته[٥] : كل هذه وأسباب أخرى ، تناقض رأي القـائلين بأن عقيدة الرحمن عقيدة اقتبست من اليهود[٦] .

وقد تكون كلمة « هرحم » ، أي « الرحيم » الواردة فى النصوص الصفوية[٧] وفى النصوص السبئية اســـم إلـه[٨] ، وقد تكون صفة من صفات الآلهة على نحو ما تؤديه كلمة « الرحيم » من معنى فى الاسلام .

---

(١) Handbuch. , I. S. 102. (٢) Halevy 63. (٣) Glaser 554 ، 406 - 410.

(٤) عن كلمة « رحمن » راجع النصوص :
Corpus Inscr. Semit., Pars 4, Tomus, 1, cap. I, No 6, P. 15 - 19, Tomus 2, Cap. 15, No, 537 - 543, P. 257 - 300.

(٥) CIH. 7.

(٦) Margoliouth, The Relation between Arabs and Israelites Prior to the Rise of Islam, PP. 67.

(٧) Handbuch, I, S. 248, Vogue, Syrie Centrale, Inscriptions Semitiques. Paris 1868-77, P. 142, No. 402, Dussud, Voyage archeologique au Safa, Paris 1901, No. 253, Mission, P. 88, Les Arabes en Syrie, P. 152.

(٨) Corpus Inscriptionum Semitic., Pars 4, Tomus, 2, No. 40, P. 63.

وعندي أن الكلمات الأخرى الواردة فى النصوص ، مثل : « ودّ » و « سمع » أي « سميع » و « حلم » [1] أي « حليم » و « حكم » بمعنى « حكيم » وان كانت قد وردت على صورة أسماء آلهة ، هي صفات للآلهة ، ذكرت فى مقام ذكر أسماء الآلهة كما يقول المسلم اليوم في دعائه ربه يا سميع ويا حكيم وأمثال ذلك ، وهي صفات وردت فى القرآن الكريم .

من حصر هذه الصفات وضبطها . نتمكن من تعيين صفات الإله أو الآلهة فى نظر الجاهليين . إنها صفات تدل على معان خلقية مجردة . وأعني بالمجردة أنها معان غير مادّية ، وذلك يساعدنا كثيراً على فهم الصورة التي كانت فى مخيلة أهل الجاهلية عن الآلهة . وقد أقر الإسلام هذه الصفات ، لأنها لا تصادم أصول الإسلام في التوحيد .

ويفيدنا حصر هذه الصفات من ناحية أخرى ، وهي معرفة عدد الآلهة عند الجاهليين . فأسماء الآلهة التي سجلها العلماء ، تبلغ عشرات ؛ ولكن هذا الرقم سينزل كثيراً عن مستواه الأعلى الى مستوى منخفض جداً بتحليلنا هوية هذه الأسماء واعادتها الى عناصرها الأولى ؛ إذ سيظهر لنا من هذه الدراسة أن أكثر تلك الأسماء ، ليست أسماء آلهة ، وإنما هي صفات لها ، وأن الكلمات التي لا يشك فى كونها أسماء صحيحة قليلة جداً ، ربما يتجاوز عددها بضعة أسماء ، ومن يدري ؟ فقد تكون فى النتيجة اسماً لإله واحد ، وعندئذ يمكن أن نتوصل الى نتيجة علمية بالقياس الى عقيدة الشرك أو التوحيد عند العرب الجاهليين .

وقد أشار القرآن الكريم الى جماعة من العرب لم تعبد الأصنام ، ولم تكن من اليهود ولا النصارى ، وإنما اعتقدت بوجود إله واحد عبدته [2] . وقد ذكر المفسرون وأهل الأخبار أسماء جماعة من هؤلاء ، غير أن ما ذكروه عنهم غامض لا يشرح عقائدهم ، ولا يوضح رأيهم فى الدين ، فلم يذكروا عقيدتهم فى التوحيد ، ولا كيفية تصورهم لخالق الكون .

---

(١) Halevy . 628 . 630 . Handbuch . I . S. 248 . ZDMG . . Bd . 26 . 1872 . VIII . S. 431 . Bd . . 29 . 1875 . I . S. 591 — 600 . Corpus . Inscript . Semiti . . Pars . 4 . Tom . . I . No. 40 . P. 66 .

(٢) بلوغ الأرب (٢/١٩٦) .

وقـــد عرف هؤلاء بالحنفاء ، ونعتوا بأنهم كانوا على دين ابراهيم ، ولم يكونوا يهوداً ولا نصارى .

ويفهم من بعض الروايات أن هؤلاء كانوا قد تجنبوا الناس ، وطاف بعضهم في الأرض بحثاً عن دين ابراهيم الحنيف ، وأن منهم من كان قد قرأ الـكتب السماوية وفهمها ، وأنهم كانوا يتأملون فى هذا الـكون ، وأنهم تجنبوا الخمرة والأعمال المنكرة ، ونصحوا الناس بالابتعاد عن الأصنام ، والتقرب الى الله . فهم مسـلمون فى عقيدتهم وإن عاش أكثرهم قبل نزول الوحي على الرسول .

وليست الصورة التي رسمها المفسرون وأهل الأخبار عن عقيدة الحنفاء واضحة ، فهي صورة غامضة مطموسة في كثير من النواحي ، تخص الناحية الخلقية أكثر مما تخص الناحية الدينية . فليس فيها شيء عن عقيدتهم فى الله ، وكيفية تصورهم وعبادتهم له ، وليس فيها شيء عن كتاب كانوا يتبعونه أو كتب كانوا يسيرون عليهـا . نعم ، إن نفراً منهم كما ذكر الرواة كانوا قد قرأوا الـكتب ووقفوا عليها ، ولـكن ما تلك الـكتب التي قرأوها ، وما أسماؤها . وهل هي التوراة والانجيل ؟ ولـكن أي توراة وانجيل ؟ التوراة والانجيل التي كانت بين أيدي الناس أو غيرها ؟ فالذي يفهم من كلام الرواة أن الحنفاء كانوا يرون تحريفاً فى الـكتابين ، وأن هناك تبايناً قليلا أو كثيراً بين الأصـل الذي أوحاه الله وبين الذي كان بين أيدي النـاس ، وأنهم لذلك مالوا عن اليهودية والنصرانية الى دين ابراهيم الحنيف ، فقرأوا كتبه وتعبدوا بعبادة ابراهيم .

والحنفاء ، كما يفهم من روايات الرواة أيضـاً ، كانوا طرازاً من النسـاك ، نسكوا فى الحياة الدنيا ، وانصرفوا الى التعبد للإلـه الواحد الأحد إلـه ابراهيم واسماعيل[1] ، ساحوا فى البلاد على نحو ما يفعله السياح الزهـاد بحثاً عن الدين الصحيح دين ابراهيم ، فوصـل زيد بن عمرو بن نفيل الى الشأم والبلقاء ووقف على النصرانية واليهودية ، فلم يَرَ فيهـا ما يريد[2] . ومنهم من أخذ على قومه هدايتهم بحثّهم على ترك عبـادة الأصنام ، لذلك لاقوا منهم عنتاً ونصباً شديداً .

---

(١) بلوغ الأرب (٢/٢٤٧) . (٢) بلوغ الأرب (٢/٢٤٨) .

ومنهم من بنى له صرحاً وبنية اعتكف فيها يعبد لله ويصلي له . ولكن كيف كانت عبادتهم ، وكيف كانت صلاتهم ؟ لا ندري ؛ لأن من تحدث عنهم لم يشر الى هذه الأمور .

ويفهم من كلام الرواة أن بعض هؤلاء الحنفاء كانوا نصارى مثل ورقة بن نوفل [1] ، أي على عكس ما يذكره الرواة أنفسهم من أن هؤلاء كانوا قد تجنبوا اليهودية والنصرانية متبعين ديانة ابراهيم . والظاهر أن الرواة قد اشتبه عليهم الأمر ، فخلطوا في بعض الأحيان بين النصرانية وبين هؤلاء الذين أنكروا عبادة الأصنام واعتقدوا التوحيد .

والذين ذكر الرواة أسماءهم من الحنفاء هم أناس عاشوا في الجاهلية المتصلة بالإسلام ، ومنهم من أدرك الرسول ، ولا عبرة بالطبع لما زعمه الأخباريون من طول عمر أولئك الأشخاص وبلوغ بعضهم مئين عدة من السنين ، وادخالهم في المعمرين [2] ، فإن من عادة الأخباريين اطالة عمر هؤلاء وأمثالهم من الرجال البارزين الظاهرين ، ليكون ذلك مناسباً لما يجيء في أخبارهم من الحكم المنسوبة اليهم ، وهي فكرة عامة نجدها عند غير العرب أيضاً ، ولذلك نجد صور الحكماء والفلاسفة في الغالب على صورة شيوخ أصحاب لحى طويلة بيض ورأس جلله الشيب أو قضى على شعره الزمن والتفكير ، فصَلِعَ ؛ لأن هذه من علامات الحكمة والتفكير .

وعندي أن الحنفاء جماعة سخرت من عبادة الأصنام ، وثارت عليها وعلى المثل الأخلاقية التي كانت سائدة في ذلك الزمن ، ودعت الى اصلاحات واسعة في الحياة والى محاربة الأمراض الاجتماعية العديدة التي كانت متفشية في ذلك العهد ، دعاها الى ذلك ما رأته في قومها من اغراق في عبادة الأصنام ومن اسفاف في شرب الخمر ولعب الميسر وما شاكل ذلك من أمور مضرة ، فرفعت صوتها كما يرفع المصلحون صوتهم في كل زمن ينادون بالاصلاح ، وقد أثارت دعوتهم هذه المحافظين وأصحاب الجاه والنفوذ وسَدَنَة الأوثان شأن كل دعوة اصلاحية . ويجوز أن يكون من بين هؤلاء من مال الى النصرانية ، غير أننا لا نستطيع أن نقول إنهم كانوا نصارى

---

(١) بلوغ الأرب (٢/٢٧٠) .

(٢) جعل السجستاني عمر قس بن ساعدة الإيادي ، وهو من الحنفاء ، ثمانين وثلاث مئة سنة ، بلوغ الأرب (٢/٢٤٦) .

أو يهوداً ، إنما أستطيع أن أشبه دعوة هؤلاء بدعوة الذين دعوا الى عبادة الإلـه رب السماء « ذو سموى » أو عبادة الرحمن فى اليمن ، متأثرين بمباديء التوحيد التي حملتهـا اليهودية والنصرانيـة الى اليمن . ولـكنهم لم يكونوا أنفسهم يهوداً أو نصارى ، إنما هم أصحاب ديانة من ديانات التوحيد .

ولا يعني قولي هذا أن الحنفاء كانوا على رأيٍ واحد ودين واحد كالذي يفهم مثلا من قولنا يهودي ونصراني ويهود ونصارى ، بمعنى أنهم كانوا طائفة معينة تسـير على شريعة ثابتة كالذي ذهب « شبرنكر » اليه [1] . إنما كان أولئك الأحنـاف نفراً من قبـائل متفرقة لم تجمع بينهم رابطة ، إنما اتفقت فكرتهم فى رفض عبادة الأصنام وفى الدعوة الى الاصلاح . وهذا المعنى واضح فى آيات القرآن الـكريم التي أشارت الى الحنفاء [2] .

وللإسلاميين والمستشرقين آراء فى كلمة « حنيف » و « حنفاء » . فذهب بعض المستشرقين الى أن الـكلمة من أصل عبراني ، هو : « تحينوت Tehinoth » ، وقال « نولدكه » إنها من أصل عربي هو « تحنف » على وزن تبرر ، وهي من الـكلمات التي لها معان دينية كذلك [3] . وذهب « المسعودي » الى أنها كلمة معربة من أصل سرياني . ويلاحظ أن السريان يطلقون لفظة « حنفة Hanfe » على الصابئة [4] . ولـكن من يثبت لنا أن هذا الاستعمال قديم ، أفلا يجوز أن يكون قد انتقل الى السريان من المسلمين ؟

والرأي عند العلماء الاسلاميين كما سنرى أن العرب كلهم كانوا على دين ابراهيم واسماعيل ، أي التوحيد ، ثم ابتعدوا عنه . فعبدوا الأوثان والأصنام . ومع ذلك بقيت منهم بقية تعبد الله

---

(١) Sprenger . Das Leben Und die Lebre des Mohammad . Bd. . I . S. 46.

(٢) البقرة الآية ١٣٥ ، آل عمران ٦٧ — ٦٨ ، الحج ، ٣٠ وما بعدها ، الروم ٣٠ وما بعدها ، الأنعام الآية ١٦١ ، يونس ، ١٠٤ وما بعدها ، النحل ، ١٢٣ .

(٣) اللسـان (١٠/٤٠٢ وما بعدهـا) ، الأغاني (١٦/٤٥) ، Ency. . II , P. 259 , Noldeke , Neue beitrage Zer Semit Sprachwissenschaft , S. 72.

(٤) Ency. . II, P, 259 , Barhebraeus , Chronic. , P. 176.

وتحافظ على دين أبيها ابراهيم واسماعيل . أما اليهودية والنصرانية فانها ، وإن كانت ديناً سماوياً موحداً ، لم تكن توحيداً خالصاً كتوحيد دين ابراهيم . وهم ينسبون انتشار عبادة الأصنام في جزيرة العرب الى رجل يدعونه عمرو بن لحي . وهو شخص يتبين من غربلة روايات الأخباريين عنه أنه لم يكن بعيد عهد عن الإسلام .

لقد أشرت في الفصل السابق الى الشرك ، وأعني بذلك اشراك ما دون الله مع الله . أي القول بتعدد الآلهة . فما العوامل والدوافع التي دفعت الناس الى عبادة آلهة متعددة ، والى تصور وجود جملة قوى تهيمن على شؤون الكون ، والى عبادة أحجار ومعادن وأشجار ، وهي مادة جامدة ليس فيها نفس ولا حياة ولا نفع ولا ضر .

ان للعلماء جملة آراء في ظهور عبادة الشرك . ورأى رجال الدين بصورة عامة أن الناس كانوا أمة واحدة في الدين . كانوا على التوحيد جميعاً ، ثم ضلوا فعبدوا جملة آلهة وصاروا مشركين[1] . أما غيرهم من العلماء الذين يستندون الى الملاحظات ودراسة أحوال القبائل البدائية وعلى فروع العلوم الأخرى المساعدة مثل علم النفس وعلم الاجتماع ، فيرون أن عقيدة التوحيد ظهرت متأخرة بالقياس الى ظهور الوثنية والشرك . ظهرت بعد أن توسعت مدارك الإنسان ، فشعر أن ما كان يتصوره من وجود قوى روحانية عليا في الأشياء التي عبدها لم يكن سوى وَهْم وخداع ، وصار يقتصد في الشرك ، الى أن اهتدى الى عبادة الله .

هناك عدة عوامل دعت الى ظهور الشرك ، أي تعدد الآلهة ، وأثرت في تعدد الآلهة . هناك عوامل طبيعية وعوامل رسّية « Racial Characteristics » ، وهناك عوامل سياسية وعوامل تأريخية واجتماعية واقتصادية وعوامل أخرى ، كل هذه أثرت في شكل الشرك وفي تعدد الآلهة وفي كيفية تصور الناس لآلهتهم . ولا يعني هذا أنها أثرت كلها مجتمعة وفي آن واحد ، إنما يعني أن ظهور الشرك وشكله هو نتيجة عوامل متعددة وأسباب مختلفة أثرت في ظهوره وفي تكوين صورة الآلهة في نظر المؤمنين بها المتعبدين لها .

---

(١) Ency. Religi., 10, P. 112. f.

يقول « أكسنوفان Xenophanes » المتوفى حوالي سنة « ٣٥٤ م » : « تصور الأحباش آلهتهم فُطس الأنوف ، سُوداً . وتصور أهل « تراقية » « Thracians » آلهتهم ذوي عيون زرق وشعر أحمر . ولو كان للماشية والخيل والسباع أيد تتمكن من الرسم ، لرسمت الخيل آلهتها على صورة خيل ، ولرسمت الماشية آلهتها على صورتها ، كل صنف يتصور آلهته على صورته »[1] وقد نسب اليونان ، ومنهم « هوميروس » ، الى آلهتهم كل الصفات والأعمال الانسانية المعروفة بين اليونانيين ، فتصوروهم على هيئة بشر ، لهم الفضائل ، ولهم الرذائل ، يتزوجون وينسلون ويحبون ويعشقون ويسرقون ويكرهون ويتخاصمون بينهم ويتحاسدون ويقومون بأقبح الأعمال كما يفعل الإنسان[2].

وإنا لنجد وجهة نظر الشعوب عن الآلهة أو الإله تختلف باختلاف ثقافتها ومستواها الاجتماعي ، وللوضع السياسي دخل كبير فى الشرك وفى عدد الآلهة وفي شكل الدين . لقد كان لكل قبيلة إله خاص بتلك القبيلة يحميها من الأعداء ومن المكاره ، ويدافع عنها فى الحروب والملمات ، ويعطيها النصر . فكان لطيء مثلاً صنم هو الفِلْس[3] . وكان لِهَمْدان « تألب ريام » ، وكان لسبأ صنم هو المقه . وهكذا كان لكل قبيلة صنم ، كما كان للقرى والمدن آلهتها الخاصة بها . فإذا تحالفت القبائل أو القرى أو المدن تحالفت آلهتها معها ، وكوّنت حلفاً وصداقة متينة بينها . أما اذا تحاربت هذه القبائل أو القرى والمدن ، فيكون لهذه الحرب أثر كبير فى مستقبل الآلهة وفى عددها . فقد ينصرف المغلوبون عن آلهتهم الى عبادة آلهة أخرى ، لأنها أصبحت ضعيفة لا قدرة لها على الدفاع عن عَبَدَتِها . وقد يتأثر الغالبون بعبادة المغلوبين الذين خضعوا لهم ، فيضيفون آلهة المغلوبين الى آلهتهم ، فيزيد بذلك عدد الآلهة ، ولا سيما اذا كان المغلوبون أصحاب ثقافة عالية ، وكان لهم أدب وفن .

والعادة أن آلهة القبائل أو المدن الرئيسة تكون هي الآلهة الرئيسة للحلف أو فى المملكة . ويكون إله القبيلة ذات النفوذ أو العاصمة عندئذ ، هو إله الحكومة الكبير . أما الآلهة

---

(١) Ency. Religi., 10, P. 113. (٢) المصدر نفسه . (٣) الأصنام (ص ١٥) .

الأخرى ، فتكون ما دونه في المنزلة ، ويرد اسمها فى الغالب بعد اسم الإلـه الكبير .

كذلك يجب ألا ننسى عامل الجوار والاتصال الثقافي فى تعدد الأصنام ، فكثيراً ما يؤدي هذا الاتصال الى اقتباس أصنام المجاورين واضافتها الى مجموعة الآلهة عند ذلك الشعب ، فتزيد بذلك عدد الآلهة أو ينقص . فقد تطغى الآلهة الجديدة المقتبسة على الآلهة القديمة ، ويقل شأن بعضها فيهمل ، ثم يموت اسمها . وقد يحدث ذلك بطريق الحرب أيضاً ، فتضاف آلهة الغالبين الى آلهة المغلوبين . وقد يحدث العكس فيقتبس الغالبون آلهة من آلهة المغلوبين ، فيضيفونها الى الآلهة التي عندهم ، فيتغير العدد بذلك .

ويكون لرجال الدين والعلماء أثر خطير أيضاً فى تعدد الآلهة ، وفى تخصيص أعمالها ، فنلاحظ أن كثيراً من الأديان القديمة قد خصصت أعمال بعض الآلهة بالسماء ، وخصصت أعمال آلهة أخرى بالأرض . كما أن بعضها قد سار على تقسيم ثلاثي ، فجعل آلهة للسماء وآلهة للأرض والهواء . وآلهة أخرى للبحار . ومنها ما قسمتها الى ثلاثة مجموعات : آلهة للسماء ، وآلهة للهواء ، وآلهة للأرض [1] . وهذا التقسيم بأشكاله هو نتيجة بالطبع للملاحظات ولمعارف الإنسان عن الطبيعة وعما يحيط به من أشياء . ولذلك نجد أنه كان يحوّر ويغير فى آلهته كلما تقدمت معارفه ومداركه وعلمه ومشاهداته عن العالم .

وقد تتحول صفات إلـه واحد وأعماله الى تعدد الآلهة والشرك ، إذ تنسى تلك الصفات ، وتظن بمرور الزمن أنها آلهة مستقلة ، وأن كل صفة من هذه الصفات هي إلـه [2] . ونجد بين الأصنام العربية أسماء أصنام عديدة هي فى نظري من هذا القبيل ، هي صفات فى الأصل مثل ودّ ورضى واللّه وذي الشرى وذات حميم وأمثال ذلك . هي فى رأيي صفات فى الأصل ، تحولت الى آلهة ، وظن أنها آلهة مستقلة ، بينما هي صفات لإلـه واحد ، لم يذكر اسمه من باب التأدب أو الرهبة ، وا كتفى بالكناية عنه وبالإشارة اليه بهذه الصفات .

ولا بد لنا هنا من الاشارة الى اصطلاح أطلقه العالم « ماكس ميلر Max Muler » على

---

(1) Ency. Religi., 10, P. 114. (2) Schmidt, S. 505.

مرحلة من العبـــادة هي بين بين ، لا هي توحيد « Monotheism » ولا هي شـــرك « Polytheism » ، بل هي مرحلة تعبـد فيها الإنسان على رأي هذا العالم الى إلـه واحد هو إلـه القبيلة ، مع الاعتقاد بوجود آلهة أخرى[1] . وهذا الاصطلاح هو « Henotheismus » . وقد رأى « فلايدرر Pfleidler » أن الساميين لم يكونوا موحدين بطبعهم كما ذهب « رينان » الى ذلك ، بل كانوا يدينون بإلـه قومي ، ومن هذه العقيدة ظهر التوحيد الخالص كما حدث عند الاســـرائيليين[2] .

وفى القرآن الـكريم إشارات الى أنواع من الشرك كان عليه الجاهليون ، وفيه تعريف لمعنى الشرك ، فالشرك فى قوله تعالى : « أيشركون ما لايخلق شيئاً وهم يخلقون ، ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون »[3] عبادة الأصنام المصنوعة من الحجارة أو الخشب أو المعادن ، أي مما لا روح له وقابل للـكسر[4] . وفى بعض الآيات أن من أنواع الشرك القول بأن الجن هم شركاء لله[5] . ومن أنواعه أيضاً القول بأن الملائـكة هم شركاء لله وبناته[6] . وفى آيات أخرى أن من الشرك اتخاذ آلهـة أخرى مع الله[7] . والآلهة هنا شيء عام . فيـه تأليه الـكواكب وعبادة الأشياء غير المنظورة ، أي غير المادية وعبادة الأصنام .

واذا كان لنا رأي فى عقيدة الجاهليين في الله وفى الشرك ، فإننا لا نستطيع أن نبدي رأياً فى كيفية تصور الجاهليين خلق الـكون واحداثه . فليس لدينا نص جاهلي واحد يشير الى هـذا الموضوع الخطير ، وليس فى القرآن الـكريم اشارة الى ذلك . ولـكن هـذا لا يعني بالطبع أن العرب كانوا فى غفلة عن هذا الموضوع ، وأنهم لم يفكروا فيه ، وأن عقلهم لم يتوصل الى مثـل

---

(١) Max Muller, Vorlesungen uber den ursprung und die entwicklung der Religion, 1880, Schmidt, S. 261.

(٢) Ency. Religi., 10', P. 811. Pfleidler, Philosophy of Religion' London, 1886 - 1888, III, P. 19.

(٣) الأعراف الآية ١٩١ وما بعدها ، يونس الآية ١٨ .

(٤) تفسير الجلالين (١/١٣٩) ، « طبعة المطبعة المليجية » .

(٥) الأنعام : الآية ١٠٠ ، الجلالين (١/١١٦) . (٦) سبأ : الآية ٤٠ وما بعدها .

(٧) الأنبياء الآية ٢٤ .

هذا التفكير . فالكون بجماله وبنجومه وليله ونهاره وشمسه وقمره ، لابد أن يؤثر فى نفوس الناس ، وأن يحملهم على التفكير فى كيفية نشوئه وحدوثه . واذا كان لغير العرب من الساميين رأي وقصص فى كيفية الخلق ، فلم لا يكون للعرب رأي كغيرهم فى كيفية نشوء الكون ؟

وفي القرآن الكريم كلمات مثل « البارئ » و « المصور » و « الخلاّق » و « خلقنا » و « خلقت » و « خلقناكم » و « خالق » وغيرها مما له علاقة بخلق الكون والإنسان وبقية المخلوقات ، وفيه كيفية خلق الله للكون ومن فيه وكيفية خلق الانسان ومن أي شئ خلق . ولكن هل كان يعرف جميع الجاهليين هذا المعنى المنزل فى كلام الله ، وهل نزلت هذه الآيات لإرشاد الناس إلى ذلك ، أو أنها نزلت لتذكير القوم ولفت نظرهم الى شئ يعلمونه ولكنهم كانوا ينسبونه لغير الله أو يتجاهلونه ، ان كان ذلك على سبيل التذكير ، فمنى هذا أن لأهل الجاهلية رأيا في كيفية الخلق ، لعلهم أخذوه من أهل الكتاب .

ثم إن للعرب صلات قديمة تجارية وثقافية بالعراق وببلاد الشأم ، وهم يشاركون الساميين فى كثير من العقائد ، فلا يعقل ألا يكون لهم قصص مشابه أو مختلف عن قصص بقية الشعوب السامية عن نشوء الكون وعن الآلهة كذلك . وسنرى بعد أن آلهة العرب الجنوبية هي آلهة تمثل القمر والزهرة والشمس ، وأنها تمثل فى نظرهم الأب والابن والأم ، ولا يمكن أن يتصور هذا الثالوت بدون وجود قصص وأساطير حوله ، كما لايمكن تصور سكوت القوم عن كيفية خلق هذا الثالوث للكون .

وفى القرآن الكريم جواب عن فلسفة القوم وتعليلهم لعبادة الأصنام واتخاذهم « أولياء » من دون الله ، إذ يقولون جواباً عن الاعتراض الموجه اليهم فى عبادة غير الله : « والذين اتخذوا من دونه أولياء . ما نعبدهم إلاّ ليقربونا إلى الله زلفى . إن الله يحكم بينهم فى ماهم فيه يختلفون »[1] . ويتبين من هذه الآية ومن آيات أخرى أن فريقاً من العرب كانوا يعتقدون بوجود الله ، وأنه هو الذي خلق الخلق ، وأن له السيطرة على تصرفات عباده وحركاتهم ،

---

(١) الزمر : الآية ٣ ، الجلالين (١٣٣/٢) .

ولكنهم عبدوا الأصنام وغيرها ، واتخذوا الأولياء والشفعاء لتقربهم الى الله زلفى [1]

وفى كتاب الله مصطلحات لها علاقة بعبادة الشرك ، منها « شركاء »[2] جمع « شريك » ، وهو من اتخذه المشركون شريكاً مع الله . و « أنداد » « ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحبّ الله »[3] « وجعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله . قل : تمتعوا ، فإن مصيركم الى النار »[4]. و « أولياء » و « وليّ » و « وليّاً »[5] و « شفعاء »[6] و « شهداء »[7] .

فهذه الكلمات وأمثالها تعبر عن عقائد الجاهليين قبيل الإسلام ، وعن اعتقادهم فى عبادة أشياء أخرى مع الله كانوا يرون أنها تستحق العبادة ، وأنها فى مقابل الله فى العرف الاسلامي ، أو أنها شركاء فى ادارة الكون أو أنها مساعدة لله .

ومما يدل على شيوع عقيدة الجاهليين في « الشفاعة » وفى « الشفعاء » ورودها في مواضع عديدة من القرآن الكريم . وقد قرّع القرآن الكريم الجاهليين لاعتقادهم بوجود شفعاء يشفعون لهم عند الله [8]. وقد كانت الأصنام من جملة الشفعاء الذين تشفع بهم أهل الجاهلية فى التقرب الى آلهتهم باعتبار أنها رموز ترمز الى تلك الآلهة . ولعل لليهودية والنصرانية أثراً فى شيوع هذه الفكرة بين أهل الحجاز ، خاصة بين أهل مكة والمدينة ، فالشفاعة معروفة فى هاتين الديانتين . وتكون الشفاعة بـ « وسيط Mediator » يتقرب اليه المؤمنون ليستشفع لهم عند الله . ويعرف الوسيط بـ « Mesites » في الإغريقية . وتكون الشفاعة بطرق متعددة إما بالصلاة وإما بالأدعية وإما بالتوجه الى القديسين والأنبياء [9]. وبتقديم القرابين والنذور الى

---

(١) الزمر : الآية ٣ ، الأنعام الآية ١٤٨ ، النحل الآية ٣٥ .

(٢) الأنعام الآية ١٠٠ ، راجع « فتح الرحمن لطالب آيات القرآن » (ص ٢٣٨) حيث تجد المواضع الواردة في القرآن الكريم .

(٣) البقرة : الآية ١٦٥ . (٤) ابراهيم : الآية ٣٠ .

(٥) راجع فهارس القرآن الكريم ، مثل فتح الرحمن (ص ٤٨٠) .

(٦) فتح الرحمن (ص ٢٤٠) . (٧) فتح الرحمن (ص ٢٤٥) .

(٨) راجع عن بحث الشفاعة في الاسلام في : Ency., IV, P. 250

(٩) Hastings, P. 597.

الهياكل والمعابد لتكون واسطة للآلهة وشفيعة لأصحابها لدى آلهتهم في استجابة مطالبهم ، حيث تكون كالتذكرة لديها ، تذكر تلك الآلهة وتشعرها بحب أصحاب النذور لها وبتعلقها بها ، فتجيب تلك الآلهة لذلك مطالب أولئك المؤمنين المحبين [1] .

ومن جملة ما كان يتوسط به الجاهليون لآلهتهم ليكونوا شفعاء لهم عندها ، التماثيل المصنوعة من الفضة أو الذهب أو الحجارة الثمينة والخشب . ومن عادتهم انهم كانوا يدونون ذلك على الحجارة ، فيكتبون عدد التماثيل وأنواعها وأسماء الآلهة أو اسم الإله الذي قدمت لها أوله تلك الأشياء واسم الناذر ، ويشار الى السبب الداعي الى ذلك ، كأن يذكر بأن أصحابها توسلوا الى الآله أو الآلهة المذكورة برجائهم الذي طلبوه ، فأجيبت مطالبهم ، ولذلك قدموا هذه النذور ، فهي وفاء لدين استحق عليهم بسبب ذلك النذر وتلك الشفاعة .

ولا بد لنا من الإشارة هنا الى أن الأصنام كانت تدافع عن قبائلها وتذب عنها وتحامي عنها في الحرب ، كما يدافع سيد القبيلة عن قبيلته ، وأن أبناء القبيلة أبناؤها وأولادها ، ولذلك كانوا يقولون عنها « أب » في كتاباتهم ، ويكتبون عن أنفسهم « أبناء الصنم ... » . وفي الشعر الجاهلي أمثلة عديدة تشير الى اعتقاد القوم باشتراك آلهتهم معهم في الحرب وفي انتصارهم لهم . ففي الحرب التي وقعت بين بني أنعم وبني غطيف بشأن الصنم يغوث ، يقول الشاعر :

وسارَ بنا يغوثُ الى مرادٍ فناجزْناهمُ قبل الصباح [2]

وطبيعي أن يعد أعداء القبيلة أعداء لصنم القبيلة ، وأعداء الصنم أعداء للقبيلة ، فأعداء الآلهة وأعداء القبيلة هم خصوم لا يمكن التفريق بينهم . وفي العهد القديم أن أعداء « يهوه » هم أعداء اسرائيل [3] .

ولما كانت الآلهة آلهة قبائل ، كان نبذ الفرد لإلهه معناه نبذه لقبيلته وخروجه عليها ، فلا

---

(١) استحسن مراجعة المصطلحات : « Atonement » و « Propibiation » و « Reconciliation » فان لها علاقة وصلة بهذا الموضوع . Hastings . P. 597

(٢) البلدان (٨/٥١١) .

(٣) القضاة : الاصحاح الخامس ، الآية ٣١ ، صموئيل الأول ، الاصحاح الثلاثون الآية ٢٦ . Robertson, P. 36.

يَسَعُ شخصاً أن يغير عبادة صنم القبيلة إلا اذا خرج على قبيلته وتعبد لصنم آخر ، فإن تغيير عبادة الأفراد لأصنامهم في نظر قدماء الساميين أمر إدٌّ ، هو بمثابة تبديل الجنسية فى العصر الحاضر . نعم ان فى استطاعة القبيلة جميعها تغيير عبادتها لصنمها ، وعندئذ يغير الأشخاص عبادتهم على وفق مشيئة القبيلة . ان عبادة الأصنام عبادة موروثة يرثها الأبناء عن الآباء ، وليست بشيء اختياري ، فليس للرجل أن يختار الصنم الذي يريده بمحض مشيئته . ان الصنم دين وهو رمز لسياسة القبيلة كذلك ، ورمز للشعب كله أيضاً ، فهو الحامي والمدافع عن شعبه ، والرابطة التي تربط بين الأفراد ، فالخروج عليه معناه خروج على ارادة الشعب ، وتفكيك لوحدته ، وهو مما لا يسمح به وإلا تعرض الثائر للعقاب (١) .

وفى الحروب يحارب كل إلـه عن قبيلته ، ويجهد نفسه فى الدفاع عنها فى سبيل حصولها على النصر . حارب « غيموش Chemosh » من أجل « موآب » ، وحارب « أشور » من أجل شعبه أشور . ولهذا السبب كانت القبائل والجيوش تحمل أوثانها أو صور آلهتها أو رموزها الدينية المقدسة معها فى الحروب . ولما تغلب الفلسطينيون على الاسرائيليين عند « حجر المعونة » و « افيق » ، ونزلت بالاسرائيليين خسارة كبيرة ، « جاء الشعب الى المحلة ، وقال شيوخ اسرائيل : لماذا كسرنا اليوم الربّ أمام الفلسطينيين ؟ لنأخذ لأنفسنا من شيلوه تابوت عهد الربّ ، فيدخل فى وسطنا ، ويخلصنا من يد أعدائنا . فأرسل الشعب الى شيلوه ، وحملوا من هناك تابوت عهد ربّ الجنود الجالس على الكروبيم . وكان هناك أبنا عالى حفنى وفينحاس مع تابوت عهد الله . وكان عند دخول تابوت عهد الربّ الى المحلة أن جميع اسرائيل هتفوا هتافاً عظيماً حتى ارتجت الأرض . فسمع الفلسطينيون صوت الهتاف ، فقالوا : ما صوت هذا الهتاف العظيم فى محلة العبرانيين ؟ وعلموا أن تابوت الربّ جاء الى المحلة ، فخاف الفلسطينيون ؛ لأنهم قالوا قد جاء الله الى المحلة ، وقالوا : ويل لنا ، لأنه لم يكن مثل هذا منذ أمس ولا ما قبله . ويل لنا ! مَنْ ينقذنا من يد هؤلاء الآلهة القادرين ؟ » (٢) .

---

(١) Roberstson . P. 37. f.

(٢) صموئيل الأول ، الاصحاح الرابع ، الآية ٤ وما بعدها ، Robertson . P. 36. f.

وفي الحرب التي وقعت بين الفلسطينيين وداود « سأل داود من الربّ قائلا أأصعد الى الفلسطينيين ؟ أتدفعهم ليدي ؟ فقال الربّ لداود : إصعد ، لأني دفعاً أدفع الفلسطينيين ليدك . فجاء داود الى بعل فراصيم وضربهم داود هناك . وقال : قد اقتحم الرب أعدائي أمامي كاقتحام المياه ، لذلك دعي اسم ذلك الموضع بعل فراصيم »[1] . وفي حروب القدونيين ذكر أن الآلهة كانت تحارب معهم في الميادين . ويعني ذلك أن خيمة مقدسة كانت تقام للآلهة تكون في جانب خيمة القواد[2] .

وفي معركة أحد ، وهي من المعارك الحربية المهمة التي جرت بين الاسلام والوثنية على مستقبل العرب الديني ، حمل أبو سفيان اللات والعزّى معه ، وقدم بجموع المشركين ليحارب الرسول[3] . لقد حملها معه ، ليبعث الحماسة في نفوس الوثنيين ، وليستغيث بأصنامه في الدفاع عن أتباعها المؤمنين بها . أما المسلمون ، فكانوا يستنجدون بالله ويطلبون العون منه . أما كيف نقل أبو سفيان الصنمين معه ، وهل كان الصنمين المحفوظين في الكعبة أو أنهما كانا صنمين آخرين للآت والعُزّى ، فهذه أسئلة لا تمكن الإجابة عنها ؛ لأن الروايات عن معركة أحد ، لم تتحدث عن هذه الأمور . والذي يهمنا هنا أن المشركين كانوا يحملون أصنامهم كلها أو بعضها معهم في الحروب ، ليستمدوا من وجودها معهم النشاط والعون في الحرب .

وحمل الأصنام مع القبيلة في ترحالها وفي حروبها وغزواتها يستلزم بذل عناية خاصة بها للمحافظة عليها من الكسر ومن تعرضها لأي سوء كان . وعند نزول القبيلة في موضع ما توضع الأصنام في سمتها ، وهي خيمة تقوم مقام المعبد الثابت عند أهل المدر . وتكون للخيمة بسبب ذلك قدسية خاصة ، وللموضع الذي تثبت عليه حرمة ما دامت الخيمة فوقه ، وقد كانت معابد القبائل المتنقلة كلها في الأصل على هذا الطراز . ولم يكن من السهل على أهل الوبر تغيير طراز هذا المعبد ، واتخاذ معبد ثابت ، لخروج ذلك على سنن الآباء والأجداد . ولذلك لم يرض العبرانيون عن المعبد

---

(١) صموئيل الثاني ، الاصحاح الخامس ، الآية ١٩ وما بعدها .

(٢) Robertson, P. 37.

(٣) الطبري (٣/١٤) « غزوة أحد » .

الثابت الذي أقامه سليمان ، لما فيه من نبذ للخيمة المقدسة التي كانت المعبد القديم لهم وهم في حالة تنقل من مكان الى مكان .

ولا بد أن تكون للقبائل العربية مثل هذه المعابد المتنقلة تتنقل معها في حلها وفي ترحالها ، لتوضع الأصنام فيها ، ولتطوف حولها . وتكون سدنتها بالطبع معها ليشرفوا على خدمة الأصنام ، وعلى تأدية الشعائر الدينية للقبيلة .

وطالما كان يعرض حمل المحاربين أصنامهم معهم فى الحروب الى وقوع تلك الأصنام في الأسر ، تقع كما يقع الانسان فى الأسر . بل يكون أسر الأصنام فى نظرهم أشد وقعاً فى نفوسهم من أسر الانسان . انها آلهة تدافع وتحامي ، انها آلهة القبيلة كلها ، فأسرها معناه فى عرفهم أسر القبيلة كلها ، فأسر الآلهة شيء كبير بالنسبة الى القبيلة . وقد سبق أن أشرت الى استيلاء الأشوريين على أصنام قبائل « عربي » التي حاربتهم ، والى أخذها أسيرة معهم الى أرض أشور ، والى مفاوضة العرب معهم على الصلح فى مقابل اعادة تلك الأصنام اليهم . فلما أعيدت الأصنام الى أصحابها ، كتب الأشوريون عليها كتابة تخبر بوقوعها فى الأسر ، لتكون نذيراً للمؤمنين بها ، يحذرهم من حرب ثانية توقع هذه الأصنام فى أسر جديد .

واعتقاد القبائل أن أصنامها هي التي تجلب لها النصر والخسارة ، كان يؤدي فى بعض الأحيان الى الإعراض عن الصنم المحبوب ونبذه . نتيجة لانهزام القبيلة ؛ اذ يتبادر الى ذهن تلك القبيلة أن تلك الهزيمة التي نزلت بها إنما كانت بسبب ضعف ربها واستكانته وعدم اقتداره فى الدفاع عنها ، ولذلك تقرر الاستغناء عنه والتوجه الى ربّ قويّ جديد . وقد يكون ذلك الرب هو رب القبيلة القوية المنتصرة ، أو رب قبيلة من القبائل التي عرفت بتفوقها فى الحروب ، فيكون التوفيق حليف ذلك الرب . وهكذا الأرباب فى نظر قبائل تلك الأيام كالناس لها حظوظ ، والحظ هو دائما فى جانب القويّ .

ويتبين من غربلة روايات الأخباريين أن عبادة الأصنام كانت منتشرة انتشاراً واسعاً قبيل الاسلام ، حتي كان أهل كل دار قد اتخذوا صنماً فى دارهم يعبدونه . « فإذا أراد الرجل منهم

سفراً ، تمسح به حين يركب ، فكان ذلك آخر ما يصنع حين يتوجه الى سفره ، واذا قدم من سفره تمسح به ، فكان أول ما يبدأ به قبل أن يدخل على أهله »[1]. وقد كان أشق شيء في نظر قريش نبذ تلك الأصنام وتركها وعبادة إله واحد (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذّاب . أجعل الآلهة إلهاً واحداً ، إنّ هذا لشيء عجاب . وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد . ما سمعنا بهذا في الملّة الآخرة إنْ هذا إلا اختلاق)[2].

ويفهم من هذه الآيات أن قريشاً إنما عجبت وقاومت الرسول ، لدعوته اياهم الى عبادة إله واحد ، بدلا من آلهة عديدة . وقد كانت دعوة التوحيد شديدة الوطأة عظيمة الوقع عليهم ، ولم تكن الأصنام في نظرهم الا وسائل تقربهم الى تلك الآلهة وتشفع لهم عندها ، لأنها رموز وصور لها تذكرهم بها ، فهي من هذه الناحية تنفعهم من حيث إنها تذكر الآلهة بالتمسكين بعبادتها ، فتنفعهم وتفيدهم ، كما أنها تضرهم وتصيبهم بالسوء اذا ابتعدوا عنها وغضوا النظر عن تقديس تلك الأصنام .

يقول ابن الكلبي : « واستهترت العرب في عبادة الأصنام فمنهم من اتخذ بيتاً ، ومنهم من اتخذ صنما . ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت ، نصب حجراً أمام الحرم وأمام غيره مما استحسن ، ثم طاف به كطوافه بالبيت .... فكان الرجل ، إذا سافر فنزل منزلا ، أخذ أربعة أحجار ، فنظر الى أحسنها فاتخذه ربّاً ، وجعل ثلاث أثافي لقدره . واذا ارتحل تركه . فإذا نزل منزلا آخر ، فعل مثل ذلك . فكانوا ينحرون ويذبحون عند كلها ويتقربون اليها »[3]. ويدل هذا الكلام على مبلغ انتشار عبادة الاحجار بين الجاهليين ، خاصةً بين الأعراب .

والرأي الذائع بين الأخباريين عن كيفية نشوء عبادة الأصنام قريب من رأي بعض العلماء المحدثين في هذا الموضوع . عندهم أن الناس لم يتعبدوا في القديم وفي باديء بدء للأصنام ، ولم

---

(١) ابن هشام (١/٦٤) « هامش الروض » . (٢) سورة ص : الآية ٤ وما بعدها .

(٣) الأصنام (ص ٣٣) .

يكونوا ينظرون اليها على أنها أصنام تعبد ، إنما صوّروهـا أو نحتوها لتكون صورة أو رمزاً تذكرهم أو يذكرهم بالإلـه أو الآلهة أو الأشخاص الصالحين . فلما مضى عهـد طويل عليهـا ، نسي الناس أصلهـا ، ولم يعرفوا أمرها ، فاتخذوهـا أصناماً وعبدوهـا من دون الله . وتحملنا رواياتهم في بعض الأحيان على الاعتقاد أنهم كانوا يعتقدون بعقيدة المسخ ، كالذي رووه عن الصنمين إساف ونائلة من أنهما « رجل وامرأة من جرهم ، وأن إسافاً وقع عليهـا في الكعبة فمسخا »[1] ، وبعقيدة التقمص كالذي رووه عن الصنم اللات من أنه كان انسـاناً من ثقيف ، فلمـا مات قال لهم عمرو بن لحيّ : لم يمت ، ولكن دخل في الصخرة . ثم أمرهم بعبـادتها وأن يبنوا عليها بنياناً يسمى اللات »[2].

وهـذه العقيدة هي التي خلقت للأخبـاريين جملة قصص عن وجود أرواح كامنـة في تلك الأصنام ،كانت تتحدث الى الناس ، وهي التي أوحت اليهم بذلك القصص الذي رووه بمناسبة أمر النبي بهدم الأصنام ، من خروج جن من أجوافها حينما قام بهدمها المسلمون . وقد كان أولئك الجنـة على وصفهم إناثاً ، والغالب أنهن على هيـأة زنجيات شمطاوات عجائز ، وقـد نثرن شعورهن[3]. وهي صور مرعبة ولا شك في نظر الناس ، ومن عادة الناس منذ القديم أن يمثلوا الجنة على هيأة نساء طاعنات في السن مرعبات .

والخوف من هذه الأرواح أو الجنة التي كانت تقيم في أجواف الأصنام على رأي الجاهليين ، حمل بعض من عهـد اليهم تحطيم تلك الأصنـام على التهيب من الإقـدام على مثل ذلك العمل ، خشية ظهورها وفتكها بمن تجاسر عليها . وهذا الخوف هو الذي أوحى اليهم ولا شك برواية هذا القصص المذكور .

---

(١) الروض الأنف (١/٦٤) .

(٢) البلدان (٧/٣١٠) « اللات » .   (٣) المصدر نفسه .

الفصل الرابع

الأصنام

نظرية ابن الكلبي ومن لف لفه من الأخباريين أن نسل اسماعيل بن ابراهيم لما تكاثر بمكة حتى ضاقت بهم ، وقعت بينهم الحروب والعداوات ، فأخرج بعضهم بعضاً ، فتفسحوا في البلاد التماساً للمعاش . وكان كلما ظعن من مكة ظاعن حمل معه حجراً من حجارة الحرم ؛ تعظيماً للحرم وصبابة بمكة . فحيثما حلوا ، وضعوه ، وطافوا به كطوافهم بالكعبة ، تيمناً منهم بها وصبابة بالحرم وحباً له . وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة ، ويحجون ويعتمرون ، على إرث ابراهيم واسماعيل .

« ثم سلخ بهم الى أن عبدوا ما أستحبوا ، ونسوا ما كانوا عليه ، واستبدلوا بدين ابراهيم واسماعيل غيره ، فعبدوا الأوثان ، وصاروا الى ما كانت عليه الأمم من قبلهم ، وانتجثوا ما كان يعبد قوم نوح منها ، على إرث ما بقي فيهم من ذكرها ، وفيهم على ذلك بقايا من عهد ابراهيم واسماعيل يتنسكون بها : من تعظيم البيت ، والطواف به ، والحج والعمرة ، والوقوف على عَرَفَةَ ومُزْدَلِفة ، وإهداء البدن ، والإهلال بالحج والعمرة ، مع ادخالهم فيه ما ليس منه .

فكانت نِزارٌ تقول إذا ما أهلت : « لبيك اللهم ! لبيك ! لبيك ! لا شريك لك ! إلا شريك هولك ! تملكه وما ملك ! » . ويوحدونه بالتلبية ، ويدخلون معه آلهتهم ، ويجعلون ملكها بيده ... » .

فكان أول من غيّر دين إسماعيل ، عليه السلام ، فنصب الأوثان ، وسيب السائبة ،

ووصل الوَصيلة ، وبحر البحِيرَة ، وحمى الحامية ، عمرو بن ربيعة ، وهو لُحَي بن حارثة بن عمرو بن عامر الأزدي ، وهو أبو خزاعة .

وكانت أم عمرو بن لُحَيّ ، فهيرة بنت عمرو بن الحارث ، ويقال : قمعة بنت مضاض الجُرْهُميّ .

وكان الحارث هو الذي يلي أمر الكعبة . فلما بلغ عمرو بن لحي ، نازعه في الولاية ، وقاتل جرهماً ببني اسماعيل ، فظفر بهم ، وأجلاهم عن الكعبة ، ونفاهم عن بلاد مكة ، وتولى حجابة البيت بعدهم .

ثم إنه مرض مرضاً شديداً ، فقيل له : إنّ بالبلقاء من الشأم حمّةً إنْ أتيتها ، برأتَ . فأتاها ، فاستحم بها ، فبرأ . ووجد أهلها يعبدون الأصنام ، فقال : ما هذه ؟ فقالوا : نستسقي بها المطر ، ونستنصر بها على العدو . فسألهم أن يعطوه منها ، ففعلوا . فقدم بها مكة ، ونصبها حول الكعبة »[1] . ثم أخذ عمرو بن لحيّ في توزيع الأصنام على القبائل . وبذلك شاعت عبادة الأصنام بين الناس .

هذه رواية شهيرة معروفة بين الأخباريين عن منشأ عبادة الأصنام وانتشارها عند العرب . وفي رواية أخرى : « كان أول من اتخذ تلك الأصنام ، (من ولد اسماعيل وغيرهم من الناس ، وسموها بأسمائها على ما بقي فيهم من ذكرها حين فارقوا دين اسماعيل) هُذَيل بن مُدْرِكَة »[2] . فنسبت هذه الرواية اتخاذ الأصنام الى هذيل .

وهناك روايات أخرى في هـذا المعنى تتفق مع الرواية الأولى من حيث الجوهر ، ولا تختلف معها إلا في بعض التفاصيل ؛ ففي رواية أن عمرو بن لحيّ حينما قدم مآباً من أعمال البلقاء ، وهي يومئذ بأيدي العماليق ، ووجدهم يتعبدون للأصنام ، سألهم أن يعطوه صنماً منها ليسير به

---

(١) الأصنام (ص ٦ وما بعدها) ، الاشتقاق (ص ٢٧٦) ، بلوغ الأرب (٢/٢٠٠) ، البلدان (٨/٤٠٨ وما بعدها) « ود » .

(٢) الأصنام (ص ٩) .

الى أرض العرب ليعبـدوه ، فأعطوه الصنم هُبَـل ، فأخذه ، وقدم به الى مـكة فنصبه ، وأمر الناس بعبادته(١) . فمينت هذه الرواية القوم الذين ذهب اليهم عمرو بن لحي ، والموضع الذي نزل به ، وثبتت اسم الصنم الذي أخـذه منهم . وهي زيادات لم نجدها في كتاب الأصنـام . غير أن تشابه عبارات هذه الرواية التي ذكرها ابن هشام مع رواية ابن الـكلبي ، تدل على أن النبع واحـد ، وانما الخلاف هو فى ذكر بعض الفروع ، وفي اختصار بعض المواضع ، والإطناب فى مواضع أخرى .

وفى رواية أخرى عن ابن الـكلبي كذلك ، وهي فى كتابه الأصنام ، ترجع أيضاً عبـادة الأصنام الى عمرو بن لحيّ ، غير أنها تروي الخبر فى صيغة أخرى ، فتقول :

« وكان عمرو بن لحي ، وهو ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن ثعلبة بن امرئ القيس بن مازن بن الأزد ، وهو أبو خراعة ، وأمه فهيرة بنت الحارث ، ويقال : إنها كانت بنت الحارث بن مُضاض الجُرهمي ، وكان كاهناً . وكان قد غلب على مكة وأخرج منها جرهماً ، وتولى سدانتها . وكان له رَئِيٌّ من الجن ، وكان يكنى أبا ثُمامة ، فقال له : عجل بالمسير والظعن من تِهامة ، بالسعد والسلامة ! قال : جـيْرِ ، ولا إقامة .

قال : ايت ضَفَّ جُدَّةَ ، تجدْ فيها أصناماً معدّة ، فأوردْها تِهامة ولا تهاب ، ثم أدْعُ العرب الى عبادتها تجاب .

فأتى شطَّ دجلة ، فاستثارها ، ثم حملها حتى ورد تِهامة ، وحضر الحجّ ، فدعا العربَ الى عبادتها قاطبة .

فأجابه عوف بن عُذْرة بن زيد اللات بن رفيدة بن ثور بن كلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة ، فدفع اليه ودّاً . فحمله الى وادي القُرَى ، فأقره بدُومة الجندل . وسمى ابنه عبد ودّ . فهو أول من سمى به ، وهو أول من سَمّى عبـد ودّ ، ثم سمت

---

(١) سيرة ابن هشام : وقد طبعت في هامش كتاب الروض الأنف للسهيلي (طبع المطبعة الجمالية بالقاهرة) سنة ١٩١٤ (ص ٦٢) .

العرب به بعد »[1] .

فهذه الرواية هي على شاكلة الرواية الأولى فى منشأ عبادة الأصنام بين العرب قبل الاسلام بحسب رأي الأخباريين بالطبع ، سوى اختلافها عنها فى المكان الذي أخذت الأصنام منه . فهنا جُدّة على ساحل البحر الأحمر ، وهناك البلقاء من أعمال الشأم . والموضعان ، وإن كانا يختلفان موقعاً ، يتفقان فى شيء واحد هو وقوعها على حدّ مقصود ، يرده الأجانب منذ القديم للاتجار . فهل يعني هذا استيراد تلك الأصنام من الخارج ، من الشأم أو من مصر ، وأنها كانت من عمل أهل الشأم أو أهل مصر أو من عمل الروم أو الرومان ؟

ولست أظن أن الرواة قد أقحموا اسم « عمرو بن لحيّ » فى قصة انتشار عبادة الأصنام في جزيرة العرب اقحاماً من غير أصل ولا أساس ، فلا بد من أن تكون للرجل صلة ما بعبادة الأصنام عند الجاهليين ، ولا بد أن يكون من الرجال الذين عاشوا قبيل الاسلام ، لا قبل ذلك كما يدعي الأخباريون ، فما كان خبره ليصل اليهم على هذا النحو لو كان زمانه بعيداً عنهم البعد الذي تصوروه . وأرى من وصف الأخباريين له أنه كان حاكماً ، وكان كاهناً أي على شاكلة « المكربين » « المقربين » الذين كونوا الطبقة الأولى من حكومة سبأ على نحو ما قدّمت فى أثناء الكلام على حكومة السبئيين .

والظاهر أن هذا الحاكم الكاهن ، ثبت حكمه على مكة سياسياً ودينياً بسيطرته على السلطتين . وقد أراد أن يمكن لحكمه ، فاستورد أصناماً متقنة الصنع من الخارج : إما من الشأم عن طريق البلقاء ، وإما من جُدّة عن طريق البحر ، فوضعها فى مكة . فكان لصنعها المتقن ولمهارة الفنانين فى صنعها أثر فى نفوس المتدينين ، جعلهم يروون ذلك لمن جاء من بعدهم ، فصار القصص مبدءاً لعبادة الأصنام عند العرب أجمعين .

وعمرو بن لحيّ هو على اختلاف الروايات أول من غير دين اسماعيل ، فنصب الأوثان ، وسيب السائبة ، ووصل الوصيلة ، وبحر البحيرة ، وحمى الحامي[2] . فقأ عين عشرين بعيراً ،

---

(١) الأصنام (ص ٥٤ وما بعدها) .

(٢) بلوغ الأرب (٢/٢٠٠) ، الأغاني (١٣/١٠٩) .

فصارت العادة أن يفقأ عين الفحل من الإبل اذا بلغت الإبل ألفاً . فاذا بلغت الفين ، فقئت العين الأخرى (١) . وقد نسب اليه كلام طويل ، وزُعِم له عمر مديد ، وقصص أخرجه من عالم الواقع الى عالم القصص والأساطير ، ورَجَعَ عصرَهُ الى أيام سابور ذي الأكتاف (٢) وذكر أن العرب جملته « ربّما لا يبتدع لهم بدعة إلا اتخذوها شرعة ؛ لأنه كان يطعم الناس ويكسو في الموسم ، فربما نحر في الموسم عشرة آلاف بدنة وكسا عشرة آلاف حلّة » (٣) وكان يلت لهم السويق على صخرة اللات ، الى غير ذلك من قصص يروونه عنه .

ونظرية أن العرب جميعاً كانوا في الأصل موحدين ، ثم حادوا بعد ذلك عن التوحيد فعبدوا الأوثان وأشركوا ، نظرية يقول بها اليوم بعض العلماء مثل « ويليم شميد Wilhelm Schmidt » الذي درس أحوال القبائل البدائية وأنواع معتقداتها ، فرأى أن عقائد هذه القبائل البدائية الوثنية ترجع بعد تحليلها وتشريحها ودرسها الى عقيدة أساسية قائمة على الاعتقاد بوجود « القديم الكل » أو « الأب الأكبر » الذي هو في نظرها العلة والأساس . فهو إله واحد . وتوصل الى أن هذه العقيدة هي عقيدة سبقت التوحيد ، ثم ظهر من بعدها الشرك . وقد أطلق عليها في الألمانية مصطلح « Urmonotheismus » أي التوحيد القديم (٤) .

ويأخذ بهذه النظرية علماء اللاهوت وبعض الفلاسفة ، وفي الكتب السماوية تأييد لها أيضاً (٥) . فالشرك وعبادة الأصنام بحسب هذه النظرية ، نكوص عن التوحيد ، ساق اليه الانحطاط الذي طرأ على عقائد الإنسان فابعده عن عبادة الله .

وفي العربية كلمات لها صلة بالوثنية وبديانات العرب قبل الاسلام ، منها الصنم والوثن وجمعها الأصنام والأوثان . والصنم هو ما اتخذ إلهاً من دون الله في تعريف اللغويين . وأما الوثن فهو

---

(١) الروض الأنف (١/٦٢) ، ابن هشام (١/٥٠) « طبعة وستنفلد » .

(٢) Ency., I, P. 336, Caussin de Perceval, Essai, I, P. 215, Wustenfeld, Die Chroniken Der Stadt Mekka, I, 55, 58, 72, 74, 132, 402, II, P. 6.

(٣) الروض الأنف (١/٦٢) .

(٤) Schmidt, S. 687, W. Schmidt, Der Ursprung der Gottesidee, 4 Ed, 1912.

(٥) Ency. Religi., vol., 7 p. 113.

مثل الصنم ، أي كلمة مرادفة لتلك الكلمة في عرف بعض العلماء . غير أن فريقاً آخر ومنهم ابن الكلبي فرّق بين الكلمتين ، فقالوا : ان الصنم هو المعمول من الخشب أو الذهب أو الفضة أو غيرها من جواهر الأرض ، وأما الوثن فهو ما صنع من حجارة . وقال بعض آخر إن الصنم ما كان له صورة كالتمثال ، وأما الوثن فهو ما لا صورة له . وقالوا العكس ، أي أن الوثن كلّ ما له جثة معمولة من جواهر الأرض أو من الخشب أو من الحجارة كصورة الآدمي ، والصنم الصورة بلا جثة [1] .

وقال فريق : « يقال لكل صنم من حجر أو غيره صنم ولا يقال وثن إلاّ لما كان من غير صخرة كالنحاس ونحوه » [2] . ومهما يكن من شيء فإن للكلمتين صلة بعبادة العرب قبل الاسلام .

وقد وردت كلمة « أصنام » [3] و « أصناما » [4] و « الأصنام » [5] و « أصنامكم » [6] فى القرآن الكريم بحسب مواقع الكلمة فى الجملة ، ويفهم من الآية : « ما نعبُدُهم إلاّ ليقربونا الى الله زُلْفَى » [7] . ومن تفاسير المفسرين أن عبدة الأصنام إنما عبدوا هذه الأصنام ، لتكون واسطة بينهم وبين الله تذكرهم بها وتقربهم اليها فينالوا بذلك الزلفى لديها [8] .

ويذكر علماء اللغة أن كلمة « صنم » ليست عربية أصيلة ، وإنما هي معربة وأصلها « شمن ؟ » « شنم » ، ولكنهم لم يذكروا اسم اللغة التي عربت منها [9] . و « صنم » هي « صلم » فى العبرانية ، لذلك ذهب بعض المستشرقين الى أنها قد أخذت منها [10] . وهو رأي فيه تسرع وهو

---

(١) تاج العروس (٩/٣٥٨) « وثن » (٨/٣٧١) « صنم » ، لسان العرب (١٥/٢٤١) ، (١٧/٣٣٣) ، القاموس (٤/١٤١ ، ٢٧٤) ، الأصنام (ص ٥٣) .

(٢) الروض الأنف ١/٦٢) . (٣) الأعراف الآية ١٣٧ .

(٤) الأنعام الآية ٧٤ ، الشعراء الآية ٧٢ . (٥) ابراهيم الآية ٣٥ .

(٦) الأنبياء الآية ٥٧ . (٧) الزمر الآية ٣ . (٨) بلوغ الأرب (٢/١٩٧) .

(٩) القاموس (٤/١٤١) ، تاج العروس (٨/٣٧١) ، لسان العرب (١٥/٢٤١) .

(١٠) « صلم » والجمع « اصلم » « صلمن ذ صرفن و صلمنهن ذ ذهبن » ، أي التمثال الذي هو من فضة . والتمثالان اللذان هما من ذهب » ، راجع النص في « غويدي : المختصر في علم اللغة العربية الجنوبية القديمة » (ص ١٩) .

فى نظري من قبيل كثير من الآراء التي تحاول ارجاع نسبة أكثر الأمور الواردة عند العرب الى غيرهم ، إنسياقاً مع الفكرة الخاطئة الحاصلة عندهم من اعتقادهم بيداوة جميع العرب وبداءة أفكارهم الدينية ؛ فإن كلمة « صلم » و « صلمن » من الكلمات الواردة فى اللهجات العربية القديمة قبل الاسلام فى نصوص المسند مثلا ، وهي بمعنى تمثال ، أي المعنى الذي يذكره اللغويون نفسه.

أما « صلم » فى الكتابات التي عثر عليها فى أعالي الحجاز ، فهو صنم كانت عبادته مزدهرة بمدينة « تيماء » . ويرجع بعض المستشرقين تأريخ ازدهار عبادة هذا الصنم الى حوالي سنة « ٦٠٠ » قبل الميلاد . وقد ورد اسمه علماً لأشخاص فى الكتابات اللحيانية . ورمز عنه برأس ثور فى كتابات قوم ثمود [١] .

وأما كلمة « وثن » ، فهي من الكلمات العربية القديمة الواردة فى نصوص المسند كذلك . ويظهر من استعمال هذه الكلمة فى النصوص مثل : « وليذبحن وثنن درا بخرفم ذبحم صححم انثيم فاو ذكرم » أي « وسيذبح للوثن مرة فى السنة ذبحاً صحيحاً أنثى أو ذكراً » [٢] . أن الوثن هو الذي يرمز الى الإلٓه ، أي بمعنى الصنم فى القرآن الكريم .

ويظهر من استعمال كلمتى « صلمن » « الصلم » « صلم » و « وثنن » « الوثن » أن هناك فرقاً بين الكلمتين فى نصوص المسند . فإن كلمة « صلمن » « صلم » تعني فى الغالب « تمثالا » يصنع من الفضة أو الذهب ، ويقدم الى الآلهة لتوضع في معابدها تقرباً اليها ، لإجابتها دعاء الداعين بشفائهم من مرض أو قضاء حاجة ، أي أنها تقدم لنذر . أما الوثن فإنه الصنم فى لهجتنا ، أي الرمز الى الإلٓه ، اليه تذبح الذبائح وله تقرب القرابين ، فابن الكلبي وأضرابه من الذين يرون وجود فرق بين الكلمتين ، هم على حق فيما ذهبوا اليه .

وهناك اصطلاح ديني آخر من مصطلحات الدين عند العرب قبل الاسلام هو النُصُب والأنصاب . وقد ذهب اللغويون مذاهب فى تحديد معنى الكلمة ، فرأى بعضهم أن النصب كل ما عبد من دون الله تعالى ، وذهب بعض آخر الى أن النصب صنم أو حجر كانت الجاهلية تنصبه ،

---

(١) Grimme , S. 23.   (٢) المختصر ص (١٨ سطر ٨).

وتذبح عنده ، فيحمر للدم ، وذهب آخرون الى أن الأنصاب حجارة كانت حول الكعبة تنصب فيهل عليها ، ويذبح لغير الله تعالى [1] .

والواقع أن من الصعب تحديد معنى نصب ، فقد كان من عادة العرب اتخاذ الأحجار أصناماً لهم ينصبونها في بيوت خاصة أو في بيوتهم ، ثم يعبدونها ، ويذبحون عندها . وقد كان من عادتهم كذلك نصب الأحجار على القبور ، ويقولون لها نصب ، ثم يأتون اليها وينحرون عندها ويتقربون اليها ، وقد تقدس بمرور الأيام ، ويتقرب الناس الى صاحب القبر فيصبح الموضع مزاراً. فهل نشأت عبادة الأحجار من نصب القبور ؟ أو أن نصب القبور شيء آخر لا علاقة له بعبادة الأحجار ؟

وقد وردت كلمة « النُّصُب » في القرآن الكريم في باب اللحوم المحرمات التي لا يجوز أكلها في الآية : « حرمت عليكمُ المَيتَةُ والدمُ ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمُنخَنِقة والموْقُودَةُ والمتردّية والنَطِيحَةُ وما أكل السَّبُعُ إلاّ ما ذكّيتم وما ذبح على النصب » [2]، فجعلت الذبائح التي تذبح على النصب للأصنام في جملة اللحوم التي لا يحل للمسلم أكلها ، فيفهم من هذه الآية أن النصب ، كانت مواضع تذبح عليها القرابين .

ووردت كلمة « نصب » في الآية : « يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم الى نصب يُوفضون » [3]. ويفهم من هذا الموضع أن النصب شيء منصوب .

ونصب هي « نصب » و « مصب » في اللهجات العربية الجنوبية ، و « نصب » و « مصبت » في الفينيقية ، و « مصبه Messeba » في العبرانية [4] . ويراد بها مذبح ، تذبح عليه القرابين والضحايا التي يقدمها المتعبدون الى معبودهم « deity » . ويعرف بـ « Altar » أي مذبح في الانكليزية . وهو من حجر واحد في الأصل ، قد يذبح عليه ،

---

(١) القاموس (١/١٣٢) « نصب » ، تاج العروس (١/٤٨٦) « نصب » ، لسان العرب (٢/٢٥٩ وما بعدها) « نصب » ، الأصنام (ص ٩٧) .

(٢) المائدة : الآية ٣ .

(٣) المعارج : الآية ٤٣ .

(٤) Ency. , III , 967.

فيسيل الدم فوقه ويتلطخ به ، ويكون فى نظرهم بمثابة المعبود الذي تقدم الضحية اليه . وقد يلطخ جزء من المذبح بالدم ، ويسيل الدم عند قاعدته . وأما حرق لحم الذبيحة كله أو بعضه ، فهو من الشعائر الدينية المتأخرة [١] .

وإذ كان لهذه النصب أثرها المهم فى حياة اهل الجاهلية الدينية والعقليـة ، كان من الطبيعي أن يعمد الاسلام الى تحريمها مع الخمر والميسر والأزلام كما نصت على ذلك هذه الآية الـكريمة : « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمرُ والمَـيْسِـرُ والأنصـــابُ والأزلامُ رِجْـسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلـكم تُـفْـلحون » [٢].

والبعيم صنم ، والتمثال من الخشب . وأما الدمية ، فهو ما كان من الصمغ [٣] .

وذهب بعض المفسرين الى أن المراد بالجبت والطاغوت في الآيه : « ألم تَرَ الى الذين أوتوا نصيباً من الـكتابِ ، يؤمنون بالجِبْـتِ والطاغوتِ » [٤] السحر والشيطان . وورد في الحديث أن « الطيرة والعيافة والطرق من الجبت » [٥] .

ولم يفرق الأخباريون بين الأصنام العربية الأصيلة أي الأصنام القديمة التي نشأت عبادتها وأينعت فى جزيرة العرب ، وبين الأصنام الدخيلة أي الأصنام التي دخلت الى العرب من الخارج، خاصة من الشعوب السامية الأخرى المقيمة فى شمال الجزيرة . نعم ، لقد أشـاروا الى أصل بعض الأصنام فى بعض الأحيان ، وذكروا أن فلاناً أو القبيلة الفلانية استوردها أو اسـتوردوها من المحل الفلاني ، ولـكنهم لم يشيروا الى أصل عبادتها ولا الى أصل أكثرية الأصنـام الأخرى. وبين هذه الأصنام التي عرفها الأخباريون عدد كبير دخل الى جزيرة العرب من الشعوب السامية المقيمة فى العراق وفى بلاد الشأم وفلسطين . عبدتها القبائل الاسماعيليـــة المجاورة لهذه الأقطار ، وهي القبائل التي عرفت بـ « Saracene » عند « الكلاسيكيين » ، فانتقلت عبادتها

---

(١) Hastings . p. 23.
(٢) المائدة الآية ٩٢ .
(٣) الأصنام (ص ١٠٨) « تكملة » .
(٤) النساء الآية ٥١ .
(٥) الأصنام (١٠٨) .

منها نحو الجنوب حتى وصلت الى « مكة » ، فجاورت هناك وفى مواضع أخرى من مواضع العبادة بقية الأصنام [١] .

وليست عبادة الأصنام والأوثان عبادة خاصة بالعرب ، بل هي عبادة كانت معروفة عند غيرهم من الشعوب السامية ، وعند غير الساميين ، كما أنها لا تزال موجودة قائمة حتى الآن .

وتقابل لفظة « صنم » لفظة « Idol » في الانكليزية و « Gotzen » فى الألمانية . وأما عبـادة الأصنام فتقابل مصطلح « Idolatry » . وتعني عبـــادة الأصنام والأوثان والصور « Images » وكل شيء آخر يرمز الى كائن هو فوق الطبيعة [٢] وقد عبر عنهـــا بـ « Idololatria » و « Idolatria » فى العهد الجديد [٣] .

ويمثل الصنم قوة عليا هي فوق الطبيعة ، وقـد يظن أنها كامنة فيه [٤] . وتكون الأصنام على أشكال مختلفه . قد تكون على هيأة بشر ، وقد تكون على هيأة حيوان أو أحجار أو أشكال أخرى .ولهذه الأصنام عند عابديها مدلولات وأساطير. وهي تصنع من مواد مختلفة ، من الحجارة ومن الخشب ومن المعادن ومن أشـياء أخرى بحسب درجة تفكير عَبَدتهـا وتأثرهم بالظواهر الطبيعية وبالمؤثرات التي تحيط بهم . وقد تستخدم خُشُبٌ خاصة تؤخذ من أشجار ينظر اليها نظرة تقديس واحترام فى عمل الأصنام منها . ويتوقف صنعها على المهـارة التي يبديها الفنان فى الصنع . ويحاول الفنان فى العادة أن يعطيها شـكلا مؤثراً له علاقة بالأسـاطير القديمة وبالـكائن الذي سيمثله الصنم . وقد يكون الصنم من حجارة طبيعية عبدها عن أجداده كأن يـكون من حجارة البراكين ، وقد يكون من النيازك عبدها لظنه بوجود قوة خارقة فيها .

ولعبـادة الأصنام صلة وثيقة بتقديس الصور « Images » . وكـذلك بصور السحر « Magical images » . فكل هذه الأشكال الثلاثة هي فى الواقع عبـــادة . ونعني هنا بتقديس الصور ، الصور المقدسة التي تمثل أسطورة دينية أو رجالاً مقدسـين كان لهم شـأن فى

---

(١) Handbuch , I , S. 182.

(٢) Ency. , 12 , P. 71

(٣) I Cor. , X , 14 . Gal. , V , 20 , I Peter IV , 3 , Col . , III , 5.

(٤) Ency. Religi. 7, P. 112.

تطور العبادة ، أو جاؤوا بديانة ، وأمثال ذلك ، فأحب الداخلون في ذلك الدين حفظ ذكراهم وعدم نسيانهم أو الابتعاد عنهم ، وذلك بحفظ شيء يشير اليهم ويذكرهم بهم ، وهذا الشيء قد يكون صورة مرسومة ، وقد يكون صورة محفورة أو منحوتة أو مصنوعة على هيأة تمثال أو رمز يشير الى ذلك المقدس [١] . وهذه الأشياء المقدسة (وان كانت ليست بدرجة الأصنام في نظر الناس من حيث أن الأصنام ترمز الى الآلهة وهذه ترمز الى أساطير أو أشخاص) نوع من العبادة على كل حال ، ينظر اليها نظرة تقديس واجلال ، كما ينظر الوثنيون الى الأصنام .

ونجد في كتاب الأصنام لابن الكلبي وفي المؤلفات الأخرى أسماء عدد من الأصنام كان الجاهليون يعبدونها ، وهي على الأكثر أصنام لم يرد ذكرها في النصوص الجاهلية . أما التي ورد أسمها في النصوص ، فهي قليلة محدودة . وهناك طائفة من الأصنام عرفنا أسماءها من النصوص لم يشر اليها الاسلاميون ، مما يدل على عدم وقوفهم عليها . والواقع أنها أصنام كانت عبادتها شائعة قبل الاسلام بزمن ، ثم تطورت الاحوال ونسيت عبادتها ، فجهلت أسماؤها ، ولم يكشف عنها غير تلك النصوص التي بجدت أسماءها يوم كان لتلك الأصنام ذكر وصيت .

ونجد في أخبار فتح مكة أن الرسول حينما دخل الكعبة رأى فيها صور الأنبياء ، فأمر بها فمحيت . ورأى فيها ستين وثلاث مئة صنم ، فأمر بها فكسرت [٢] . ومهما قيل في هذا العدد ، فإنه عدد ضخم . وهو لا يعني بالضرورة أن كل صنم من هذه الأصنام ، كان مستقلاً قائماً بذاته يمثل معبوداً واحداً ، إنما هي في الواقع أصنام مكررة لأصنام يمكن أن تكون معدودة ، أرادت القبائل أو الأشخاص حفظها في الكعبة ، فكثر لذلك هذا العدد ، وكان لكل قبيلة صنم هناك على ما يذكره الأخباريون .

أما هذه الصور ، فلم يذكر وصفها ، ولعلها صور ملائكة استوردت من الشأم من عمل النصارى ، ووضعت في الكعبة مع الأصنام ، لأنها معبودة كذلك ، إذ لا يعقل أن تكون هذه صوراً للأنبياء توضع في الكعبة ودين أهل الكعبة دين وثنية وشرك .

---

(١) Encv. Religi . Vol. , 7 . p. 110.

(٢) ابن الأثير (٢/١٠٥) « ذكر فتح مكة » .

وفى طليعة الأصنام التي ذكرها ابن الكلبي ، الصنم ودّ ، وهو أحد الأصنام المذكورة في القرآن الكريم ، وهي : سُواعٌ ويَغُوثُ ويَعُوقُ ونَسْر [١] . وسأتحدث عن الصنم ودّ في الفصل الخاص بالآلهة عند العرب الجنوبيين .

أما سُواع ، فكان موضعه برُهاط ، وهو صنم هُذَيْل . وكان حجراً وكان الذي هدمه عمرو ابن العاص . وينسب ابن الكلبي انتشار عبادته كعادته الى عمرو بن لُحَيّ ، فذكر أن مضر ابن نِزار أجابت عمرو بن لُحَيّ ، فدفع الى رجل من هُذَيْل ، يقال له الحارث بن تميم بن سعد ابن هذيل بن مدركة بن الياس بن مضر ، سُواعاً ، فكان بأرض يقال لها رهاط من بطن نخلة ، يعبده من يليه من مضر[٢] ، وجعلت رهاط من أرض ينبع ، في رواية تنسب الى ابن الكلبي ، وينبع عرض من أعراض المدينة[٣] .

وجعل ابن الكلبي هُذَيْلَ بن مُدركة في طليعة من اُتخذ الأصنام من ولد اسماعيل . ذكر أنهم اتخذوا سواعاً ، فكان لهم برهاط من أرض ينبع ، وذكر أن سدنته بنو لحيان ، وأنه لم يسمع بورود اسم هذا الصنم في شعر هُذَيْل ، إنما سمع بورود اسمه في شعر رجل من

---

(١) نوح : الآية ٢٢ — ٢٣ ، مجمع البيان في تفسير القرآن لأبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي : المجلد الخامس (ص ٣٦٢) « طبع مطبعة العرفان : صيدا ١٩٣٧ » ، وسيكون رمزه الطبرسي ، الروض الأنف (٦٣/١) .

(٢)

تراهم حول قيلهم عكوفاً	كما عكفت هذيل على سواع
يظل جنابه برهاط صرعى	عتائر من ذخائر كل راع

الأصنام (ص ٥٧) ، البكري (٦٩٧/٢) « رهاط » ، الطبري (١٢٣/٣) « حوادث السنة الثامنة » ، سبائك الذهب (ص ١٠٤) ، بلوغ الأرب (٢٠١/٢) ، تاج العروس (٢٩٠/٥) ، المفردات في غريب القرآن (ص ٢٤٩) .

(٣) البلدان (٣٤١/٣) « رهاط » ، الطبرسي (٣٦٤/٥) ، « وسواع بالضم في قوله تعالى ولاتذرن وداً ولا سواعاً . والفتح لغة فيه . وبه قرأ الخليل اسم صنم كان لهمدان . وقيل عبد في زمن نوح عليه السلام ، فدفنه الطوفان فاستثاره ابليس لأهل الجاهلية . فعبد من دون الله عز وجل كذا نص الليث . وزاد الجوهري ثم صار لهذيل ، وكان برهاط وحج اليه . » تاج العروس (٢٩٠/٥) ، اللسان (٢٤/١٠) ، القاموس (٤٢/٣) « سوع » .

اليمن[1] . وفي رواية أن سواعاً صنم من أصنام همدان ، وأنه كان على صورة إمرأة[2] .

وهنـاك رواية تجعل موضع سواع بنعمان ، وتذكر أن عبدته هم : بنو كنانة وهذيل ومزينة وعمرو بن قيس بن عيلان ، وأن سدنته بنو صاهلة من هذيل[3] . وتجعل رواية أخرى موضعه بنخلة على مقربة من مكة[4] . وفي رواية أن عبدة سواع هم آل ذي الكلاع[5] .

وهناك رواية طريفة عن الصنم سواع تزعم أن سواعاً كان أبناً لشيث ، وأن يغوث كان أبناً لسواع ، وكذلك كان يعوق ونسر ، كلما هلك الأول صورت صورته وعظمت لموضعه من الدين . ولما عهدوا فى دعائه من الإجابة ، فلم يزالوا هكذا حتى خلفت الخلوف ، وقالوا : ما عظّم هؤلاء آباءنا إلاّ لأنها ترزق وتنفع وتضر ، واتخذوها آلهة . وهناك رواية أخرى تزعم أن الأوثان التي كانت فى قوم نوح ، كانت فى الأصل أشخاصاً صالحين من قوم نوح . فلما هلكوا ، أوحى الشيطان الى قومهم أن انصبوا فى مجالسهم التي كانوا يجلسونها أنصاباً ، وسمّوها بأسمائها ، ففعلوا ، فلم تعبد ، حتى إذا هلك أولئك وتنوسخ العلم بها عبدت[6] .

واذا كانت هـذه الروايات تكتفي بهذا القدر من الحديث عن أصل ظهور عبادة الأصنام وعن كيفيتها وتحولها من صور لأشخاص أحياء الى عبادة حجر يقوم مقام الأشخاص ، فإن هناك روايات عن أصنام أخرى تجعلها أشخاصاً مسخوا حجراً ، فعبدوا أصناماً ، وصاروا آلهة فى نظر الناس ، تعبد لأنها فى نظرهم تنفع وتضر .

ويرى نولدكه أن سواعاً لم يكن من الأصنام الـكبرى عند ظهور الإسلام ، وهو فى نظره من الأصنام التي لم يرد اسمها فى الأعلام المركبة ، ويدل عدم ورود اسمه فى هذه الأعلام على عدم اشتهار عبادته بين القبائل بالطبع[7] .

---

(١) الأصنام (ص ٩ وما بعدها ، ٥٧) ، الطبرسي (٥/٣٦٤) ، الطبري (٣/١٢٣) « حوادث السنة الثامنة » .

(٢) الـكشاف (٤/١٤٣) .

(٣) الأصنام (ص ٩) ، البكري (٢/٦٧٩) « رهاط »

(٤) المحبر (ص ٣١٦) .

(٥) Reste. S. 19.

(٦) الروض الأنف (١/٦٢) ، الطبرسي (٥/٣٦٤) .

(٧) Ency. Religi. I. P. 663.

وأما يغوث ، فكان أيضاً على رواية ابن الكلبي في جملة الأصنام التي فرقها عمرو بن لحي على من استجاب الى دعوته من القبائل ، دفعه الى أنعم بن عمرو المرادي فوضعه بأكمة مذحج باليمن ، فعبدته مذحج ومن والاها وأهل جرش[1] . وقد بقي في أنعم الى أن قاتلتهم عليه بنو غطيف من مراد ، فهربوا به الى نجران ، فأقروه عند بني النار من الضباب ، من بني الحارث بن كعب . واجتمعوا عليه جميعاً[2] . وفي رواية أن عبدة يغوث هم بنو غطيف من مراد[3] .

وفي رواية أن يغوث بقي في أنعم وأعلى من مراد ، الى أن أجتمع أشراف مراد وتشاوروا بينهم في أمر الصنم ، فقر رأيهم أن يكون فيهم . فبلغ ذلك من أمرهم الى أعلى وأنعم ، فحملوا يغوث وهربوا به حتى وضعوه في بني الحارث بن كعب في وقت كان النزاع فيه قائماً بين مراد وبني الحارث بن كعب . فلما ابت بنو الحارث تسليم الصنم الى مراد ، وتسوية أمر الديّات ، أرسلت مراد جيشاً عليها ، فاستنجدت بنو الحارث بهمدان ، فوقعت معركة بين الطرفين عرفت بيوم الرزم ، انهزمت فيها مراد ومنيت بخسارة كبيرة قبيحة ، وبقي الصنم في بني الحارث . وقد صادف وقوع يوم الرزم في يوم بدر[4] .

وذكر الطبرسي أن بطنين من طيء أخذا يغوث ، فذهبا به الى مراد ، فعبدوه زماناً ، ثم إن بني ناجية أرادوا أن ينزعوه منهم ، ففروا به الى بنى الحارث بن كعب[5] .

يظهر من غربلة هذه الروايات أن الصنم يغوث كان في جرش ، أو على مرتفع قريب من هذه

---

(١) الأصنام (ص ١٠ ، ٥٧) ، اللسان (٢/٤٨٠) « غوث » ، تاج العروس (١/٣٣٧) « غوث » ، قال الشاعر :

وسار بنا يغوث الى مراد   فناجزناهم قبل الصباح

البلدان (٨/٥١١) « يغوث » ، الروض الأنف (١/٦٣) ، سبائك الذهب (ص ١٠٤) ، بلوغ الأرب (٢/٢٠١) .

(٢) المحبر (ص ٣١٧)   (٣) الطبرسي (٥/٣٦٤) ، الكشاف (٤/١٤٣) .

(٤) البلدان (٨/٥١١) « يغوث » ، Reste, S. 20 Ency. Religi. , I. P. 6 3.

(٥) الطبرسي (٥/٣٦٤) .

المدينة . أما سدنته ، فكانوا من بنى أنعم بن أعلى من طيء ، وكانوا فى جرش . وفى حوالي سنة ٦٢٣ ، أي السنة التي وقعت فيها معركة بدر ، حدث نزاع على الصنم : أراد بنو مراد أن يكون الصنم فيهم وسدانته لهم ، وأراد بنو أنعم الاحتفاظ بحقهم فيه . فهرب بنو أنعم بصنمهم الى بنى الحارث واحتفظوا به بعد أن وقعت الهزيمة فى مراد[1] .

ونجد بين أسماء الجاهليين أسماء عدد من الرجال عرفوا بـ « عبد يغوث » ، منهم من كان فى مَذْحِج ، ومنهم من كان فى قُرَيْش ، ومنهم من كان فى هَوازِن . وقد كان قائد بنى الحارث ابن كعب على تميم فى معركة « الكلاب » عبد يغوث ، كما كان لدُرَيْد بن الصِّمّة أخ اسمه عبد يغوث[2] . ويدلّ ذلك بالطبع على أن عبادته كانت معروفة أيضاً بين هوازن وقريش ، أي من قبائل أخرى غير قبيلة مذحج . وقد تسمى به أشخاص من قبيلة تغلب كذلك . مما يدل على أنه كان معبوداً عند هذه القبيلة الساكنة في شمال شرقي جزيرة العرب[3] .

ولم يرد اسم هـــذا الصنم فى الـكتابات[4] . وقد ذهب روبرتسن سمث الى أنه « يُعوش » « ye'ush » المذكور في ســفر التكوين . وهو أحد أجداد أدوم[5] . ويمثله الأسد فى نظر « روبرتسن سمث »[6] .

ويعوق أيضاً فى جملة هذه الأصنام التي فرقها عمرو بن لحي على القبائل . لقد سلمه عمرو الى مالك بن مرثد بن جشم بن حاشد بن جشم بن خيوان بن نوف بن همدان ، فوضعه فى موضع خيوان ، حيث عبدته همدان وخولان ومن والاها من قبائل[7] . وكان فى أرحب .

وذكر ياقوت الحموي أن ابن الـكلبي قال : « واتخذت خيوان يعوق ، وكان بقرية لهم

---

(١) Reste, S. 21 (٢) Reste, S. 21. (٣) Ency. Religi., I. P. 663.

(٤) Ency. Religi., I, P. 663.

(٥) التكوين الاصحاح ٣٦ الآية ٥ ، ١٤ ، ١٨ ، وأخبار الأيام الأول الاصحاح الأول ، الآية ٢٥ Robertson, P. 43.

(٦) Robertson, P. 226.

(٧) الأصنام (ص٥٧) ، القاموس (٣/٢٧٠) ، الطبرسي (٥/٣٦٤) ، سبائك الذهب (ص١٠٤) ، الإكليل (١٠/٥٦) ، الـكشاف (٤/١٤٣) .

يقال لها خيوان من صنعاء على ليلتين مما يلي مكة ، ولم أسمع همدان سمت به ، يعني ما قالوا عبد يعوق ولا غيرها من العرب ، ولم أسمع لها ولا لغيرها شعراً فيه . وأظن ذلك لأنهم قربوا من صنعاء واختلطوا بحمير ، فدانوا معهم باليهودية أيام تهود ذي نواس ، فتهودوا معه »[١] .

ونسب الطبرسي عبادة يعوق الى كهلان ، وذكر أنهم توارثوه كابراً عن كابر ، حتى صار الى همدان[٢] .

وهناك بيت ينسب الى مالك بن نمط الهمداني الملقب بذي المشار ، وهو من بني خارف أو من يام بن أصى ، هذا نصه :

يريش الله فى الدنيا ويبري ولا يبري يعوق ولا يريش[٣]

وهو من الأبيات التي رواها ابن هشام نقلا عن ابن اسحاق . وأرى أن هذا البيت مدسوس ، قيل لابن اسحاق فصدقه وضمه كما ضم أمثاله الى سيرته ، وللعلماء كلام فى ضعف ابن اسحاق من هذه الناحية ، وفى عدم تمييزه الصحيح من الفاسد من الشعر .

وأما نَسْرٌ ، فكان من نصيب حمير ، أعطاه عمرو بنُ لحيّ قَيْل ذي رُعَين المسمى معد يكرب ، فوضعه فى موضع بلخع من أرض سبأ ، فتعبدت له حمير الى أيام ذي نواس حيث تهودت معه وتركت هذا الصنم[٤] . وكان عباد نسر آل ذي الكلاع من حمير على رواية من الروايات[٥] .

و « نسر » هو « نشر Nesher » فى العبرانية[٦] . وهو اسم صنم من أصنام اللحيانيين

---

(١) البلدان (٥١٠/٨) « يعوق » ، Reste , S. 22 , Ency. Religi , I, p. 663.

(٢) الطبرسي (٣٦٤/٥) .

(٣) الروض الأنف (٦٣/١) ، ابن هشام (٦٣/١) « هامش الروض » .

(٤) الأصنام (ص ٥٧ وما بعدها) ، البلدان (٢٨٦/٨) « نسر » ، ابن هشام (٦٣/١) « هامش الروض » ، سبائك الذهب (ص ١٠٤) ، بلوغ الأرب (٢٠١/٢) ، الكشاف (١٤٣/٤) ، Reste, S. 23.

(٥) الطبرسي (٣٦٤/٥) ، « نسر :صنم كان لذي الكلاع بأرض حمير » ، تاج العروس (٥٦٣/٣) ، اللسان (٦٠/٧ وما بعدها) .

(٦) Hastings , p. 200.

كذلك [١] . ويجب أن يكون هذا الصنم من أصنام العرب الشماليين لورود اسمه في الوارد العبرانية والسريانية على أنه اسم إلـه عربي [٢] . وقد ذكر يعقوب السروجي أنه صنم من أصنام الفرس [٣] .

وأشير في التلمود الى صنم ذكر أن العرب كانوا يعبدونه اسمه « نشرا Neshra » . و « نشرا » ، هو « نسر » . وقد دون بهذه الصورة بتأثير لهجة بني ارم . و « نشرا » صنم من اصنام بني إرم ، وهو يقابل « نسر » في العربية . وقد ورد اسم الصنم « نسر » عند السبئيين كذلك ، ويظهر أنه كان من الآلهة المعبودة عند كثير من الساميين ، خاصةً في جزيرة العرب [٤] .

ولم يشر ابن الكلبي الى صورة الصنم نسر ، ولكننا نستطيع أن نقول استناداً الى هذه التسمية أنه كان على هيأة الطائر المسمى باسمه ، وقد وجدت أصنام على صورة نسر منحوتة على الصخور خاصة في أعالي الحجاز [٥] . ويؤيد هذا الرأي رواية ذكرها الطبرسي في أشكال الأصنام أسندها الى الواقدي ، قال فيها : « كان ودّ على صورة رجل ، وسُواع على صورة امرأة ، ويغوث على صورة أسد ، ويعوق على صورة فرس ، ونسر على صورة نسر من الطير » [٦] .

و عميانس « عم انس » هو صنم خولان ، وموضعه في أرض خولان . وكانت تقدم له في كل عام نصيبه القرر من الأنعام والحروث [٧] . وذكر ابن الكلبي أن الذين تعبدوا له من خولان هم بطن منهم يقال لهم « الأدوم » وهم الأسوم [٨] . وفيهم نزلت الآية : « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ، فقالوا : هذا لله ، بزعمهم ، وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا

---

(١) Handbuch. I. S. 44.   (٢) Reste. S. 23.   (٣) Reste. S. 23.

(٤) Ency. Religi. , I, p. 663.

(٥) Robertson. p. 226 , Noldeke , in ZDMG. , 1886 , S. 186 , XXIX , S. 600.

(٦) الطبرسي (٥/٣٦٤) .

(٧) الأصنام (ص ٤٣) ، ابن هشام (١/٦٣) « هامش الروض » ، بلوغ الأرب (٢/٢١١) ، Reste . S. 23. f.

(٨) الأصنام (ص ٤٤) .

يصل الى الله ، وما كان لله فهو يصل الى شركائهم ، ساء ما يحكمون »[1] . وكانوا « يقسمون له من أنعامهم وحروثهم قسماً بينه وبين الله ، بزعمهم . فما دخل فى حق الله من حق عميأنس ، ردّوه عليه ؛ وما دخل فى حق الصنم من حق الله الذي سمّوه له ، تركوه له »[2] .

ويعد الصنم « مناة » أقدم الأصنام فى نظر الأخباريين[3] . وهو من الأصنام المذكورة فى القرآن الكريم : « أفرأيتم اللّاتَ والعُزى ومَناةَ الثالثةَ الأُخرى »[4] . وهذه الأصنام الثلاثة هي إناث فى نظر الجاهليين .

وكان الصنم مناةُ منصوباً على ساحل البحر من ناحية المُشلل بقديد . بين المدينة ومكة[5] . وذكر ابن الكلبي أنه كان صخرة ، وأن التأنيث إنما جاءه لكونه صخرة[6] . وهو تعليل غير مقبول فى نظري ، فلا بد أن يكون هناك سبب آخر للتأنيث ، وإلا وجب تأنيث كل شيء أصله صخرة . ولعل لحرف التاء الأخيرة فى كلمة « مناة » دخلاً فى الموضوع .

ولم يشرح ابن الكلبي السبب الذي دعا الناس الى نصب هذا الصنم فى هذا الموضع على ساحل البحر ، بعيداً عن المتعبدين له بعض البعد ، ولا أظن أن وجوده هنا يخلو من سبب ، ولا سيما إذا كان صحيحاً ما يزعمه ابن الكلبي من أنه كان على هيأة صخرة . فهل كان هذا الصنم رمزاً لإله البحر ، أو صخرة غريبة الشكل على هيأة حيوان بحري أو نيزكاً أو مقذوفاً من مقذوفات البراكين ، أو صنما استورد من الخارج من مصر مثلاً ، أو وجد على ظهر سفينة حملته الى هذه الجهة ، فوضع فيها ، ولم يشأ المتعبدون له نقله من هذا الموضع الى موضع آخر ، فبقي فيه .

ويظهر من أقوال ابن الكلبي أن هذا الصنم ،كان معظماً ، خاصةً عند الأوس والخزرج ،

---

(١) الأنعام الآية ١٣٧ . (٢) الأصنام (ص ٤٤) .
(٣) الأصنام (ص ١٣) ، بلوغ الأرب (٢/٢٠٢) . (٤) النجم : الآية ١٩ وما بعدها .
(٥) البكري (ص ٩٥٦) ، (١٠٥٥) « قديد » ، الأصنام (١٣) ، الطبرسي (٥/٣٦٤) ، سبائك الذهب (ص ١٠٤) ، تاج العروس (١٠/٣٥١) ، القاموس (٤/٣٩٣) .
(٦) البلدان (٨/١٦٧) « مناة » .

أي أهل يَثْرِبَ ومن كان يأخذ مأخذهم من عرب المدينة والأزد وغسان « فكانوا يحجون ويقفون مع الناس المواقف كلها ، ولا يحلقون رؤوسهم ، فإذا نفروا أتوا مناة وحلقوا رؤوسهم عنده وأقاموا عنده لا يرون لحجهم تماماً إلا بذلك »[١] . ولكن القبائل العربية الأخرى كانت تعظمه كذلك ، وفي جملتها قريش[٢] وهذيل وخُزاعة[٣] وأزْد شَنُوءَةَ ، وغيرهم من الأزد . أما سدنته ، فالغطاريف من الأزد[٤] . وقد عدّه بعض الأحباريين صنم هذيل وخزاعة[٥] .

وكان المتعبدون لهذا الصنم يقصدونه فيذبحون حوله ، ويهدون له . ويظهر من أقوال ابن الكلبي هذه أن هذا الصنم كان من الأصنام المعظمة القديمة المحترمة عند جميع العرب . وقد قصد ابن الكلبي بعبارة « وكانت العرب جميعاً تعظمه وتذبح حوله »[٦] عرب الحجاز على ما أعتقد . وقد كان سدنته يجنون من سدانتهم له أرباحاً حسنة من هذه الهدايا التي تقدم الى معبده باُسمه .

وقد بقي سدنة هذا الصنم يرتزقون باُسمه الى أن كان عام الفتح ، فانقطع رزقهم بهدمه وبانقطاع سدانته . فلما سار الرسول في سنة ثمان للهجرة، وهي عام الفتح أربع ليال أو خمس ليال من المدينة ، بعث علياً اليه ، فهدمه وأخذ ما كان له ، فاقبل به الى النبي ، « فكان فيما أخذ سيفان كان الحارث بن أبي شمر الغَسّاني ملك غسّان أهداهما له ، أحدهما : يسمى مخذماً ، والآخر رسوباً . وهما سيفا الحارث اللذان ذكرهما علقمة في شعره ، فقال :

مُظاهِرُ سربالي حديد عليهما عقيلا سيوف : مخذم ورسوب

فوهبهما النبي لعليّ ، فيقال : إن ذا الفقار ، سيف عليّ أحدهما . ويقال : إن علياً وجد هذين السيفين في الفِلْس ، وهو صنم طيء ، حيث بعثه النبي فهدمه »[٧] .

وفي رواية للواقدي ، أن الذي هدم الصنم ، هو سعد بن زيد الأشهلي هدمه سنة ثمان للهجرة[٨] .

---

(١) الأصنام (ص ١٤) ، البلدان (٨/١٦٩) « مناة » ، الأزرقي (١/٧٣) .
(٢) الأصنام (ص ١٣ ، ١٥) ، البلدان (٨/١٦٩ وما بعدها) .
(٣) البلدان (٨/١٦٨) . (٤) المحبر (ص ٣١٦) .
(٥) اللسان (٢٠/١٦٧). (٦) الأصنام (ص ١٥) .
(٧) الأصنام (ص ١٥) ، البلدان (٨/١٦٨) ، بلوغ الأرب (١٢/٢٠٢) .
(٨) الطبري (٣/١٢٣) .

ويظهر من انتشار التسمية بهذا الصنم في مثل « عبد مناة » و « زيد مناة » بين عـدد من القبائل المختلفة أن عبادة « مناة » كانت منتشرة انتشاراً واسـعاً بين القبـائل ، وإن كانت تلك القبائل لم تحج الى الصنم عند ظهور الإسـلام . وقد ذكر « ولهوزن » أسماء عـدد من الرجال عرفوا بـ « عبد مناة » و بـ « زيد مناة » و بـ « عوذ مناة » و بـ « عوف مناة » و بـ « سـعد مناة » و بـ « أوس مناة » وهم من قبائل مختلفة منها تميم وطيء وكنانة [1]. ولهذه الكلمات المتقدمة على كلمة « مناة » أهمية كبيرة فى وصف الصورة التي كانت فى مخيلة عبـدة مناة عنه ، حيث تمثله إلـهاً كريماً يسعد عباده ويساعدهم فى المكاره والملمات ويعطيهم ما يحتاجون اليه .

والصنم منـاة هو « منوتن ، منوت » « Manavat » عند النبط [2] ، ويظن أن لاسمه صلة بـ « مناتا Menata » فى لهجة بني إرم و « منا Mana » فى العبرانية وجمعها « مانوت » « منوت Manot » وباسم الإلـه « منى Meni » . وبكلمة « منيـة » وجمعها « منايا » فى عربيـة القرآن الـكريم . وهي لذلك تمثل الحظ والمنايا وخاصة الموت [3] .

وقد ذكر « منى Meni » مع « جد Gad » فى العهد القديم . والظاهر أن كلمة « جد » « Gad » كانت مصدراً ، ثم صارت اسم علم لصنم . وذكـر « منى » مع « جد » له أهمية كبيرة من حيث معرفة الصنمين . فالأول هو لمعرفة المستقبل وما يكتبه القدر للانسان من منايا ومخبئات لا تكون فى سـاعد الإنسـان ، والثاني وهو « جد » ، لمعرفة المستقبل الطيب والحظ السعيد « Fortune » و « Tyche » فى اليونانية فهما يمثلان إذن جهتين متضادتين [4] .

وأما الصنم « اللّات » ، فإنه من الأصنام القديمة المشهورة عند العرب ، وهو « اليلت » « Alelat » ، الالـه الرئيس عند العرب في أيام المؤرخ « هيرودوتس » [5] ويدل ذلك على أن عبادته كانت منتشرة خاصة عنـــد العرب الشماليين . وهو « اللت » فى نصوص « الحجر »

---

(١) Reste, S. 29.
(٢) Reste, S. 28, Ency. Religi., I, p. 661.
(٣) Ency., III, p. 231.
(٤) Hastings, p. 275. f, 604.
(٥) Herodotes, I, 181, III, 8.

و « صلخد » وتدمر ، أي فى النصوص النبطية التي عثر عليها فى هذه الجهات[1] ، وبه تسمي « وهب اللات » ابن الملكة « الزباء » ملكة « تدمر » ، كما تسمى به أناس آخرون وردت اسماؤهم فى تلك النصوص[2] . وهو « هـ لـ ت » فى النصوص الصفوية ، ولعله « هلاّت » أي على نحو ما ينطق بالكلمة فى لهجة القرآن الكريم ، والهاء فى الكلمة أداة تعريف فى اللهجة الصفوية ، فيكون المراد بذلك « اللات »[3] .

ويظن أن اللات هي الشمس بدليل أن الشمس أنثى ، أي إلهة فى العربية وفى كثير من اللهجات السامية الأخرى ؛ وأن اللات أنثى كذلك[4] .

اذن فاللات من الأصنام التي كان لها شهرة واســـعة بين العرب الشماليين وبين العرب الساكنين فى الحجاز ، وكانت له معابد كثيرة منتشرة فى مواضع عديدة من هذه الأنحاء . وأما عند ظهور الإسلام ، فكان معبده الشهير فى مدينة الطائف ، مركز قبيلة ثقيف ، يقصده الناس للتبرك به ، وهو أنثى كذلك[5] . وذكر ابن الكلبي أنه كان صخرة مربعة بيضاء ، بنت ثقيف عليها بيتاً صاروا يسيرون اليه يضاهون به الكعبة ، وله حجبة وكسوة ، ويحرمون واديه . وكانت سدانته لآلِ أبي العاص بن أبي يسـار بن مالك من ثقيف ، أو لبني عتّاب بن مالك . وكانت قريش وجميع العرب يعظمونه أيضاً ، ويتقربون اليه[6] ، حتى أن ثقيفاً كانوا اذا ما قدموا من سفر ، توجهوا الى بيت اللات أولا للتقرب اليه ، وشكره على السلامة ، ثم يذهبون بعد ذلك الى بيوتهم[7] .

---

(١) Reste, S. 32, Vogue 6, 8, Euting, 3, Waddington, 2203, 2308, Dussaud - Macler, Mission, P. 55.

(٢) « تيم اللات » .

(٣) Ency. Religi., I, P. 661.

(٤) Ency. Religi., I, P. 661.

(٥) الأصنام (ص ١٦) ، اللسان (٢/٣٨٨) ، تاج العروس (١/٥٨٠) .

(٦) البلدان (٧/٣١٠) « اللات » ، المحبر (ص ٣١٥) ، ابن اسحاق (ص ٣٢ ، ٥٥) ، الواقدي (٣٨٤ وما بعدها) ، سبائك الذهب (ص ١٠٤) ، بلوغ الأرب (٢/٢٠٣) .

(٧) Reste, S. 31.



كتابة ثمودية وجدت فى معبد الصنم « اللات » فى خرائب « رمّ »

عن كتاب :

Histoire Generale des Religions, tome IV, P. 313.

وللاخباريين روايات عن صخرة اللات ، فقال بعضهم إنها في الأصل صخرة كان يجلس عليها رجل كان يبيع السمن واللبن للحجاج في الزمن الأول ، وقالوا : إنها سميت باللات لأن عمرو بن لُحَيّ جد خزاعة كان يلت عندها السويق للحاج على تلك الصخرة ، وقالوا : بل كانت اللات في الأصل « رجلا من ثقيف . فلما مات ، قال لهم عمرو بن لُحَيّ : لم يمت ، ولكن دخل في الصخرة ؛ ثم أمرهم بعبادتها ، وأن يبنوا عليها بنياناً يسمى اللات » . وقالوا : « قام عمرو بن لحيّ ، فقال لهم : إن ربكم كان قد دخل في هذا الحجر ، يعني تلك الصخرة ، ونصبها لهم صنماً يعبدونها . وكان فيه وفي العُزّى شيطانان يكلمان الناس ، فاتخذتها ثقيف طاغوتاً ، وبنت لها بيتاً وجعلت لها سَدَنة ، وعظمته ، وطافت به » وقيل « كانت صخرة مربعة ، وكان يهودي يلتّ عندها السَّويق »[1] .

وقد حيرت هذه الصخرة على ما يظهر الناسَ ، فوضعوا ذلك القصص عن أصلها ، وأنا لا أستبعد أن تكون نصباً من الأنصاب التي كانت مستعملة لتقديم الذبائح والقرابين عنده الى الأصنام ، نسي الناس أصلها ، حتى ظن أنها الصنم نفسه ، أو أنها من بقايا الوثنية البدائية التي تعبد فيها الأحجار وتقدس ولو لم تكن على شكل انسان أو حيوان أو شكل آخر مصنوع صنعاً فنياً ليكون رمزاً الى الآلهة . وعبادة الأحجار التي لم تصقلها الأيدي معروفة ، وهي من العبادات المنحطة بالنسبة الى عبادة الصور والتماثيل والأصنام المصنوعة صنعاً متقناً . وهي تدخل في الـ « Fetichism » في اصطلاح علماء الأديان . وعبادة الأحجار غير المصقولة والمهذبة بالأيدي ، وان كانت تدعو الى الاستغراب والعجب في نظر أهل الفن وأهل الثقافة ، هي عقيدة على كل حال في رأي علماء الدين ، وفي نظر أصحاب ذلك الدين[2] ، ينظرون اليها نظرة تختلف عن وجهة نظرنا الى هذه الأحجار .

---

(١) الأصنام (ص ١٦ وما بعدها) ، البلدان (٧/٣١٠) « اللات » ، « اللات والعزى وإساف ونائلة وشمس ويعوق والخلصة ونسر .... ود ومناة وفلس ورضى » ، النقائض (١٤١) وتاج العروس (١/٥٨٠ وما بعدها) ، اللسان (٢/٣٨٨) .

(٢) Robertson , P. 209

وفي دعوى ابن الكلبي أن عمرو بن لحيّ قال للناس بوجود شيطان في تلك الصخرة أو روح ميت حلت فيها ، شرح لعقيدة عبادة الروح الحالّة في الأشياء ، أي « Fetichism » . التي تعبد الروح الحالّة في الأشياء كالأحجار لا الأشياء نفسها .

وكان بيت اللات في موضع مسجد الطائف ، أو تحت منارة مسجد الطائف . وهدِم اللات في جملة ما هدم من الأصنام ، وأحرق البيت ، وقوضت حجارته . هدمه ـ بأمرٍ من الرسول ـ أبو سفيان بن حرب حامي الأصنام والمدافع عنها قبل فتح مكة والمعارض الكبير للرسول ، والمغيرة بن شعبة في بعض الروايات ، أو المغيرة بن شعبة وحده في روايات أخرى [1] . واشتراك أبي سفيان مع المغيرة في هدم الصنم إن صح ، تعبير عن الروح الجديدة والمثل العليا التي ظهرت بجزيرة العرب بظهور الإسلام ، وعن التطور الفكري الخطير الذي حدث فيها مشيراً بظهور عهد جديد . وقد عرف البيت الذي بني على اللات ببيت الربّة كذلك ، ويقصدون بالربّة اللات [2] .

وكانت تحت صخرة اللات حفرة عرفت بـ « غبغب » ، حفظت فيها الهدايا والنذور والأموال التي كانت تقدم الى الصنم . فلما هدم المغيرة الصنم ، أخذ تلك الأموال اليه [3] .

وقد وصلت الينا أسماء رجال سموا باللات ، مثل : « تيم اللات » ، و « زيد اللات » ، و « عائذ اللات » ، و « شيع اللات » ، و « شكم اللات » ، و « وهب اللات » . وما شاكل ذلك من أسماء [4] . ومما يلفت النظر أننا لم نلاحظ ورود اسم « عبد اللات » بين اسماء الجاهليين [5] .

وقد عدّ النبط اللات أمّاً للآلهة ، وهي في نظر « روبرتسن » الآلهة الأم لمدينة

---

(١) البلدان (٧/٣١٠) ، البداية والنهاية (١/١٤٩) .

(٢) الأصنام (ص ١٠٩) ، الملحق .

(٣) Reste, S. 31.

(٤) « بنو تيم اللات بن ثعلبة بن عكابة » ، المحبر (ص ٢١٣ ، ٣٢٧ ، ٣٥٠ ، ٤٥٣) ، الأصنام (ص ١٨) ، « تيم اللات بن رفيدة بن ثور » ، « زيد اللات بن رفيدة بن ثور » ، و « تيم اللات بن النمر ابن قاسط » ، الأصنام (ص ١٨) .

(٥) Reste, S. 32.

« بطرا » . وتقابل « Tanit - Artemis » عند أهل قرطاجة[١] .

ويظهر من بيت ينسب الى كعب بن مالك الأنصاري ، هو قوله :

ونسى اللات والعُزّى ووداً ونسلبها القلائد والسيوفا[٢]

أن الناس كانوا يعلقون القلائد والسيوف على تلك الأصنام . والواقع أن روايات الأخباريين تؤيد هذه الدعوى أيضاً ، اذ تذكر أن الجاهليين كانوا يقدمون الحلي والثياب والنفائس وما حسن وطاب فى أعين الناس هدية ونذوراً الى الأصنام ، فكانوا يعلقون ما يمكن تعليقه عليها ، ويسلمون الأشياء الأخرى الى سدنة الأصنام .

والعزّى صنم أنثى كذلك ، وهى أحدث عهداً فى نظر ابن الكلبي من اللات ومناة . وطريقة ابن الكلبي فى الحكم على قدم صنم من الأصنام ، الرجوع الى دراسة تأريخ الرجال المسمّين بأسماء الأصنام . فمن كان قد سمي باسم صنم وكان أقدم عهداً من بقية الأشخاص ، كان الصنم الذي سمي الشخص باسمه أقدم الأصنام عهداً فى نظره[٣] . وأقدم من سمى باسم « عبد العزّى » فى رأي ابن الكلبي أيضاً ، هو عبد العزّى بن كعب[٤] . وهو أحدث عهداً فى نظره من أولئك الذين سموا بأُسمي الصنمين مناة واللات . فالعزى هى أحدث عهداً منهما .

أما الذي اتخذ العزّى على رواية ابن الكلبي ، فهو ظالم بن أسعد . وضعت « بوادٍ من نخلة الشامية ، يقال له حُراض ، بإزاء الغُمَير ، عن يمين المُصعد الى العراق من مكة . وذلك فوق ذات عرق البُستان بتسعة أميال ، فبنى عليها بساً ؟ « بيتاً » ، وكانوا يسمعون فيه الصوت »[٥] .

---

(١) Robertson P. 56, Reste , S. 33.

(٢) ابن هشام (١/٦٣) « هامش روض الأنف » .

(٣) الأصنام (١٧ وما بعدها) ، « والعزى ، تأنيث الأعز مثل الكبرى تأنيث الأكبر . والأعز ، بمعنى العزيز . والعزى بمعنى العزيزة » ، البلدان (٦/١٦٥) « العزى » ، سبائك الذهب (ص ١٠٤) ، بلوغ الأرب (٢/٢٠٣ وما بعدها) .

(٤) المصدر نفسه (١٨) . (٥) الأصنام (ص ١٨) .

وقد نسب بعض أهل الأخبار عبادة العزّى الى عمرو بن لُحَيّ جرياً على عادتهم في نسبة عبادة الأوثان اليه ، فقالوا إنه قال لعمرو بن ربيعة والحارث بن كعب : إنّ ربّكم يتصيف باللات لبرد الطائف ، ويشتو بالعُزّى لحر تهامة[1] . وهو من القصص الذي ظهر في تفسير كيفية ظهور عبادة الأصنام عند الجاهليين .

وفي رواية لابن إسحاق أن عمرو بن لحيّ اتخذ العزّى بنخلة ، فكانوا اذا فرغوا من حجّهم وطوافهم بالكعبة ، لم يحلّوا حتى يأتوا العزّى ، فيطوفون بها ، ويحلون عندها ويعكفون عندها يوماً[2] .

وكانت قريش تتعبد للعزّى ، وتزورها ، وتهدي اليها ، وتتقرب اليها بالذبائح . وذكر ابن الكلبي أنها كانت أعظم الأصنام عند قريش ، وأن قريشاً كانت تطوف بالكعبة وتقول : « واللات والعُزّى ، ومناة الثالثة الأخرى ! فإنهن الغرانيقُ العُلى ، وإن شفاعتهن لترتجى » . وكانوا يقولون : هنّ بنات الله ، وهن يشفعن اليه . وكانت قد حمى لها شعباً من وادي حراض يقال له سقام ، يضاهون به حرم الكعبة . ولها منحر ينحرون فيه هداياهم ، يقال له الغبغب ، يوزعون لحومها على من عندها ومن يكون حاضراً هناك[3] .

ويظهر من رواية ابن الكلبي أن قريشاً كانت تخص هذا الصنم بالإعظام ، حتى أن أبا أحيحة ، وهو سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، لما مرض مرضه الذي مات فيه ، كان من أهم ما شغل باله وهو في مرضه الشديد الذي انهكه وأسلمه الى الموت ، قضية عبادة العزّى وخشيته أن لا تعبد من بعده ، فلما أجابه أبو لهب مهوناً عليه الموضوع : « والله ما عُبِدَتْ حياتك [لأجلك] ، ولا تُترَكُ عبادتها بعدك لموتك ! » سرّه هذا الجواب ، وأفرج عنه . فقال : « الآن علمت أن لي خليفة »[4] .

ويقول ابن الكلبي أيضاً : « ولم تكن قريش بمكة ومن أقام بها من العرب يعظمون شيئاً

---

(١) الأزرقي (١/٧٤) « باب ما جاء في اللات والعزى » .
(٢) الأزرقي (١/٧٤ وما بعدها) . (٣) الأصنام (ص ١٨ وما بعدها) .
(٤) الأصنام (ص ٢٣) .

من الأصنام إعظامهم العزّى ، ثم اللات ، ثم مناة . فأما العزّى ، فكانت قريش تخصها دون غيرها بالزيارة والهدية .. وكانت ثقيف تخص اللات كخاصة قريش العزّى . وكانت الأوس والخزرج تخص مناة كخاصة هؤلاء الآخرين وكلهم كان معظما لها » أي للعزّى[1] .

وفي رواية في تفسير الطبرسي أن عبّاد العزّى هم بنو سليم وغَطَفان وجُشَم ونصر وسعيد ابن بكر[2] .

والغَبْغَبْ هو المنحر ، أي المحل الذي تنحر عليه القرابين التي تقدم الى الأصنام على أكثر الروايات . فكان للعزّى غبغب ، كما كان للات غبغب . وكان لمناف غبغب أو غبغبان . ويكون من حجارة ، فهو كالصخرة التي كان يذبح عليها الاسرائيليون وغيرهم ذبائحهم التي يقدمونها الى آلهتهم . وهناك من جعل الغبغب منحراً وموضع الهدايا التي تقدم الى الأصنام . وهو من باب التجوز والتعميم على ما أرى . وقيل إنه كان لمعتب بن قيس بيت يقال له غبغب ، كانوا يحجون اليه كما يحجون الى البيت الشريف[3] . وأظن أنه بيت من بيوت الأصنام ، كان به منحر ، فدعي لذلك باسمه .

وممن تعبد للعزّى ، غنيّ وباهلة وخُزاعة وجميع مُضَر وبنو كنانة وغَطَفان . وكانت

---

(١) الأصنام (ص ٢٧) . (٢) الطبرسي (٥/٣٦٤) .

(٣) البلدان (٦/٢٦٥) « الغبغب » « والغبغب كجعفر : صنم كان يذبح عليه في الجاهليه . وقيل هو حجر ينصب بين يدي الصنم . كان لمناف مستقبل ركن الحجر الأسود . وكانا اثنين ، قال ابن دريد : وقال قوم هو الغبغب بالمهملة ... » ، تاج العروس (١/٤٠٣) ، « وقيل الغبغب المنحر بمنى . وهو جبل مخصص . قال الشاعر :

والراقصات الى منى فالغبغب .

وفي الحديث ذكر غبغب بفتح الغينين وسكون الباء الأولى موضع المنحر بمنى . وقيل الموضع الذي كان فيه اللات بالطائف . التهذيب أبو طالب في قولهم رب رمية من غير رام . أول من قاله الحكم بن عبد يغوث . وكان أرمى أهل زمانه فآلى ليذبحن على الغبغب مهاة . فحمل قوسه وكنانته ، فلم يصنع شيئاً . فقال : لأذبحن نفسي . فقال له أخوه : اذبح مكانها عشراً من الإبل ولا تقتل نفسك . فقال : لا أظلم عاترة وأترك النافرة ، ثم خرج ابنه معه ، فرمى بقرة فأصابها . فقال أبوه : رب رمية من غير رام . » اللسان (٢/١٢٨ وما بعدها) .

تلبية من نسك للعزّى : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك وسعديك ، ما أحبّنا اليك »[1] .

لقد تحدثت في الجزء الرابع من هذا الكتاب في أثناء كلامي على زهير بن جناب رئيس كلب عن غزوة هذا الرئيس لغطفان ، بسبب تعرض « صداء » وهي قبيلة من مذحج بـ « بني بغيض » حين خرجوا من تهامة . وظهور « بني بغيض » على صداء وايجاعهم فيهم واصابتهم غنائم كثيرة من صداء ، مما جعلها تقول : « أما والله لنتخذن حرماً مثل حرم مكة لا يقتل صيده ولا يعضد شجره ولا يهاج عائذه . فوليت ذلك بنو مرة بن عوف . ثم كان القائم على أمر الحرم وبناء حائطه رياح بن ظالم ، ففعلوا ذلك وهم على ماء لهم يقال له بس . ». فلما بلغ فعلهم هذا وما أجمعوا عليه زهير بن جناب ، قال : « والله ، لا يكون ذلك وأنا حيّ ، ولا أخلي غطفان تتخذ حرماً أبداً » ، ثم سار في قومه حتى غزا غطفان ، وتمكن منها ، واستولى على الحرم ، وقطع رقبة أسير من غطفان به ، وعطل الحرم وهدمه[2] . والحرم الذي نحن بصدده والذي اقامته غطفان في موضع « بس » ، هو الحرم الذي أشار اليه ابن الكلبي . وقد ظن ابن الكلبي أو رواة كتاب الأصنام أن « بساً » تعني بيتاً . ولذلك قال أو قالوا : « فبنى عليها بُساً » ، وهو قول غريب ، فـ « بُسٌ » إنما هو ماء لغطفان عنده أقيم ذلك الحرم[3] . وقد ورد بس بصيغة « لبس » في موضع من كتاب الأغاني[4] ، وهو خطأ قد يكون من النساخ .

---

(١) المحبر (٣١١ ، ٣١٥) ، الأزرقي (١/٧٥) « باب ما جاء في اللات والعزى » .

(٢) الأغاني (٢١/٦٣) .

(٣) « وقال ابن الكلبي بس : بيت لغطفان بن سعد بن قيس عيلان كانت تعبده . بناه ظالم بن أسعد ابن ربيعة بن مالك بن مرة بن عوف ، لما رأى قريشاً يطوفون بالكعبة ويسعون بين الصفا والمروة فذرع البيت ونص العباب وأخذ حجراً من الصفا وحجراً من المروة ، فرجع الى قومه . وقال : يا معشر غطفان ! لقريش بيت يطوفون حوله والصفا والمروة وليس لكم شيء . فبنى بيتاً على قدر البيت ووضع الحجرين فقال : هذان الصفا والمروة ، فاجتزؤا به عن الحج فأغار زهير بن جناب بن هبل بن عبد الله بن كنانة الكلبي ، فقتل ظالماً وهدم بناءه » ، تاج العروس (٤/١٠٩) ، « وبس موضع عند حنين . قال عباس بن مرداس السلمي .

ركضت الخيل فيها بين بس الى الاوراد تنحط بالنهاب »

اللسان (٧/٣٢٧) ، البلدان (٢/١٧٩) .

(٤) الأغاني (١٢/١٢١) « أخبار الحصين بن الحمام ونسبه » .

وروايات الأخباريين عن العزّى يكتنفها شيء من الغموض واللبس ، ويدل ذلك على أنهم لم يكونوا على علم تام بالعزّى . ففي رواية من رواياتهم أن العزّى سمرة كانت لغطفان يعبدونها ، وكانوا بنوا عليها بيتاً وأقاموا لها سدنة[1] . وفي رواية أخرى أن العزّى شجرة كانت بنخلة عندها وثن تعبــــده غطفان . وفي رواية ثالثة أن العزّى شيطانة تأتي ثلاث سمرات ببطن نخلة[2] . والذي يتبين من الروايات الواردة عن ارسال الرسول خالد بن الوليد لهدم العزّى أن خالد بن الوليد هدم بيت العزّى ، وحطم وثناً كان فيه ، وعضد السمرات الثلاثة التي كانت هناك أو سمرة واحدة بحسب اختلاف الرواة . ونســـــتطيع أن نقول إن الوثن المذكور هو العزّى ، وكان المتعبدون للعزّى قد بنوا عليه بيتاً شأنهم مع الأصنام الأخرى للحج اليه . وكان موضع هذا البيت في موضع « بس » . وقد هدمه زهير بن جناب انتقاماً من غطفان ، ثم أعيد بناؤه ، وبقي قائماً الى أيام الرسول ، فهدمه خالد بن الوليد بأمر الرسول ، وهدم الوثن الذي كان فيه وهو العزّى[3] .

وأما الشجرة ، أو الشجرات الثلاثة المذكورة ، فإنها من الأشجار المقدسة ، التي كانت في حرم بيت العزّى ، كان المؤمنون بالعزّى يتقربون اليها بالنذور وبالهدايا ، ولا يمسونها بسوء . فقطعت لذلك ، كما قطعت سائر الأشجار المقدسة الأخرى ، لعدم ملاءمة ذلك لمبادىء الاسلام . وعبادة الأشجار معروفة عند العرب وعند غيرهم من الساميين[4] .

وكان لحرم العزّى شعب حمته قريش للصنم ، يقال له سقام في وادي حراض ، على طريقة

---

(١) السمر : شجر صغار الورق قصار الشوك وله برمة صفراء يأكلها الناس وليس في العضاه شيء أجود خشباً من السمر . بلوغ الأرب (٢٠٤/٢) ، تاج العروس (١٠٩/٤) .

(٢) البلدان (١٦٧/٦ وما بعدها) ، بلوغ الأرب (٢٠٤/٢) ، المحبر (٣١٥) .

(٣) « فبعث اليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خالد بن الوليد ، فهدم البيت وأحرق السمرة وهو يقول:

يا عز كفرانك لا سبحانك ... اني رأيت الله قد أهانك

وعبد العزى ، اسم أبي لهب ، وإنما كناه الله عز وجل ، فقال : تبت يدا أبي لهب ولم يسمه لأن اسمه محال . » ، اللسان (٢٤٦/٧) ، تاج العروس (٥٥/٤) .

(٤) Robertson, p. 185.

قريش في اتخاذ حرم للكعبة . وقد صار هذا الحمى موضعاً آمناً لا يجوز التعدي فيه على أحد ، ولا قطع شجره ، ولا القيام بعمل يخل بحرمة المكان [1] .

أما سدنة العزّى فكانوا من بني صرمة بن مرة ، أو من بني شيبان بن جابر بن مرّة بن عبس بن رفاعة بن الحارث بن عتبة بن سليم بن منصور . وكان آخر سادن للعزّى دُبَيّة بن حرمي السلمي ثم الشيباني ، قتله خالد بن الوليد بعد هدمه الوثن والبيت وقطعه الشجرة أو الشجرات الثلاثة [2] . وفي رواية أن هدم العزّى كان لخمس ليال بقين من شهر رمضان سنة ثمان ، « وكان سادنها أفلح بن النضر السلمي من بنى سُلَيم . فلما حضرته الوفاة ، دخل عليه أبو لهب يعوده وهو حزين ، فقال له : مالي أراك حزيناً ؟ قال : أخاف أن تضيع العزّى من بعدي ، قال أبو لهب : فلا تحزن ، فأنا أقوم عليها بعدك . فجعل أبو لهب يقول لكل من لقي : إن تظهر العزّى كنت قد اتخذت عندها يداً بقيامي عليها ، وان يظهر محمد على العُزّى ، وما أراه يظهر ، فابن أخي . فانزل الله تبارك وتعالى : تبت يدا أبي لهب وتب » [3] . وتدل هذه الرواية ، إن صحت ، على أن أفلح بن نضر لم يكن آخر سادن للعزّى ، وأن الهدم لم يكن في حياته ، بل كان بعد وفاته . وهي تشبه قصة أخرى وردت في الموضوع نفسه عن أبي أحيحة وأبي لهب [4] .

ويظهر أنه كان في بيت العزّى موضع ، يسمع فيه الصوت . والظاهر أن هذا الموضع هو من قبيل المواضع التي كان يقصدها الناس في المعابد لاستشارتها في الأمور الجسام التي تهمهم . وقد كان السدنة والمسؤولون عن المعبد يفسرون تلك الأصوات أو الصدى الذي ينبعث من ذلك الموضع كما يتراءى لهم وبحسب علمهم بأحوال السائلين ، فيظن أولئك السائلون أنه نوع من أنواع القول بالمغيبات . وقد كان عند اليونان والرومان مواضع في معابدهم يسمعون منها أصواتاً ،

---

(١) البلدان (٥/٩١) ، (٦/١٦٦) .

(٢) البلدان (٦/١٦٧ وما بعدها) ، بلوغ الأرب (٢/٢٠٥) ، ابن هشام (١/٦٥) « هامش الروض الأنف » ، الطبري (٣/١٢٣) « حوادث السنة الثامنة » .

(٣) الأزرقي (١/٧٦) . (٤) الأصنام (ص ٧٧) .

فيذهبون اليها لأخذ رأيها فيما يريدون الكشف عنه من مغيبات .

وقد ذكر الأخباريون أنه كان في كل من اللات والعُزّى ومناة شيطانة ، تكلمهم وترايا للسدنة . وقد نسبوا ذلك الى صنع ابليس [1] مما يدل على أنه كان في معبدي اللات ومناة موضع يتحدث فيه .

وقد كان من مذهب القوم اعتقادهم أن في الأشجار المقدسة أرواحاً حالة فيها ، هي أرواح الآلهة . وهذه العقيدة هي التي حملتهم على عبادة الأشجار ، وهي تتمثل في قصة الخناسة التي ظهرت من الشجرة الثالثة بعد قطع خالد بن الوليد للشجرتين المتقدمتين . فظهرت الخناسة نافشة شعرها واضعة يديها على عاتقها تصرف بأنيابها ، فضربها خالد على رأسها ففلقها ، فإذا هي حممة [2] .

ويظهر أن أهل الحيرة كانوا يتعبدون للعزّى كذلك ، وكانوا يقربون لها البشر قرابين في بعض الأحيان . وقد ذكر اسم الصنم مرتين في المصادر المؤلفة بعد الميلاد [3] . أشار اسحاق الأنطاكي ، وهو من رجال القرن الخامس للميلاد ، الى اسم « العزّى » في حديثه عن مدينة « بيث حور Beth-hur » [4] . ويظن أن « كوكبتا » المذكورة في المصادر السريانية هي أنثى كوكب ، ويعنون بها كوكب الصباح ، أي الكوكب الذي يظهر عند الصباح وهو العزّى عند الجاهليين [5] .

قد ذكرت أن من الأخباريين من زعم أن عمرو بن لُحَيّ قال لقومه : ان ربكم يتصيف باللات لبرد الطائف ، ويشتو بالعزّى لحرّ تهامة [6] . ويشير هذا القول صح أو لم يصحّ ، الى

---

(١) الأزرقي (١/٧٥) « باب ما جاء في اللات والعزى » .

(٢) البلدان (٦/١٦٧ وما بعدها) ، الطبري (٣/١٢٣) « حوادث السنة الثامنة » ، بلوغ الأرب (٢/٢٠٤ وما بعدها) .

(٣) Reste, S. 40, Ency., IV, p. 1069, Procopius De Bello Persi., II, 28, Rothstein, S. 81, 141.

(٤) Reste, S. 40.

(٥) Reste, S. 40, Ency., IV, p. 1069.

(٦) الأزرقي (١/٧٤) .

وجود صلة بين اللات والعزّى . وقد ذُكرت العزّى بعد اللات في القرآن الكريم . وكذلك ترد بعد اللات في جميع روايات الأخباريين ، فهل وضع الأخباريون العزّى بعد اللات مجاراةً للترتيب الذي ورد في القرآن الكريم ، ووضعوا أخبارهم عنها على هذا الأساس ؟ أو أن من عادة الجاهليين في القديم تقديم اللات على العزّى ، وقد ذكر القرآن الكريم هذا الترتيب على نحو ما كان عند الجاهليين ؟

وقد ورد في الموارد السريانية أن الملك المنذر قدم عدداً من الراهبات اللواتي وقعن في أسره قربانا الى الصنم العزّى . وذكر « بروكوبيوس » أن هذا المنذر نفسه ذبح أحد أبناء خصمه الحارث حينما وقع في أسره وقدّمه قربانا الى الآلهة « أفروديت Aphrodite » . وقصد هذا المؤرخ بـ « أفروديت » العُزّى . وذكر المؤرخ « نيلوس Nilus » المتوفى حوالي سنة ٤١٠ م أن إحدى القبائل كانت تقدم قرابين من البشر الى الإلهة « العُزّى » . ويرى نولدكه أن الغريين هما نصبان يرمزان الى كوكبي المساء والصباح ، ويراد بهما العُزّى . وترتبط قصة الغريين بالقتل ، مما يدل على أن الأخباريين لم يفهموا القصد من ذلك ، فوضعوا تلك القصة المعروفة عن تشاؤم الملك وقتله أول رجل يصادفه في يوم النحس [1] . وتكون العزى إذن من الآلهة التي كان الناس يتقربون اليها بالقرابين البشرية ، وهي عادة قديمة معروفة عند غير العرب من الشعوب .

وأصنام قريش في جوف الكعبة وحولها عديدة . يقول ابن الكلبي إن أعظمها هو الصنم هُبَلْ ، نصبه ، على حدّ قوله ، خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر . ولذلك عرف بهُبَل خُزَيْمَةَ . « وكان في جوف الكعبة ، قدامه سبعة أقداح ، مكتوب في أولها : « صريح » والآخر « ملصق » . فإذا شكوا في مولود أهدوا اليه هدية ، ثم ضربوا بالقداح . فإن خرج « صريح » ألحقوه ، وإن خرج « ملصق » دفعوه . وقدح على الميت ؛ وقدح على النكاح ؛ . . . فإذا اختصموا في أمر أو أرادوا سفراً أو عملاً ، أتوه فاستقسموا بالأزلام عنده . فما خرج ، عملوا به وانتهوا اليه . . . وعنده ضرب عبد المطلب بالقداح على ابنه عبد الله » [2] . فهو على هذه

---

(١) Ency. Religi . , I , p. 660.

(٢) الأصنام (ص ٢٨) ، الطبرسي (٥/٣٦٤) ، بلوغ الأرب (٢/٢٠٥) .

الصفة صنم وظيفته فى الدرجة الأولى الإفتاء بين الناس فى المشكلات الخاصة بهم ، أي حل أمورهم الشخصية التي يحتاجون فيها الى حل .

وكان هبل على ما بلغ ابن الكلبي من عقيق أحمر على صورة إنسان ، مكسور اليد اليمنى . أدركته قريش فجعلت له يداً من ذهب [1] .

وهنالك روايات تنسب هُبَلَ الى عمرو بن لُحَيّ ، تقول إنه جاء به الى مكة من العراق من موضع هيت ، فنصبه على البئر وهي الجبّ والأخسف فى بطن الكعبة ، وأنه هو الذي أمر الناس بعبادته ، فكان الرجل إذا قدم من سفر بدأ به على أهله بعد طوافه بالبيت ، وحلق رأسه عنده ، وكان على هذه الروايات من خرز العقيق على صورة إنسان ، وكانت يده اليمنى مكسورة ، فأدركته قريش فجعلت له يداً من ذهب . وكانت له خزانة للقربان . وكان قربانه مئة بعير . وله حاجب يقوم بخدمته [2] .

« وكان هُبَل لبني بكر ومالك وملكان وسائر بني كنانة . وكانت قريش تعبد صاحب بني كنانة ، وبنو كنانة يعبدون صاحب قريش » [3] . وباسم هذا الصنم سمي « هبل بن عبد الله بن كنانة الكلبي جدّ زهير بن جناب » [4] .

وقد أشرت فيما سلف الى رواية ذكرها ابن هشام ، خلاصتها : أن الصنم هبل كان أول صنم جاء به عمرو بن لحيّ من مآب بأعمال البلقاء [5] . ولكن هناك رواية أخرى تذكر أيضاً أن عمرو بن لحيّ هو الذي استورد هذا الصنم ، ولكنها ترى أنه استورده من هيت بالعراق [6] كما قلت آنفاً .

وقد ورد اسم هبل فى الكتابات النبطية التي عثر عليها فى الحجر ، وورد مع اسم الصنمين « ذي الشرى » « دوشرا » و « مناة » « منوتو » [7] .

---

(١) الأصنام (ص ٢٨) ، سبائك الذهب (ص ١٠٤) . (٢) الأزرقي (١/٦٨ وما بعدها) .
(٣) المحبر (ص ٣١٨) . (٤) كتاب المعمرين (ص ٢٩) « هبل » .
(٥) ابن هشام (١/٦٣) « هامش الروض » . (٦) الروض الأنف (١/٦٥) .
(٧) Ency., II, p. 327, Corpus Inscriptionum Semiti., II, Nr 189, Jaussen et Savignac, Mission Archeol, I, 169. f., Reste, S. 75, 221, L. Krehl, Uber die Religion der Varislamischen Araber, S. 90, Osiander, in ZDMG., VII, S. 493.

ولم يرد اسم هُبَل في الأعلام المركبة عند قبائل نجد أو العربية الجنوبية أو الشرقية بل حتى بين قريش مما يؤيد نظرية الأخباريين عن أصل هـذا الصنم ، وإن كنا لا نصدقهم بالطبع في زعمهم عن استيراد عمرو بن لحيّ له . وفي ورود اسمه في كتابات الحجر ، وعند قبيلة كلب ، دليل على هذا الأصل ، فإن قبيلة كلب من القبائل العربية الشمالية . وقد تسمى به أشخاص وبطون من هذه القبيلة كما تسموا بإِساف ونائلة ، مما يدل أيضاً على أن أصل هذين الصنمين من الشمال كذلك[1] .

وفي معركة أحد ، علا صوت أبي سفيان : أعْلُ هُبَلُ ، أعْلُ هُبَلُ[2] . ولابد أن يكون لاستنجاده بهبل من غير سائر أصنام الكعبة دلالة على أهميته وتقدمه على سائر الأصنام عند قريش .

وللأخباريين قصص في إساف ونائلة ، وهما في زعم بعضهم إنسانان عَمِلا عملاً قبيحاً في الكعبة ، فمسخا حجرين ، وضعا في موضعهما فعبدتهما خزاعة وقريش[3] . والأحابيش[4] . وكان أحدهما بلصق الكعبة ، والآخر في موضع زمزم ، فنقلت قريش الذي كان بلصق الكعبة الى الآخر فكانوا ينحرون ويذبحون عندهما[5]. وفي رواية أن إسافاً كان حيال الحجر الأسود ، وأما نائلة ، فكان حيال الركن اليماني[6] . وفي أخرى أنهما « أخرجا الى الصفا والمروة فنصبا عليهما ليكونا عبرة وموعظة ، فلما كان عمرو بن لحيّ نقلهما الى الكعبة ونصبهما على زمزم فطاف

---

(١) Ency. Religi., I, P. 664.

(٢) Ency. Religi. I, p. 664. ، الأصنام (ص ٢٨) ، « وفي حديث أبي سفيان . قال يوم أحد : أعل هبل . وهو الصنم الذي كانوا يعبدونه » ، اللسان (٢١٢/١٤) ، تاج العروس (١٦٢/٨) .

(٣) « واساف مثل سحاب : صنم وضعه عمرو بن لحي الخزاعي على الصفا ، ونائلة على المروة . وكانا لقريش . وكان يذبح عليهما تجاه الكعبة كما في الصحاح . أو هما رجلان من جرهم . اساف بن عمرو ونائلة بنت سهل فجرا في الكعبة . وقيل أحدثا فيها فمسخا حجرين ، فعبدتهما قريش . هكذا زعم بعضهم كما في الصحاح . قلت وهو قول ابن اسحاق . » ، تاج العروس (٤٠/٦ وما بعدها) ، اللسان (١٠ ٣٤٨) ، الأصنام (ص ٩ ، ٢٩) ، الروض الأنف (٦٤/١) ، سبائك الذهب (ص ١٠٤) ، بلوغ الأرب (٢٠٥/٢) .

(٤) المحبر (ص ٣١٨) . (٥) الأصنام (ص ٢٩) . (٦) الطبرسي (٣٦٤/٥) .

الناس بالكعبة وبها حتى عبدا من دون الله »[1] .

ورضى ، ويكتب رضاء في بعض الأحيان ، هو صنم آخر . وذكر ابن الكلبي أنه كان بيتاً لبني ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة فهدمه المستوغر . وهو عمرو بن ربيعة بن كعب ابن سعد بن زيد مناة بن تميم . هدمه في الاسلام[2]. وقد تعبدت لهذا الصنم قبيلة تميم . وقد ورد اسم « عبد رضى » بين أسماء الجاهليين . ويظهر أن قبيلة طيء كانت قد تعبدت له كذلك[3] .

و « رضى » من الأصنام المعروفة عند قوم ثمود . وقد ورد اسمه في كتابات ثمودية عديدة[4] . وكانت عبادته معروفة منتشرة بين العرب الشماليين . وورد في نصوص تدمر وبين أسماء بني إرم[5] . كما ورد في كتابات الصفويين . ورد على هذا الشكل : « رضو »[6] .

ولم يعرف ابن الكلبي من أمر الصنم مناف شيئاً . وذكر أن قريشاً كانت تتسمى به . فسمي رجال منهم « عبد مناف »[7] . وسمي به أيضاً رجال من هذيل[8] .

ويظهر من ورود اسم « مناف » بين عرب الشأم أنه كان إلـهاً معبوداً عندهم كذلك . وقد عثر على اسمه في كتابة دونها شخص اسمه « أبو معن » على حجر توجه بها الى الإلـه مناف ليمن عليه بالسعد والبركة ، ورسمت على الحجر صورة الإلـه « مناف » على هيأة « رجل لا لحية

---

(١) الروض الأنف (١/٦٥) ، ابن هشام (١/٦٤) « هامش الروض » .

(٢) الأصنام (ص ٣٠) ، الروض الأنف (١/٦٧) ، سبائك الذهب (ص ١٠٤) .

ولقد شددت على رضاء شدة فتركتها قفراً بقاع أسحما

ابن هشام (١/٦٦) « حاشية على الروض » ، تاج العروس (١٠/١٥١) « رضو » .

(٣) الأغاني (٧/١٤٧ ، ٩/١٦ ، ٤٧) ، Ency. Religi., 1, P. 662 ، Reste, S. 58

(٤) Huber Grimme, Die Losung des Sin., S. 43, 44.

(٥) Vogue, 6, 84, Reste, S 59. (٦) Ency. Relgi., I, P. 662

(٧) « ومناف صنم ، وبه سمي عبد مناف . وكانت أمه قد أخدمته هـذا الصنم . قال أبو المنذر : لا أدري أين كان ولمن كان وفيه يقول بلعاء بن قيس :

وقرن وقـد تركت الطير منه كمعتبر العوارك من مناف

تاج العروس (٦/٢٦٣) ، الأصنام (ص ٣٢) ، البلدان (٨/١٦٦) ، النقائض (ص ١٤١) ، « طبعة بيفان » ، بلوغ الأرب (٢/٢٠٦) .

(٨) Reste, S. 57.

له ، يتحدر على عارضيه شعر رأســـه الصناعي المرموز به الى الآلهة الشمسية ، وحول جفنيه وحدقتيه خطان ناعمان ، ويزين جيده قلادة ، كما ترى غالباً في تصاوير الآلهة السوريين . وعلى صدره طيّات ردائه ، ويرى طرف طيلسانه الإلـهي الذي ينعطف من كتفه الأيسر فيتصل الى الأيمن ويعقد به »[1]. وقد ذهب المتخصصون الذين فحصوا هذه الكتابة الى أنها من حوران .

وقد عثر على كتابة وجدت في حوران ورد فيها اسم « مناف » مع إلـه آخر ، وورد اسم مناف فيها على هذا الشكل : « Mn. Pha » . وقد عثر على كتابة أخرى وجـد فيها الاسم على هذه الصورة : « منافيوس Manaphius » مما يدل على أن المراد بالإسمين شيء واحد هو الإلـه « مناف »[2] .

أما ذو الخلصة ، فكان صنم خثعم وبَجيلة وباهلة ودوس وأزد السراة ومن قاربهم من بطون العرب من هَوازن ، ومن كان ببلادهم من العرب بتبالة [3] ، والحارث بن كعب وجرم وزبيد والغوث بن مرّ بن أد وبنو هلال بن عامر ، وكانوا سدنته [4] .

وصفته أنه « كان مَرْوة بيضاء منقوشة ، عليها كهيأة التـاج » . وكان بِتَبالَةَ بين مكة واليمن [5] ، وله بيت يحج اليـه . وجعل ابن « حبيب » موضع البيت في « العبلاء » على أربع مراحل من مكة [6] .

وقد هدم البيت في الاسلام ، هدمه جرير بن عبد الله البَجَليّ بأمر الرسـول . ولما خرج مع قومه لهدمه ، قاتلته خثعم وباهلة ، فقتل من سـدنته من باهلة مئـة رجل ، وأنزل القتل في

---

(١) المشرق (السنة الرابعة والعشرون العدد ٣ آذار ١٩٣٣) (ص ١٩٨ وما بعدها) .

(٢) المشرق : الجزء المذكور ، Mordtmann. in ZDMG., XXIX, 1875, S, 106, Ency. Religi., I. P. 662, Ephem. Epigr., II. 390. No.22.

(٣) الأصنام (٣٥ ، ٤٧) ، ابن هشام (١/٣٠) ، الأزرقي (١/٢٥٦) ، في الملحق ، الصفة (ص ١٢٧) الروض الأنف (١/٦٦) ، بلوغ الأرب (٢/٢٠٧) ، Ency. Religi., I, p. 663.

(٤) المحبر (٣١٧) . (٥) الأصنام (ص ٣٤) .

(٦) المحبر (ص ٣١٧) ، بلوغ الأرب (٢/٢٠٧) .



صورة الصنم مناف وعليها اسمه محفوراً على الحجر ، واسم صاحب الكتابة :
أبو معن . عن مجلة المشرق : السنة ٢٤ ، الجزء ٣ ، آذار ١٩٢٦ (ص ٢٠٠)

خثعم ، فانهزموا وهدم بنيان ذي الخلصة ، وأضرم فيه النار ، فاحترق . وذكر ابن الكلبي أن موضعه عتبة باب مسجد تبالة[1] . أما « ابن حبيب » ، فذكر أنه صار بيت قصّار في العبلاء[2] .

وفي ذي الخلصة قال أحد الرُّجّاز :

لو كنت يا ذا الخلصة الموتورا مثلي ، وكان شيخك المقبورا

لم تنه عن قتل العُداةِ زورا

وكان سبب قوله أنه قتل أبوه ، فأراد الطلب بثأره ، فأتى ذا الخلصة ، فاستقسم عنده بالأزلام ، فخرج السهم ينهاه عن ذلك ، فقال تلك الأبيات . ومن الناس من ينحلها امرأ القيس[3] .

ويظهر من رواية لابن الكلبي أن العرب جميعاً كانت تعظم ذا الخلصة ، وكانت له ثلاثة أقدح : الآمر ، والناهي ، والمتربص[4] . يأتي الناس اليه للاستقسام .

وفي رواية لابن اسحاق أن عمرو بن لُحَيّ نصب ذا الخلصة بأسفل مكة ، فكانوا يلبسونها القلائد ، ويهدون اليها الشعير والحنطة ، ويصبّون عليها اللبن ، ويذبحون لها ، ويعلقون عليها بيض النعام[5] .

وهناك روايات جعلت ذا الخلصة ، « الكعبة اليمانية » لخثعم ، ومنهم من سمّاه كعبة اليمامة . وأظن أن هاتين الروايتين رواية واحدة في الأصل ، صارت روايتين بسبب تحريف حدث من النسّاخ . ومنهم من جعل ذا الخلصة بيتاً في ديار دوس[6] . ويستنتج من كل هذه

---

(١) الأصنام (ص ٣٦) . (٢) المحبر (ص ٣١٧) .

(٣) الأصنام (ص ٣٥) ، الروض الأنف (١/٦٥) ، ابن هشام (١/٦٥) « هامش » ، بلوغ الأرب (٢/٢٠٧) .

(٤) الأصنام (ص ٤٧) .

(٥) الأزرقي (١/٧٣) « باب ما جاء في الأصنام التي كانت على الصفا والمروة » ، تاج العروس (٤/٣٨٩) .

(٦) ابن هشام (١/٣٠) ، الأغاني (٩/٧) ، الاكليل (٨/٨٤) بلوغ الأرب (٢/٢٢٩) ، وقد أجمل السيد رشدي الصالح ملحس ، الروايات الواردة عن ذي الخلصة في نهاية الجزء الأول من تاريخ مكة للأزرقي . وهو يرى أن البجلي لم يهدم بنيان بيت ذي الخلصة تهديماً تاماً ، وأنه بقي الى أيام الملك=

الروايات أن ذا الخلصة صنم تعبدت له جملة قبائل ، وكانت هذه القبائل تفد الى بيته فتحج اليه ، وتنذر له ، وتقدم له الهدايا .

و « سعد » صنم كان بساحل جُدّة لبني مالك وملكان ابن كنانة ، وكان صخرة طويلة[1]. وذهب ابن اسحاق الى أنه فى موضع قفر . وقيل انه قرب اليمامة[2] وقد أورد الأخباريون عنه هذه القصة : « أقبل رجل منهم بإبل له ليقفها عليه ، يتبرك بذلك فيها . فلما أدناها منه ، نفرت منه ، وكان يهراق عليه الدماء ، فذهبت فى كل وجه وتفرقت عليه ، وأسف فتناول حجراً فرماه به . وقال : « لا بارك الله فيك إلَـهاً ! أنفرت علي إبلي » . ثم خرج فى طلبها حتى جمعها ، وانصرف عنه . وهو يقول :

أتينا الى سعد ليجمع شملنا ، فشتتنا سعدٌ ، فلا نحن من سعد !
وهل سعدُ إلاّ صخرةٌ بِتَنُوفَةٍ من الأرض لا يدعي لغيٍّ ولا رشد[3]

ولعلّ هذه الأبيات التي رواها الأخباريون أو وضعوها عنه ، هي التي حفظت لنا اسم هذا الصنم .

على أن ورود اسم « عبد سعد » بين « يشكر » ، هو أثر من آثار عبادة هذا الصنم فى الجاهلية[4] . وقد ورد اسم هذا الصنم فى كتابات الصفويين ، مما يدل على أنه كان من بين الأصنام التي تعبد لها أولئك القوم[5].

وهنالك صنم عرف عند الأخباريين بـ « ذي الكفّين » ، وكان لدوس ، خاصة منهم منهب

عبد العزيز آل سعود ، فأزاله ، وأحرقت الشجرة التي كانت بجانب البيت وهي شجرة العبلاء . وذهب أيضاً الى أن ذلك البيت لم يكن بتبالة ، إنما كان في ثروق ، وقد عرف البيت بالولية كذلك . الأزرقي (١/٢٥٦ وما بعدها) . تاج العروس (٣٨٩/٤) ، اللسان (٢٩٥/٨) .

(١) الأصنام (ص ٣٦ وما بعدها) ، ابن هشام (٦٤/١) حاشية على الروض الأنف ، تاج العروس (٣٧٨/٢) .

(٢) تاج العروس (٣٧٨/٢) ، Reste , S. 59.

(٣) الأصنام (ص ٣٧) ، ابن هشام (٦٤/١) حاشية على الروض الأنف ، الروض الأنف (٦٤/١) ، بلوغ الأرب (٢٠٨/٢) ، تاج العروس (٣٧٨/٢) « لا تدعو » ، اللسان (٢٠٢/٤) « سعد » .

(٤) الأغاني (١٧١/١١) Reste , S. 60. (٥) Ency. Religi. , 1, p. 662.

ابن دوس ، وقد ظل قائماً الى أيام الرسول فأزيل فيما أزيل من الأصنام .

ويظهر من رجز ينسب الى الطفيل بن عمرو الدوسي ، وهو قوله :

يا ذا الكفّين لست من عبادكا ميلادنا أكبر من ميلادكا

إنيّ حشوت النار في فُؤادكا

أنه أحرقه بالنار[1] . ومعنى هذا أنه لم يكن صنماً من حجر ، وإنما كان من خشب[2] .

أما ذو الشرى ، فهو صنم معروف بين العرب الشماليين . ذكر ابن الكلبي أنه كان لبني الحارث بن يشكر بن مُبشر من الأزد[3] . وقد ورد اسم هذا الصنم في الحديث النبوي ، وورد بين أسماء الجاهليين اسم « عبد ذي الشرى »[4] . وورد في رواية للأخباريين أن « ذا الشرى » : صنم لدوس كان بالسراة[5] .

ويرى بعض اللغويين أن الشرى ما كان حول الحرم ، وهو اشراء الحرم[6] . فإذا كان هذا التعريف صحيحاً ، فإنه يكون في معنى « ذات حمى » ، عند السبئيين[7] .

وذو الشرى إلـه ورد اسمه في كتابات « بطرا Petra » و « بصرى » ، وكان له معبد فخم ضخم في « بطرا » ؛ ويمثله حجر أسود ، غير مصقول ، يبلغ ارتفاعه أربع أقدام ، وعرضه قدمين ، وتقدم اليه القرابين . وكان الناس يقصدونه من أماكن نائية للاحتفال به[8] . وهو يقابل الإلـه « ديونيسيوس Dionysius » عند اليونان[9] .

وذكر « أفيفانيوس Epiphanius » أن النبط كانوا يحتفلون بالإلـه « ذي الشرى Dusares » في مدينتي « بطرا petra » و « الوسا Elusa » الواقعة على مقربة منها في اليوم

---

(١) الأصنام (ص ٣٧) ، تجد بعض الاختلاف البسيط في كلمات هذا الشعر في رواية الأزرقي (٧٨/١) ، بلوغ الأرب (٢٠٩/٢) ، تاج العروس (٢٣٥/٦) ، Reste, S. 64.

(٢) الأزرقي (٢٦٩/١) « من تحقيقات ناشر الكتاب » ، تأريخ الخميس (١٠٩/٢) .

(٣) ابن الكلبي (ص ٣٨) ، بلوغ الأرب (٢٠٩/٢) .

(٤) Ency. Religi., I, P. 663. Reste, S. 48. f

(٥) تاج العروس (١٩٧/١٠) . (٦) Reste, S. 51. (٧) راجع الفصل المقبل .

(٨) Reste S. 49. (٩) Reste, S. 50.

الخامس والعشرين من شهر «كانون الأول December » من كل عام[1]. وكانوا يقدمون الضحايا الى معبد ذلك الإلـه ، فيصبون دماءها على الصخرة أو أمامها . ويستند الصنم الى قاعدة مكسوة بالذهب ، كما أن جدران المعبد كانت مكسوة بغشاء من الذهب وبالتصاوير الجميلة التي تمثل تقديم القرابين الى الصنم . ومن بين الأسماء التي عثر عليها في كتابات العربية النبطية أسماء منسوبة الى هذا الإلـه ، هي : « عبد ذي شرى » ، و « تيم ذي شرى » .

وأشار « اصطيفان البيزنطي Stephen of Byzantium » المتوفى حوالي سنه ٦٠٠م الى سعة معبد « Dusare » وأهميته وانتشار عبادته بين عرب « Dacharenoi »[2]. وقصد هذا المؤرخ بـ « Dusare » الصنم « ذا الشرى » . وفي هذه الإشارة دلالة بالطبع على شيوع عبادته بين عرب أعالي الحجاز قبيل الإسلام .

أما الأُقيصر ، فكان صنم قضاعة ولَخمْ وجُذام وعاملة وغَطَفان ، وكان في مشارف الشأم . وقد ذكر اسمه في شعر لزهير بن أبي سُلمَى ولربيع بن ضبع الفَزاري وللشَّنْفَرَى الأزدي[3]. « وكانوا يحجون اليه ويحلقون رؤوسهم عنده ، ويلقون مع الشعر قرة من دقيق »[4] وهي عادة كانت متبعة عبد بعض قبائل اليمن كذلك .

وأما صنم مُزَيْنَةَ ، فهو نهم ، كسره سادنه خُزاعي بن عبدنهم ، وهو من مُزَيْنَةَ ، وأعلن اسلامه . ويظهر من أبيات لأمية بن الأسكر أن أتباع الصنم كانوا يقدمون الذبائح له ،

---

(١) Ency. Religi . I , P. 663.

(٢) stepben of Byzantium , Ethnica , (Meineke) , P. 237.

(٣) « والأقيصر كأحيمر ، صنم كان يعبد في الجاهلية . وأنشد ابن الأعرابي :

وأنصاب الأقيصر حين أضحت ... تسيل على مناكبها الدماء »

تاج العروس (٤٩٧/٣) ، اللسان (٤١٦/٦) ، الأصنام (ص ٣٨ وما بعدها) ، الأغاني (١٤١/٢١) ، بلوغ الأرب (٢٠٩/٢) .

(٤) البلدان (٣١٤/١ وما بعدها) « الأقيصر » ، الأصنام (ص ٤٨) ، Reste , S. 62. ff.

ويقسمون به . وقد سمي بنهم جملة رجال عرفوا بـ « عبد نهم »[1] من بني هوازن وبجيلة وخزاعة[2] . وهذا مما يدل على انتشار عبادة هذا الصنم بين هذه القبائل أيضاً .

وكان لأزد السراة صنم يقال له عائم . ورد اسمه في شعر لزيد الخير ، المعروف أيضاً بزيد الخيل الطائي[3] .

أما سُعَيْر ، فهو صنم عَنَزَة[4] . وكان الناس يحجون اليه ، ويطوفون حوله ، ويعترون العتائر له . وقد ورد في شعر لجعفر بن خلاّس الكلبي ، وكان راكباً ناقة له ، نفرت لكثرة العتائر التي كانت قد صرعت حول الصنم ، فقال ذلك الشعر[5] . وبين أسماء الرجال أناس عرفوا بـ « سعير »[6] .

وصنم طيء هو الفِلْس ، وكان في وسط جبل أَجَأ ، أسود ، كأنه تمثال انسان . وكانوا يعبدونه ، ويهدون اليه ، ويعترون عنده عتائرهم ، ولا يأتيه خائف إلاّ أمن عنده ، ولا يطرد أحد طريدة فيلجأ بها اليه إلا تركت له ، ولم تخفر حويّته أي حوزته وحرمه[7] .

وكانت سدانته في بني بولان . وبولان جدّ بني بولان هو الذي بدأ بعبادته على رواية ابن الكلبي . وكان آخر من سدنه منهم رجل يقال له صيفي . فلما ظهر الاسلام ، واعلنت الحرب عليها ، كلف علي بن أبي طالب هدمه ، فهدمه . وأخذ سيفين كان الحارث بن أبي شمر الغسّاني ، ملك غسان ، قد أهداهما الى الصنم ، يقال لهما مخذم ورسوب ، فقدم بهما على النبي ، فتقلد

---

(١) الأصنام (ص ٣٩ وما بعدها) . « وكان سادنه خزاعي بن عبد نهم من مزينة . فلما سمع بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم . ثار الى الصنم فكسره . وأنشأ يقول :

ذهبت الى نهم لاذبح عنده ... عتيرة نسك كالذي كنت أفعل
فقلت لنفسي حين راجعت عقلها ... أهذا إله أبكم ليس يعقل ؟
أبيت فديني اليوم دين محمد ... إله السماء الماجد المتفضل »

بلوغ الأرب (٢/٢١٠) .

(٢) الواقدي (ص ٢٤٥) ، Reste, S. 58.

(٣) الأصنام (ص ٤٠) ، الأغاني (١٦/٥٧) ، بلوغ الأرب (٢/٢١٠) . Reste, S. 65.

(٤) الأصنام (ص ٤١) ، بلوغ الأرب (٢/٢١٠) .

(٥) البلدان (٥/٨٦) « سعير » . (٦) Reste, S. 61.

(٧) الأصنام (ص ٥٩ وما بعدها) ، الروض الأنف (١/٦٥) ، بلوغ الأرب (٢/٢٠٣) .

أحدهما ، ثم دفعه الى عليّ بن أبي طالب ، فهو سيفه الذي كان يتقلده [1] .

وكانت لطيء أصنام أخرى ، منها اليَـعبُـوبُ وهو صنم لجديلة طيء ، وكان لهم صنم أخذته منهم بنو أسد ، فتبدلوا اليعبوب بعده . وقد ورد ذكره في شعر لعَـبِـيد :

فتبدلوا اليَـعبوبَ بعد إلَـههم صنماً ، فقروا يا جديل وأعـذبوا

وأما باجر ، فكان صنماً للأزد ومن جاورهم من طيء وقُـضاعة [2] .

ولم يذكر ابن الكلبي في كتابه الأصنام اسم الصنم الجلسد . وهو صنم كانت كندة تتعبد له ، وكذلك تعبد له أهل حضرموت . وكان سدنته بنو شكامة من السكون وهم من كنـدة . وكان للصنم حمى ، ترعاه سوامه وغنمه . فاذا دخلته هوافي الغنم ، حرمت على أربابها ، وصارت ملكاً للصنم [3] .

وقد وصف بأنه كان كجثة الرجل العظيم ، من صخرة بيضاء ، لها كالرأس أسـود ، إذا تأمله الناظر رأى فيه كصورة وجه الانسان . وكانوا يكلمون منه ، وتخرج منه همهمة ، ويقربون القرابين اليه ، ويلطخون بدمه ، ويكترون ثياب السدنة يلبسونها حينما يقربون قرباناً اليـه ويريدون مكالمته [4] . ويلاحظ أن تغيير الملابس وابدالها للتطهر له مثيل عند العبرانيين [5] .

وكان المُـحرّق « محرق » صنماً لبكر بن وائل وبقية ربيعة في موضع سلمان . وأما سدنته ، فكانوا أولاد الأسود العجلي . وقد نسب اليـه بعض الرجال فورد « عبد محرق » . وقـد عرف عمرو بن هند بـ « محرق » ، وعرف الغساسنة بـ « آل محرق » [6] . ويظن بعض المستشرقين أنه عرف بمحرق ، لأن عبدته كانوا يقدمون اليه بعض القرابين البشرية محروقة [7] .

والشمس صنم كان لبني تميم ، وله بيت . وكانت تعبده بنو أد كلهـا : ضبّـة وتَميم وعَدِيّ

---

(١) الأصنام (ص ٦١ وما بعدها) Reste. S. 51 f .

(٢) الأصنام (ص ٦٣) ، بلوغ الأرب (٢/٢١١) . (٣) البلدان (٣/١٢٢) .

(٤) البلدان (٣/١٢٢ وما بعدها) . Reste, S. 53. ff.

(٥) التكوين الاصحاح الخامس والثلاثون ، الآية ٢) .

(٦) الأصنام (ص ١١١) « تكملة الأصنام » ، البلدان (٧/٣٩٣) « المحرق » .

(٧) Reste, S. 57, Ency. Religi. I, p. 660.

وعُكل وثور . وأما سدنته ، فكانوا من بني أوس بن مخاشن بن معاوية بن شريف بن جروة ابن أسيد بن عمرو بن تميم ، فكسره هند بن أبي هالةَ وصفوان بن أسـيد بن الحلاحل بن أوس بن مخاشن [١] .

وقد وردت جملة أسماء منسوبة الى الشمس ، عرف أصحابها بعبد شمس ، منهم من قبائل أخرى من غير تميم [٢] . وعرف بعض الأشخاص بـ « عمرو شمس » عند العرب الشماليين [٣] .

وفي جملة أصنام تميم الأخرى ، الصنم تيم ، وبه سمي رجال من تميم ومن غيرهم ، مثل « عبد تيم » و « تيم الله » [٤] .

وهناك أسماء أصنام أخرى لم ترد في كتاب الأصنام ، إنما وردت في كتب أخرى . وقد ذكرها ابن الكلبي نفسه في بعض مؤلفاته . ومن هذه الأصنام : الأسحم والأشهل وأوال والبجة وبلج والجبهة وجريش وجهار والدار وذو الرجل والشارق وصدا وصمودا والضمار والضيزن والعبعب وعَوْض وعوف وكَثرى والكسعة والمدان ومرحب ومنهب والهبا وذات الوَدَع وياليل [٥] وذريح [٦] وباجر والجدّ وحلال والحمام وذو اللبا والسعيدة وغنم وفراص وقزح وقيس والمنطبق ونهيك [٧] .

أما أوال ، فإنه ايال ، وهو صنم بكر وتغلب [٨] .

وأما جهار ، فقد كان من أصنام هوازن ، وموضعه بعُكاظ ، وسدنته آل عوف النصريون ، ومعهم محارب فيه . وكان في أسفل أفطح [٩] .

وأما الدار ، فصنم سمي به عبد الدار بن قُصَي بن كِلاب [١٠] وأما الدوّار ، فصنم كانت

---

(١) المحبر (ص ٣١٦) ، البلدان (٥/٢٩٣) « شمس » .

(٢) Reste , S. 60.

(٣) Ency. Religi. , I , p. 660

(٤) الأغاني (١٨/١٦٨) ، Reste , S. 64 ، كتاب المعمرين (ص ٣١) .

(٥) الأصنام (١٠٧ وما بعدها) « تكملة » .

(٦) المحبر (٣١٤ ، ٣١٨) .

(٧) Reste , S. 64. ff.

(٨) الأصنام (ص ١٠٧) .Reste , S. 64.

(٩) المحبر (ص ٣١٥) Reste , S. 64 .

(١٠) الأصنام (ص ١٠٨) ، تاج العروس (٣/٢١٦) .

العرب تنصبه يجعلون موضعاً حوله يدورون به . واسم ذلك الصنم والموضع الدوّار . ومنه قول امرئ القيس :

فَعَنَّ لنا سِربٌ كأن نِعاجَهُ عذارى دُوارٍ في ملاء مُذَيَّل [1]

وأما ذو الرجل ، فهو صنم من أصنام أهل الحجاز [2] . ويظهر أن هـذا الصنم ، وكذلك الصنم « ذو الكفين » ، هما من الأصنام التي تغلبت صفاتها على أسمائها ، فنعتت بهذه النعوت ، كأن تكون لرجل أحد الصنمين ولكفى الصنم الآخر ميزة خاصة وعلامة فارقة مثل كسر أو دقة صنعة جعلت الناس يدعون الصنمين بالنعتين البارزين . ويرى « نولدكه » احتمال كون هذين الصنمين حجرين في الأصل من الأحجار المقدسة « Fetish » التي كان يعبدها الناس في القديم ، ثم تحولت الى صنمين بعد أن رسمت عليها بعض التصاوير صيرتها على شكل انسانين [3] .

وسمي بالصنم « الشارق » جملة رجال عرفوا بعبد الشارق [4] . ولكلمة الشارق علاقة بالشروق . وقد ذهب « ولهوزن » الى أن المراد به الشمس لشروقها [5] . وأظن أن المراد بذلك القمر ؛ لأن كلمة الشارق صفة لمذكر ، والشمس إلهة ، أي أنثى ، بينما القمر مذكر ، فلو كانت الكلمة صفة لها لقيل لها الشارق . والشريق اسم صنم أيضاً [6] . وعندي أن الشارق وشريق نعوت للأصنام ، وليست أسماء أصنام وأنها في معنى « شرقن » الواردة في نصوص المسند وتعني الشارق كما في جملة : « عثتر شرقن » ، أي « عثتر الشارق » .

وأما صدا وصمودا والهبا ، فانها من أصنام قوم عاد على رواية الأخباريين [7] .

وأما الضمار ، فكان صنم عبده العبّاس بن مرداس السُّلمي [8] وبنو سُلَيم [9] . ولما

---

(1) اللسان (٥/٣٨٤) . (2) الأصنام (١٠٩) ، Reste . S. 65

(3) Ency . Religi . . I . P. 663.

(4) الأصنام (ص ١٠٩) ، تاج العروس (٦/٣٩٢) ، القاموس (٣/٢٤٨) .

(5) Reste , S. 65. (6) اللسان (١١/٤٦) .

(7) الأصنام (ص ١١٠) ، « وصمود ، كزبور : اسم صنم كان لعاد يعبدونه . قال يزيد بن سعد وكان آمن بهود عليه السلام :

عصت عاد رسولهم فأمسوا عطاشاً لا تمسهم السماء
لهم صنم يقال له صمود يقابله صداء والبغاء
وإن إله هود هو إلامي على الله التوكل والرجاء

وهو مذكور في كتب السير . » ، تاج العروس (٢/٤٠٢) .

(8) الأصنام (ص ١١٠) ، « وضمار : صنم عبده العباس بن مرداس السلمي ورهطه » ، تاج العروس (٣/٣٥٣) . (9) البكري (٨٨١) « ضمار » .

حضرت مرداس الوفاة ، أوصى به الى ابنه العباس ، وطلب منه العناية به ؛ لأنه يضر وينفع . فلما ظهر الاسلام ، أحرق العباس ضماراً ، وأتى النبي فأسلم [1] . ويلاحظ أن الأخباريين قد وضعوا جملة قصص من هذا القصص الذي ذكروه عن ضمار ، قالوا : إن الأصنام قالتها للمتعبدين لها عند ظهور الإسلام .

والعبعب ، هو صنم كان لقضاعة ومن داناهم . وقد يقال بالغين المعجمة [2] ، فيخلط بينه وبين الغبغب . ورأيي أن الكلمتين أصلهما كلمة واحدة ، حرفها النساخ فصارت كلمتين .

وأما عوض ، فهو صنم كان من أصنام بكر بن وائل . وقد ذكر مع الصنم سعير في بيت شعر نسب الى الأعشى أو الى رُشَيْد بن رميض العنزي [3] .

وكان « جد » « الجد » صنماً معروفاً عند عدد من الساميين ، وليس من المستبعد أن يكون لاسم القبيلة الاسرائيلية « جاد » علاقة باسم هذا الصنم . وقد ورد في النبطية « جدّا » ، وذلك بتأثير لهجة بني إرم على اللهجة النبطية . وورد في الأسماء العربية « عبد جدّ » و « عبد الجدّ » [4] .

و « كثرى » من الأصنام المنسوبة الى طسم وجديس ، ظل باقياً معروفاً الى أيام الرسول ،

---

(١) البلدان (٥/٤٤٠) ، ابن هشام (٨٣٢) ، « ضماد » الأغاني (١٣/٦٢) « أخبار العباس ابن مرداس » .

(٢) الأصنام (ص ١١٠) ، « والعبعب صنم لقضاعة ومن داناهم ، وقد يقال بالغين المعجمة كما سيأتي . وعبعب اسم رجل وربما سمي العبعب موضع الصنم . » ، تاج العروس (١/٣٩٣) ، اللسان (٢/٦٤) .

(٣) الأصنام (ص ١١٠) ، « وعوض : اسم صنم لبكر بن وائل ، وبه فسر ابن الكلبي قول الأعشى :

حلفت بمائرات حول عوض ... وأنصاب تركن لدى السعير

قال : والسعير : اسم صنم كان لعنزة خاصة ، كما في الصحاح . قال الصاغاني : ليس البيت للأعشى ، وإنما هو لرشيد بن رميض العنزي » ، تاج العروس (٥/٥٩) ، اللسان (٩/٥٦) .

Reste . S. 66 , Robertson , P. 43 , note . KinshiP , 261 , Noldeke . in ZDMG. , XXXI 86 , Cis. IV , , p. 20 , Ency. Religi , I , P, 661.

(٤) Ency. Religi . I , P. 662.

فكسره نهشل بن الربيس بن عرعرة ولحق بالنبي [1] . وقد ورد بين أسماء الجاهليين من دُعي بـ « عبد كُثرى » [2] . ويرى نولدكه في عدم ورود أداة التعريف « ال » مع « كثرى » في « عبدكثرى » ، دلالة على أن هذا الصنم هو من الأصنام القديمة . ويرى أيضاً أن كلمة « كثرى » هي مجرد لقب من ألقاب « العُزّى » ، نسي فظن أنه اسم صنم مستقل [3] .

وأما المدان ، فصنم يظهر أنه كان من أصنـــام أهل الحجاز . وبه سمى جملة رجال عرفوا بـ « عبد المدان »[4] .

وأما مرحب ، فصنم من أصنام حضرموت ، وبه سمى ذومرحب سادن هذا الصنم[5] .

وللأخباريين جملة آراء في معنى ذات الودع ، وهي أنثى . وقد ورد اسمها في الشعر ، وكانت العرب تقسم بها [6] .

---

(١) الأصنام (ص ١١٠) ، « وكثرى ككسرى : صنم كان لجديس وطسم ، كسره نهشل بن الربيس ابن عرعرة ولحق بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم . وكتب له كتاباً . قال عمرو بن صخر بن أشنع :

حلفت بـكثرى حلفـة غـير برة   لتستلبن أثواب قس بن عازب »

تاج العروس (٣/٥١٣) .

(٢) ابن دريد (٢٣٥) ، Reste, S. 67.   (٣) Ency. Religi., I, P. 660.

(٤) الأصنام (ص ١١١) ، « والمدان كسحاب : صنم ، وبه سمى عبد المدان ، وهو أبو قبيلة من بني الحارث .. » ، تاج العروس (٩/٣٤٢ وما بعدها) ، اللسان (٢٨٩/١٧) ، Reste, S. 67.

(٥) الأصنام (ص ١١١) ، تاج العروس (١/٢٦٩) ، Reste, S. 67.

(٦) الأصنام (ص١١١) ، « وذات الودع محركة . هكذا في النسخ ، والصواب بالسكون . الأوثان . ويقال هو وثن بعينه . وقيل سفينة نوح عليه السلام . وبكل منهما فسر قول عدي بن زيد العبادي :

كلا يميناً بذات الودع لو حدثت   فيكم وقابل قبر الماجد الزارا

الأخير قول ابن الكلبي . قال : يحلف بها وكانت العرب تقسم بها وتقول بذات الودع . وقال أبو نصر : هي الكعبة شرفها الله تعالى لأنه كان يعلق الودع في ستورها . فهذه ثلاثـة أقوال . » ، تاج العروس (٥/٥٣٤) ، « والودع وثن وذات الودع وثن أيضاً ، وذات الودع سفينة نوح عليه السلام . كانت العرب تقسم بها ، فتقول بذات الودع قال عدي بن زيد العبادي :

كلا يميناً بذات الودع لو حدثت   فيكم وقابل قبر الماجد الزارا

يريد سفينة نوح عليه السلام ، يحلف بها . ويعني بالماجد النعمان بن المنذر . والزار ، أراد الزارة بالجزيرة . وكان النعمان مرض هنالك . وقال أبو نصر : ذات الودع مكة لأنها كان يعلق عليها في ستورها الودع . ويقال : أراد بذات الودع الأوثان . » ، اللسان (١٠/٢٦٧) « ودع » .

وياليل ، اسم صنم كذلك ، أضيف اليه فقيل عبد ياليل ، كما قيل عبد يغوث وعبد مناة وعبد ودّ (١) .

وأما ذريح « ذرح » ، فكان لكندة بالنُجير من اليمن ناحية حضرموت . يظهر أنها كانت تحج اليه ، وأن له بيتاً يقصد بدليل ورود تلبية من نسك اليه ، وهي : « لبيك ، اللهم لبيك ، لبيك ، كلنا كنود ، وكلنا لنعمة جحود . فاُكفنا كل حيّة رصود » (٢) . ويظن « ولهوزن » أنه يمثل الشمس . و « ذرح » اسم من الأسماء ، كما أنه لقب لبعض ملوك سبأ (٣) .

وذهب نولدكه إلى أن « ذرح » هو مثل « الشارق » و « محرق » ، صنم يمثل الشمس . والظاهر أن عبادة هذا الصنم لم تكن منتشرة خارج حدود العربية الجنوبية (٤) .

وأما باجر ، فانه من أصنام الأزد ومن داناهم من طيء . وقد سمي به رجال عرفوا بـ « عبد باجر » (٥) .

وحلال ، هو صنم فَزارة . أما الحُمام ، فانه صنم بنو هند من بني عذرة .

وكان في المُشَقَّر صنم لبني عبد القيس يسمى ذا اللبّا ، سدنته بنو عمرو (٦) .

وكان المنطبق صنماً ، للسُلف وعكّ والأشعريين ، وهو من نحاس ، يكلمون من جوفه كلاماً لم يسمع بمثله . فلما كسرت الأصنام ، وجدوا فيه سيفاً ، فاصطفاه الرسول ، وسماه مخدماً (٧) .

وأما الصنم نهيك ، فقد كان من الأصنام الموضوعة في مكة (٨) .

وذكر الأزرقي أن عمرو بن لُحَيّ نصب هذا الصنم عند الصفا ، وأنه كان يعرف بـ « مجاود الريح » ، وأنه نصب الصنم : مطعم الطير عند المروة (٩) . فكان الناس في موسم الحج يحجون الى الصنمين .

---

(١) الأصنام (ص ١١١) .
(٢) المحبر (ص ٣١٤ ، ٣١٨) .
(٣) Reste , S. 65.
(٤) Ency. Religi., I, P. 660.
(٥) Reste , S. 64.
(٦) Reste , S. 65.
(٧) البلدان (٨/١٧٩) « المنطبق » .
(٨) Reste, S. 67.
(٩) الأزرقي (١/١٣) .

ومن الأصنام الأخرى ، غنم . وقد ورد اسم رجال ، واسم أسر . وذكر أنه كان في جملة الأصنام الموضوعة بمكة [1] .

وفراض صنم كان بأرض سعد العشيرة [2] . أما قزح ، فالظاهر أنه صنم ، كان الناس يتصورون أنه يبعث الرعد والعواصف . وقد نسي على ما يظن . ولا بد أن يكون لقوس قزح علاقة ما بهذا الصنم القديم . وقد يكون لاسم « قزح » ، وهو من مواضع الحرم بمكة ، علاقة بأسم هذا الوثن العتيق . وقد تعبد بنو أدوم لصنم اسمه « قزح » [3] ، مما يدل على أنه هو الصنم العربي الذي نتحدث عنه . والظاهر أنه كان من الأصنام القديمة المعروفة ، غير أنه فقد منزلته وقلّت أهميته ، فلم يكن من بين الأصنام الكبرى عند ظهور الاسلام . ويخالف نولدكه رأي بعض المستشرقين الذين ذهبوا الى أن المراد بقزح الشيطان ، لا صنم من الأصنام [4] .

ويرى « ولهوزن » أن قيساً اسم صنم قديم ، نسيت عبادته ، وصار اسم أشخاص ، وأن له علاقة بـ « قوس Quas » الكلمة الأدومية ، كما في « قوس جبر » و « قوس ملك » وما شاكل ذلك . وذكر أمثلة على ذلك مثل غيث وغوث [5] .

وأما « عوف » ، فقد استدل من التسمية بـ « عبد عوف » على أنه اسم صنم [6] ، غير أننا لا نعرف من أمر عبادته شيئاً ، فلعله من الأصنام التي ذهب ذكرها قبل الاسلام بزمن طويل .

ويتبين من بعض الأعلام المركبة ، مثل : عبد الثريا وعبد نجم ، أن الثريا ونجماً ، كانا صنمين معبودين في الجاهلية [7] .

---

(١) ابن هشام (١٤٥) ، Reste, S. 66.

(٢) Reste. 67, Tuch, in DMZ, 1849, S. 200, Josephus, Antiq., 15, 253.

(٣) Josephus, Anti., XV, 253.

(٤) Ency. Religi., I, P. 661.

(٥) Reste, S. 67.

(٦) Ency. Religi., I, P. 663.

(٧) Ency. Religi., I, P. 66.

وقد استنتج نولدكه من الآية : « وإنه هو ربُّ الشِّعْرى » [1] أن الشعرى كانت صنماً من أصنام الجاهليين ، وأن القرآن الكريم أراد إفهام القوم بهذه الآية أن الشعرى ليست رباً ، وإنما هي جرم مخلوق ، وإن الله هو ربّ الشعرى ، كما هو ربّ سائر المخلوقات [2] .

يظهر من دراسة أسماء الأصنام : أن بعض تلك الأسماء أسماء أجرام سماوية مثل شمس وسين وورخ وعثتر وما شاكل ذلك ، وبعضها ذو معان مجردة مثل ودّ وجدّ ومناة ومناف وما شابه ذلك من أسماء ، وبعض آخر أسماء حيوانات مثل نسر وعوف وأسد ، وبعض آخر أسماء أصنام منسوبة الى مواضع مثل ذي الشرى وذي الخلصة وبعض آخر يمثل بعض أجزاء انسان مثل ذي الكفين . ويعارض « نولدكه » رأي بعض الباحثين الذين اتخذوا من تسمية بعض الأصنام بأسماء الحيوانات دلالة على الطوطمية ، اذ يرى أن هذه الأسماء هي قليلة جداً ، وأن أثر الطوطمية عند الجاهليين مفقود أو قليل جداً بحيث لا يمكن أن يكون سنداً يستند اليه لإثبات وجود الطوطمية عندهم [3] .

---

(1) صورة النجم ، الآية ٤٩ .

(2) Ency. Religi., I, P. 660.

(3) Ency. Religi., I, P. 662.

الفصل الخامس

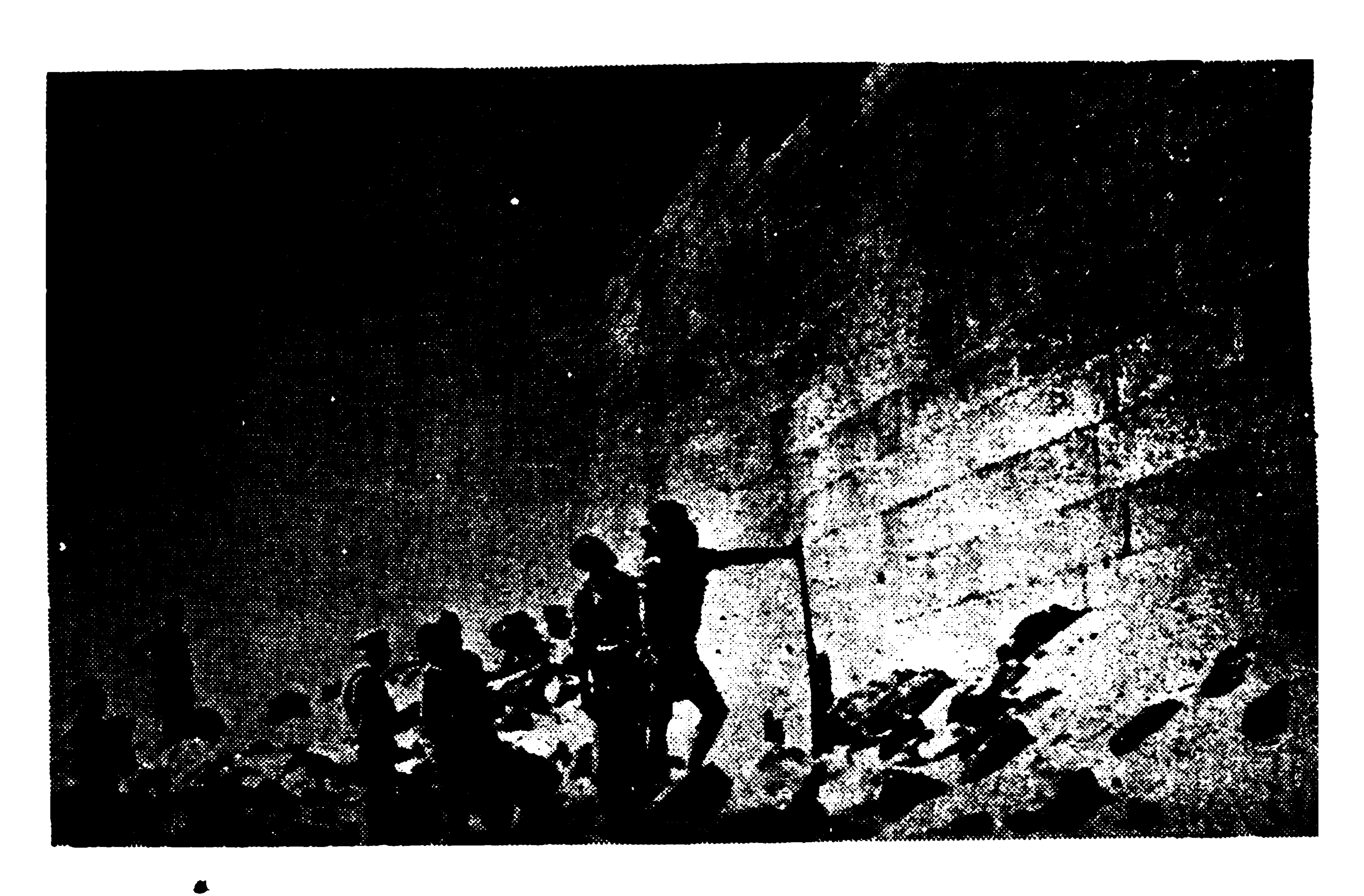
أصنام الكتابات

أقصد بـ « أصنام الكتابات » الأصنام التي عرفنا خبرها وأمرها من الكتابات الجاهلية ، وذلك تمييزاً لها عن الأصنام المتقدمة التي أخذنا علمنا بها من روايات الأخباريين في الغالب . نعم ، بين هذه وتلك عدد ورد اسمها في روايات الأخباريين وفي نصوص الجاهليين ، ولكننا حين نتكلم فانما نتكلم على الغالب العام ، لا النادر القليل . وأكثر أصنام الكتابات ، هو من هذا القبيل ، لم يرد ذكره في روايات الأخباريين .

لقد حفظت نصوص المسند أسماء عدد لا بأس به من الأصنام ، كان الناس يقضون الليالي سهراً في عبادتها والتودد اليها ، لتنفعهم في دنياهم وآخرتهم ، ويتقربون اليها بالنذور وبالقرابين . ثم ذهب الناس وذهبت آلهتهم معهم ، وبقيت أسماء بعض منها مكتوبة في هذه النصوص ، وبفضل هذه الكتابات عرفنا أسماءها . ولولاها لكانت أسماؤها في عداد المنسيّات كأسماء الآلهة التي نسيت لعدم ورود اسمائها في النصوص .

وهذه الأسماء ، وان كانت عديدة ، أكثرها ليست سوى كنى ونعوت لآلهة ، اذا فحصت ودققت وجد أنها آلهة معدودة لا تتجاوز ثلاثة آلهة في رأي الباحثين في العربيات الجنوبية ، هي : القمر ، والزُّهَرَةُ ، والشمس .

وهذا الثالوث الكوكبي يدل ، في رأي الباحثين في أديان العرب الجنوبيين ، على أن عبادة العربية الجنوبية هي عبادة نجوم . وهو يمثل في نظرهم عائلة مكونة من ثلاثة أشخاص ، هي : الأب وهو القمر ، والابن وهو الزَّهَرَةُ ، والأم وهي الشمس . والزهرة هي ذكر في نصوص



من بقايا سور معبد « المقه » بمل أوام

من كتاب :

Wendell Phillips, Qataban and Sheba, P. 213.

المسند ، أي عند العرب الجنوبيين ، وتسمى بـ « عثتر » عندهم ، وأنثى عند الساميين الشماليين ومنهم العرب الشماليين كذلك . وهذه هي من جملة الفروق التي نراها بين ديانة سكان العربية الجنوبية وديانات الساكنين فى شمال العربية الجنوبية .

وهذه الأجرام السماوية الثلاثة هي الأجرام البارزة الظاهرة التي يراها الناس ، ولا سيما الشمس والقمر . أما الزهرة ، فإنها ، وان كانت غير بارزة بروز الشمس والقمر ، غير أنها ظاهرة واضحة مؤثرة بالقياس الى بقية الأجرام ذات مظهر جذاب ، وهذا المظهر الخلاب هو الذي جعلها ابناً للشمس والقمر فى أساطير العرب الجنوبيين .

ويشير القرآن الكريم الى عبادة الجاهليين للأجرام السماوية ، ولا سيما الشمس والقمر ، ومن ذلك قوله تعالى : « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم اياه تعبدون » [1]. ويتبين من ورود اسم الشمس والقمر فى مواضع أخرى منه ، أنهما كانا أظهر الأجرام المعبودة شأناً . ويلاحظ أن العرب كانت تسمى الشمس « الإلآهة » تعظيماً لها ، كما يظهر ذلك من هذا الشعر :

تروّحنا من اللعباء قسراً　　فأعجلنا الالآهة أن تؤوبا
على مثل أبن ميّة فأُنعِياهُ　　تشقّ نواعم البشر الجيوبا [2]

واذ كان القمر هو الأب وكبير الآلهة الثلاثة فى هذه الأسطورة ، صار اسمه فى طليعة من يذكر اسمه من الآلهة فى النصوص ، وصارت له كنى ونعوت كثيرة لا تجاريها فى الكثرة نعوت الآلهة الأخرى ، وبه تسمى أشخاص كثيرون فى مناطق واسعة من جزيرة العرب . وهذا ما حدا ببعض المستشرقين على اطلاق ديانة القمر على ديانة العرب الجنوبيين على سبيل التغليب . وهذا المركز الذي يحتله القمر فى ديانة العربية الجنوبية ، لا نجده فى أديان الساميين

---

(١) فصلت الآية ٣٧ .

(٢) ينسب هذا الشعر لمية بنت أم عتبة بن الحارث ، وقيل لبنت عبد الحارث اليربوعي ، وقيل : لنائحة عتيبة بن الحارث ، وقيل : لأم البنين بنت عتيبة بن الحارث . تاج العروس (٣٧٤/٩) ، اللسان (٦٣٠/١٧) .

الشماليين ، مما يصح أن نجعله من الفروق المهمـة التي تميز الساميين الشماليين عن الساميين الجنوبيين [1].

ويرجع بعض المستشرقين هذا التباين الظاهر بين عبادة الساميين الجنوبيين وعبادة الساميين الشماليين وتقديم القمر على الشمس عند العرب الجنوبيين الى الاختلاف فى الأقاليم والى التباين فى الثقافة ، ففي العربية الجنوبية يكون القمر هادياً للناس ، ومهدئاً للأعصاب ، وسميراً لرجال القوافل من التجـار وأصحاب الأعمال فى الليالي اللطيفة ، بعد حرّ شديد تبعثه أشعة الشمس المحرقة ، فتشل الحركة فى النهار ، وتجعل من الصعب على الناس الاشتغال فيه ، وتميت من يتعرض لأشعتها الوهاجة . انهـا ذات حميم حقـاً فلا عجب إذا ما دعيت بـ « ذات حميم » عنـد العرب الجنوبيين ولذلك ، لايستغرب اذا قدمـه العرب الجنوبيين فى عبادتهم على الشمس ، وفضلوه عليها . واذا كانت الشمس مصدراً لنمو النباتات نمواً سريعاً فى شمال جزيرة العرب ، فإن أشعة الشمس الوهاجة المحرقة تقفُ نمو اكثر المزروعات فى صيف العربية الجنوبية ، وتسبب جفافها واختفـاء الورد والزهر فيها فى هذا الموسم ، فلا بد أن يـكون لهذه الظاهرة أثر فى العقلية التي كونت تلك الأساطير [2] .

وعند « هومل » أن ديانات جميع الساميين الغربيين والعرب الجنوبيين هي ديانة عبـادة القمر ، أي أن القمر فيها مقدم على الشمس ، وهو عكس ما نجده في ديانة البابليين . ويعلل ذلك ببقاء الساميين الغربيين بدواً مـدة طويلة بالقياس الى البابليين . ويلاحظ أيضاً أن الشمس هي أنثى ، وأما القمر فهو ذكر عند الساميين الغربيين ، وهو بعكس ما نجده عند البابليين [3] .

والاسم الشائع للقمر بين الساميين ، هو : ورخ وسين « سن » وشهر ، وشهر خاصة هو الاسم الشائع المستعمل للقمر فى الـكتابات الجاهلية التي عثر عليها فى العربية الجنوبية وفى النصوص

---

(١) Handbuch , I, S. 213.

(٢) Handbuch , S. 213 , Die Altarabische Mondreligion , S. 49. ff. , Der Sabaische Gott Ilmukah , S. 1. ff.

(٣) Hommel , Grundriss , I , S. 85.



الأعمدة الباقية من معبد « المقه » بعل بران

من كتاب :

Wendell Phillips, Qataban and Sheba, P. 225.

التي عثر عليها في الحبشة ، وفي الأقسام الشمالية من جزيرة العرب أيضاً . ويلاحظ أن الصور التي ترمز الى القمر مما عثر عليه في تلك النصوص هي متشابهة تقريباً ، ومتقاربة في الشكل ، مما يدل على أن الأسطورة الدينية التي كانت في مخيلة عبدة القمر عنه كانت متشابهة ومتقاربة ومن أصل واحد . أما كلمة « قمر » ، فلم ترد حتى الآن في النصوص الجاهلية التي وصلت الينا ، وهذا مما حمل بعض المستشرقين على القول بأن هذه التسمية متأخرة [1] . أما أنا ، فلا استطيع الجزم بذلك ، ولا الموافقة على هذا الرأي ؛ لأن هذه التسمية هي في عربية القرآن الكريم ، ولم يصل الينا نص ما من نصوص الجاهلية بهذه اللهجة حتى الآن .

ويلاحظ أن النصوص العربية الجنوبية لا تسمي القمر باسمه دائماً في النصوص ، وإنما تشير اليه بكناه وصفاته في الغالب . ويظهر أن ذلك من باب التأدب والتجمل أمام رب الأرباب [2] . ونجد هذا التأدب في مقام الأرباب عند بقية الساميين ، وخاصة عند العبرانيين حيث لا يرون مخاطبة الرب باسمه المعتاد .

واتخذ الثور من الحيوانات رمزاً للقمر . ولعل ذلك بسبب قرنيه اللذين يشبهان الهلال ، ولذلك عُدّ الثور من الحيوانات المقدسة التي ترمز الى الآلهة . وقد دعي القمر في بعض النصوص ثوراً . ونجد هذه الصورة مرسومة في النصوص اللحيانية والثمودية وعند غيرهم من الساميين الشماليين .

ولما كان القمر هو الأب ، خاطبه المؤمنون به بـ « ودم ابم » و « أبم ودّم » أي « وَدٌّ أبٌ » و « أبٌ ودٌّ » ، ولا غرابة في ذلك . فإذا كان القمر أبا للآلهة ، فلم لا يكون اذن أباً لمخلوقاته وهي من صنعته وخلقه ؟ ودعوه أيضاً بـ « عم » ، ولِمَ لا ؟ أليس العم في مقام الأب ؟

---

(١) Handbuch , . I , S. 214.

(٢) Handbuch , S. 214.

(٣) Nielsen , Handbuch , I , S. 214 , Glaser 151 , Nieuals , Altarabische Mandreligion , S. 110 , Adolf Grohmann , Gottersymbole und Symboltiere auf Sudarabischen Denkmoler , Wien 1914 , 41.

ثم إن العرب لا تزال تخاطب الكبير بـ « عم » دلالةً على تقديره واحترامه ، فليس بغريب إن نادى المؤمنون إلـهم القمر : يا عم ! ليرحمهم وليبارك فيهم ان في هذا النداء تقرباً وتواضعاً واشعاراً بضعف السائل تجاه المخاطب[1] .

والأب عند العرب كل من كان سبباً في ايجاد شيء أو اصلاحه أو ظهوره . ويقوم العم عندهم مقام الأب ، ولذلك سمي مع الأب الأبوين[2] .

وترد بعد كلمة « ودم » كلمة « شهرن » في بعض الكتابات . على هذا الشكل : « ودم شهرن » ، أي « ودّ القمر » . وكلمة « شهر » تعني « القمر » في عربية القرآن الكريم[3] .

وتكون كلمة « ودّ » اذن اسماً للقمر . وتقوم كلمة « ر ى ع ن » القتبانية مقام كلمة « شهر » في المعينية والقمر في لهجتنا . وقد وردت مع الإلـه « عم » الذي هو القمر عند القتبانيين[4] .

وقد عثر على أخشاب وأحجار حفرت عليها أسماء ودّ أو جمل « ودّم أبم » أو « أبم ودّم » ، وذلك فوق أبواب المباني التي بنيت حديثاً ، لتكون في حمايته وللتبرك باسمه والتيمن به ، كما وجدت كلمة « ودّ » محفورة على أشياء ذات ثقوب ، تعلق على عنق الأطفال لتكون تميمة وتعويذة يتبرك بها[5] . فعلوا ذلك كما يفعل الناس في الزمن الحاضر في التبرك بأسماء الآلهة والتيمن بها لمنحها الحب والبركة والخيرات .

والأب في الغالب أكبر سناً من الأم ، وهو بالطبع أكبر سناً من الابن ، فلا عجب ان نعت القمر بـ « كهل » « كاهل » في بعض النصوص . وفي كلمة « العم » نفسها شيء من الاعتراف بكهولة هذا الإلـه . ولا أدري لم أحب العرب الجنوبيون إراءة كبير آلهتهم إلـهاً

(١) Handbuch, I, S. 214. f.

(٢) المفردات في غريب القران للراغب الاصفهاني (ص ٤ وما بعدها) « مادة أبا في كتاب الألف » .

(٣) Glaser 504 Glaser 324, Nielsen, altarabische, S. 37.

(٤) Handbuch, I, S. 216.

(٥) وكتابات عديدة أخرى . Halevey 584, 535, 585, 537, 583, 591, 686, Glaser, 83, 84.

كهلا ، وليس من طبع الانسان الميل الى تكبير سنه ؟ لا أظن أن القمر يرضى بذلك لو كان له لسان ينطق ، وهو جزء من غيره أقدم عهداً منه . ولكنه هو كبير الآلهة رضي أم أبى في عرف العرب الجنوبيين ، ثم انه أب وعم . والمقدم على جميع الآلهة ، وإلـه هذا شأنه لا بد أن يكون كهلاً .

وقد وردت كلمة « كهل » في بعض النصوص التي عثر عليها في الأقسام الشمالية من جزيرة العرب كذلك [1] ، والصورة العامة للقمر عند الساميين الشماليين أنه على صورة رجل مسن [2] . ولعل لصورته البهية اللطيفة الباردة المهدئة التي يظهر بها في السماء خاصة في منتصف الأشهر القمرية دخلاً في رسم هذه الصورة للقمر .

ولما كان القمر على هيأة رجل كهل كامل ، كان من الضروري اضافة صفات الكمال اليه ، فهو « صدق » صديق وصادق ، وهو « حكم » أي حكيم ، وهو « علم » عليم ، وهو « نهى » في النصوص الثمودية أي عالم على ما يظن ، وهو « حرمن » أي محرم بمعنى مقدس عند العرب الجنوبيين . ومن هذه الكلمة « محرم » اسم الإلـه الرئيس في النصوص الحبشية [3] .

وهناك صفات أخرى عديدة ذات مفاهيم أخلاقية عالية ، ترينا الإلـه إلـهاً مساعداً حامياً محباً لأبنائه المؤمنين به ، كما يحب الآباء أبناءهم الأعزاء . ان هذه النعوت رفعت تفكير العرب الجنوبيين في آلهتهم من المستوى المادي المحسوس الى المستوى الروحي الأخلاقي ، فجعلت الآلهة فكرة أخلاقية سامية ، لا مجرد حجر أو خشب أو معدن مصنوع .

وودّ من الأصنام التي ذكرت في القرآن الكريم مع أسماء أصنام أخرى عبدت في عهد نوح [4] . وقد ظن بعض المستشرقين أن هذا الصنم لم يكن معبوداً في الجاهلية القريبة من الإسلام وعند ظهور الاسلام ، وهو رأي غير صحيح ، اذ ورد ذكره في شعر للنابغة ، وكان له

---

(١) « الكهل من وخطه الشيب » ، المفردات في غريب القرآن (ص ٤٥٨) .

(٢) Handbuch, I, S. 215.

(٣) Handbuch, I, S. 215, Die athiopischen Gotter, in ZDMG., Bd., 1912, S. 92.

(٤) سورة نوح الآية ٢٣ .

معبد في دومة الجندل ، وسدنة وأتباع ، ولدينا أسماء جملة رجال جاهليين عرفوا بـ « عبدودّ » [1].

وقد ذُكر أن قريشاً كانت تتعبد كذلك لصنم اسمه ودّ ، ويقولون له أدّ أيضاً [2].

وورد اسم « ود » في النصوص المعينية التي عثر عليها في « ديدان » وفي النصوص الثمودية كذلك . وفي أحـــد هذه النصوص الثمودية كتابة دوّنها أحد المؤمنين الفانين في حب ود ، معناها : « أموت على دين ودّ » ، وفي كتابة أخرى : « يا إلـهي ، أحفظ لي ديني ، يا ودّ أيدْه » [3] . وفي ورود اسم ود في هذه المناطق دليل على مدى انتشار عبادته في جزيرة العرب .

ووردت كلمة « ود » تحية في الكتابات الثمودية في الغالب ، وللتحية صلة بفكرة ود إلـهاً ولا شك . وقد وردت أسماً للإلـه في النصوص اللحيانية [4] . وبمعنى التحيّة وردت كلمة ود في هذا البيت :

حَيّاكِ ودّ وأنّى لا يحلّ له لهو النسـاء وأن الدين قد عزما [5]

وهو بيت ينسبه الأخباريون الى نابغة بني ذبيان [6] .

وقد نعت « ود » في بعض الكتابات ببعض النعوت ، مثل : « ا ل هـ ن » « الآهان » ، أي الآله ، و « كهلن » « كاهلن » أي الكاهل بمعنى القـدير المقتدر [7] . وهي بالطبع من صفات هذا الإلـه التي كان يراها المعينيّون فيه .

---

(1) Ency. Religi. Vol., I. P. 662. (2) البلدان (٤٠٧/٨) « ود » .

(3) Herbert Grimme Die Losung des Sinaischriftproblems , Die Altthamudische Schrift , Munster. 1926. S. 40.

(4) Handbuch. I. S. 216. (5) البلدان (٤٠٨) « ود » .

(6) قالت أراك اخا رحل وراحلة تغشى متالف لن ينظرنك الهرما
حياك ود فإنا لا يحل لنا لهو النساء وإن الدين قد عزما
مشمرين على خوص مزممة نرجو الإله ونرجو البر والطعما

شعراء النصرانية (ص ٧٠٥)

Nallino, Raccolta. III , Storia Dell Arabia Preislamica PP . 196 , Reste , S. 17 , Noldeke , in ZDMG. , XLi, 1887. S. 708.

(7) Homml, Grundriss. I. S. 136. Glaser 284. Halevy 237. Chrestom. S. , 91. 97.

وقد وردت فى نص قتباني جملة ، هي : « بيت ودم »[1] ، أي بيت ود ، ومعناها معبد ود ولا شك . ولا بد أن تكون هناك جملة معابد خصصت بعبادة هـذا الإلـه لا فى العربية الجنوبية وحدها ، بل لا بد أن تكون فى أنحاء متعددة من جزيرة العرب .

وقد اقترن اسـم « ود » مع « ال » « ايل » في بعض الـكتابات العربية الجنوبيـة ، و « ايل » هو الإلـه الساميّ القديم . ولعل في « ودّ ايل » معني « حب ايل » ، فتكون كلمة « ودّ » هنا صفة من صفات الإلـه . وأما « ايل » ، فإنها قد تعني ما تعنيـه كلمة « إلـه » فى عربيتنا ، وقد تعني إلهاً خاصاً فى الأصل هو إلـه الساميين المشترك القديم[2] .

وقد نسيت عبادة ودّ فى العربية الجنوبية بعد زوال نفوذ شعب معين ، وذهبت مع العبادات الأخرى فى الذاهبين الماضين . أما عبادته فى الحجاز ، فقد بقيت حيّة قائمة الى ظهور الإسلام ، فكان لودّ صنم ، وكانت له سدنة يدعون له ويفتخرون به ويروون من غير شك شيئاً من اجاباته دعاء الداعين واغاثته المتلهفين ، الى أن جاء الاسـلام فحطمه ، فلم تنفعـه كل تلك الأقاصيص والخوارق والمعجزات التي كان يؤكد اتباعه وقوعها منه ، ولم تخلصه توسـلات سدنته من أيدي المسلمين . لقد تنـاوله المعول فحطمـه دون أن يتحرك جسمه ، أو تظهر علامة منه من تلك العلامات التي كانت ترتعد من ذكرها فرائص الناس !

وودّ صنم من تلك الاصنام التي استوردها « عمرو بن لحيّ » وفرقها على القبائل ، لتتعبد لها على رواية ابن الـكلبي عن كيفية انتشـار عبادة الأصنام بين العرب . أعطى عمرو بن لحي عوف بن عذرة بن زيد اللاّت بن رفيدة بن ثور بن كلب بن وبرة من قضاعة هذا الصنم ، وزيّن له عبادته ، فحمله عوف معه الى وادي القرى ، ونصبه بدومة الجندل ، ودعا قومه الى عبادته ، وسمى ابنه باسمه ، « عبد ودّ » ، فكان أول من عرف بهذا الاسم ، وجعل عوف ابنه عامراً سادناً له ، وهو عامر المعروف بعامر الأجدار ، فكان عامر أول سادن له ، ولم تزل بنوه يسدنونه الى أن جاء

---

(١) Hommel, Die Sudarabischen Altertumer, S. 2 .

(٢) Handbuch . I . S. 217 . f. H. Bauer, in ZDMG . , Bd . , 69 , 1915 , S. 561.

الله بالإسلام [1] .

وقد استنتج ياقوت الحموي من هذه الرواية التي يرويها ابن الكلبي أن الصنم اللآت أقدم عهداً من ودّ ؛ لأن ودّاً على هذه الرواية قد سلم الى عوف ، وعوف هو حفيد زيد اللات الذي سمي بزيد اللات نسبة الى الصنم اللآت ، فودّ ، على هذا ، أحدث عهداً من اللات [2] .

وفى رواية لمحمد بن حبيب أن ودّاً كان لبني وبرة ، وكانت سدنته من بني الفرافصة بن الأحوص من كلب [3] . ويشك « ولهوزن Wellhausen » فى صحة هذه الرواية ، فقد كان الفرافصة بن الأحوص على رأيه نصرانياً ، وهو والد نائلة زوج الخليفة عثمان . ثم أن الفرافصة « الفراصفة » لم يكن من بني عمرو بن ودّ ولا من بني عوف بن عذرة ، فلا يعقل أن تكون السدانة اليه وفى نسله [4] .

وودّ على وصف ابن الكلبي له فى كتابه الأصنام « تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال ، قد ذُبرَ عليه حُلّتان ، متزر بحلة ، مرتد بأخرى ، عليه سيف قد تقلده ، وقد تنكب قوساً ، وبين يديه حربة فيها لواء ، ووفضة فيها نبل » [5] . وقد أخذ ابن الكلبي وصفه هذا لودّ من أبيه عن مالك بن حارثة الأجداري .

ومالك بن حارثة الأجداري ، هو من بني عامر الأجدار ، وهم سدنة ودّ . وزعم ابن الكلبي أن أباه محمد بن السائب الكلبي حدثه عن مالك بن حارثة أنه قال له : إنه رأى ودّاً ، وأن أباه كان يبعثه ، وهو صغير ، باللبن اليه ، فيقول : أسقه إلهك ، فيشربه مالك [6] . فيعود وقد شرب اللبن . أما أبوه فيظن أنه قد أعطاه الى ودّ .

---

(١) الأصنام (ص ٥٤ وما بعدها) ، البلدان (٤٠٩/٨) « ود » ،

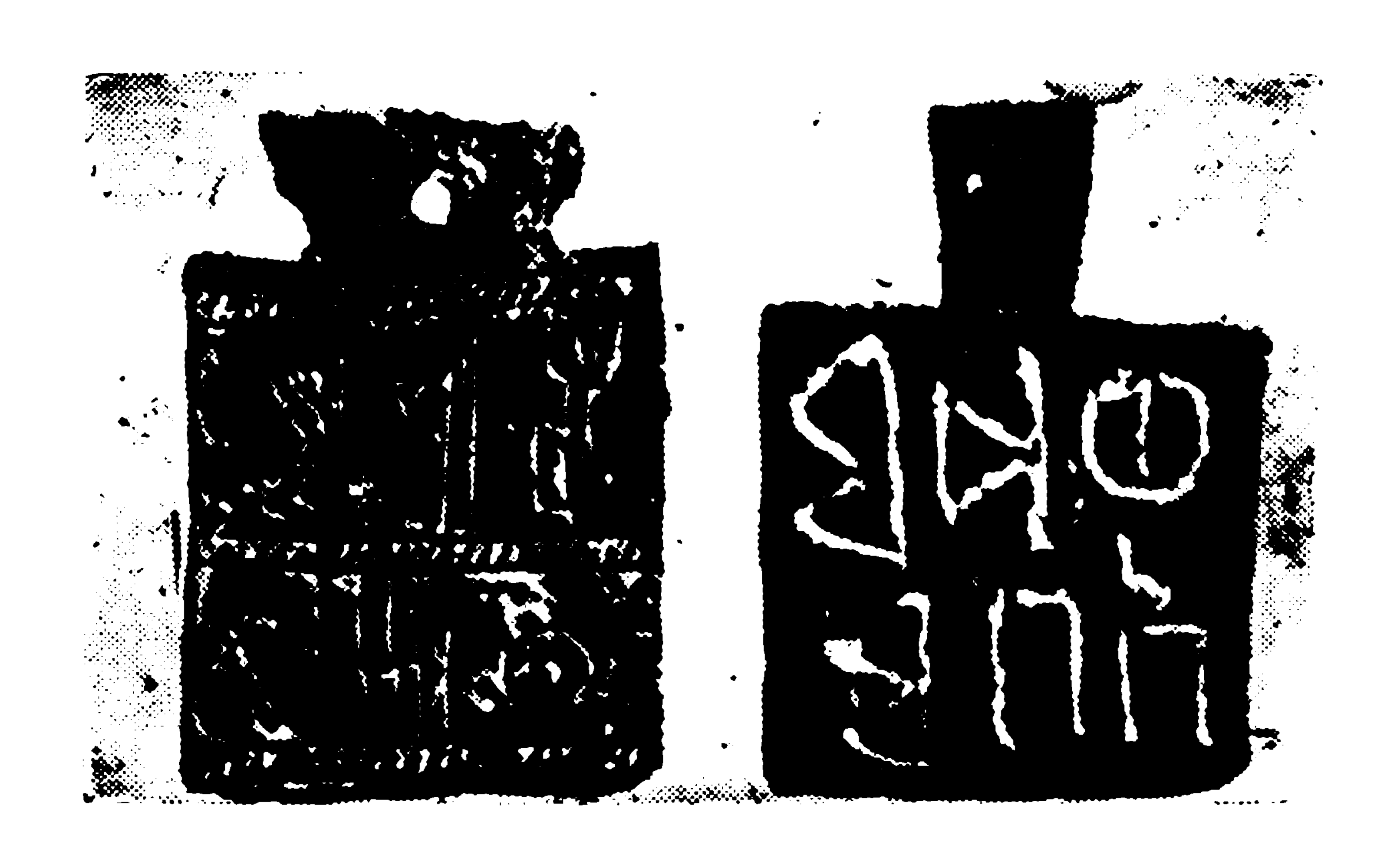
(٢) البلدان (٤١٠/٨) « نهاية مادة ود » .

(٣) المحبر (ص ٣١٦) ، البلدان (٤٠٧/٨) « ود » .

(٤) Reste . S. 17. Ency . Religi. . I . p. 662 .

(٥) الأصنام (ص ٥٦) ، سبائك الذهب (ص ١٠٤) ، البلدان (٤٠٩/٨) « ود » .

(٦) الأصنام (ص ٥٥) .



رقية وجدت فى معبد الحريضة ، كتب عليها : « ودم ابم » ، أي : « ودّ أب »
من كتاب :
Histoire Generale des Religions, tome, IV, P. 322.

وقد بقي ودّ قائماً في موضعه الى أن بعث رسول الله خالد بن الوليد من غزوة تبوك لهدمه . فلما أراد خالد هدمه ، اعترضه بنو عبد ودّ وبنو عامر الأجدار . وأرادوا الحيلولة بينه وبين هدمه ، فقاتلهم ، وأوجعهم ، وقتل منهم ، فهدمه وكسره . وذكر ابن الكلبي أنه كان فيمن قتل رجل من بني عبد ودّ يقال له قطن بن شريح ، ورجل آخر هو حسّانُ بن مصاد ابن عم الأكيدر صاحب دومة الجندل [1] .

وفي الموارد الأخرى أن خالد بن الوليد افتتح دومة الجندل عنوة في سنة تسع للهجرة ، وقتل حسان بن عبد الملك أخا الأكيدر . وهذا في رأيي هو الصحيح . وقد كان الأكيدر نصرانياً باجماع الروايات . وقد صالحه خالد على دومة وأمنه وقرر عليه وعلى أهله الجزية [2] ، ولا أظن أن لحسان علاقةً بودّ ، وأرى أن في رواية ابن الكلبي وهماً .

وقد ذكر ياقوت الحموي رواية نقلها على ما يقوله من كتاب الفتوح للبلاذري جاء فيها أن الأكيدر جاء مع خالد الى الرسول . فأسلم عنده ، فصالحه الرسول على أرضه ، وكتب له ولأهل دومة كتاباً جاء فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب محمد رسول الله لأكيدر حين أجاب الى الاسلام وخلع الأنداد والأصنام ... » [3] . ويظهر من هذا الكتاب ، إن صح ، أن اكيدراً لم يكن نصرانياً ، وإلا فما معنى جملة « وخلع الأنداد والأصنام » ، إلا أن يكون المراد من ذلك أحد شيئين : إما موافقته على طمس الأصنام من أرضه ، فلا يعبدها وثني ، ولو أن الأكيدر نفسه لم يكن وثنياً . وإما أن يكون المراد من الأنداد والأصنام هنا الصور والتماثيل النصرانية التي كانت بدومة ، وهي أيضاً محرّمة في الاسلام ، وحكمها حكم الأصنام ؛ وحينئذ نستطيع أن نقول إنه كان على دين النصارى ، وهو ما ذهب اليه عامة من ذكر خبر غزوة تبوك .

---

(١) الأصنام (ص ٥٥ وما بعدها) .

(٢) الطبري (١٤٦/٣) « ذكر الخبر عن غزوة تبوك » في حوادث سنة تسعة للهجرة ، البلدان (١٠٧/٤) « دومة الجندل » .

(٣) البلدان (١٠٨/٤) « دومة الجندل » .

ويرى بعض المستشرقين استناداً الى معنى كلمة « ودّ » أن هذا الصنم يرمز الى الودّ ، أي الحبّ ؛ وأنه صنو للإلهين « جيل Gil » و « بحد Pahad » عند الساميين . ويستندون فى رأيهم هذا الى بيت للنابغة مطلعه : « حياك ودّ »[١] ، غير أن من العسير علينا تكوين رأي صحيح علمي عن هذا الصنم . ولا استبعد أن تكون كلمة « ودّ » صفة من صفات الإلـه لا اسم علم له .

وهنـاك من يرى وجود صلة بين « ودّ » و « Eros » الصنم اليوناني ، ويرى أنه صنم يوناني فى الأصل استورد من هناك ، وعبد عند العرب . وهو رأي يعارضه نولدكه لعدم وجود تشابه فى الهيـأة بين الصنمين[٢] . والواقع أن من الصعب اثبـات أنه من أصل يوناني . نعم ، يجوز أن يكون تمثاله من صنع يوناني ، أو من صنع بلاد الشأم ، استورد من هنـاك . ولـكن هذا لا يعني أن الإلـه « ودّاً » إلـه يوناني ، وأن العرب أخذوه من اليونان ، ولاسيا وهو من الآلهة العربية القديمة التي ورد اسمها فى أقدم النصوص .

وقد تشرف أناس فى الجاهلية بتسمية أنفسهم بأسماء يظهرون فيها عبوديتهم لودّ ، وأشهرها « عبد ودّ » . وقد كان أحد سدنة الإلـه ودّ مسمى بـ « عبد ودّ » كما ذكـر ذلك فى نص لحياني[٣] . وقد كان هذا الاسم معروفاً عند ظهور الاسلام مسمّى به أناس من العرب .

وودّ هو الإلـه « المقه » و « هوبس » عنـد السبئيين والإلـه « سن » « سـين » عند الحضرميين[٤] ، و « عم » عند القتبانيين[٥] .

---

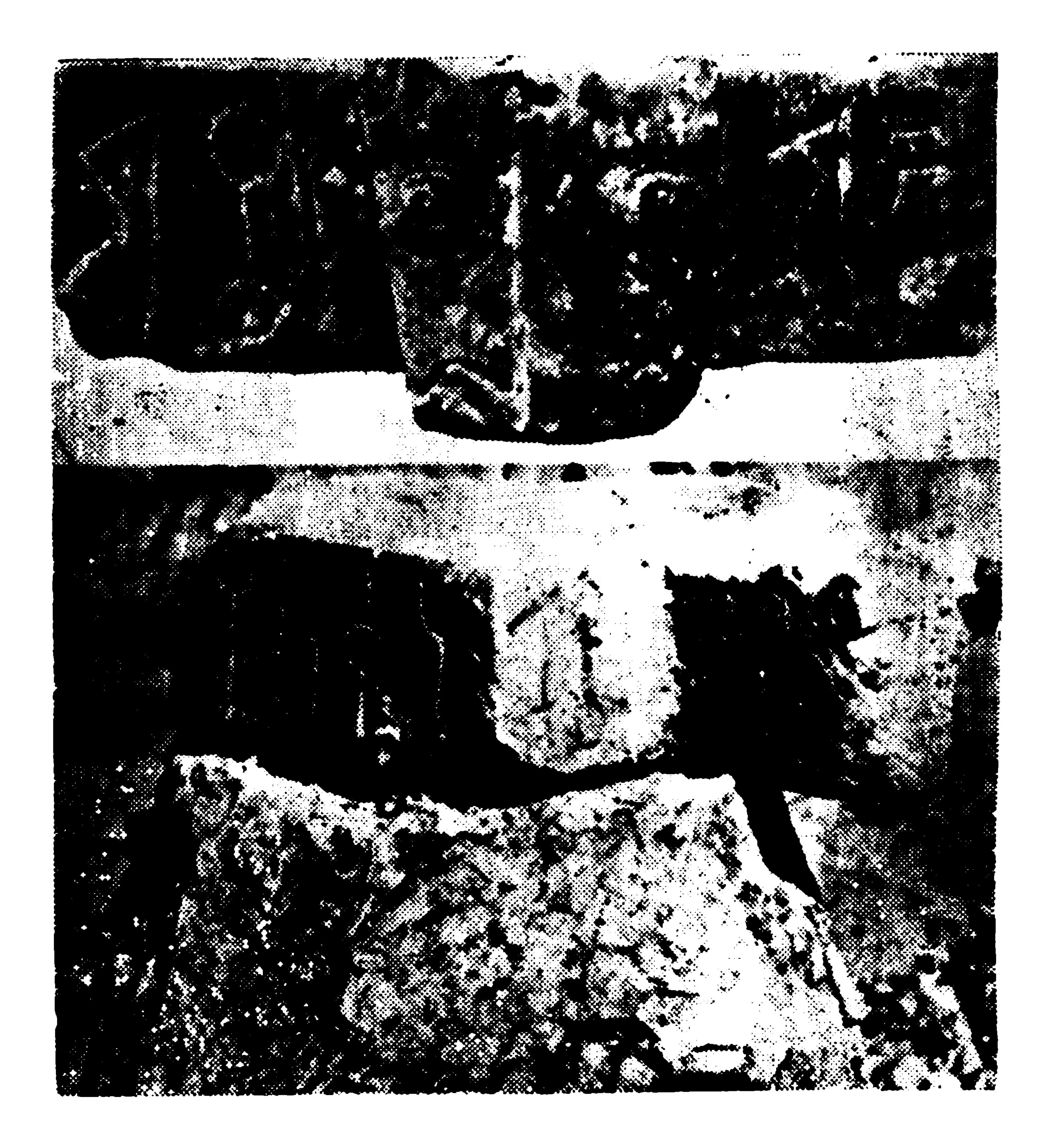
(١) Reste S. 7, gn.., 31, 42, 53, Ency. Religi.., VIII, p. 180.

(٢) Ency. Religi, vol.., I, p. 662.

(٣) Euting 845, D. H. Muller, Epigraphische Denkmaler aus Arabien, Wien 1889, Taf. 8, No. 59, S. 84, Jaussen et Savignac, Mission archeologique, en Arabie, II, Paris, 1914, P. 380, Handbuch, I, S. 216.

(٤) Hommel, Grundriss I, S. 85.

(٥) Hommel, Altertumer, Munchen, S. 1899, S. 28.



من معبد الإلـه سين الذي عثر على أنقاضه في موضع الحريضة بحضرموت .

من كتاب :

Histoire Generale des Religions, tome, IV, P. 321.



تمثال من البرنز لمعد يكرب ، نذر لمعبد الصنم « المقه بعل أوام »
من القرن السادس قبل الميلاد
Qataban and Sheba, P. 273.

وقد وردت فى نص حضرمي عثر عليه فى مدينة شبوة جملة ، هي : « سن ذ علم وعشتر ابسو » ، أي « سين ذو علم ، وعشتر أبوه »[1] . ويفهم من هـذه الجملة أن الإلـه « سن » « سين » هو ذكر ، وأنه ابن الإلـه « عشتر » الذي هو الزُّهَرَةُ عند أهل حضرموت[2] .

و « المقه » ، وهو إلـه القمر عند السبئيين ، هو إلـه سبأ الشهير ، والمقدم عندهم على سائر الآلهة ، اليه تقرب المكربون والملوك بالأدعية والهدايا ، واليه يتوسل الشعب فى كل ملمة تنزل به . وللعلماء آراء في معنى كلمة « المقه » ، وقد رأى هومل أن معناها « سيده »[3] . وقد وردت فى بعض النصوص جملة « هوبس والمقه » ، ومعنى « هوبس » على رأي « فرسنل » « Fresnel » « اليابس » « الجاف » ، وهو وصف للقمر . ويعللون ذلك بفعل القمر البارز في احداث الجزر حيث تنسحب المياه من الساحل مسافة الى البحر . وعلى كل حال ان « هوبس » و « المقه » اسمان للقمر عند السبئيين[4] . وقد أشار الهمداني الى أن اسم القمر « هيبس »[5] ، والظاهر أن هذه التسمية للقمر ظلت معروفة فى اليمن بعد الاسلام .

وتدل روايات الأخباريين عن « المقه » على عدم وقوفهم على حقيقة هـذه التسمية ، فقد حاروا فيها ، واضطربوا فى أمرها ، ولم يظهر أحد من بينهم من عرف حقيقتها . فصيرها بعضهم اسماً من أسماء الملكة « بلقيس » ، وصيرها بعض آخر مصنعة من مصانع الجن التي بنتها على عهد سليمان ، وجعلها الهَمْداني الزُّهَرة ؛ « لأن اسم الزهرة فى لغة حمير : يلمقة والمق » . وذكروا أن بناء « يلمقة » ظل قائماً باقياً الى أيام غزو الحبشة لليمن ، فهدموه[6] . واذا صحت رواية الهدم هذه ، فلا يستبعد حينئذ أن يكون ذلك بسبب كونه معبداً وثنياً خصص بعبادة الأوثان ، والأحباش نصارى سعوا لطمس الوثنية ونشر النصرانية فى البلاد .

---

(١) Osiander, 29.
(٢) Nielsen, altarabische, S. 34.
(٣) Nielsen, Altrabische, S. 40.
(٤) المصدر نفسه .
(٥) البكري (١٣٩٨) « يلمقة » ، D. H. Muller, Die Burgen und Schlosser Sudarabiens, II, Wien, 1881, S. 20 - 22. Hommel, Die Sudarabische, altert. , S. 30.
(٦) البكري (١٣٩٨) : « يلمقة » ، D. H. Muller, Burgen, II, S. 972. D. Nielsen, Der Sabaische Gott Ilmukah, Leipzig, 1910, S. 1. f.

وليس للعلماء رأي واضح صحيح في معنى « المقه » ، ويرى « ايوالد Ewald » أن الكلمة من أصل « لمق » ، وهي بمعنى لمع ، فيكون للاسم — على ذلك — معنى اللمعان[1] . وقد تعرض « دتلف نلسن » لأكثر الآراء التي قيلت في أصل كلمة « المقه » واشتقاقها ، فعلى بحثه أحيل من يريد الوقوف عليها .

ولم تقتصر عبادة « المقه » على السبئيين ، بل تعبد له أهل الحبشة كذلك ، فنجد له معبداً عند « يها » . انتقلت عبادته اليهم من السبئيين الذين كان لهم نفوذ سياسي وثقافي على الساحل الإفريقي المقابل لليمن ، ويظهر أثر ذلك في الخط الحبشي حتى اليوم .

وقد حفظت لنا نصوص المسند أسماء جملة معابد خصصت بعبادة المقه ، وللتمييز بينها ذكرت أسماء المواضع التي شيدت عليها تلك المعابد . ومن أشهرها معبد « المقه » الكبير بمدينة « مأرب » ، المعروف بمعبد « المقه بعل اوم » « المقه رب أوام » ، وهو معبد لا تزال آثاره باقية ، زارته ونقبت فيه بعثة « وندل فيلبس » الأمريكية الى اليمن[3] . وتعرف بقايا هذا المعبد عند أهل اليمن باسم « حرم بلقيس » و « محرم بلقيس » . فأحل الدهر اسم امرأة محل اسم آلهة قديم كبير[4] .

وكان من عادة مكربي سبأ وملوكها التقرب الى المقه بتعمير معبده وبتزيينه وتجميله وترميم ما يطرأ على بنائه من خلل . فاذا عزموا على القيام بمثل هذا العمل ، وضعوا في أسفل العمل كتابة تنص على نوع العمل الذي قام به الملك وحدوده ومقداره واسمه واسم أبيه ، ليقف عليه الناس . ومن أمثال هذه الكتابات حصلنا على أسماء عدد من المكربين والملوك .

وممن ساعد في بناء هذا المعبد المكرب « يدع ال ذرح بن سمه على » « مكرب سبأ » . ساعد على بناء سوره ، فقدمت بهذه المناسبة ذبائح الى الإله عثتر والى جميع الآلهة الأخرى

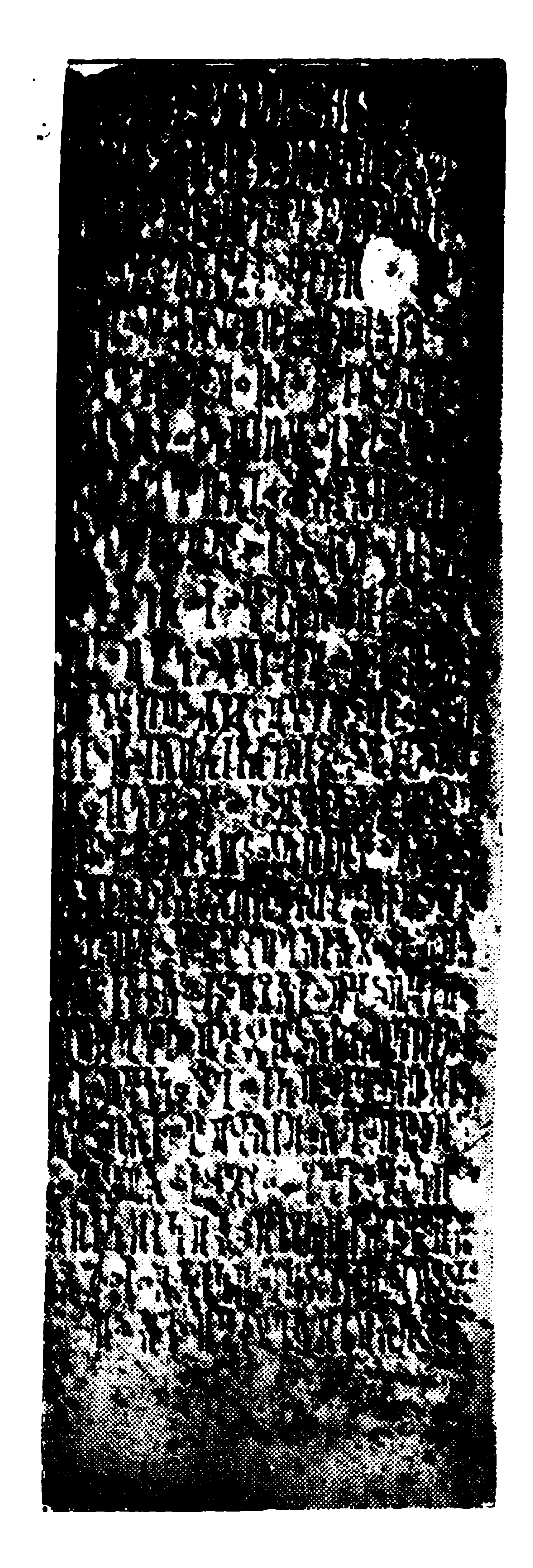
---

(١) Hofers, in Zeitschrift fur die Wissenschaft der Sprache, 1 Bd, 184 , S. 304, D. Nielsen, Ilmukah, S. 5 , Osiander, in ZDMG. , Bt. 10, S. 2, Bd. 17, 18 3, S. 794.

(٢) Ilmukah, S. 1. ff.

(٣) Wendell Phillips, Qataban and Sheba, 1955.

(٤) تجد وصف هذا المعبد في : Ilmukah, S. 65. ff.



كتابة وجدت في معبد الصنم المقه

من كتاب :
Histoire Generale des Religions, tome, IV, P. 320.



رأس الثور ، وتحته اسم مقدم اللوح : الشرح ذو ذرح ايل

من كتاب :

Histcire Generale des Religions, tome, IV, P. 325.

والى الشفعاء « شيمم » لحماية « القوم » ، أي الجماعة التابعين له . وقد ذُكر في نهاية نصه اسم عثتر وهوبس والمقه[1] . وذكر « المقه » في نهاية النص وبعد جميع الآلهة مع أنه إله سبأ الاكبر . وهي عادة جارية عندهم ، تذكر اسماء الآلهة الأخرى كلها أو بعضها مع اسم الإله صاحب المعبد الذي بني بإسمه .

وقد قام الملك « الشرح بن سمه علي » ملك سبأ ببناء سور هذا المعبد ، وبترميم أبراجه على نحو يرضي المقه الذي أوحى اليه أن يقوم بذلك العمل ليتقرب اليه . وقد ذكر بهذه المناسبة أسماء الآلهة : عثتر وهوبس وذات حميم وذات بعدان[2] .

وكان لـ « المقه » معبد آخر أقدم عهداً من معبده بمدينة مأرب ، هو معبده العتيق بمدينة « صرواح » عاصمة سبأ في أيام المكربين ، وذلك قبل انتقال الملوك منها الى عاصمتهم الجديدة مدينة « مأرب » . وكان على ما يظهر من آثاره وبقاياه ، معبداً ضخماً ، وقد زاره من السيّاح « أرنو » و « هاليفي » ، وذكرا أن منه بقية هي أعمدة وبقايا جدر عليها كتابات : وتعرف خربته بـ « عرش بلقيس »[3] .

ومعبد المقه في مدينتي صرواح ومأرب هما المعبدان الرسميان الكبيران في مملكة سبأ . وصرواح ، كما قلنا ، هي عاصمة سبأ الأولى . أما مأرب ، فهي العاصمة الثانية ، فلا بد أن يكون معبد إله المملكة فيهما أكبر معابده في المملكة . وكانت لهذا الاله معابد أخرى عديدة في أطراف المملكة ، سميت بأسماء المواضع التي أنشئت فيها ، فكان له معبد في « برن » « بران »[4] ، ومعبد في « هرن » « هران » ، ومعبد في « أوم » « أوام » على جبل « الو » ، ومعبد في « حروت »[5] .

وقد كني عن المقه بـ « ثور » في بعض الكتابات . ومما يؤيد أن المراد بثور هذا الإله

---

(١) Glaser, 484, Glaser, Skizze, I, S. 68, E. Littmann, Deutsche Aksumexpedition., IV, 60, N. Rhodokanakis, Studien, II, S. 6.

(٢) Glaser 485 - CIH 374, Glaser, Skizze I, S. 74, N. Rhodokanakis, Studien, II, S. 12.

(٣) N. Rhodokanakis, Studien Lexi., I, S. 7.

(٤) N. Rhodokanakis, Studien. I, S. 7.

(٥) Osiander 4, D. Nielsen, Ilmukah, S. 47 - 48., Osiander 13.

هو صورة رأس الثور فى كثير من الكتابات ترمز اليه ، كذلك رمز اليه بنسر وبصور الحيات. وهذه الصور من الرموز الدالة على الإله القمر عند قدماء الساميين [١] . وقد صور العبرانيون « يهوه » على هيأة عجل[٢] . ويلاحظ أن أكثر الأوثان والصور « صلمن » التي كان الناس يقدمونها الى معابد المقه وفاء لنذور نذورها لها ، اشتملت على صور ثيران ، ويلاحظ كذلك أن الثيران كانت من أكثر الحيوانات التي كان المتعبدون يقدمونها ذبائح لهذا الإله . وقد استنتج « دتلف نلسن » من هاتين الملاحظتين ومن تسمي أشخاص وأسر وعشائر وقبائل باسم « ثور » أن الثور رمز يراد به هذا الإله المقه ، أي القمر[٣] .

وقد رأى نيلسن « Nilsen » فى بعض الجمل الواردة فى النصوص الجاهلية مثل جملة : « اولد ودّ » و « ولدعم » و « ولد المقه » التي تعني « أولاد ودّ » و« ولدعم » و « ولد المقه » دلالة على اعتقاد المعينيين والقتبانيين والسبئيين انحدارهم من الاله القمر الذي له جملة أسماء ، وعدّه الههم الكبير[٤] . وأنا لا أستطيع أن أوافقه على هذا الرأي اذا قصد أنهم كانوا يعتقدون ذلك بالمعنى المفهوم من الولد والوالد . وأظن أن هذه الجمل لا تعني أكثر مما تعنيه كلمة « أبونا » حينما يخاطب النصراني ربّه أو كاهنه ، وهو لا يعني بالطبع انحداره نسباً من نسل الأب الذي فى السماء بحسب عقيدته أو الكاهن الذي يلقن الناس تعاليم الدين .

و « عم » هو إله شعب قتبان الرئيس . وقد ورد اسمه مقروناً مع الاله « أنبي » فى نصوص قتبانية عديدة . وهو يقابل الاله وداً عند المعينيين ، والاله المقه عند السبئيين ، والاله سين عند أهل حضرموت[٥] . فهو الاله القمر اذن عند القتبانيين .

وكلمة « عم » من الكلمات السامية القديمة الواسعة الانتشار عند الساميين . وقد ذكرت

---

(١) D. Nielsen, Die altarabische Mondreligion, S. 107. ff, Ilmukah, S. 51. f.

(٢) الملوك الأول ، الاصحاح الثاني عشر ، الآية ٢٨ ، الخروج ، الاصحاح ٣٢ الآية ٤ .

(٣) Ilmukah, S. 52. (٤) Handbuch, I, S. 217.

(٥) Sud., S. 21, 28. En v. 10, P. 882, Margoliouth, Relations, P. 18.



كتابة ذكر فيها اسم الصنم : عم صنم قتبان

Histoire Generale des Religions, tome, IV, P. 330.

فى نص يقدر أنه كتب حوالي سنه « ٤٥٠٠ » قبل الميلاد ، وهى من كلمات عهد الأمومة ، ثم صارت من المصطلحات الدينية مثل « ايل El » و « بعل Baal » و « ادون Adon » و « ملك Malke » وما شابهها من أسماء الألوهية : كانت نعتاً فى الأصل من جملة النعوت التى كان يطلقها الساميون على آلهتهم ، ثم جعلت علماً لإلــه . وقــد أطلق القتبانيون على أنفسهم « ولد عم » ، كما أطلق السـبئيون على أنفسهم « ولد القه » مما يدل على أن « عم » هو اسم إلــه عندهم خاص بهم . وقد وردت الـكلمة علماً في جملة « دور عمى » أي « حصن عمى » . و « عمى » هنا اسم إلــه[1] .

وينسب الالــه « عم » ، مثل سائر الآلهة الأخرى فى أكثر الأحيان ، الى المواضع التي تكون فيها « محرماً » أي معبــداً لذلك الالــه ، فورد : « محرم عم ذ دونم » ، أي « معبد عم رب دونم » ، و « عم ذلبخ » ، بمعنى « عم رب لبخ »[2] . ويســـمى معبد « عم ذ دونم » « حطبم » ، أي « حطب ». وورد « عمذ شقرم» و « عمذ يسرم»[3]. و «عم ذ ريمتم »[4] .

وهناك مئات من الأعلام المركبة ، التي ترد فيها لفظة « عم » و « عمى » ، استخرجت من النصوص . وهي مورد مهم لمعرفة كيفية تطور فكرة « عم » عند الساميين ، وكيفية صيرورتها علماً لإلــه وتمييز اسم الشعوب السامية التي تعبــدت له ، وقــد حصر « لويس بيلس بيتن » « Lewis Bayles Paton » هذه الأعلام فى خمس مجموعات ، بناها بحسب تراكيبها تسهيلاً لدراستها ، على أن دراسة مثل هــذه ليست من الأمور السهلة اليسيرة لتعقد أكثر النصوص الواردة فيها[5] .

---

(١) Ency. Religi. , I, PP. 387, Glaser, Mitteilungen, II, S. 21

(٢) راجم النص : Glaser 1602

(٣) Glaser 1119, D. Nielsen, Neue Katab. Inschriften, S. 28, 35, Muller, in ZDMG. . 30 S. 675, 676, Mordtman, in ZDMG. , 39, S. 235.

(٤) Hommel, Sudar, Alter. , S. 32,
(٥) Ency. Religi. , I, PP. 287.

ومن هذه الأعلام المركبة الواردة في نصوص المسند : « يشرح عم » و « سعد عم » و « نبط عم » و « هوف عم » و « ورع عم » و « أوس عم » وما شاكل ذلك من أعلام[1].

وقد نعت « أنبي » بـ « أنبي شيمن » في كثير من الكتابات القتبانية التي ورد فيها اسمه، ومعنى « شيمن » الحامي[2] . ولا بد أن يكون لهذا النعت صلة بصفات هذا الإلـه . وقد كان له معبد في موضع « رصف » كالذي يفهم من هذه العبارة : « رصفم محرم انبي شيمن »[3]. ومعناها « رصفُ معبد أنبي الحامي ». وكلمة « انبي » قريبة من كلمة « نبو » البابلية ، ولا يستبعد أن تكونا من أصل لغوي واحد[4]. وهو إلـه ذكر ، ويرمز الى القمر . فهو اذن مثل « عم »[5] .

ومن آلهة قتبان التي ذكرت مع « عم » الإلـه « حوكم » ، و « اثرت » « أثرة » و « نسور » و « ال فخر » . ويرى « هومل » أن الإلـه « أثرة » هو إلـهة أنثى ، هي في نظره زوج الإلـه « عم »[6] . ويحتمل على رأي « هومل » أن يكون « حوكم » « حوكُ » إلـه السماء ، ويظهر أنه من الآلهة الخاصة بشعب قتبان[7] . أما « دتلف نلسن » ، فيرى احتمال كون الكلمة من « حكم »[8].

وأما شمس ، فصنم قديم آخر من الأصنام التي عبدتها العرب قبل الميلاد وورد اسمها في نصوص المسند ، لم يرد اسمه في كتاب الأصنام لابن الكلبي[9]. وقد ذكره غيره مثل نشوان ابن سعيد الحميري . وباسم هذا الصنم تسمى عدد من الأشخاص ، فعرفوا بـ « عبد شمس » . وقد ذكر الأخباريون أن أول من تسمى به سبأ الأكبر ، لأنه أول من عبد الشمس ، فدعي

---

(1) Hommel, Grundriss, I, S. 140. (2) Sud., S. 22.26.
(3) Glaser 1602, Glaser 1395, 1604, SE 84.
(4) D. Nielsen, Neue Kataba. Inschri., S. 14. (5) Ilmukah, S. 56.
(6) « شفتم لعم واثرت » ، Sud., S. 22, 29 Glaser 160:
(7) Hommel, Grundriss, I. P. 140. f.
(8) D. Nielsen, Neue Kataba. Inschri., S. 15. (9) الأصنام (ص ١١٠) .



بقايا معبد الصنم : « عم » فى مدينة « تمنع » عاصمة قتبان .

من كتاب :

Histoire Generale des Religions, tome, IV, P. 328.

بـ « عبد شمس »[1] . وذكره « محمد بن حبيب » أيضاً فقال : « وكان شمس لبني تميم ، وكان له بيت ، وكانت تعبده بنو أدّ كلها : ضَبّة ، وتميم ، وعَديّ ، وعُكْل ، وثور . وكان سدنته من بني أوس بن مخاشن بن معاوية بن شُريف بن جروة بن أسيد بن عمرو بن تميم ، فكسره هند بن أبي هالة وصفوان بن أسيد بن الحلاحل بن أوس بن مخاشن »[2] .

والشمس أنثى في العربية ، فهي إلـهة ، أما في كتابات تدمر فهي مذكر ، ولذلك فهي إلـه ذكر عند التدمريين . ويرى « ولهوزن Wellhausen » أن ذلك حدث بمؤثرات خارجية[3] . وورد في الكتابات التي عثر عليها في حوزان أسماء أشخاص مركبة من شمس وكلمة أخرى ، ويدلّ ذلك على شيوع عبادتها عند أهل تلك المنطقة . وذكر سترابون أن « Helios » أي الشمس ، هي الإلـه الأكبر عند النبط . ولكن الكتابات النبطية لا تؤيد هذا الرأي . والإلـه الأكبر فيها هو « اللات » . فلعل « سترابون » قصد بـ « Helios » اللات . واذا كان هذا صحيحاً ، فتكون اللات هي الشمس[4] .

وعبد الشمس أقوام آخرون من غير العرب من الساميين ، مثل البابليين والكنعانيين والعبرانيين . وقد أشير في مواضع عديدة من العهد القديم الى عبادة الشمس بين العبرانيين ، وجعل الموت عقوبة لمن يعبد الشمس . ومع ذلك ، عبدت في مدن يهوذا . وقد اتخذت جملة مواضع لعبادة الشمس فيها عرفت بـ « بيث شمش Beth Shemesh »[5] . وكانت عبادة الشمس شائعة بين التدمريين ، كما كانت معروفة عند أقوام من غير الساميين .

والواقع أن الشمس هي من أول الأجرام السماوية التي لفتت اليها أنظار البشر بتأثيرها في الإنسان وفي الزرع والنماء . وهذا التأثير البارز جعل البشر يتصور في الشمس قدرة خارقة وقوة غير منظورة كامنة فيها ، فعبدها وألّهها ، وشادَ لها المعابد ، وقدّم لها القرابين . وهي عبادة

---

(١) منتخبات (ص ٥٧) . (٢) المحبر (ص ٣١٦) . (٣) Reste , S. 60.

(٤) Waddington , 2569 , 2587 , Vogue , Palm. 2 , 8 , 19 , 75 , 116 , 125 , Reste , S. 60 - 61.

(٥) Hastings , P. 880.

فيها تطور كبير ورقي في التفكير إذا قيست بالعبادات البدائية التي كان يؤديها الانسان للأحجار والنباتات والأرواح .

وأشير الى الشمس عند القبائل العربية التي كانت تقيم في الأقسام الشمالية من جزيرة العرب وفي بلاد الشأم بـ « هـ الت » وبـ « ال الت » ، أي « اللات » بمعنى « الإلآهة »[1]، ويقصدون بها الشمس ، فاللات إذن هي الشمس .

ويرى هومل أن الشمس هي ابنة القمر وزوجه في الوقت نفسه عند العرب الجنوبيين[2] . ومن اقتران القمر بالشمس ولد الابن . ويظن أن المراد من « ذت حمم » و « ذت بعدن » و « ذت جدرن » و « ذت غضرن » و « ذت برن » الشمس . و « ذت » في العربية الجنوبية هي « ذات » في لهجتنا ، حذف منها الألف بحسب طريقة العرب الجنوبيين في الكتابة ، وهي تشير الى الشمس . وأما الكلمات الواردة بعد ذات ، فهي نعوت على ما يظن ، فكلمة « حمم » هي « حميم » على ما يظن . ومعنى « ذات حمم » ذات الأشعة التي تشبه الحميم من شدة الحرّ . وهذا المعنى قريب من معنى « ال حمون « El - Hamon » و « بعل حمون « Ba ' al Hammon » في العبرانية ، ويراد بها الشمس ، و « حمة Hamma » في العبرانية هي الشمس . وورد في بعض النصوص التدمرية اسم الإلآه « حمن Hamman » ، وورد هذا الاسم في بعض النصوص النبطية التي عثر عليها في حوران . وهذا الإلآه هو الشمس . وقد كني عنها بالأشعة الحارة المحرقة التي ترسلها خاصة في أيام الصيف[3] .

وهناك من فسر « ذت حمم » بـ « ذات حمى » ، والحمى الموضع الذي يحمى ، ويخصص بالإلآه أو المعبد أو الملك والحكام والمكان الذي يحيط بالمعبد ، فيكون حرماً آمناً لايجوز لأحد انتهاك حرمته[4] . وفي بلاد العرب جملة مواضع يقال لها « حمى » ذكر أسماءها الأخباريون .

---

(١) Handbuch , I , S. 224.

(٢) Grundriss , I , S. 8 .f.

(٣) Handbuch , I , S. 225. f , Hommel , Aufsatze und Abhandlungen , II , S . 177, Munchen , 1900 , D. Nielsen , Ilmukah , S. 53 , Osiander , in ZDMC. , Bd. 20, S. 282.

(٤) Handbuch , I , S. 225 , E. Osiander , in ZDMC. , Bd. 20 , 1866 , S. 282. f. , Hommel Aufsatze , II , S. 177 , Mordtmann , Himjarische Inschriften , S. 27. f., Mordtmann in ZDMC., Bd. 31 , S. 88 , Sab. Denkm. , 258. , Fell , in ZDMC. , Bd. 54 , S. 250. f.

وجملة « ذت بعدن » أي « ذات البعد » ، كنية قصد بها الشمس حينما تكون بعيدة عن الأرض ، أي في أيام الشتاء . وقد استدل على ذلك بجملة وردت فى نصوص المسند هي « بعلمن بعدنوقربن » ، أي « بالعالم البعيد والقريب » بمعنى فى الماضي والحاضر (١) . وقصد بذلك الشمس فى هذا الوقت من السنة حيث تكون أشعتها غير محرقة ولا شديدة مؤذية للناس (٢) . وأنا لا أستبعد أن يكون المراد من ذات البعد ، أي الإلـهة التي تشمل برحمتها وبركتها الأبعاد ، أي المسافات الواسعة والأماكن البعيدة فضلاً عن القريبة .

وكني عن الشمس فى النصوص القتبانية بكنى أخرى ، منها : ذت صنتم ، وذت رحبن ، وذت صهرن (٣) . وأرى أن من الصعب ايجاد تفسير مقبول لكل هـذه الكنى المذكورة فى النصوص المعينية أو السبائية أو الحضرمية أو القتبانية أو غيرها لقلة معارفنا عن أصحاب هـذه الكتابات فى كل الأمور .

ويظن أن « اثرت » الإلـهة المذكورة فى النصوص القتبانيـة هي الشمس ، ويظن أيضاً أن هذه الكلمة قريبة فى المعنى من كلمة « عشيرة » العبرانية و « عشرتو » الأشورية البابلية ، وأنها تعني فى القتبانية الشروق أوالشارقة والشرقة الشديدة من « عثر » بمعنى شرقَ وإشراق ، أضيف إلى نهاية الكلمة حرف التأنيث ؛ لأن الشمس مؤنثة ، كما فعل فى عثتر إذ عُدَّ مؤنثاً عند الساميين الشماليين ، فصار « عثترت » « عشترت » ، أي أنثى . وكما فعل فى « كوكب » و « ملك » و « ذي الخلصى » و « ذي الشرى » حيث أضيفت اليها التاء ، فصارت كوكبت « كوكبة » ، وملكت « ملكة » ، والخلصى « الخلصت » « الخلصة » وشريت (٤) .

وقد عثر فى النصوص النبطية ، وأصحابها عرب تعودوا الكتابة بهذه اللهجة على اسم إلـهة

---

(١) Glaser 618, Corpus, No 541.

(٢) Handbuch, I, S. 226

(٣) W. Fell, Sudarabische Studien, in ZDMC, Bd. 54, S. 238.ff. (1900) .D. Nielsen, Neue Kataba. Inschri.. S. 15.

(٤) Handbuch, I, S. 237, Glaser, 1395, 1604, SE 84, Rhodokanakis, Katabanische, II, S. 121.

هي ربّة العثر ، أي الشمس (١) .

وتقابل الشمس التي هي أنثى والآلهة أم ، الآلهة « عشترت » « عشتار » عند الساميين الشماليين ، حيث تعد عندهم آلهة والآهة أم بينما هي إله ذكر عند العرب الجنوبيين . وقد عرفت الشمس بـ « أم عثتر » في النصوص العربية الجنوبية ، لأنها أم الاله « عثتر » عند العرب الجنوبيين . وهي لذلك إلهة البركة والخصب والحبل ، بينما تقوم « عشتروت » « اشتار » « عشتار » بهذه الوظيفة عند الساميين الشماليين (٢) . وقد جاء في نص سبئي وجد في مدينة « صرواح » أن صاحبة النص قدمت الى الالآهة أم عثتر أربعة تماثيل من ذهب ؛ لأنها وهبت لها أربعة أطفال هم ولد واحد وثلاث بنات ، كلهم أحياء يرزقون ؛ ولأنها سرت قلبها بهذه الذرية . وهي لذلك قدمت هذه التماثيل ، ولترجو منهـــا أن تستمر في الانعام عليها وعلى ابنها وبناتها بالصحة والعافية (٣) . ويتبين من هذا النص أن السبئيين كانوا ينظرون الى « أم عثتر » . أي الشمس ، نظرة البابليين مثلا الى « عشتار » على أنها آلهة الخصب (٤) .

وأما « عثتر » فإنه من الآلهة القديمة المعروفة كذلك بين الساميين . وهو « Atargatis » عند « الكلاسيكيين » و « عتر Atar‘ » عند السريان و « عشتر » و « أتر » . وقد ذكر في نصوص الآشوريين والبابليين والكنعانيين والعبرانيين والتدمريين والعرب الجنوبيين والحبش وغيرهم مما يدل على أنه كان من الآلهة التي كانت عبادتها شائعة في منطقة واسعة ، وأنه كان من الآلهة الكبرى قبل الميلاد (٥) .

وقد ورد اسم عثتر في النصوص المعينية والسبئية والحضرمية ، وورد « أم عثتر » و « أبم عثتر » أي (أبُ عثتر » في بعض النصوص . وقد استنتج « دتلف نيلسن D. Nielsen »

---

(١) Littmann, No. 24, Lidzbarski, Ephem., Bd., 3, S. 292, Handbuch, I, S. 227.

(٢) Handbuch, I, S. 228.

(٣) Derenbourg, Etudes Sur l'Epigraphic du Jemen, Paris, 1884, No. 11.

(٤) Nielsen, Altarabisehe S. 41.

(٥) Winckler, Altorient. Forschungen, I. S. 528, Hilprecht, Bab. Exped., IX, 51, 76, Ency. Religi, vol., II, P. 165.



صورة حجر من أحجـار القبور ، وقد توسل صاحبه وهو : « عجلم بن سمدلات » الى الآلـه عثتر الشارق « شرقن » بانزال العقاب على من يغيره عن مكانه ويصيبه بأذى .

من ذلك أن عثتر هنا هو بمثابة الإله الرئيس ، فهو أب وأم للآلهة يليه القمر في الترتيب ثم الشمس [1] . وذهب « نيلسن » في بحث آخر له عن ديانة العرب الى أن المراد بـ « أم عثتر » الشمس ، باعتدادها أنثى إلهة أماً . أما ولدها ، فهو « عثتر » [2] .

ولعلماء العربيات الجنوبية آراء في تفسير بعض الجمل الواردة في النصوص مع كلمة « عثتر » ، مثل « عثتر شرقن » و « عثتر ذقبضم » و « عثتر ذيهرق » و « عثتر ذو يهر » وزهاء ثلاث عشرة جملة أخرى على هذا النحو ، كلماتها الأخرى المذكورة مع اسم الصنم ، هي أسماء مواضع . فقد فسر بعض العلماء جملة « عثتر شرقن » بـ « عثتر الشارق » ، وفسرها آخرون بـ « عثتر الشرق » أي عثتر رب المشرق ، وفسرت جملة « عثتر ذقبضم » بـ « عثتر صاحب قبض » أو عثتر القابض أو الجالس [3] . وفسرت جملة « عثتر ذيهرق » بـ « عثتر صاحب يهرق » ، و « يهرق » « يهريق » اسم مدينة من مدن شعب معين يظهر أنه كان بها معبد لعبادة « عثتر » [4] .

ويرى بعض الباحثين أن « عثتر شرقن » هو حارس المعابد والمقابر ، اليه يصلي ويدعى أن تصل الهبات الى المعابد . أما هو ، فلم يقدم باسمه شيء ما [5] .

ولدينا جملة أسماء مركبة وردت في نصوص المسند ورد فيها اسم « عثتر » ، مثل « أوس عثت » و « هوف عثت » و « لحى عثت » . و « عثت » هنا هو اختصار « عثتر » [6] .

ويلاحظ أن بعض الكتابات تكرر ذكر عثتر في الكتابة الواحدة ، فتذكره باسمه ، ثم تذكره بنعوته في مثل جملة : « بعثتر شرقن وبعثتر ذ قبضن وودّ ونكرحم وبعثتر ذيهرق وبكل

---

(1) Nielsen, Mondreligion, S. 42.

(2) Handbuch, I, S. 228

(3) N. Rhodokanakis, Stud., II, S. 27, Ency. Religi, vol. 10, p. 882, Glaser, 1089-1660. Halevy, 208.

(4) Handbuch, S. 228, Hommal, Grundriss, Bd. I, S. 85, W. Fell, in ZDMG., Bd. 54, S. 231-259 " Sudarabische Studien ".

(5) Ency. Religi. 10, p. 883.

(6) Handbuch, I, S. 228.

ال ل ا ت معن »[1] ، أي « بعثتر الشارق وبعثتر ذو قبض وبودّ ونكرح وبعثتر ذو يهرق وبكل آلهة معين » . ولا بد أن يكون لهذا التكرار معنى ، إذ لا يعقل ألا يكون له سبب ما ؛ ولا بد أن يكون لترديد اسم عثتر ونعوته أكثر من غيره من الآلهة سبب أيضاً ، إذ لا يعقل أن يكون هذا الترديد من غير داع ما . فهل كان « عثتر » ، هو المقدم على غيره عند أصحاب أولئك الكتابات ؟

وللمعينيين صنم آخر ، ورد اسمه في كتاباتهم ، هو الصنم « نكرح » . ويرى بعض الباحثين أنه إله البغض والحرب ، وأن لفظة نكرح تقابل كلمة « كره » في العربية . وأنه « مكرو Makru » أو « Nakaru » عند البابليين . وهو « العدو » ، فهو على طرفي نقيض مع الاله ودّ[2] . ويظن أنه يرمز الى الشمس ، وأنه « ذات حمم » عند السبئيين[3] .

وقد وجد من دراسة الكتابات المعينية أن آلهة المعينيين ترد مرتبة على هذه الصورة في الغالب : « عثتر » يليه « ودّ » ثم « نكرح » ، وتذكر بعدها جملة « اللات معن » ، أي « إلاهات معين » بمعنى « آلهة معين »[4] .

ومن بين أسماء آلهة العرب الجنوبيين اسم الإله « ال » « ايل » ذكر اسمه مستقلاً مقروناً بالاله « عثتر » كما في الكتابتين المعروفتين بـ« Halevy 144 » و «Halevy 150» وقد قدّم ذكره فيهما على الإله « عثتر »[5] .

ومن بين أسماء الآلهة التي ورد اسمها في النصوص ، اسم الإله « تالب ريم » « تألب ريام » . وهو إله ورد اسمه في كتابات الهمدانيين مما يحمل المرء على الاعتقاد بأنه إله كانت عبادته خاصة بقبيلة همدان ، وأنه إله هذه القبيلة كما أن « المقه » إله سبأ و « سين » إله

---

(١) الفقرة الخامسة من النص : Glaser 1150 — Halevy 192

(٢) Ency. Religi. 10, P. 882, Nielsen, altarabi, S. 20, 40.

(٣) Handbuch, I, S. 188, Der Sabaiche Gott Ilmukah S. 56.

(٤) Nielsen, Der Sabaische Gott Ilmukah, S. 55, Glasser, 1089, 1660, Halevy 208, N. Rhodokanakis, Studien, II, S. 26, Glaser, 1144 — Halevy 353.

(٥) Handbuch, I, S. 218, Halevy. in Journal Asiatique. 1872, tome 19. PP. 152.

حضرموت وعم إلـه قتبان . وقـد ظهر بظهور نجم « بني بتع » واشـتهر معه ، وظهر اسـم إلـه آخر هو « ذو سموى » أي رب السماء [1] . ويلاحظ على هذه الفترة التي ظهر فيها هـذان الإلهان أنها فترة تميزت بحدوث انقلاب سياسي فى العربية الجنوبية ، ظهرت فيهـا أسر حاكمة جديدة ، أضعفت الحـكم فى البلاد عامة ، ومهدت الى تدخل الأحباش فى شؤون اليمن واحتلالهم لها . وقد أثر هذا الحدث السياسي فى الحياة الدينية عند العرب الجنوبيين .

وكان ظهور اسم « تالب ريم » « تالب ريام » حوالي الميلاد ، ففي ذلك العهد اشـتدّ أمر أقيال همْدان ، فأسـتأثروا بالحـكم ، ودعوا أنفسهم ملوكا ، ورفعوا إلـه قبيلتهم فوق الآلهـة الأخرى ، فنحروا له الذبائح ، وقدموا اليه النذور ، وتنافسوا فى بناء معبـده . غير أن الحال لم تدم طويلاً ، فلما اسـتعاد ملوك سبأ سـلطانهم فى القرن الرابع للميلاد ، عادوا الى عبادة إلـههم القه وعاد معبده الى ما كان عليه ، الى أن أنهـكهُ دخول اليهودية والنصرانيـــة اليمن واعلان الأحباش النصرانيـة ديانة رسمية للحكومة ، فزال نفوذه بعـد أن لمع نجمه مدة تُربْى على ألف عام [2] .

وقد كانت لهذا الإلـه مثل سـائر الآلهة جملة معـابد ، غير أن معبده الأكبر هو المعبد المعروف بمعبد « تألب ريم بعل ترعت » ، أي « تالب ريام رب ترعت » [3] . وهو معبـد كانت تُقدم اليه أقيـــال « سمعي » وقبائل همدان الأخرى النذور والقرابين والهدايا ، وتحبس له الأرضين .

ومن الآلهة التي ورد اسمها فى النصوص الحضرمية ، الإلـه حول والإلـه جلسد [4] .

ولا أظن أن « حلفن » إسم إلـه خاص ، وانما هو مثل أكثر هذه الكلمات نعوت غلبتها العلمية ، ومعنى « حلفن » « الحلف » « الحليف » ، فهي نعت لإلـه . وقد ذكرت هـذه

---

(١) Handbuch . I , S. 88.

(٢) Ilmukah . S. 68.

(٣) Hommel . Grundriss . I , S. 143.

(٤) « لسين ول حول ول يدع ال ول حضرموت » ، Handbuch . I , S. 188 . Ilmukah, S. 55, Hommel , Sudara . Altertu. , S. 22.

الـكلمة فى جملة نصوص تتعلق بحبس أموال وبعقد عقود . ويلاحظ أن أصحابها استعانوا بهـذا الإلـه لإنزال النقمة والعذاب وأشـد الجزاء بكل من يحاول أن يغير أو يبـــدل تلك العقود والنصوص ، أو يتجرأ فيستولي على الأموال والحبوس المقررة ، كما رجوا منـه أن يشملهم م وجماعتهم برحمته وبلطفه وكرمه لإخلاصهم له وفنائهم فى حبه [(١)] .

وقد كان حظ الإلـه « رب السماء » « ذ سموى » خيراً من حظ « تالب ريام » ، لقد بقي أسمه متألقاً فى سماء اليمن ، يقـدم اليه الناس النذور والقرابين على حين كان سعد « تالب ريم » آخذاً فى الأفول ، وقد يكون للعصبية القبيلية دخل فى ذلك . فقد كان « تالب » إلـه قبيلة ، فهو مثل « المقه » و « عم » . أما « ذ سموى » ، فلم يكن إلـه جمـاعة معينة أو إلـه قبيلة مخصوصة ، إنه إلـه ولدته عقيدة جديدة ظهرت فى اليمن بعد الميلاد على ما يظن تدعو الى عبادة إلـه واحد هو « رب السماء » ، ثم صار « الرحمن ربّ السماء والأرض » « رحمنن بعل سمين وارضن » [(٢)] ، فهو إلـه واحد يحكم الـكون . ويرى بعض المستشرقين أن هـذه العقيدة هي نتيجة اتصال أهل اليمن باليهودية والنصرانية على أثر دخولها العربية الجنوبية ، فظهرت طبقة تدعو الى عبادة إلـه واحد هو « رب السماء » [(٣)] .

هذا وليس فى استطاعة أحد أن يتحدث الينا بتفصيل أو بكلام علمي دقيق عن هذه العبادة الجديدة وعن مدى انتشارها واتساعها بين الناس ، فالنصوص التي وصلت الينا مما تقرب به أصحابها الى هذا الإلـه ، ليست من الـكثرة بحيث نستطيع أن نستخرج منها شيئاً يحدد مدى انتشار عبادته فى العربية الجنوبية ، ثم إن الناس بقوا على عادتهم فى تدوين أسماء الآلهة الأخرى فى كتاباتهم ، مما يدل على أنهم ظلوا مخلصين لآلهتهم القديمة حتى فى هـــذه الفترة بين الميلاد وظهور الإسلام ، وأن عبادة الأصنام وإن أصيبت بنكسة كبيرة وبكساد من دخول بعض هذه

---

(١) Halevy . 147 . 148 . N. Rhodokanakis . Studien Zur Lexi. . I . S. 57 . 59.

(٢) RES. 4919. CiH. 537. Ryckmans. 520. Le Museon. 1954. Tome LXVII. P. 103.

(٣) « ذ س م ى ا ل هـ » ، « ذو السماء اله » ، Handbuch. I. S. 104. Rivista. 1955. Fasc.. 1- II. P. 109. Le Museon. 1954. tome LXVII. P. 118.

العقائد الجديدة ، عقيدة الايمان بآلـه السماء أو باليهودية أو بالنصرانية ، غير أنها بقيت عبادة سواد الناس ورجال القبائل .

ولدينا كتابة مخرومة أسطراً ، لـكنها لا تزال مع ذلك مفهومة ، تفيد أن جماعة من الأشرار المارقين تطاولوا على حرم « أوثن ذسموى » أي « الوثن رب السماء » ، فسرقوه ، ونهبوا ما كان فيه ، واستولوا على ما كان حُبس له . ولـكن عبدته عادوا ، فجمعوا ما سرق ، وأصلحوا ما أفسدوا ، وتقربوا الى الإلـه « رب السماء » بطلب التوبة والغفران ، وختموا نصهم بهذه الجملة : « وذسموى ليزا متمن شعبهو » أي « وليمتع رب السماء شـعبه »[1] . ويقصد النص بشعبه أتباع هذا الإلـه وعبدته .

ونافس هـــذا الإلـهَ إلـهٌ آخَرُ ، ارتفع نجمه بعد الميلاد كذلك ، هو « الرحمٰن » « رحمنن » ، وهو إلـه تألق اسمه فى العربية الجنوبية بعـد ظهور عقائد التوحيد فيها ، يرجع بعض المستشرقين أصله الى دخول اليهودية الى اليمن وانتشارها هناك[2] . وهـذا الإلـه هو الإلـه « رحمنه » « رح م ن ا » « Rahman - a » في نصوص تدمر[3] .

وقد نشر نص بالمسند ، وردت فيه جملة : « الرحمن الذي فى السماء واسرائيل رب يهود »[4] . وهو نص ، إن صح نقله عن الأصل بدقة وعناية ، يشير الى تأثر صاحبه بعبادة الرحمن وباليهودية كذلك . أما كيف حدث هذا الازدواج ، وكيف اقترن اسم إلـه وثني باسم إلـه دين من أديان التوحيد ، فليس فى الإمكان التحدث عن ذلك ، ما دمنا لا نملك نصوصاً عديدة لا يتطرق الى صحة نقلها الشك ، تتطرق الى مثل هذه الأمور .

وورد فى نص آخر « الرحمن رب السماء » « رحمنن بعل سمين » ، أي انه إلـه السماء ، فحل بذلك محل « ذسموى » إلـه السـماء المذكور . ثم صار « إلـه السماء والأرض » : « رحمنن بعل سمين وارضن »[5] . فأخذ بذلك مكان ذلك الإلـه .

---

(١) Re. Epigr. , 850, Rhodokanakis, Studi. , II, S. 162, Mordtmann, Beitrage, S. 188.

(٢) Handbuch, I, S. 104.

(٣) Handbuch, I, S. 248.

(٤) Margoliouth, Relation, P. 68.

(٥) Le Museon, 1954, Tome LXVII, P. 103.

وقد وردت في الكتابة الموسومة بـ « Se 48 » أسماء جملة آلهة لا نعرف من خبرها شيئاً يذكر . هي : « م ح ر ض و » « محرضو » و « م ش ر ق ي ت ن » « مشرقيتن » و « نسور » و « ال فخر »[1] . وقد ذهب « رودوكناكس » الى أن المراد من « محرضو » ومن « مشرقيتن » الشمس ، وذهب آخرون الى أن المراد بهما القمر والزهرة ، وذهب فريق آخر الى أن المراد بذلك غروب الشمس وشروقها[2] . أما « نسور » ، فإسم إلـه ، لعل له صلة بـ « نسر » . وقد وردت في نص سبئي هذه الجملة : « بيت نسور وبيت ال »[3] ، ويقصد بـ « بيت » معبد لعبادة هذين الآلهين : « نسور » و « ال » . و « ال » هو « ايل » « ايلو » إلـه الساميين القديم .

ويرى « دتلف نيلسن Ditlef Nielsen » أن « نسور » اسم من جملة أسماء كان يقصد بها العرب الجنوبيون القمر ، ولهذا رمزوا اليه بصورة نسر[4] . ولو صح هذا الرأي لكانت صورة النسر وكلمة النسر تدلان على الإلـه القمر .

وأطلق على عبدة هـذا الإلـه في أحد النصوص السبئية « أهل نسور » . وتؤدي كلمة « أهل » معنى « قوم » في النصوص الأخرى[5] ، ويقصد بها جماعة دينية ، وهي تؤدي معنى « ملة » في الاسلام . وعرف أحد أشهر السنة في النصوص السبئية المتأخرة بـ « ذنسور »[6] ، ولعله أريد بذلك نسبة الى هذا الإلـه .

وأما « ال فخر » ، فيظهر أنه مؤلف من كلمتين ، هما : « ال » اسم الإلـه « ال » أو « إيل » المعروف عند الساميين ، ومن « فخر » وهي نعت من نعوت الآلهة ، كما في كلمة « ال

---

(١) الجملة الخامسة والسادسة من النص . Rhodokanakis, Katabanische, II, S. 28 - 29.

(٢) Katabanische, II, S. 38, Hommel, Grundriss, , S. 689, 719. Sab. Denkm. , S. 80, Sud. Altertu. , S. 22.

(٣) Glaser, 418, 419. (٤) D. Nielsen, Neue Kata. Inschriften, S. 14.

(٥) Glaser 418. 419, Rhodokanakis, Katabanische, II, S. 36.

(٦) Glaser 1548. 1549.

تعلى » في النصوص القتبانيـة ، وهي « الله تعالى » في لهجتنا ، و « فخر » العربية هي مثـل « بخرو » في الأشورية ، ومنها العلم المركب « نبخربلو »[1].

ومن آلهة العرب الجنوبيين ، الإلـه : « يموق » أي الصنم يعوق المعروف . وقد ورد اسمه في نص متأخر ، يعود عهده الى ما بعد الميلاد وورد معه اسم : « رحمنن بعل سمين » أي « الرحمن رب السماء » . وقد أرخ النص بشهر « ذداون » لسنة « ٥٧٤ » من التأريخ الحميري . المقابلة لسنة « ٤٥٩ » للميلاد[2].

وتعني جملة « رشو الهن » « كاهن الإلـه » . و « النون » أو « ان » في آخر الـكلمة ، هي اداة التعريف « ال » عند العرب الجنوبيين[3]. وتقابل كلمة « الهن » كلمة « ها اله » عند الصفويين وعند قوم ثمود ، أي « الله » باضافة أداة التعريف التي هي « ه » « ها » كالعبرانية عنـد هؤلاء . ويثير ادخال أداة التعريف على « الـه » عند العرب الجنوبيين والشماليين ، وعنـد العبرانيين سؤال عن الأسباب التي دعت إلى هذا التعريف ؛ فإن ادخال اداة التعريف على غير المعرف يفيـد التعريف والتخصيص . فهل قُصِـد بكلمة « الإلـه » الـهٌ معين خاص ، أو لم يقصد ذلك ، وإنما أُريد مجرد التخصيص المفهوم من مدلول « الإلـه » ، أو أريد بذلك الـه معين واحد هو إلـه الساميين الأكبر القديم الإلـه « ايل » ، ويسمى أيضاً بـ « الـه »[4] ؟

لقد تجمع لدى علماء العربيات الجنوبية من أسماء آلهة العرب الجنوبيين ما يُنيف على أسماء مئة الـه[5] ، غير أن أكثر هـذه الأسماء ليست في الواقع أعلاماً ، وإنما هي صفات ونعوت للآلهة ذكرت بدلاً من ذكر اسم الإلـه الخاص . أو كناية تشير الى أسماء المواضع التي كانت فيها معابد تلك الآلهة ؛ فقد كان لبعض المدن معابد خصصت بعبادة إلـه ربما كان إلـه المدينة أو

---

(١) Rhodokanakis , Katabanische , II , S. 38

(٢) Ryckmans, in Le Museon, 1954 , tome LXVII , PP. 100 , A. Fakhry, An Archaeolog. Journey to yemen , III , P. 195 , Pl. XXLX , XXX.

(٣) Handbuch .I , S. 219, D. H. Muller , 1888 , S. , 281 , in WZKM, Hommel , Sudarabische Chrestomathie , S. 91.

(٤) H dbuc S. 219.

(٥) Ency. Brita. , Vol. 19 , P. 486.

جملة آلهة لها بالطبع صلة بالمدينة وبالشعب الذي تنتمي المدينة اليه . بغير أن هذه الآلهة جميعها يمكن رَجْعُها ـ كما أسلفتُ ـ الى ثلاثة ، هي القمر والشمس والزُّهَرة . أي الى ثالوث يرمز الى هذه الكواكب الثلاث[1] .

وفى أسماء الأشخاص المركبة ، جملة أسماء آلهة لم ترد فى النصوص . ولكن تركيبها ووجودها فى تلك الأعلام يدل على أنها آلهة كان الناس يتعبدون لها ، كما تعبدوا لهذه الأصنام التي وردت أسماؤها مستقلة في الكتابات ، وقد يأتي يوم ترد أسماؤها منفردة في النصوص . ومن بين هذه « ايل El » الاسم السامي القديم الذي لا يعرف معناه على وجه علمي دقيق ، وقد يكون « القدير » أو « الحاكم » . ويرى بعض العلماء احتمال عدم وجود صلة له بـ « الوهيم » « Elohim » الكلمة العبرانية التي تطلق على الإله .

ويلاحظ أن أكثر استعمال « إيل » فى العبرانية هو فى الشعر وفى العلمية ، ولم يستعمل فى النثر إلا قليلاً[2] . أما فى اللهجات العربية المختلفة ، فقد استعمل في العلمية فى الكتابات . وكلمة « ال » الواردة فى الجملة : « بحج انبي وال تعلى »[3] هي الإله : « ايل » .

وكما حفظت نصوص المسند أسماء بعض آلهة العرب الجنوبيين ، حفظت النصوص اللحيانية والثمودية والصفوية كذلك أسماء بعض آلهة تلك الشعوب . وهي كما يظهر من دراستها وتحليلها خليط من آلهة ترد أسماؤها فى روايات الأخباريين ، ومن آلهة ترد أسماؤها فى النصوص العربية الجنوبية ، كما أن بينها أسماء آلهة لم ترد لا فى أخبار الأخباريين ولا فى نصوص المسند . ولإتصال مواطن هذه الشعوب بمواطن الساميين الغربيين وبمواطن الساميين الشرقيين ومتاخمتها لعرب العراق ونجد والقبائل العربية فى الحجاز ولصلاتها التأريخية القديمة بالعرب الجنوبيين ، كان لدراسة الناحية الدينية عند هذه الأقوام أهمية كبيرة فى معرفة التطورات الدينية قبل الاسلام ، وصار الخليط الذي أشرت اليه هو في حدّ ذاته دراسة قيمة تشير الى التقاء التيارات الدينية واتصالها بهذه البقاع .

---

(١) المصدر نفسه . (٢) Hastings, P. 299.

(٣) Le Museon, 1954, tome LXVII, P. 106.

ومن هذه الأسماء الواردة في النصوص الثمودية ، « يعذر ايل » و « صلم أيل » و « عزرايل » و « عذرايل » و « سعد أيل » و « ودّ ايل » وهي ـ كما نرى ـ أعلام مركبة اختتمت باسم الإلّه « ايل » . ومن الأسماء المركبة الأخرى « بعثتر » وفيه اسم الإلّه « عثتر » الذي عرفناه في المسند ، و « يثع أمر » . وفيه اسم الإلّه « يثع » وهو من الأسماء المستعملة بكثرة في العربية الجنوبية و « صلم دع » و « صلمن عم » ، وفيهما اسم الإلّه « صلم » من آلهة قوم ثمود المعروفة ، و « تيم يغوث » وهو اسم مركب من اسمي الّهين هما : « تيم » و « يغوث » [١].

ومن الآلهة الثمودية التي وردت أسماؤها في الكتابات ، وذكرها المؤمنون بها تخشعاً وخضوعاً وتقرباً اليها ، الآلهة : « صلم » ، و « ودّ » ، و « جدّ هدد » ، و « شمس » ، و « عزيز » ، و « نمرجد » ، و « عمى شجا » ، و « رضو » [٢] ، و « منت » « منات » ، و « كهل » ، و « نهى » [٣] ، و « ايل » و « اللات » و « عترسم » « عتر سمين » [٤]. وأسماء آلهة أخرى ذكرت في النصوص .

و « جدّ » هو اســم إلّه به سمي موضع « بعل جد » وموضع « مجدل جد » . وأسماء مواضع أخرى فيها كلمة « جد » . وقد عرف عند بني إرم وعند العرب الشماليين وفي القاطمات السورية ، وهو إلّه السعد أي « Tyche » في اليونانية . يسعد الأشخاص والبيوت [٥].

و « هدد » هو اسم إلّه تعبدت له شعوب عديدة من شعوب الساميين ، منهم بنو إرم والعرب الجنوبيون والشماليون ، كما تعبد له الآشوريون . وقد اقترن اسمه عند الآشوريين والبابليين بـ « رمّان » ، ودخلت عبادته اليهم من بني إرم الغربيين . ويمثل « هدد » مثل

---

(١) راجع أرقام الكتابات التي وردت فيها هذه الأعلام ومتونها في : Grimme, S. 33. f. وفي المراجع الأخرى التي نشرت فيها نصوص ثمودية .

(٢) Grimme, S. 33. ff. (٣) Handbuch, , S. 215.

(٤) Ryckmans, Les Religions Arabes Preislamigues, P. 20 - 21.

(٥) Hastings, P. 276.

« رمان Ramman ، Rimmon » إلــه الهواء والرعد والعواصف ، ويظهر أنه من أصل عربي هو « عـد » . ومن اسم هذا الصنم الاسم « بنهدد » « بن هدد » « بنحدد » المذكور في التوراة [١] .

ولا بد أن تكون لهذا الإلــه صلة بالإلــه « جـد » ، ومن هذا الاقتران ظهر اسـم الإلـه « جد هدد » في كتابات قوم ثمود .

و « رضو » هو في نظري الصنم رضاء « رضى » عنـد الأخباريين ، وهو صنم ذكرت سابقاً أنه كسر في الاسلام [٢] . ويرى « نيلسن » أنه يمثل الزُّهَرَةَ عند قوم ثمود والصفويين ، وأنه في منزلة « عثتر » عند العرب الجنوبيين ، وأن اسم الإلــه « عثتر » الذي كان شـائعاً عند العرب الجنوبيين لم يكن شائعاً في العربية الشمالية قبل هذا الشيوع الذي رأيناه عند أهل العربية الجنوبية [٣] .

أما « عزيز » فأرى أنــه الإلــه « Azizos » إلــه أهل « الرهـا Eddesa » التي كانت تحكمها أسرة عربية ، كما يظهر ذلك من أسماء ملوكهـا مثل « أبجر Abgarus » و « معنى Mannus » وأمثال ذلك [٤] . وقد ورد اسم الإلــه « عزيز Azizos » مع اسم إلــه آخر هو « Monimos » . وقد ذكر هذا الإلــهان مع الشمس : ذكر « Azizos » قبل الشمس وذكر الإلــه الآخر بعدها . وقد ذهب بعض البـاحثين الى أن « Azizos » يمثل كوكب الصباح ، أي الزُّهَرة . أما « Monimos » ، فإنه يمثل الـكوكـب الذي يطلع بعد مغيب الشمس ، أي في ابتداء الليل . وقــد وصف الإلــه « Azizos » في كتابة مدونة باليونانية أنه « deus bonus Puer Phosphorus » ، الإلــه الجميل اللماع ذو الأشعة البراقة التي تشبه في لمعانها لمعان « الفوسفور » . و « Azizos » هو « عزيز » دخل عليه التحريف حتى صار على هذا الشـكل .

ويرى « نيلسن » أن « Monimos » هو تحريف « منعم » ، وأنه هو الإلــه « رضوا » « رضا » « رضى » عند قوم ثمود [٥] .

---

(١) Hastings, P. 323.　(٢) الأصنام (ص ٣٠) .　(٣) Handbuch, I, S. 229.

(٤) Handbuch, I, S. 220.　(٥) Handbuch, I, S. 229. f.

وذهب « نيلسن » الى أن من بين آلهة ثمود إلهاً اسمه « ملك » ، وهو يرى أن الاسم المركب « عبد ملكن » ، أي « عبد الملك » ، لا تعني كلمة « ملك » بالمعنى السياسي الذي نفهمه منها ، وإنما المراد بها اسم إلـه . وقد ورد اسم إلـه دعي « ملكن » في نص قتباني موسوم عند المستشرقين بـ « Glaser 1600 » دونه أحد ملوك قتبان لترميمه معبد الآلهة ودّ وعثيرة ، وبنائه « مختن » « لملكن » أي للإلـه ملك . واسم « عبد الملك » من الأسماء المعروفة في الجاهلية ، ورد في نصوص الثموديين والصفويين . وفي هذه الأمثلة دليل على أن « ملك » هو اسم إلـه كانت عبادته معروفة عند القتبانيين وعند أهل العربية الغربية ، وهو يمثل الزهرة عند « نيلسن » [١] .

و « كهل » أو « كاهل » ، هو « كهل » المذكور في كتابة معينية . وقد ورد الاسم مقروناً في نص ثمودي بأداة التعريف « ه » « ها » أي « ه ك ه ل » « ها — كهل » . وقد ترجم « ليتمان » كلمة « كهل » بالمعنى المفهوم منها في عربيتنا . واذن فهي صفة للإلـه لا اسم علم له . وقد ترجم « هومل » جملة « رشو كهلن » الواردة في نص معيني عثر عليه في « السوداء » أي « معين » بمعنى « كاهن كهل » ، وترجم « كهـل » بمعنى « القدير » ، وهو المعنى المفهوم من كلمة « كَهَل Kehela » في الحبشية [٢] . وتكون الكلمة بهذا المعنى صفة للإلـه كذلك ، لا اسم علم لإلـه .

وتعني كلمة « نهى » في الثمودية ما تعنيه لفظة « حكم » في العربية الجنوبية أي « حكيم » في بعض الآراء ، ولعلها تعني « الناهي » ، وتكون بذلك صفة للإلـه . وقد وردت هذه الكلمة في مواضع عديدة من الكتابات الثمودية تنيف في عددها على المواضع التي ورد فيها اسم « رضو » « رضا » ، مع أن هذا الاسم هو أكثر أسماء الآلهة تردداً في كتابات ثمود بالقياس

---

(١) Handbuch, I, S. 232. Nielsen, Studier over oldarabiske Indskrifter, Kobenhavn 1906, P. 136. f, O. Weber, studien Zur Sudarabischen Altertumskunde in MVAG., 1917, S. 26—31.

(٢) Handbuch, I, S. 215. Glaser 299, Halevy, 237, Hommel. Grundriss, S. 163, Enno Littmann, Zur entzifferung der Thamudischen Inschriften. 1904, I, S. 75. f.

الى أسماء الآلهة الأخرى مثل كاهل ومالك وعثتر واللات وإلـه وبقية الأسماء [١] .

أما آلهة اللحيانيين ، فأشهرها ذو غابة وعوض وودّ وبعل سمين وسلمان والعزّى ومنـاف وجدّت [٢] . و « ايل » أو « إلـه » و « الت » و « ودّ » و « سـمع » و « نصر » و « مناة » [٣] .

وليس من السهل ايضاح مراد اللحيانيين من « ذي غابة » ، وهو الإلـه الأكبر عندهم . فهل قصدوا بذلك إلـه موضع كان يسمى عندهم « غابة » ، كان للإلـه معبد به يزوره الناس ويحجون اليه ، فقيل له « ذو غابة » من باب التأدب والاحترام ؟ أو أنه كان إلـه الغـابات والزراعة والخصب ، فدعي بـ « ذي غابة » ؟ وسواء أكان هذا أو ذاك فلسـنا فى وضع نستطيع معه أن نبين العوامل التي دعت القوم الى تسمية هذا الإلـه بهذا الاسـم ؟ وكل ما نستطيع أن نقوله انه كان معبـده فى أعالي الحجاز فى المواضع التي كان يقيم فيهـا اللحيانيون ، وأنه خوطب بكلمة « قدسنت » أي « القدس » أو المقدس فى كتابة من هذه الكتابات ، وأن من جملة ما قدم اليه من قرابين قرابين من البشر [٤] .

وأما « عوض » ، فقد ورد اسمه فى الأعلام المركبة « عبد عوض » واسم قبيلة ، كما ورد « جد عوض » وهو اسم إلـه من آلهة الصفويين [٥] .

وأما ودّ ، فقد تحدثنا عنه بما فيه الكفاية ، فهو إلـه عام له شهرة عند العرب . ويخيل إليّ أنه من الآلهة القديمة التي كانت عبادتها عامة فى جميع العربية الغربية والعربية الجنوبية . ومن يدري ، فلعل عبادته كانت معروفة فى جميع أنحـاء جزيرة العرب . أما الحـكم فى ذلك ، فهو الى النصوص الجاهلية . وقد كان له معبد كبير فى موضع « ددن » أي « ديدان » فى أعالي الحجاز ،

---

(١) dtu h I, S. 215.

(٢) Ryckmans, Preislamiques, P. 19. f.

(٣) Handbuch, I, S. 44.

(٤) Histoire Generale des Religions, tome IV, P. 312, Preislamiq.., P. 19.

(٥) Histoire, IV, P. 312, Preislemiq.., P. 19., Handtuch, I, S. 193.

وقد نعت بـ « أفكل » ، وورد اسمه فى الأعلام اللحيانية المركبة [١] .

وأما « بعل سمين » ، فمعناه ربّ السماء . وقد ورد هذا الاسم فى نصوص المسند المتأخرة . وتدل هـــذه التسمية على أن القوم كانوا يتصورونه إلــه السماء . واذا صح هذا الظن ، دل على ظهور عقيدة عند اللحيانيين قريبة من عقيدة التوحيـد ، وقد كان معبـده في « ديدان » . وقد استعملت له كلة « احرام » . بمعنى « الحرم » [٢].

والعزّى من الأصنام التي تحدثت عنها فى كلامي على الأصنام التي عرفها الأخباريون ، فهو صنم كان معروفاً عند اللحيانيين كذلك . وقد ورد اسمه فى كتاباتهم التي عثر عليها فى العلا . وأما سلمان ، فهو صنم ، لم يرد اسمه حتى الآن لا فى نصوص المسند ولا فى أخبار الأخباريين [٣] .

ويظهر من بعض الأعلام المركبة ، مثل « أوس يه » ، و « عزريه » ، أن القسم الثاني من الاسم ، وهو « يه » ، قريب من « يهوه » ، ولعله « يهوه » الإلــه المعروف عند العبرانيين . وهناك أسماء أخرى تشير الى أسماء الآلهة منـــاف و « ايل » و « لاه » بمعنى « إلــه » . و « الت » أي « اللات » و « جدت » أي « جدّ » [٤].

وأما آلهــة الصفويين ، فهي : « اللات » « هات » « لت » و « ديان » و « هـ ل هـ » و « جـد عوذ » و « بعل سمين » و « شـــيع القوم » و « يثع » « اثع » و « صـالح » و « ذو الشرى » و « رضى » و « جدّ ضيف » و « رحيم » [٥] .

و « الت » ، أي اللات ، إلــهة أي أنثى ، ويراد بها الشمس . وقـــد مثلت فى بعض النصوص الصفوية بقطعة من الشمس رسمت بصورة بدائية ، ورسمت فى بعض النصوص السامية الشمالية بشكل امرأة عارية [٦] ، ورمز اليها بصورة فرس فى النصوص العربية الجنوبية ، والفرس من الحيوانات المقدسة التي ترمز الى الشمس عند قدماء الساميين وعند غيرهم من الشعوب ؛

---

(١) Histoire . IV . P. 312.

(٢) Histoire . IV P. 312 . Preislamiq . . P. 20.

(٣) Histoire . IV . P. 312 . Preislamiq. . 20.

(٤) Histoire . IV . P. 312.

(٥) Ryckmans . PP. 21. f.

(٦) Handbuch . S. 214.

ولذلك كان الناذرون الى الإلـه الشمس يقدمون لها تماثيل مصنوعة على هيأة فرس[1] .

ولفظة « ديان » ، ليست اسم صنم فى نظري ، وإنما هي صفة من صفات الآلهة . وهي معروفة فى عربيتنا وعند المسلمين ، تطلق على الله . وقد استعمل الصفويون « جد عوض » اسماً لإلـه ، كما استعملوا اسماً آخر قريباً منه هو « جد ضيف» أما الإلـه « شيع القوم » ، فقد ورد اسمه فى النصوص النبطية فى « بطرا » وفى « تدمر »[2] ، وهو إلـه القوافل فى نظر بعض المستشرقين .

و « هـ ل هـ » هي « هـ » « ها » و « له » ، أي من أداة تعريف ومن كلمة « له » أو « لاه » ، ويراد بها « الإلـه » فى الصفوية والثمودية . وهكذا نجد أن كلمة « الإلـه » أو ما يقابل لفظة الجلالة « الله » ، كانت معروفة عند العرب الجنوبيين وعند العرب الشماليين . وربما عند جميع عرب جزيرة العرب قبل الإسلام[3] . ولكننا لا نستطيع أن نقول إنها كانت تعني عندهم إلـهاً معيناً خاصاً ، أو أنها كانت تؤدي معنى « إلـه » وجمعها « آلهة » في عربيتنا الحاضرة ، فالنصوص لدينا غير كافية في نظري لإبداء رأي قاطع فى هذا الباب . وربما كانت الكلمة علماً في الأصل ، ثم زالت العلمية عنها ، وصارت تعني ما تعنيه لفظة « إلـه » و « آلهة » فيما بعد . غير أننا نصطدم ببعض الكتابات التي ترد تلك الكلمة فيها فى صورة العلمية والتخصيص .

وأما « شيع القوم » « ش ي ع هـ ق م » ، فإنه إلـه معروف عند النبط وعند الصفويين ، وهو إلـه يحمي قومه[4] . وقد احتمى به أهل القوافل خاصة من الأعراب ومن قطاع الطرق . ولذلك نستطيع أن نقول إنه كان إلـه التجار وأصحاب القوافل يذكرون اسمه وربما يحملون وثنه معهم لحمايته لهم فى أثناء السفر حتى بلوغهم ديارهم سالمين .

---

(١) Handbuch, I. S. 227. Grohmann, Gottersymbole und Symboltiere auf Sudarabischen Denkmaler. Wien., S. 70. f.

(٢) Histoire, IV, P. 14.

(٣) Handbuch, I, S. 218.

(٤) Handbuch I, S. 193.

ولـ « سمعتر » « سمعثتر » صلة بالاله « عثتر » « عتر » ، وهو من الأسماء المركبة الواردة فى نصوص الصفويين . وأما « نار منعم » و « نهر » ، وهما من الأسماء المركبة كذلك ، فإن لهما صلة بـ « ناو » و « نور » وبـ « نعر » من أسماء الآلهة التي ترد فى الكتابات [1] .

و « رحيم » مثل « رحمن » ، أي « الرحمن » في رأيي ، هما صفتان من الصفات لا اسما علم لإلهين ، وذلك على نحو ورودهما فى الاسلام وأرى مثل هذا الرأي في لفظة « صالح » الواردة فى نصوص الصفويين كذلك [2] .

أما آلهة النبط ، نبط « بطرا » ، فهي : « ذو الشرى Dushara » و « اللات » وهو إلهة ، « أم الآلهة [3] » ، و « منوتو » أي مناة [4] ، و « قيشح » ، و « هبلو » أي « هبل » و « شيع القوم » حامي القوم ، وإله القوافل [5] .

وأما آلهة تدمر ، فهي « بل » ، أي « بعل » ، و « عزيزو » و « ارصو » « ارضو » و « شيع القوم » و « شمش » « شمس » و « اللات » و « ايل » و « بعل شمين » . ويلاحظ أن الكتابات التدمرية تستعمل فى الغالب الكنايات والنعوت الإلهيه بدلا من أسماء الآلهة ، فاستعملت « تبارك اسمه » و « رب العالم » و « الله المحسن » و « رب العالمين » وأمثال ذلك كناية عن آلهة تدمر . ولكن هذا الاستعمال جعلنا فى حيرة فى تعيين اسم الإله أو الآلهة المقصودة ، وفى فهم المراد من هذه الجمل التي يشير ظاهرها الى وجود فكرة التوحيد عند التدمريين . وقد ذهب بعض العلماء الى أثر اليهود فى أهل تدمر استدلالاً بهذا الاستعمال . فمن عادة اليهود الابتعاد عن تسمية الإله باسمه ، والاكتفاء بالنعوت التي عرف بها . كما ذهب بعض آخر الى تأثر أهل تدمر بآراء الفلاسفة اليونان فى مثل هذه المعتقدات [6] .

ويرى « ليدزبارسكي Lidzbarski » أن « بل Bel » هو إله تدمر الأكبر . و « بل »

---

(١) Histoire. IV, P. 314. (٢) Ryckmans, Preislamiq. P. 23.

(٣) CIS II. 85, 98. NSI. 80, Ency. Religi., 9, p. 112. (٤) Cis ii, 97 98 - NS 79 f.

(٥) Ency. Religi., 9, p. 22. (٦) Ency. Religi., 9, P. 592.

هو « بعل » فى اللهجات السامية الأخرى . ولمركزه الخطير عند أهل تدمر ، دعاه اليونان « زيوس Zeus » . أما الإلـه الشمس ، فهو « ملك بل Malak Bel » ، ويذكر فى العادة بعد اسم الإلـه « عجلى بل agli - Bol » ، وهو القمر . وتقديم القمر على الشمس عادة قديمة عند أهل تدمر لابدّ أن يكون لها سبب بالطبع . وهناك أسماء أخرى تمثل الإلـه الشمس ، هى : « بعل شمين » و « يرحى بل »[1] .

أما الإلـه « عزيزو » ، فهو العزّى . ويؤيد ذلك ما ذكره أحد الكتبة اليونان من أنه كان كوكب الصباح عند العرب ، وأنه الإلـه الرؤوف الرحيم الذي عبدته العرب قبل الإسلام . ويلاحظ أن هذا النعت وارد فى نص تدمري ، مما يثبت كون « عزيزو » هو « العزّى » الاله الشهير[2] .

وأما « أرصو » « أرضو » ، فيظن « ليدزبارسكي » أنه « Oratal » الذي ذكر المؤرخ « هيرودوتس » ، أنه أحد آلهة العرب الكبرى مع الإلـه « اللات » . ويظن أيضاً أن « أرصو » « ارضو » هو « رضا » الإلـه الذي أشار اليه الأخباريون . وأما « اللات » ، فهي قليلة الورود فى النصوص التدمرية مع شيوع الأسماء المركبة المؤلفة منها ومن كلمات أخرى عندهم . فلعلهم كانوا يكنون عنها أو يسمونهـا باسم آخر فى الكتابات . ويرد اسم الإلـه « أرضو » بقلة كذلك فى هذه النصوص[3] .

ولم يرد اسم « ال » « ايل » فى نصوص تدمر علما لإلـه ، إنما ورد فى عدد قليل من الأعلام المركبة . ويدل ذلك بالطبع على أنه كان قد نسيه أهل تدمر منذ أمد طويل . والواقع أن هذا الإلـه السامي القديم كان قليل الحظ ، فزالت دولته وعبادته من أكثر الشعوب السامية ولم تبق منه بقية ، غير ذكراه وغير اسمه مركباً في الأعلام المركبة ، وهي أعلام قديمة ، تعد من أقدم الأعلام السامية فى نظر العلماء . ويدل استعمالها عند أكثر الساميين على أهمية أثر عبادة ذلك الإلـه فى بني سام .

---

(١) Ency. Religi. 9 , P. 593.

(٢) Ency. Religi. , 9 , p. 594.

(٣) Ency. Religi. , 9 , P. 594.

ويضاف الى الآلهة المذكورة اسم الإلـه « جد » ، إلـه الخصب والواحات الذي تحدثت عنه سابقاً .

نرى مما تقدم أن الأصنام التي ورد ذكرها في كتابات المسند ، قلما ورد لها ذكر في روايات الأخباريين ، مما قد يبعث على الظن أن تغييراً كبيراً كان قد طرأ على أسماء الأصنام عند العرب الجنوبيين ، فعبدوا قبيل الإسلام وعند ظهوره أصناماً جديدة لم يرد ذكر أكثرها في كتابات النصوص هي الأصنام التي أشار اليها الأخباريون . انتقلت عبادتها اليهم إن صح أنها كانت معبودة في العربيـة الجنوبية من الحجاز ومن العربية الشمالية . ولـكن هذا لا يمنع - في رأيي - أن تـكون القبائل العربية الساكنة في العربية الجنوبية ظلت تتعبد للأصنام التي ورد اسمها في نصوص المسند ، حتى هذا العهد ، غير أن علم الأخباريين بها لم يصل الى تلك الأرضين ، فلم يشيروا اليها اذ لم يعرفوا من أمرها شيئاً ، وإنما ذكروا أسماء بعض الأصنام المعروفة التي تعبدت لها القبائل التي كانت على اتصال شديد بالحجاز ، والتي تأثرت بعبادة أصنام الحجازيين .

وقد وجـدنا أن أصنام العرب الجنوبيين تختلف عن أصنام عرب الحجاز وأصنام العرب الشماليين . خلا أصناماً معدودة هي الأصنام القديمة التي ترد أسماؤها عند أكثر الساميين ، أي الأصنام التي تعبد لها قدماء الساميين . تختلف في التسمية وفي تركيبها عن التسميات المألوفة الواردة عند الأخباريين اختلافاً يدل على أن العرب الجنوبيين كانوا يؤلفون وحدة ثقافية خاصة قبيل الاسلام على أقل تقدير .

أما أصنام العرب الشماليين ، وأعني بهم العرب الساكنين في أعالي الحجاز وفي بلاد الشأم والعراق ممن عثرنا على كتابات لهم وردت فيها أسماء بعض أصنامهم ، فإن لهم أصناماً تعبد لها عرب الحجاز ونجد ، وأصناماً لم يذكرها أهل الأخبار ، لعدم معرفتهم بها ، أو لموت أسماء تلك الأصنام قبل هذا العهد . وعلى كل فإنها تكون أيضاً مجموعة خاصة بها ، لها صلة وقرابة بمجموعة أصنام الشعوب السامية المجاورة التي كان للعرب الشماليين اتصال بهم . ويستنتج من كل ذلك أن أصنام عرب الحجاز ونجد كانت متأثرة تأثراً كبيراً بأصنام العرب الشماليين ، وان صلاتهم الثقافية

بالعرب الشماليين كانت أمتن وأقوى من صلاتهم بعرب الجنوب . ويؤيد هذا الرأي الأعلام من مركبة وبسيطة ، التي كانت شائعة عند العرب الشماليين ، ومرد ذلك الى العوامل الاقتصادية والطبيعية التي تدفع عرب الحجاز ونجد الى الاتصال بالشمال حيث الخصب والتجارة والكسب والجو اللطيف .

هذا ولا بد لنا ، بعد أن انتهينا من هذا الفصل ، من الاشارة إلى أننا لا نعرف كيف كانت آلهة العرب الجنوبيين : أكانت أحجاراً طبيعية غير مهندسة ولا مصقولة ؟ أم كانت أحجاراً منحوتة هذبتها يد الانسان فصيرتها على هيأة البشر أو هيئة حيوان من الحيوانات ؟ أو لم تكن هذا ولا ذاك ، وإنما كانت آلهة غير منظورة بمعنى أن العرب الجنوبيين لم يكونوا يتعبدون لأصنام ، إنما تعبدوا لآلهة غير محسوسة لذلك لم يتخذوا لها أصناماً على وجه الأرض . عبدوها فكرة ، وقدموا الى معابدها التماثيل والصور ، لا على أنها أصنام وأوثان تمثل تلك الآلهة . وإنما مجرد أنها رموز ونذور . وإذا كان ذلك كذلك لا نستطيع استخراج أوصاف تلك الآلهة من هذه النذور .

والواقع أننا لا نستطيع أن نفهم أمثال هذه الأمور إلا بالبحث والتنقيب في بقايا المعابد وخرائبها ، فهناك نجد الأجوبة الصحيحة والحلول العلمية المقنعة ، وعندئذ نستطيع أن نتحدث عن كيفية تصور العرب الجنوبيين لأشكال تلك الآلهة .

نعم ، إن الصور التي نجدها منقوشة على الأحجار مع الكتابات كصورة حية أو رأس ثور أو هلال أو قرص أو كوكب مثمن أو ما شابه ذلك ، هي رموز ترمز الى الآلهة ، فالقرص هو تعبير عن الشمس ، وأما الهلال أو رأس الثور ، فانهما يدلان على الإله القمر ، وأما الكوكب المثمن فيرمز الى الزهرة[1] . ولكن هذه الصور هي رموز ، والرموز لا ترسم للإنسان شكل المرموز اليه .

اما الذي يفهم من كتابات بعض المؤرخين « الكلاسيكيين » ، فهو أن الجاهليين لم يتعبدوا

---

(۱) A. Grohmann, Gottersymbole Und symboltiere auf sudarabischen Denkmaler Wien. 1914, H. Prinz, Altorientalische symbolik, Berlin, 1915, S. 75, 76, 143, Handbuch, 215, I, S. 201.

لآلهة غير منظورة ولا محسوسة ، وأنهم لم يتعبدوا للأصنام ، صنعوها بأيديهم على أنها صورة لتلك الآلهة . وإنما كانت عبادتهم على حد قولهم عبادة أجرام سماوية ، وهي أجرام معروفة واضحة مرئية . وقد تحدثوا عن تقديم العرب القرابين البشرية الى الزهرة [1] . وحديث أمثال هؤلاء المؤرخين هو حديث سماع لا حديث شاهد عيان ، وهو مثل كلام بعض أهل الأخبار فى حاجة الى دليل مادي ملموس .

---

(1) Handbuch, I, S. 203. f.

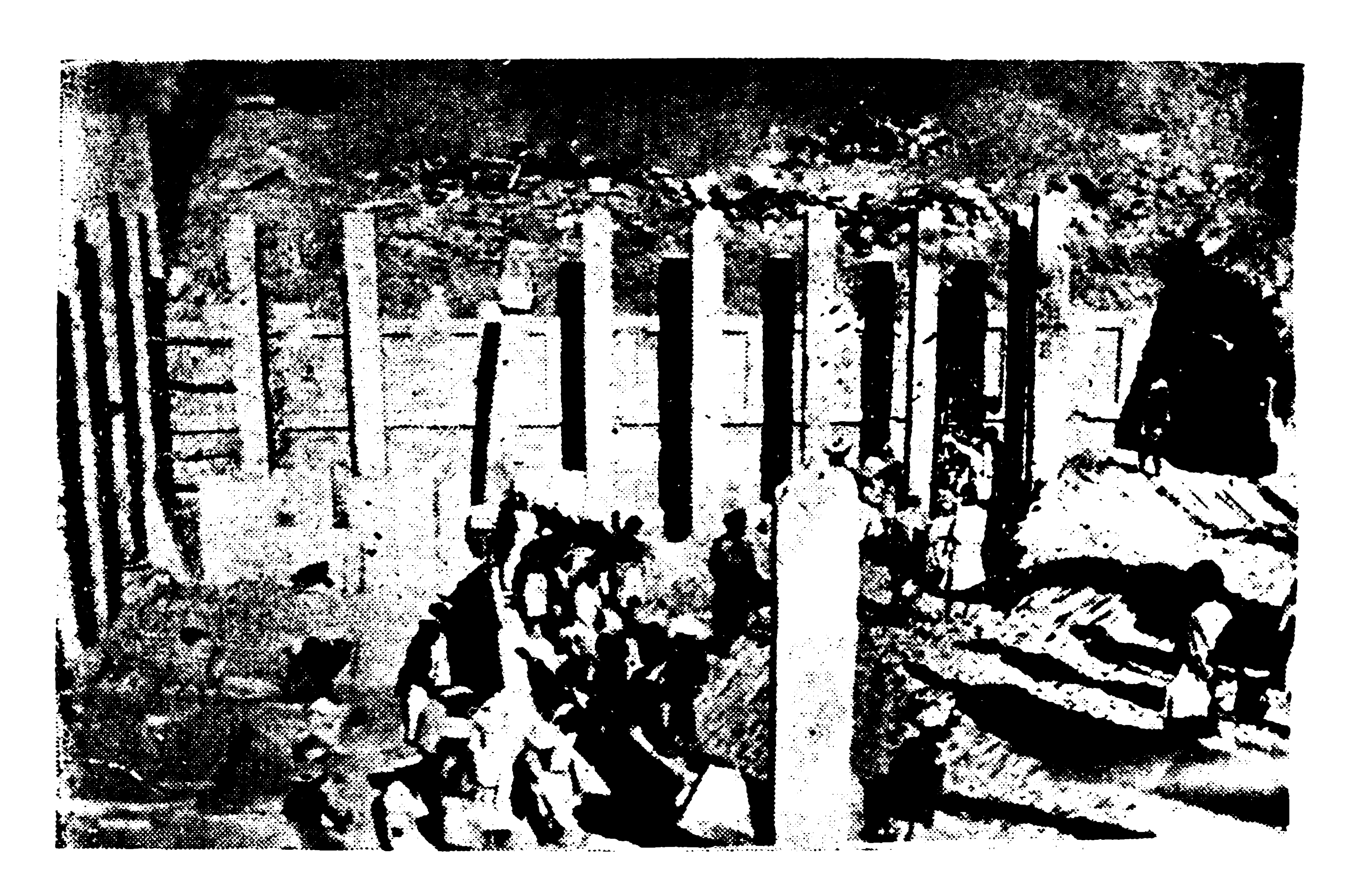
الفصل السادس

الإنســـــان والآلهـــــة

كما تقوم الصداقة بين الناس على أساس الودّ والتقرب والاتصال والتذكر بتقـديم الهدايا والألطاف ، تقوم الصلة بين الإنسـان وبين آلهته على أساس من الودّ والصـداقة أيضاً . وإذْ كانت الآلهة أقدر من الإنسان ، كان من اللازم على البشر التودد اليها بشتى الطرق مكتوبة أوغير مكتوبة ، لتتذكره ، فتمنّ عليه بالبركة والسعد وبخير ما يشتهيه ويرغب فيه .

والبشر عبيد لآلهتهم ، فعليهم أن يؤدوا لها ما يجب أن يؤديه العبد لسيده . إن على العبـد واجبـات وفروضاً يجب أن يؤديها لصاحبه ومالـكه ، وعلى الإنسان كائناً ما كان أن يقوم بأداء ما فرض عليه لآلهته وأربابه ، يؤديه في أوقات مكتوبة وفي أوقات غير مكتوبة وفي المناسبات .

ولما كانت عقلية الإنسان القديم وعقلية كل بدائي تقوم على فهم الادراك الحسّي في الدرجة الأولى ، كان للهـــدايا وللنذور والقرابين والشعائر العملية المقام الأول في دياناته ؛ لأنها ناحية ملموسة تراها الأعين وتدركها الأبصار ، وفيها تضحية تقنع المتدين التقي المتقرب بهـا الى آلهته بأنه قد قدّم شيئاً ثميناً لها ، وأنها لذلك سترضى عنه حتماً ، لأنه قد آثرها على نفسه فقدم اليهـا أعز الأشياء وأغلاها . إنها سترضى عنه ، لأنه لم يَنْسَـها ، ولم يغفل عنها ، ولم يفتر حبه لها . وسترضى عنه كلما تذكرها وقام بأداء هذه الواجبات المفروضة أو المســتحبة لها ، كما يرضى الصديق عن صديقه أو السيد عن عبـده ، باظهار الإخلاص وبالحرص على أداء الأعمال المرضية وبتنفيذ التعليمات والرغبات التي تصدر اليه .



الأعمدة الباقية من بهو معبد « المقه بعل أوام » .

من كتاب :

Qataban and Sheba, P. 257.

لقد قلت آنفاً إن الدين عقيدة ، أي ايمان « Belief » ، وعمل ؛ وأن العمل أقوى في الديانات القديمة من الإيمان . وبعبارة أوضح إن الشعائر الدينية فى تلك الأديان أهم وأقدم من الآداب النظرية أي من الشريعة . نعم ، فى كل دين أمورنظرية غير محسوسة ، تقوم على أساس الايمان . ولكن هذه الأمور تكون من اختصاص رجال الدين والمتعمقين فى الدين والمتبحرين فيه . أما السواد الأعظم ، فإنه حتى الآن لاشأن له كبيراً فيها ، وهى لاتهمه كثيراً لأنها فوق مستواه وفوق طاقة تفكيره ، إنه لايفهم إلا الناحية المحسوسة ، الناحية العملية التطبيقية ، وهي أداء الشعائر . ثم إن الإيمان يحتاج الى تعمق وفلسفة وثقافة عالية ، ولم يكن رجال الدين في تلك الأديان على درجة عالية من الرقي الفكري حتى تكون الناحية النظرية فيها راقية واسعة . ولهذا نجد الأديان القديمة لاتهتم بهذه الناحية قدر اهتمامها بالتعليمات وبالناحية العملية التي يجب على المؤمن والمؤمنين القيام بها . وهي ناحية تستند ولا شك الى الايمان والعقيدة والى التشريع ، ولكن هذا الاستناد ضعيف جداً ، ثم إنه يفسر تفسيرات مختلفة ، ويعلل بتعليلات متعددة مما يدل على أنه آراء أشخاص لا آراء مشرعين لهم تشريع نظري واسع ورأي فى الكلام[1] .

وقد كان للأساطير والقصص الديني عن الآلهة « Myth » أهمية ومقام فى الاديانالقديمة . فكان يقوم عندها مقام العقيدة ، أي الايمان . ولكنه لم يكن مع ذلك فى مكانة الشعائر ؛ لأن هذا القصص لم يكن محتوماً على المؤمن أن يؤمن به ، على حين أن الشعائر هي فى الواقع الايمان العملي ، والفرض الاجباري المكتوب . على كل مؤمن العمل به والسير بموجبه . ولهذا يرى « روبرتسن سمث » أنه لدراسة دين من الأديان القديمة يجب الاهتمام بالشعائر الدينية وبالأحكام المفروضة التي يجب على كل مؤمن أداؤها ، لأنها هي أساس تلك الأديان وجوهرها[2] .

واذا كانت النصرانية والديانة الاسلامية ديانتين سماويتين أبوابهما مفتوحة لجميع الناس ، فان الديانات القديمة لم تكن على هذا النحو . لقد كانت ديانات ذات حدود ضيقة ، آلهتها آلهة محلية

---

(١) Robertson . P. 16.

(٢) Robertson P. 18.

أو شعبية ، فالإلـه إما إلـه قبيلة واما إلـه شعب ، بحسب الشكل السياسي لمجتمعات ذلك اليوم . وطبيعي أن تكون صلة الإنسـان بإلـهه متأثرة بدرجة تفكير ذلك الإنسان وبالشكل العام للمجتمع . والإلـه هو حامي القبيلة وحامي الشعب التـابع له ، وهو المدافع عنه في أيام السلم وفي أيام الحرب ، مادام الشعب مطيعاً له منفذاً لأوامره وأحكامه وللشعائر المرسومة التي يعرفها ويقوم بتنفيذها رجال الدين .

ويكون إرضاء الآلهة بالتقرب اليها وبتنفيذ أوامرها التي تعينها وتثبتها خاصتهـا بين القبيلة أو الشعب ، أعني كهـانها الذين يعرفون أوامرها وأحكامها خير معرفة ، وهم الذين يفسرونها ويأمرون بتنفيذها بين الناس . وقد يكون هذا التنفيذ في أيام أو أشهر ثابتة معينة تـكون لها قدسية وحرمة خاصة ، وقد يكون في مواسم . يرى الناس أن آلهتهم تـكون في هذه الأوقات حاضرة متهيئة قريبة منهم تسمع شكاويهم وما عندهم من مطالب . ويكون هذا التنفيذ في مواضع خاصة بعبـادة إلـه معين أو بعبادة جملة آلهة . ولذلك تسمى المعابد ، وتـكون لها في العادة مميزات تميزها عن بيوت الناس .

وقد اتخذ الانسان من الكهوف بيوتاً للعبادة ، كما اتخذ من الجبال والمواضع المرتفعة أماكن بنى عليها معابده بعد تقدمه وتعلمه البناء . أما البدو ، فكانت معابدهم في الخيام ، تحفظ فيهـا أصنامهـا ، فتنتقل معها وتضرب في الموضع الذي تحل القبيلة فيه . ينظرون اليها نظرة تقديس واجلال ، لأنها حرم الآلهة ومكانها وبيتها المقدس ، فلا يجوز تدنيسها ولا انتهاك حرمتهـا . لهذا لم يكن يسمح لأحد بالدخول اليها إلا اذا كان من رجال الدين ، كما هي الحال بالقياس الى خيمة « يهوه » إلـه العبرانيين .

وقد تطورت أشكال المعابد وهندستها بتطور الحضارة ، فصار للعبرانيين مثلاً بعد تحضرهم وتأثرهم بمن نزلوا بينهم من الشعوب معبد ثابت حل محل الخيمة المقدسة . أما الشعوب المستقرة المتحضرة ، فان معابدها متناسبة مع درجـة تطورها ورقيها وطراز تفـكيرها[1] واختلاطهـا

---

(1) Ency. Religi., Vol., 12, P. 237, Ency. Brita., 21, P. 926.



موضع الصنم فى معبد الحريضة

من كتاب :

Histoire Generale des Religions, tome, IV, P. 319.

بالأمم المجاورة . ولذلك نجد معابد تدمر مثلاً قد تأثرت بطراز البناء الإغريقي لتغلغل الثقافة اليونانية فيها ، ولتأثر المدينة باليونان . كذلك نجد هذا الأثر والأثر الروماني في معابد بلاد الشام وفلسطين . فليس للمعبد إذن هندسة معينة خاصة ، إنما هو نموذج معبر عن نفسية الناس وتفكيرهم في الزمن الذي قام فيه البناء .

وتعرف المعابد بـ « بيوت الآلهة » أو « بيت الإلـه » إذا كان البيت قد خصص بعبادة إلـه واحد . ولم يطلق هذا الاصطلاح على المعابد بالطبع إلا بعد اتخاذ الإنسان للبيوت . وتقابل كلمة « المعبـد » كلمة « **Templum** » اللاتينيـة التي تعني موضعاً مربعاً ، أي ذا زوايا مربعة حدده « عراف » ، « كاهن **Auger** » لإجراء ملاحظاته فيه من خيمة مربعة . واستعملت للبناء أو الموضع الذي يجلس فيه الكاهن لأجل التنبي ثم خصصت بالمواضع التي يتعبد فيها للآلهة حيث توضع لها حدود تميزها ومعالم تحددها فيكون ما في داخلها حرماً مقدساً لها ، توضع فيه صور الآلهة أو أصنامها في داخل بنـاء أو في الفضاء ، وذلك قبل أن تبنى الأبنية ، ومـذبحاً لتقديم القرابين الى الآلهة ، والبخور . وقد لا يوضع صنم ما ولا تودع صورة ما في داخل الهيكل وإنما يترك خالياً ، لاعتقاد القوم أن الإلـه نفسه أو الآلهة أنفسها تأتيه فتستقر فيه ، أو تزوره بين الحين والحين [1] .

ولما كانت المعابد بيوت الأرباب ، صارت لها حرمة خاصة وقدسية في كل دين . فلا يجوز انتهاك حرمتها ، ولا القيام بأعمال شائنة دنسة فيها ، خاصة بالقياس الى الأماكن المقدسة جداً التي تعد محجة للناس . وقد اتخذت حول هـــذه الأماكن مواضع عدت جزءاً من المعبد حددت بحدود ، فما كان الى الداخل عدّ حرماً آمناً ، وما كان خارج الحدّ كان خارجاً عن المعبد ، فليست له تلك الحرمة التي عينتها الشريعة المعابد . وتعد هذه المعابد « أماكن مقدسة **Holy Places** » . وكلمة « قدس » ومشتقاتها العربية من الكلمات السامية الأصل القديمة . وهي « ق د ش » في اللهجات السامية الأخرى ، وتؤدي كلمة « قدش » معنى « قدس » و « حرم » و « حرام » في

---

(١) Ency. Religi., Vol. 12, P. 236 f.

العربية . والاختلاف بين « قدش » و « قدس » بين العبرانية والعربية راجع الى الاختلاف في اللهجات[1] .

وهناك كلمة أخرى لها علاقة بهـذا المعنى ، هي كلمة « حرم » ومشتقاتها . وقد استعملت كلمة « حرماً » و « الحرام » في القرآن الكريم في مواضع لها علاقة بالكعبة[2] . وقد وردت كلمة « حرم » فعلا ومصدراً في الكتابات النبطية . وأطلقت كلمة « حَرَمْ » في كتابة نبطية عثر عليها في « بطرا Petra » على « حرم » « ذي الشرى » ، أي على المنطقة المقدسة المحيطة بالصنم حتى حـــدودها المرسومة : « حرم ذي الشرى الإلـه ربنـا » ، أي أنها استعملت استعمال « حرم » في عربية القرآن الكريم[3] .

وللإحرام صلة بـ « حرم » ، والإحرام هو تغيير الملابس القديمة للحجاج ولبس ملابس نظيفة خاصـة معينة ، يلبســـها الحاج حين وصوله الى الحدود المعينة المثبتة للإحرام وهي « المواقيت » لتأدية فريضة الحج أو العمرة . ويقال لهـذه المواقيت « مهل » كذلك[4] . و « الاحرام » من العادات القديمة التي كان يقوم بها الجاهليون قبل الإسلام ، ثم أقرها الإسلام .

وتقابل « ق د ش » و « قودش Kodesh » العبرانية التي هي « حرم » و « حرام » في العربية كلمة « حول Hôl » ، وهي « حَلّ » في العربية ، ومنها « حلال » وهي ضد « المنع » والتحريم ، ويقصد بها كل ما لا يشمله المنع والتحريم[5] . وما كان خارج الـ « ق د ش » ، أي الحرم ، فهو من « الحل » أي من المنطقة الخارجة عن حرمة المعبد ، فلا تشملها الأحكام المفروضة على « الحرم » .

---

(١) Ency. Religi., 6. PP. 751.

(٢) « أو لم نمكن لهم حرماً آمناً » ، سورة القصص : الآية ٥٧ ، « إنا جعلنا حرماً آمناً » ، سورة العنكبوت ، الآية ٦٧ ، « ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام » ، ســورة البقرة ، الآية ١٩١ ، « جعل الله الكعبة البيت الحرام » ، مائدة ، الآية ١٠٠ .

(٣) Lidzbarski, Nord. Sem. Epigra., S. 280, CIS., II, 350, G. A. Cooke, North Semit. inscriplions, oxford, 1903, 79, Ency, Religi., 6, P. 753,

(٤) Ency., vol., II, P. 456. f., Ency, Religi., 6, P. 753. « مهل » ، تاج العروس (١١٢/١)

(٥) Ency. Religi., 6 P. 753,

ولمصطلح « حمى » علاقة بالمعبد وبالمناطق الحرم كذلك . والحمى ، وأن توسع فيه فى الاسلام فقصد به أيضاً المناطق الخصبة التي حميت لترعى فيها خيول المسلمين أي خيول الدولة والمناطق التي حميت لكبار الأشخاص فلا يرعاها حيوان لا يعود الى ذلك الشخص ، بقي معناه الأصلي مع ذلك مفهوماً معروفاً . فمن دخل البيت الحرام ، صار فى حمى الله وفى حمى بيته . ومن دخل فى حمى بيوت الأصنام وحرمها ، دخل فى حمى تلك الأصنام ورعايتها ، فلا يجوز الاعتداء عليه . وقد كان للأصنام مواضع حمى ذكر الأخباريون أسماء بعضها ، مثل حمى وجّ فى الطائف ، وحمى جرش . وهي حمى للأصنام اذا دخلتها ماشية صودرت واعتبرت فى ملك ذلك الحمى[1] . والظاهر أن الحمى كان فى الأصل المنطقة المتصلة بحرم المعبد تتخذ للزراعة ليستفيد منها الكهان وزوار الحرم ، ثم توسع فيه فصار يشمل مناطق زراعية واسعة حبست على المعبد ، فلا يستفيد منها غير الكهان ومن له صلة بادارة المعبد .

ومن المصطلحات العربية القديمة التي كانت تطلق على المعابد مصطلح « مكربن » أي « المكرب » او « المكراب » فى نصوص المسند[2] . وهي « القرب » فى لهجتنا من التقريب الى الآلهة . ومن هذا الأصل أخذت كلمة « مكراب » فى الحبشية ومعناها « معبد »[3] . ولهذا ذهب « كلاسر » وغيره الى أن « مكربة Mocoraba » المدينة التي ذكرها « بطلميوس » هي « مكة »[4] .

كذلك أطلقت كلمة « بيت » بمعنى معبد فى بعض نصوص المسند ، فورد : « وقدسو بيت مرب » « وقدسو بيت مارب » ، أي « وبيت مأرب القدس »[5] . وأظن أن هذا المصطلح من المصطلحات التي استعملت فى نصوص المسند بعد الميلاد . أما فى الحجاز ، فيظهر أنه كان مستعملا هناك بكثرة لدور العبادة بدليل ورود ذلك فى مواضع عديدة من القرآن الكريم ،

---

(١) Ency. Religi., 6, P. 753.

(٢) « مكربن يعق » ، يعني : « معبديعوق » ، Le Museon, 1954, Tome LXVII, P. 100.

(٣) Ency., II, P. 586.   (٤) Glaser, Skizze, II, S. 235.

(٥) GIH 541, Le Museon, 1954, LXVII, P. 103.

واستعمال الأخباريين لـ « بيت الصنم » و « بيوت الأصنام » في أثناء كلامهم على الأصنام .

وفي هذه الآيات : « فقال الرب لموسى ها أنا آت اليك في ظلام السحاب لكي يسمع الشعب حينما أتكلم معك ، فيؤمنوا بك أيضاً إلى الابد ، وأخبر موسى الرب بكلام الشعب . فقال الرب لموسى اذهب الى الشعب وقدسهم اليوم وغداً . وليغسلوا ثيابهم ، ويكونوا مستعدين لليوم الثالث . لأنه في اليوم الثالث ينزل الرب أمام عيون جميع الشعب على جبل سيناء . وتقيم للشعب حدوداً من كل ناحية قائلاً احترزوا من أن تصعدوا الى الجبل أو تمسوا طرفه ، كل من يمس الجبل يقتل قتلا . لا تمسه يد ، بل يرجم رجماً أو يرمى رمياً ، بهيمة كان أم إنساناً لا يعيش .... اذهب انحدر ثم اصعد أنت وهارون معك . وأما الكهنة والشعب ، فلا يقتحموا ليصعدوا الى الرب لئلا يبطش بهم . فانحدر موسى الى الشعب وقال لهم ... »[١] تصوير صادق لعقيدة العبرانيين في الرب وفي المواضع المقدسة التي ينزل بها . ان هذه المواضع تكون حراماً على سائر الناس ، حتى على الكهنة ، من تجاسر على حرمتها ، فدخلها هلك ، حتى تابوت الرب « Ark » يميت من يمسه ولو كان غير متقصد مسّه أو الإساءة اليه . « ولما انتهوا الى بيدر ناخون مدّ عزة « Uzzah » يده الى تابوت الله وامسكه لأن الثيران انشمصت . فحمي غضب الرب على عزة وضربه الله هناك لأجل غفله فمات هناك لدى تابوت الله[٢] » .

وقد تكون هذه الآيات تعبيراً صادقاً عن رأي بقية الساميين في الأماكن المقدسة التي تحل الآلهة بها ، أو البيوت التي تودع فيها المخلفات المقدسة المنسوبة الى الآلهة ، ومنها الأصنام بالطبع . وأنا لا استبعد وجود مثل هذه الصرامة العبرانية المتمثلة في الآيات المذكورة عند العرب وعند غير العرب بالنسبة الى بيوت الآلهة . وقد رأينا كيف كان الناس يخشون الإقدام على هدم الأصنام حينما ظهر الإسلام خشية ورهبة من هلاك محقق كانوا يظنون أنه نازل بهم إن تعرضوا لأصنامهم بسوء .

(١) الخروج : الإصحاح التاسع عشر الآية ٩ وما بعدها .
(٢) صموئيل الثاني ، الاصحاح السادس ، الآية ٦ وما بعدها .



مبخرة لحرق البخور فى المعابد ، عليها اسم مهديها

ولهذه القدسية والحرمة ، لم يسمح للسواد الأعظم من الناس بدخول الغرف المقدسة المخصصة بالآلهة ، لأنها بيوت الآلهة ، وعوض لهم عن هذا التحريم بالطواف حولها أو الوقوف عند الحدود المرسومة لها وللسبب نفسه ، حتم على القاصدين لها غسل أجسامهم وتنظيفها ولبس ملابس طاهرة نظيفة ، كان سدنة بعض تلك المعابد يؤجرونها للناس بأجر معين مرسوم ، كذلك لم يكن يسمح لأحد بالدخول الى المعابد والأحذية فى الأرجل ، فلا بد من خلعها والدخول بغير أحذية احتراماً لقدسية المكان وخشية من التدنيس (١) .

وترجع قدسية المواضع المقدسة وحرمتها الى الاعتقاد بنزول الآلهة فى هذه المواضع ، والى وجود قوى خارقة فيها ، أو الى وجود مقدسين فيها قبروا فى باطنها ، فقدست تلك المواضع لهذه الأسباب . وتعرف هذه المواضع المقدسة بأسماء من تقدست بهم ، وبأسماء المواضع التي تقع فيها.

وإنا لنرى كثيراً من الأماكن المقدسة قد أقيمت فى جزيرة العرب عند الينابيع والآبار حيث تروى الأرض بالماء فتنمو به المزروعات ، ويستقى منها الناس . وقد صور هذا الخصب لسكان تلك المناطق وجود قوى خارقة كامنة فى تلك الأرضين كانت السبب فى نظرهم فى بعث الحياة للإنسان ولهذه الأرض (٢) .

ونجد في تأريخ العبرانيين القديم أسماء آبار عديدة نُظِر اليها نِظْرَةَ تقديس . وقد كان القدماء يرون فى أعماق الآبار والينابيع قوى خفية مؤثرة تمنح مياه تلك المواضع قدسية خاصة . والواقع أننا لا نزال نرى هذا التقديس باقياً حتى الآن عند كثير من الشعوب ، حتى الأنهار منها أنهار مقدسة يحج اليها ليغتسل فيها ، وليتطهر أصحابها ويدفعوا عنهم النجاسات . وليس هذا التقديس للمياه ، ولكن للقوى الخفية التي كان القوم يتصورون وجودها فى هذه المياه ، والتي تظهر في بعث الحياة للأرض الميتة وللانسان نفسه ، فلولا الماء لمات بالطبع كل مخلوق حيّ (٣) .

---

(١) Ency . Religi . , 6 , p. 753.

(٢) Ency . Religi . , 6 . p. 753 , Robertson , p. 115.

(٣) Robertson , p. 135 , Ency . Religi . , 6 , p. 754.

كذلك قدس الساميون وغيرهم بعض الأشجار ، واتخذوا مواضعها حرماً آمناً مقدساً ، حجّوا اليه وتقربوا اليه بالنذور والقرابين . وقد أشار ابن الكلبي وغيره الى أسماء تلك المواضع التي قدسها الجاهليون ، لوجود الأشجار المقدسة فيها ، ومنها نخلة نجران . وهي نخلة عظيمة كان أهل البلد يتعبدون لها ، « لها عيد فى كل سنة . فإذا كان ذلك العيد علقوا عليها كل ثوب حسن وجدوه وحلّي النساء ، فخرجوا اليها يوماً وعكفوا عليها يوماً . » [1] . ومنها العُزّى وذات أنواط . أما الدافع الى عبادة هذه الأشجار ، فهو ضخامتها وقوتها وثمرها الكثير ، أو نفعها من حيث استعمالها دواء مما جعل الناس يتصورون وجود قوى خارقة فى تلك الأشجار . ونجد فى العهد القديم آيات عديدة تشير الى تقديس العبرانيين للأشجار [2] .

ومن هذه الأشجار ، الأشجار المعروفة بـ « روثيم **Rothem** » فى العبرانية ، و « رَتَم » في العربية [3] . وتحظى أمثال هذه الأشجار بالرعاية والعناية ، فيحتفل الناس بها وكأنها ذات حس وشعور ، وقد رأيتَ ما نقلته لك عن احتفال أهل نجران بنخلتهم . ويحدثنا أهل الأخبار بمثل هذا الحديث عن ذات أنواط ، فيقولون : « ذات أنواط : شجرة خضراء عظيمة ، كانت الجاهلية تأتيها كل سنة تعظيماً لها ، فتعلق عليها أسلحتها وتذبح عندها ، وكانت قريبة من مكة. وذكر أنهم كانوا إذا حجّوا ، يعلقون أرديتهم عليها ، ويدخلون الحرم بغير أردية ، تعظيماً للبيت . ولذلك سميت ذات أنواط . » [4] . وهناك أشجار أخرى ولا شك كان لها عند العرب أو عند بقية الساميين مثل هذا الشأن .

والصخور والجبال من الأشياء التي قدسها الانسان ، رأت بعض الشعوب البدائية أنها من أصلح المواد لسكنى الأرواح والآلهة ، ولذلك تعبدت للأحجار وعدّتها مقدسة ، ولجأت الى قمم الجبال ، لتتعبد هناك للآلهة . فى تلك المواضع أقامت معابد فى الكهوف الطبيعية ، أو فى

(١) البلدان (٨/٢٦٠) « نجران » . (٢) Reste , S. 105 , Ency . Religi . , 6 , p. 754
(٣) Ency . Religi . , 6 , p. 754 . « رتم » تاج العروس (٨/٣٠٣) .
(٤) البلدان (١/٣٦٣) « أنواط » ، تاج العروس (٥/٢٣٦) .

كهوف نحتوها ، أو فى أبنية أقاموها لاعتقادها أنها أنسب مواضع على وجه الأرض تمكن البشر من الاتصال بأربابه ومناجاته آلهته . انها أقرب أماكن الأرض الى السماء ، وفي السماء تقيم الأرباب فى رأي أكثر القدماء ، وعلى الجبال تتجلى الآلهة لخاصة البشر. فعلى جبل « حوريب » تجلى الله لموسى ، ولذلك عرف فى « الخروج » بـ « جبل الله حوريب » [1] . وفي الحجاز جملة جبال وتلال ، كانت مقدسة عند الجاهليين .

ويتضح لنا من دراسة أسماء الأماكن المقدسة المذكورة فى العهد القديم أنها فى الأكثر مواضع ذكر أن الإلـه تجلى فيها للأنبياء [2] . ومن يدري ؟ فلعل المواضع المقدسة التي كان الجاهليون يحجّون اليها هى من هذا القبيل ، أماكن اعتقد عابدوها أن آلهتهم تجلت فيها ، أو نزلت فيها فتقدست بقدسية الآلهة التي أكرمتها بنزولها بها على سائر الأرضين .

وفى الأماكن المقدسة تختار بقعة ، وتحدد ، لتكون أقدس بقعة فى نظر المتعبدين . فالحمى أو الحرم أرض مقدسة ، لا يجوز انتهاك حرمتها ، ولا مخالفة التعليمات التي وضعها الكهان بشأنها ، غير أنها منطقة عامة واسعة بعض السَّعَة ، ولهذا خصصت بقعة ضيقة منها بالآلهة التي نسبت اليها ، وحددت بحدود ، يكون داخلها أقرب مكان الى الآلهة ، اليها أو عندها أو على مقربة منها توضع النذور وتذبح الذبائح . وعند هذه الأماكن أو فى داخلها تقام الصلوات ويتضرعون الداعون لآلهتهم بالأسئلة والدعوات ، ليستجيبوا لهم ويسعدوهم فى حياتهم وبعد مماتهم ، ذلك لأن هذه المواضع المختارة الممتازة هي أقرب الأماكن الى تلك الآلهة ، فالدعوات نافذة لا محالة ، والآلهة ستسمع تلك النداءات من هذه البيوت الخاصة بها ولا شك [3] .

ولا بد أن يكون لهذه البقعة المختارة ميزة خاصة ميزتها عن بقية الأرض المقدسة ، كأن يكون الموضع الذي ظهر به الإلـه أو الآلهة أو موضع القوى الخارقة المقدسة ، أو الموضع المتصل بالبئر أو العين المقدسة أو الشجرة المقدسة أو مكان حفظ الأصنام ، فهو لذلك مكان مقدس

---

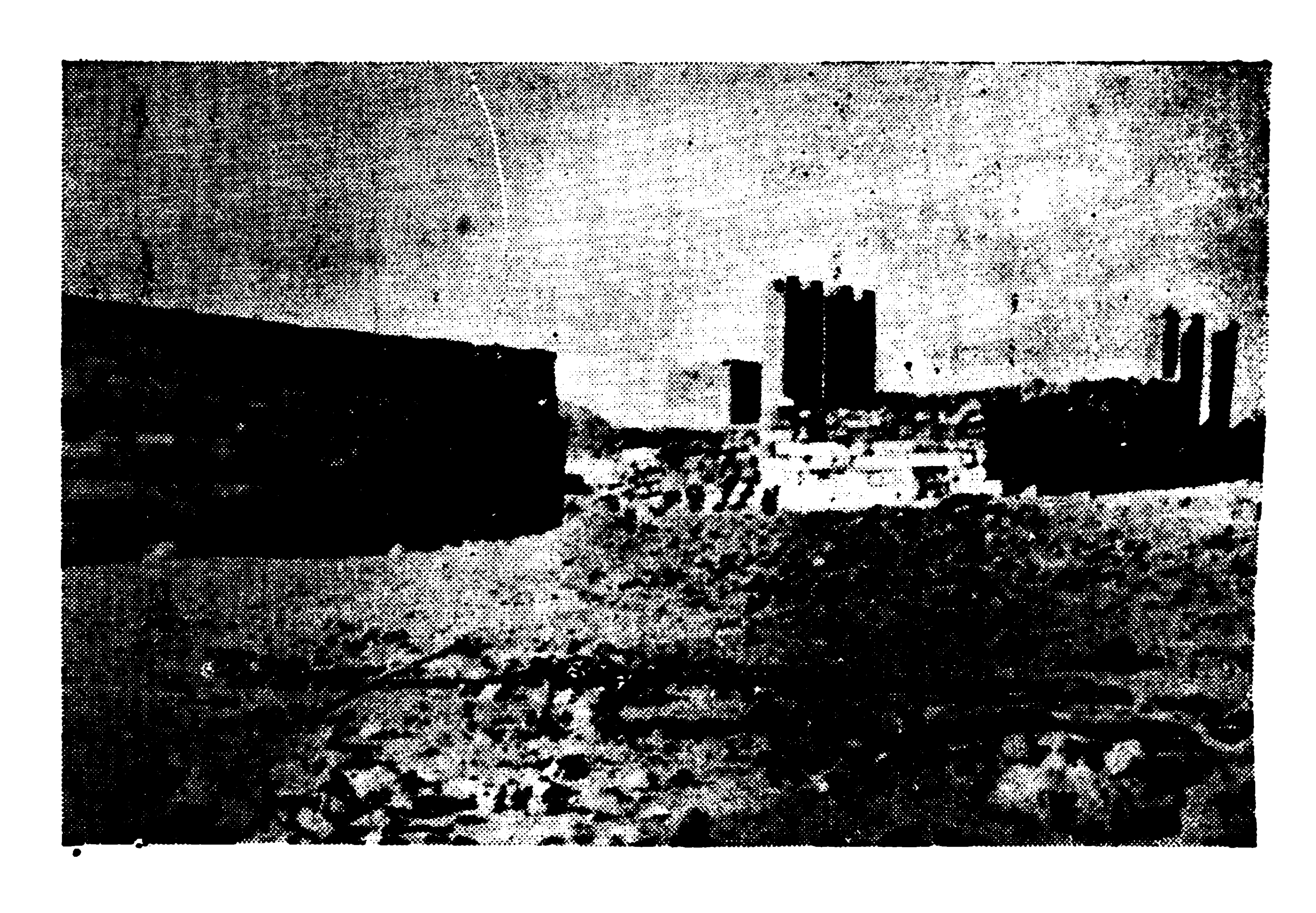
(١) الخروج : الاصحاح الثالث ، الآية ١ ، Hastings , p. 352.   (٢) Robertson , p. 116.
(٣) Robertson , p. 165.

خاص بالقياس الى باقي الحرم . لا يسمح عند بعضهم بالدخول اليه إلا لخاصة رجال الدين ، أو يسمح بالدخول اليه ولكن بشروط . وتحفظ في هذا المكان الأصنام والأوثان والأسرار المقدسة ، وهي أثمن شيء وأقدسه عند المتعبدين .

والرأي المنتشر بين أكثر العلماء الباحثين فى تأريخ الأديان أن الأماكن المقدسة هى أقدم عهداً من المعابد ، ذلك لأن الإنسان قد قدس ، على رأيهم ، تلك الأماكن قبل تعبده للآلهة في بيوت خاصة سميت بأسمائها ، قدسها لأنها مواطن الآلهة والمواضع التي تبركت بظهورها عليها ، فميزت عن الأرضين الأخرى وقدست واتخذت معابد للآلهة ، فهي أقدم من المعابد التي اتخذت مجرد مواضع لعبادة الآلهة وللتقرب اليها دون أن تكون لبقعتها قدسية خاصة اكتسبتها من اتصالها بالآلهة (١) .

وقد كانت فى جزيرة العرب معابد وأماكن مقدسة كثيرة منتشرة فى كل مكان ، بل كان فى الموضع الواحد ، جملة معابد فى بعض الأحيان ، تقرب الناس اليها بتقديم القرابين والنذور ، لبعضها مساحات واسعة قد تكون محيطة بها أو ملاصقة لها أو فى مواضع بعيدة تحمى للمعابد فتكون مواضع « حمى » و « حرم » لها ، لا يجوز لأحد انتهاك حرمتها والاعتداء عليها . إذا دخل حيوان فى داخلها وصار بين جدرانها وحدودها ، عدّ فى ملك الحرم ، ومن أموال المعبد ، فلا يجوز لأصحابه أخذه واستعادته . خصص هذا الحمى فى الواقع بماشية المعبد والكهان ، لترعى فيه بأمان وحرية ، فلا يسرقها سارق ، ولا ينهبها ناهب ، ولا يتجاسر عليها متجاسر ، ولا يتطاول عليها متطاول ، فيزاحم فيها بحيواناته حيوانات المعبد ؛ لأنه يعلم أن ماشيته ستكون عندئذ ملكاً للمعبد ، لاتعطى له ، ولا يجوز له ادعاء ملكيتها ، وإلاّ تعرض لغضب الكهان والناس . وان كانت هناك حوادث ذكرها الأخباريون تشير الى اجتراء بعضهم على حرمة « الحمى » باسترجاعهم عنوة جملاً أو حيواناً آخر دخل مواضع الحمى غِرَّةً أو من غير تعمد من أصحابه .

(١) Ency. Religi. , 10 , P. 50.



بقايا معبد من معابد مدينة « صرواح » .

من تصاوير أحمد فخري

Le Museon, LXI, 3-4, 1948, Pl. I.

ولكن هذه الحوادث قليلة ، مبعثها ضيق يد صاحبها وفقره ، وهي قد تحمله على شق عصا الطاعة على المعبد وعلى الكهان .

وقد كانت مكة أعظم موضع يحج اليه في العربية الغربية عند ظهور الاسلام ، لوجود « الكعبة » فيها ، فكان فيها مجموعة كبيرة جداً من الأصنام والصور بلغت ستين وثلاث مئة صنماً في بعض الروايات [١] . وللتبرك والتقرب الى هذه الأصنام ، قصدها الأفراد ، وحجت اليها القبائل . وقد كان لكل قبيلة صنم في جوف الكعبة عند الجدران أو معلق عليها . والكعبة بناء على خلقة الكعب ، فلذلك سميت الكعبة . يطاف حولها ولها باب يدخل اليها منه . وعلى يمين الداخل جب ، اتخذ خزانة للبيت يلقى فيه ما يهدى الى الكعبة ، وهو الجب الذي نصب عليه عمرو بن لحَيّ هُبَلَ الصنم الذي كانت قريش تعبده ويُسْتَقْسَمُ عنده بالأزلام [٢] . ويقال للكعبة : البيت كذلك ؛ أي بيت الله .

وسمى الأزرقي في موضع آخر من كتابه : أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار الجب البئر ، وقال : إنها كانت في جوف الكعبة على يمين من يدخلها ، وكان عمقها ثلاث أذرع . وان اسمها « الأخسف » وكانت العرب تسميها « الأخشف » [٣] . وقد قصد بها هذه الحفرة التي كانت في جوف البيت بمثابة مكان ترمى فيه الهدايا والنذور والتي تعرف بـ « الغبغب » .

ولم يكن للكعبة ، على ما يتبين من الروايات ، سقفٌ ، وإنما كانت لها جدران ، ولها باب يدخل منه الى داخلها . أما الستائر ، وهي « الكسوة » ، فتكسوا جدرانها من الخارج ، تدلى عليها وتربط من أعلى الجدران من بطنها . وقد احترق البيت قبيل الاسلام بسبب تجمير امرأة البيت ، فطارت من جمرتها شرارة أصابت الكسوة ، فاحترقت الكسوة ، وتصدع البيت [٤] . ولما أعيد بناؤها ، وكان الرسول غلاماً يومئذٍ ، أعاد بناءها معمار اسمه باقوم ، قيل إنه

---

(١) Reste . S. 72. (٢) الأزرقي (١/٢٧) ، البلدان (٧/٢٠٨ وما بعدها) .

(٣) الأزرقي (١/٦٧ وما بعدها) .

(٤) الأزرقي (١/١٠١ ، ١٦٢) ، البلدان (٧/٢٠٩) « الكعبة » .

رومي ، وقيل قبطي ، صنع لها سـقفاً مسطحاً يرتكز على دعائم وعمد . فأعيدت الأصنام الى مواضعها في البيت [1] .

ويذكر الأخباريون أنه كان في بطن البيت قرنا كبش معلقان في الجدر تلقاء من دخلها ، يخلّقان ويطيّبان اذا طيب البيت ، وقد علق عليهما معاليق من حلي كانت تهدى الى الكعبة . ويرمز القرنان الى قرني الكبش الذي ذبحه ابراهيم الخليل [2] .

وقد زوقت الكعبة بعد هذا الحريق، زوق سقفها وجدرانها من بطنها ودعائمها ، وجعلت « في دعائمها صور الأنبياء وصور الشجر وصور الملائكة ، فكان فيها صورة ابراهيم خليل الرحمان ، شيخ يستقسم بالأزلام ، وصورة عيسى ابن مريم وأمه ، وصورة الملائكة عليهم السلام أجمعين. فلما كان يوم فتح مكة ، دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم البيت ، فأرسل الفضل بن العباس ابن عبد المطلب ، فجاء بماء زمزم ، ثم أمر بثوب فبلّ بالماء ، وأمر بطمس تلك الصور فطمست .... ووضع كفيه على صورة عيسى ابن مريم وأمه عليهما السلام ، وقال : امحوا جميع الصور ، إلا ما تحت يدي ، فرفع يديه عن عيسى ابن مريم وأمه . ونظر الى صورة ابراهيم ، فقال : قاتلهم الله جعلوه يستقسم بالأزلام ، ما لإبراهيم وللأزلام . » [3] . وهي رواية ، للعلماء عنها حديث وكلام ، بخصوص استثناء صورة مريم وابنها عيسى من الطمس .

وفي روايات أهل الأخبار عن تزويق الكعبة غموض . وهي روايات عديدة ، يفهم من بعضها أن هذه الصور كانت بالزيت ، رسمت على الجدران . ويفهم من بعض آخر أنها كانت قد رسمت على أشياء متنقلة ، وأنها كانت معلقة على جدران البيت . ويفهم من بعض الروايات أن الرسول أمر فطمست معالم جميع الصور ، ويفهم من بعض آخر ، ومنها الرواية المتقدمة أنه استثنى منها صورة مريم وابنها المسيح ، وأنها بقيت أمداً في الإسلام إلى أيام عبد الله بن الزبير . فلما تهدم البيت ، تهدمت الصورة معه . أما رسم شجر أو صور ملائكة أو أشباه ذلك في الكعبة ، فأمر لا اعتراض عليه ، إذ يجوز أن يكون ذلك في معبد وثني ، يضم الأصنام . ولكن

(١) الأزرقي (١٠٤/١) ، هناك روايات مختلفة عن هذا النجار .
(٢) الأزرقي (١٠٠/١) . (٣) الأزرقي (١٠٤/١ وما بعدها) .

ما للوثنية والأنبياء ، وما شأن الشرك بمريم وبابنها وببقية الرسل حتى ترسم صورهم على جدران البيت ؟ وهل كان البيت شركة بين الوثنية والنصرانية ، للوثنية بطن البيت ، وللنصرانية جدرانه ! هذا بالطبع شيء غير معقول . ثم ، هل كانت الكعبة مزوقة قبل هذا التزويق بالرسوم والصور ؟ وهل كانت هذه الصور من بقايا صور قديمة ؟ أوهي صور حديثة رسمت بعد أن أعادت قريش بناء البيت ؟ ورأيي أن هذه الصور هي من عمل عمال نصارى أراهم الروم الذين جلبهم أهل مكة مع « باقوم » ، بعد تحطم سفينتهم عند الساحل للاتجار معهم ولبناء الكعبة . و « باقوم » كما يقول الأخباريون هو الذي أشرف على إقامة البناء وهندسته . وهو الذي سقف البيت وأقامه على عمد . ولا أستبعد أن يكون هو الذي رسم تلك الصور وحده أو بالاستعانة بإخوانه من بني جنسه الروم . وقد كان هؤلاء نصارى ، فرسموا على جدران البيت صور قصص نصراني ، ومنه صور الأنبياء ، للزينة والزخرف . لم يجد أهل مكة فيها ما يناقض عقيدتهم في الأصنام . ومن يدري ، فلعله رسم لهم ذلك على أن له صلة بعقيدتهم التي كانوا عليها ، فلم يعترضوا لذلك عليه . ويظهر من أكثر هذه الروايات أن التصوير كان على الجدران ، لا على ألواح متنقلة . أما عن طمس الاسلام لتلك الصور ، فللعلماء في ذلك كلام . وأكثرهم على أن الرسول لم يستثن من ذلك الطمس صورة [1] .

وكسوة البيت عادة قديمة ، كان يقوم بها الجاهليون . ينسبها الأخباريون الى تبع أسعد الحميري ، فيذكرون أنه كساها بالأنطاع ، ثم كساها بثياب حبرة من عصب اليمن [2] أغلى ثياب معروفة في تلك الأوقات . ولا يستبعد أن يكون الإكساء من بقايا المنشأ القديم للبيت ، حيث كان خيمة في الأصل . وقد ورد في الأخبار أنه كان في موضع البيت خيمة قبل أن تكون الكعبة [3] . وكذلك كان معبد بني اسرائيل خيمة في الأصل قبل أن يبنى الهيكل في القدس .

---

(١) راجع تعليقات السيد رشدي الصالح ملحس على الأزرقي (١/١٠٤) وما بعدها .

(٢) الأزرقي (١/١٦٥) .

(٣) الأزرقي (١/٦) « ذكر هبوط آدم الى الأرض » .

أما عن إكساء بقية بيوت الأصنام ، فلم يرد الينا شيء عن ذلك . ولعلهم كانوا يكسون بيوتها أيضاً على نحو ما فعلوه بالبيت .

وبالحرم بئر قديمة ، هي بئر زمزم ، وهي لا تزال باقية حتى الآن . وموضع مقام ابراهيم . أما الصفا والمروة ، فيكون السعي بينهما ، ولذلك يطلق على المسافة التي بينهما ويسعى الناس فيها اسم « المسعى » ، وهما خارج حدود البيت وعلى مسافة منه .

ومعبد ثان كان له جاه في العربية الغربية قبل الإسلام ، هو كعبة « ذو الشرى **Dusarae** » بمدينة « بطرا » . والفضل في حصولنا على بعض المعارف عنه ، يعود الى الكتابات النبطية والى ما كتبه بعض الكتبة اليونان والسريان عنه . في هذا المعبد صنم « ذو الشرى » ، قائم على قاعدة مكسوة بالذهب في بيت موشى بالذهب وبالصور التي تمثل مشاهد تقديم القرابين اليه . وهو في موضع مرتفع على صخرة عالية ، يحج اليه الناس من مواضع بعيدة للتقرب الى ذلك الإله الذي يقابل الإله « باخوس ـ ديونسيوس » « **Dionysos - Bacchus** » في رأي الكتبة اليونان واللاتين [١].

وذو الشرى هو رب هذا البيت : كعبة « بطرا » ، ولذلك نعت في كتابة بـ « رب البيت » [٢] « وهو الذي يفرق الليل عن النهار » [٣]. وجملة « رب البيت » التي أطلقها النبط على إلههم ، جملة معروفة في الجاهلية عند أهل مكة . وهي جملة أقرها وثبتها الإسلام .

وللجاهليين جملة بيوت عبادة معظمة أخرى كبيرة ، قصدتها القبائل للتبرك بها في مكة . وقد عرف بعضها بـ « الكعبات » . ويدل ذلك على أن بناءها كان على هيأة مكعب كشكل بناء الكعبة ، وعلى أن العرب كانوا يبنون بيوت الأصنام الكبرى على هذا النحو . من هذه « سنداد » على ما يذكره الأخباريون ، وهو قصر كانت العرب تحج اليه فيطوفون حوله وقد عرف بـ « الكعبات » جمع كعبة وهو البيت المربع والمرتفع ، و بـ « ذات الكعبات » . وكان

---

(١) Ency. Religi. , 9 , P. 122, Epiphanius , Hoer. , LI , 22.

(٢) CIS , II , 235 , RES, 1088.

(٣) RES, 1102 , Ency. Religi. , 9 , P. 122.



من بقايا معبد « المقه » في صرواح .
من تصاوير أحمد فخري
Le Museon, LXI, 3-4, Pl, I.

مركز حج قبائل بكر بن وائل وإياد[1]. ولكن الأخباريين لم يتحدثوا بشيء من التفصيل عن هذا المعبد وعن كيفيته وشكله وعن الأصنام التي كانت فيه. وقد ذكر ابن الكلبي أن هذا البيت لم يكن بيت عبادة، إنما كان منزلاً شريفاً[2]. ولا أستبعد أن يكون هذا البيت بيعة أو كنيسة يقصدها نصارى القبائل ولا سيما أن أكثرية القبائل التي ذكر أنها كانت تحج الى هذا الموضع هي قبائل عرف أنها كانت على دين المسيح.

وأشار الأخباريون الى بيت ذكروا أن ربيعة كانت تحجه بأحُد في الجاهلية. وذكر بعضهم أنه كان قريباً من « شدّاد ؟ » « سنداد » وذكر بعض آخر أنه على نهر الفرات. ودعوا هذا البيت « السعيدة »[3]. وقد نسب ابن حبيب الذي جعل موضع « السعيدة » في أحد عبادته الى الأزد، وجعل سدنته من بني عجلان[4].

وكان بنجران بيت عبادة عرف بـ « كعبة نجران ». وهو بناء بُني على هيأة الكعبة. وفي رواية تنسب لابن الكلبي أنها كانت قبة من أدم من ثلاثمئة جلد، كان اذا جاءها الخائف أمن، أو طالب حاجة قضيت، أو مسترفداً رفد[5]. ويستخلص من الأخبار الواردة عن هذه الكعبة ومن أسماء أصحابها ومن كونهم أساقفة أنها كانت بيعة أسسها النصارى في مركز النصرانية في اليمن، وهو موضع نجران، وأنه لا علاقة له بالوثنية. ويذكر الأخباريون أن بني عبد المدان بن الديّان الحارثي أقاموها هناك، مضاهاةً للكعبة[6]. ومما يؤيد هذا الرأي ما ذكره ابن الكلبي من أن كعبة نجران لم تكن كعبة عبادة، وإنما كانت غرفة يعظمها القوم من بني الحارث بن كعب[7]. وبنو الحارث بن كعب هم رؤساء نصارى نجران.

وكانت للصنمين اللات والعزّى، بيوت أقيمت عليهما، وسدنة يقومون بخدمتهما. فبيت

---

(١) البلدان (٥/١٥٠) « سنداد »، (٧/٢٥٥) .Ency., II, P. 590

(٢) الأصنام (ص ٤٥).

(٣) تاج العروس (٢/٣٨٣)، البلدان (٥/٨٥).

(٤) المحبر (ص ٣١٦).

(٥) البلدان (٨/٢٦٢ وما بعدها). (٦) المصدر نفسه.

(٧) الأصنام (ص ٤٥).

اللات بالطائف وبيت العزى بوادي حراض بإزاء الغمير ، وتحج قريش وغيرهم اليه ، وتنحر عنده ، يتقربون الى العزى بالذبائح . وكانت قريش قد حمت للبيت شِعْباً من وادي حراض يقال له سقام ، يضاهون به حرم الكعبة[1] . وذكر ابن الكلبي أن رجلاً من جهينة يقال له عبد الدار بن حُديب أراد بناء بيت بأرض من بلادهم يقال لها الحوراء ليضاهي به الكعبة حتى يستميل به العرب ، فأعظم قومه ذلك ، وأبوا عليه[2] .

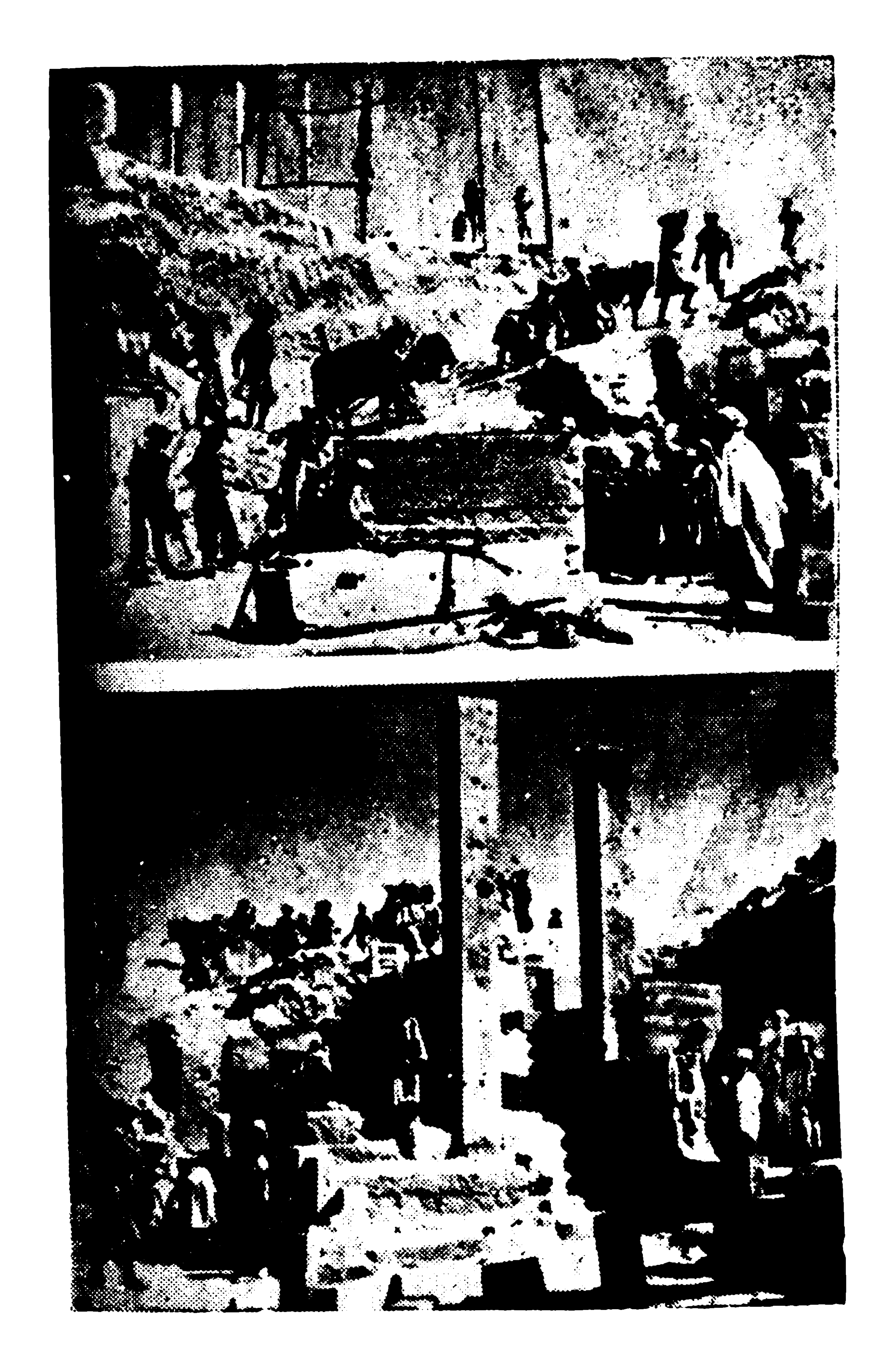
وقد أجريت حفريات فى آثار بعض المعابد القديمة في العربية الجنوبية ، وحددت أسس بعضها ، غير أن هذه الحفريات لم تكن مستمرة ولا بنطاق واسع ، ولذلك لم تأت بفوائد عظيمة تفيد فى توسيع ادراكنا ومعارفنا عن تأريخ أديان الجاهليين . ثم إنه لا بد من التفتيش عن الكهوف القديمة وعن آثار المعابد العديدة الأخرى ، لنتمكن من الحصول على فكرة عامة عن هذه الصفحة المهمة من تأريخ العرب قبل الاسلام .

ويفهم من كلام « نيلوس Nilus » أن العرب لم يكونوا يحيطون مواضعهم المقدسة التي فيها أصنامهم بأسوار ، وإنما كانوا يجعلون لحرمها حجارة تكون حدّاً وعلامة للحرم[3]. ويتبين من كلام هذا المؤرخ الكاتب الذي أسر العرب ابنه وأرادوا تقديمه الى الزهرة قرباناً على حدّ قوله ، أنه قصد بالعرب الأعراب ، ولا سيما أعراب طور سيناء ، وقد كانوا أشداء غلاظاً يلقون الرعب فى النفوس ، وكانوا يتاجرون بالرقيق يقبضون على من يقع فى أيديهم ويبيعونه فى أسواق الرقيق . وجماعة هذا شأنها لا تستقر فى مكان ، لا يمكن بالطبع أن يكون لها معبد ثابت ، وإنما يكون معبدها الموضع الذي يوضع صنم القبيلة فيه . ولتعيين الأرض الحرام توضع تلك الحجارة .

ولم تكن المعابد مواضع عبادة وتقرب الى الأصنام حسب ، بل كانت مواضع استفسار عن المغيبات كذلك ، يقصدها أهل الحاجات لسؤال الآلهة عما عندهم من مشكلات ، أو عما سيخبئه

(١) الأصنام (ص ١٦ ، ١٨ وما بعدها) .　(٢) الأصنام (ص ٤٥) .

(٣) Ency Religi. , I. P. 667.



الحفريات فى خرائب « أوام » . وفى هذا الموضع معبد « المقه » صنم سبأ الشهير
من كتاب :

Wendell Phillips. Qataban and Sheba, P. 256,

لهم المستقبل من أمور ، أو عن أعمال يريدون القيام بها ، أو عن سرقة ، وما شابه ذلك من طلبات . ومن هذه البيوت بيت رئام ، وقد كانوا يكلمون منه وينحرون عنده[1] . وبيت العزى ، وكانوا يسمعون فيه الصوت[2] . والمنطبق وكان صنماً من نحاس يكلمون من جوفه ، فيأتيهم الجواب[3] . وهم يعتقدون أن فى هذه الأصنام شياطين تسمع فتجيب . وفكرة الشياطين هذه ، هي التي حملتهم ولا شك على الالتجاء الى هذه الأصنام للاستفسار منها عن المغيبات .

ويقوم الكهان بتكليم الصنم ، وهم الذين يفسرون للسائلين الهمهمة أو الأصوات الصادرة من تلك الأصنام ويتكلمون على ألسنتهم بما يلائم السائل مقابل نذر وهدايا يقدمونها الى السدنة . وهذا النوع من التنبوء ، معروف عند الرومان واليونان ، مشهور ومعروف عند غيرهم من الأمم كالبابليين والآشوريين والعبرانيين . بل هو يؤلف جزءاً مهماً من أركان الديانات القديمة ، ويطلق عليه « Oracle » في الانكليزية من كلمة « Oraculum » اللاتينية ، ومعناها التكلم . ولهذا النوع من التنبوء صلة كبيرة بالسحر « Magic » وبالكهانة فى الديانات القديمة والديانات البدائية عند بعض الشعوب الافريقية والاسترالية في الزمن الحاضر . وقد اكتسبت بعض معابد اليونان شهرة كبيرة فى هذا النوع من التنبوء بالغيب ، وأشهرها معبد « دلفي Delphi » الذي كسب شهرة عظيمة فى هذا الباب[4] .

والتكهن عن المستقبل والتحدث عن الماضى ، موضوع له فروع عديدة . وقد عدّ علماً من العلوم عند كثير من الأمم ، وألفوا فيه وتنبوء الأصنام هو نوع من هذه الأنواع . ويدخل فى التكهن قراءة كبد الشاة وقراءة بعض أعضائها عند البابليين أو عند المصريين ، والتكهن بحركات الطيور ، وتفسير الأحلام . وتفسير بعض الظواهر الطبيعية وما شابه ذلك وكل هذه كانت معروفة عند الجاهليين . وسأتحدث عنها فى موضعها من الكتاب .

---

(١) الأصنام (ص ١٢) ، الطبري (٢/٩٧) « ذكر بقية خبر تبع أيام قباذ وزمن أنو شروان ، وتوجيه الفرس الجيش الى اليمن لقتال الحبشة ، وسبب توجيهه اياهم اليها » .

(٢) الأصنام (ص ١٨) . (٣) المحبر (ص ٣١٨) .

(٤) Ency. Brita., Vol., 16, P. 830, ff., T. D. Dempsey, The Delphic Oracle, 1918, L. R. Farnell, Cults of The Greek States, Vol., IV, PP. 179.,

وهناك نوع آخر من أنواع سؤال الأصنام النصح والارشاد ، ويكون بالاستقسام بالأزلام . وقد خصص الصنم هبل بمكة بهذا النوع من الإرشاد . وكانت عنده « سبعة قداح ، كل قدح منها فيه كتاب : قدح فيه العقل ، اذا اختلفوا فى العقل من يحمله منهم ، ضربوا بالقداح السبعة عليهم ، فإن خرج العقل ، فعلى من خرج حمله . وقدح فيه (نعم) للأمر ، إذا أرادوه يضرب به فى القداح ، فإن خرج قدح فيه نعم ، عملوا به . وقدح فيه (لا) ، فإذا أرادوا الأمر ضربوا به فى القداح ، فإذا خرج ذلك القدح ، لم يفعلوا ذلك الأمر . وقدح فيه (منكم) ، وقدح فيه (ملصق) ، وقدح فيه (من غيركم) ، وقدح فيه (المياه) ، فإذا أرادوا أن يحفروا للماء ضربوا بالقداح ، وفيها ذلك القدح ، فحيثما خرج به ، عملوا به . وكانوا إذا أرادوا أن يختنوا غلاماً أو ينكحوا منكحاً أو يدفنوا ميتاً أوشكوا فى نسب أحدهم ، ذهبوا به الى هبل وبمئة درهم وجزور ، فأعطوها صاحب القداح الذي يضرب بها ، ثم قربوا صاحبهم الذي يريدون به ما يريدون ، ثم قالوا : يا إلهنا فلان ، أردنا به كذا وكذا ، فأخرج الحق فيه . ثم يقولون لصاحب القداح : إضربْ ، فإن خرج عليه (منكم) كان منهم وسيطاً ، وان خرج عليه (من غيركم) كان حليفاً ، وان خرج عليه (ملصق) ، كان ملصقاً على منزلته فيهم لا نسب له ولا حليف ، وان خرج عليه شيء مما سوى هذا مما يعملون به (نعم) عملوا به ، وإن خرج (لا) أخروه عامه ذلك حتى يأتوا به مرة أخرى ، ينتهون فى أمرهم ذلك الى ما خرجت به القداح . »[1].

وهكذا كانت قريش والقبائل التي تحج الى مكة تأتي الى هبل لاستشارته فى قضايا تهمها . فما يخرج فى القدح مما هو مكتوب ، يكون الجواب . غير أن بعض الأجوبة قد يأتي على خلاف رغبة السائلين ، ولذلك كانوا يغرون الضارب على القداح بالضرب الى أن يخرج القدح الذي فيه ما يريدون ويشتهون . وقد يؤخرون ذلك بعض الوقت . وهم يفسرون النتيجة التي تظهر أنها رغبة الصنم وارادته يوحيها ، فتظهر بالقداح .

---

(١) الأزرقي (١/٦٨ وما بعدها) ، الطبري (٢/١٧٢ وما بعدها) .

وذو الخلصة من الأصنام التي كان يستقسم عندها كذلك . والى هذا الصنم ينسب قول أحد الشعراء لهذه الأبيات :

لو كنت يا ذا الخلصة الموتورا ... مثلي وكان شيخك المقبورا

لم تنه عن قتل العُداة زورا

وهي أبيات ينسبها بعض الرواة الى امرىء القيس . وكان أبوه قتل ، فأراد الطلب بثأره ، فأتى ذا الخلصة ، فاستقسم عنده بالأزلام ، فخرج السهم ينهاه عن ذلك ، فقال هذه الأبيات [1] التي تتحدث عن غضب الشاعر على هذا الصنم ، لنهيه اياه عن الأخذ بالثأر . ولو كانت النتيجة كما يشتهي ، لما قال الشاعر هذه الأبيات بالطبع .

وسواء أكانت هذه القصة مفتعلة أو صحيحة ، فهي ترينا درجة إيمان الناس بأصنامهم قبيل الاسلام ، وما هو عمق ذلك الايمان عندهم . وهناك قصص آخر يرويه الأخباريون فيه مثل هذا النوع من الاستهتار بالآلهة ومن الغضب عليها لمجرد نزول ضرر بأصحاب ذلك القصص المزعوم . من ذلك ما رووه عن رجل أقبل بإبله يتبرك بالصنم سعد ، فلما أدناه منه ، نفرت منه ، فذهبت في كل وجه ، وتفرقت عليه . وأسف فتناول حجراً ورماه به ، وقال : لا بارك الله فيك إلهاً ! أنفرت عليّ إبلي . ثم انصرف عنه ليجمع إبله وهو يقول :

أتينا الى سعد ليجمع شملنا ... فشتتنا سعد ، فلا نحن من سعد !

وهل سعد إلا صخرة بتَنُوفَة ... من الأرض ، لا يدعى لغيٍّ ولا رشد [2]

وأمثال ذلك من قصص يرينا كيف يغضب الانسان على إلهه اذا اصطدمت مصلحته به . وكثير من هذا القصص مفتعل موضوع . ولكن الافتعال في حدّ ذاته دليل على وجود هذا التفكير .

ولما كانت الحروب من القضايا المهمة ، كان استشارة الأصنام والاستقسام بشأنها من الأمور المألوفة بالطبع ، فكان أهل مكة مثلا إذا أرادوا الحرب أو عقد هدنة أو ابرام أمر خطير أتوا

---

(١) الأصنام (ص ٣٥ ، ٤٧) .

(١) الأصنام (ص ٣٧) .

« هُبَلَ » يستقسمون عنده ليعطيهم الرأي المصيب في هذا الموضوع [1].

والغالب أن يكون الاستقسام أمام الصنم ، ليقع في روع طالب الاستقسام أن ما يجري إنما هو بعلم الصنم وبوحيه ، فيكون ذلك أوكد في نفسه وأعمق تأثيراً . وحدود الاستقسام محدودة مرسومة ، والأجوبة محدودة كذلك مرسومة مختصرة : أمر ونهي ، وكفى . فاذا كان السهم على الأمر فعل به ، وإن كان على النهي امتنع من عمل ما أقدم عليه ؛ لأن الصنم قد أمر بذلك ، وعلى المستقسم العمل بالأمر .

ويحج الناس الى هـذه البيوت في أشهر معينة من السنة ، هي الأشهر الحرم . وهي أشهر مقدسة لايحل فيها قتال ولا اعتداء على أحد ، فهي أشهر هدنة وسلام أشهر ، خصصت بالآلهة ، فلا يجوز انتهاك حرمتها . وقد رأينا مع ذلك حروباً انتهكت حرمة الأشهر الحرم عرفت عند الأخباريين بحروب الفجار ؛ لأن المتحاربين قد فجروا فيها بخروجهم على وصايا دينهم وأوامر آلهتهم ، فميزت بهذه التسمية عن الحروب الأخرى التي وقعت في غير هـذه الأشهر . أي في الأشهر التي يحل فيها القتال . وفي شهر الحج الذي يحج فيه الناس الى أصنامهم ، يجتمع الناس في المعبد لأداء الفروض المكتوبة المعينة ، فيكون الاجتماع اجتماعاً دينياً وسياسياً وتجارياً يتعامل فيه الناس . ويتبادلون به السلع ، ويعود على أهل الموضع الذي فيه المعبد بارباح كبيرة ولا شك .

ولكعبة ذي الشرى حج يقع في اليوم الخامس والعشرين من شهر كانون الأول من كل عام ، فيفد اليها الناس من أماكن بعيدة للتقرب الى « رب البيت » ، فينحرون ويقضون الأيام المعينة ، ثم يعودون الى ديارهم. والظاهر أن هذه الكعبة لم تكن خاصة بأهل « العربية النبطية» ، إنما كانت محجة لغيرهم من العرب . كما يتبين ذلك من تصريحات بعض الكتبة « الكلاسيكيين» عنها .

وليست كل المعابد محجة للناس ، يقصدونها في الأيام أو في المواسم . وقد ذكرت أنه كان

---

(1) Reste, S. 132.

في الموضع الواحد جملة معابد في بعض الأحيان ، بل كانت المعابد التي يحج اليها معدودة معينة ، لا بد أن تكون لها ميزة شرفتها على سائر دور العبادة الأخرى ، ولهذه الميزة قصدت في المواسم من أماكن بعيدة . واذا استثنينا ما ورد عن مكة ، فإننا لا نكاد نعرف شيئاً ذا بال عن المعابد الكبيرة الأخرى التي كان الناس يقصدونها . وقد رأيت أن فيما ذكرناه عن الكعبات في جزيرة العرب ، نقلاً عن الأخباريين ، غموضاً وايجازاً ، لا يقنعان الباحث الطامع في الحصول على علم واضح مفصل . ثم إن في كثير مما ذكره أهل الأخبار عن مكة غموض ومجال واسع للنقد ، لأنه منقول عن أفواه رجال يظهر أنهم نقلوا ما قيل لهم دون تحفظ أو تمحيص .

وتعيش المعابد من الأملاك والأموال التي يخصصها المؤمنون بها ومن النذور والهدايا التي تقدم اليها . وقد كان في المعابد مواضع يرمي الزوار فيها مايجودون به على المعبد ، عرفت عند عرب الحجاز بـ « الغبغب » . وهي عبارة عن حفر في داخل المعبد كانت مكشوفة بغير غطاء ، يظهر أنها من بقايا آبار قديمة كانت تستعمل مذابح للأصنام ، تتجمع فيها دماء الذبائح التي تذبح أمام الصنم ، ليسيل منها في مجاري الى الخارج ليجف هناك ، أو أنها كانت خزائن حفرت على هذا الشكل لرمي الهدايا فيها . وهذا الشكل من الخزائن هو الذي أشار اليه الأخباريون غير أننا لا نستطيع بالطبع أن نؤكد أن هذا الشكل كان هو الشكل العام لجميع خزائن المعابد في جميع الحجاز أو جزيرة العرب .

وقد كانت السيوف والأسلحة والمصوغات الذهب أو الفضة في مقدمة الهدايا والنذور التي كانت تقدم الى الأصنام . وقد كان العرب الجنوبيون يقدمون تماثيل من الذهب أو الفضة أو من نفيس الخشب ، الأصنام التي نذرت لها ؛ ومعها في العادة كتابة دون عليها أسماء أصحاب النذور وأسماء الأصنام التي نذرت لها ، وقد تذكر المناسبة التي دعت الى تقديم النذور كشفاء من مرض ، أو نجاة من هلكة أو من على صاحبه برزقه مالاً أو ولداً وما شاكل ذلك من أمور معروفة حتى اليوم .

وقد يثير تقديم الأسلحة الى الأصنام عجباً ، إذ ما الذي تفعله تلك الأصنام بسلاح وهي من

حجارة لا تنفع ولا تضر . ولكن ما يقال عن الأسلحة يقال أيضاً عن الهدايا الأخرى ، فما الذي تفعله الأصنام بالذهب أو الفضة أو التماثيل ؟ إنها لا تفيدها فائدةً ما بالطبع . ولكنها زينة في نظر المتعبدين والسلاح من أعز الزينات وأغلى الأشياء فى نظر المتعبدين ، فخصصت لذلك باهدائها الى معابد الآلهة ، ثم إنها حماية ووقاية يدافع بها عن المعبد وعن المتعبدين عند الخطر وبضاعة ذات ثمن كبير .

ما تقدم هو نذور وهدايا تقدم الى الآلهة طوعاً واختياراً وتقرباً اليها ، ولكن هناك حقوقاً اجبارية على الإنسان أن يقدمها الى آلهته مقابل منها وحقوقها على الإنسان ، يقدمها إلى المعبد تزكيةً لنفسه وماله ، لتنفق على خدام المعابد وفى سبيل اعاشة رجال الدين ، فيدفع من الحاصل الزراعي ومن الناتج الحيواني ومن الموارد الأخرى حق معلوم تعينه الشرائع فى أوقات مثبتة ، يأخذها رجال الدين من الأشخاص على نحو ما تفعله الحكومات فى جباية الضرائب من الشعب . واذا كنا فى جهل بعض الشيء بالنسبة الى الضرائب التى كان الناس يدفعونها فى نجد أو العربية الشرقية أو فى الحجاز الى المعابد والى رجال الدين ؛ لعدم وجود نصوص جاهلية تكشف النقاب عنها ، فان لنا بعض المعرفة عن الضرائب التي كان يقدمها أهل العربية الجنوبية الى معابدهم ، ظفرنا بها فى الكتابات التي عثر عليها هناك ، وقد وردت فيها اشارات الى تلك الضرائب التي كانت تقدم الى المعابد يومئذٍ .

وهذه الضرائب حصص عينية مقررة تدفع الى المعبد على شاكلة الحصص التي تدفع الى أصحاب الأرض والحكومة . تخزن فى مخازن المعابد ، لتصدر الى الخارج ، أو تباع فى الاسواق. فكان القتبانيون مثلاً يدفعون عشر حاصلهم الى المعبد ، ويعرف ذلك عندهم بـ « عصم »[1]. تدفع هذه الضريبة عن حاصلات الأرض . وذلك فى كل سنة . وقد عرفت هذه الضريبة بـ « عشر » عند المعينيين . وهي ضريبة تدفع أيضاً عن الحاصلات الناتجة من الأرض والحيوانات الى المعبد . وقد كان العبرانيون يدفعون « للاويين » المشر عن حاصلات الأرض

---

(١) السطر الثالث من النص الموسوم بـ « N. Rhodokanakis, Kataba. Texte , I , S. Glaser 1601 »



مذبح معيني

وعن حاصلات الحيوان . وهـذه الضريبـة هي في الواقع من الضرائب العامة التي كانت تدفعها أمم أخرى عديدة من غير الشعوب السامية كذلك تدفعها الى المعابد باسم الآلهة . وتستند الى تقاليد تأريخية قديمة ، والى نظريـة أن الأرض هي ملك للآلهـة ، فهي التي تنعم على الإنسان بالحاصـل وبالخير والبركات ، فعلى الإنسان تخصيص جزء من حاصله لتلك الآلهـة . فاذا قصر إنسان في اداء ما عليه الى الآلهة ، تعرض للعقاب ولحرمان الآلهة اياه من البركة والخصب[1].

ولما كان « اللاويون » هم القائمين بخدمة المعبد ، كانوا هم الذين يتولون جمع ضريبة العشـر باسم « يهوه » إلـه اسـرائيل ، اليهم تقدم الضريبة لأنهم يمثلون سـلطة الإلـه على وجه الأرض[2] .

أما العطايا التي كانت تقدم الى الآلهة تطوعاً واختياراً ، فقد أشير اليها بـكلمة في النصوص القتبانية ، هي : « وهبم » ومعناها « وهبٌ » بمعنى « هبات » تقدم اختياراً الى المعابد لأنها واجب ديني يحتم على أصحابها دفع تلك الهبـات . والهبـات أنواع : « ودم » ، و « شفتم » ، و « بنتم »[3] وهي كلها من أنواع الهبات .

ويتبين من نصوص المسند أنه كانت في العربية الجنوبية أرضون واسعة مسماة بأسماء الآلهة ، أجرتها المعابد للرؤساء أو سلمتها الى أيدي « الـكبراء » لاستغلالها في مقابل أجر يدفعونه الى المعبد يتفق عليه . وهذه الأرضون هي أوقاف حبست على الآلهة تعرف بـ « وتفم » « وتف »[4]. ومن غلات هذه الأوقاف ومن « العصم » والنذور والهبات الأخرى ينفق على المعابد وعلى رجال الدين . ويلاحظ أن أكثر الـكتابات التي تتطرق الى قضية إدامة المعـابد بترميمها وبتجديدها أو بناء معابد جديدة ، هي من كتابة المـكربين أي الحـكام الـكهان والملوك والـكبراء ، وقلما

---

(١) Hastings, P. 940.

(٢) التثنية ، الأصحاح الرابع عشـر ، الآية ٢٨ ، الاصحاح السادس والعشرين الآية ١٢ ، العـدد ، الاصحاح الثامن عشر ، الآية ٢٤ ، التكوين ، الاصحاح الرابع عشر ، الآية ٢٠ .

(٣) Glaser 1602, 1395, 1412, Rhodokanakis, Kataba. Texte, I, S. 18, 26.

(٤) N. Rhodokanakis, Kataba. Texte, II, S. 30.

نجد فيها اشارة الى قيام رجل من رجال الدين بذلك ، مع أنهم هم المسؤولون عن المعابد القاعون بادارتها وبجمع الأموال باسم الآلهة وهم المنتفعون بأموال الأوقاف .

والناطق باسم الآلهة وبتنفيذ أوامرها ونواهيها بين الناس ، هم رجال الدين . وهم الذين يشرفون على ادارة المعابد وخدمة بيوت الآلهة وبكل ما يتعلق بها وبما له صلة بالدين . ولشمول الدين نواحي واسعة من الحياة تعد اليوم من أمور الحكومات ، أي السلطات الزمنية ، كان لرجال الدين نفوذ واسع وسلطان كبير قد يتغلب على سلطان الحكام في بعض الأحيان . وقد كان بين السلطتين اتفاق في الغالب لتشابه المصالح ولحاجة الحكام الى رجال الدين ورجال الدين الى الحكام . بل كان بعضهم يجمع بيده بين السلطتين في آن واحد ، فهو كاهن وهو حاكم اليه ترجع الأمور .

وقد عرف الكاهن الذي يجمع بين السلطتين عند السبئيين بـ « مكرب » . و « مكرب » هي : « مقرب » في لهجتنا . وقد كان هؤلاء هم حكام سبأ قبل عهد الملوك . وهو بمثابة « الباتيسي » عند البابليين . وقد دام حكم هؤلاء المكربين في مدينتي « صرواح » و « مأرب » أمداً ، ثم صار الحكم من بعدهم للملوك . ولا يستبعد أن يكون معظم الحكام من هذا القبيل كهاناً وحكاماً في آن واحد . لقد ذكر « نيلوس Nilus » أن حاكم العرب هو الذي يقيم الشعائر الدينية ، ولكنه كان يقيم غيره لأداء تلك الشعائر ، كذلك كان أمراء « حمص Emesa » وتدمر هم الذين يقيمون الصلوات[1] . وكان قدماء الفراعنة وملوك اليونان والرومان يتولون بأنفسهم اقامة الاحتفالات الدينية وتقديم القرابين الى الآلهة ويقومون بأعمال دينية أخرى هي من صميم واجبات رجال الدين[2] ، مما يدل على أن الملوك كانوا كهاناً في الأصل ، وأنهم جمعوا بين السلطتين ، وأن انفصال السلطتين بعضها عن بعض حدث بعد ذلك .

وعرف الكاهن في كتابات القتبانيين بـ « رشو »[3] . وهو رجل دين وظيفته خدمة

---

(1) Reste, S. 130. (2) Ency. Brita., Vol., 18, P. 479 " Priest ".

(3) Handbuch, I, S. 131, N. Rhodokanakis, Kataba. Texte, II, S. 80.

الأصنام ، والاشراف على ادارة شؤون المعابد ، وارشاد أتباعه أمور الدين . وهو يختلف عن « المكرب » في كونه رجل دين ليس غير . وهو « كاهن » في النصوص الأخرى من نصوص المسند .

وقد جمع الملوك عند كثير من الشعوب القديمة وعند بعض الشعوب المعاصرة في آسية وافريقية بين الملوكية وبين الرئاسة الدينية ، فهو في نظر أتباعه كاهن له صلات بالآلهة ، وهو ملك يحكم شعبه وعليهم اداء الطاعة له . ويرى بعض العلماء أن ذلك من بقايا اعتقاد الأمم القديمة بوجود القوى السحرية في أولئك الأشخاص الذين تمكنوا بما لهم من شخصية مؤثرة من فرض أنفسهم على أتباعهم وتسليم الزعامة اليهم ، لاعتقاد القوم بامكان تأثيرهم في مجاري حياتهم اليومية وفي الحياة عامة . وقد يصل هذا الاعتقاد الى درجة عبادة أولئك الملوك واعتقادهم بأنهم من سلالات الآلهة . ومن هذا القبيل ، أي عبادة الأشخاص ، عبادة الأجداد والأبطال ورؤساء القبائل ، لاعتقاد المتعبدين لهم بامكان افادة أرواح أولئك الأشخاص لهم أو الاضرار بهم ، ولهذا تعبدوا لها كي تفيدهم وتنفعهم وتدفع عنهم الأذى ومكاره الأعداء[1] .

ولم تمنع عقيدة عبدة الملوك المتعبدين لملوكهم من قتلهم . ويعلل « فريزر Frazer » ذلك باعتقاد هؤلاء وهم من الشعوب البدائية أن سعادتهم وحياتهم وخيرهم متوقفة على قدرة هؤلاء الملوك ، فما دام الملك قوياً فعالاً جلبت حياته لهم السعد والتوفيق . فاذا ضعف وتعرض للأمراض وخارت قواه وأشرف على الهلاك أو هلك جلب لهم كارثة شديدة لا محالة ، ولذلك يقتلونه عند يأسهم ، وعند ظهور هذه الأعراض به ، لتنتقل روحه قبل خورها الى من سيخلفه ليصد عنهم بقوته عاديات الدهر . ولكن بعض هذه الشعوب تقتل ملوكها وهم في أوج قوتهم وفي خير حالة جسمية . وتعليل ذلك أن تلك الشعوب عينت مدة لحكم كل ملك حصرتها وبنتها على معدل ما يمكن للملك أن يحكم فيها وهو في خير حالة صحية وعقلية ، بحيث لا يمكن أن يكون فيها الملك في العادة عرضة لمثل حالات المرض والضعف والتعرض للموت . فاذا انتهت المدة المعينة كان لابد

---

(١) Ency. Religi.., vol., 10, p. 280, The Magic Art, I, p. 375. London, 1911

من أن تنتهي مدة تملكه ، وعندئذ يقوم من يقتله ليضمن انتقال روحه قوية صحيحة فى خير حالة الى من سيخلفه فى الملك . وهناك لعلماء الأديان والنفس آراء أخرى فى الموضوع[1] .

ويختلف مفهوم « رجل دين » عندنا عن مفهوم هـذا الاصطلاح عند الأمم القديمة وعند الشعوب البدائيـة . ونقصد به هنا ما يقابل كلمة « Priest » فى الانكليزية . و « كوهين » « Kohen » فى العبرانية قبل السبي[2] . يجمع رجل الدين عنـد تلك الشعوب جملة أشياء هي بعيدة كل البعد فى الزمان الحاضر عن الدين . هو رجل دين بمعنى أنه أقرب الناس الى الآلهة ، فهو الذي يتكلم باسمها ، يفسر أوامرها وينهى عن الأعمال التي تناقض أحكامها ، وهو الذي يتولى اقامة الشعائر وادارة شؤون المعابد وأوقافها . ولـكنه هو عالم القوم فى الوقت نفسه ، وهو طبيب يطبب الناس ، فالأمراض فى عرف تلك الأيام نتيجة أرواح خبيثة واصابة عيون وما شابه ذلك ، وليس لأحد من قوة فى طرد تلك الخبائث وابعاد تلك الأرواح عن الأجساد المريضة غير من بيده القوى الخارقة ومن هو أقرب الناس الى الآلهة ، وهو رجل الدين . ثم إن رجل الدين ساحر أيضاً يمارس السـحر ، ليتغلب على الأرواح فيأمر فيها وينهي ويسلطها حيث يشاء . وللسحر فى تلك الأيام دولة ومكان . ثم إنه فوق ذلك كاهن ، يتكهن عن المغيبات ويرى ما وراء الحجب والأستار ، بما له من اتصال بالآلهة وبالأرواح . ثم إنه حكيم ، له الحـكمة . فمجاله اذن واسع كبير[3] .

ورجل هذا شأنه وهذا مجال اختصاصه ، لا بد أن تكون له منزلة خاصة . تميزه اجتماعياً عن بقية الطبقات . ونستطيع أن نقول إن طبقة رجال الدين ، كانت من الطبقات الاجتماعية القديمة فى المجتمع البشري عند جميع الشعوب ، وأنها تمتعت بامتيازات واسعة جداً جملتها تقبض على ناصية الأمور ، لتمثيلها الآلهة على وجه الأرض ، ولتمكنها بهذا التمثيل وبصلاتها الوثيقة بالآلهة من التأثير فى حياة الانسان . فالقوى الخارقة التي فى أيديها والتي لا يملـكها أسوياء البشر ، تجعل

---

(١) Ency. Religi., 10, P. 280, The Dying God, London, 1911, P. 9. tf.

(٢) Ency. Brita., 18. P. 479.

(٣) Ency. Religi., 10. P. 278.

فى امكانها التأثير فى مقدرات كل انسان ، فتحول حياته الى بؤس أو شقاء وتؤمن له مستقبلا حسناً مضموناً فى العالم الثاني . وذلك لسؤالها الآلهة إسعاد السائل أو الاستعانة بالسحر للتغلب على القوى الشريرة وتسخير الأرواح الخيرة فى خدمة ذلك الانسان ؛ ففي أيدي رجال الدين إذن مفاتيح الحياة ، يفتحون بها أبواب السعد والخير لمن يشاؤون ويغلقون بها تلك الأبواب عمن يشاؤون ، فلا غرابة اذا ما تمتعت تلك الطبقة بامتيازات واسعة وبنفوذ كبير .

ثم ان عقيدة أكثر البدائيين والشعوب القديمة أن الإنسان لا يمكنه أن يسمع آلهته صوته ، فيبثها ما يشكو منه وما يتألم منه إلا بواسطة وسطاء « Mediators » وشفعاء ، لهم قوة خارقة لا يملكها الناس ، ولهم منزلة عند الآلهة ليست لغيرهم ، فبواسطتهم يمكن الاتصال بالآلهة ، وهم رجال الدين . إنهم الواسطة الوحيدة بينهم وبين القوى المهيمنة العليا ، بغيرهم لا تمكن الاستعانة ابداً ، وبمخالفة أوامرهم وبالاعراض عنهم يجلبون على أنفسهم غضب الآلهة . ثم إن رجال الدين أعرف الناس بطبائع الآلهة وباختصاصاتها ، واذ كانت صلاتها بالإنسان متباينة ، كان من واجبات المتعبد معرفة الصنم الذي من اختصاصه اجابة طلبه وحل المشكل الذي لديه . ولا يعرف ذلك غير رجل الدين الذي يرشده ويحيله على الآله المختص بأن يأمره أن يعمل بما يمليه عليه وبما يقوله له ، وأن يقوم بتقديم القربان أو النذر المناسب ليرضى الآله عنه ، فيجيب له سؤاله . ولا يعني هذا ارضاء الأشخاص واجابة مطالبهم وحدهم ، أو دفع الأذى عنهم ، بل على عاتق رجل الدين التوسط لدى الآلهة لإنزال المطر أو حبسه عن الناس بحسب الحاجة ، والتحكم في الرياح ، والتوسط لدفع أذى الكوارث الطبيعية كالزلازل والبراكين والجفاف والآفات التي تحدثها الحيوانات كالجراد ، وسؤال الآلهة إخصاب الأرض وتفتيتها لتتفجر عيوناً ، وما شابه ذلك من أمور تتوقف عليها حياة الأفراد وحياة المجتمع . وهي كلها فى أيدي هذه الطبقة فى عرف أهل ذلك الزمن . ولهذا كان لا بد من وجود رجال دين ، ولا بد من خدمتهم ومن إرضائهم ، فبإرضائهم ترضى الآلهة والأرواح الخيرة ، وبارضائهم أيضاً تتجنب البشرية ويلات الأرواح الشريرة التي لا يقرها ولا يتحكم فيها إلا رجال الكهنوت .

وتدخل في ضمن رجال الدين طبقة متولّي المعابد وسدنة الأصنام ، فهم حماتها ورعاتها ، وأقرب الناس في عرف القوم اليها . وقد عرف متولي الأصنام وبيوتها بمكة وبالحجاز وبنجد بـ « سادن » ، ويقوم هذا السادن بسدانة بيت الصنم وبتولي أمره ويعرف بـ « حاجب » كذلك . وقد عرف سَدَنة الكعبة بحجابها أيضاً . فالسدانة والحجابة هما بمعنى واحد[1] . غير أن الحجابة تخصصت بحجابة الملوك والحكام ، فصارت وظيفة ادارية ذات مدلول خاص . فالحاجب هو الذي يتولى تقديم الناس الى الملوك أو منعهم من الوصول اليهم ، وذلك في الجاهلية وفي الاسلام . أما السدانة فانها ظلت محافظة على معناها هذا الخاص بالمعابد والمواضع المقدسة . ولهذه المنزلة ولصلتها بالآلهة وبالأصنام عدت السدانة من درجات الشرف والجاه ، وكانت لأصحابها حرمة ومكانة في النفوس .

والسدانة والحجابة وراثيتان ، تنتقل بالإرث من الآباء الى أكابر الأبناء وتنحصر في الأسرة فتكون من حقها ومن نصيبها ، لا يمكن انتزاعها منها إلا بقوة لا يمكن التغلب عليها . ومن واجب العشيرة التي تنتمي هذه الأسرة اليها الدفاع عنها إن حاول غريب انتزاع هذا الشرف منها . لقد كانت سدانة الكعبة في « بني عبد الدار » ، وكانت حجابة « ودّ » في « دومة الجندل » الى « بني عامر الاجدار »[2] وهكذا نجد سدانة الأصنام وحجابة بيوتها في أيدي أسر توارثتها عن الأجداد .

غير أن هذا الحق لا يستوجب ولا يشترط أن تكون السدانة في أسرة من القبيلة أو الموضع الذي فيه بيت الصنم أو الأصنام ، فقد كان كثير من سدنة الأصنام من قبيلة لا تنتمي اليها من يقع بيت الصنم في أرضها . فكانت السدانة مثلاً لبني أنعم في جرش ، ولبني الغطريف في قديد ، ولبني شيبان في نخلة ، ولآل أمامة في تَبالة وهكذا[3] . ويظهر أن هؤلاء توارثوا هذا الحق من عهد سابق . إما لأنهم استوردوا الصنم أو تلك الأصنام الى هذه المواضع فأقاموا فيها ، وإمّا لأنهم كانوا يسكنون مع قبيلتهم في تلك الأماكن ، ثم حدث لسبب من الأسباب أن جلت

---

(1) Reste, S. 130.
(2) Reste, S. 130.
(3) Reste, S. 130.

قبيلتهم عن الموضع . أما السدنة ، ففضلوا البقاء في الموضع الذي كانوا فيه حيث أصنامهم والبيت . ونجد مثل ذلك أيضاً عند العبرانيين [١] .

ومن الصعب تصور وجود طبقة خاصة كبيرة لرجال الدين على نحو ما كان عند المصريين مثلاً أو اليونان أو الرومان ، بسبب النظام القبيلي الذي كان غالباً على جزيرة العرب . فالأصنام هي أصنام محلية ، أصنام قبيلة ، لذلك كان عبدتها هم عبدة القبيلة أو القبائل المتعبدة لها . وفي محيط اجتماعي ضيق مثل هذا المحيط ، لا يمكن ظهور طبقة خاصة برجال الدين ذات نفوذ واسع ، إنما تكون قدرتها بقدرة المحيط الذي تعيش فيه . ولما كانت حياة البداوة حياة بسيطة غير معقدة ، تعذر علينا أن نتصور حياة دينية معقدة عند أبناء البادية . وكل ما يمكن وجوده عندهم ، هو ما كان له علاقة بمحيطهم وبمعيشتهم البسيطة ، مثل السدانة والكهانة والعرافة والسحرة وأمثال ذلك مما يحتاج اليه البدوي لحل مشكلات حياته ولجلب السعادة له .

هذا بالنسبة الى أهل الوبر أما أهل المدر ، فقد كان لهم كما رأينا في الكتابات رجال دين تمتعوا بنفوذ واسع ، وكان لهم شأن في الحياة العامة . ولكننا لا نعرف ويا للأسف من أمرهم شيئاً يذكر . فالكتابات لم تتعرض لأعمالهم ولا لنظامهم وواجباتهم ، وليس فيها شيء مصور يمكن أن نستخرج منه ما يفيد في معرفة طريقة معاشهم وظهورهم أمام الأرباب وبين الناس . وأخبار الأخباريين عن هذا الموضوع ، قليلة ، لم تتناول الا مسائل بسيطة ليست لها صلة مباشرة بطبقة رجال الدين وبعلمهم وبواجباتهم قبل الإسلام .

وقد أشار بعض الكتبة « الكلاسيكيين » الى وجود كهان عند العرب ، كما أنه ورد في كتابات طور سيناء ما يدل على وجودهم عند القبائل [٢] . غير أننا لا نستطيع كما ذكرنا أن نتحدث عن أعمالهم وواجباتهم ومعارفهم والموضوعات التي كانوا يبحثون فيها ويدرسونها ، لأن هذه الموارد لم تتحدث بحديث ما عن هذه الأمور .

وتقابل كلمة « كاهن » لفظة « كوهين Kohen » في العبرانيـــة . و « كاهن Kahen »

---

(١) Reste, S. 130.

(٢) Ency. Relig. I, P. 667.

و « كاهنا Kahna » في لغة بني إرم ، وكلها من الأصل السامي القديم[1] . وهي الكاهن ، أي رجل الدين عند العبرانيين وعند بني إرم . أما في العربية ، فقد أطلقت على الرجل المتكهن ، أي الذي يتنبأ بالغيب ، ويتحدث للناس بما قد يحدث لهم في المستقبل[2] . ولهم في ذلك أسلوب خاص في الكلام ، يعرف بالاغراق في استعمال السجع ، وبالإفراط في استعمال الكلام الغامض . وهو أسلوب تقتضيه طبيعة التكهن ، لكي لا يلزم الكاهن على ما يقوله من قول ربما لا يقع ، أو قد يقع العكس . ففي مثل هذه الحالة ، يمكن أن يكون للكاهن مَخْرَجٌ باستعماله هذا النوع من الكلام .

وفي الأقوال المنسوبة الى الكهان ، قسم بالكواكب كالشمس والقمر وبالنجوم وبالليل وبالنهار وبالأشجار وبالرياح والظلمات وبالجبال والأنهار وبالطيور وبما شابه ذلك من أمور طبيعية[3] ، الغرض منها التأثير في نفوس السامعين والاغراب في الكلام ؛ ليكون بعيداً عن الأسلوب المألوف . وقد روى الأخباريون نماذج من هذا الكلام ، من هذا السجع المعروف بـ « سجع الكهان » . نسبوه الى أصحابه من كهان الجاهلية . وهي نسبة مهما حاولوا اثبات صحتها وصدق روايتها ، فإنهم عاجزون في رأيي عن اقناعنا بصحة ما يقولون . كيف حفظوا ذلك الكلام وتناقلوه بالحرف الواحد بوزنه وبأسلوبه وبنصه وبفصه الى أن أوصلوه الى أيدي العلماء والمدونين فثبتوه بالتدوين ؟ وكيف لم يخطئوا في ذلك ولم ينسوا منه حرفاً ، حتى لكأنه كلام مقدس وارد عن وحي سماوي ، فلا بد من المحافظة على نصه وروايته على نحو ما ورد وحفظ ؟ وإذا كان العلماء قد تساهلوا في رواية متن حديث رسول الله فسمحوا بالتصرف فيه بشرط المحافظة على المعنى محافظة تامة ، لصعوبة التمسك برواية النص على نحو ما ورد عن الرسول . فكيف يعقل محافظة الرواة على حرفية كلام الكهان على نحو ما نسب اليهم . وكلام الكهان

---

(1) Noldeke, Neue Beitrage Semitischen Sprachwissenschaft, S. 36.

(2) Shorter Encyclopaedia of Islam, P. 206.

(3) Reste, S. 135.

ليس بشيء بالقياس الى كلام الرسول ، ثم إنه أقدم منه ، ولم يكن مدوناً ولا مكتوباً فى كتاب على ما يفهم من روايات الأخباريين .

وقد وردت كلمة « كاهن » فى القرآن الكريم في معرض الرد على قريش الذين اتهموا الرسول بأنه « كاهن » ، وبأنه يقول القرآن على نمط قول الكهان [١] . والذي يفهم من هذه المواضع فى القرآن الكريم أن الكهانة هي التنبّؤ وقص التنبؤ سجعاً ، ولهذا حاول المشركون اتهام الرسول بأنه أحد أولئك الكهان ، كما اتهموه بأنه شاعر ، وبأن القرآن الكريم هو نوع من الشعر . وفى كلتا الحالتين ، أي الكهانة والشعر ، كان من رأي الجاهليين أن هناك وحياً يوحي الى الكاهن بما يقوله ، والى الشاعر بما ينظمه ، و « شيطان الشاعر » قول مشهور معروف . وقد ورد « شيطان الكاهن » كذلك ، ذلك لأن الكاهن يتلقى علمه من الجن والشياطين الذين يسترقون السمع ويلقون به الى الكهنة[٢] .

وتقوم الكهانة على القدرة الشخصية وعلى ذكاء الكاهن ، لذلك لم تكن كالسدانة مثلاً إرثاً ينتقل من الآباء الى الأبناء ، بل كان فى إمكان كل شخص يرى فى نفسه القدرة على التنبّؤ بالغيب والتحدث عما سيحدث للسائلين أن يدعي الكهانة وأن يعدّ نفسه كاهناً يتكلم باسم الأرباب ، وينطق بالقوة الخفية التي توحي اليه بالتنبؤآت ، فيتخذ له مكاناً في معبد أو فى موضع آخر ليقصده من يريد استشارته فى عظائم الأمور مهما اختلفت وتنوعت عن المستقبل وعن القيام بعمل من الأعمال .

والكاهن ، وان كانت وظيفته التنبؤ وقول المغيبات ، هو طبيب كذلك يصف الدواء للمرضى . فهو مثل « الشمان » « Shaman » ورجل « الفتش Fetish » ، فى الأصل كان يقوم بكل تلك الأعمال ، ثم تخصص بعد ذلك بهذا النوع من العمل[٣] . ولا أستبعد أن يكون ذلك بعد الميلاد .

---

(١) سورة الطور : الآية ٢٩ ، سورة الحاقة لآية ٤٢ .

(٢) تاج العروس (٩/٣٢٦وما بعدها) ، لسان العرب (١٧/٢٤٤) ، الطبرسي (٥/٣٤٩،٣٦٧)، بلوغ الأرب (٢/٢٦٩) .

(٣) The Shorter Ency. of Islam, P. 207.

وليس من الضروري أن يكون التكهن بتكليم الصنم حتماً وفي المعبد بالضرورة ، فقد كان من الكهان من يقيم في بيتـــه ويتكهن مع ذلك للناس ، ينطق بما يوحى اليه وبما يشعر به . وقاصـدوه يرون أن فيه قوةً خارقة وقابلية لتلقي الوحي من تلك القوة التي يتصورونها على هيأة شخص غير منظور يلقي الى الكاهن الوحي ، فينطق بما يناسب المقـام وبما يكون جواباً على الأسئلة التي توجه اليه . ويطلقون على ذلك الشخص الخفي اسم « تابع » أو « صاحب » أو « مولى » و « وليّ » ؛ لأنه يكون تابعاً وصاحباً للكاهن ، يتبعه ويصاحبـــه ويلقي اليه « الرَّئِيّ » . يكشف له الحجب ويأتيه بالأسـرار . فهو « حاز » و « حزاء » و « حازية » و « الرائي » في العهد القديم[١] . وقد يلحق التابع من الجن أشخاصاً لم يشتهروا بالكهانة وإنما عرفوا بشدة ذكائهم ومعرفتهم بعواقب الأمور ، مثل « أُحَيْحَة بن الجُلاح » وكان من أشراف المدينة ، وقد اشتهر عندهم بكثرة صوابه وسرعة ادراكه للعواقب ، فعللوا ذلك بوجود « تابع » له من الجن كان يعلمه المغيبات[٢] .

وقد كان للكهان على ما يتبين من قصص الأخباريين أثر كبير في حياة العرب قبل الاسلام . فقد كان الناس يستشيرونهم كما قلت في إبرام مهمات الأمور ، كاعلان حرب أو كشف عن جريمة أو بحث عن شيء مفقود وما شاكل ذلك . لقد كانوا يستشيرونهم في الحروب ، ويتنبؤون للناس بقرب حدوث غزو أو نزول كارثة أو خير سيقع قريباً . لقد كان هجوم بني أســد على « حجر » بمشورة الكاهن وبرأيه ، وكان تركهم تميماً وافتراقهم عنهم في يوم جبلة بتحذير من الكاهن كذلك[٣] . وقد استعان النعمان أو يزيد بن عمرو الغساني بالكاهن « الخمس التغلبي » ،

---

(١) Reste, S. 134. Shorter Ency. of Islam. P. 207.

(١) الأغاني (١٣/١١٥) « ذكر أحيحة بن الجلاح » .

(٣) « فرق لهم حجر حين سمع قوله . فبعث في أثرهم ، فأقبلوا ، حتى اذا كانوا على مسيرة يوم من تهامة تكهن كاهنهم ، وهو عوف بن ربيعة بن سوادة بن سعد بن مالك بن ثعلبة بن دودان بن أسـد بن خزيمة ، فقال لبني أسد : يا عبادي ؟ قالوا : لبيك ربنا . قال : من الملك الأصهب الغلاب غير المغلب في الأبل كأنها الربرب ، لا يعلق رأسه الصخب ، هـذا دمه يتشعب ، وهذا غد أول من يسلب ؟ قالوا : من هو يا ربنا ؟ قال : لولا أن تجيش نفس جاشية ، لأخبرتكم أنه حجر ضاحية . فركبوا كل صعب وذلول ، فما أشرق لهم =

لإخباره عمن تجاسر على ناقته فقتلها [1] ، كما استعان « عتبة بن ربيعة » في اثبات نسب ابنته « هند » منه [2] .

ولم يكن الكهان من الطبقات الدنيا عند عرب الجاهلية ، ولا من سواد الناس . لقد كان منهم من هو من سادة القبيلة ومن الأشراف . ولا بد أن يكونوا من هذه الطبقة ، ليكون حكمهم نافذاً بين الناس بما لهم من عز ومنزلة وجاه وقد كان للقبائل كهان تلتجىء اليهم في الملمّات ، لتستشيرهم ، وتعمل برأيهم في الغزو والحرب . يسيرون معها ، وقد يقودونها في المعارك [3] .

ورأيي أن الكهان كانوا يتمتعون بنفوذ واسع أيام كانوا يمارسون أعمالاً كثيرة ، ثم تحدد نفوذهم في الجاهلية القريبة من الاسلام حين انحصرت أعمالهم في التنبّؤ وفي الحكم بين الناس . وقد عدّ الأخباريون « زهير بن جناب » رئيس كلب في جملة الكهان [4] .

ولاستشارة الناس هؤلاء الكهان في الأمور وطلبهم منهم الفصل فيها صارت كلمة « حكم » مرادفة لكلمة « كاهن » في بعض الأحايين .. وقد روى الأخباريون أمثلة عديدة من حكم هؤلاء الكهان بين الناس وطريقة فصلهم في الأمور ، فهم في هذه الحالة حكام يفصلون في القضايا التي يتفق الجانبان المتخاصمان فيها على احالتها عليهم . ولم تكن لنفوذ أحكامهم مناطق

= النهار حتى أتوا على عسكر حجر فهجموا على قبته ... » ، الأغاني (٨/٦٣) « ذكر امرؤ القيس ونسبه وأخباره » ، « طبعة مطبعة التقدم » ، « فاستقبلهم جل عود أجرب أحذ أعصل كاشر عن أنيابه . فقال : الحزارة من بني أسد . والحازر القائف اعقروه . فقال لقيط : والله لا يعقر حتى يكون محل أبي غداً . وكان البعير من عصافير المنذر التي أخذها قرة بن زهير بن عامر بن سلمة بن قشير . والعصافير ابل كانت للملوك نجائب . ثم استقبلهم معاوية بن عبادة بن عقيل وكان أعسر ، فقال :

أنا الغلام الأعسر   الخير في والشر
والضر في أكثر

فتشاءمت بنو أسد ، وقالوا : إرجعوا عنهم وأطيعونا . فرجعت بنو أسد ، فلم تشهد جبلة ... » ، الأغاني (١٠/٣٦) « طبعة مطبعة التقدم » « وهذا يوم شعب جبلة » ، Reste, S. 136.

(١) الأغاني (١٠/٢٧) ، « ذكر مقتل خالد بن جعفر بن كلاب » .   (٢) Reste, S. 136.

(٣) The Shorter Ency. of Islam, P. 207.

(٤) الأغاني (٨/٦٦ ، ١٥/٧٣ ، وما بعدها ، ٢١/٩٩) .

وحدود . لقد كانت حدود أحكامهم المدى الذي وصلت شهرة الكاهن اليه ، لذلك كان الناس يقصدون الكاهن من مناطق بعيدة فى بعض الأحيان لشهرته الواسعة التي يتمتع بها بين الناس . وتتوقف هذه الشهرة بالطبع على مبلغ ذكاء ذلك الكاهن وقدرته فى فهم طبيعة المتخاصمين أو السائلين ، ليتمكن من اصدار حكم معقول مقبول . وتكون أحكامهم قطعية ، على الطرفين اطاعتها والامتثال لها ، وليس لأحد أن يعترض عليها . ولذلك يأخذ الكاهن من الطرفين المتخاصمين قبل سماعه الشكوى عهداً بوجوب امتثال حكمه وعدم ردّه مهما كان نوع الحكم . وكيف يرد حكم الكاهن وهو في عقيدتهم حكم أوحي الى الكاهن به ؟

فالكاهن فى الجاهلية اذن وظيفة تختلف عن وظيفة الـ « كوهين » عند العبرانيين . إنه متنبيء يخبر عن المغيبات . أما الـ « كوهين » ، فهو رجل دين ، يقوم بشرح الـ« التوراة Tora» وتعليم الناس الشريعة . ولكن هذا لا يعني وجود هذا الخلاف فى الأصل . فالكهانة بالمعنى العربي هي أيضاً جزء من أجزاء الدين فى الأديان القديمة وعند الشعوب البدائية . والكاهن عالم دين وهو متنبيء يتحدث الى قومه باسم الرب أو الأرباب ، ويذكر لهم ما يريدون الحصول عليه من أخبار عن المغيبات . ويتبين من بعض روايات الأخباريين أن بعض الكهان الجاهليين لم يكونوا فى الواقع الا رجال دين يتحدثون باسم الآلهة التي يتعبدون لها ، توارثوا الكهانة وخدمة بيوت الأصنام ، وكانوا من أسر عريقة معروفة . وقد أشرت الى بعض أولئك الكهان الذين نسبت اليهم أحكام في الدين وآراء ، ومنهم زهير بن جناب [1] .

وقد اشتهر فى الجاهلية عدة كهان ذكر الأخباريون أسماءهم ، منهم : شِقّ ، وسَطِيح ، وأوس بن ربيعة ، والخمس التغلبي ، وعزّى سلمة الكاهن ، ونفيل بن عبد العُزّى ، وخنافر بن التوأم الحميري وسواد بن قارب الدّوسي ، وعمرو بن الجميد ، وابن الصياد ، وآخرون [2] . وأشهر هؤلاء الكهان وأعرفهم : شق وسطيح ، وللأخباريين عنهما قصص أخرجها من

---

(١) الأغاني (٦٦/٨ ، ٧٣/١٥ ، ٢١ ، ٩٩) ، Reste , S. 134

(٢) تاج العروس (٣٢٦/٩) ، بلوغ الأرب (٢٦٩/٢ وما بعدها) ، Reste , S. 136. f.

عالم الواقع ، وجعلها في جملة الأشخاص الخرافيين . فشق في زعمهم إنسان له يد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة ، وجعلوه من التشيطنة صورته صورة نصف آدمي . وذكروا أنه كان معاصراً لمالك بن نصر اللخمي ، وأنه استدعاه واستدعى سطيحاً معه لتفسير رؤيا رآها أفزعته ، وأنهما أخبراه بوقوع غزو الحبشة لليمن وبظهور سيف بن ذي يزن . وقالوا إن سطيحاً كان كتلة من لحم يدرج كما يدرج الثوب ، ولا عظم فيه إلاّ الجمجمة ، وأن وجهه في صدره ، ولم يكن له رأس ولا عنق ، وكان في عصره من أشهر الكهان ، وأن كسرى بعث اليه عبد المسيح ابن بُقيلة الغساني ليسأله في تأويل رؤيا رآها ، الى غير ذلك من قصص معروف نوعه من قصص الأخباريين [١] .

ولم تحرم النساءُ الكهانة ، فكان لهن فيها حصة ونصيب . وقد حفظ الأخباريون أسماء عدد من الكاهنات اشتهرت كهانتهن في الجاهلية ، منهن طريفة الكاهنة [٢] ، وزبراء ، وسلمى الهدانية ، وعفيراء الحميرية ، وفاطمة بنت مر الخثعمية ، وسَجاح ، وغيرهن [٣] . وقد نسبوا الى طريفة إخبارها عمرو بنى عامر أحد ملوك اليمن بزوال ملكه وبخراب سدّ مأرب [٤] ، وذكروا أنها سارت مع القبائل حين خافت سيل العرم [٥] . ونسبوا الى بقية الكاهنات أمثال هذا القصص عن أمور ستقع قالوا إنها وقعت كما تنبأن به .

ويروي الأخباريون أن الناس كانوا إذا قدموا على الكهان امتحنوهم ليتأكدوا من صدق تكهنهم ومقدار علمهم . وذلك بإخفاء شيء اخفاء لا يمكن الاهتداء اليه ، أو بوضع لُغْز ، أو ما شابه ذلك ، فيبدؤون الكاهن بالسؤال عنه . فإذا أجاب جواباً دلّ على معرفة وسعة علم ،

---

(١) بلوغ الأرب (٢/٢٧٨ وما بعدها) ، القزويني : عجائب المخلوقات (١/٣٧١) « طبعة وستنفلد » « واسم سطيح ربيع بن ربيعة بن مسعود بن مازن بن ذئب بن عدي بن مازن بن غسان. وكان يقال لسطيح الذئبي لنسبته الى ذئب بن عدي . وشق بن صعب بن يشكر بن رهم بن أفرك بن نذير بن قيس ابن عبقر بن أنمار » ، الطبري (٢/٩٩) ، Ency . . IV , P. 370

(٢) الأغاني (١٣/١٠٥) « ذكر خبر مضاض بن عمرو » .

(٣) بلوغ الأرب (٢/٢٨٣ وما بعدها) ، Reste , S. 137.

(٤) بلوغ الأرب (٢/٢٨٣ ، ٢٨٨) .

(٥) الأغاني (١٣/١٠٥) « ذكر خبر مضاض بن عمرو » .

سألوه عن الأمر الذي عندهم والذي من أجله قصدوه . ويكون لهؤلاء الكهان أجر يدفع لهم . والعرف الغالب أن الكهانة لا تكون ولا تصح إلا بتقديم شيء للكاهن ؛ لأن الجن والشياطين لا ترضى بالتنبؤ إلا اذا رأت حلاوة التنبؤ ويقال لها : « حلوان الكاهن » عندهم .

وتفسير العلماء الاسلاميين للكهانة أن التابع أو الرَّئيّ كان يسترق السمع من الملائكة ، فيلقي بما سمعه على الكاهن ، ويلقي الكاهن ما سمعه على الناس ، فيكون نبوءة . وذلك قبل عهد بعثة الرسول . « فلما جاء الاسلام ونزل القرآن ، حرست السماء من الشياطين ، وأرسلت عليهم الشهب ، فبقي من استراقهم ما يتخطفه الأعلى ، فيلقيه الى الأسفل قبل أن يصيبه الشهاب ، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى : « إلاّ من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب » [1] . ويدخلون في الكهانة العرافة وفن الضرب بالحصى لاستخراج الغيب ، والتنجيم ، ولهم في الكهانة آراء وكلام [2] .

والعادة أن يكون لرجال الدين زيّ خاص بهم يميزهم عن غيرهم من طبقات الناس ، كذلك تتفاوت ملابسهم بحسب منازلهم ودرجاتهم . فيكون للكاهن الأعظم ملابس خاصة تميزه عمن هو أقل درجة منه . وقد يلبس تلك الملابس في المعبد في أثناء أدائه الشعائر الدينية . وقد أشار الأخباريون الى ملابس رجال الدين من يهود ونصارى ، ولكنهم لم يشيروا الى ما كان يلبسه رجال الدين الوثنيون في حياتهم الخاصة وفي المعابد ، فليس لدينا عنهم شيء يستحق الذكر .

كانت النذور معروفة عند عرب الجاهلية مشهورة ، كما كانت معروفة عند غير العرب من الأمم وعند كل الأديان حتى البدائية منها ، ترجع كلها الى فكرة واحدة وان اختلفت في صيغها وفي كيفية عقدها وفي الشروط التي يجب أن تعقد بموجبها . فهي وعد على شرط . يتوسل الناذر الى إلهه أو آلهته بأن تجيب مطلبه ، أو تدفع شراً معيّناً عيّنه ، وعليه تقديم كذا من

(١) بلوغ الأرب (٢/٢٩٦ وما بعدها) .

(٢) مقدمة ابن خلدون (٨٤ وما بعدها) « طبعة بولاق » ، بلوغ الأرب (٢/٢٩٦ وما بعدها) ، Van Vloten, Ceister und Zauber bei den alten Araber, Mitteilungen aus Djahitz Kitab al-Haiwan, in WZKM, VII, 169, ff. 233. ff,

النذور . فهنا عقد ووعد بين طرفين في مقابل تنفيذ شرط أو شروط ، أحد طرفيه السائل صاحب النذر ، أما الطرف الثاني فهو الإلـه أو الآلهة . وأما الشرط ، فهو تنفيذ المطالب التي يريدها الناذر . وأما النذر ، فهو أشياء مختلفة ، قد تكون ذبيحة ، وقد تكون جملة ذبائح ، وقد تكون نقوداً ، وقد تكون فاكهة أو زرعاً ، وقد تكون أرضاً ، وقد تكون حبساً لانسان يهب نفسه أو مملوكه أو ابنه لإلـهه أو لآلهته ، وقد يوهب ما في بطن المرأة أو ما في بطن الحيوان ، وقد يكون النذر حيوانات حيّة . وهكذا نجد مادة النذر كثيرة مختلفة متباينة بتباين الأشخاص [1] .

والنذور جمع « نذر » ، وهي كلمة وردت في نصوص المسند من أصل « ن ذ ر » السامي ، ووردت أيضاً عند بني إرم وهي « نذر Neder » عند العبرانيين [2] .

ونجد في نصوص المسند عدداً كبيراً من الكتابات تفيد أن صاحب الكتابة قد قدّم الى الإلـه الفلاني كذا وكذا ، لأنه أجاب طلبه وأعطاه ما أراد ووفاه بحسب طلبه ، فقدم اليه كذا وكذا وفاء لنذره . وتذكر في النص أحياناً جملة لتنزل اللعنة أو الهلاك أو ما شابه ذلك على من يحاول ازالة هذا النذر والأثر عن موضعه أو الحاق الأذى به أو ما شابه ذلك من عبارات . وقد ورد مثل ذلك في النصوص الثمودية واللحيانية والنصوص الأخرى . وتفهم فكرة النذر والغاية منه صراحة من هذه الكتابات ، فالناذر قدّم نذره ، لأن الإلـه المذكور أو الآلهة المذكورة أجابت طلبه ووفت له ما أراد ، فوفى هو له أو لها ما اشترط على نفسه تقديمه عند عقده صيغة النذر . فالإلـه أو الآلهة طرف يسمع ويتعاقد ويقبل ويجيب ويفعل أو تفعل تماماً كما يفعل الإنسان ، وهي تشترط على الطرف الثاني أي على السائل الوفاء بالنذر ، لأنه دين يجب عليه دفعه في مقابل تنفيذ الآلهة للشروط المذكورة ، وإلاّ فإن الآلهة تغضب عليه وتوقع القصاص عليه ، وقد تسحب ما قدمت له حينما عقدت النذر معه .

---

(١) Ency. Brita., Vol. 25. p. 260, "Vows". Reste, S. 112. Ency. Religi., 12, pp. 644.

(٢) تاج العروس (٣/٥٦١) ، اللسان (٧/٥٤ وما بعدها) ،
The Shorter Ency. of Islam, p. 428, Hastings, p. 960.

ولا يشترط في وفاء النذر أن يكون عينـاً أي مادة ، إذ يجوز أن يكون أمراً معنوياً ، كأن يذكر النـاذر في نذره أنه إن أجاب الإلـه الفلاني طلبـه وبارك له ومنحه طفلاً ، يمنحه له أو يسميه عبد فلان ، أي عبد ذلك الإلـه الذي نذر له . وكثير من الأسماء المبتدأة بـ « عبد » يليها اسم صنم ، هي في رأيي من هذا القبيل ، دُعي أصحابها بها ليحمى من سمي به صاحب ذلك الاسم في مقابل تلك التسمية . ونجد هذا النوع من النذر مذكوراً في القرآن الكريم في سـورة آل عمران : « إذ قالت امرأةُ عِمْرانَ : رَبِّ إنّي نذرت لك ما في بطني مُحرّراً ، فتقبل منّي ، إنَّـك أنت السميعُ العليم . فلما وضعتها ، قالَت رَبِّ إنّي وَضَعتها أُنثى ، واللهُ أعلمُ بما وضعت ، وليس الذَّكَرُ كالأنثى ، وإني سمّيتها مريمَ ، وإنّي أُعيذُها بك وذرّيتهـا من الشيطان الرجيم . فتقبلها ربُّها بقبولٍ حسن ، وأنبتها نباتاً حسناً ، وكفلهـا زَكَريّا . كلما دخل عليهـا زكريا المحرابَ ، وجد عندهـا رزقاً ، قال : يا مريم ، أنّى لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله ، إن الله يرزُقُ مَن يشاء بغير حساب »[1] .

ومن هذا القبيل أيضاً نذر المواهب ، كأن ينذر شخص مواهبه لصنم أو لمعبد ، بأن يتعهد أن يقوم بترنيم التراتيل الدينية في الأعياد أو في أوقات الصلوات والمناسبات في ذلك المعبد ، أو يقوم فيه بأعمال فنية مثل رسم منظر ديني أو تزيين معبد الإلـه أو ما شاكل ذلك من أمور .

وكانت القرابين البشرية في جملة الأشياء التي قدمها الانسان نذراً إلى آلهته . ونجد في « القضاة » في نـذر « يفتاح » للرب أنه إن مكّنه من « بني عمون » ودفعهم اليه « فالخارج الذي يخرج من أبواب بيتي للقائي عند رجوعي بالسلامة من عند بني عمون يكون للرب واصعده محرقة »[2] . وكان من عادة بني اسرائيل وغيرهم أنهم يقدمون قرابينهم الى آلهتهم محروقة . وهذا هو معنى جملة « واصعده محرقة » . وقد كان بعض الملوك والأمراء يقدمون عدداً من الأسرى الذين يقعون في أيديهم قرابين الى آلهتهم ، لنذر أخذوه على انفسـهم بتقديم هذه

---

(١) ال عمران : الآية ٣٥ وما بعدها .

(٢) القضاة : الاصحاح الحادي عشر ، الآية ٣٠ وما بعدها .

القرابين إن نصرتهم آلهتهم على أعدائهم في الحرب .

ولما تقدم الإنسان فى مداركه ، سمح بالاكتفاء بأخذ شيء ثمين فى مقابل القرابين البشرية : بأن يعوض عنه بالذهب مثلاً أو بالفضة ، ثم تساهل فاكتفى بتعويضه بذبيحة ، مثل شاة ، وذلك بحسب منزلة الناذر ومكانته . وقد عين سفر « اللاويين » مقدار ما يؤخذ عن الإنسان الذي ينذر للرب ، عينه بحسب السن [١] . وهذا التعويض هو أثرلتلك المادة القديمة ، عادة تقديم القرابين البشرية الى الرب [٢] .

ومن جملة النذور التي كانت عند الجاهليين تقديم ضحية حين يبلغ القطيع مئة عدداً ، أوتقديم عدد معين من الغنم أو الجمال إن رزق الناذر مولوداً ذكراً ، أو نحر أحد الأبناء إن بلغوا عدداً معيناً . وكان « عبد المطلب » قد نذر إن توافى له عشرة رهط أن ينحر أحدهم . فلما اكتمل العدد ، قرر الوفاء بنذره ، وذلك بذبح أحدهم . وإذْ لم يكن قد عين الولد الذي سيذبحه ، ذهب كعادة أهل مكة الى هُبَلَ يستقسم عنده . فلما أصاب النصيب عبد الله ، ذهب به إلى إساف ونائلة وَثَنَيْ قريش اللذين تنحر عندهما ، ليذبحه ، « فقامت اليه قريش من أنديتها ، فقالوا : ماذا تريد يا عبد المطلب ؟ قال : أذبحه . فقالت له قريش وبنوه : والله لا تذبحه أبداً حتى تعذر فيه لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتي بابنه حتى يذبحه ، فما بقاءُ الناس على هذا ؟ » ثم سألوه أن يذهب إلى عرّافة كانت بالمدينة لها « تابع » ، لترى رأيها فى الموضوع وتفتي فيه ، فلما ذهب اليها ، وجدها بخيبر ، فأشارت عليه أن يعود الى مكة ، ثم يضرب بالقداح على ابنه وعلى عشر من الإبل وهو مقدار الدية عندهم ، فإن خرجت القداح على عبد الله ضربوا القداح مرة أخرى ، فإن خرجت القداح على عبد الله مرة أخرى ، أعادوا الضرب حتى يقع على الإبل ، فيكون الرب قد رضي عنه ، فتنحر الإبل عندئذ . فسمع نصيحتها وفعل ، ونحرت الإبل فديةً عن ابنه « عبد الله » [٣] . والظاهر أن عادة نحر الأبناء عند الكعبة قد بقيت حتى بعد دخول العرب

---

(١) لاويون : الاصحاح السابع والعشرون ، الآية ١ وما بعدها .

(٢) Ency. Religi.. 12, P. 656. (٣) الطبري (٢/١٧٢ وما بعدها) .

فى الإسلام ، بدليل ما ورد عن نذر امرأة أن تنحر ابنها عند الكعبة فى أمر إن فعلته ، ففعلت ذلك الأمر ، فجاءت الى المدينة تستفتي علماءها فى الأمر . فأشار عليها من استفتتهم بوجوب الوفاء بالنذر ، ولكنهم ذكروا لها أن الله قد نهى عن قتل أنفسكم ، وذكروا لها قصة عبد المطلب المذكورة [1] ، ومعنى ذلك تقديم الفداء .

كذلك كان من عادة الجاهليين النذر فى ساعات الشدة والخطر ، فكان بعض النساء ينذرن أن يجعلن ولدهن « حمساً » إن شفى الرب ابنها من مرض ألمّ به [2] ، كما كانوا ينذرون بحلق شعر الرأس أوجز شعر الناصية أو الاعتكاف والانزواء بعيداً عن الناس [3]. وهي عادات نجدها عند العبرانيين وعند غيرهم من الناس .

والحُمس هم المتشددون فى الدين فى تعريف أهل اللغة . والظاهر أن الأحمس هو الذي وهب نفسه أو الذي يهبه أهله الى الآلهة ، فينصرف فى خدمتها [4] ، ومن هنا قيل للمتصلبين فى دينهم ، والقائمين بتنفيذه بشدة « الحمس » وذلك لانصرافهم انصرافاً تامّاً الى خدمة الآلهة ، والعادة أن يؤدي ذلك الى التشدد والتزمت بحكم هذه الحياة التي يحيونها .

ويتبين من دراسات النذور عند الشعوب القديمة أنها كلها نتيجة حاجة ، وتصور الإنسان أن بامكانه التأثير على آلهته بهذه النذور ، فيجعلها تميل الى اجابة طلبه وحلّ مشكلاته ، وذلك بتقديم مطالب مغرية تطمعها ، وهدايا سارة تفرح بها ، كما يفرح الإنسان عند تقديم أمثالها اليه ، فيهش لصاحب الهدية ويرتاح له ويتقرب اليه ، ويعدّ الهدية نوعاً من التقرب والتودد والتحبب ، فن واجب من أهديت اليه الهدية مقابلة المتودد بالمثل . وأما الحاجات التي كان يرجو الناذرون تحقيقها ، فهي على الغالب الحصول على ثروة ، أو صحة وعافية أو ذرية أو نصر وتوفيق . والناذر على يقين بالطبع من أن الإله الذي نذر له النذر قادر على تحقيق ذلك ، وإلاّ لم يتقدم اليه

---

(١) المصدر المذكور .   (٢) الأزرقي (ص ١٢٣) .

(٣) The Shorter Ency. of Islam., P. 429.

(٤) تاج العروس (٤/١٣٢) ، « حمس » .

بهذا النذر[١].

والنذر كما رأينا هو ما يوجبه الإنسان على نفسه تبرعاً من عبادة أو صدقة أو غير ذلك وعداً على شرط ، فيقدم الناذر الى المنذور اليه ما تعهد اليه به بعد الوفاء . غير أن هناك نوعاً آخر هو في الحقيقة نوع من التعهد أو القسم ، يدخله العلماء في باب النذور كذلك . من ذلك أخذ المرء عهداً على نفسه بتجنب الطيبات واللذيذ من العيش ، أو بالابتعاد عن الناس واعتزالهم على نحو ما يفعله الرهبان والناسكون ، ويعرف هذا النوع بـ « عسر 'issar » عند العبرانيين[٢]. ونجد أمثلة عديدة من هذا العهد في أخبار الجاهليين ، كالذي ذكروه عن « امرئ القيس » من أنه قال حينما بلغه مصرع والده : « الخمر عليّ والنساء حرام حتى أقتل من بني أسد مئة واجزّ نواصي مئة » [٣] ، وكالذي رووه عن غيره من الجاهليين . وهي كلها من هذا الطراز . أخذ الشخص عهداً على نفسه بألاّ يقرب امرأة أو يشرب خمراً أو يضع طيباً أو يقرب اللذائذ حتى يأخذ بثأره أو يتحقق ما نوى عليه ، وقد يحدد ذلك بوقت بأن يعين أجل هذا العهد[٤].

وإذ كان النذر عهداً ، كان من اللازم تنفيذ العهد ، فاذا مات من أخذ عهداً على نفسه بأن يفعل شيئاً ، لم يفعله ، فعلى ورثته وقبيلته الوفاء بعهده . فإذا مات شخص كان قد نذر على نفسه الأخذ بثأر قتيل ولم يوفِ بعهده ، بسبب موته ، فعلى أهله وذوي قرابته وأفراد قبيلته الأخذ بالثأر . ولذلك كانت أحقاد الثأر تنتقل من الآباء الى الأبناء فالأحفاد ، وتستغرق أحياناً زمناً طويلاً حتى يؤخذ بالثأر . وقد نشأت عن هذه العهود مشكلات خطيرة في المجتمع الاسلامي في موضوع العهود التي يمكن تنفيذها والعهود التي لايجوز تنفيذها ، أو التي يسمح بعدم تنفيذها وفي مبلغ التبعة التي تترتب على الورثة في تنفيذ العهود[٥] .

---

(١) Ency. Religi., 12, P. 656. (٢) Hastings, P. 960.

(٣) الأغاني (٨/٦٥) ، « ذكر امرىء القيس ونسبه وأخباره » .

(٤) الواقدي (١٢٠) « طبعة ولهوزن » ، ابن هشام (ص ٥٤٣) ، Shorter Ency. of Islam.

(٥) Shorter Ency. of Islam, P. 429, Goldziher, Zahiriten, S. 80.

وتؤلف القرابين جزءًا مهماً من عبادة الأمم القديمة ، بل تكاد تكون العلامة الفارقة عندهم للدين . والرجل المتدين في عرفهم هو الرجل الذي يتذكر آلهته ويضعها دائماً نصب عينيه ، وذلك بتقديم القرابين لها ، ولست أخطيء إذا قلت إنها كانت أبرز من العبادات العملية كالصلوات ، لأن الإنسان القديم لم يكن يفهم آنئذٍ من الحياة إلا مفهومها المادي . وهو يرى بعينيه ويدرك أن ما يقدم اليه من هدايا يؤثر في نفسه كثيراً ، ولذلك كان من الطبيعي أن يتصور بعقله أن القرابين هي أوقع في نفوس آلهته من أي شيء كان ، فقدمها على كل شيء ، وجعلها عبادة يتقرب بها الى الآلهة كما يتقرب أهل الأديان السماوية الى الإله بالدعاء والصلوات ، فهي في نظره عبادة تقربه الى الأرباب .

وكلمة « قربان » وجمعها « قرابين » ، هي من أصل « ق ر ب » ، وقد استعملت وخصصت بهذا المعنى لأنها تقرب الى الآلهة . وهي معروفة بهذه التسمية في العبرانية ، كما هي معروفة عند بني إرم . وقد ذهب بعض المستشرقين ، كعادتهم في رَجْع أكثر المصطلحات الاسلامية الى أصل يهودي أو نصراني ، إلى أن مدلول كلمة « قربان » الواردة في القرآن الكريم مأخوذ من اليهودية بطريق السريانية [1] . وهو قول يحتاج الى دليل ، فان مجرد وجود هذا المصطلح في العبرانية لا يكفي أن يكون سنداً لإثبات أن أصله عبراني ، وأنه دخيل على العربية . وقد رأيت أن الكاهن الحاكم هو « مكرب » أي « مقرب » عند السبئيين ، وأن « مكة » هي « مكربة » أي « مقربة » في جغرافيا « بطلميوس » . ثم إن العرب كانوا يذبحون ويهدون الى آلهتهم ويقدمون القرابين الى أصنامهم شأنهم في ذلك شأن غيرهم من الأمم ، فلا يعقل أن يكون هذا الاصطلاح خاصاً بشعب من شعوب الساميين ، وإنما هو من الاصطلاحات التي ترجع مثل غيرها الى أصل واحد سامي قديم .

والقربان عند علماء اللغة الاسلاميين هو كل ما يتقرب به الى الله ، فليس القربان خاصاً بالذبائح وإن صار ذلك مدلوله في الغالب . ولِما في معنى القربان من التقرب ، أطلقت الكلمة على

---

(١) Mingana, S aic influence on The Kuran, in Bulletin of The Joh nRylands Library. Vol., XI, No. I, P. 85, Shorter, P. 286.

جليس الملك الخاص ، أي المختص به ، وقرابين الملك وزراؤه وخاصته[1] . و « قربان » هى « قربان Corban » فى العبرانية ، وهى عنـدهم فى المعنى نفســـه المفهوم عنـد علماء اللغة الاسلاميين[2] .

ومن القرابين ما يقدّم فى أوقات معينة موقوتة ، ومنها ما ليس له وقت محدود ثابت بل يقدم فى كل وقت . ومن أمثلة النوع الأول ما يقدم فى الأعياد أو في المواسم أو فى الأشهر أو فى أوقات معينة من اليوم وفى ساعات العبادات . ومن أمثلة النوع الثاني ما يقدم عند ميلاد مولود ، أو انشاء بناء أو قيام بحملة عسكرية ، أو لنصر وما شابه ذلك من أحوال . ويدخل فى النوع الأول الاحتفاء بأعياد الآلهة وبأيام ميلادها ، حيث تكسى أصنامها عند بعض الشعوب أحسن الحلل ، وتزين بأجمل زينة ، ثم يوضع أمامها ما لذّ من الطعام وما حسن من الهدايا ، وتذبح لها الذبائح ، تذبح على الأنصاب ، ويأتي الكهان ليقوموا بتأدية الشمائر الدينية المقررة فى هـذه الأحوال[3] . وتدخل فى هذا الباب أيضاً القرابين المحروقة التي تقدم كلّ يوم الى إلـه اسرائيل ، وقرابين السبت ، وهى ضعف عـــدد القرابين التي تقدم فى أيام الاسبوع ، وقرابين الأهلة وقرابين عيد الفصح « العيد الكبير Passover » وقرابين ابتداء موسم الأثمار وقرابين ابتداء النصف الثاني من السنة ، أي اليوم الأول من الشهر السابع ، وقرابين منتصف الشهر السابع ، أي عندما يكون الهلال بدراً[4] .

هـــذه هى القرابين التي كان يقدمها العبرانيون الى « يهوه » فى أوقات معينة ثابتة . أما القرابين التي كانت تقدم فى اوقات غير معينة ، فهي غير محدودة : لأنها تقديمات فردية شخصية تراعى فى تقديمها المناسبات . ونجـــد في ديانة البابليين وفي ديانة المصريين وفى أديان الشعوب الأخرى مثل هذه القرابين .

أما العرب الجاهليون ، فلا نعرف عن قرابينهم التي كانوا يقـدمونها في أوقات موقوتة شيئاً يذكر ، لعدم ورود ذلك فى النصوص . والظاهر أن شهر « رجب » كان من الأشهر التي تقدمفيها

---

(١) تاج العروس (١/٤٢٢) ، اللسان (٢/١٥٨) . (٢) Hastings, P. 810.

(٣) Ency. Religi., Vol., II, P. 32. (٤) Ency. Religi., II. P. 32.

القرابين الى الأصنام عند أهل الحجاز ونجد [1] .

ومعظم نصوص المسند كتابات دونت عند تقديم قربان أو نذر الى الآلهة في ميلاد مولود ، أو شفاء مريض ، أو بناء معبد أو بيت ، أو حفر خندق أو تشييد برج أو سور ، أو حفر بئر أو ترعة وما شاكل ذلك . وتستعمل النصوص المعينية كلمة « سقنى » وذلك بمعنى قدم أو نذر . أما النصوص السبئية ، فتستعمل كلمة « هقنى » وهي بنفس المعنى ، وهما كلمة واحدة ، اختلفت في الحرف الأول الدال على فعل الماضي . فالمعينيون يضعون حرف السين في أول الفعل علامة على الماضي . أما السبئيون فيستعملون حرف الهاء ، ثم يذكرون بعد هذه الكلمة ما قدموه وما نذروه للإله أو للآلهة ، ثم يعقبون بعدها بذكر اسم الإله الذي نذر له أو أسماء الآلهة التي نذرت لها ، ليكون ذلك مفهوماً عند الآلهة وعند الناس .

أما اذا كانت القرابين ذبائح ، فتستعمل نصوص المسند كلمة « ذبح » و « ذبحم » بمعنى ذبحوا و « ذبح » . وقد تسبق بكلمة « يوم » فتكون « يوم ذبح » أي « يوم ذبحوا » ، ثم يذكر بعدها عدد ما ذبح ونوعه ، ثم كلمة « اذبح » بمعنى « ذبائح » في بعض الأحيان . والذبائح التي تقدم الى الآلهة هي الابل والبقر والثيران والغنم والمعز ، وهي السوائم المألوفة المعروفة في جزيرة العرب ، وهي أكثر الحيوانات شيوعاً في الذبح عند الشعوب السامية الأخرى . ولم نجد في نصوص المسند ذكراً لحيوانات أخرى كالأسماك أو الدجاج مثلاً ، ولعل ذلك بسبب ضآلة قيمتها وتفاهتها بالقياس الى أثمان الحيوانات الأخرى ، مما جعل الناس يأنفون من الاشارة اليها في النصوص .

والحيوانات على نوعين في نظر أكثر الأديان : حيوانات طاهرة ، وحيوانات نجسة لا يجوز أكلها ولا الاستفادة منها ولا لمسها أو التقرب منها . أما الحد الفاصل بين الطهارة والنجاسة ، فغير ثابت ، وهو يختلف باختلاف الشعوب والأديان التي تمثل طبيعة تلك الشعوب . ويرجع

---

(1) Ency. Religi . II. P. 32.

بعض العلماء هذا التقسيم للحيوانات الى عقيدة « الطموطمية »[١] ، وترجعه التوراة الى ما قبل الطوفان[٢] . ويكون اختيار حيوانات الذبائح على وفق هـذا التقسيم ، فمن الحيوانات الطاهرة وحدها تختار الذبائح ، ومن علامات الحيوانات الطاهرة عند العبرانيين ما يشق الظلف ويجتر[٣] .

واشترطت بعض الأديان في ذبائح الأكل وجوب وجود علامات وصفات خاصة في الذبيحة حتى وان كانت طاهرة ، وكذلك في كيفية الذبح ليسمح بالاستفادة منها ، وإلاّ عدت محرمة لا يجوز أكلها ولا الانتفاع منها .

وتذبح الحيوانات على حجارة توضع عادة أمام الأصنام أو المذابح التي تقام في المعبد ، وتعرف هذه الحجارة بـ « الأنصاب » . وهي صخور قد تكون منحوتة ، وربما لا تكون ، تذبح عليها الذبيحة فيسكب فوقها الدم ، وقد يسكب على طرف منها . وقد يؤخذ ذلك الدم فيلطخ به الصنم الذي سميت باسمه الذبيحة ، ليكون في علم الصنم أنه قد ذبح له . وتقوم الأنصاب عند العرب مقام « المذابح Altars » في المعابد ، ويراعى في نحر الذبائح أن يكون ذلك في موضع مقدس[٤] .

وأما طريقة الذبح عند الجاهليين ، فالظاهر أنها على الطريقة المألوفة المتبعة حتى الآن ، وهي ذبح الحيوان بحزّ عنقه ، ويعبر عن ذلك بـ « ذبح » في نصوص المسند وفي العربية الشمالية ، أي عربية القرآن الكريم . وهناك كلمة أخرى مستعملة في عربية القرآن الكريم هي كلمة « نحر » ، و « نحر » في عرف اللغويين الصدر أو أعلاه ، أو موضع القلادة من الصـــدر . ومنها كلمة « المنحر » ، وهو الموضع الذي ينحر فيه الهدي وغيره . وقد كان الجاهليون ينحرون البعير

---

(١) Robertson Smith, The Religi. of The Semite, P. 296.

(٢) التكوين : الاصحاح السابع ، الآية الثانية وما بعدها .

(٣) اللاويون : الاصحاح الحادي عشر ، الآية ٣ وما بعدها . « هذه هي الحيوانات التي تأكلونها من جميع البهائم التي على الأرض . كل ما شق ظلفا وقسمه ظلفين ويجتر من البهائم فإياه تأكلون . إلا هـذه فلا تأكلوها مما يجتر ومما يشق الظلف . الجمل ، لأنه يجتر لـكنه لا يشق ظلفاً ، فهو نجس لـكم . والوبر ، لأنه يجتر ، لـكنه لا يشق ظلفاً ، فهو نجس لـكم . والأرنب ، لأنه يجتر ، لـكنه لا يشق ظلفاً ، فهو نجس لـكم . والخنزير ، لأنه يشق ظلفاً ، ويقسمه ظلفين ، لـكنه لا يجتر ، فهو نجس لـكم . من لحمها لا تأكلوا ، وجثثها لا تلمسوا ، إنها نجسة لـكم » . ثم تستمر الآيات في تعيين طهارة ونجاسة بقية الحيوانات ومنها الطيور والأسماك .

(٤) Ency. Religi. , II, p. 34.

بطعنه في منحره حيث يبدو الحلقوم . ولنحر البدن في عاشر ذي الحجة ، أي في يوم الأضحى ، عرف ذلك اليوم بيوم النحر [1] .

وقد حرم الاسلام أكل ذبائح الوثنيين ، لأنها أهلت لغير الله [2] . ومعنى « التهليل تسمية الإلـه الذي خصصت به الذبيحة عند الذبح ، ولذلك يقال لها « التسمية » كذلك » [3] . والظاهر أن الجاهليين كانوا يذكرون اسم الإلـه الذي خصصت له الذبيحة عند ذبحهم إياها ، ولعلهم كانوا يذكرون السبب الذي دفعهم على نحرها ، ويوجهون الذبيحه عند ذبحها الى جهة الصنم . أما الاسلام ، فقد أمر بتوجيه الذبائح تلقاء الكعبة ، ومعنى ذلك تخصيصها برب البيت .

وفي بعض الأديان حرق الذبائح وسكب دمائها على النار كما يفعل العبرانيون ، إذ اتخذوا مذبحاً للمحرقات . ويسمي أيضاً بمذبح النحاس . وكانت ناره لا تطفأ ، وتقدم اليه الذبائح على الدوام [4] ويعرف ذلك عندهم بـ « عولاه Olah » ، وتفسير الكلمة الشيء الذي يعلو [5] . وقد يكون في هذا المعنى افصاح عن الفكرة التي قصدها العبرانيون من هذا الاحراق .

وينفي « ولهوزن » وجود المحارق عند الجاهليين ، وعنده أن العرب لم يكونوا يحرقون الذبائح للأرباب ، بل كانوا يكتفون بالذبح وبسكب دم الذبيحة على النصب كله أو بعضه ، أو أنهم يتركونه يسيل الى « الغبغب » [6] . وليس في الذي بين أيدينا من نصوص ما يدلّ أن الجاهليين كانوا يحرقون ذبائحهم لأربابهم على نحو ما كان يفعله العبرانيون ، غير أن ذلك لا يمكن أن يكون مع ذلك دليلا قاطعاً وحجة كافية في إثبات أن هذه العادة لم تكن عند جميع الجاهليين .

وهناك ذبائح من نوع آخر قدمها الإنسان الى آلهته ، من نوع لا تشمله كلمة خروف أو شاة أو بقرة أو ثوراً أو جمل ، من نوع آخر لا تشمله أية تسمية من هذه التسميات التي تطلق

---

(١) تاج العروس (٣/٥٥٧ وما بعدها) ، اللسان (٧/٤٨) .

(٢) البقرة ١٧٣ ، المائدة ٣ ، الأنعام ١٤٥ ، النحل ١١٥ .

(٣) البخاري (١/٢٩ ، ٢/٤ ، ٣/٢٥٣) ، Reste, S. 117.

(٤) قاموس الكتاب المقدس (١/٤٥٨) .

(٥) Hastings, p. 111.

(٦) Reste. S. 116.

على هذه الحيوانات التي يأكلها الانسان فى العادة ، هي ذبائح يعاقب القانون كل من يمارسها فى الزمن الحاضر بأشد العقوبات ، هي ذبائح بشرية قدمها الإنسان الى آلهته لاعتقاده أنها زلفى محببة الى نفوسها ، وأنها ستفيد المجموع وتنقذه من كثير من الأوبئة والأمراض وأنواع الشر والضر . ان كان الإنسان الحديث يتبرأ منها فى الزمن الحاضر ويتنكر لها ويحاول تبرئة أجداد أجداده من ممارستها قبل مئات من السنين ، فالتأريخ لا يستطيع أن يجد دليلاً يثبت تبرئة أكثر أديان شعوب العالم القديمة من تقديم هذا النوع من القرابين ، وفى التوراة أمثلة عديدة تتحدث عن تقديم العبرانيين لهذا النوع من القرابين الى « يهوه » ، ليرضى عن شعبه ، ويعفو عنه ، ويتقرب منه[1] . كذلك نجد هذه العادة عند اليونان والرومان والصينيين واليابانيين وغيرهم .

أما عند الجاهليين ، فذكر « فورفيريوس Porphyrius » أن أهل « دومة Duma » كانوا يذبحون فى كل سنة إنساناً عند قدم الصنم تقرباً اليه[2] . وذكر « نيلوس Nilus » أن من عادة بعض القبائل تقديم أجمل من يقع أسيراً فى أيديهم الى « الزُّهَرة » ، ضحيةً لها تذبح وقت طلوعها ، وقد وقع ابنه « تيودولس Theodolus » أسيراً حوالي سنة « ٤٠٠ م » فى أيدي الأعراب « Saracens » ، وهيُ ليذبح قرباناً الى الزهرة غير أن أحوالاً وقعت أفاتت عليهم الوقت المخصص لتقديم الذبائح ، أنقذته من الذبح ، فاكتفى آسروه ببيعه فى أسواق الرقيق بـ « ألوسة Elusa » ، فاستقر هناك الى أن صار أسقفاً على المدينة[3] . وذكر أيضاً أن الملك المنذر ملك الحيرة قدم أحد أبناء الحارث الذي وقع أسيراً فى يديه ونحو من أربع مئة راهبة قرابين الى العزّى[4] . غير أننا يجب أن نكون فى حذر شديد من قراءة أمثال هـذه

---

(١) الملوك الأول ، الاصحاح السادس عشر الآية ٣٤ ، الملوك الثاني الاصحاح السادس عشر ، الآية ٣ ، الاصحاح السابع عشر ، الآية ١٧ ، الاصحاح الحادي والعشرون ، الآية ٦ ، صموئيل الأول : الاصحاح الخامس عشر ، الآية ٣٢ ، الملوك الثاني ، الاصحاح الثالث ، الآية ٢٧ ، القضاة ، الاصحاح الحادي عشر ، الآية ٣٠ وما بعدها ، ومواضع أخرى ، Hastings, P., 813, Ency. Religi., 4, p. 864.

(٢) Reste, S. 115. (٣) Ency. Religi., 6, P. 853. (٤) Reste, S. 115.

الروايات التي يرويها « الـكلاسيكيون » ؛ لأن مصدرها فى الغالب هو الخيال . كذلك يجب أن نمر برواية الأخباريين عن قصة عبد المطلب وعبد الله بشيء من الاحتراس والحذر ، ويخيل الي أن الأخباريين استفادوا فى هذه القصة من حكاية ابراهيم واسحاق .

وليس فى الذي بين أيدينا من نصوص المسند نصٌ ما فيه خبر يشير الى تقديم شخصٍ ما ملكٍ أو كاهنٍ أو أي انسان آخر ذبيحة بشرية الى الآلهة ، كذلك لا نجد فى النصوص الأخرى مثل النصوص الثمودية أو اللحيانية أو الصفوية مثل هذه الاشارات .

وقد عرف شهر « رجب » بكثرة ما كان ينحر فيه من ذبائح للأصنام ، فلا بد أن يكون لذلك أصل وسبب ، كأن يكون هذا الشهر من الأشهر التي كان لها حرمة خاصة في الجاهليـــة القديمة . وشهر رجب هو من الأشهر الحرم المعظمة التي لم يكن يحل فيها القتال[1] . وقد سمي الذبح فى هذا الشهر بـ « الترجيب » ، وقيل للذبائح التي تقدم فيه « العتائر » جمع « عتيرة » . وقد عدت « العتائر » من شمائر الجاهلية . وأطلق بعض علماء اللغة كلمة « العتائر » على ذبح الحيوانات الأليفة ، وأطلق لفظة « النافرة » على ذبح الحيوانات الوحشية[2] . ويلاحظ أن الاسلام قد أطلق على ذبح الضحايا التي تذبح فى الحج « الهدي » ، وكذلك « الشمائر » وقد تكون هاتان الكلمتان من المصطلحات الجاهلية التي أبقاها الاسلام .

وعرفت « العتيرة » بـ « الرجبية » عنـد الجاهليين كذلك ، لأنها كانت تذبح فى شهر رجب ، فنسبوها اليه . وعرفت أيام رجب بـ « أيام الترجيب » . وورد « أيام ترجيب وتمتار » . وقيل للذبائح التي تقدم فيه « النسائك » كذلك[3] .

وأصل « النُسـك » : الدم ، وبهذا المعنى ورد من فعل كذا وكذا فعليه نسك ، أي دم يهريقه بمكة . و « النَسِيكة » : الذبح . و « مَنْسِك » : الموضوع الذي تذبح فيـــه النسيكة ، وهذا هو المعنى القديم الأصلي للـكلمة[4] . وقد صار من معانيها فى العربية الشمالية ،

---

(١) تاج العروس (٢٦٦/١) . (٢) Reste S. 118.

(٣) تاج العروس (٢٦٦/١ وما بعدها) ، اللسان (٣٩٦/١) .

(٤) « بضم وبضمتين وكسفينة أو النسك بالفتح » ، تاج العروس (١٨٧/٧) مادة « نسك » .

العبادة والطاعة [1] . وكل ما يتقرب به الى الله تعالى . لما كان للذبح من شأن فى الديانات القديمة بحيث كان يعد عبادة أســـاسية عندها ، ولذلك قيل لمن انصرف الى التعبد : الناسك وجمعه النساك [2] .

وذبائح الجاهليين هى من الحيوانات المألوفة فى جزيرة العرب مثل الجمال والبقر والأغنام ، تنحر بســـكين من رقبتها . وهناك في ذلك جملة اصطلاحات ، منها : ذبح ، ونحر ، وجزر ، وهدى ، وقرب ، ونسك ، وضحى [3] . ولبعضها كما نرى معان دينية تجمع بين الذبح وبين الغاية التي توخاها صاحب الذبيحة من ذبحها ، وهى التقرب الى الرب .

ومن النذور والقرابين ما يكون حيوانات حيّة ، تسمى كلها أو بعضهـا باسم الأرباب ، فتحبس عليها ، وتكون حرة طليقة لايجوز مسها بسوء . وقد أشـــير فى القرآن الكريم الى « البحيرة » و « السائبة » و « الوصيلة » و « الحام » [4] وللعلماء في هذه المصطلحات كلام . مهما تضارب واختلف ، فإنه يوصلنا الى نتيجة هي أن الجاهليين كانوا يراعون هذه الأمور مراعاة شديدة ، ولهم فيها قواعد وأحكام ترجع الى تقاليد موروثة قديمة ، حافظوا عليها ، وظلوا يحافظون عليها الى أن منعها الإسلام .

فأما البحيرة ، فالناقة أو الشاة تترك فلا ينتفع من لبنها ولا تحمل ولا تركب ، وترعى وترد الماء فلا ترد ، فإذا ماتت حرموا لحمها على النساء وأباحوه على الرجال ، وذلك بعـد أن تنتج خمسة أبطن أو عشرة أو ما بين ذلك [5] . وقيـل أيضاً الناقةُ اذا نتجت خمسة أبطن نظروا فى البطن الخامس فإن كان ذكراً نحروه ، فأكله الرجال والنساء جميعاً ، وان كانت أنثى شقوا أذنها ، فتلك البحيرة ، فلا يجز وبرها ولا يحمل عليها ، وحرم على النساء أن يذقن من لبنها شيئاً وأن ينتفعن بها ، وكان منافعها للرجال دون النساء [6] .

---

(١) تاج العروس (١٨٧/٧) . (٢) اللسان (٣٨٩/١٢) « نسك » .

(٣) Reste, S. 114 (٤) المائدة : الآية ١٠٢ .

(٥) تاج العروس (٢٨/٣) ، اللسان (١٠٦/٥) . (٦) الطبرسي (٢٥١/٢) .

وأما السائبة ، فهي الناقة أو البعير أو الدابة تترك لنذر ، أو بعد بلوغ نتاجها حداً معلوماً ، فلا تركب ولا تحمل عليها ولا تمنع من ماء وكلأ ، وتترك سائبة لا يحل لأحد كائناً من كان مخالفة ذلك [١] .

وأما الوصيلة ، فالناقة التي وصلت بين عشرة أبطن ، أو الشاة التي وصلت سبعة أبطن . وفي رواية : أن الشاة اذا ولدت ستة أبطن نظروا ، فإن كان السابع ذكراً ذبح وأكل منه الرجال والنساء ، وإن كان أنثى تركت في الغنم ، وان كان ذكراً وأنثى قالوا : وصلت أخاها ، ولم يذبح ، وكان لحمه حراماً على النساء . وفي رواية : أن لبن أم الوصيلة حلال على الرجال دون النساء [٢] .

وأما « الحام » ، فالبعير اذا نتج عشرة أبطن من صلبه ، قالوا : قد حمى ظهره ، فلا يركب ولا يحمل عليه ، ولا يمنع من ماء ولا مرعى [٣] .

وتحريم أكل لحوم الحيوانات في مثل هذه الحالات على النساء وتخصيصه بالرجال ، وجوازه في حالات أخرى ، ثم تحريم الانتفاع من لبنها على النساء في بعض الحالات وعلى الرجال والنساء في حالات أخرى إلا الضيوف وعلى جواز ركوبها : كل هذه تشير الى أنها من شريعة قديمة ، وأن الغاية من ذلك اعفاء الحيوان بعد بلوغه سناً معيّنةً من التكاليف الثقيلة بسبب ضعفه وتقدمه في السن ، ولذلك يجعل في حمى الارباب ورعايتها . أما تحريم اللحم في حالات معينة على النساء واباحته في حالات أخرى ، فقد رَجَعَ بعضُ العلماء ذلك الى الطوطمية ، غير أن من العسير قبول هذا التفسير .

وكان من عادة بعض الجاهليين ترك ركوب الحيوان إذا بلغ عدد القطيع مئة عداً ، ويقال لذلك الإخلاق . أما اذا بلغ العدد ألفاً فتفقأ احدى عيني الحيوان الألف ، ويقال لذلك التفقئة أو التعمية [٤] .

---

(١) الكشاف (١/٣٦٨) ، الطبرسي (٢/٢٥١ وما بعدها) ، تاج العروس (١/٣٠٥) .
(٢) تاج العروس (٨/١٥٥) ، الكشاف (١/٣٦٨) .
(٣) الكشاف (١/٣٦٨) ، تاج العروس (١٠/١٠٠) ، اللسان (١٨/٢٢٠) .
(٤) Reste , S. 114.

وقد كان الجزارون المجازون شرعاً يقومون بذبح الذبائح عند العبرانيين ، وهم الذين يقررون صلاح الذبيحة أو عدم موافقتها لأحكام الشرع . أما عند الجاهليين فلا نعرف شيئاً عمن كان يقوم بذبح الضحايا التي تقدم الى الأصنام ، كما أننا لانستطيع أن نتحدث عن الشروط التي كانوا يشترطونها فى الذبيحة ليكون لحمها صالحاً للأكل .

والطيب والبخور من أهم المواد التي كان يتقرب الجاهليون الى آلهتهم باهدائها الى المعابد . ولم تكن هذه عادة خاصة بالجاهليين وحدهم ، بل هي عادة معروفة فى جميع الأديان ، ولا تزال باقية مستعملة . يحرق البخور فى المباخر والمجامر ، لتنبعث روائحه الزكية فى أبهاء المعبد . أما الخلوق وأنواع الطيب ، فتلطخ بها الأصنام وجدران المعبد ، وطالما تقدم المؤمنون الى آلهتهم بمبخرة ليحرق البخور فيها . ومن بين نصوص المسند ، نص كتبه مؤمن اسمه « عبد أصدق » وأبناؤه إلى الإله « ود » ، ذكروا فيه أنهم قدموا اليه مبخرة تعويضاً عن المبخرة التي سرقها اللصوص من معبده [1] . وقد عثر فى اليمن على مباخر كبيرة نحتت من الصخر ، أهديت الى المعابد ، ليحرق فيها البخور [2] .

وبين ما قدم الى الآلهة ، الملابس والأقمشة وأنواع الأطعمة ، حتى اللبن قدم الى الصنم « ودّ » على رواية الأخباريين .

والطريقة العامة فى تقديم النذور والقرابين ، هي طريقة بسيطة ، يقدم صاحب النذر أو القربان ما نذره الى المعبد أو الصنم أو الموضع الذي نذر له ، فيضعه عند الصنم أو المذبح ، أو يلقيه فى « الغبغب » أو الموضع المخصص لهذه الأمور ، أو يطلى به الصنم أو المذبح إن كان طيباً ، أو يلقى به الى البئر أو العين أو الأرض إن كان طعاماً . أما الذبائح ، فتذبح كما قلت على الأنصاب ثم يؤخذ من دم الذبيحة ليطلى به الصنم أو الصنم كله أو بعضه ، ليكون ذلك شاهداً على الوفاء بالعهد . أما بقية الدم ، فيسيل من ثقب يصنع فى النصب الى موضع مسيل الدم .

ونجد فى معابد العبرانيين والفنيقيين والمصريين وغيرهم مواضع خاصة تسمى « المذابح »

---

(1) Glaser, 324, Handbuch, S. 216.

(2) Ency. Religi.., I, P. 352.

« Altar » تبنى فى المعبد لتوضع عندها النذور والقرابين ، والعادة أن يكون المذبح مرتفعاً بعض الارتفاع عن سطح المعبد ، غير أن بعض المذابح قد تكون فى مستوى الأرض ، وبعضها قد تكون أوطأ منها . ويرى بعض العلماء استناداً الى معنى كلمة « مذبح » فى العربية وفى شقيقاتها اللهجات السامية الأخرى ، أن المذبح لم يكن عند الساميين سوى المكان الذي كان الناس ينحرون عليه ذبائحهم للآلهة ، وأن عادة تقديم القرابين المحروقة هي عادة متأخرة دخيلة عند الساميين [1] .

وللعلماء الباحثين فى تأريخ الأديان وتطورها آراء فى « المذبح » ، منهم من يرى أنه الموضع الذي يتصور الناس أن الآلهة أو الأرواح المقدسة حالة فيه ، ولذلك تقدم اليها القرابين ومنها المأكولات لتتناولها ؛ ومنهم من يرى أنها مجرد أنصاب أي « مصبه Massebah » فى العبرانية ، أو أنها بمثابة موائد توضع عليها الأطعمة والأشربة التي تقدم الى الآلهة ، وليست الموضع المقدس الذي يقيم الرب فيه . أما الأرباب والأرواح المقدسة ، فمكانها الأشجار المقدسة أو الأحجار المقدسة أو العيون والآبار ، وأن مجرد إلقاء القرابين أو وضعها عند المذابح أو فوقها لايعني أنها أماكن سكنى الآلهة وأنها مذابح الآلهة [2] .

وقد كان الجاهليون الى ظهور الإسلام يضعون نذورهم وقرابينهم عند الصنم أو يعلقونها عليه ، كما كانوا يعلقون ذلك على الأشجار المقدسة . وقد أشرت الى ذلك فى أثناء كلامي على الأصنام التي تحدث عنها الجاهليون ، حتى نذور وقرابين الأكل كانت تقدم الى الصنم أو الشجرة أو ترمى فى البئر أو العين . ومعنى هذا عدم استخدامهم عادة المذبح ليكون الموضع المعين فى المعبد لوضع النذور والقرابين عليه ، حتى « الغبغب » لايمكن أن يكون مذبحاً بالمعنى المفهوم من المذبح . ولست أستبعد أن يكون الغبغب فى الأصل بئراً مقدسة كان الناس يرمون هداياهم فيها لاعتقادهم بوصولها الى الأرواح المقدسة الساكنة فى البئر ، فجرت العادة على رمي الهدايا فيها الى أيام ظهور الاسلام . وللجاهليين أساطير فى هذا المعنى تفيد أن فى البئر حراساً من العفاريت

(1) Smith, PP. 350, Ency. Religi. I, P. 333.
(2) Ency. Religi. I, P. 334.

يحرسون ما يلقي فيها ، وأنها تؤذي من يتجرأ فيطمع فى سرقة ما يلقى في الغباغب .

وأما في شمال الحجاز ، في « بطرا Petra » فقد عثر على مذبح كبير ، وبجنبه صخرة تهيأ عليها الضحيــة للذبح . ويرى بعض البــاحثين أن أهل العربية الحجرية إنما فعــلوا ذلك بتأثير الأدوميين والشعوب الأخرى التي اتصلوا بها وتأثروا بثقافتها ، وأن معابد العرب الآخرين لم تــكن لها مذابح بالمعنى المفهوم من كلمة « مذبح » ، وأن مذابحهم هي الأنصاب(١) .

---

(١) Ency. Religi. I, P. 352, Curtiss. Bibli. World. XXI. 255 f. Reste. 117.

الفصل السابع

الحج وشعائر دينية أخرى

أقصد بالحج الذهاب الى الأماكن المقدسة فى أزمنة موقوتة ، للتقرب الى الآلهة ، والى صاحب ذلك الموضع المقدس . وتقابل هذه الكلمة « Pilgrimage » فى الانكليزية [1] . والحج بهذا المعنى معروف فى جميع الأديان تقريباً ، وهو من الشعائر الدينية القديمة عند الساميين .

وكلمة « حج » من الكلمات السامية الأصيلة العتيقة ، من أصل « ح ك hg » « ح ج » ، وهي « حك Hagh » فى العبرانية [2] . وقد وردت فى كتابات مختلف الشعوب المنسوبة الى بني سام .

وفى روع الشعوب السامية القديمة أن الأرباب لها بيوت تستقر فيها ، هي الواحات ومواضع المياه فى الغالب في نظر أهل الوبر ، وبعض المواضع الطبيعية عند أهل المدر . ولذلك يرى التعبدون والمتقون شدّ الرحال اليها ، للتبرك بها وللتقرب اليها ، وذلك فى أوقات تحدد وتثبت ، وفى أيام تعين تكون أياماً حرماً لكونها أياماً دينية ينصرف فيها الإنسان الى التفكير في آلهته . ولذلك تعدّ أعياداً ، يعمد فيها الناس ، بعد اقامتهم الشعائر الدينية المفروضة وبعد أدائهم القواعد المرسومة ، الى الفرح والسرور والرقص ، ليدخلوا السرور الى قلوب الأرباب . ففي الحج اذن مناسك وشعائر دينية وعبادة تؤدى ، واجتماع .

---

(١) Ency. Brita., 17, P. 925, Ency. Religi., 10, P. 10.

(٢) تاج العروس (٢/١٦ وما بعدها) ، اللسان (٣/٤٨ وما بعدها) ، Ency. Religi., 10, P. 23.

وتكون هـذه المواضع التي تستقر فيها الآلهة بيوتاً لها ، ولذلك قيل لها فى الأزمنة القديمة « بيوت الآلهة » . وقد بقي هـــذا الاصطلاح حياً حتى الآن ، يطلق على المعابد . فالمعبد هو « بيت الله » فى أغلب لغات العالم المعروفة فى الزمن الحاضر . وهو لذلك موضع مقدس محترم ، لا يجوز انتهاك حرمته ، ولا سيما البيوت الكبرى التي تكون لها حرمة خاصة تميزها عن بيوت الآلهة الأخرى . ولذلك يحج اليها وتقصد من مواضع بعيدة . وقد كانت مكة قبل الإسلام فى جملة هذه الأماكن المقصودة .

وقد ميز الشهر الذي يقع فيه الحج عن الأشهر الأخرى بتسميته بـ « شهر ذي الحجة » . وهذه التسمية المعروفة حتى الآن فى التقويم الهجري ، هي تسمية قديمة ، كانت معروفة فى الجاهلية ، وردت فى نصوص المسند . فبين أسماء الأشهر الواردة فى نصوص المسند اسم شهر يعرف بـ « ذحجتن » أي « ذي الحجة » ، ويدل ذلك على أنه الشهر الذي يحج فيه . وقد وردت كلمة « حج » فى نصوص المسند كذلك [1] .

وقد ذكر « أفيفانيوس Epiphanius » أن من أسماء الأشهر عند العرب شهراً اسمه « حج البيت » . أراد به شهر « ذي الحجة » ولا شك . والعرب الذين قصدهم هذا الكاتب هم عرب « الكورة العربية » ، ومعنى هـذا أن العرب الشماليين كان لهم شهر يسمى بـ « ذي الحجة » كذلك [2] .

ويقع شهر الحج « ذي الحجـة » — على روايـة « افيفانيوس Epiphanius » — فى « تشرين الثاني » [3] ، وأشار « بروكوبيوس » الى أن العرب كانوا قد جعلوا شهرين من السنة حرماً لآلهتهم لا يغزون فيها ولا يهاجم بعضهم بعضاً [4] ، كما أشار « فوتيوس » الى الأشهر الحرم عند العرب [5] ، وعنوا بذلك هذه الأشهر الحرم . والذي يظهر من أقوال هؤلاء

---

(١) اللسان (٣/٥٠) ، D. Nielsen, Mondreligion, S. 86, Glaser 1054, Wiener Mus. No. 7.

(٢) Reste, S. 85, Ency. Religi. , 10, P. 10.

(٣) Reste, S. 100, Epiphanius, Haer. , 51, 24.

(٤) Procopius, II, 16.

(٥) Reste, 101.

الـكتبة أنها كانت ثابتة ، أي أنها أشهر شمسية ، غير أننا لا نستطيع الجزم بذلك ، إذ يجوز أن يكون ما بلغهم لا يستند الى رأي صحيح .

والشهران اللذان أشار اليهما « بروكوبيوس » ، هما شهر ذو القعدة وذو الحجة في نظر « ونكلر » ، وهما يمثلان - في رأيه - « جولاي » و « أغسطس » أي تموز وآب [1] .

ويرى « ونكلر » أيضاً أن ما ذكره « فوتيوس » من احتفال العرب مرتين في السنة بالحج الى معبدهم المقدس : مرة في وسط الربيع عند أقتران الشمس ببرج الثور ، وذلك لمدة شهر واحد ، ومرة أخرى في الصيف وذلك لمدة شهرين ، إنما يراد بذلك شهر رمضان ، لاقتران الشمس فيه ببرج الثور . وأما الشهران الآخران فهما ذو القعدة وذو الحجة [2] .

ويتبين لنا من روايات الأخباريين ومن شروح بعض المفسرين على الآية : « الحج أشهر معلومات » [3] أن أشهر الحج هي : شوّال ، وذو القعدة ، وعشر من ذي الحجة [4] . ولما كان هذا الادّعاء صحيحاً ، وجب إدخال شوّال في جملة الأشهر الأربعة الحرم ، لوقوع الحجّ فيه . ويكون ترتيب تلك الأشهر على هذه الصورة إذن : شوّال ، ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، أي أن تلك الأشهر هي الأشهر الثلاثة الأخيرة من السنة يليها الشهر الأول من السنة . وفي خلال هذه المدة المؤلفة من أربعة أشهر تكون أيّام الحج .

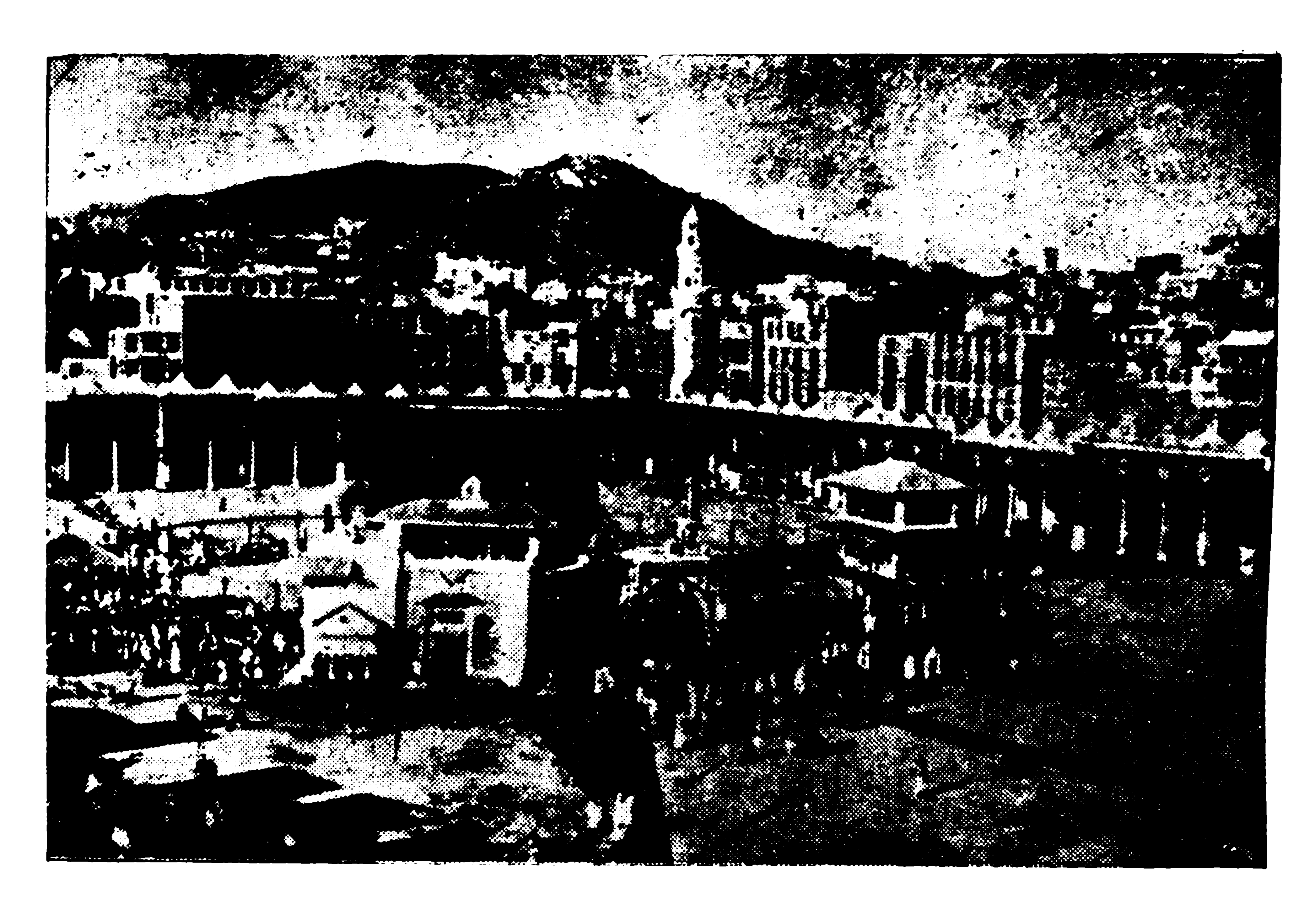
ان وجود هذا الشهر في التقويم الجاهلي يشير الى أن الجاهليين كانوا يحجون فيه الى « البيت » ، فإلى أي بيت كانوا يحجون ؟ وهل كانوا يحجون جميعاً الى بيت واحد هو مكة ، أو الى جملة بيوت كانت منتشرة في أنحاء جزيرة العرب ، كل قبيلة أو مجموعة قبائل تحج الى البيت الذي يخصها ويقع على مقربة منها ؟ ان نصوص المسند لم تشر الى الحج ، ولا الى المواضع التي كان يحج اليها أهل العربيـة الجنوبية ، وإن ورد فيها اسـم الشهر وكلمة « حج » . وإذن فليس في

---

(١) Winckler, Alt. Forsch., II Reihe, I. Band, S. 336.

(٢) Wincker, Alt. Forsch., II. Reihe, I Band, S. 336.

(٣) البقرة ٢ م ١٩٧ .   (٤) تاج العروس (٦/٢٨٢) .



الكعبة المشرّفة

من كتاب :

Histoire Generale des Religions, tome, IV, P. 332.

استطاعتنا تشخيص موضع أو مواضع نقول إن أولئك العرب كانوا يحجون اليها . وأما النصوص « الكلاسيكية » من يونانية ولاطينية وسريانية ، فقد أشارت الى وجود الحج عند العرب ، والى ذهاب القبائل العربية الشمالية القاطنة فى « الكورة العربية » أو النازلة فى البوادي اللاصقة لإقليم الشام وفلسطين الى الحج لبيوت كانت تعظمها وتقدسها ، مثل معبد « ذي الشرى » عند نبط « بطرا Petra » ، غير أنها لم تشر الى وجود « بيت » واحد كان العرب يحجون اليه جميعاً . ولذلك ذهب « ولهوزن » وجماعة آخرون من المستشرقين الى تعدد بيوت الأرباب التي كان يحج اليها الجاهليون فى شهر « ذي الحجة » والى عدم حصر الحج عند الجاهليين بموضع واحد[1] .

والحج الى مكة والى البيوت المقدسة الأخرى ، مثل بيت اللات فى الطائف وبيت العزّى على مقربة من عرفات وبيت مناة وبيت ذي الخلصة وبيت نجران وبقية البيوت الجاهلية المعظمة ، إنما هو أعياد يجتمع الناس فيها بأبهى ما عندهم من حلل ، وأجمل ما يملكون من ملابس للاحتفال معاً بتلك الأيام . وهم بذلك يدخلون السرور على أنفسهم وعلى أنفس آلهتهم بحسب اعتقادهم ، وتقترن هذه الاحتفالات بذبح الحيوانات ، كل يذبح على قدر طاقته ومكانته ، فيأكل منها فى ذلك اليوم من لم يتمكن من الحصول على اللحم فى أثناء السنة لفقره ، فهي أيام يجد فيها الفقراء لذّة ومتعة وعبادة .

كان من يقصد العزّى يذبح عند شجرة هناك ثم يدعون ، وكان من يقصد مناة يهدى لها كما كان غيرهم يهدى للكعبة ويطوفون بها ثم ينحرون عندها ، وكان عبدة ذي الخلصة فى أسفل مكة يذبحون عنده كذلك[2] . وكذلك كانت بقية القبائل تطوف فى أعيادها حول أصنامها ، وتهدى اليها ، ثم تنحر عندها عند اكمالها هذه الشعائر دلالة على اكمالها شعائر الحج الى هذه المواضع وانتهائها منها على أحسن وجه .

وليست لدينا أخبار مدونة عن مناسك الحج وشعائره عند الجاهليين ، لعدم ورود شيء من ذلك فى النصوص الواردة الينا ، ما خلا الحج الى « بيت الله الحرام » بمكة ، حيث حفظت الموارد

---

(١) Reste, S. 84. f.

(٢) بلوغ الأرب (١/٣٤٤ وما بعدها) .

الاسلامية لنا شيئاً من ذلك ، بسبب فرض الحج فى الاسلام ، واقرار الاسلام لبعض شمائره التي لم تتعارض مع مبادئه . ولو لا ذلك لما عرفنا شيئاً عن مكة وعن الحج عند الجاهليين .

أما « مكة » ، فقد تحدثت عنها فى مواضع من هـذا الـكتاب ، وأشرت الى أن البيت كان وكأنه مخزن للأصنام كان غاصاً بها ، عند ظهور الاسلام ، فيه نحو من « ٣٦٠ » صنما على ما ورد في الأخبار .

وهناك مواضع أخرى غير متصلة بالبيت ، كانت مقدسة وداخلة فى شمائر الحج ، منها : عرفة والصفا ، والمروة ، ومواضع أخرى كان يقصدها الجاهليون لقدسـيتها أو لوجود صنم بهـا ، ثم حرمها الاسلام ، فنسيت وأهملت فذهبت معالمها مع ما ذهب من معالم الجاهليين .

و « البيت » بناء مكعب ، ولذلك قيل له « الـكعبة » . لم يكن له سـقف ، وأول تسقيفه كان فى التعمير الذي أجرى عليه فى النصف الثاني من القرن السادس للميلاد ، أي أيام كان الرسول صغيراً . وقد أقيم السقف على سـتة أعمدة من الخشب ، وزعت في صفين . أما كسوة البيت ، فكانت كما قلت قبل ميلاد الرسول ، ويرجعها الأخباريون الى التبابعـة . وأما « الحجر الأسود » ، فكان موجوداً قبل أيام الرسـول ، ويظهر أنه كان حجراً مقدسـاً عند الجاهليين ، بدليل تنازعهم وتخاصمهم فيما بينهم على شرف وضعه فى محله . وقد كان الجاهليون يلمسـونه للتبرك به ، وهو مبني فى جدار الـكعبة ، فيكون اللمس بالطبع للجانب البارز منه . وبين موضع « الحجر الأسود » وباب البيت يكون « الملتزم » ، وفى الناحيـة الشمالية الغربية « الحجر » أو « الحطيم » [1] . وكانت الجاهليـة تتحالف وتحلف عنـده [2] . ويقال للجهـة التي فيهـا

---

(١) « والحطيم كأمير ، حجر الـكعبة المخرج منها . وفي المحكم مما يلي الميزاب . وفي التهذيب : الذي فيه الميزاب . سمي به لأن البيت رفع وترك هو محطوماً . وقيل لأن العرب كانت تطرح فيه ما طافت به من الثياب فيبقى حتى يحطم بطول الزمان ، فيكون فعيلا بمعنى فاعل . أو جداره . وفي الصحاح عن ابن عباس : الحطيم الجدار يعني جدار حجر الـكعبة . والحطيم ما بين الركن وزمزم والمقام . وزاد بعضهم الحجر أو من المقام الى الباب أو ما بين الركن الأسود الى البـاب الى المقام حيث يتحطم الناس للدعاء . أي يزدحمون فيحطم بعضهم بعضاً . » ، تاج العروس (٢٥١/٨) ، اللسان (٢٩/١٥) ، « حطم » .

(٢) تاج العروس (٢٥١/٨) .

« الحجر الأسود » « الركن » .

ويتبين من الروايات المذكورة عن بناء الكعبة وعن اختلاف الجاهليين وتشاحنهم وتنافسهم فيما بينهم على شرف وضع « الحجر الأسود » في مكانه أنه كان لهذا الحجر أهمية خاصة في نظرهم ، وأنه كان أقدس شيء عندهم . وإلا لما اختلفوا هذا الاختلاف على وضعه ، حتى ليمكن أن يقال إنه كان فوق أصنام الكعبة منزلة ، بدليل عدم ورود اشارة ما الى وقوع اختلاف بشأن اعادة صنم من تلك الأصنام الى مواضعها . ولو كانت الأصنام أقدس منه ، لكان الاختلاف على شرف وضع تلك الأصنام لا الحجر الأسود بالطبع . وهذا التقديس الزائد يحملنا على التفكير في أسبابه وفي الميزة التي ميزت هذا الحجر على الأصنام وهي في طبيعتها حجارة مثله . لقد ذهب « ولهوزن » الى أن قدسية البيت عند أهل الجاهلية ، لم تكن بسبب الأصنام التي فيه ، بل كانت بسبب هذا الحجر . لقد كان هذا الحجر مقدساً في ذاته ، وهو الذي جلب القدسية للبيت ، فصار البيت نفسه مقدساً ، مقدساً في حدّ ذاته ، بحجره هذا الذي هو فيه [1] ولعله شهاب « نيزك » ، أو جزء من معبود مقدس قديم .

وقد ذهب بعض المستشرقين الى أن البيت لم يكن إلا بمثابة إطار للحجر الأسود الذي كان من أهم معبودات قريش ، لأنه يمثل بقايا حجر قديم كان مقدساً عند قدماء الجاهليين ، غير أنه لم يكن معبود قريش الوحيد [2] .

وقد كانت الجاهلية تتحالف عند المُلْتَزَمْ بالأيمان ، وتدعوا على الظالم ، وتعقد الحلف [3] .

وفي البيت « هُبل » وبقية الأصنام ، وعند هبل « الغبغب » الموضع الذي ترمى فيه المطايا والنذور ، وعند هبل يستقسم بالأزلام . فالبيت هو « بانثيون » قريش والقبائل المحيطة بمكة ومن يقصدها من الناس للحج ، فيه وحوله وضعت تلك الأعداد الغفيرة من الأصنام التي قدرت بنحو من « ٣٦٠ » صنما ونصباً ، من بينها أصنام مصنوعة من المعدن ومن الخزف

(١) Reste , S. 74.
(٢) المشرق : (١٩٤١) تموز ـ ايلول « ص ٢٤٧ » .
(٣) البلدان (١٤٦/٨) « الملتزم » .

والحجارة والخشب .

وفى رواية أهل الأخبار عن عدد الأصنام التي كانت بالبيت مبالغة ولا شك . قد تكون مقصودة . اذ لا يعقل تكديس هذا العدد العديد من الأصنام فى بيت لا يسع فناؤه تلك الأصنام على نحو ما يبدو من وصف الأخباريين له ؛ ثم أن ما ذكره أهل الأخبار من أسماء الأصنام التي عرفوها ، وهي فى مواضع متعددة من الحجاز ونجد وبقية جزيرة العرب ، هو دون هذا العدد بكثير ، وأكثره فى خارج مكة . وله أيام حج وزيارات . ولو كان عدد أصنام البيت على النحو المذكور ، لما اكتفى القائلون بهذا العدد بذكر اسم عدد معين من الأصنام أشرت اليها قالوا إنها كانت بجوف الكعبة ، يتعبد لها الناس من قريش ومن غير قريش [١] .

وفى الحرم بئر « زمزم » ، وهناك مقام ابراهيم ، وبين زمزم ومقام ابراهيم كان موضع الذبح ، ذبح القرابين على ما يظن . ويرى « ولهوزن » احتمال كون موضع المقام ، هو المكان الذي كان الجاهليون يذبحون فيه [٢] . وبين الصفا والمروة يكون « السعى » فى الاسلام ، ولذلك يقال للمسافة بين المكانين « المسعى » [٣] . ويظهر أن الصفا والمروة كانا موضعي صنمين . وفى رواية أن إسافاً كان بالصفا . وأما نائلة ، فكان بالمروة [٤] . ولا بد أن يكون لاقتران الاسمين دائماً سبب ، و « المسعى » هو الرابط المقدس بين هذين الموضعين المقدسين عند الجاهليين .

لقد أدخلت على البيت اصلاحات وترميمات عديدة قبل الاسلام وبعدها . وقد رأينا أن من جملة الاصلاحات التي أجريت فى الجاهلية الاصلاح الذي تم فى أيام حداثة الرسول ، غير أن هذه الاصلاحات المتوالية لم تغير شيئاً من أصل مخطط البيت على ما يفهم من روايات الأخباريين ، فبقي الحرم محافظاً على أصله الهندسي ، وعلى شكله الذي كان عليه قبل الاسلام . نعم ، لقد توسع في الحرم ، وزينت الجدر ، وبلطت الأرض وأدخلت فى البناء مواد لم تكن من قبل ، غير أن ذلك لم يتغير شيئاً من الوضع العام للبيت .

---

(١) المشرق (١٩٤١) (٢٥٢) ، Snouck Hurgnouje , Mekka , I , 22.

(٢) Reste , S. 76. (٣) البلدان (٣٦٥/٥ ، ٣٨/٨) .

(٤) Reste , S. 77.

ويعرف مجمع الحجاج بـ « عرفة » بـ « يوم عرفة » وبـ « موقف عرفة » ، وعرفة على أميال من شرق مكة [1]. ومن عرفة تكون « الإجازة » للإفاضة الى « المزدلفة » ، ومن المزدلفة الى « منى » . وقد كان الجاهليون يفيضون فى عرفة عند غروب الشمس ، وأما فى « المزدلفة » فعند شروقها . وكان الذي يتولى الإجازة رجلاً من تميم يقال له صوفة ، ثم إنتقلت الى صفوان من تميم كذلك [2]. و « يوم عرفة » هو فى التاسع من ذي الحجة في الاسلام [3].

ويذكر الأخباريون أن أبا سيارة عميلة بن خالد العدواني كان يركب حماراً أسودَ ، يجيز الناس عليه من المزدلفة الى منى أربعين سنة . وقد عدّوه من خطباء العرب المذكورين ، وفيه يقول الشاعر :

خلّوا الطريق عن أبي سيّارهْ	وعن مواليه بني فَزارهْ
حتى يُجيز سالماً حماره	مستقبل القبلة يدعو جاره

فقد أجار الله من أجاره [4]

ويذكرون أيضاً أن أبا سيارة ومن كان يتولى إجازة الإفاضة للناس كان ينظر الى أعالي جبل « ثبير » ، فإذا شاهد عليها أشعة الشمس الأولى نادى : أشرق ثبير ، كيما نغير ! ثم يجيز لهم

---

(١) البلدان (٦/١٤٩ وما بعدها) .

(٢) ابن هشام (٧٧ ، ٨٢) ، قال أوس بن مغراء :

ولا يريموں للتعريف موضعهم	حتى يقال أجيزوا آل صفوانا

اللسان (٧/١٩١) « جوز » ، .Reste , S. 81

(٣) تاج العروس (٦/١٩٣) .

(٤) بلوغ الأرب (٢/١٧٦) ، اللسان (٧/١٩١) ، الروض الانف (١/٨٦) ، « اصح من غير أبي سيارة . هو رجل من بني عدوان اسمه عميلة بن خالد بن الأعزل . وكان له حمار أسود اجاز الناس عليه من المزدلفة الى منى اربعين سنة . وكان يقول اشرق ثبير كيما نغير . ويقول :

لا هم إني بائع بياعة	إن كان أثم فعلى قضاعة
لا هم مالي في الحمار الأسود	أصبحت بين العالمين أحسد
هلا يكاد ذو البعير الجلعد	فقى أبا سيارة المحسد
من شر كل حاسد إذا حسد	ومن أداة النافثات في العقد

اللهم حبب بين نسائنا ، وبغض بين رعائنا ، واجعل المال في سمحائنا » ، الميداني : المثل « أصح من غير أبي سيارة » ، و (١/٤٢١ وما بعدها) من طبعة القاهرة سنة ١٣٥٢ هـ . ولا حاجة بنا للاشارة الى أثر الوضع في هذه الرواية . ويظهر أن واضعها لم يكن ذكياً موفقاً في صنعة التلفيق .

بالإفاضة [١] . ويتبين من الروايات الواردة عن هذا الجبل أنه كان من المواضع المقدسة عند الجاهليين ، أو أن على قمته صنماً أو بيتاً كانوا يصعدون اليه لزيارته وللتبرك به [٢] .

ويفهم من رواية أن كلمة « صوفة » لم تكن اسم علم ، وإنما هي لفظة أطلقت على من كان يتولى البيت من غير أهله أو قام بشيء من خدمة البيت أو بشيء من أمر المناسك [٣] .

و « العمرة » هي بمثابة « الحج الأصغر » في الاسلام ، وكان أهل الجاهلية يقومون بأدائها في شهر « رجب » ، وشهر رجب من الأشهر الحرم في الجاهلية . وللعمرة في الاسلام شعائر ومناسك ، وتكون بالطواف بالبيت وبالسعي بين الصفا والمروة . ولا بد أن يكون لها عند الجاهليين شعائر ومناسك . وهي في الاسلام فردية اختيارية ، وهي تختلف بذلك عن الحج التي هو فرض عين على كل مسلم مستطيع ، وجماعي ، أي أن المشتركين فيه يؤدّونه جماعة[٤] . أما بالنسبة الى الجاهليين ، فيظهر من ذكر العمرة في القرآن الكريم أنهم كانوا يؤدونها كما كانوا يؤدون الحج ، ولوقوعها في شهر رجب ، وهو شهر كان الجاهليون يذبحون العتائر فيه ، لعلنا لا نخطيء إذا قلنا إنهم كانوا يذبحون ذبائحهم في العمرة ، حينما يأتون أصنامهم فيطوفون حولها ، أما في الإسلام ، فالعمرة هي دون الحج . وإذ كانت في شهر رجب في الجاهلية ، كانت حجاً خاصاً مستقلاً عن الحج الآخر الذي يقع في شهر ذي الحجة . حرص الجاهليون على ألا يوافق موعدها موعد مواسم الحج ، لِما كان لها من أهمية عظيمة عندهم قد تزيد على الطواف المألوف في شهر الحج [٥] .

والفرق بين العمرة والحج في الاسلام ، أن العمرة تكون للانسان في السنة كلها ، والحج في وقت واحد في السنة . وتمام العمرة أن يُطافَ بالبيت ، ويسعى بين الصفا والمروة ، والحج

---

(١) البلدان (٣/٦) « ثبير » ، البكري (١/٣٣٥) « ثبير » ، (طبعة السقا) »

(٢) المشرق : السنة التاسعة والثلاثون (١٩٤١) (ص ٢٥٩) .

(٣) الروض الأنف (١/٨٥) .

(٤) Shorter Ency. OF Islam , P. 604. FF.

(٥) Reste , S. 84. المشرق : الجزء ٣٩ (١٩٤١) (ص ٢٥٠) .



موقف عرفـــة

من كتاب :

Histoire Generale des Religions, tome, IV, P. 360.

لايكون إلاّ مع الوقوف بعرفة يوم عرفة [1] .

والطواف حول الصنم أوالموضع المقدس ، هومن أهم الطقوس والعبادات عند الجاهليين . وقد ذكر « نيلوس Nilus » أن الأعراب كانوا يطوفون حول الذبيحة التي يقدمونها قرباناً للآلهة [2] . ويشترك في الطواف الرجال والنساء . وليس للطواف موسم معين ؛ لأنه عبادة دائمة ، لذلك يكون فى كل وقت يكون في الليل كما يكون فى النهار . وقد كان أهل مكة والقبائل المجاورة لهـا يطوفون بالبيت ، أي بالكعبة ، أيّ وقت شاؤوا ، كما كان فى وسعهم الطواف فى موسم الحج مع الحجاج .

وقد ذكر الأخباريون أن أهل الجاهلية كانوا يطوفون حول الرجمات ، وهى حجارة تجمع فتكون على شبه بيت مرتفع كالمنارة ، ويقال لها الرَّجمة [3] . وكان الجاهليون يطوفون حول الأصنام والأنصاب كذلك ، وعبادة الأحجار عندهم عبادة شائعة ، فالطواف حولها من العبادة عندهم . وكذلك كانوا يطوفون حول الرجام ، أي الأحجار الموضوعة على القبور .

وليس الطواف بالبيت من الأمور الدينية التي انفرد بها الجاهليون ، بل هو معروف عند غيرهم من الشعوب ، كقدماء الفرس والهنود والبوذيين والرومان ، فأقره الإسلام . ونجد فى « المزامير » : « اغسل يدي فى النقاوة ، فأطوف بمذبحك يارب » [4] ، وهذا النص صريح الدلالة على وجود الطواف عند العبرانيين . ولم يكن طواف أهل الجاهلية مقصوراً على البيت بمكة ، بل كان يتناول بيوتاً أخرى من بيوت العبادة عندهم ، كما كان يشمل الطواف حول الصنم أو الأصنام وحول الأحجار المقدسة والقبور . وللطواف كلمة أخرى هي « الدوار » من « دار » حول موضع من المواضع ، ونجد هذا المعنى فى شعر الشاعرين الجاهليين : امرئ القيس ، وعنترة

---

(١) تاج العروس (٤٢٢/٣ وما بعدها) « عمر » ، اللسان (٢٨٢/٦) .

(٢) Reste , S. 108.

(٣) « كما طاف بالرجة المرتجم » ، اللسان (١١٧/١٥ وما بعدها) ، تاج العروس (٣٠٤/٨ وما بعدها) .

(٤) المزامير : الاصحاح السادس والعشرون ، الآية السادسة .

ابن شداد العبسي[1] .

وعدة طواف الجاهليين بالبيت سبعة أشواط ، والأخباريون يذكرون أن الطائفين به كانوا على صنفين : صنف يطوف عرياناً ، وصنف يطوف فى ثيابه . ويعرف من يطوف بالبيت عرياناً بـ « الحِلة » . أما الذين يطوفون بثيابهم ، فيعرفون بـ « الحُمْس » ، ويقال للواحد منهم « أحمس » ، سموا حمساً — على تفسير أهل اللغة — لتشددهم فى دينهم فالأحمس هو المتشدد فى دينه . وقد كان فى وسع من ليس من الحمس الطواف بثياب يأخذها من الحمس مثلاً اعارة أو كراء ، أو الطواف بثيابه ، غير أن عليه فى هذه الحالة طرح ثيابه بعد اكماله الطواف حول البيت ، اذ لا يجوز له استعمالها مرة ثانية ، فإذا ألقيت لا يمسها أحد ، ولا يحركها حتى تبلى من وطء الأقدام ومن الشمس والرياح . ويقال لهذه الثياب التي تطرح بعد الطواف « اللقى »[2] . وفى رواية أن من يطوف من « الحلة » بثيابه يضرب وتنتزع منه ثيابه[3] . فجعلت هذه الرواية خلع الثياب واجب على الحلة محتم عليهم ، لا يجوز مخالفته ، وألا تعرض المخالف للعقاب .

وتخضع النساء لهذه القاعدة أيضاً ، فعلى المرأة كما على الرجل أن تقف على باب المسجد ، فتقول : من يعير مصونا ؟ من يعير ثوباً ؟ من يعيرني تطوافاً ؟ فإن أعارها أحد ثوباً أو كراه لها طافت به ، وإلاّ طافت عريانة كما يطوف الرجال على حدّ زعم الروايات . لايستر عورتها لباس أو قماش ، بل كانت تضع إحدى يديها على قبلها واليد الأخرى على دبرها وتطوف حول البيت على هذا النحو . وهم يروون فى ذلك بيتاً ينسبونه لامرأة جميلة طافت بالبيت عريانة :

---

(١) Shorter Ency . of Islam . P. 585.

(٢) وفي « اللقى » قول ورقة بن نوفل أو غيره :

كفى حزنا كري عليه ، كأنه ... لقى بين أيدي الطائفين حريم

الأزرقي (١/١١٢ ، ١١٤) ، « أصل اللقى أنهم كانوا اذا طافوا خلعوا ثيابهم وقالوا لا نطوف في ثياب عصينا الله فيها ، فيلقونها عنهم ، ويسمون ذلك الثوب لقى ، فاذا قضوا نسكهم لم يأخذوها وتركوها بحالها ملقاة ... أبو الهيثم : اللقى ثوب المحرم يلقيه اذا طاف بالبيت في الجاهلية وجمعه ألقاء » ، اللسان (٢٠/١٢٢) ، النهاية في غريب الحديث (٤/٢٩) .

(٣) الكشاف (٢/٦٠) ، الأزرقي (١/١١٢ ، ١١٤) ،

اليوم يبدو بعضُـهُ أو كلُـهُ   وما بدا منه فلا أحلّـهُ[1]

وشاعت بعض الروايات أن تخفف من وقع طواف النساء على هـذه الصورة في النفوس ، فذكرت أن بعض النساء كانت تتخذ سيوراً فتعلقها في حقوتها تستتر بها [2] ، وذكرت روايات أخرى أنهن كنّ يطفن ليلاً ، وبذلك يتخلصن من وقوع سترهن في أعين الرجال ، لأن طواف الرجال في النهار[3] .

والتفسير الذي ذكره الأخباريون لطواف العري ، هو رغبة الطائف حول البيت أن يكون نقياً متحرراً عن ذنوبه وآثامه بعيداً عن الادران ، فكانوا يقولون « لا نطوف في الثياب التي قارفنا فيها الذنوب » « ولا نعبد الله في ثياب أذنبنا فيها » ، « ولا نطوف في ثياب عصينا الله فيها »[4] ولهـذا كانوا يستأجرون ثياب الحمس ، والحمس متشددون في دينهم أتقيـاء زهّاد ، فثيابهم التي يؤجرونها أو يعيرونها للحلة تكون نظيفة كنظافة أهلها ، بعيدة عن الإثم والعدوان بعد أصحابها عن هذه المعايب والنواقص . فثياب الحمس اذن هي الثياب الوحيدة الصالحة للطواف . واذا كان ذلك كذلك ، كان طواف العري ، طواف دوافعه فقر الطائف وعدم تمـكنه من كراء ثوب من الأحمسي يطوف به ، وعدم قدرته على طرح ثوبه « لقى » ، إذ لاثوب له غيره . فلا يكون أمامه غير الطواف عرياناً حول البيت . وهناك تعليل آخر ، يعزو العري الى تفاؤل القوم وذلك بتعريهم من الذنوب ، كما تعروا من الثياب[5] .

ويذكر بعض أهل الأخبار أن طواف الطائف عرياناً يكون للمرة الأولى ، فإذا عاد فطـاف بعد ذلك ، لبس ملابسه ، وطاف بملابسه كالحمس . والواقع أن روايات الأخباريين عن الطواف قلقة متضاربة . وقد ورد أكثرها شرحاً وتفسيراً للآية : « يابني آدم خذوا زينتكم عنـد كل

---

(١) الأزرقي (١/١١٥ ، ١١٧) ، اللسان (١١/١٢٩) « طوف » .

(٢) الأزرقي (١/١١٧) .

(٣) الأزرقي (١/١١٧) ، الطبرسي (٣/٤١٤) .

(٤) الأزرقي (١/١١٧) ، « كانوا اذا طافوا خلعوا ثيابهم وقالوا لا نطوف في ثياب عصينا الله فيها ، فيلقونها عنهم ، ويسمون ذلك الثوب اللقى » ، اللسان (٢٠/١٢٢) ، الـكشاف (٢/٦٠) .

(٥) الـكشاف (٢/٦٠) .

مسجد ، وكلوا ، وأشربوا ، ولا تسرفوا ؛ إنه لايحب المسرفين »[1] . ويدل نقد هذه الروايات على أنها ترجع الى موارد رواها نفر معدودون ، ذكروها شرحاً لهذه الآية ، ولذلك يجب أخذها بحذر . فليس فى هذه الآية ما يفيد طواف الناس عراة ، إنما فيها حث لمن يقصد المساجد على التجمل والتزين عند دخول المساجد ، فهي تنهى عن القذارة والاتساخ لا غير .

والذي يفهم من نقد هذه الروايات جميعها أن حكمة أهل الجاهلية من الطواف على هذا الشكل ، هي اعتقادهم أن طوافهم بملابسهم طواف غير صحيح ؛ لأن ملابسهم شاركتهم فى آثامهم ، فهي ملوثة نجسة ، ولذلك يهابون من لبسها ، فيخلعونها حول المسجد من الخارج ويدخلون عراة ، فإذا أتموا طوافهم تركوها فى موضعها ، ولبسوا ملابس أخرى جديدة . فالملابس القديمة ملوثة بالأدران ، ولعل هذا هو الذي منع الناس الآخرين من لمس تلك الملابس والاستفادة منها ، فتركوها لذلك للأرض وللشمس والرياح تعبث بها الى أن تتمزق وتهرى[2] .

ويرى « روبرتسن سمث » أن الذي أوحى الى الجاهليين وجوب طرح ملابس الحلة اذا أحرم فيها ، اعتقادهم بتقدس تلك الملابس فى أثناء الإحرام مما يجعلها فى حكم « التابو Taboo » عند الأقوام البدائية ، ولذلك لا يجوز استعمالها مرة أخرى ، وهم أنفسهم قوم غير مقدسين[3] .

وقد وصفت بعض الروايات طواف العريان فقالت : « يبدأ بإساف فيستلمه ، ثم يستلم الركن الأسود ، ثم يأخذ عن يمينه ويطوف ويجعل الكعبة عن يمينه . فاذا ختم طوافه سبعاً ، استلم الركن ثم أستلم نائلة فيختم بها طوافه ، ثم يخرج فيجد ثيابه كما تركها لم تمس ، فيأخذها فيلبسها ولا يعود الى الطواف بعد ذلك عرياناً »[4] هذا هو طواف أهل الجاهلية قبل الاسلام على رواية أهل الأخبار .

وقد منع الاسلام طواف « العريّ » في أي وقت كان ، وحتّم على الجميع قريش وغيرهم لبس « الإحرام » . وأغلب ظني أن الكلمة من الكلمات الجاهلية القديمة التي كانت مستعملة

---

(١) الأعراف سورة ٧ الآية ٣١ ، تفسير الطبري (٨/١٠٤ وما بعدها) .

(٢) Robertson Smith , P. 751. (٣) Robertson, P. 451.

(٤) الأزرقي (١/١١٤) .

قبيل الإسلام ، وقد خصصها الإسلام بهذا النوع من اللباس الذي حتّم على الحجاج استعماله في الحج .

وعلى نقيض « الحلة » يكون « الحمس » ، وهم قريش ومن ولدت قريش وكنانة وجديلة قيس على رواية[1] . تضاف اليهم خزاعة والأوس والخزرج وجُشَم وبنو ربيعة بن عامر بن صعصعة وأزد شَنُوءة وجذم وزبيد وبنو ذكوان من بني سُلَيْم وعمرو اللات وثقيف وغطفان والغوث وعَدْوان وعلاف وقضاعة على رواية للأزرقي[2] . وتفسير الكلمة في رأي علماء اللغة التشديد في الدين[3] ، سموا حمساً لأنهم كانوا يتشددون في دينهم ، فكانوا اذا زوّجوا امرأة منهم لغريب عنهم ، أي لمن كان من الحلة اشترطوا عليه أن كل من ولدت له ، فهو أحمسي على دينهم . وكانوا اذا أحرموا لا يأتقطون الأقط ، ولا يأكلون السمن ولا يسلؤونه ولا يمخضون اللبن ، ولا يأكلون الزبد ، ولا يلبسون الوبر ولا الشعر ولا يستظلون به ما داموا حرماً ، ولا يغزلون الوبر ولا الشعر ولا ينسجونه ، وانما يستظلون بالادم ، ولا يأكلون شيئاً من نبات الحرم . وكانوا يعظمون الأشهر الحرم ولا يخفرون فيها الذمة ولا يظلمون فيها ، ويطوفون بالبيت وعليهم ثيابهم . وكانوا اذا أحرم الرجل منهم في الجاهلية وأول الاسلام ، فإن كان من أهل المدر نقب نقباً في ظهر بيته فمنه يدخل ومنه يخرج ولا يدخل من بابه . وكانوا يقولون : لا تعظموا شيئاً من الحل ، ولا تجاوزوا الحرم في الحجّ فلا يهاب الناس حرمكم ، ويرون ما تعظمون من الحل كالحرم ، فقصروا عن مناسك الحج والموقف من عرفة وهو من الحل ، فلم يكونوا يقفون به ولا يفيضون منه ، وجعلوا موقفهم في طرف الحرم من « نمرة » : يقفون به عشية عرفة ، ويظلون به يوم عرفة في الأراك من نمرة ، ويفيضون منه الى المزدلفة . فإذا عممت الشمس رؤوس الجبال دفعوا . وكانوا يقولون : نحن أهل الحرم ، لا نخرج من الحرم ، ونحن الحمس . وكانوا إذا أرادوا بعض أطعمتهم ومتاعهم ، تسوروا من ظهر بيوتهم

---

(١) النهاية في غريب الحديث (٢٩٣/١) ، تاج العروس (١٣٢/٤ وما بعدها) ، اللسان (٢٥٧/٧ وما بعدها) . المحبر (ص ١٧٨ وما بعدها) .

(٢) الأزرقي (١١٥/١) .

(٣) الأزرقي (١١٦/١) ، النهاية (٢٩٣/١) ، الاشتقاق (ص ١٥٣) ، Caetani, Annali, I, S S, 121, 122.

وأدبارها حتى يظهروا على السطوح ، ثم ينزلون في حجرتهم ، ويحرمون أن يمروا تحت عتبة الباب [1] .

هذه هي مبادىء الحمس على نحو ما دونها الأخباريون ، تمثل رأي أصحابها في أمور الدين . وأصحابها — كما يتبين من أقوال الرواة — هم مَنْ دان بهذه العقيدة وعمل بها وان كان من غير قريش ، فهي في الواقع مذهبٌ ديني له رأي في الدين ، يمثل التشدد والتصلب والخشونة . وأهل الأخبار وان جعلوا ما ذكروه خاصاً بأيام الحج ، غير أن هذا التقشف على ما يظهر من دراسة تلك الروايات هو سمة من سمات تلك الجماعة ، لا يقتصر على تلك الأيام وحدها ، بل هو علامة فارقة تميزها عن بقية الناس طوال أيام السنة ، وان كان ذلك لا يعني أنها كانت تتزمت وتبالغ في تقشفها على نحو ما ذكرت طوال الحول ، إنما أقصد أنها كانت تتشدد في الدين وتتقشف ، وتنهج نهجاً صوفياً ليس في أيام الحج والأيام الحرم حسب ، إنما كانت تسير على هذا النهج كلّ حياتها . فهي في الواقع فرقه من فرق المتصوفة ، سلكت هذا المسلك وظلت عليه الى ظهور الاسلام .

ويظهر من بعض الأسماء أو الجمل التي وردت فيها كلمة « أحمس » و « حمس » أن هذه الكلمة هي نعت أو اسم من أسماء الآلهة عند الجاهليين في الأصل ، ثم تغير معناها بعد ذلك فصارت على النحو الذي ذكره علماء اللغة نقلا عن الروايات التي ترجع ذلك المعنى الى الجاهلية المتصلة بالإسلام . ففي الأسماء الواردة الينا : « أحمس الله » ، و « الاحامس » و « بنو أحمس » و « أبو أحمس » [2] . و « أحمس بنت أحمس » [3] ، ما يفيد أن الأصل بعيد جداً عن المعنى الذي فهمه وذهب اليه أهل الأخبار ، وأن للكلمة معنى دينياً خاصاً قديماً [4] .

ويتبين من غربلة الروايات الواردة عن « الحمس » وعن « الحلة » أن الحمس هم على العموم سكان مكة أهل الحرم . وأما « الحلة » ، فهم من كان من غيرهم ، أي من غير أهل مكة من قبائل وناس [5] . فلأهل مكة اذن امتيازات خاصة ، امتازوا بها عن غيرهم ، وميزوا بها أنفسهم

---

(١) الأزرقي (١/١١٦ وما بعدها) ، النهاية (١/٢٣٣) ،
Ency., II, P. 335, Snouck Hurguonje, Het Mekkaansche Feest, S. 21, 77, 111, 130.

(٢) ابن هشام (١٢٧) ، الأغاني (١٢/٤٦) ، الاشتقاق (١٥٣) .

(٣) Reste, S. 85.   (٤) Reste, S. 85. f.   (٥) Ency., II, P. 335.

عن سائر الناس ، لأنهم جاوروا البيت ، وتعهدوا بخدمته وقد شرفوا على غيرهم بوجود البيت بينهم ، فهم طبقة « ارستقراطية » تشبه طبقة « الكوهين » و « اللاويين » عند العبرانيين .

وقد قضى الإسلام على هذه الحركة وحرمها ، ونزل الوحي : « وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ، ولكن البر من أتقى ، وأتوا البيوت من أبوابها ، واتقوا الله لعلكم تفلحون »[1]. فأذن الاسلام للحمس ولغيرهم بدخول البيوت من أبوابها وهم محرمون . وكانوا على ما يظهر من الشروح الواردة في تفسير هذه الآية يتحرجون من المرور في ظل وهم محرمون ، أو الوقوف تحت سقف ، ولذلك صاروا يدخلون من أظهر البيوت لئلا يظلهم ظل ، والظل في عرفهم مفسد لعمل المحرم ، ولذلك تجنبوا كل ظل .

وجعل بعض الأخباريين بين الحمس والحلة طبقة دعاها « الطلس » ، قال إنها : « بين الحلة والحمس : يصنعون في احرامهم ما يصنع الحلة ، ويصنعون في ثيابهم ودخولهم البيت ما يصنع الحمس . وكانوا لا يتعرون حول الكعبة ، ولا يستعيرون ثياباً ، ويدخلون البيوت من أبوابها ، وكانوا لا يئدون بناتهم ، وكانوا يقفون مع الحلة ويصنعون مايصنعون »[2]. وهم سائر اهل اليمن ، وأهل حضرموت ، وعك وعجيب وإياد بن نزار[3] .

وقد اقتصرت قريش ، وهي من الحمس ، على استعمال القباب المصنوعة من الأدم لا يضربها غيرها بـ « منى »[4] ، لأنهم « كانوا لا ينسجون مظال الشعر ، وكانوا أهل القباب الحمر من الأدم »[5] . وقد استعمل الرسول في حجه هذا النوع من القباب[6] . ولا بد أن يكون لاقتصار قريش على استعمال هذا النوع من القباب دون غيرها في هذا الموضع ، سبب ما ،

---

(١) البقرة الآية ١٨٩ ، تفسير الطبري (٢/١٠٥ ، ١٦٣) .

(٢) المحبر (ص ١٨١) . (٣) المحبر (ص ١٧٩) .

(٤) « كانت قباب قريش من الأدم لا يضربها غيرهم بمنى » ، المشرق نقلا عن البلاذري (مخطوطة باريس) ، ٢٤ قفا ، السنة السابعة والثلاثون ، كانون الثاني — آذار ١٩٣٩ (ص ٩٥) .

(٥) ابن سعد (١/٤١) . (٦) ابن سعد (٢/٨٨) ، أسد الغابة (١/٢٥٠) .

الأرجح أنه عامل ديني [١] . ويلاحظ أنه كان للقباب الحمر ذكر خطير ، وجاه عظيم فى نظر الجاهليين ، فكان أصحابها يفتخرون على غيرهم بأنهم « أهل القباب الحمر » [٢] ، وقد ورد فى القصص أن إياداً وهب ابنه مضر « القبة الحمراء وهى من أدم » . وورد فى الأخبار « قبة مضر الحمراء » كما نعتت مضر بـ « مضر الحمراء » . فلا بد أن يكون لهذا النعت وللقبة الحمراء أساس فى القصص الجاهلي .

وقد كان الجاهليون يطوفون بالصفا والمروة ، وعليهما صنمان يمسحونهما [٣] ، والصفا والمروة من المواضع التي كان لها أثر خطير فى عبادة أهل الجاهلية . وكان طوافهم بهما بقدر طوافهم بالبيت ، أي سبعة أشواط ، كما كانوا يقدمون الأضاحي ويقصون شعورهم هناك [٤] . ولم يحرم الإسلام الطواف بالموضعين ، بدليل ورود ذلك فى الآية : « إنّ الصفا والمروة من شعائر الله ، فمن حج البيت أو اعتمر ، فلا جناح عليه أنْ يَطَّوَّف بهما . ومن تطوّع خيراً ، فان الله شاكر عليم [٥] » غير أن العادة جرت باستبدال السعي بين الموضعين بالطواف « السعي بين الصفا والمروة » حتى إن كثيراً من المفسرين فسروا الطواف بالسعي ، ولذلك قالوا : إن المقصود من هذه الآية السعي بين المكانين . ولما كان الطواف يستدعي وجود بيت أو موضع يطاف حوله وقد حرم الإسلام الأصنام وهدمها ، ولم يكن فى الموضعين المذكورين بيت يطاف حوله ، أهملت عادة الطواف بالصفا والمروة ، واكتفى بالسعي بينهما لحل محل الطواف .

ومن العادات الدينية المتصلة بالطواف وبالحج الى المواضع المقدسة عادة « الارتجام » ، ويقال لرمي الحصى أو الأحجار « رمي الجمرات » أو « الرجم » . ويكون رمي الجمرات فى مواسم الحج الإسلامي بموضع منى . وقد كان الارتجام معروفاً عند الجاهليين ، وهو معروف عند العبرانيين .

---

(١) المشرق ، الجزء المذكور .

(٢) قال عبيد بن الأبرص :

أهل القباب الحمر والنعم المؤبل والمدامة .

ديوان عبيد (٢٩ : ٢) « طبعة لايل » .

(٣) تفسير الجلالين (١/٢١) « طبعة المطبعة المليجية » .

(٤) المشرق العدد المذكور (ص ٢٤٩) . (٥) البقرة : الآية ١٥٣ .

وقد أشير الى ذلك فى التوراة (١) . وهو معروف أيضاً عند بني ارم (٢) . وكلمة « رج م » من الـكلمات السامية القديمة ، وهي تعنى أيضـاً الأحجار التي تنصب على القبر (٣) . وقد ورد هذا المعنى فى حديث عبد الله بن مغفل : لا ترجموا قبري ، أي لا تجعلوا عليه الرجم ، وهى الحجارة ، أراد أن يسوّوه بالأرض ولا يجعلوه مسنماً مرتفعاً (٤). وللرجم في الإسلام معنى يختلف عن معناه عند الجاهليين كل الاختلاف ، فهو فى الاسلام للذين يقومون بعمل مناف للشريعـة ، وكان في الجاهلية للتقدير والتعظيم ، فاذا رجموا قبراً أو موضعاً فقد أرادوا تعظيمه ، بينما هو للتحقير عند الاسلاميين . وبهـذا المعنى الاسـلامي ورد في القصص عن رجم قبر « أبي رغال » ، وفى بيت لجرير هو :

اذا مات الفـرزدق فارجموه كما ترمون قبر أبي رغال (٥)

وكلمة « مرجوم » من الأسماء المعروفة التي سمي بها جملة أشخاص كانوا سادة فى قومهم ، لهم جاه ومنزلة عند الجاهليين (٦) .

و « الجمرات » عديدة عند الجاهليين ، يطاف حولها ، ويحج اليها (٧) . لعلها مواضع أصنام أو أماكن مقدسة أو قبور أجداد كان الجاهليون يتسابقون برمي الجمرات ، أي الحصى ، عليها ، على جهـة التعظيم والتقدير . وقد ورد قسم بهـا فى بيت ينسب الى شـاعر جاهلي (٨) . أما فى

---

(١) التكوين الاصحاح الحادى والثلاثون ، الآية : « وقال لا بان ليعقوب : هوذا هذه الرجة وهوذا العمود الذي وضعت بيني وبينك » .

(٢) Shorter Ency. of Islam, P. 464. F. Reste, S. 112. F.

(٣) Ency., III, p. 1093.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/٧٤) « رجم » ، اللسان (١٥/١١٧ وما بعدهـا) ، تاج العروس (٨/٣٠٤ وما بعدها) .

(٥) الأزرقي (١/٨٧) .

(٦) اللسان (٥/١١٧ وما بعدها) ، تاج العروس (٨/٣٠٤ وما بعدها) .

(٧) المشرق : السنة التاسعة والثلاثون ، تموز — أيلول ١٩٤١ (ص ٢٤٦) Reste, S. III.

(٨) فأقسم بالذي قد كان ربي وأنصاب لدى الجمرات مغر

ابن هشام (٥٣٤) ، المشرق : الجزء المذكور . قال حذيفة بن أنس الهذلي :

لأدركهم شـعث النواصي كأنهم سـوابق حجاج توافي المجمرا

اللسان (٥/٢١٧) .

الإسلام ، فإن رمي الجمرات هو على عكس ما كان يقصده الجاهليون . والجمرات بمنى ثلاث جمرات : الجمرة الأولى ، والجمرة الوسطى ، وجمرة العقبة [1] .

ويلحق بالحج تقديم العتائر ، وهي الضحية فى الإسلام ، كانت تذبح عند الأنصاب ، فتوزع على الحاضرين ليأكلوها جماعة أو تعطى للافراد . وقد تترك لكواسر الجو وضواري البر فلا « يصد عنها إنسان ولا سبع » [2] . وتبلغ ذروة الحج عند تقديم العتائر ، لأنها كما قلت سابقاً أسمى مظاهر العبادة في أكثر الأديان .

وقد تضاءلت كلمة « العتائر » فى الإسلام أمام كلمة « الضحية » ، حتى لم يفهم معناها إلا الخاصة ، شأنها فى ذلك شأن كثير من المصطلحات الدينية الوثنية التي تضاءلت أو أفل نجمها ، فماتت أو تغير مدلولها فصار لها فى الإسلام مدلول ديني جديد .

وتميز الحيوانات التى يهيئها أصحابها أو مشتروها للذبح فى الحج بعلامات ، بأن توضع عليها قلائد تجعلها معروفة ، أوأن يحدث لها جرح ليسيل منه الدم ليكون ذلك علامة أنها هدى . ويقال لذلك إشعار ، ومنه إشعار البدن ، وهو أن يشق أحد جنبي سنام البدنة حتى يسيل منه الدم ليكون ذلك علامة الهدي [3] .

وتقبيل الأحجار واستلامها فى أثناء الطواف أو فى غير الطواف من الشعائر الدينية عند الجاهليين . كان في روعهم أن هذا التقبيل مما يقربهم الى الآلهة ، ويوصلهم اليها ، فتقربوا اليها ونصبوها فى مواضع ظاهرة ، ومسحوا أجسامهم تبركاً . وكلمة تمسح من الكلمات التى لها معاني دينية عند الجاهليين ، وكذلك كلمة « استلم » و « استلام » عند أهل مكة خاصة حيث استعملت بالنسبة للحجر الأسود . وطريقتهم أن يمر الانسان يده على الحجر المقدس أو أن يمسه بها إن

---

(١) تاج العروس (٣/١٠٧) ، اللسان (٥/٢١٧) ،
Ency., I, p. 1012, Shorter Ency. of Islam, P. 83, Lane Arab. Lex., I, p. 453. F, Reste, 121, Juynboll, Handbuch des Islamischen Gesetzs, S. 153. FF.

(٢) ابن هشام (١٠٠) ، المشرق : السنة السابعة والثلاثون ، كانون الثاني — آذار ١٩٣٩ (ص ٩٢) .

(٣) النهاية (٢/٤٤٢) .

صعب استلامه كله . وقد يعوض عن ذلك بعصا يمدها الانسان الى الحجر حتى تلمسه ، واذا تعذر الوصول اليه بسبب ما ، فيجوز أن يفعل ذلك مترجلاً أو راكباً على جمل [1] .

ويظهر أن التقرب الى البيت بالتمسح بجدرانه أو استلام أركانه أو التعلق بأطراف الكسوة هي من العادات الدينية التي كان يفعلها الجاهليون ، وغرضهم من كل ذلك واحد ، هو اعتقادهم بأنهم بهذا التقرب والاتصال المباشر يتصلون بالآلهة التي تمثلها وبالقوى المقدسة التي تحل فيها .

ومن هذا القبيل أيضاً طرق مطارق أبواب البيوت المقدسة طرقات خفيفة ، وامرار بعض الأشياء مثل الملابس على الصخور والمواضع المقدسة لاكتساب البركة ، وتلطيخ الأحجار بدماء الضحية التي تقدم للأوثان وذلك بصب الدماء عليها ، أو بتلطيخهـا وتلويثها كلها أو جزء منها بدم الضحية ، توكيداً باراقة دم الضحية فى نفس من ضحيت الضحية من أجله [2] .

ولم يكن الجاهليون القريبون من مكة أو البعيدون عنها يقصدونها فى حج عرفة وعمرة رجب حسب ، بل كانوا يقصدونها فى أوقات مختلفة وفى المناسبات ، للطواف حول الأصنام ، واستلام الحجر الأسود ، والتقرب الى الآلهة المحلية [3] . وقد كانت كثرة تلك الأصنام في هذه المدينة مما ساعد على اجتذاب القبائل اليها ، كذلك ساعد على اجتلاب الناس نشاط أهلها وتجارتهم التي توسعت بعد استيلاء الحبشة على اليمن وتدهور الحالة السياسية فيها .

ويظهر من الآية : « يوم يخرجون من الأجداث سراعاً ، كأنهم الى نصب يوفظون » [4] ومن الشعر أن الجاهليين كانوا يقصدون الأنصاب للتقرب اليها والذبح عندها ، وأنهم كانوا يحجّون اليها من مواضع بعيدة ، فيجتمعون حولها يريدون التقرب اليها بغير نظام ولا ضبط ، كل يريد أن يكون السابق الى تلك المكرمة الدينية .

---

(١) البخاري (١/٦٦ ، ٢١١) ، وفى الحديث أن الرسول طاف وسعا بين الصفا والمروة ، وهو على ظهر جمل ، النسائي : السنن (٢/٣٧ ، ٣٩) ، مسلم (١/٤٨٦ ، ٤٨٨) ، الأغاني (١٣/١٦٦) ، المشرق السنة السابعة والثلاثون ، كانون الثاني — آذار ١٩٣٩ (ص ٨٧ وما بعدها) .

(٢) Reste , S. 109.

(٣) المشرق : السنة ٣٧ ، كانون الثانى — آذار ١٩٣٩ (ص ٩١) .

(٤) سورة المعارج ، ٧ ، الآية ٤٣ ، المشرق : السنة ٣٩ (١٩٤١) (ص ٢٤٦) .

وحج الجاهليين في وقت معين ، وتقديمهم العتائر في زمان مكتوب ، وتحريمهم القتال في الأشهر الحرم ، كل هذه وأمثالها تدل على أنهم كانوا يسيرون في توقيتهم على تقويم ، وأنهم كانوا قد قسموا السنة الى مواسم وأشهر ، وأيام وليل ونهار ، أي على نحو ما نفعله اليوم ، وأن للأيام والأشهر والمواسم أسماء ، فعلى أي تقويم كان يسير الجاهليون ؟ وهل كان لهم تقويم موحد يسيرون عليه ؟

الذي نعرفه من نصوص المسند أن أهل العربية الجنوبية كانوا يؤرخون حتى سنة (١١٥) قبل الميلاد بأيام ملوكهم أو بأسماء أشخاص أو قبائل ، فيقولون : في شهر كذا من سنة كذا من حكم الملك .. قدم فلان نذراً الى الإلـه ... أو في شهر كذا من سنة « موهب » أو سنة قبيلة ... ومعنى هذا أن التوريخ عندهم كان يتغير ويتبدل بتبدل الملوك ، وهو توريخ يسبب مشكلات كثيرة أدركها الناس فوضعوا حوالي سنة « ١١٥ » قبل الميلاد مبدءاً لتقويم ثابت صاروا يسيرون منذ ذلك التأريخ عليه ، وقد استمروا على العمل بموجبه الى قبيل ظهور الاسلام وربما الى ظهور الاسلام . وقد حلّ هذا التقويم المشكلات ، وثبت تواريخ وقوع الحوادث وأيام الأعياد والحوادث الدينية وأمثال ذلك . ومن أسماء الأشهر اسم شهر يدعى « ذحجتن » أي « ذو الحجة » ، ومعنى ذلك أن هذا الشهر كان شهر الحج ، و « ذتمنع » « ذو تمنع » ، و « ذ برم » « ذو برم » ، و « ذ بشم » « ذو بش » ، و « ذ ابهى » « ذو ابهى » و « ذ مخزدم »[1] « ذو مخزد » و « ذ اثرت » « ذو اثرت »[2] و « ذ عم » « ذو عم »[2] وأشهراً أخرى وردت أسماؤها في النصوص ، غير أن من الصعب ترتيبها وضبطها ، لعدم ورودها مؤرخة متسلسلة ولوجود فجوات بين الشهور .

وأما بقية العرب ، فمعارفنا عن توقيتهم مستمدة من أخبار الأخباريين . وهي تبين لنا أنه لم يكن لديهم تقويم واحد يؤرخون به جميعاً ، وانما كانت لهم جملة تقاويم بعضها متأثر بتقاويم الأقوام المجاورة لهم وحوادثها ، كما هو الشأن بالنسبة لعرب بلاد الشأم وعرب العراق ؛ وأنه كان

(١) Studi Lexi., I, S. 59, Halevy 149.

(٢) Glaser 1395, 1610, SE. 83.

لـكل قوم تقويم يسيرون فى توقيتهم عليه . غير أن تقاويمهم لم تـكن فى الغالب ثابتة مضبوطة ، لذلك كانوا يغيرون بها ويبدلون بحسب مشيئتهم وبحسب أخذهم عمن جاورهم لتتلاءم مع المواسم والأوقات . وأما الأعراب ، فقـــد كانوا يؤرخون بما يقع لهم من حوادث وأمور عظام . وبأيام مشـــاهير رجالهم . ومن جملة الحوادث التي أرخ بها لأهميتها ، حروب الفجار وعام الفيــل[1] .

وقد ذكر الأخباريون أسماء أشهر ترك استعمالها فى الاسلام ، ذكروا انهـا كانت مستعملة عند قدماء الجاهلية ، وهم العرب العاربة ، كما ذكروا اسماء شهور قالوا إنها كانت أسماء الشـهور عند ثمود ، وأسماء شهور قالوا إنها الشهور التي كان يستعملها العرب عند ظهور الاسلام .

أما الشهور التي زعموا أنها كانت شهور العرب العاربة ، فهي : مؤتمر ، وناجر ، وخوّان ، وصوان ، أو « وبصـــان » ، ورُبّى ، وأيدة ، والأصم ، وعادل ، وناطل ، وواغل ، وورنة ، وبرك ؛ أوهي : ناتق ، ونقيل ، وطليق ، وأسنح ، وأنخ ، وحلك ، وكسح ، وزاهر ، ونوط ، وحرف ، وبغش . وهنـالك من يقول : مؤتمر ، وناجر ، وخوان ، وصـوان ، وحنتم ، وزبا ، والأصم ، وعادل ، ونافق ، وواغل ، وهواع ، وبرك ، وما شـاكل ذلك . وهناك آراء أخرى فى ترتيب هذه الشهور وفى ضبط هذه الأسماء[2] .

وأما شهور ثمود على حد زعم الأخباريين ، فهي : موجب ، وموجر ، ومور ، « مورد » ، وملزم ، ومصـدر ، وهوبر ، وهوبل ، وموها ، وذيمر « ديمر » ، ودابر ، وحيقل ، ومسبل . وموجب هو المحرم ، وموجر هو صفر . ويذكرون أنهم كانوا يبـدؤون فى تقويمهم بذيمر ، وهو شهر رمضان ، فيكون أول شهور السنة عندهم[3] .

---

(١) Ency., IV, P. 1210, Sprenger ueber den Kalender der Araber Vor Mohammad, in, ZDMG., XIII, 1859, S. 134. FF.

(٢) صبح الأعشى (٣٦٨/٢ وما بعدها) ، Ency., IV, P. 1210.

وسيان وبصـــان اذا ما عددته ... وبرك لعمري في الحساب سواء

تاج العروس (٤٤٤/٤) ، اللسان (٣٧٤/٨) .

(٣) بلوغ الأرب (٧٦/٣) وما بعدها) .

أما الشهور التي زعم الأخباريون أنها كانت مستعملة عند العرب حين ظهور الاسلام ، فهي: المحرم ، وصفر ، وربيع الأول ، وربيع الثاني ، وجمادي الأولى ، وجمادي الآخرة ، ورجب ، وشعبان ، ورمضان ، وشوّال ، وذو القعدة ، وذو الحجة . زعموا أن أسماءها وضعت على هذه الصورة باتفاق حال وقعت في كل شهر منها ، فسمي الشهر بها عند ابتداء الوضع . وذكروا التعليل الذي رووه عن كل تسمية . وذكروا أيضاً أن أول من سمّاها بهذه الأسماء هو كلاب بن مرة . ومن هذه الشهور أربعة حُرُمٌ لا يجوز فيها غزو ولا قتال[1] .

ويذكر الأخباريون أن الاسم القديم للمحرم هو صفر ، وأنه كان يعرف عندهم بـ « صفر الأول » ، ثم قيل له « المحرم » . وقد عرف الشهران : المحرم وصفر لذلك بـ « الصفرين »[2] . ويظن أن هذه التسمية الجديدة : أي المحرم لصفر الأول إنما ظهرت في الاسلام[3] . وذهب بعض علماء اللغة الى أن لفظة « موجب » هي الاسم العادي للمحرم . أي التسمية القديمة لهذا الشهر عند قدماء العرب[4] .

وهذه التسميات التي سردها الأخباريون عن الشهور ، والتسميات الأخرى التي نجدها في النصوص الجاهلية المختلفة ، تشير إلى أن العرب لم تكن لهم تسمية واحدة عامة للشهور ، بل كانت لهم تسميات متعددة ، تختلف باختلاف المواقع والقبائل . فأسماء الشهور عند العرب الجنوبيين ، كما ترد في نصوص المسند ، هي أسماء غريبة لم ترد في أخبار الأخباريين ، ولا في كتب علماء اللغة ، مما يدل على أنها لم تكن مستعملة عند أهل مكة وعند القبائل العربية التي كانت في الحجاز عند ظهور الاسلام .

---

(١) بلوغ الأرب (٣/٧٨) ، صبح الأعشى (٢/٣٦٤ وما بعدها) .

(٢) « اللهم إني قد أحللت لهم أحد الصفرين . الصفر الأول ، ونسأت الآخر العام المقبل » . ابن هشام (١/٤٥) « أول من نسأ الشهور » .

(٣) تاج العروس (٣/٣٣٦) ، Winckler , Reste , S. 45 , Raccolta , vol. , V , P. 169 , Zur altarabischen Zeitrechnung , in Altorientalische Forschungen , II , Reihe . Bd. 2 . S. , 324. FF, 1900. , Arabisch - orientalish, Berlin , 1901 , S. 81 , ff. in MVG .VI , 4 - 5 , 1901.

(٤) تاج العروس (١/٥٠٢) .

ويتبين من دراسة أسماء هذه الشهور أن منها ما هو تكرار للاسم الواحد ، وهي ربيع الأول وربيع الثاني وجمادي الأولى وجمادي الآخرة ، ومجموعها أربعة أشهر ، فهي ثلث السنة اذن . وتقع في النصف الأول من السنة وعلى التوالي ، تليها أشهر مفردة ، ثم شهران يبتدأ اسماها المركبان بكلمة « ذو » ، وهما : ذو القعدة وذو الحجة ، وهما آخر شهور السنة . وفي رواية أن الاسم القديم للمحرم هو صفر الاول[1] ، واذا صحت هذه الرواية ، كانت الأشهر المكونة للنصف الأول من السنة أشهراً مزدوجة تتألف من ثلاثة أزواج ، هي : صَفَرَان وربيعان وجُماديان[2] .

وقد كانت لشهر « رجب » حرمة خاصة في نفوس الجاهليين ، بدليل تقديم العتائر فيه والأضاحي التي عرفت عندهم بـ « الرجبية » ، وبوقوع اكثر المناسبات الدينيّة فيه[3] . وقد نعت هذا الشهر بـ « الأصم » ، فقيل له « رجب الأصم » . كما عرف بـ « رجب مضر » ، مما يدل على أنه كان من الأشهر المقدسة الخاصة بجماعة مضر . ويلاحظ أن هنالك جملة أمور لها صلة بالأمور الدينية نسبت الى مضر ، فالقبة الحمراء المشهورة عند العرب ، وهي قبة الرئاسة والرفعة عند الجاهليين ، عرفت عندهم بـ « قبة مضر الحمراء »[4] . مما يشير الى رئاسة هذه القبيلة الدينية عند عرب الحجاز .

وفي حديث : « لاعدوى ولا هامة ولا صفر » إشارة الى النسيء ، أي الى فعل أهل الجاهلية

---

(١) اللسان (٦/١٣٣) ، البخاري (٢/٢٥٧) ، تاج العروس (٣/٣٣٦) .

(٢) Reste . S. 95.

(٣) والعتر كل ما عتر أي ذبح كالذبح . والعتر شاة كانوا يذبحونها في رجب لآلهتهم كالعتيرة مثل ذبح وذبيحة ، والجمع العتائر . وفي الحديث انه قال : لافرعة ولا عتيرة . قال أبو عبيد : العتيرة هي الرجبية : وهي ذبيحة كانت تذبح في رجب يتقرب بها أهل الجاهلية ثم جاء الاسلام فنسخ . وقال الحارث بن حلزة يذكر قوماً أخذوهم بدم غيرهم .

عنتاً باطلا وظلماً كما تعـ ـتر عن حجرة الربيض الظباء

معناه أن الرجل كان يقول في الجاهلية : إن بلغت ابلي مئة عترت عنها عتيرة ، فاذا بلغت مائة ضن بالغنم ، فصاد ظبياً فذبحه » ، تاج العروس (٣/٣٨٠) .

(٤) المشرق : السنة ٣٧ ، عدد كانون الثاني — آذار ١٩٣٩ (ص ٢١٩) ، السنة ٣٩ ، (١٩٤١) (ص ٣٩٧) .

فى تأخيرهم المحرم الى صفر فى تحريمه ، وفى ادخاله فى الأشهر الحرم على ما يقوله أهل الاخبار [1] .

واذا أخذنا برأي من يقول إن الجاهليين لم يكونوا يسمون المحرم محرماً ، بل كانوا يسمونه صفر الأول ، فيكون معنى النسيء على هذا التفسير تأجيل حرمة صفر الأول ونقلها الى صفر الثاني .

وأظن أن المراد من الحديث المذكور هو منع الناس من التشاؤم فى هذا الشهر بدليل ذكر العدوى والهامة قبل صفر . فقد كان أهل الجاهلية ولا زال كثير من الناس يتشاءمون من هذا الشهر ، وأنه لا علاقة لذلك بالنسيء .

وقد أبطل الاسلام « الرجبية » وهي العتيرة ، كما أبطل « الفرع » ، وهو ذبح أول نتاج الابل والغنم لأصنامهم ، فكانوا يأكلونه ويلقون جلده على الشجر . ويذكر أنهم كانوا إذا أرادوا ذبح الفرع زينوه وألبسوه [2] ، ليكون ذلك أوكد فى نفوس الآلهة ، وتعريفاً للناس .

ويتبين من تسمية تلك الأشهر مثل ربيع الأول وربيع الثاني ومن معانيها التي ذكرها أهل اللغة والتي تشير الى ظروف وأحوال طبيعية من مثل الحر والبرد ، أن الأشهر المذكورة كانت أشهراً شمسية ، وأن التقويم الجاهلي القديم كان تقويماً شمسياً . غير أن هذا التقويم لم يبق على وضعه ، بل غير وبدّل حتى خرج من طبيعته ، وتغيرت بذلك مواقيت الشهور ، فلم يبق شهر ربيع الأول مثلاً ثابتاً فى محله فى فصل الربيع ، بل صار يأتي كذلك فى موسم الصيف أو الخريف أو الشتاء ، وكذلك تغيرت أوقات الشهور الأخرى ، وظل هذا التقويم قلقاً الى أن اتخذ الاسلام التقويم القمري تقويماً رسمياً فى السنة العاشرة للهجرة [3] ، وقد بقيت هذه التسميات على حالها مع أنها تسميات بنيت على التقويم الشمسي .

وقد أزال هذا التلاعب الذي أجري في الأشهر وفى التقويم كل أثر يربط بين الشهور وبين الأيام التي وضعت لها ، ولم تعد ما بين أيام الشهور الحقيقية وما بين أسمائها رابطة ما تربط بينها ،

---

(١) « والصفر ، النسيء الذي كانوا يفعلونه في الجاهلية ، وهو تأخيرهم المحرم الى صفر في تحريمه ، ويجعلون صفراً هو الشهر الحرام » . تاج العروس (٣/٣٣٦) .

(٢) بلوغ الأرب (٣/٤٠ وما بعدها) . (٣) Reste, S. 95.

وصارت أسماء الشهور مجرد أسماء لا تتناسب مع مواقعها من السـنة . ولذلك صار الحادث الذي وقع في شهر ربيع الأول مثلاً ، وهو في موسم الشتاء ، يقع في هذا الشهر نفسه ، ولـكن في فصل الصيف أو في فصل الربيع أو الخريف . وبذلك صار من الصعب على هـذا التقويم تثبيت الحوادث في الفصول التي وقعت فيها .

وموضوع التوقيت عند الجاهليين وتعيين الشهور من الموضوعات الشائكة ، فالأخبار الواردة في هذا الباب قلقة يكتنفها غموض وفيها تناقض ، وهي ترينا على الجملة أن الجاهليين كانوا يؤقتون على السنين والشهور والأيام ، ولـكنها ترينا من جهة أخرى أنهم كانوا يتلاعبون في ذلك ويعملون بما يريدون ويرغبون ، لا كما يجب أن يكون حكم حساب التقاويم . فتذكر مثلا أن العرب كانوا لا يكبسون ، الى أن جاورتهم اليهود في يثرب ، فأرادوا « أن يكون حجهم في أخصب وقت من السنة وأسهلها للتردد في التجارة ، ولا يزول عن مكانه ، فتعلموا الـكبس من اليهود »[1] . وتذكر أن أول من نسأ الشهور هو عمرو بن لحيّ ، أو القَلَمَّسُ وهو حذيفة ابن فقيم بن عامر بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خزيمة[2] ، ثم أبنه ، فأبن ابنه ، وهكذا ، فلما قام الاسلام كان الناسيء أبو ثمامة جنادة وفي رواية أخرى هو فقيم بن ثعلبة ، أو هو غيره ، وهـكذا . وقد ذكروا أن أولئك الناسئين كانوا نابهين في قومهم ، لهم مركز عظيم وشأن .

---

(١) بلوغ الأرب (٣/٧١) .

(٢) « حذيفة بن عبد بن نهم بن عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة » ، المحبر (ص ١٥٧) ، « القلمس ، رجل كناني من نسأة الشهور على معد في الجاهلية . وهو أبو ثمامة جنادة بن أمية من بني المطلب ابن حدثان بن مالك بن كنانة . كان يقف عند جمرة العقبة ويقول : اللهم إني ناسـيء الشهور وواضعها مواضعها ولا أعاب ولا أجاب . اللهم إني قد أحللت أحـد الصفرين وحرمت صفر المؤخر ، وكذلك في الرجبين . يعني : رجبا وشعبان ، ثم يقول : أنفروا على اسم الله تعالى . وفيه يقول قائلهم :

ألسنا الناسـئين على معد ... شـهور الحل نجعلها حراماً

فأبطل الله ذلك النسيء » . تاج العروس (٤/٢٢٢) .

Raccolta, Vol. , V, P. 160, Caussin de Perceval, Memoire sur le Calendrier arabe avant l' Islamisme, in Journal Asiatique, IV' Serie, t. 1, 1843, PP. 242.

فكان القلمس مثلاً ملكاً فى قومه ، وهو من بني كنانة[1] . وكان عمرو بن لحيّ رجلاً بارزاً ، نسبوا اليه — كما رأيت — في مواضع من هذا الكتاب أعمالاً كثيرة ، منها : إدخال الأصنام الى بلاد العرب ، وتبحير البحيرة ، وتسييب السائبة ، وحماية الحامي ، وأمثال ذلك . فهو إذن رجل كان له شأن كبير فى حياة العرب قبل الاسلام ولا سيما فى النواحي الدينية والاجتماعية من تلك الحياة .

وكلمة « قَلَمَّس » على ما يتبين من روايات الأخباريين ، لم تكن اسم علم ، وإنما هى لفظة يُراد بها عند الجاهليين ما يراد من معنى الفقيه والمفتي فى الاسلام[2] . وقد كان فى جملة ما يقوم به القلمّس النسيء والكبس .

وطريقتهم فى ذلك أن الناسيء كان يدعو الناس فى آخر موسم الحج الى الاجتماع حوله ، فإذا اجتمعوا ارتقى موضعاً مرتفعاً ظاهراً ، أو قام على ظهر جمله ليراه الناس ثم يقول بأعلى صوته : « اللهم ، اني لا أعاب ولا أحاب ، ولا مرد لما قضيت . اللهم ، إنّي أحللت شهر كذا (ويذكر شهراً من الأشهر الحرم . وقع اتفاقهم على شن الغارة فيه) ، وأنسأته الى العام القابل ، أي أخرت تحريمه ، وحرمت مكانه شهر كذا من الأشهر البواقي ، فكانوا يحلّون ما أحل ويحرمون ما حرم . فإذا انتهى من هذا الخطاب وأمثاله ، أباحوا لأنفسهم الغارة فى ذلك الشهر ، وغزوا من نووا غزوه . فإذا جاء العام القابل ، نهض الناسيء ليقول : إن آلهتكم قد حرمت عليكم الشهر الفلاني ، وهو الشهر الذي أحلّه فى العام الماضي فحرموه ، فيحرمونه[3] .

والنسيء ، أي تأخير الأشهر ، أفسد التوقيت ، وغير أزمنتها . فقد كانوا اذا قاتلوا في شهر حرام ، حرموا مكانه شهراً آخر من أشهر الحل ، واستمروا على ذلك حتى استدار التحريم على شهور السنة كلها ، « وكانوا يعتبرون في التحريم مجرد العدد ، لا خصوصية الأشهر المعلومة . وربما زادوا فى عدد الشهور بأن يجعلوها ثلاثة عشر ، أو أربعة عشر ، ليتسع لهم الوقت ،

---

(١) بلوغ الأرب (٣/٧٣) ، المحبر (ص ١٥٦ وما بعدها) .

(٢) المحبر (ص ١٥٦) . (٣) بلوغ الأرب (٣/٧٣) .

ويجعلوا أربعة أشهر من السنة حراماً أيضاً »[1] . وقد استمرت طريقة النسيء هذه الى أيام الاسلام ، فحج أبو بكر فى السنة التاسعة من الهجرة ، فوافق حجه ذا القعدة ؛ ثم حج رسول الله فى العام القابل فوافق عود الحج فى وقته فى ذي الحجة . ثم نزل الحكم بابطال النسيء فى الآيات : « ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله ، يوم خلق السموات والأرض ، منها أربعة حرم . ذلك الدين القيم ، فلا تظلموا فيهن أنفسكم . وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ، واعلموا أن الله مع المتقين . إنما النسيء زيادة فى الكفر ، يضل به الذين كفروا ، يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطؤوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله . زين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدي القوم الكافرين »[2]. ويلاحظ من هذه الآية أن الجاهليين حافظوا على « عدة ما حرم الله » ، أي على عدد الأشهر المحرمة ، ولكنهم لم يراعوا فى ذلك التخصيص ، بل تصرفوا بها كما كانوا يشاؤون ، ومن هنا دخلت الأشهر بعضها ببعض ، فأحلت الأشهر الحرم ، وحرمت الأشهر الأخرى ، وهى ليست حرماً فى أصلها ، فى مقابل تأخير الأشهر الحرم . وتداخلت الأوقات ، وتغير وقت الحج فصار فى شهر آخر في بعض السنين هى غير شهر ذي الحجة ، ولذلك أبطل الاسلام النسيء[3] .

وقد كان إبطال النسيء فى أثناء حجة الوداع ، ففي تلك الحجة التي كانت فى السنة العاشرة للهجرة المصادفة لسنة « ٦٣١ » للميلاد خطب الرسول فى جموع الحجاج خطبته الشهيرة التي بين فيها مناسك الحج وسننه وأموراً أخري أوضحها لهم ، فكان مما قاله لهم : « أيها الناس إنما النسيء زيادة فى الكفر ، وان الزمان قد استدار كهيأته يوم خلق الله السموات والأرض ، وان

---

(١) بلوغ الأرب (٣/٧١ وما بعدها) ،
Axel Moberg, an - Nasi' in der Islamischen Tradition, Lunda Universitets Arsskrift N. F., Nf. , Avd. , I, Bd. 27, I, 1931.

(٢) سورة التوبة : الآية ٣٦ وما بعدها ، راجع تفسير الطبري (١٠/٩١ وما بعدها) ، تفسير الرازي (٤/٤٤٦ وما بعدها) . تفسير الطبرسي (٣/٢٧ وما بعدها) الكشاف (٢/١٠٠ وما بعدها) . وكتب التفاسير الأخرى عن أسباب نزول هذه الآية والنسيء عند الجاهلين ، Raccolta, Vol. , V, P. 153

(٣) Ency. , III, P. 856,

عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً »[1]. فألغى الاسلام منذ ذلك الحين النسيء ، وثبت شهور السنة ، وجعل التقويم القمري هو التقويم الرسمي للمسلمين .

والأشهر الحرم هي أربعة : المحرم ، ورجب ، وذو القعدة ، وذو الحجة[2]. فهي ثلث السنة إذن . وكان الجاهليون يعظمونها ، ولا يستبيحون القتال فيها ، حتى إن الرجل يلقى فيها قاتل أبيه وأخيه فلا يهيجه ، استعظاماً لحرمة هذه الأشهر التي هي هدنة تستريح فيها القبائل فتنصرف الى الكيل والامتيار والذهاب الى الأسواق ، وهي آمنة مستقرة لا تخشى اعتداء ولا هجوماً مفاجئاً . وتحريم هذه الأشهر ضرورة من الضرورات ، استوجبتها طبيعة الحياة في البادية ، فأهل البادية بما هم فيه من فقر وضنك عيش ، يتنافسون فيما بينهم ويتقاتلون على الكلأ والماء وعلى أخذ حق المرور من القوافل وعلى الغزو والغارات يعيشون . وحياة عاصفة هذا شأنها لابد لها من فترة تستريح فيها ، وتمتار فيها ، وتصفي فيها حسابها بدفع أثمان الديات بهدوء وبتسوية المشكلات بالمساومة والمفاوضة ، وتلك الفترة هي هذه الأشهر الحرم .

ويلاحظ أن شهري ذي القعدة وذي الحجة هما الشهران الأخيران من السنة ، يليهما في الحرمة الشهر الأول من السنة الجديدة وهو المحرم ، فهذه الأشهر الثلاثة هي في الواقع زمن واحد متصل أما رجب ، فهو الشهر الوحيد المنفرد بالحرمة ، أفرد عن بقية الأشهر الحرم لسبب لا نعرفه ، فلم يتصل بشهر من تلك الأشهر .

وفي هذه الأشهر الحرم تعقد الأسواق مثل سوق عكاظ وذي المجاز وذي المجنّة ودومة الجندل وغيرها[3] ، فيقصدها الناس من مواضع بعيدة ، وتكتظ أرضها بجموع غفيرة لم تكن تقصدها في غير هذه « المواسم » . ويظن أن هذه الأسواق كانت نفسها مواضع مقدسة في الأصل . ولكنها فقدت خطورتها الدينية لعوامل عديدة ، إلا أنها لم تفقد مكانتها في المواسم ، فظلت

---

(١) ابن الأثير (١٢٦/٢) ، ابن هشام (ص ٩٦٨) ، الواقدي (٤٣١) « طبعة ولهوزن » .

(٢) بلوغ الأرب (٧١/٣) ، Raccolta, Vol, . V, P. 153.

(٣) بلوغ الأرب (٢٦٤/١ وما بعدها) .

القبائل تفد اليها للاتجار ولحل ما عندها من مسائل ، فاذا انتهوا من ذلك وانتهى الموسم ، خوت الأرض ممن عليها ، وخلت من كل أحد حتى يأتي الموسم الجديد [1] .

وقد ذكر الأخباريون أنه كان بعكاظ صخور يطوف الجاهليون بها ويحجّون اليها [2] .
وإذا تذكرنا « دومة الجندل » ومعبدها الكبير ، فلا يستبعد أن تكون الأسواق الأخرى مواضع مقدسة قديمة كانت محجة للناس عامرة تفد اليها القبائل فى مواسم الحج ، ثم فقدت خطورتها قبيل الاسلام ، ولم يبق عليها إلا طابع الأسواق التجارية .

وكانت قمم الجبال والمرتفعات ، من الأماكن التي يحج اليها المتعبدون للتبتل فيها والتعبد ، وطالما ورد ذكرها فى القصص الذي يرويه الأخباريون عن « الحنفاء » والزهاد والناسكين قبل الإسلام . وهو قصص نجد له أمثلة عند العبرانيين وفي الأدب النصراني . وأشهر هذه الجبال التي تركت اسماً فى الأخبار : حِراء ، وأبو قبيس ، وثَبير [3] .

أما حراء فقد ورد فى بيت منسوب الى شاعر جاهلي بعد « فإني والذي حجت قريش محارمه » [4] .
وجعل أحد الأجبل الخمسة التي بني من حجارتها البيت [5] . واليه كان يلجأ كبار قريش لدعوة آلهتهم فى الملمات ، واليه أيضاً كان يأتي بعض المتحنثين النساك الزاهدين فى عبادة الأوثان للتفكير والتأمل [6] . وأما أبو قبيس ، فيظهر من غربلة أخبار الأخباريين أنه كان من المواضع المقدسة التي كانت تكون جزءاً من شعائر الحج ، يرتقي الحجاج ظهره ، ليتموا بذلك مناسك حجهم ، وليدعوا آلهتهم بما يطلبون ويرغبون . وكان مقصوداً عند نزول الشدة والبلاء . فالمظلوم يجد محله فوق هذا الجبل للدعاء على ظالميه ، وأهل مكة يجدونه محلهم المفضل للدعاء عند انحباس

---

(١) Reste, S. 87 - f.
(٢) البلدان (٦/٢٠٣) ، المشرق : السنة ٣٧ ، نيسان — حزيران ١٩٣٩ (ص ٢٢٠) .
(٣) المشرق : السنة التاسعة والثلاثون ، تموز — ايلول ١٩٤١ (ص ٢٥٢ وما بعدها) .
(٤) فاني والذي حجت قريش — محارمه ، وما جمعت حراء
البكري (٢/٤٣٢) « حراء » .
(٥) الأزرقي (١/٢٦) ، « ما ذكر من بناء ابراهيم عليه السلام الكعبة » .
(٦) المشرق : الجزء المذكور (ص ٢٥٢ وما بعدها) .

المطر ، لنزول الغيث [1] .

وفى بعض الروايات ما يفيد وجود صلة بينه وبين الحجر الأسود [2] . والظاهر أن بيتاً للعبادة كان عليه . يقصده الناسكون والحجاج . وقد بقيت آثار تلك الذكريات القديمة الى الإسلام .

وأما « ثَبير » ، فقد أشرت الى وجود أثر له فى الحج فى أثناء كلامي على الإفاضة ، والى ما نسب الى « أبي سيّارة » من قول هو : « أشرق ثبير ، كيما نغير » . فاذا أشرقت الشمس ، أذن للحج بالإفاضة . ونحن لا يهمنا بالطبع هذا الخبر ، إنما يهمنا منه أنه قد كان لهذا الموضع أثر فى الحج ، وأنه كان من الأماكن التى يقصدها الحجاج في الجاهلية .

ويتبين لنا من حادث إبطال النسيء فى الإسلام ، ومن اشتراط الرؤية في تثبيت مطالع الشهور ، ولا سيما التى لها حرمة دينية مثل شهر رمضان وذي الحجة ، ومن روايات الأخباريين عن تعيين الأوقات عند الجاهليين ، أن أهل مكة والأعراب المتصلين بهم لم يكونوا على حال مستقرة بالنسبة الى التوقيت . فكان منهم من يستعمل التقويم الشمسي ، ومن يستعمل التقويم القمري ، ومن وفق بين التقويمين فجعل تقويمه شمسياً قمرياً ، أو استعمل التقويمين فى وقت واحد . كما هو الحال فى الزمن الحاضر بالنسبة للمزارعين الذين يعتمدون فى مواسم زراعتهم على المواسم التى هي أجزاء من السنة الشمسية ، كما يعتمدون على الشهور القمرية التى تسهل معرفتها بالأهلة .

وهناك تقسيم آخر للسنة ، هو تقسيمها الى فصول أربعة ، بحيث يتكون كل فصل من هذه الفصول من ثلاثة أشهر ، تكون ثلث السنة . وهذه الفصول هي : الشتاء ، والربيع ، والصيف ، والخريف . ويقال للصيف القيظ أيضاً [3] . ويظهر من هذه التسمية ومن هذا النوع من التقسيم

---

(١) المشرق : الجزء المذكور (ص ٢٥٥) .

(٢) « قال ابراهيم لاسماعيل : يا اسماعيل ، أبغني حجراً اضعه ههنا يكون للناس علماً يبتدؤون منه الطواف ، فذهب اسماعيل يطلب له حجراً ، ورجع وقد جاءه جبريل بالحجر الأسود . وكان الله عز وجل استودع الركن أبا قبيس حين غرق الله الأرض زمن نوح ... » ، الأزرقي (١/ ٢٧) ، « ما ذكر من بناء ابراهيم عليه السلام الكعبة » .

(٣) Reste ,S . 95.

أنه تقسيم بنى على أساس التقويم الشمسي ، لا التقويم القمري . وهو تقسيم بقي مستعملاً فى الاسلام ، مع أن التقويم الرسمي الاسلامي هو تقويم قمري ؛ لأنه تقسيم طبيعي مبنى على طبيعة التغير الذي يطرأ على شهور السنة . ولو بني تقسيم الفصول على الشهور القمرية ، لما كان فى الامكان السير عليه بالقياس الى الحياة العملية المبنية على الزرع والتجارة والتنقل فى المراعي ، وكل هذه لها علاقة بتبدل طبيعة الأيام .

وهناك أسماء أخرى لهذه الفصول ، فـ « الصَّفَرِيّة » هو الجزء الأول من السنة وسمي مطره الوسمي ، والشتاء هو الجزء الثاني منها . أما الصيف ، فهو الجزء الثالث . وأما الجزء الرابع ، فهو القيظ ، وسموا مطره الخريف . وقد حددوا مبدأ كل فصل ومنتهاه بالبروج .

وهناك كما يتبين من روايات علماء اللغة اختلاف فى تشخيص الربيع ، منهم من يذهب الى أنه الفصل الذي يتبع فيه الشتاء ويأتي فيه الورد والنَّوْر ، « ومنهم من يجعل الربيع الفصل الذي تدرك فيه الثمار وهو الخريف وفصل الشتاء بعده . ثم فصل الصيف بعد الشتاء وهو الوقت الذي تدعوه العامة الربيع ، ثم فصل القيظ بعده وهو الذي تدعوه العامة الصيف . ومن العرب من يسمي الفصل الذي تدرك فيه الثمار وهو الخريفُ الربيعَ الأول ، ويسمى الفصل الذي يتلو الشتاء ويأتي فيه الكمأة والنَّوْر الربيعَ الثاني . وكلهم مجمعون على أن الخريف هو الربيع »[(١)].

وهناك من يجعل السنة ستة أزمنة : الوسمي ، والشتاء ، والربيع ، والصيف ، والحميم ، و « الخريف »[(٢)] . وحصة كل زمن من هذه الأزمنة شهران .

أما أيام الشهر وأجزاء الشهر عند الجاهليين ، فمعارفنا عنها ليست كثيرة . ويظهر من روايات الأخباريين أن أسماء أيام الاسبوع المتداولة فى الزمن الحاضر هي أسماء متأخرة لم تكن معروفة عند قدماء الجاهليين .

ولا نستطيع أن نتحدث عن اليوم المهم فى الاسبوع مثل يوم السبت عند اليهود أو يوم الأحد عند النصارى عند الوثنيين ، وإن كان في بعض الروايات ما يفيد أن يوم الجمعة كان من

(١) بلوغ الأرب (٣/٢٤٣ وما بعدها) .
(٢) بلوغ الأرب (٣/٢٤٤) ، صبح الأعشى (٢/٤٠٥) .

الأيام المعظمة فى نظر الجاهليين ، وقد عرف عندهم بـ « يوم العَرُوبة » ؛ وأن قريشاً كانت تجتمع في الجاهلية في كل جمعـــة الى كعب بن لؤي بن غالب فيخطب فيها ، وأنه هو الذي سمي يوم العَرُوبة يوم الجمعة ، وذلك لتجمع الناس حوله فى ذلك اليوم [1] .

ويذكر الأخباريون أن الأسماء القديمة لأيام الاسبوع هي غير هذه الأسماء المتداولة بين الناس اليوم ، فكان اسم الأحد عندهم الأول ، وكان اسم يوم الاثنين أهون ، وكان اسم الثلاثاء جُباراً ، وكان اسم الأربعاء دُباراً ، وكان اسم الخميس مُؤنِساً ، وكان اسم الجمعة يوم العَرُوبة وكان اسم السبت شياراً . ويقال أيضاً فى أهون أو هن وأوهد [2] .

وفي رواية من هذه الروايات التى أُولع أهل الأخبار بذكرها أن الأنصار هم الذين بدلوا اسم « يوم العَروبة » فجعلوه « الجمعة » ، ذلك أنهم نظروا فإذا لليهود يوم فى الاسبوع يجتمعون فيه ، وللنصارى يوم يجتمعون فيه هو الأحد ، فقالوا : ما لنا لا يكون لنا يوم كيوم اليهود أو النصارى ؟ فاجتمعوا الى سعد بن زُرارة ، فصلّى بهم ركعتين وذكرهم ، فسموا ذلك اليوم يوم الجمعة لاجتماعهم فيه ، وأنزل الله سورة الجمعة ، فهي على حد قول أصحاب هذه الرواية أول جمعة في الاسلام [3] .

ويروي الأخباريون أيضاً أن العرب وضعت لساعات النهار والليل أسمـــاء غير مستعملة عندنا ، وهي : الذرور « الدور » ، ثم النزوغ ، ثم الضحى ، ثم الغزالة ، ثم الهاجرة ، ثم الزوال ، ثم الدلوك ، ثم العصر ، ثم الأصيل ، ثم الصبوب ، ثم الحدود ، ثم الغروب . ويقال فيها أيضاً : البكور ، ثم الشروق ، ثم الاشراق ، ثم الرأد ، ثم الضحى ، ثم المتـــوع ، ثم الهاجرة ، ثم الأصيل ، ثم العصر ، ثم الطَّفَل ثم العشي ، ثم الغروب [4] .

ونجد بين التسميتين اختلافاً لا فى الأسمـاء ولـكن فى الترتيب ، ففي الرواية الأولى قـدم

---

(١) بلوغ الأرب (١/٢٧٣) . وروى عن ثعلب أيضاً إنما سمى يوم الجمعة لأن قريشاً كانت تجتمع الى قصي في دار النـدوة » ، تاج العروس (٥/٣٠٦) .

(٢) بلوغ الأرب (١/٢٧٣) ، صبح الأعشى (٢/٣٥٤) ، Ency . , IV , P. 1210.

(٣) بلوغ الأرب (١/٢٧٤) ، صبح الأعشي (٢/٣٥٣) .

(٤) بلوغ الأرب (١/٢٧٤) ، صبح الأعشى (٢/٣٤٨) .

العصر مثلا على الأصيل بينما قدم الأصيل فى الثانية على العصر . وأنا لا أستبعد كون هـــذا الترتيب وهذه الأسماء من صنعة المتــأخرين . وقد يجوز أن تكون لهجاتٍ ، جمعت وصنفت على هذا الترتيب .

وأما ساعات الليل ، فهي على حد قولهم :الشاهد [1] ، ثم الغسق ، ثم العتمة ، ثم الفحمة ، ثم الموهن ، ثم القطع ، ثم الجوس « الجوشن » ، ثم العبكة ، ثم التباشير ، ثم الفجر الأول ، ثم المعترض ، ثم الإسفار . وأسماء أخرى يذكرها اللغويون [2] ، حيث يروون أن الجاهليين كانوا يقسمون اليوم الى أربع وعشرين ساعة . غير أن من الصعب العثور على دليل يفيد وجود هذا التقسيم عندهم [3] .

وهناك من اللغويين من يرى أن هذه الأسماء المتداولة مروية عن أهل الكتاب ، وأن العرب المستعربة لما جاورتهم أخذتها عنهم ، وأن العرب العاربة لم تكن تعرف هذه الأسماء [4] .

ولا بد لنا هنا من الاشارة الى أن موضوع التوقيت عند الجاهليين من الموضوعات المعقــدة المشكلة ، لتضارب روايات الأخباريين فيه . ولقلة ما ورد عنه فى النصوص وفى روايات الرواة . فما ذكر عن الأشهر الحرم وعدتها وأسمائها عند الجاهليين يحتاج الى نظر . وما كتبه بعض المستشرقين وغيرهم من المحدثين عنها وعن التوقيت والنسيء ناقص ، لما أوردتـه من أسباب . ولذلك ، فلا بد من الانتظار بعض الوقت لنضوج هذا الموضوع ، ولا بد من الاستعانة بما ورد من معارف عن التوقيت عند بقية الشعوب السامية حتى نتمكن من سدّ الفجوات والثغرات الواسعة الموجودة في علمنـــا عن توقيت الجاهليين بعض السدّ .

---

(١) « الشاهد يوم الجمعة ...... وصلاة الشاهد صلاة المغرب ... » تاج العروس (٢/٣٩٢) .
(٢) بلوغ الأرب (١/٢٧٤) ، « المهتكة » ، صبح الأعشى (٢/٣٤٨) .
(٣) Ency., IV, P. 1210. (٤) بلوغ الأرب (١/٢٧٥) .

الفصل الثامن

الحياة والموت

لا نعرف رأي الجاهليين فى الوجود ، إذ لم تصل الينا نصوص جاهلية فى هـذا المعنى . ولا بد أن يكون لهم كما كان لغيرهم رأي فى الخلق وفي نشوء الكون . فموضوع نشوء الكون وظهوره ، من الموضوعات التي تثير رأي كل إنسان مهما كانت ثقافته وتفكيره .

وفى القرآن الكريم آيات فيها خطاب للمشركين في بيان فساد رأيهم واعتقاداتهم ، وفيها ردّ عليهم ، منهـا نستطيع أن نحيط بعض الاحاطة بآرائهم فى الوجود وفي البعث والحشر والحساب وغير ذلك من أمور تتعلق بدياناتهم . وهذه الآيات هي الشواهد الوحيدة التي نملكها من آراء القوم فى ذلك العهد . أما ما جاء فى روايات الأخباريين وفى كتب الملل والنحل فيجب أن ننظر اليه بحذر شديد نظرتنا الى الموارد الأخرى .

يفهم من القرآن الكريم أن من الجـاهليين من كان يعتقد أن للعـالم خالقاً خلق الكون وسوّاه ، وأن منهم من كان يعتقد بوجود إلـه واحد فهم موحدون ، وأن منهم من أقر بوجود إلـه واحد غير أنه رأى تعذر الوصول اليه بغير وسطاء وشـفعاء فاعتقد بالأرواح وبالجن وعبد الأصنام لتكون واسطة تقربه الى الله (1) .

أما كيف خلق الله الأرض والسماوات وكيف نشأ الكون ، فذلك ما لم يتعرض له القرآن الكريم حكايةً على لسان الجاهليين . ولذلك لا نعرف رأي أولئك القوم الذين عاصروا الرسول وعاشوا قبيل الإسلام فى كيفية ظهور الوجود وخلق الكون .

---

(1) بلوغ الأرب (٢/١٩٤ وما بعدها) .

ويفهم من بعض روايات الأخباريين أن من الجاهليين من كان يرى أن خالقاً خلق الأفلاك، غير أنها تحركت أعظم حركة فدارت عليه وأحرقته؛ لأنه لم يقدر على ضبطها وامساك حركتها، وأن منهم من كان يقول: «إن الأشياء ليس لها أول البتة، وإنما تخرج من القوة الى الفعل. فإذا خرج ما كان بالقوة الى الفعل، تكونت الأشياء مركباتها وبسائطها من ذاتها لا من شيء آخر. وقالوا إن العالم لم يزل ولا يزال ولا يتغير ولا يضمحل مع فعله. وهذا العالم هو الممسك لهذه الأجزاء التي فيه»[1]. وهذا كلام إن صح أنه من كلام الجاهليين ومن مقالاتهم، فإنه يدل على تعمق القوم فى المقالات، وعلى أن لهم رأياً وفلسفة فى الدين، وأنهم لم يكونوا على الصورة التي يتخيلها معظمنا عنهم، وهي الصورة التي رسمها لهم أهل الأخبار في أثناء كلامهم العام عن الجاهليين.

وفى مطلع قائمة الموضوعات التي أثارت البشرية ولا تزال تثيرها قضية الموت الذي هو ضد الحياة[2] والعالم الثاني الذي يصير اليه الإنسان بعد الموت. أن الموت أمر مخيف راعب يثير مشاعر كل إنسان. فما الذي سيكون مصيره بعد الحياة، والى أي مكان سيتجه بعد هذه الحياة، وهل الموت انطفاء لشعلة الحياة وانحلال للجسد الى الأبد؟ أو هو مرحلة من حياة الى حياة أخرى يحيا فيها الإنسان حياة جديدة، ويبعث بعثاً جديداً يبعثه من خلقه؟ ثم ما الذي سيكون عليه فى العالم الثاني؟ هل يعيش عيشة راضية مطمئنة، عيشة تفوق معيشته فى عالمه الأول؟ أم سيعيش عيشة أخرى؟ إما راضية ناعمة، وإما شقية تعسة بحسب عمل الإنسان وما قدمه لنفسه من عمل فى العالم الأول؟ هذه الأسئلة وعشرات من أمثالها شغلت بال الإنسان البدائي والراقي ولا تزال تشغله. كلٌّ وجد لها أجوبة، وكل قنع بما أجاب به عنها، ورضي بها. وكانت للجاهليين على اختلاف قبائلهم آراء فى هذه المشكلات لا شك فى ذلك.

لم يكن كثير من الجاهليين يؤمنون بالبعث كما يتبين ذلك من القرآن الكريم. لقد كانوا يرون أن الموت نهاية، وأنهم غير مبعوثين، وأن البعث بعد الموت شيء غير معقول، لذا تعجبوا

---

(١) بلوغ الأرب (٢/٢٢٠ وما بعدها). (٢) المخصص (٢/٦٤).

من قول النبي بوجود البعث والحساب . « وقالوا إن هي إلاّ حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين »[1]، « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ، بلى وعداً عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون »[2] ، « وقالوا أإذا كنّا عظاماً ورفاتاً أإنّا لمبعوثون خلقاً جديداً . قل : كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر في صدوركم ، فسيقولون : من يعيدنا ؟ قل : الذي فطركم أول مرّة ، فسينغضون اليك رؤوسهم ، ويقولون : متى هو ؟ قل : عسى أن يكون قريباً »[3].

والآيات المتقدمة وأمثالها[4] كلها حكاية عن رأي كثير من الجاهليين فى نفي البعث وفى عدم إمكان العودة الى حياة أخرى بعد موت يهلك الجسم ويفني العظام فيجعلها رميماً ويمحو كل أثر للجسم ، لذا كان البعث من أهم ما عارض فيه الجاهليون معارضة قاسية شديدة ، وكان من الموضوعات التي تندروا بها وسخروا وآخذوا عليها الرسول .

وممن أنكر البعث على ما ذكره الأخباريون قوم من قريش كانوا زنادقة أنكروا الآخرة والربوبية ، أخذوا زندقتهم هذه من الحيرة[5] . واذا كان من هؤلاء من كان يقدم القرابين والهدايا لأصنامه ، فإن ذلك لا يعني أنه كان يفعل ذلك لترضى عنه فى العالم التالي ، بل كان يفعل ذلك لترضى عنه فى هذه الحياة الدنيا ، لتمنّ عليه بالنعم والخيرات . أما العالم الثاني ، فهو عالم لا يهتمّ به ؛ لأنه لم يكن يتصور وجوده ولا حدوثه بعد الموت[6] .

ويتجلى هذا الإنكار للحشر والبعث فى أبيات تنسب الى شدّاد بن الأسود بن عبد شمس ابن مالك يرثي بها قتلى قريش يومَ بدرٍ ، وهم الذين قتلوا في تلك المركة وأُلقوا فى القَلِيب ، اذ ورد فيها :

يحدثنا الرسول بأن سَنَحْيا … وكيف حياة أصداء وهام ؟

أراد الشاعر بهذا البيت إنكار البعث ، وأن يصير الإنسان مرة أخرى إنساناً بعد أن تتحول روح الإنسان الى طير[7] .

---

(١) الأنعام ٢٩ . (٢) النحل ٣٨ . (٣) الاسراء ٤٩ وما بعدها .
(٤) هود ٧ ، المؤمنون ٨٢ وما بعدها ، سبأ ٣ وما بعدها ، الجاثية ٣٤ وما بعدها .
(٥) بلوغ الأرب (١/٣٤٥) ، المحبر (ص ١٦١) . (٦) Reste, S. 185.
(٧) بلوغ الأرب (٢/١٩٩) .

غير أن فريقاً من الجاهليين كما يقول أهل الأخبار كان يؤمن بالبعث وبالحشر بالأجساد بعد الموت ، ويستشهدون على ذلك « بالعَقِيرة » وتسمى « البلية » أيضاً ، ويقصدون بذلك عقر ناقة أو جمل أو بقرة أو شاة عند قبر ميت ، فلا تعلف ولا تسقى حتى تموت جوعاً وعطشاً ، أو يحفر لها وتترك فيها الى أن تموت . ويذكر أيضاً أنهم كانوا يعكسون رأس الناقة أو الجمل أي يشدونه الى خلف بعد عقر إحدى القوائم أو كلها لكيلا تهرب ، ثم يترك الحيوان لا يعلف ولا يسقى حتى يموت عطشاً وجوعاً ، ذلك لأنهم كانوا يرون أن الناس يحشرون ركباناً على البلايا ومشاةً إذا لم تعكس مطاياهم عند قبورهم [1] وأنهم كانوا يطلقون مصطلح « اللزام » على الموت والحساب [3] . وفي رواية أن بعض المشركين كان يضرب راحلة الميت بالنار وهي حيّة حتى تموت [2] ، وذلك يدل على اعتقادهم البعث والحشر .

وإذا كانت طريقة الجاهليين في عقر الحيوانات المسكينة واهلاكها قد ماتت وزالت ، بسبب تحريم الإسلام لها ، فإن فكرة حشر الناس ركباناً لا تزال باقية حيّة عند بعض الناس . فالذين يقدمون « العقيقة » في الحياة أو يقدمونها حين الوفاة ومع نقل الجنازة أو على القبر ، يختارون أحسن الحيوانات وأقواها لتتمكن من حملهم يوم الحشر ، وتنهض بهم ، فيسير راكباً ، ولا يحشر وهو مترجل يسير في تلك الساعات الرهيبة ماشياً على قدميه .

والبليّة هي غير النسيكة ، والنسيكة هي الذبيحة التي كان يقدمها الجاهليون الى أصنامهم ، فهي أعم من البليّة . وهي تكون في كل وقت [4] . وأما البدنة والبُدُن ، فذبح الإبل والبقر ليقدم قرباناً الى الآلهة [5] . فهناك اذن أنواع عديدة للأضاحي والقرابين عند الجاهليين ، ولا غرابة في ذلك ، فقد كان الذبح بأنواعه أهم عبادة في ديانات العرب قبل الاسلام .

---

(١) تاج العروس (١٠/٤٣) ، اللسان (١٨/٩٢) ، النهاية (١/١١٥) .

(٢) الأغاني (١٦/٤٨) ، « أخبار زيد الخيل » ، Reste, S. 180 f.

(٣) المخصص (٦/١٢٢) ، اللسان (١٦/١٥) .

(٤) فنزل عنها وأوفى رأس مرقبة ... كمنصب العتر دمى رأسه النسك

المخصص (١٣/٩٨) ، اللسان (١٢/٢٨٩) . قال ذو الرمة :

وربّ القلاص الخوص تدمى أنوفها ... بنخلة والساعين حول المناسك

تاج العروس (٧/١٨٦) .

(٥) اللسان (١٦/١٩٣) .

أما كيف تصور أولئك الجاهليون حدوث البعث والحشر ، هل هو قصاص وثواب وعقاب وحساب وجنّـة ونار ، أو هو بعث وحشر لا غير ، فأهل الأخبار لم يأتوا عنه بجواب ، ولم يذكروا رأي تلك الفئة المقرة بالبعث والحشر فى ذلك . ولهـذا لم يكن في استطاعتنا إعطاء صورة واضحة عن الحشر وعما يحدث بعده من تطورات وأمور .

واذا كان ما تصوره أهل الجاهلية عن البعث والحشر صحيحاً على نحو ما ذكره أهل الأخبار ، فلا يستبعد أن يكون أولئك القائلون به أو بعضهم قـد تصوروا الحساب على نحو ما يحاسب الانسان على عمله فى دنياه . ويلاحظ أن القيامة والبعث والحشر والجنة والنار هي من الكلمات العربية الأصيلة التي لا يستبعد أن يكون لها مفهوم قريب من مفهومها الاسلامي عند الجاهليين . أما كلمة « جهنم » ، فيرى العلماء أنها من الكلمات المعربة . ويظن المستشرقون أنها من أصل عبراني [1] . ومن أسماء جهنم على رأي علماء اللغة « الهاوية » [2] . و « أم الهاوية » [3] . وهما من التعابير الإسلامية على ما يخيل الي .

وبفضل اقرار الاسلام لبعض أحكام الجاهليين في الزواج وفى الطلاق وفى الوفاة وفى الميراث وتحريم أحكام أخرى مع الاشارة اليها ، جمع أهل التفسير والحديث والأخبار طائفة لا بأس بها من أخبار أهل الجاهلية القريبين للاسلام والمعاصرين له ، خاصة أحكام أهل المدينتين مكة ويثرب ومن سكن فى جوارهما من أهـل المدر والوبر . وعلى كل ما ذكرنا أعتمادنا . غير أن تلك المادة لا تزال خاماً بكراً ، وبها حاجة شديدة الى الغربلة والنقد والتنسيق .

فما سنذكره فى هذه الصفحات ، لايعني إذن شمول هذا الوصف عموم الجاهليين فى كل الأوقات وفى كل أنحاء الجزيرة ، إنما هو قول خاص بالجاهليين القريبين من الإسلام والمعاصرين له والساكنين فى الحجاز ولا سيما فى المدينتين المذكورتين . أما قدماء الجاهليين ممن عاشوا قبل الميلاد والجاهليين الذين عاشوا فى جنوب الجزيرة أو في شرقيها ، فلا نستطيع أن نقول إن

---

(١) المعرب : للجواليقي (ص ١٠٧) « طبعة دار الكتب المصرية » Ency. , I, P. 998.

(٢) اللسان (٢٠/٢٥٠) . (٣) المخصص (١١/٣٨) .

ما نذكره هنا منتزع من صميم حيـاتهم ، فهو يمثـل ما كان عندهم كل التمثيل ؛ لأن المواد التي أشرت اليها لا تصل الى حدودهم ، وليس لها قدرة الوصول اليهم ، فليس من حقنـا إذن تعميم ما سنقوله على جميع الجاهليين .

ويقال للزواج « النكاح » كذلك ، وهو الوطء والعقد جميعاً . وهو اصطلاح جاهلي كان معروفاً عند ظهور الإسلام[1] . أما إذا كان الاتصال بين الرجل والمرأة اتصالاً جنسياً بغير عقـد ولا خطبة ، فهو زنى ، ويقـال للمرأة عندئذ « زانيـة » و « بغيّ » و « فاجرة »[2] وعاهرة ومُعاهِرة ومسافحة[3] .

وقـد صنف « روبرتسن سمث » زواج العرب الى ثلاثة أصناف : زواج يـكون فى حدود القبيلة فلا يتعداه ، ولا يسمح لرجال القبيـلة إلا بالزواج من بنات القبيلة نفسها ، وهو ما يسمى بـ « Endogamous » . وزواج يفرض فيه على الرجل أن يتزوج من امرأة من قبيلة أخرى ، وهو ما يعرف بـ « Exogamous » . وزواج يسمح بالطريقتـين المذكورتين ، أي بالزواج فى داخل القبيلة وبالزواج من خارجها على السواء[4] .

أما عن الزواج ، فيظهر من درس كل ما ورد فيه أن الجاهليين لم يكونوا يسيرون على طريقة واحدة فى عقده ، إنما كانت لهم فيه جملة عقود تختلف باختلاف الأماكن وباختلاف أوضاعهـا الاجتماعية والاقتصادية واتصالها بالخارج . وقد وردت الينا مسميات بعض تلك الأنواع ، مثل « الخدن » و « المتعة » و « البدل » و « الشغار »[5] و « البعولة » وغير ذلك مما ورد وصفه وشرحه ولـكنه لم ينعت بإسم معيّن خاص .

وأنواع الزواج المذكورة والتي سيرد ذكرها ، ليست بدعاً خاصاً بالجاهليين ، بل هي معروفة عند غيرهم أيضاً ، ولا سيما عند الشعوب السامية ، وهي مراحل مرت على جميع البشر ، ولا يزال الـكثير منها قائماً فى أنحاء متعـددة من العالم . وهى فى الغالب مرآة للظروف التي يعيش فيهـا الناس . وبعض هذه الأنواع زناء معيب فى عرفنا ، غير أننـا يجب أن نفكر دائماً أن أولئك

---

(١) عمدة القاريء (٢٠/٦٤) ، المبسوط للسرخسي (٤/١٩٢) .

(٢) والجمع « البغايا » النهاية (١/١٠٥) « بغى » ، اللسان (١٨/٨٣) .

(٣) اللسان (٦/٢٩٠) .

(٤) Kinship and Marriage. P. 60.

(٥) بلوغ الأرب (٢/٣ وما بعدها .

القوم كانت لهم مقاييس دينية وخلقيـة خاصة بهم ، وهي سليمة صحيحة بالقياس إليهم ، وأنهم عاشوا قبل الإسلام وفى ظروف تختلف عن ظروفنا ، وأن ما نسميه عيباً لم يـكن عيباً بالقياس الى المراحل التي كانوا فيها وعرف ذلك العهد .

وقد أشـــير إلى نكاح « الخدن » فى القرآن الكريم ، « وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان » [١] ، ومعنـاه اتخاذ أخلاء فى السـر ، وذلك باتخاذ الرجل صديقة له ، أو اتخاذ المرأة صديقاً لها [٢] . ويـكون ذلك بالطبع بتراض واتفاق . و « ذات الخدن » هي من اتخذت لها صديقاً واحداً ، وقد نهى عن اتخاذ الاخدان فى جملة ما نهي عنه في الإسلام [٣] . وكان الرجل فى الجاهلية يتخذ خدناً لجواريه ، ليحدث الجارية ويصاحبها ويؤانسها لـكي لا تستوحش ، وقد يتصل بها ، وقد نهى عن هذا النوع من المخادنـة أيضاً فى الاسلام [٤] .

وأما نكاح « المتعة » ، فهو نكاح الى أجل ، فإذا انقضى وقعت الفرقة . وقد كان هذا النوع من الزواج معروفاً عند ظهور الإسـلام . وقد أشير اليه فى القرآن الـكريم : « فما أستمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ولا جناح عليـكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة ، ان الله كان عليماً حكيماً » [٥] . وللفقهاء فى الإسلام بحث فى المتعة ، إذ لا تزال معروفة فى بعض المذاهب [٦] .

---

(١) النساء الآية ٢٥ ، « اذا آتيتموهن اجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان » ، المائدة الآيـة ٥ .

(٢) الطبرسي ، الجزء الثالث (ص ٣٤) .

(٣) تفسير الطبري (١٤/٥) ، تفسير المنار (٢٢/٥ وما بعدها) .

(٤) اللسان (٢٩٦/١٦) ، تاج العروس (١٩٠/٩) .

(٥) النساء الآية ٢٤ .

(٦) صحيح مسـلم (١٣٠/٤) ، المبسوط للسرخسي (١٥٢/٥) ، (٦١/٦) ، السنن الـكبرى (٢٠٠/٧) . تفسير الطبري (٨/٤ وما بعدها) ، الطبرسي : (٣٢/٣) ، روح المعاني (٥/٥ وما بعدها) ، النهايـة (٨١/٤) ، المحبر (ص ٢٨٩) ، تفسير المنار (١٣/٥ وما بعـدها) ، سنن أبي داوود (٢٢٦/٢ وما بعدها) ، عمدة القاريء (٢٠٨/١٨) ، (١١١/٢٠) . الأمومة عند العرب ، تأليف « ولـكن G. A. Wilken » نقلها عن الجرمانيـة بندلي صليبا الجوزي . قازان ١٩٠٢ (ص ١٥ وما بعدها) .

ومن دوافع حدوث هذا الزواج التنقل والأسفار، والحروب، حيث يضطر المرء إلى الاقتران بامرأة لأجل معين على صداق فإذا انتهى الأجل، انفسخ العقد . وعلى المرأة أن تعتدّ كما في أنواع الزواج الأخرى قبل أن يسمح لها بالاقتران بزوج آخر . فهو كزواج البعولة، فيما سوى الاتفاق على أجل معين يحدد مدة الزواج .

وينسب أولاد المتعة الى أمهاتهم في الغالب، وذلك بسبب اتصالهم المباشر بالأم ولارتحال الأب عن الأم في الغالب الى أماكن أخرى قد تكون نائية، فتنقطع الصلات بذلك بين الأب والأم . ولهذا يأخذ الأولاد نسب الأم ونسب العشيرة التي تنتمي اليها تلك الأم .

ونكاح « البدل » هو أن يقول الرجل للرجل : إنزِلْ لي عن امرأتك وأنزلُ لك عن امرأتي[1]، فهو زواج إذن بطريق المبادلة بغير مهر .

وأما « الشِغَار »، فهو « أن يزوج الرجل ابنته على أن يزوجه الآخر ابنته ليس بينهما صداق، وغير البنات من الأخوات وبنات الأخ، وغيرهن كالبنات فى ذلك » [2]. وعرفه بعضهم على هذا النحو : « الشِغار بكسر الشين نكاح كان فى الجاهلية، وهو أن تُزوج الرجل امرأة ما كانت على أن يزوّجك أخرى بغير مهر . وخص بعضهم به القرائب، فقال : لا يكون الشغار إلاّ أن تنكحه وليتك على أن ينكحك وليته » [3]. فكان الرجل يقول للرجل : شاغرني أي زوجني أختك أو بنتك أو من تلي أمرها حتى أزوجك أختي أو بنتي أو من إليّ أمرها . ولا يكون بينهما مهر [4]. وقد نهى الاسلام عن هذا النوع من الزواج[5]. وهو مثل « البدل » بدون مهر . وهو معروف حتى اليوم مع ورود النهي عنه ولا سيما بين الطبقات

---

(١) عمدة القارىء (١٢٢/٢٠)، كتاب « النكاح »، الحديث رقم (٦٠)، بلوغ الأرب (٥/٢) .

(٢) بلوغ الأرب (٥/٢)، سنن أبي داوود (٢٢٧/٢)، عمدة القارىء (١٠٨/٢٠ وما بعدها) . « كتاب النكاح : باب الشغار » حديث رقم ٤٨، السنن الكبرى (١٩٩/٧ وما بعدها).

(٣) اللسان (٨٥/٦ وما بعدها)، تاج العروس (٣٠٦/٣ وما بعدها) .

(٤) النهاية (٢٤٥/٢) .

(٥) « لا شغار في الاسلام »، صحيح مسلم (١٣٩/٤)، المبسوط للسرخسي (١٠٥/٥) .

الفقيرة والأعراب ، وللوضع الاقتصادي دخل كبير فى هذا الزواج ، لعدم وجود المهر فيه .

وأما زواج « البعولة » ، فهو زواج منظم ، رتب الحياة العائلية وعين واجبات الوالدين والبنوة . وهو الذي أقره الإسلام[1] . يكون الرجل بموجبه « بعلا » المرأة فهي فى حمايته وفى رعايته . ولم تكن شريعة الجاهليين على ما يظهر قد حددت للبعل عدد الزوجات ، فكان له أن يتزوج من النساء ما أحب . حتى إذا جاء الإسلام ، منع الرجل من الجمع بين أكثر من أربع زوجات ، واشترط فى ذلك وجوب العدل بين الزوجات[2] .

وزواج البعولة هو الزواج الذي كان شائعاً بين الجاهليين وفى كل أنحاء الجزيرة ، خاصة عند ظهور الاسلام ، وبين أهل الحضر وأهل الوبر . ويرجع « روبرتسن سمث W. R. Smith » أسباب شيوع هذا الزواج وظهوره الى الحروب والى وقوع النساء فى الأسر ، ويكون الأولاد بحسب هذا النوع من الزواج تابعين للأب ، يلتحقون به ، ويأخذون نسبه . وهو على نوعين : نوع يكتفي فيه الرجل بالتزوج من امرأة واحدة وهو ما يسمى بـ « Monogamy » ، ونوع آخر يتزوج بموجبه الرجل عدداً غير محدود من النساء ، أي أكثر من زوجة واحدة فى آن واحد وهو ما يسمى بـ « Polygyny »[3] .

وزواج البعولة هو الزواج المعروف أيضاً عند العبرانيين وعند غير العبرانيين ، يكون الزوج فيه بعلاً المرأة ، أما المرأة فتكون « بعلة » لزوجها ، وتلتحق الزوجة وأولادها بموجبه بقبيلة الرجل[4] .

يحصل الرجل على زوجته بالتراضي مع أهل الزوجة ، أو بالحرب حيث يحصل المنتصرون على أسرى فيختار الرجل لهواحدة من بينهن متى ولدت له أولاداً صارت زوجة له . ويقال للزوج فى العبرانية « بعلا » . أما الزوجة فهي بيمولاه « Be'ūlah »[5] . ويلاحظ أن النصوص العربية الجنوبية دعت الزوج بعلاً ، أما الزوجة فدعتها « بعلت » ، ومعناها أن المرأة هي فى

---

(١) النهاية (١/١٠٤) . Ency. Religi. , 8, P. 470.

(٢) النساء الآية ٣ وما بعدها .

(٣) Ency. Religi. , 8, P. 468.

(٤) Hastings, P. 583.

(٥) Ency. Religi. , 8, P. 469.

حيازة الزوج وملكه .

ولذلك عوملت بعد وفاة زوجها معاملة « التركة » أي ما يتركه الانسان بعد وفاته ، لأنها كانت في ملك زوجها وفي يمينه . ومن هنا كان للأخ عند قدماء العبرانيين أن يأخذ زوجة أخيه اذا مات ولم يكن له ولد ، لأن الأخ هو الوارث الشرعي لأخيه ، فهو يرث لذلك زوجة أخيه التي هي في بعولته ، وللأخ هذا الحق أيضاً عند العرب ما قبل الاسلام . ويرث ابن الأخ هذا الحق عن أبيه[1] .

وهذه النظرة هي التي دعت الجاهليين أن يعطوا الأبناء والأخوة وأقرباء المتوفى اذا لم يكن له أبناء حق نكاح زوجات المُتَوَفَّى . « ذلك أنهن في الجاهلية كانت احداهن إذا مات زوجها كان ابنه أو قريبه أولى بها من غيره ومنها بنفسها ، إن شاء نكحها ، وإن شاء عضلها فمنعها من غيره ولم يزوجها حتى تموت »[2] . وظل هذا شأنهم الى أن نزل الوحي بتحريم ذلك[3] . وقد تناوب ثلاثة من « بني قيس بن ثعلبة » امرأة أبيهم ، فعيرهم ذلك « أوس بن حجر التميمي »[4] .

وهذا الزواج على أنه كان معروفاً وقد مارسه أناس معروفون كان ممقوتاً من الأكثرية ، ولذلك عرف بـ « زواج المقت » ، ويطلقون على الرجل الذي يخلف امرأة أبيه إذا طلقها أو مات عنها وقيل من يزاحم أباه في امرأته « الضيزن » . ويقال للولد الذي يولد من هذا الزواج مقتي ومقيت[5] .

وطريقة أهل « يثرب » في إعلان دخول زوجات المتوفى في ملك الابن أو الأخ أو بقية

---

(١) تفسير الطبري (٢٠٨/٤) .

(٢) تفسير الطبري (٢٠٧/٤) ، روح المعاني (٢٤٥/٤ وما بعدها) ، سنن أبي داوود (٢٣٠/٢)، تفسير المنار (٤٥٢/٤ وما بعدها) ، السنن الكبرى (١٦١/٧ وما بعدها) .

(٣) راجع سورة النساء الآية : ٢٢ : « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف ، إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلا » .

(٤) بلوغ الأرب (٥٢/٢) .

(٥) « ولد المقت » ، المبسوط للسرخسي (١٩٨/٤) ، بلوغ الأرب (٥٢/٢ وما بعدها) ، تاج العروس (٥٨٥/١) ، النهاية (١٠٨/٤) ، تفسير المنار (٤٦٤/٤ وما بعدها) .

الأقرباء من ذوي الرحم اذا لم يكن للمتوفى أبناء أو أخوة ، هو بإلقاء الوارث ثوبه على المرأة ، فتكون عندئذ في ملكه ، إن شاء تزوجها ، وإن شاء عضلها ، أي منعها من الزواج من غيره حتى تموت ، فيرث ميراثها ، إلاّ أن تفتدي نفسها منه بفدية ترضيه [1] .

وقد كان العبرانيون يتزوجون زوجات آبائهم كذلك . استمروا على ذلك حتى بعد السبي . كذلك عرفت هذه العادة بين الرومان والسريان ، فلم ينفرد أهل المدينة أو الحجاز إذن وحدهم بهذه العادة عادة الاقتران بزوجات الآباء [2] .

وهناك زواج آخر يسمى في عرف أهل الأخبار « نكاح الاستبضاع » ، وهو أن يسمح الرجل على حد قول الأخباريين لزوجته بالاتصال برجل آخر من أهل الصحة والشجاعة والكرم والبيوت ، ثم ينقطع عنها ولا يتصل بها حتى يتبين له حملها من ذلك الرجل ، فاذا تبين حملها ، أصابها زوجها اذا أحب . وهم يعللون هـــذا النوع من النكاح بأنه للحصول على أولاد نجباء أقوياء أصحاء شجعان على شاكلة من اتصل بتلك المرأة [3] .

كذلك كان بعض أصحاب الجواري على ما يرويه أصحاب الأخبار أيضاً يكلفون جواريهم بالاتصال برجل معين من أهل الشدّة والقوّة والنجابة ، ليلدن ولداً منه يكون في يمينه وملكه [4] . والغاية من هذا النوع من التكليف الحصول على أولاد أقوياء يقومون بخدمة الرجل المالك ، ان شاء استخدمهم فى بيته وفى ملكه ، وان شاء باعهم وربح منهم ، فهي تجارة كان يمارسها المتاجرون بالرقيق للربح والكسب .

ونوع آخر من الزواج ، هو زواج تعدد الأزواج « Polyandry » . وطريقته « أن يجتمع

---

(١) تفسير الطبري (٤/٢٠٨ وما بعدها) . (٢) Kinship, P. 90.

(٣) بلوغ الأرب (٢/٤) ، « والاستبضاع نوع من نكاح الجاهلية ، وهو استفعال من البضع الجماع . وذلك ان تطلب المرأة جماع الرجل لتنال منه الولد فقط . كان الرجل منهم يقول لأمته أو امرأته : أرسلي الى فلان فاستبضعي منه ، ويعتزلها فلا يمسها حتى يتبين حملها من ذلك الرجل . وانما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد » ، النهاية (١/٩٨) ، الأمومة عند العرب (ص ٢٤ وما بعدها) ، Kinship, P. 110 .

(٤) تاج العروس (٥/٢٧٩) ، اللسان (٩/٣٦١) .

الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها أي يطؤها ، وذلك إنما يكون عن رضى منها وتواطؤ بينهم وبينها ، فإذا حملت ووضعت ومرّ ليال بعد أن تضع حملها أرسلت اليهم ، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها ، تقول لهم : قد عرفتم الذي كان من أمركم ، وقد ولدت ، فهو ابنك يا فلان ، تسمي من أحبت باسمه ، فيلحق به ولدها لا يستطيع أن يمتنع به الرجل . قيل : هذا إن كان ذكراً ، وإلا فلا تفعل ذلك لما عرف من كراهتهم فى البنت . وقد كان منهم من يقتل بنته التي يتحقق أنها بنت فضلا عمن تجيء بهذه الصفة » (١) .

ويطلق على الـ « Polyandry » وعلى الـ « Polygyny » مصطلح « Polygamy » أي تعدد الأزواج ، وهو يشمل مذهب تعدد الزوجات للرجل ، وتعدد البعولة بالنسبة للمرأة .

وذكر أهل الأخبار نوعاً آخر من النكاح ، هو نكاح صواحبات الرايات . وهو أن يجتمع الناس الكثير ، فيدخلوا على المرأة ، لا تمنع من جاءها . وهن البغايا كنّ ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً ، فمن أرادهن دخل عليهن ، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها ، جمعوا لها ، ودعوا لهم القافة ، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون فالتاطته به ، ودُعي ابنه ، لا يمتنع من ذلك (٢) » . وذكر أن تلك الرايات كانت رايات حُمْراً (٣) .

وممن أشار الى وجود مذهب تعددالأزواج للزوجة الواحدة عندالعرب من « الكلاسيكيين » « سترابون » . ذكر أن الأخوة كانوا يشتركون فى كل شيء ، فى المال وفى الزوجة . فللإخوة جميعهم زوجة واحدة تكون مشتركة بينهم . ولكن الرئاسة تكون للأخ الأكبر . واذا أراد أحد الأخوة الاتصال بالزوجة ، وضع عصاه على باب الخيمة ، لتكون علامة تفهم الآخرين أن أحدهم فى داخلها ، فلا يدخلها ، وهم جميعاً يحملون العصي معهم . أما فى الليل فتكون الزوجة من نصيب الولد الأكبر . وهم يعاشرون أمهاتهم معاشرة جنسية . وذكر أنهم يعاقبون الزاني عقاباً شديداً . يعاقبونه بالموت . والزاني فى عرفهم هو الشخص الغريب ، يعاشر إمرأة من أصل

---

(١) عمدة القاريء (٢٠/١٢١ وما بعدها) ، القسطلاني (٨/٤٥) ، الأمومة عند العرب (٢٤ وما بعدها) ، الملل والنحل للشهرستاني (٢/٤٤٢) « لندن » ، بلوغ الأرب (٢/٤) .

(٢) بلوغ الأرب (٢/٤ وما بعدها) . (٣) تفسير المنار (٥/٢٢) .

غريب عنه [1] .

وليس بمستبعد أن يكون « سترابون » قد قصد بهذا الزواج الزواج المعروف بـ « Levirate marriage » وهو زواج الأخ زوجة أخيه بعد وفاته ، وهوزواج نشأ على رأي الاختصاصيين من زواج الـ « Polyandry » . وهو معروف عند العرب وعند العبرانيين والحبش [2] .

وحينما يتوفى الزوج عند العبرانيين ، تاركاً له زوجة دون ولد ، يأخذ الأخ أرملة أخيه ، فإذا ولدت له ولداً عدّ المولود ولداً للأخ المتوفّي [3] . وللباحثين آراء في أصل هذا الزواج وفي الأسباب التي دعت الى وقوعه [4] ، وهو في رأي « جيمس فريزر » صفحة من صفحات اشتراك الإخوة في زوجة واحدة ، واشتراك الاخوة في تزوج الأخوات ، وهو متمم لما سمّاه بـ « Sororate » [5] .

والجمع بين الأختين زوجتين لرجل واحد زواج معروف عند الجاهليين [6] . وهذا الزواج هو صورة معكوسة لزواج الأخوة مشتركا في زوجة واحدة ، فلم يكن هنالك رادع قانوني يمنع الرجل من التزوج من الأخوات في زمن واحد ، ومن الجمع بينهن في صعيد الزوجية ، وفي بعولة رجل واحد . وهو في جملة أنواع الزواج الذي نُهي عنه في الاسلام [7] .

وذهب بعض العلماء الى أن اشتراك الاخوة في زوجة واحدة «Fraternal Polyandry» على نحو ما أشار « سترابون» اليه ، هو زواج يعد مرحلة وسطى بين تعدد الأزواج «Polyandry» البدائي الذي لم يكن مقيداً بقيود وبين الزواج المعروف ، زواج البعولة ، وهو اختصاص المرأة بزوج واحد ، أي الزواج الذي أباحته الأديان السماوية ، وكان شائعاً بين الجاهليين القريبين من الإسلام وعند ظهور الإسلام .

---

(١) Strabon, XVI, 4, Ency. Religi., 8, 467.

(٢) Ency. Religi., 8, P. 467, F. Buhl, Die Socialen Verhaltnisse der Israeliten, S. 28.

(٣) Ency. Brita., 13, P. 979.

(٤) Westermark, History of Human Marriage vol., III, (1921).

(٥) Ency. Brita., 21, P. 2 "Sororate". Sir James Frazer, Folklore of the old Testament, vol., II, P. 317.

(٦) تفسير الطبري (٤/٢١٧ وما بعدها) ، روح المعاني (٤/٢٦٠) .

(٧) سورة النساء .

(٨) Ency. Religi., 8, 467, F.

وتعدد الأزواج للزوجة الواحدة يسبب مشكلة خطيرة في قضية تعيين أبوة الأولاد . إذ يكون من الصعب في أكثر الحالات إثبات ذلك ، ولهذا نسبوا الى الأمهات في الغالب . وهذا ما يعرف بالأمومة . وزواج مثل هذا يكون داخلياً ، أي بين أفراد العشيرة الواحدة . ويعاقب مرتكبه عقاباً صارماً إذا كان من عشيرة غريبة ، إذ يعد ذلك نوعاً من الزنى . ويكون هذا الزواج مؤقتاً في الغالب ، ينتهي أجله بارتحال أهل المرأة وانتقالهم من مكان الى مكان آخر . ويرى « جورج برتن George Barton » أن هذا النوع من الزواج هو الذي قصده « أميانوس مارسيلنوس Ammianus Marcellinus » بقوله إن العروس عند العرب تقدم لزوجها ومعها حربة وخيمة ، وأنها تعود الى بيتها بعد مدة اذا رغبت في ذلك [١] .

إن هذا الزواج يجعل المرأة تعيش مع أهلها وبين أبويها وإخوتها ومعها أولادها ، ولهذا يكون نسب الأطفال هو نسب الأم ، ولهذا صار الخال أقرب اليهم من العم . ومن هنا نرى أن للخال أهمية كبيرة بالقياس الى الأطفال عند الساميين [٢] .

ويظن بعض الناس أن من الأسباب التي دعت الى شيوع تعدد الأزواج للزوجة الواحدة هو قلة عدد النساء بالقياس الى الرجال ، وذلك بسبب الوأد [٣] . ولكن كيف نتمكن من إثبات انتشار عادة الوأد بين جميع العرب وفي كل العهود ؟ ثم من الذي يثبت لنا أنه كان من سعة الانتشار بحيث أحدث مشكلة خطيرة في عدد النساء بالقياس الى الرجال ؟ ثم إن هذا النوع من الزواج كان معروفاً عند غير العرب من الأمم ، وما زال معروفاً عند بعض القبائل الإفريقية ، وهو في نظرهم نوع من أنواع الزواج ، وهم لا يمارسون مع ذلك الوأد !

وقد نص في الآية : « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن ، فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم

---

(١) Ency. Religi., 8, P. 467.

(٢) Ency. Religi., 8, P. 467.

(٣) Ency. Religi., 8, P. 467.

وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم ، وأن تجمعوا بين الأختين ، إلا ما قد سلف ، إن الله كان غفوراً رحيما [١] » وكذلك فى الآية السابقة لها من السورة نفسها على تحريم الاقتران بالنساء المذكورات فى الآيتين [٢] ، وذلك بسبب النسب والصهر والرضاع [٣] . ونزول الوحي بتحريم الزواج بالمذكورات ، يبعث على الظن أن من الجاهليين من كان يتصل اتصالا جنسياً بهن . غير أن رأي العلماء أن الجملة « انشائية » وليس المقصود منها الإخبار عن التحريم فى الزمان الماضي» [٤] ، بمعنى أنها ليست حكاية عن تجويز الجاهليين الاقتران بالنساء المذكورات ، وتحريم الإسلام له ، وإنما الآية تقرير وتوضيح للتحريم والمحرمات على سبيل العدّ والحصر ، لا الحكاية والإبطال لأحكام سابقة لظهور الاسلام [٥] .

ولهذه الآية أهمية خاصة بالقياس الى بحثنا فى زواج الجاهليين ، ولهذا كان لشرح أسباب نزولها والعوامل التي دعت الى نزول الوحي بها ، والغاية من نزول الحكم بالتحريم ، أهمية كبيرة للباحث في هذا الموضوع ، غير ان غالبية المفسرين لم تتعرض للبحث فى هذه المسألة ويا للأسف ، وإنما تبسطت فى أمور لغوية وفقهية لا تزيل الغموض عن الأسباب التي دعت الى النص على التحريم ، وعن آراء الجاهليين في الزواج بالمذكورات فى الآية ، اذ أن التحريم يعني وقوع الإباحة عند من حرّم ذلك عليهم الى حين نزول الوحي ، ولا سيما أن المفسرين قد ذكروا أمثلة تشير الى أن بعضهم قد تزوج ممن ورد ذكره فى تلك الآية . ثم إن بعضه من النوع المعروف المألوف عند بعض الأمم ، وما زال معروفاً حتى الآن ، وان بعض ما حرم فى الإسلام جائز فى ديانات أخرى ، ومنها اليهودية والنصرانية ، فليس بغريب ولا بعيب اذا كان موجوداً بعضه عند الجاهليين .

والاتصال الجنسي بين الأولاد والأمهات شيء قليل الوقوع عند البشر [٦] . ولم تبحه ديانة

---

(١) النساء : الآية ٢٣ وما بعدها . (٢) النساء : الآية ٢٢ .
(٣) تفسير القرطبي (٥/١٠٥ وما بعدها) . (٤) روح المعاني (٤/٢٤٩ وما بعدها) .
(٥) عمدة القاريء (٢٠/١٠٠) « كتاب النكاح : باب ما يحل من النساء وما يحرم » .
(٦) راجع بعض الأمثلة على ذلك في :
Quintus Curtius, VIII, ii, 19, Ency. Religi., 8, P. 457.

من الديانات ، وهو غير معروف فى العرب ولم يشر اليه أهل الأخبار ، أما ما ذكره « سترابون » فلعل المراد منه الزواج بزوجات الآباء بعد موتهم ، أي أنه ذكر الأمهات على سبيل التجوز ، وهو زواج كان معروفاً فى الجاهلية وعند غير الجاهليين ، الى أن نهى عنه الاسلام (١) .

وأما زواج الأخوة بالأخوات ، فهو معروف وثابت ، وما زال معروفاً حتى الآن فى « سيام » وفى بورما وسيلان وأوغاندا وأماكن أخرى . وقد كان عند الفرس والمصريين (٢) ، وخاصة بين أفراد الأسر المالكة والأشراف . والظاهر أن ذلك لاعتقادهم ضرورة المحافظة على نقاوة الدم وخصائص الأسرة . خاصة وقد كانت عقيدة القدماء أن أمثال تلك الطبقات مقدسة مؤلهة فلا يجوز اهراق دمها فى دم أوطأ منه .

وقد ذهب « موركن Morgan » وآخرون الى أن زواج الأخ بأخته ، هو الزواج المألوف العام الذي كان شائعاً بين البشر ، وأنه المرحلة السابقة للزواج المألوف (٣) .

ونظرةُ أن دماء الملوك والرؤساء لا يشبه دماء الآخرين ، وأنه أنقى وأصفى من دماء سائر الناس ، وله خصائص ومميزات لا توجد عند من دونهم ، معروفة عند الجاهليين ، ولذلك كانوا يداوون المصاب بداء الكلب بدم الرئيس (٤) ، ولهذا السبب كانوا يلاحظون منازل الأسر والتكافؤ فى الدماء فى قضايا الزواج .

أما زواج الآباء ببناتهم ، فهو معروف ومذكور ولكنه قليل ، وقد أشير الى وجوده عند بعض الشعوب ومنهم المجوس والمصريين ذكرذلك « اليونان » والرومان . وأشار الأخباريون الى تزوج حاجب بن زرارة ابنته « دختنوس » وذكروا أنه أولدها ، وأوردوا في ذلك شعراً وقصصاً ، ثم ذكروا أنه ندم بعد ذلك على عمله ، وأنه فعل ذلك بتأثير المجوسية التي دان بها ، وحاجب بن زرارة هو من تميم (٥) . فالمجوسية على زعم أهل الأخبار هي التي أباحت لزرارة

---

(١) Ency . Religi . , 8 , p. 425 , 467.

(٢) Ency . Religi . 8 , p. 425 , 457 .

(٣) المصدر نفسه (ص ٤٢٥) .

(٤) بلوغ الأرب (٢/٣١٩) .

(٥) تفسير القرطبي (٥/١٠٤) ، بلوغ الأرب (٢/٥٢ ، ٢٣٥) ، الأغاني (١٠/٣٨) « دختنوس بنت لقيط بن زرارة ، وكانت تحت عمرو بن عمرو بن عدس » .

الاقتران بابنته [1] .

ودعوى الأخباريين هذه فيها نظر ، والشعر المذكور والقصص الذي يورده أهل الأخبار يحتاج الى إثبات . وقد رأينا كثيراً منه تعمله معامل الوضع ، وقد ثبت وضعه ، وليس بمستبعد أن يكون ما ذكره هؤلاء هو من هذا القبيل . وضعه خصوم « تميم » للطعن فيها ، والحاق مثلبة بها ، ثم روّجه وأشاعه الطالبون لمثالب القبائل من العرب ، وقد كانوا يبحثون عن أمثال هذه السقطات ، وهم جماعة لهم رأي في الدين وفى السياسة معروف مشهور .

ولا أريد أن أقتصر فى ملاحظتي هذه على موضوع زواج « زُرارة » بابنته وبما ورد عن تميم ، إنما أرى أن هذه الملاحظة تشمل أكثر ما ورد عن الأنكحة عند الجاهليين . فبعض ما دعوه نكاحاً مثل نكاح صاحبات الرايات لا يمكن عدّه نكاحاً لأنه لم يكن بعقد وخطبة ، إنما كان سفاحاً بغير أجل ، فلا يمكن عده إذن نوعاً من أنواع الأنكحة . ونكاح الخدن ، هو من هذا القبيل أيضاً ، وآية ذلك ورود « ولا متخذات أخدان » بعد جملة « غير مسافحات » فى القرآن الكريم والنهي عن الاقتران بصاحبات الأخدان والمسافحات لأنهن غير محصنات ، فحكم صاحبة الخدن هو حكم المسافحة فى الجاهلية على السواء . وأما نكاح الاُستبضاع فهو من هذا القبيل كذلك ، وهو يتنافى مع ما جُبل عليه العربي من الغيرة الزوجية ، ومع ما ورد عن الوأد عند الجاهليين . لقد كانوا يئدون بناتهم كما يقول القرآن والمفسرون وأهل الحديث والأخبار ؛ لأنهم كانوا يخافون العار وزلل البنت ، فكيف يتفق ما ورد من الأسباب التي انتحلها الجاهليون لتبرير الوأد مع ما ورد عن الاستبضاع .

نعم ، وردت أسماء الأنكحة المذكورة وأوصافها فى حديثين مرفوعين الى عائشة وأبي هريرة ، مدّونين فى كتب الحديث المعتبرة [2] ووردت أسماؤها وأوصافها في موارد أخرى مثل كتب التفسير والأخبار ، غير أن مجرد ورودها فى هذه الموارد لا يمكن ان يكون دليلا على

---

(١) من المستحسن مراجعة موضوع إباحة المجوسية الزواج بالبنات في الكتب الاختصاصية التي تعرضت له وفي الكتب الدينية لتلك الديانة ، فللعلماء المتخصصين في هذا البحث آراء . Ency . Religi . , 8 , 457.

(٢) عمدة القارىء (٢٠/١٢١ وما بعدها) .

وجود ما ذكر ووقوعه . فقد وضعت أحاديث عديدة على عائشة وأبي هريرة وغيرهما وللتمييز بين الصحيح والفاسد من أقوال الرسول ، وضع العلماء علم الحديث وأصوله وكان النقد عندهم منصباً على الرجال ، حيث جرحوا وعدلوا بشدة ، أما الروايات فلم تنل تلك العناية ، باعتبار أنها رواية عدل ، والرواي هو المصدر الذي يتحمل تبعة الرواية . ثم إن الموضوع لا يخص كلام الرسول ولا حكماً ليبتنى عليه حكم شرعي ، إنما هو إخبار عن ماضٍ مضى ، وعهد جاهلي فات سابقٍ للإسلام ، وتبيان لاحكام خالفها الإسلام ونقض أكثرها ، وهو عهد نقضه الايمان وقد ولّى ومضى ، فلم يجد من يصحح ما ورد عنه ، ومن يهتم بتصحيح أخبار عن عهد وثني جبّه الاسلام . ثم إن في روع بعض الناس أن في التحدث عن سيئات الماضي ما يفيد فى اعلاء الاسلاميين على الجاهليين . ولهذا وجد أهل المثالب فى هذه الناحية ليناً شديداً وموطناً يسهل الدخول منه ، فدخلوه ، وأدخلوا كثيراً من الأحاديث والأقوال فى هذا الموضوع . وكان للشعوبيين رأي فى أنكحة الجاهلية ، أخذوه فى جملة ما أخذوه على العرب فى الإسلام مذكور فى المفاخرات التي كانت تجري بين العرب والعجم لدوافع سياسية ، ليس للبحث فيها مكان فى هذا الكتاب (١) .

لذلك رأيت التنبيه على مواطن الضعف فى الروايات المذكورة لا عن الزواج وحده بل عن كل ما ورد عن الجاهليين ، وعن الصدر الاسلامي الأول فما ورد يحتاج الى درس ونقد شديدين ، لتنقية الروايات المتناقضة والمتداخلة المتشابكة أو الموضوعة الناشئة عن غلبة المشافهة على التدوين ، وذلك قبل شيوع الكتابة والتدوين عند الاسلاميين .

أما ما أورده « سترابون » وغيره من الكتبة اليونان والرومان أو السريان ، فإن في أكثر ما ذكروه وهماً ، لضعف النقد فى ذلك الزمن والتصديق بكل ما يقال لهم ويروى من غير تمحيص ، مع بعد الشقة وعدم الاتصال والاحتكاك . وفى حكاية « سترابون » عن حيّات جزيرة العرب وأهلها دليل كاف على مقدار علم الرجل وأمثاله بأحوال العرب فى تلك الأيام .

(١) كتاب المثالب ، كتاب مناكح أزواج العرب ، الفهرست (ص ١٤٠ وما بعدها) « أخبار هشام الكلبي ، كتاب بغايا قريش في الجاهلية وأسماء من ولدن ، الفهرست (ص ١٤٦) » أخبار الهيثم بن عدي وهو من المتحاملين على العرب .

ويعقد الزواج بخطبة وصداق . أما الخطبة فتكون بارسال ولي الرجل أو أقرب أقربائه أو أصدقائه الى والد الفتاة أو عمها أو أخيها أو غيرهم ممن يتولون أمر الفتاة ، ليكلم أهلها فى تزويج موكله أو موكلهم إن كان الخاطبون جماعة منها . فإذا استقر بالموكل أو بالموكلين المقام وأديت التحيات المفروضة بين الزائر وصاحب البيت المضيف ، تكلم الموكل أو وجيه الوفد ، بالتحدث عن بيت الفتاة وعن رغبة الموكل فى التصاهر معهم ، وعن الموكل نفسه وكفاءته للزوجة وأنه من بيت كفوء للبيت الذي يود مصاهرته ، فيجيبه ولي أمر البنت أو المتكلم عنه بكلام يظهر فيه محامد الفتاة ، وأهل الفتاة ، ثم يخلص منه الى الفتى ، فيثني عليه ، ويشير الى أنه لكفاءته ولكفاءة بيته لا يرى مانعاً من اعطاء البنت اليه بالصداق الذي اتفق عليه ، والغالب أن يكون أهل الفتى من النساء قد مهدوا الأمر مع أهل العروس واتفقوا على مبلغ « الصداق » قبل ذهاب الموكل أو الموكلين الى آل العروس [1] .

وقد ترسل امرأة خبيرة بموضوع النساء الى بيت البنت ، لتأتي للرجل بوصف من يرغب فى الاقتران بها ، تنظر الى الخطيبة وتحادثها وتمتحنها ، ثم تأتي بما حصلت عليه من علم عن حالها لتشرحه للخاطب [2] .

وقد يخطب الرجل خطيبته بنفسه ، يذهب الى أبيها أو أخيها ومن هو وليها ، فيحدثه فيما أقدم عليه ، ويذكر له مناقبه وأحواله ، فإن وافق الولي اتفق معه ، وإن وجد عنده مانعاً اعتذر اليه . وقد يتنافس على البنت جملة رجال ، فتكون بين المتنافسين مباهلة ومفاخرة تنتهي بأخذ رأي البنت والولي فى الانتخاب أو الرفض . ويكون للحسب والنسب والشجاعة المقام الأول فى هذا الاختيار [3] .

وقد تكون الخطبة قصيرة سريعة على ما ذكره الأخباريون ، يذهب الخاطب الى خباء الخطيبة فيقول « خِطْبٌ » ، فيجيب المخطوب اليهم « نِكْحٌ » ، وهي كلمة كانت العرب تتزوج بها ، وكانت امرأة من العرب يقال لها أم خارجة يضرب بها المثل فيقال أسرع من

---

(١) النهاية (١/٣٣٧) ، عمدة القارىء (٢٠/١٣٤ وما بعدها) ، « كتاب النكاح : باب الخطبة » .

(٢) بلوغ الأرب (٢/١٥ وما بعدها) . (٣) بلوغ الأرب (٢/٣٣) .

نكاح أم خارجة » . وكان الخاطب يقوم على باب خبائها ويقول « خِطْبٌ » ، فتقول « نِكْحٌ »[1] . ولا استبعد أن يكون هذا الخبر من تلفيقات أهل الأخبار ، صنعوه لتفسير المثل المذكور .

و « الصِّداق » هو مهر المرأة ، أي ما يدفعه الرجل الى أهل البنت عند عقد الزواج ، ويقال له : الصَّدَقة والصَّدُقة والصُّدُقة والصُّدْقة والصَّداق[2] . وترادف هذه الكلمة كلمة أخرى هي « مهر » ، وهي من المصطلحات الجاهلية كذلك[3] .

وليس للصداق حدّ معين ، إنما يختلف باختلاف كفاءة الرجل والبنت . وهو غير مقيد بنوع ، فقد يكون نقوداً ، وقد يدفع مالاً أو إبلاً أو شيئاً آخر مما يتفق عليه الطرفان . ولقلّة النقود في الجاهلية كان الصداق عيناً في الغالب ، يعاد الى الرجل اذا حدث خلاف يؤدي الى فراق المرأة زوجها .

وطريقة العرب من جاهليين واسلاميين في دفع الرجل « المهر Dowry للزوجة » تناقض المألوف عند الرومان واليونان ، حيث جرت عادتهم أن تقدم المرأة صداقها الى زوجها نقوداً أو عيناً وهي الطريقة المألوفة عند الغربيين حتى الآن . وكان الرومان يستغربون طريقة الجاهليين هذه في دفع المهر[4] .

وقد أشرت سابقاً إلى حق الأبناء أو الأخوة أو العصبة في إكراه امرأة المتوفّى على التزوج بالوارث الأقدم اذا أراد ذلك أو في منعها من الزواج اذا رغب في ذلك أو تزويجها أي شخص شاء أو شاءت هي في مقابل الحصول على صداقها . فالصداق والمهر حق من حقوق الميت دفعه في حياته الى امرأته ، وبهذا الحق دخلت في ملكه ، ولن تزول تلك الملكية عنها إلاّ بدفع ذلك الحق الى الورثة إن لم يكونوا أبناء من زوجها المتوفّى عنها .

أما الإسلام ، فقد جعل المهر حقاً من حقوق المرأة خاصاً بها ، ليس لأحد عليها سلطان في انتزاعه منها ، وهو مهران : مهر مقدم وهو ما يعينه الزوج لزوجته عند عقده النكاح بحضور

---

(١) تاج العروس (٢٣٧/١) « خطب » ، المحبر (ص ٣٩٨) ، الأمومة عند العرب (ص ٢٠) ، الميداني (٣٥٦/١) .

(٢) اللسان (٦٥/١٢) ، النهاية (١٢٢/٤) ، جامع الأصول (٥٧٩/٧) ، عمدة القاريء (١٣٦/٢٠) .

(٣) تاج العروس (٥٥٠/٣) .

(٤) Ency. Religi. , 8 , P. 447.

العاقد والشهود ، ومهر مؤخر وهو ما يجب أن يدفع اليها بعد الموت أو عند الطلاق اذا أقدم الزوج عليه بسبب يقبله الشرع .

وقد حث الإسلام على دفع « المهر » إلى الزوجات ، وجعله حقاً من حقوقهن ، وأجر من « أجورهن » والظاهر أن أكثرية الأولياء كانت تأكل ذلك الحق وتستولي عليه . والاسلام في فرض « المهر » مثل أهل الجاهلية ، فالمهر فيه « فريضة » ، وهو عنده كما هو عندهم علامة على الزواج المشروع . وقد كان أهل الجاهلية لا يقرون زواجاً ولا يعترفون بشرعيته إلا اذا كان بمهر . فإذا لم يكن هناك مهر ، عدّ بغياً وسفاحاً وزنى ، الاّ إذا كان الزوج قد استولى على زوجته بحرب ، أي إنها وقعت في أسره ، فله الدخول بها بغير مهر . ولن تعير المرأة ولا أولادها بذلك . فالمهر إذن هو أيضاً علامة شرف ، وكون المرأة حرة محصنة لها كامل الحقوق[1] .

ويرى « روبرتسن سمث » أن ترادف معنى « الصداق » والمهر انما حدث في الإسلام . أما في الجاهلية ، فقد كان هناك فرق بين مدلول الكلمتين . فإن المراد من كلمة « الصداق » عند الجاهليين هو ما يقدم الى العروس . أما المهر ، فهو ما يقدم الى الوالدين . ويقدم المهر والصداق في زواج البعولة . أما في الزواج الناتج من أسر الزوجات ، فليس هنالك مهر[2] . والمهر « Dowry » هو « موهر Mohar » في العبرانية و « مهرا Mahra » في السريانية وهو المبلغ الذي يسمى للعروس . ويقدم الى ولي أمرها وهو الوالد أو من له حق « الولاء » على البنت[3] .

والزواج حادث مهم في حياة الإنسان ، ولذلك يعلن عنه بفرح وسرور ، ويقال لذلك « بشاشة العرس »[4] . يعلن عنه بدعوة و « وليمة » تولم لذوي القربى والأحباء والجيران والأصدقاء . تقترن بالغناء وبالضرب على الدفوف أحياناً ، وبارتداء ملابس جديدة أو ملابس مصبوغة بصفرة ، والصفرة عند أهل الحجاز في ذلك العهد علامة العرس والفرح والسرور ، يصبغون أيديهم بالزعفران ، كما كانوا يصبغون لحاهم به كذلك[5] . والكحل عندهم من الزينة أيضاً ، ولذلك

---

(١) Ency., III, P. 137. (٢) Kinship, P. 76.

(٣) Hastings, P. 585, Ency., III, P. 137.

(٤) عمدة القاري، (٢٠/١٣٨ وما بعدها) .

(٥) عمدة القاري، (٢٠/١٤٣ وما بعدها) ، (٢٢/٢٢) .

تستعمله النساء في الأفراح وفي سائر الأيام كما يستعمله الرجال .

ويقابل الزوج على تفضله بالدعوة الى الوليمة بكلمات فيها خير وشكر وتمنيات للحياة الزوجية الجديدة ، يقال له عند الانتهاء والانصراف : على الطائر الميمون ، وبالرِّفاءِ والبنين . وقد كره في الإسلام القول : « بالرفاء والبنين » لأنه من أقوال الجاهلية ، ولما فيه من الاشارة الى بغض البنات ، لتخصيص البنين بالذكر[1] .

وتزف العروس الى زوجها ليلاً : تزف قدر حال العروسين ، وقد تزف في النهار ، ويرافق العروس « موكب » مركب من نساء ورجال على الإبل المزينة يسير والنيران بين يدي العروس . وقد توضع الأنماط على هودج العروس وفي بيتها . وقد منع استعمال النيران في الإسلام ، لما في ذلك من التشبه بالمشركين ، كما نهي عن استعمال أنماط الحرير[2] والاستبرق والديباج وخواتيم الذهب ، وعن استعمال آنية الفضة والمياثر وهي الفرش الصغيرة من الحرير المحشو بالقطن ، والقسية وهي الثياب من الكتان المخلوط بالحرير المصنوعة بقسي وهي قرية بديار مصر على ساحل البحر بالقرب من دمياط[3] ، وعن استعمال الأشياء المصورة[4] .

ولم تكن الهدايا التي تقدم الى العروس شيئاً معيناً ، إنما كانت تختلف . قد تكون شيئاً ثميناً ، وقد تكون طعاماً طيباً . حلواً في الغالب ، لِما في الحلاوة من معنى التيمن بالحياة الجديدة .

وكما كان الزواج ، كذلك كان الطلاق عند الجاهليين . ولا بد أن يكون له قواعد وعرف وأسباب . وقد ذكر أن من عادة أهل الجاهلية أن يقول الرجل لزوجه إذا طلقها : حبلك على غاربك[5] ، أي خليت سبيلكِ فاذهبي حيث شئتِ ، ويقول : « أنت مُخلّى كهذا البعير »[6] . وذكر أنهم كانوا يطلقون ثلاثاً على التفرقة ، فكان أحدهم يطلق زوجته واحدة وهو أحق الناس

(١) عمدة القاري (٢٠/١٤٥ وما بعدها) ، اللسان (١/٨١) ، تاج العروس (١/٧١) ، Goldziher , Muh. Stud. , I , S. 264.

(٢) عمدة القاري (٢٠/١٤٨ وما بعدها) .

(٣) عمدة القاري (٢٠/١٥٨ وما بعدها) .

(٤) عمدة القاري (٢٠/١٦٣) .

(٥) تاج العروس (١/٤١١) .

(٦) اللسان (٢/١٣٦) .

بها ، حتى اذا استوفى الثلاث انقطع السبيل عنها ، فتصبح طالقة طلاقاً بائناً[(١)]. ومعنى هذا عدم امكان الرجوع الى الزوجة بعد وقوع الطلاق الثالث مهما أوجد المطلق له من أعذار[(٢)]. فبعد الطلاق الأول أو الثاني يستطيع الرجل أن يعيد اليه زوجته ، أما فى الطلاق الثالث فلا تمكنه العودة اليها ، وتكون عندئذ بائنة عليه .

ويظهر أن الجاهليين كانوا قد أوجدوا حلاً لهذا الطلاق الشاذ ، فأباحوا للزوج أن يرجع زوجته اليه بعد الطلاق الثالث ، ولكن بشرط أن تتزوج بعد وقوع الطلاق الثالث من رجل غريب على أن يطلقها بعد اقترانها به ، وعندئذ يجوز للزوج الأول أن يعود إليها بزواج جديد . ويقال فى الاسلام للرجل الذي يتزوج المطلقة بهذا الطلاق ليحلها لزوجها القديم « المحلل » ، وهو حلّ مذموم عند الجاهليين ومحرّم فى الاسلام[(٣)]. لم يعمل به غير القليل من الناس ، ممن لم تكن لهم سيطرة على انفسهم ، بل كانوا يعملون أعمالاً ثم يندمون على ما فعلوه .

والطلاق من المصطلحات الجاهلية القديمة ، وهو يعني عندهم تنازل الرجل من كل حقوقه التي كانت له على زوجته ومفارقته لها[(٤)]. وهناك طلاق آخر يسمونه « الظِهار » ، يقولون إن الرجل يشبه فيه زوجته أوما يعبر به عنها بمحرم عليه تأبيداً ، كأن يقول : أنتِ عليّ كظهر أمي ، أو كبطنها ، أو كفخذها ، أو كفرجها ، أو كظهر أختي أو عمتي ، فيقع بذلك الظهار[(٥)]. فالظهار إذن طلاق الجاهليين بالجمل المذكورة ، وقد نهى عنه فى الاسلام وأوجب الكفارة على من ظاهر من امرأته[(٦)].

---

(١) الأغاني (٨/٨٠ وما بعدها) ، بلوغ الأرب (٢/٤٩) .

(٢) المحبر (ص ٣٠٩ وما بعدها) .

(٣) ويقال لفاعله « التيس المستعار » ، النهاية (١/٢٨٨) « حلل » ، « لعن الله المحلل والمحلل له » ، عمدة القاريء (٢٠/٢٣٦) ، المبسوط للسرخسي (٥/٢ وما بعدها) ، السنن الكبرى (٧/٢٠٧ وما بعدها) .

(٤) Ency., IV, P. 636, Kinship, 2 end ed. P. 112, Wellhausen, Die ehe bei den Ardbern, in, Nachrichten d. Konigl. Gess. der Wiss., Gottingen, 1893, S. 452.

(٥) بلوغ الأرب (٢/٥٠) ، عمدة القاريء (٢٠/٢٨٠) ، المبسوط للسرخسي (٦/٢٢٣) .

(٦) تاج العروس (٣/٣٧٣) ، اللسان (٦/٢٠١) ، سنن أبي داوود (٢/٢٦٥ وما بعدها) ، « والذين يظاهرون منكم من نسائهم . وكلمة منكم توبيخ للعرب وتهجين لعادتهم في الظهار ، لأنه كان من ايمان أهل جاهليتهم خاصة دون سائر الأمم » عمدة القاريء (٢٠/٢٨١) .

وإذا قرر الرجل تحديد فراقه من زوجته بأجل ، لايقترب فى خلاله منهـــا ، قيل لذلك : « الإيلاء » . وكان إيلاؤهم السنة والسنتين [1] . وكان هذا الطلاق مثل الظهار من طلاق أهل الجاهلية [2] . وقد جعل طلاقاً مؤجلاً فى الاسلام [3] .

أما اذا فارق الرجل زوجته على مال ، فيقال لذلك « الخلع » . وينسب أهل الأخبار نشوء هذا النوع من الطلاق الى عامر بن الظَّـرِب [4] . فالخلع اذن هو طلاق يقع بدفع مال ، تدفع فيـه المرأة للرجل فى مقابل تخليته سبيلها ، وافتدائها نفسهـا به [5] ، ويشمل ذلك ما تدفعـه زوجة الأب المتوفى الى أبنه الذي يتزوجها بعد وفاة أبيه من مالٍ مقابل فراقه لها ، وتطليقه إياها [6] .

وقد يهمل الرجل زوجته فلا يراجعها ولا يطلقها ، ويظل مفارقاً لهـا ، الى أن ترضيه بدفع شيء له ، فيسمح لها عندئذ بالطلاق وبالزواج من غيره . ويقال لذلك عندهم « العَضْـل » . و « كان العضل فى قريش بمكة . ينكح الرجل المرأة الشريفة ، فلعلها لا توافقه فيفارقها ، على أن لا تتزوج إلاّ باذنه ، فيأتي بالشهود ، فيكتب ذلك عليها ويشهد ، فإذا خطبها خاطب فإن أعطته وأرضته أذن لها ، وإلاّ عضلها » [7] . وقد حرم العضـل فى جملة ما حرم من أحكام الجاهليين فى الاسلام .

وكان من الجاهليين من يطلق زوجته ، ويفارقهـا غير أنه لم يكن يسمح لهـا بالتزوج من غيره حمية وغيرة ، ويهددها ويهدد أهلها ان حاولت الزواج ، أو يرضي أهلها وأولياءها بالمـال ، فلا يجيزوا لها الزواج وقد نهى عن ذلك فى الاسلام [8] .

---

(١) بلوغ الأرب (٢/٥٠) ، تفسير الطبري (٢/٢٥٦ وما بعدها) .
The Shorter Ency. of Islam , P. 570.

(٢) عمدة القاريء (٢٠/ ٢٨١) . (٣) المبسوط للسرخسي (٧/١٩ وما بعدها) .

(٤) بلوغ الأرب (٢/٤٩) .

(٥) اللسان (٩/٤٢٩) ، تاج العروس (٥/٣٢١) « خلع » ، تفسير المنار (٤/٤٦١) ، عمدة القاريء (٢٠/٢٦٠) ، المبسوط للسرخسي (٦/١٧١ وما بعدها) ، السنن الكبرى (٧/٣١٦) .

(٦) Kinship , P. 92.

(٧) سنن أبي داود (٢/٢٣٠) ، تفسير الطبري (٤/٢١٠) ، تفسير المنار (٤/٤٥٤) .

(٨) روح المعاني (٢/١٤٤) ، عمدة القاريء (٢٠/١٢١ ، ١٢٤) .

والطلاق هو بأيدي الرجال ، بيدهم حلّه وعقده ، أما النساء فلهن العدّة ، ولذلك كان بعض النسوة يشترطن على أزواجهن أن يكون أمرهن بأيديهن ، إن شئن أقمن ، وإن شئن تركن معاشرتهم وأوقعن الطلاق ، وذلك لشرفهن وقدرهن . ومن هؤلاء النسوة : سلمى بنت عمرو ابن زيد بن لبيد بن خداش الخزرجية ، وفاطمة بنت الخرشب الأنمارية ، وأم خارجة صاحبة المثل: أسرع من نكاح أم خارجة ، ومارية بنت الجعيد ، وعاتكة بنت مرّة ، والسوا بنت الأعيس . وقد عرفن بكثرة ما أنجبن من ذرية في العرب ، وقد تزوجن جملة رجال [1] .

وطريقة طلاق المرأة للرجل في الجاهلية ، طريقة طريفة لا كلام فيها ولا خطاب . « كان طلاقهن أنهن إن كن في بيت من شعر حوّلن الخباء ، إن كان بابه قبل المشرق حوّلنه قبل المغرب ، وإن كان بابه قبل اليمن حوّلنه قبل الشأم ، فإذا رأى ذلك الرجل علم أنها قد طلقته ، فلم يأتها [2] » . وهذه الطريقة هي طريقة أهل الوبر في الطلاق . ومتى طلقت المرأة زوجها ، تركت داره والحي الذي يسكنه ، لتعود الى بيتها والحي الذي تنتمي اليه .

وهناك مصطلحات تعني الطلاق ، كأن يقول الرجل لزوجته : فارقتك ، أو سرحتك ، أو الخلية ، أو البرية ، وقد أشير اليها في الحديث [3] .

هذا وللظروف الاجتماعية والاقتصادية التي كانت غالبة في الجاهلية دخل كبير في الطلاق . فالطلاق على ما يظهر كان سهلاً ، وكان عقوبة يوقعها الرجل على امرأته لمسائل بسيطة تافهة انتقاماً منها أو من ذوي قرابتها لأسباب لا علاقة لها بالزوجية وبالحياة العائلية في أكثر الأحيان ، كما أن الفقر كان عاملاً مهماً في وقوع الطلاق . فما ذنب امرأة تطلق مثلاً ، لأنها منجبة للبنات ، لا تلد الا البنات ، أو أنها تلد البنات أكثر من الأولاد . وطالما كان الطلاق يقع من عصبية وهياج وفي ساعات غضب ، وحين يهدأ روع المرأ يندم على ما فرط منه ، ولذلك شدد الاسلام فيه مع اباحته له لضرورته بأن جعله أبغض الحلال الى الله .

---

(١) المحبر (ص ٣٩٨ ، ٤٣٥) ، النهاية (٤٧/٣ وما بعدها) .
(٢) الأغاني (١٠٢/١٦) « أخبار حاتم ونسبه » .
(٣) عمدة القاريء (٢٣٨/٢٠) .

وعلى المرأة اتخاذ « العدة » عند طلاقها وعند موت زوجها ، والغاية من ذلك المحافظة على النسب ، وعلى الدماء كراهة أن تختلط بالزواج العاجل بعد الطلاق أو الموت ، فوضعوا لذلك مدة لا يسمح فيها المرأة بالزواج خلالها تسمّى « العدة »[1] . « وعدة المرأة أيام قروئها ، وعدتها أيضاً أيام إحدادها على بعلها وامساكها عن الزينة شهوراً كان أو أقراءً أو وضع حمل حملته من زوجها »[2] . وقد ذكر في الحديث أن المطلقة لم تكن لها عدة ، فأنزل الله تعالى العدّة للطلاق والمتوفى زوجها[3] ، أي أن عدة المطلقة لم تكن معروفة في الجاهلية على هذه الرواية ، وإنما فرضت في الاسلام.

والخيانة الزوجية تستوجب عقوبة صارمـــة . لأنها زنى ، والزنى « Adultery » عقابه الموت ، كما أشار الى ذلك « سترابون » في أثناء كلامه على العرب . وقد عرف الزاني بأنه من يتصل بامرأة غريبة عنه . وقـــد كان العبرانيون يعاقبون الزاني والزانية بالرجم بالحجارة حتى الموت[4] . وهما يعاقبان هـذه العقوبة في الاسلام ، ولا أستبعد أن تكون هـذه العقوبة عقوبة جاهلية ، أقرها الاسلام في جملة ما أقره من أحكام كان يسير عليها الجاهليون .

وما يقوله المريض ويأمر به قبل وفاتـه ، يقال له « وصيّة الميت » و « الوصية » . وقـد تكون هذه الوصية مجموعة نصائح وارشادات يوجهها المحتضر الى أولاده وذوي قرابته ، والغالب أنها تتناول ميراثه وكيفية التصرف به بعـد وفاته . ويقوم بتنفيذ الوصـية من يعينه المورث في وصيته أو أرشد رجال الأسرة . ويقال لذلك الرجل « الوصي » . ويكون الابن الأكبر هو المقدم على سـائر أولاد المتوفى ، والمشرفَ على تقسـيم الميراث وإدارة التركة وحمل اسم الميت وتمثيله ؛ ولذلك تنتقل الإمارة أو المشيخة أو الرئاسة أو الزعامة الى الأبن الأكبر في العادة ان كان المتوفى أميراً أو شيخاً أو رئيساً . وتقديم الابن الأكبر على سائر الأبناء ، عادة سامية قديمة حتى أنهـا

---

(١) بلوغ الأرب (٢/٥٠) . (٢) اللسان (٤/٢٧٥) .

(٣) اللسان (٤/٢٧٥) ، تاج العروس (٢/٤١٧) .

(٤) « اذا كانت فتاة عذراء مخطوبة لرجل ، فوجدها رجل في المدينة واضطجع معها ، فاخرجوهما كليهما الى باب تلك المـدينة وارجموهما بالحجارة حتى يموتا ... » ، التثنية : الاصحاح الثاني والعشرون الآية ٢٢ وما بعـدها . البخاري : « كتاب الجنائز » الحديث ٨٣ ، « رجم المحصن » في باب المحاربين الحديث (١٧) و (٣٣) .

تمنحه زيادة فى الميراث عن بقية إخوته [1] .

والميراث ، أي ما يتركه الرجل بعد وفاته ، معروف عند أهل الجاهلية ، غير أنه كان خاصاً بالكبار من أولاد المُتَوَفَّى . أما الأولاد الصغار والجواري والبنات ، فلم يكن يدفع لهن شيء مما ترك الميت . وقاعدتهم فى ذلك : « لا يرث الرجل من ولده إلا من أطاق القتال » [2] ولهذا كان الإخوة يرثون الميت إذا لم يكن لديه أولاد . ويرثونه وحدهم أيضاً إذا كانت ذريته بناتٍ . وقد اغتاظوا حين نزل الوحي بتنظيم الميراث ، وباشراك البنات فيه ، فذهب بعضهم الى رسول الله قائلا : « يا رسول الله ، أنعطي الجارية نصف ما ترك أبوها وليست تركب الفرس ولا تقاتل القوم ، ونعطي الصبي الميراث وليس يغني شيئاً ؟ » [3] . فالميراث إذن هو لمن يتمكن من القتال ، لأولاد المتوفَّى .

والأخبار متضاربة في موضوع إرث المرأة والزوجة في الجاهلية ، وأكثرها أنها لم تكن ترث أصلاً . وقد رأيت أن من الأخبار ما يجعل المرأة فى ضمن تركة الميت ، لابن المتوفى التزوج بها إن لم تكن أمه . وكذلك للأكبر من الراشدين المستحقين للميراث ، إلا اذا افتدت نفسها من الورثة برضى منهم ، غير أن هناك روايات يفهم منها أن من الجاهليات من ورثن أزواجهن وذوي قرباهن ، وان عادة حرمان النساء الإرثَ لم تكن عامةً عند جميع القبائل [4] . بل كانت شائعة عند قبائل دون قبائل . وما ورد فى الأخبار يخص على الأكثر أهل الحجاز .

والعصبة ، وهم أقرباء الميت من الرجال ، مقدمون على الأخوات فى الارث . فإذا تُوُفِّيَ الرجل ، ولم يكن له من الذكور من يرثه ولا أب ، يصرف ارثه الى إخوته أو عصبته إن لم يكن له إخوة ، ولا يدفع الى الأخوات . للسبب المتقدم ولا شك . فلما جاء الاسلام ، جعل للبنات والنساء حقاً فى الميراث ، ويسمى هذا الإرث « إرث الكلالة » [5] .

---

(١) التثنية : الاصحاح ٣١ ، الآية ١٧ ، قاموس الكتاب المقدس (١/٢٤٣) .

(٢) تفسير الطبري (٤/١٨٥) ، الكشاف (٤/٢٤٨ وما بعدها) ، « وكانت الوراثة في الجاهلية بالرجولية والقوة ، أي كانوا يورثون الرجال دون النساء . وكان في ابتداء الاسلام أيضاً بالمحالفة » ، عمدة القارىء (٢٣/٢٢٩ ، ٢٣٧ وما بعدها) .

(٣) تفسير الطبري (٤/١٨٥ وما بعدها) . (٤) الأمومة عند العرب (ص ٦٥ وما بعدها) .

(٥) تفسير الطبري (٤/١٩١ وما بعدها) ، عمدة القارىء (٢٣/٢٤٥) .

وهناك رواية تذكر أن أول من جعل للبنات نصيباً فى الارث من الجاهليين هو « ذو المجاسد » عامر بن جشم بن غنم بن حبيب بن كعب بن يشكر ، ورّث ماله لولده فى الجاهلية ، فجعل للذكر مثل حظ الانثيين ، فوافق حكمه حكم الاسلام[1] .

وعجز اليتامى عن الدفاع ، وعن تحصيل حقهم فى الميراث ، جعل الورثة الكبار يأكلون أموالهم وحقوقهم ، ولا يؤدون لهم نصيباً فى الإرث . ولهذا وبخ القرآن الكريم أهل الجاهلية على أكلهم أموال اليتامى ، وحرم ذلك عليهم ، وحافظ على نصيبهم فيه[2] ، وحمى اليتيم ودافع عنه كثيراً ، وقد كان الرسول نفسه يتيماً ، ولاقى من قومه ما يلاقيه كل يتيم .

ويرث فى شريعة أهل الجاهلية المُتَبَنّون . كان الرجل منهم يتبنى من يشاء ، ويلحقه به ، ويدعوه اليه ، فيكون وكأنه من صلبه ، اذا مات ورثه ، حتى إنهم كانوا يراعون ذلك فى أحكام الزواج[3] .

ومن شريعة أهل الجاهلية الحاق نسب ابن الزانية بأبيه واستحقاقه الإرث وما يترتب على البنوة من حقوق . أما الاسلام ، فقد ألغى ذلك بحديث : « الولد للفراش وللعاهر الحجر » ، أي لا حق للرجل فى النسب ، ولا حظّ له فى الولد ، وإنما هو لصاحب الفراش ، أي لصاحب أم الولد[4] . وليس له فى الارث أو في البنوة أي حق .

والعادة عند أكثر الساميين نسبة الأولاد الى الآباء . ونجد أكثر أسماء الجاهليين على هذا النحو ، وكذلك عند العبرانيين . وهناك أشخاص عرفوا بأسماء أمهاتهم وللأخباريين في تفسيرها آراء . الغالب أنهم اشتهروا بأمهاتهم لما كان لأمهاتهم من كفايات وصفات خاصة جعلت لهن صيتاً بعيداً طغى على اسم الرجال ، فنسب أبناؤهم اليهن لهذا السبب تمييزاً عن بقية الأبناء الذين قد يكونون للرجل من زوجة أخرى . ومن هذا القبيل اشتهار عمرو ملك الحيرة بعمرو بن هند . واشتهار المنذر وهو أحد الملوك بالمنذر بن ماء السماء على رأي من جعل « ماء السماء » اسم والدة الملك .

---

(١) المحبر (ص ٢٣٦) .

(٢) راجع سورة النساء . وما جاء في كتب التفاسير وفي الحديث والفقه عن اليتيم .

(٣) سنن أبي داوود (٢/٢٢٣) ، عمدة القارىء (٢٠/٨٣ وما بعدها) ، الجامع الصحيح : الربع الثالث « تحقيق لودف فرهل » (ص ٤١٧) . « كتاب النكاح » .

(٤) اللسان (٦/٢٩٠) ، ارشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطلاني (١٠/١١) .

ولم يكن للجاهليين قواعد ثابتة معينة فى تسمية المواليد ، ففي بعض الروايات أن الأجداد أو الآباء هم الذين كانوا يقومون بتسمية المولود ، وفي روايات اخرى مـا يفيـد قيام المرأة بهـذه المهمة . والذي يتبين من غربلة الروايات أن الرجال كانوا هم الذين يسمون الأولاد ، فيضعون لهم الأسماء . أما تسمية البنات ، فكانت فى الغالب من اختصاص النساء .

وتختلف التسميات فى جزيرة العرب ، كما تختلف معانيها ، فالأسمـاء المشهورة عنـد العرب الجنوبيين والواردة في نصوص المسند لا ترد فى قوائم أسمـاء الجاهليين الذين كانوا يعيشون قبيل الاسلام فى نجد والحجاز . وأسماء أكثر ملوك العرب الجنوبيين ولا سـيما الذين عاشوا منهم قبل الميلاد هي أسماء مركبة ، ولها صلة بالآلهة . أما أسماء الملوك الشماليين فأكثرها مفردة مثل النذر والحارث وعمرو وأمثال ذلك . والأسماء الشمالية المركبة لها صلة بالأصنام ، ولـكن بأصنام العرب الشماليين ، مثل عبد مناة وعبـد العزّى وامرىء القيس وأمة العزيز ، وبهـذا الطابع يمكن تمييز أسماء العرب الشماليين عن أسماء العرب الجنوبيين .

وكانت كثرة البنين من المفاخر التي يفتخر بها أهل الجـاهلية . إن كثرتهم نعمة وعزّة . والبنون والمال زينة الحياة . بالبنين يدافع الرجل عن نفسه وعن بيته ، وبهم ينال المال والحق والأخذ بالثأر ، فهم الحماية ورأس المال . صحيح إن إعالتهم مسألة صعبة عسيرة ولا سيما بالنسبة الى الفقراء ، غير أن الحياة الاجتماعية فى ذلك العهد لم تكن على مسـتوى عال من المعيشة حتى تتطلب وجود مال لدى الوالد يضمن به عيش أولاده ، إن المعيشة بسـيطة لا تتطلب حاجات كثيرة ، ولم تكن بالناس حاجة شديدة الى النقود ، فما يقوم به المرء من مجهود بدني هوأصيلة[1] كلّ إنسان ، وبه يعيش ، وبه يحصل على كل ما يحتاج اليه من وسـائل معيشة هي فى الواقع محدودة . فإذا كثر الأولاد ، أزدادت وسائل المعيشة ، وعاش الوالد عيشة ناعمة طيبة ، وحصل بفضل عددهم على قوة ومنعة .

وإذا كانت نهاية الانسان مقترنة عند الجاهليين بالدم ، فإن مبدأ حيـاته مقترنة عنـدهم بالدم كذلك . لقد كان من عادتهم ذبح شاة عند ميلاد مولود وتلطيخ شيء من دمهـا برأس المولود ، ويقال لهذه الذبيحة العقيقة ، وهى كلمة جاهليـة وردت فى الشعر الجاهلي[2] . وتذبح عادة فى

(١) الأصيلة : رأس المال . (٢) تاج العروس (٧/١٥) ، اللسان (١٢/١٢٩) .

اليوم السابع من ميلاد المولود [1] . وقد أقرها الاسلام ، فوردت في الحديث . ويذكر علماء اللغة أن معنى العقيقة هو شعر كل مولود يخرج على رأسه في بطن أمه ، وأنه قيل للشاة المذبوحة العقيقة لذبحها عند الاحتفال بحلق هذا الشعر . وقد كانوا يعيرون من لم تحلق عقيقته ، إذ يرون في ذلك منقصة لا تليق بالرجل الكامل [2] .

ويستقبل المولود بدلك حنك الصبي داخل فيه بالتمر الممضوغ أو الحلو مثل عسل النحل وكل ما لم تمسه نار من الحلو [3] . وكان العبرانيون يفركون المولود بالملح . واستقبال الواليد بمثل هذه الامور من العادات المنتشرة عند كثير من الأمم القديمة [4] ، وهي عادات وشعائر دينية أيضاً . فإن الشعوب القديمة لم تكن تفرق كثيراً بين العادات والشعائر الدينية بخلاف الحال في الزمن الحاضر . ولاستقبال المولود بفرك جسمه بالحلو أو بالملح أو بما شابه ذلك معنى التفاؤل . فالحلو رمز السعادة والفرح . وأما الملح ، فإنه عنصر مهم من عناصر الحياة عند الأمم القديمة . والخبز والملح هما رمز الصداقة والمودة حتى اليوم .

ويعد الختان من العادات الجاهلية القديمة ، والعرب في ذلك كالعبرانيين . وهو أمر لم يشر اليه القرآن الكريم ، إنما ورد ذكره في الحديث . وترجع الكلمة الى أصل سامي شمالي قديم [5] . والختان هو في الأصل نوع من أنواع العبادة الدموية التي كان يقدمها الإنسان الى أربابه ، وتعد أهم جزء من العبادات في الديانات القديمة [6] . فقطع جزء من البدن واسالة الدم منه هو تضحية في عرف أهل ذلك العهد ذات شأن خطير ، كما كان حلق الشعر كله أو جزء منه نوعاً من أنواع التقرب الى الآلهة [7] . والختان في الإسلام وان لم ينص على وجوبه في القرآن الكريم غير أنه من شعار المسلمين [8] .

وقد كان الجاهليون يقولون لمن لم يختتن : الأغلف والأغرل وهم يعيبون من لم يختتن ،

---

(١) Shorter Ency. of Islam , P. 29. ، فهارس البخاري (ص ٣٣٣) .

(٢) في شعر منسوب الى امرىء القيس :

يا هند لا تنكحي بوهة — عليه عقيقته أحسبا

تاج العروس (١٥/٧) ، البخاري « كتاب العقيقة » حديث (١) ، عمدة القارىء (٨٢/٢١) .

(٣) عمدة القارىء (٨٣/٢١) ، اللسان (٢٩٨/١٢) « حنك » .

(٤) Reste , S. 173. f.

(٥) Shorter Ency. of Islam , P. 254.

(٦) Reste , S. 174.

(٧) Smith , P. 328. f.

(٨) Ency . Religi . , I , P. 669.

ويعدّون الأغلف ناقصاً [1] . وقد أشار الى انتشار هذه العادة عنـــد العرب بعض الـكتبة « الكلاسيكيين » مثل: « يوسفوس » المؤرخ اليهودي و « أويسبيوس» و « سوزومينوس» « Sozomenius » [2] ويظهر أنه كان معروفاً عند العرب الجنوبيين وعندالحبشة كذلك[3]. وقد طبق على النوعين الذكور والإناث . وذكر « يوسفوس » أن العرب يختنون أولادهم عند بلوغهم الثالثة عشرة من سنهم [4] . غير أن من الصعب التصديق بهـذه الرواية ، إذ يظهر من موارد أخرى أن الجاهليين لم يعينوا عمراً معيناً للاختتان [5] . ويظهر أن هذا الـكاتب قد اعتمد على ما جاء في التوراة عن اختتان اسماعيل وهو فى الثالثة عشرة من عمره ، أو أنه اعتمـد على ما سمعه من بعض القبائل الاسماعيلية الساكنة فى المناطق الشمالية الغربية من جزيرة العرب ، فظن أن السنّـة الاختتان عند جميع العرب فى هذه السن .

والاصطلاح الشائع عن هلاك الإنسان وفقده الحياة هو « الموت » [6] . وهو « ماوث » « Maweth » فى العبرانية ، من أصل سامي قديم[7]. وهناك مصطلحات أخرى تؤدي معنى الموت والهلاك . مثل الهلاك والمنايا والأحداث والحِمام والأجل والحتف والقدر والمنون والزمان والسأم والنحب وغير ذلك[8] . وهي مصطلحات جاهلية ، بعضها من المصطلحات القديمة ، لها معان أوسع من مصطلح الموت . ولـكن ربط بينها وبين هـذا المصطلح لِما لها من صلة بهلاك الإنسان وبمصيره ، فجعلت تؤدي معنى الموت .

وهلك بمعنى مات ، معروف عند أهل اللغة [9] . وقد ورد بهذا المعنى تمامـاً فى نص النمارة الذي يعود تأريخه الى سنة ٣٢٨ م . وأما المنية ، فالموت كذلك فى نظر علماء اللغة ، لأن المـنى القدر والموت قدر علينا [10]. وأما الحتف ، فهو الموت أيضاً ، وجمعه حتوف . وهو معنى مجازي

---

(١) Reste , S. 174.

(٢) Josephus , Anti. , I , XII , 2 , Eusep. , VI , 11 , Sozomen , Hist. Ecc. , VI , 38.

(٣) Ency . Religi . , 3 , P. 679.

(٤) Josephus , Anti. , XX , 11 , 4.

(٥) Ency. Religi . , 3 , P. 679.

(٦) المخصص (٦/١١٩) « أسماء الموت » .

(٧) Hastings , P. 181.

(٨) اللسان (٢٠/١٦١) ، تاج العروس (١٠/٣٤٧) .

(٩) اللسان (١٢/٣٩٤) ، تاج العروس (٧/١٩٤) .

(١٠) اللسان (٢٠/١٦١) ، تاج العروس (١٠/٣٤٧) .

جاهلي متأخر ، إذ ورد فى المثل : « مات حتف أنفه » ففى معنى حتف هنا رغم أي أمر لا قدرة للانسان عليه ، يزعمون أنه يقال لمن يموت فجاءة ، أي بلا ضرب ولا قتل ولا غرق ، وأنه قيل لأنهم كانوا يتخيلون أن روح الرجل تخرج من أنفه ، فإن جرح خرجت من جراحته . وهناك مثل آخر يشبهه هو : « مات حتم فيه » لأن الفم مجرى النفس كذلك [١] .

وقد كنوا عن الموت ، فقالوا : « أم قَشْعَم » ويقصدون بذلك المَنِيّة ، وقالوا « أم اللُّهيم » ، وقيل ان المقصود بهذه الكنية الحمى كذلك [٢] . ولعلماء اللغة ورواة الأخبار قصص عن أصلها ، هو من ذلك القصص الذي أَلِفْناه فى أثناء الكلام على كل شيء جاهلي خفي أصله عن ذاكرتهم ، فأوجدت قريحتهم له تلك الأقاصيص . وقد تكون هذه الكنى وأمثالها من بقايا أساطير قدماء الجاهليين .

وللدهر والحدثان والزمان والقدر ، صلات قوية بالموت ، إذْ تنسب اليها إماتة الإنسان . والدهر على الأخص مسؤول فى نظر أهل الجاهلية عن قوارع الزمان وحوادثه التي تنزل بالإنسان . إنه هو المبيد ، وهو المهلك ، وهو المفقر ، فهو إذن بالنسبة الى الجاهليين رأس كل بلاء . ولكنهم بدلاً من التقرب اليه والتودد له ليبتعد عنهم ، ولكي ينعم عليهم ، كانوا لايستطيعون ضبط أعصابهم عند نزول الشدائد بهم ، فيسبّونه ، لذلك قيل إن الرسول نهى عن سب الدهر فقال : « لا تسبوا الدهر ، فإن الله هو الدهر » . وجعل الدّهر فى الاسلام من أسماء الله الحسنى ، وذكر أنه ورد فى الحديث القدسي : « يؤذيني ابن آدم ، يسبّ الدهر ، وإنما أنا الدهر » [٣] .

والموت فى نظر الجاهليين مفارقة الروح للجسد لسبب من الأسباب التي تؤول الى هلاكه . تخرج الروح من الأنف أو من الفم وذلك فى الموت الطبيعي وفى موت الفجاءة . أما إذا كان الموت بسبب جرح ، فإن الروح تخرج على ما ذكره الأخباريون من الجرح [٤] . والروح قد

---

(١) اللسان (١٠/٣٨٢) ، تاج العروس (٦/٦٤) . (٢) المخصص (٦/١٢٠) .
(٣) تاج العروس (٣/٢١٨) ، اللسان (٢/٤٣٧) ، (٦/٣٨٢) .
(٤) اللسان (١٠/٣٨٢) ، تاج العروس (٦/٦٤) .

تتحول وتصير طائراً يرفرف فوق قبر الميت يسمى « الهامة » فى حالة كون الميت قتيلاً . وهي ، كما ذكرت فيما سلف ، تظل ترفرف فوق القبر ، وتصيح « إسقوني » حتى يؤخذ بثأر القتيل ، فتسكت . فالدم إذن وحده هو الذي يشفي غليل الروح ويسكتها ، ولعلّ هذه الفكرة هي التي حملت الجاهليين على عقر المقابر على قبور الموتى ، وبلّ جوانب القبر ونضحه بالدم .

ذكرت أن من رأي الجاهليين صيرورة الروح طائراً يرفرف حول قبر القتيل حتى يؤخذ بثأره . ولكن الذي يظهر من تمحيص الأخبار الواردة عن الموت والقبر وأشباه ذلك أن عقيدة الجاهليين فى صيرورة الروح طائراً ، كانت عامة تشمل كل أنواع الموتى ، وأن تخصيص رفرفة الروح فى شكل « هامة » تحوم حول القبر هو فى تلك الحالة فقط ، خصصوها بذلك لإثارة حمية الناس فى الأخذ بالثأر . أما متى تفارق تلك الطيور المقابر ، أو الى متى تبقى هناك ملازمة لها ، والى أين تذهب فى حالة مفارقتها للقبور ، فالأخبار في هـذا الباب شحيحة ، ولعل في حديث « مجاهد » أن « الأرواح على أفنية القبور سبعة أيام من يوم دفن الميت لا تفارق ذلك »[1] ، تفسيراً لرأي بعض الجاهليين فى مدة بقاء الروح حول القبر . غير أن هناك أحاديث أخرى يظهر منها أن الأرواح تلازم أصحاب القبور فلا تفارقهم[2] .

وكلمة « الروح » من الكلمات المعروفة عند الجاهليين . وقد صورتها بعض الأخبار الاسلامية حفظة على الملائكة ، وجعلت لها وجهاً كوجه الإنسان وجسداً كجسد الملائكة ، ولا يمكن رؤيتها كما لا يمكن رؤية الملائكة[3] . بها يعيش الانسان وبها حياة الأنفس . وقد سأل الجاهليون الرسول عن ماهية الروح ، فنزلت الآية : « ويسألونك عن الروح ، قلِ : الروحُ من أمرِ ربّي ، وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلا »[4] . ويذكر المفسرون أن سائليه هم اليهود[5] .

---

(١) كتاب الروح : لابن قيم الجوزية (ص ١١٥) .
(٢) كتاب الروح (ص ١٢٤ وما بعدها) .
(٣) تاج العروس (٢/١٤٧) ، اللسان (٣/٢٨١ وما بعدها) .
(٤) الاسراء : الآية ٨٥ .
(٥) الجلالين (١/٢٢٠) ، الروض الأنف (١/١٩٦ وما بعدها) .

ولا شك أنهم من يهود الحجاز . وفي سؤالهم له عن الروح معنى اهتمام القوم بالموضوع ، ومحاولتهم إثارة مشكلة للرسول كانت مهمة في أعين الناس يومئذ ، مما يدل على أهمية هذه القضية في ذلك العهد .

وهناك كلمة أخرى لها صلة وعلاقة متينة بهذه الكلمة ، هي لفظة « النفس » . وهي من الكلمات الجاهلية القديمة التي وردت في النصوص ، معناها الشخص والذات والجسد . وقد ذكر لها علماء اللغة جملة معان استعملت في الأكثر على سبيل المجاز . ولم يفرق بعض هؤلاء بين الروح والنفس[1]. ولبعضهم آراء في التفريق بين الاثنين نشأت في العهد الاسلامي . ولا سيما من ورود استعمال الكلمتين في معان متعددة في القرآن الكريم وفي الحديث .

والرأي الشائع بين الجاهليين ، كما يتبين من القرآن الكريم ومن الشعر الجاهلي ومن النثر المنسوب اليهم ، أن الموت شيء محتم ، وأنه مكتوب ، وأنه لابد لكل إنسان أن يموت ، فلا مفر من ذلك أبداً . أما الذي كتب الموت على الانسان وحتمه وفرضه ، فهو الدهر والحدثان والزمان وأمثال ذلك ، وكلها تعابير لاتزال عندنا غامضة غير مفهومة ؛ لأنها لم ترد الينا مشروحة مبسوطة . ولعلها كذلك كانت عندهم . ومهما يكن من شيء فالذي يفهم من روايات الأخباريين عنها أن الجاهليين كانوا يقصدون بها شيئاً واحداً ، هو القوة المسيرة للعالم المستمرة المؤثرة في حياة كل كائن موجود . أدركوها بفعلها ، ولم يدركوا ماهيتها ، فعبروا عنها بهذه التعابير المتعددة للاشارة اليها ، صوروها شيئاً مستمراً متمكناً ، والدهر الذي هو الزمان المستمر خير معبر عنها ، ولذلك خصوه بالنصيب الأكبر من التبعة ، وحمّلوه برغم أنفه ذلك الوزر ، ثم لم يكتفوا بذلك فتطاولوا عليه بالشتم والسب .

وكان من عادة الجاهليين حمل ملوكهم على الأعناق إذا اشتد بهم المرض . وهم يعتقدون

---

(١) المخصص (٦٢/٢) ، الروض الأنف (١٩٦/١ وما بعدها) ، قال الحطيأة :

ثلاثة أنفس وثلاث ذود   لقد جار الزمان على عيالي

تاج العروس (نفس) ، اللسان (نفس) .

أنهم بذلك سيتغلبون على المرض . ويعللون ذلك بأنه أسهل على المريض وأكثر راحة له من وضعه على الأرض (١) .

ويكون الإعلان عن موت شخص بالبكاء وبالنعي ، ويتوقف نعي الميت والبكاء عليه على قدر منزلة الميت ودرجة أهله ومكانتهم الاجتماعية . ويُعَدُّ نعي الميت وشقّ الجيوب عليه من وسائل التقدير والإكرام وتبجيل الميت ، ولذلك كانوا يوصون قبل موتهم بزمن بنعيهم للناس ، ويقوم بذلك ناعٍ أو جملة نُعاة . يركب الناعي فرساً ، ويسير ينعى الميت بذكر اسمه وتمجيده ، ليسمع بذلك القوم قائلاً : « نعاءِ فلان ... » . وترد كلمة « الناعي » و « النُّعاة » كثيراً فى الشعر وفى النثر (٢) . وقدكان الجاهليون يستغلون نعي القتلى للتحريض على القتال والأخذ بالثأر ، ويقال لذلك : « التناعي » (٣) .

وكلمة « الرثاء » من الكلمات الجاهلية ، وهي تعني بكاء الميت وتعديد محاسنه ونظم الشعر فيه ، ويقال للمرأة النوّاحة ، والتي ترثي بعلها أو غيره من الأقارب والأعزاء ممن يكرم عندها « الرثاءة » و « الرثاية » (٤) . وأما « المناحة » ، فهي اجتماع النساء فى مناحة لإظهار حزنهن على الميت . ويقال للاجتماع « نياحة » أيضاً . والكلمة من الكلمات الجاهلية كذلك (٥) . ويفهم كثير من الناس من كلمة « مأتم » المصيبة وإظهار الحزن والنوح والبكاء ، وليس هو كذلك ، إنما « المأتم » فى عرف أهل اللغة المجتمع يجتمع فيه النساء فى حزن أو فرح فى خير أو شر ، ويطلق على اجتماعات الرجال والنساء (٦) .

ويصحب البكاء شق الجيب وتعفير الرأس بالتراب واجتماع النسوة أياماً لندب الميت وذكر مناقبه . تقوم بذلك نادبات ممتهنات أو غيرهن ممن رزقن موهبة القول فى مثل هذه الأحوال

---

(١) بلوغ الأرب (٣/٢٠ وما بعدها) .

(٢) أقول لما أتاني الناعيات به : لا يبعد الرمح ذو النصلين والرجل

بلوغ الأرب (٣/١٣) .

(٣) تاج العروس (١٠/٣٧٣) .

(٤) تاج العروس (١٠/١٤٤) .

(٥) تاج العروس (٢/٢٤٣) .

(٦) تاج العروس (٨/١٧٩) .

من أفراد الأسرة أو القبيلة أو الحي أو القرية . وفى بيت لطَرَفة بن العبد نجده يوصي بنعيه بما يستحقه وبشق الجيب عليه [1]. وقد يمتدّ نعي الميت ورثاؤه حولاً كاملاً . وهي مدة عزاء أهل الجاهلية [2]. وتعرف التي ترفع صوتها بالنياحة بـ « الصالقة » . وأما التي تحلق شعرها عند نزول المصيبة فيقال لها « الحالقة » . وأما التي تشق جيبها فيقال لها « الشاقة » . ويقال لتمديد النادبة بأعلى صوتها محاسن الميت النادبة ولعملها الندب [3]. والظاهر أن الندب كان خاصاً بالنساء ، وإن وردت كلمة « نادب » عند اللغويين [4].

وقد نهى الإسلام عن « الصلق » ، ورد فى الحديث : « ليس منّا من صلق أو حلق أو خرق » أي ليس منّا من رفع صوته عند المصيبة وعند الموت . ويدخل فيه النوح أيضاً [5] . و « السالقة » هي بمعنى « الصالقة » ، وهي لهجة ولا شك من لهجات القبائل ، وقد وردت في رواية أخرى للحديث المذكور أيضاً [6] .

وليست عادة استئجار النادبات بعادة خاصة بالعرب الجاهليين ، فقد كان العبرانيون يستأجرون النادبات كذلك ليندبن الميت وقد أشير الى ذلك فى التوراة [7] ، ولعلها من العادات السامية القديمة المعروفة عند بقية الساميين .

كذلك كان العبرانيون يشقون الجيوب على الموتى ، وتعفر النساء رؤوسهن بالتراب وبالرماد ويلطمن خدودهن بأيديهن ، كما كانوا يشيعون الجنازة ، يشارك في ذلك الأهل والأصدقاء وأبناء الحيّ ، يعدون ذلك واجباً مقدساً . ويسهم فى هذا التشييع النساء كذلك . ثم يقومون بشعائر

---

(1) فان مت فانعيني بما أنا أهله وشقي علي الجيب يا ابنة معبد
بلوغ الأرب (٣/١١) .

(2) بلوغ الأرب (٣/١٢) ، تاج العروس (٦/٣٢٠) .

(3) بلوغ الأرب (٣/١٣) . (4) تاج العروس (١/٤٨١) « ندب » .

(5) « ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بريء من الصالقة والحالقة والشاقة » ، صحيح مسلم (١/٧٠ وما بعدها) ، « باب تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب والدعاء بدعوى الجاهلية » . تاج العروس (٦/٤١١) .

(6) تاج العروس (٦/٣٢٠ وما بعدها ، ٣٨٢) .

(7) قاموس الكتاب المقدس (٢/٢٠٠) .

أخرى بعد عودتهم من دفن الميت تتشابه مع ما كان يفعله الجاهليون ، وما يفعله المسلمون حتى اليوم [1] .

ويحترم الجاهليون الموت والميت ، فكانوا يقومون إذا مرت بهم جنازة ، ويقولون إذا رأوها : « كُنْتِ في أهلكِ ما أنتِ مرتين » . أما أهل الميت وأقرباؤه وأصدقاؤه ، فكانوا يسيرون أمام الجنازة وخلفها الى المقبرة [2] .

ويتبين من حديث « عمرو بن العاص » أن من عادات الجاهليين حمل النار مع الجنازة تصطحبها اصطحاب النائحة لها . وقد أباح « عمرو » لأهله نحر جزور عند قبره لتوزيع لحمها على المحتاجين ، وأن يقيموا حول قبره حتى يستأنس بهم ، وينظر ماذا يراجع به رسل ربه [3] .

وحلق شعر الرأس وجز الناصية حزناً على الميت ، من العادات القديمة التي كانت معروفة عند العبرانيين وعند كثير من الأمم القديمة [4] . وشعر الرأس أو اللحية من أشرف أجزاء الجسم عند الساميين ، ولذلك يعد حلق الشعر أو نتف اللحية قسراً من وسائل الإهانة والتحقير. وكان الأعراب إذا أسروا شريفاً ، وأرادوا المنّة عليه ، جزّوا ناصيته ، وخلّوا سبيله . وفي جز الناصية معنى عظيم عندهم .

وكان في روع الأمم القديمة أن الشعر للفرد قوة وحياة ، فحلقه أو جزّ جزء منه معناه تضحية كبيرة وصلة تربط الميت بالحيّ [5] .

---

(١) « أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن : الفخر في الأحساب والطعن في الأنساب والاستسقاء بالنجوم والنياحة » ، صحيح مسلم (٣/٤٥) ، « باب التشديد في النياحة » .

(٢) « كنت في أهلك ما أنت مرتين . كلمة « ما » موصولة وبعض صلتها محذوف ، أي التي أنت فيه كنت في الحياة مثله إن خيراً فخير وان شراً فشر ، وذلك فيما كانوا يدعون من أن روح الانسان تصير طائراً مثله ، وهو المشهور عندهم بالصدى والهام . ويجوز أن تكون كلمة « ما » استفهامية ، أي كنت في أهلك شريفاً مثلا ، فأي شيء أنت الآن . ويجوز أن تكون « ما » نافية ، ولفظ « مرتين » من تتمة القول أي كنت مرة في القوم ولست بكائن فيهم مرة أخرى كما هو معتقد الكفار حيث قالوا : ماهي إلا حياتنا الدنيا » ، عمدة القاريء (١٦/٢٩٣) ، « وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا » ، الجاثية ٢٤ .

(٣) صحيح مسلم (١/٧٨) ، « كتاب الايمان » ، كتاب الروح لابن قيم الجوزية (ص ١٠) « الطبعة الثالثة » ، حيدر آباد ١٣٥٧ هـ .

(٤) Smith , P. 324 , Wellhausen , Skizze III S. 167.

(٥) Ency. Religi. , vol. , VI , p. 476. F.

والعادة أن تكون مدة العزاء أي « المناحة » سبعة أيام ، تندب وتنوح فيها النســـاء في الصباح وفي المســـاء ، وتظهر البنات والزوجات وقريبات الميت ومن يتقربن من آل الميت « حاسرات » يلطمن الخدود ويشققن الجيوب ، ولا يستعملن مدة العزاء طيباً أوخلوقاً أو زيتاً، ولا يغسلن رؤوسهن ، كما يتجنب أهل الميت وذوو قرابته لبس الملابس الملونه ذات الألوان الزاهية ، وقد يقتصر على استعمال ملابس الحزن .

ومدة العزاء المذكورة ، هي مدة العزاء المعتادة عند العبرانيين كذلك [1] وهي سبعة أيام « شِبعَة » « Shib'a » . ويظهر أنها كانت المدة المقررة عند بقية الشعوب السامية . واللونان الأبيض والأسود هما اللونان اللذان تتخذ منهما الملابس في الحزن ، فقد لبسوا الملابس البيض ، ولبسوا الملابس السود ، وما زال اللونان شعارَيْ الحزن حتى الآن . فاللون الأبيض هو شعار الحزن فى الحجاز والشام حتى الآن ، أما الأسود فهو شعار الحزن فى العراق . وقد كان هذان اللونان شعاري الحزن عند العبرانيين [2] .

والحداد عند الجاهليين صعب على المرأة المتوفى عنها زوجها . عليها فى هذه المدة الامتناع عن الزينة والطيب امتناعاً تاماً ، ويقال للمرأة فى الحداد « الحادّة » ، لأنها حدت على زوجها . وفى خلال الحداد يمتنع الخُطّاب من خِطبتها والطمع فيها حتى تنتهي منه [3] .

ويقال للميت عند وضعه فى قبره : « لا تبعد » [4]. أي أنه وإن ذهب عنهم سيكون دائماً معهم وفى قلوبهم . ولعل هذا التفكير هو الذي حملهم على إخراج حصـــة مما كانوا يأكلونه ويشربونه يسمونها باسم الميت ، وعلى زيارة قبور الموتى والجلوس عندها وضرب الخيام حولها ، وعلى مناجاة صاحب القبر بذكر اسمه وتحيته ؛ لأن روح الميت فى رأيهم حيّة لا تموت . ولهذا السبب أيضاً كانوا يسقونها بصب شيء من الماء على القبر ، كما كانوا ينضحونه بالدم أيضاً .

---

(١) Ency. Religi., 3, p. 499.   (٢) Ency. Religi., 3, p. 499.

(٣) عمدة القاريء (٢/٢١ وما بعدها) .

(٤) يقولون « لا تبعد » وهم يدفنوني   وأين مكان البعـــد إلا مكانيـــا

بلوغ الأرب (٣/١٤ وما بعدها) .

وبهذا المعنى يفسر ما ورد فى الشعر وفى النثر من سقي الغمام للقبر ، ونزوله عليه ، وما ورد من شرب الخمر على القبر وسكب بعضه عليه . وقد كان العبرانيون يخرجون حصة مما يأكلونه لتكون من نصيب الموتى [1] .

وعند وضع الميت فى قبره يقوم من يذكر محاسنه وأعماله ، ثم يظهر حزنه وحزن الناس لفراقه ، ويقال لذلك « الصلاة » . وقد أطلق الاسلام على هذه وعلى الندب والأعمال الأخرى « دعوى الجاهلية » ، ونهى عنها [2] .

ويتصل بهذه العقيدة أيضاً حرص الجاهليين على احترام القبر وعدم التعرض له بسوء ، واستجارتهم بصاحب القبر مثل قبر « تميم » بموضع « مرّ الظهران » ، وقبر عامر بن الطفيل ، لدفع الشر والأذى عن المستجير ، ووضعهم الأنصاب حول القبر لتكون علامة له فلا يدخل الساحة التي يكون فيها القبر الى موضع الأنصاب حيوان أو راكب ولا يهتك حرمتها إنسان . كذلك كان الناس يضعون الرجام فوق القبر ، ويحلقون شعورهم ، كالذي كانوا يفعلونه عند الأصنام [3] ، ويكتبون على الشواخص باللعنة والهلاك على من تسوله نفسه تغيير معالم القبر وإزالة الأحجار عن مواضعها وطمس آثاره أبد الآبدين [4] .

كذلك حجت قضاعة الى قبر كان على مرتفع من الشحر ، زعم أنه قبر جدّ قبائل قضاعة [5] . وكانت أمثال هذه القبور ملاذاً يلوذ بها أصحاب الحاجات ، كما قصدها الشعراء لإنشاد قصائدهم فى مدح صاحب القبر والتغني بمجده ومجد قبيلته . ولها حمى حكمه حكم الحمى الذي يحيط ببيوت الأصنام . ويقسم بهذه القبور وبحق أصحابها ، كما يقسم بالأجداد ، ويعد هذا النوع من القسم يميناً لا يجوز الكذب فيه ، وهو كالأيمان المغلظة التي يحلف بها الناس ويذكرون فيها الآلهة

---

(١) Reste , S. 183.

(٢) ارشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطلاني (٢/٤٠٦) .

(٣) Reste , S, 184. f. Muh. Stud . , I , 231 ff. , Smith , p. 19.

(٤) Semitic Magic , p. 11 , cis , 197 , Huber 29 , Euting 2.

(٥) Muh . Stud. , I , S. 231 , 235.

وأسماء الأصنام .

وفى كتب الحديث أن النبي نهى عن الحلف بالآباء والأجـداد ، لأن ذلك من عمل أهل الجاهلية . وقد كانت قريش تحلف بآبائها وبأجدادها فتقول : وأبي أفعل هـــذا ، أو وأبي لا أفعل ، أو وحق أبي ، أو وتربة أبي ، أو وجدّك ، ونحوذلك . وهى أيمان من أيمان الجاهلية نهى النبي عنها [1] .

ويحلق بعض الجاهليين شعر الرأس كله أو بعضه ويرمونه على القبر . وحلق شعر الرأس أو جز الناصية أو حلقها أو حلق الضفيرتين ، ـ كما سبق أن قلت ـ من التقاليد الدينية القديمـة . وكانوا يقومون بذلك إكراماً وتعظيماً لشأن الأرباب ، وعند الحج الى بيوت الآلهـة ، فيرمون بالشعر أمام الأصنام تعظيماً لها وبياناً عن مقدار احترامهم لها حتى إنهم ضحوا بأعزّ رمزٍ لديهم فى سبيلها ، ولهذا كان لرمي ضفائر شعر الرأس أو حلق الرأس ورمي الشعر عند القبر أهمية خاصة فى نظر الجاهليين [2] .

ويعتر على قبور الموتى ، وعند إهالة التراب على الميت ، وقد يعتر عند القبر كل عام وفى أثناء المناسبات إذا كان الميت من السادة المشهورين المعروفين بالخصال الحميدة كالشجاعة والكرم . وفى الشعر الجاهلي والأخبار أسماء أناس كانوا من المشاهير فى أيامهم ، جرت العادة بأن تذبح الذبائح عند قبورهم إكراماً لهم . وقد بقيت هذه العادة الجاهلية خالدة حتى اليوم مع إبطال الإسلام لها بحديث : « لا عقر فى الاسلام » [3] . وليس من الضروري أن يكون أصحاب العتائر من ذوي قرابة صاحب القبر أو من قبيلته . ومن هــذه القبور ، قبرُ ربيعة بن مُكَدَّم من بني فراس ابن غُنم بن مالك بن كِنانة [4] . وعادة الجاهليين إسالة دم الذبائح على القبر أو تضريجه بتلك الدماء .

---

(١) عمدة القاريء (٢٩٢/١٦) . Muh. Studi., I, S. 229. F.

(٢) Muh. Stud., I, S. 247. ff.

(٣) بلوغ الأرب (٣١١/٢) ، « لا فرع ولا عتيرة » ، الحديث رقم ، ٦ ، ٧ من أحاديث كتاب العقيقة . صحيح البخاري .

(٤) بلوغ الأرب (١٢٥/٢ وما بعدها) ، Muh. Stud., S. 241.

غير أن علينا ألا نستعجل فى موضوع عبادة السلف عند العرب ، فإن ما لدينا من الأخبار لا يكفي لإصدار رأي علمي واضح فيه ، ثم إن موضوع قبر جدّ قضاعة فى الشحر أو قبر جد تميم فى « مرّان » وأمثال ذلك ، من الموضوعات التي تحتاج الى منـاقشة ، فليس في الروايات التي يرويها الأخباريون ما يثبت كونها جاهليين عريقين ، ولعلها من القصص التي استحدثه نزاع قحطان وعدنان فى صدر الاسلام . غير أن هذا لا يعني أننا نناقض أنفسنا بهذه اللاحظة ، فننفي وجود عبادة السلف عند الجاهليين . وهي عبادة مرت على كل أمـة ، وآثارها واضحة فى الأخبار ، إنما أريد أن أبين ضرورة التريث فى هذا البحث وفى كل البحوث الأخرى ، لقلة ما بين أيدينا من موارد ، خوفاً من أن يؤدي أمثال هذا التسرع الى الوقوع فى أخطاء فادحة لا تتناسب مع ما يتطلبه العلم من صبر وتدقيق .

ويدفن الموتى عادة فى حفر تحفر يقال لها قبر وجدث ووجر ورمس وجنن . أما فى « بطرا » فقـد نقرت المقابر فى الصخور ، فصنعت على هيأة حُجَر وضعت جثث الأموات فيهـا ، كما أُستعملت المقـابر المرتفعة في مدينة « تدمر » ، وذلك بتشييد مبان توضع فيها جثث الموتى فى حجر صغيرة تعمل في تلك الأبنية . ويقال لتهيئة الميت ودفنه في القبر « تجهيز الميت » . ويقوم الأبناء والأقرباء بوضعه فى لحده . واذا كان عزيزاً كريماً فى قومه سيداً رئيساً فيشترك الرؤساء فى ادخاله القبر . وقد يتنافسون في نيل هذا الشرف ، وقد يؤدي هذا التنافس الى وقوع الشر بين المتنافسين .

والقبر هو التسمية المعروفة الشائعة فى العربية الشمالية وفى الحجاز ونجد والعربية الشرقية ، وقد وردت فى نص النمارة ، وجمعها القبور . وأما المقبرة ، فهي موضع القبور[1] . وأما الجدث ، فهو من الـكلمات التي كانت مستعملة فى القرن السادس للميلاد ، وجمعه أجداث[2] . وقـد استعمل على ما أرى على سبيل المجاز . وأما الوجر ، فهو كالـكهف عند علماء اللغة[3] . فهو يؤدي معنى

---

(١) اللسان (٣٧٦/٦) « قبر » .   (٢) اللسان (٤٣٣/٣) .

(٣) تاج العروس (٥٩٩/٣) .

قبر على سبيل المجاز . وقد ورد فى نص مدون بالمسند يعود الى القرن السادس للميلاد ، عثر عليه في العربية الشرقية . وهو شاهد قبر رجل أسمه « ايليا » أشرت اليه سابقاً .

ويقال للقبر المسوّى مع الأرض « رمس »[1] فاذا كان مرفوعاً عن الأرض فهو قبر مسنم[2]. ويظهر أن الجاهليين كانوا يسنمون قبورهم . وقد ورد فى حديث « ابن مغفل » : « ارمسوا قبري رمساً »[3] . أي سووه بالأرض ولا تجعلوه مسنماً مرتفعاً . ويقال للقبر أيضاً جنن ويجمع على أجنان[4] .

وقد حارب الإسلام عادة أهل الجاهلية فى تسنيم القبور ورفعها عن سطح الأرض ، وشُدد على ذلك فى الحديث ، وجعلت القبور المسنمة فى حكم الأوثان[5] . ولا بد أن يكون لهذا التشديد سبب ، اذ لا يعقل ورود تلك الأحاديث فى موضوع طمسها بغير داعٍ ولا أساس . وسبب ذلك هو تقديس أهل الجاهلية لتلك القبور تقديسهم الأوثان .

وتعرف علامات القبر ومعالم حدوده بـ « الآيات » و « الآية » هي العلامة[6] . وقيل للرجمات التي وضعت على القبر الأحجار والأطباق والصفيح والصفائح والصفاح[7] . ويراد بالصفائح الحجارة العريضة التي توضع على القبر[8] . لتغطيته .

ويدفن الميت بملابسه ، ويغطى رأسه . وقد حلّ الكفن فى الإسلام محل الملابس إلاّ في حالة الاُستشهاد حيث يدفن الشهيد بملابسه التي أُستشهد فيها . ويذكر علماء اللغة أن من أسماء الكفن الجَنَن ، وأُستشهدوا على ذلك ببيت للأعشى[9] . وقد تكون هذه الكلمة من

---

(١) اللسان (٧/٤٠٥) . (٢) اللسان (١٥/١٩٩) .

(٣) اللسان (٧/٤٠٥) ، النهاية (٢/١٠٩) . (٤) اللسان (١٦/٢٤٥) .

(٥) « عن أبي الهياج الأسدي ، قال: قال لي علي بن أبي طالب : ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لاتدع تمثالا إلا طمسته ولا قبراً مشرفاً إلا سويته » ، صحيح مسلم (٣/٦١) « باب الأمر بتسوية القبر » .

(٦) تاج العروس (١٠/٢٦) ، Muh. Studi., I. S. 233, Noldeke, Beitrage, S. 99.

(٧) Muh. Studi., I, S. 233. (٨) تاج العروس (٢/١٨١) .

(٩) وهالك أهل يجنونه كآخر في أهله لم يجن

اللسان (١٦/٢٤٥) .

الـكلمات الجاهلية القديمة . ولا أستبعد استعمال بعض الجاهليين للـكفن ، « وفى الحديث : أن ثمود لما استيقنوا بالعذاب تكفنوا بالأنطاع وتحنطوا بالصبر ، لئلا يجيفوا وينتنوا . يضمون الحنوط فى أكفان الميت »[1] . كما وردت كلمة « اكفاني » فى بيت لامرىء القيس[2] . مما يدل على معرفة الجاهليين للـكفن . وقد كان قدماء العبرانيين يدفنون موتاهم بملابسهم التي كانوا يستعملونها ، أي كما كان يفعل قدماء الجاهليين ، ثم كفنوا أمواتهم بقماش أبيض مصنوع على الأكثر من الـكتان وهو على هيأة البرد اليماني يلف على جسم الميت ، ويربطون الرأس بمنديل ، وقد يربطون يديه وقدميه برباط خاص[3] ، أي على النسق الذي أقره الاسلام .

ويؤخذ من شعر للأفوه الأودي أنّ الجاهليين كانوا يغسلون موتاهم قبل دفنهم ، كما ورد فى بعض الروايات أيضاً أنهم كانوا يكفنونهم ويصلون عليهم . أما الصلاة فى عرفهم فهي وضع الميت على سرير ، ثم قيام ولي الميت بذكر محاسنه ومآثره ، فإذا انتهى من ذلك ترحم عليه[4] .

ولم نعثر على جثث فى جزيرة العرب محنطة على طريقة المصريين ، والذي نعرفه الآن أن الجاهليين كانوا يضمون الحنوط فى أكفان الميت وملابســـه ليطيب به جسمه[5] . وكان العبرانيون يضمون الحنوط لأمواتهم كذلك[6] .

ولم تستعمل التوابيت المصنوعة من الحجارة فى نجد والحجاز . أما فى بطرا وتدمر وفى المدن العربية الأخرى ، فقد اتخذت التوابيت المصنوعة من الحجر والنواويس[7] . والعادة أن تذكر مناقب الميت عند قبره فى أثناء الاحتفال بدفنه اذا كان عظيماً سيداً ، وأن يعجل بدفنه فى مقبرة القبيلة أو القرية أو فى بيته . وقد كان من عادتهم دفن الميت فى البيوت أو على مقربة منها . أما الأعراب ، فقـد كانوا يدفنون موتاهم في المنازل التي يكونون فيها ، واذا كانوا فى أثناء رحيلهم دفنوهم على قارعة الطرق ، ولا سيما على المرتفعات المشرفة عليها .

---

(١) اللسان (١٤٨/٩) . (٢) اللسان (٢٣٩/١٧) .
(٣) قاموس الـكتاب المقدس (١٩٩/٢ وما بعدها) ، Ency. Relgi., 4, P. 498.
(٤) بلوغ الأرب (٢٨٨/٢) . (٥) اللسان (١٤٨/٩) .
(٦) Ency. Religi., 3, P. 498. (٧) Reste, S. 178. f.

والتعجيل بدفن الميت من الضرورات التي اقتضتها طبيعة الجو في الشرق الأدنى . فجو جزيرة العرب لا يساعد على بقاء جسد الميت مدة طويلة ، وإلا تعرض للفساد ، ولحق الأذى به . ولهذا صار من الاستحباب التعجيل بدفن الميت . ليس في العرف حسب ، بل من الناحية الدينية كذلك . والعبرانيون لهذا السبب أيضاً يرون التعجيل بدفن الميت أيضاً .

وبعد وضع الميت في لحده ، يهال التراب عليه حتى يملأ القبر به . ويعلو القبر بعض الشيء عن سطح الأرض ، وقد توضع الحجارة فوقه من صفائح ورجام ، وقد يبنى عليه بناء أو قبة . وقد نهي الاسلام عن اتخاذ البيوت مقابر « لا تجعلوا بيوتكم مقابر »[1] . كما نهى عن تسنيم القبور ورفعها عن مستوى سطح الأرض[2] ، وهي عادة أهل الجاهلية . وقد كان الجاهليون على ما يظهر يقدسون القبور ، ويتعبدون لها ، ويأملون من أصحابها النفع ، ودفع الضر والسوء ، فهدم الاسلام هذا كله وأبطله .

ووجدت في قبور الجاهليين أشياء مما يستعمله الانسان في حياته مما يدل على أنهم كانوا كغيرهم يدفنون مع الموتى ما يشعرون بأن الميت قد يحتاج في حياته الأخرى اليه[3] . أما الأعراب فلا نتصور أنهم كانوا يدفنون مع الموتى أشياء ثمينة لفقرهم وبساطة معيشتهم . وقد عثر في مقابر أهل العربية الجنوبية مثل اليمن وحضرموت على حلي وأحجار نفيسة وأمثال ذلك مما دفنه أهل تلك البلاد مع موتاهم ، ليتزينوا بها في العالم الثاني .

وقد عثر على عدد من الرجام المكتوب الذي اتخذ شواخص للقبور فيه اسم الميت ودعاء على من يحاول نقل الرجمة من محلها . ويدل ذلك على أن الجاهليين كانوا يستعملون شواهد القبور لتعيين صاحب القبر . وقد أفادتنا هذه الشواهد في معرفة لهجة القوم وفي بعض الأمور التي لها صلة بالأصنام وبالدين .

---

(١) النهاية (٣/٢٥١) « حرف القاف . باب القاف مع الباء » .

(٢) Reste, S. 180.

(٣) Reste, S. 180.

وطريقة دفن الميت هي العادة الشائعة المعروفة بين الجاهليين ، غير أن هناك من كان يأمر بحرق جثته وذرّ رماده في الهواء ، أو بدفن الرماد في الأرض [1]. وطريقة حرق الموتى ليست من العادات السامية أي من العادات المنتشرة بين أكثر الساميين . وأصحاب هذا الرأي متأثرون ولا شك بديانة الفرس .

ومن عادات بعض الجاهليين ضرب القباب على قبور موتاهم أياماً أو أشهراً قد تبلغ عاماً ، يقيم فيها نساء الميت أو ذوو قرابته ، ليجاوروا الميت ، وليستقبلوا فيها من يفد لزيارة القبر [2]. واعتقادهم بإحساس روح الميت بوجودهم هناك وبمجيئهم الى القبر لمؤانستهم له هو الذي حملهم ، ولا شك ، على ضرب هذه القباب وعلى مجاورتهم لتلك الأجداث . ومن هذه القباب المؤقتة ظهرت الأضرحة الثابتة ذات القباب السامقة الشامخة ، كما أن من المعابد المتنقلة ، أي الخيام المقدسة ، نشأت المعابد الثابتة عند العبرانيين وعند الجاهليين وعند غيرهم من الشعوب .

ويفهم من روايات الأخباريين أن من عادة الجاهليين حجر المرأة عند وفاة زوجها في بيت صغير ، قد يكون خيمة أو بناء يسمونه « الحفش » ، لتقضي فيه مدة العدّة . فإذا كانت في هذا البيت ، لبست شرّ ثيابها ، وامتنعت عن الطيب وعن تزيين نفسها مدة عام [3]. فإذا انتهت المدة ، افتضّت عدتها « بمس الطيب أو بغيره كقلم الظفر أو نتف الشعر من الوجه ، أو دلكت جسدها بدابّة أو طير ، ليكون ذلك خروجاً عن العدّة . أو كان من عادتهم أن تمسح قُبُلَها بطائر ، وتنبذه فلا يكاد يعيش » [4]. وتصف رواية أخرى دخول المرأة الحفش وخروجها منه على هذه الصورة : « كانت اذا توفي عنها زوجها دخلت حفشاً ولبست شر ثيابها حتى تمر بها سنة ثم تؤتى بدابة شاة أو طائر فتفتض بها ، فقلّما تفتض بشيء إلاّ مات ، ثم تخرج فتعطى بعرة ترمى بها .... » و « كانت لا تغتسل ولا تمس ماء ولا تقلم ظفراً ولا تنتف من وجهها شعراً ، ثم تخرج بعد الحول بأقبح منظر ثم تفتض بطائر تمسح به قبلها وتنبذه فلا يكاد

---

(١) النهاية (٢/١١٥) . (٢) Muh. Stud., I, S. 257.

(٣) تاج العروس (٤/٣٠٠) ، اللسان (٨/١٧٤ وما بعدها) .

(٤) تاج العروس (٥/٧٠) .

يعيش »[1].

ويفهم من الآية المكية : « قل : أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق ، فجعلتم منه حراماً وحلالاً ، قل : آللهُ أَذِنَ لكم ، أم على الله تفترون ؟ »[2] ، ومن الآيتين المدنيتين « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ، ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين ، وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً ، واتّقوا الله الذي أنتم به مؤمنون »[3] ، أن الجاهليين الوثنيين كانوا كأهل الكتاب أهل شريعة قسمت الأشياء الى « حلال » و « حرام » ، وأن هاتين الكلمتين من المصطلحات الجاهلية القديمة التي كانت لها معان فقهية عند الجاهليين .

ولسنا نقصد بالحلال وبالحرام ما يفهم من معنى الكلمتين فى العرف الإسلامي ، اذ يصعب تصور وجود ذلك فى جميع أجزاء جزيرة العرب . إنما نستطيع أن نتحدث عن عرف اصطلح عليه بين قبيلة أو مجموعة قبائل . ففي الأخبار أن بعض القبائل كانت تبيح أكل بعض الحيوانات ، بينما هي محرمة أو مذمومة لا يستساغ أكلها عند قبيلة أو قبائل أخرى . ثم أن أهل المدن والقرى وللزارعين كانوا يعافون أكل بعض حيوانات أو مأكولات هى مأكولة فى نظر الأعراب . ولدينا مصطلحات مثل : نجس وقذر ودنس وطمث وطيب وطاهر ونظيف وخبيث ، كل هذه وأمثالها كانت ذات مدلول خاص له علاقة بالحرمة أو بالإباحة .

وكلمة « نجس » هي ضد « الطاهر » ، فالنجاسة هي عكس الطهارة[4] ، وهي بهذا المعنى فى الجاهلية كذلك . وهنالك كلمة أخرى لها معنى قريب من معنى هذه الكلمة ، هي لفظة « رجس » ، وهي بمعنى قذر[5]. ومن الأمور النجسة فى نظر أهل الجاهلية « الطمث » وهو « الحيض » ، ومن معاني « الطمث » « الدنس »[6]. وذكر علماء اللغة أن هناك ما يزيد على خمس عشرة كلمة للحيض ، منها : درست ، ونفست ، وصامت ، وغير ذلك[7] ، لو تعمقنا فى دراستها ،

---

(١) تاج العروس (٥/٧٠) . (٢) يونس : الآية ٦٠ .
(٣) المائدة : ٨٩ وما بعدها .
(٤) تاج العروس (٤/٢٥٣ وما بعدها) ، قاموس الكتاب المقدس (٢/٥٠) .
(٥) تاج العروس (٢/١٠٩) . (٦) تاج العروس (١/٦٣٢) .
(٧) تاج العروس (٥/٢٤ وما بعدها .

لوجدنا لبعضها صلة بالنجاسة والطهارة ، أي بهذا المعنى الشرعي عند الجاهليين . ولنجاسة المرأة في هذه الفترة ، لم تكن لتقوم بالأعمال الدينية مثل الطواف حول الأصنام أو الحج أو ما شابه ذلك من احتفالات[1].

وعدّت أكثر الأديان المرأة في هذه الفترة وفي أيام النفاس غير طاهرة ، فلم يسمح لها باداء الشعائر الدينية ودخول المعابد ولبس الأشياء المقدسة الى أن ينتهي الأجل المحدد لهذه الأدوار ، فتغتسل أو تقوم ببعض الشعائر المطهرة . وعندئذ يجوز لها أداء ما عليها من فروض وواجبات[2].

وتعد المرأة نجسة في اليهودية مدة سبعة أيام منذ يوم الولادة تُعَدّ خلالها كأنها في أيام طمث ، ثم تقيم ثلاثة وثلاثين يوماً في « دم تطهيرها » اذا كان المولود ذكراً . فاذا ولدت أنثى تكون نجسة أسبوعين كما في طمثها ثم تقيم ستة وستين يوماً في دم تطهيرها . ومتى انتهت هذه المدة « تأتي بخروف حوْلي محرقة وفرخ حمامة أو يمامة ذبيحة خطية الى باب خيمة الاجتماع الى الكاهن ، فيقدمها أمام الربّ ويكفر عنها ، فتطهر من ينبوع دمها ... وإن لم تنل يدها كفاية لشاة تأخذ يمامتين أو فرخي حمام الواحد محرقة والآخر ذبيحة خطية فيكفر عنها الكاهن ، فتطهر »[3].

والتطهير أمر مهم جداً في كل ديانة ، وخاصة في الديانات البدائية التي تقيم للأرواح وزناً كبيراً ، لما للتنجيس والتطهير من أثر كبير في طرد الأرواح أو التأثير عليها . فالتنجيس مثلاً باب مهم في السحر يستعمل لطرد الأرواح الشريرة ، يستعمل لأن الأرواح الخبيثة تنفر من الأشياء النجسة وتبتعد عنها ، ولذلك عمد الجاهليون كما عمد غيرهم الى طرد الأرواح عنهم بهذه الطريقة . ويتنجس الطاهر كله أو بعضه بسقوط النجاسة عليه . ومن أنواع النجاسة عند العبرانيين النجاسات التي تتولد عن الصلات الجنسية ومن الدم ومن الأشياء النجسة ، ومنها

---

(١) Reste, S. 170.

(٢) The Shorter Ency. of Islam, P. 126, Juynboll, Handbuch des Islam Gesetzes, S. 174.

(٣) لاويون الاصحاح الثاني عشر ، قاموس الكتاب المقدس (٢/٨١٤) ،
Ency. Religi. 2, P. 653, Hastings, P. 145.

الأطعمة ، ومن الموت ومن بعض الأمراض مثل الجذام[1] .

ومن المصطلحات الجاهلية التي لها علاقة بمفهوم الحلال والحرام « البسلُ » وهو عند علماء اللغة من الأضداد ، فهو يعني على رأيهم الحرام والحلال ، ومنه بسلة الراقي ، وهو ما يحل له أن يأخذه على الرقّية . ومن معانيه الاستجابة . وكان الجاهليون على مايظهر يستعملونها بهذا المعنى عند الدعاء . وذكر أيضاً أن البسل نسيئة بني عامر بن لؤي ثمانية أشهر حرم لهم من كل سنة من بين العرب . وقد عرفت العرب ذلك لهم ، فلا ينكرونه ولا يدفعونه ، يسيرون به الى أي بلاد العرب شاؤوا لا يخافون منهم شيئاً[2] .

ولا ترجع كراهيـة أكل لحوم بعض المأكولات أو تحريمها على رأي « ولهوزن » الى فكرة « النجاسة » والطهارة عند الجاهليين ، بل ترجع بحسب رأيه الى ما يسمى بـ « قدش » عند العبرانيين أي الى ما يكرس للآلهة والى حكم العرف والعادة[3] . فالدم الذي يسيل من نحر العتيرة هو حرام مثلاً لا يجوز الانتفاع به ؛ لأن الدم مما أهل للأصنام . وأكل قلب العتيرة محرم عند قبيلة « جُعْفي » والية الشاة محرمة على قبيلة « بَلِيّ » . فعدم أكل هذه الأشياء أو الانتفاع منها إذن ليس لنجاستها أو لطهارتها ، فالجاهليون على رأيه لم يكونوا يعرفون فرقاً فى المأكولات من حيث الطهارة أو النجاسة ، إنما هو بسبب الحرمة التي اكتسبتها تلك الأشياء من تخصيصها باسم الآلهة ، أو بسبب العرف والعادة .

ولاختلاف العادات ووجهات النظر عند الأعراب وأهل المدن ثم الأعراب فيما بينهم ، اختلفت آراؤهم فى المأكولات ، فقبيلة تبيح أكل حيوان أو طعام ، وقبيلة أخرى تستهجنه ، يعير الإنسان عندها اذا تناول شيئاً منه . فأكل الجراد مستهجن مثلاً عند هُذَيْل ، بينما هو خلاف ذلك عند أهل اليمن . وقد حفظ الأخباريون أسماء مأكولات عديدة عافتها بعض

---

(١) Hastings , P. 146.

(٢) الروض الأنف (١/٧٥) ، ابن هشام حاشية على الروض (١/٧٥) ، تاج العروس (٧/٢٢٧) ، (١٣/٥٦) .

(٣) Reste, S. 168.

القبائل ، فلم تستسغ أكلها ، لقذارتها ، على حين أن تناولها لم يكن مَعِيباً عند قبائل أخرى . وفي مفاخرات القبائل بعضها على بعض ومهاجاتها بعضها بعضاً شعر ونثر تطرقوا فيه الى هذه الأمور ، ومؤاخذات على قبائل لأنها كانت تسف فتأكل بعض الحيوانات القذرة المستضعفة المستهجنة التي لا يجوز لإنسان كريم أن يسف فيأكل من لحومها . وفيه هجاء واستخفاف متبادل بين أهل القرى والمدن والأعراب لأكلهم طعاماً لا يليق أكله لأنه ليس من النوع المألوف .

ومن الحيوانات التي استخبثت العرب أكلها واُستقذرته فلا تأكله ، الورل . أما الضب ، فقد أكلته[1] . ويظهر من الآية : « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردّية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب . »[2] أن العرب كانوا يأكلون لحم الخنزير . أما الميتة ، فهي كل ما له نفس سائلة فارقه روحه من غير تذكية[3] . وأما الدم ، فالمراد به الفصيد ، وهو الدم الذي يجعل في الأمعاء بعد فصده ، ويشوى للضيف ، وأما المنخنقة فهي التي خنقوها حتى ماتت أو انخنقت بسبب ، وأما الموقوذة فهي التى تثخن ضرباً بعصا أو حجر حتى تموت . وأما المتردية فهي التى تردت من جبل أو في بئر فماتت ، وأما النطيحة ، فهي التى نطحتها أخرى فماتت بالنطح . وأما المراد بـ « ما أكل السبع » فهو ما يفترسه السبع ، ويستثنى من هذا ما يدرك فيذكّى[4] .

ويظهر أن عادة فصد الجمل للاستفادة من دمه عادة قديمة ، ولعل اُعتقادهم أن الدم هو سبب الحياة هو الذي حملهم على عدّ هذا النوع من الأكل شرفاً عظيماً يقدم الى الضيف . ثم إن الدم مما كان يقدم الى الآلهة ، فيصب على المذابح ، وتلطخ به الأنصاب . وتقديمه في نظر الديانات القديمة عبادة من أهم العبادات . يذبح الحيوان أمام المذبح أو النصب ، ويسمى عليه اسم من

---

(١) تاج العروس (٣٤٣/١) . (٢) المائدة : الآية ٤ .
(٣) الكشاف (٣٢٢/١ وما بعدها) . سورة المائدة ، الطبرسي (١٥٧/٢) .
(٤) الكشاف (٣٢٢/١) ، الطبرسي (١٥٧/٢ وما بعدها) .

أهديت الذبيحة له . وقد كانت هذه العادة عادة الاستفادة من الدم معروفة عند العبرانيين كذلك ثم حرمت ، وظلت متبعة فى الجاهلية الى أن قضى عليها الاسلام [١] .

ولعل حرص الجاهليين وغيرهم على سكب دم الضحية على النصب وعلى الموضع المقدس ، وحرصهم على تحريم الاستفادة من دم الضحية المخصصة بالآلهة دون تحريم استعمال لحومها هو بسبب اعتقادهم أن الآلهة لا ترغب إلا في الدم ، وأنها لا تنال من الضحية إلا دمها ، ولهذا حرم استعمال الدم ، وأبيح استعمال لحم الضحايا بجميع أنواعها [٢] .

والمعروف أن الخنزير هو من الحيوانات القذرة النجسة عند جميع الساميين ، ولذلك لم يكن يحل لهم أكل لحمه [٣] ، غير أن فى ورود النص فى القرآن الكريم بتحريم لحمه ، ثم شيوع أكله عند السريان وعند النصارى العرب [٤] دليلاً على أنه لم يكن محرماً عند جميع الساميين ، وأن العرب كانوا يتناولون لحمه كما كانوا يتناولون لحوم بقية الحيوانات .

وقد شقّ على المشركين على ما يظهر من الآية : « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ، وإنّه لَفِسْقٌ وإنّ الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون » [٥] لجادلوا المسلمين فى الميتة وما لم يذكر اسم الله عليه أي ذبائحهم ، ولعل ذلك بسبب الخسائر التى لحقت بهم من تحريم أكل ذبائح الجاهليين . فنزلت هذه الآية في تحريم ذبائح المشركين . وهناك رواية طريفة فيها « أن قوماً من مجوس فارس كتبوا الى مشركي قريش ، وكانوا أولياءهم فى الجاهلية ، إن محمداً وأصحابه يزعمون أنهم يتبعون أمر الله ، ثم يزعمون أن ما ذبحوه حلال وما قتله الله حرام ، فوقع ذلك فى نفوسهم ، فذلك إيحاؤهم اليهم » [٦] . ولهذا السبب نزل الوحي .

والكلب فى الاسلام من الحيوانات النجسة ، وهو من أنجس الحيوانات فى الشريعة

---

(١) Smith, P. 234. f

(٢) Smith, P. 235.

(٣) Smith, P. 218.

(٤) Smith, P. 299. f.

(٥) الأنعام : الآية ١٢١ .

(٦) الطبرسي (٣/٣٥٨) ، الكشاف (٢/٣٦ وما بعدها) .

اليهودية[1] . ولذلك لا يجوز أكل لحوم الكلاب . والقاعدة العامة في الأديان القديمة أن الحيوانات التي لا يجوز أكل لحومها هي حيوانات نجسة[2] . ولم يرد في روايات الأخباريين ما يفيد أكل الجاهليين للكلاب ، ولم ترد في القرآن الكريم إشارة الى أكلهم لها ، كما جاء ذلك في الخنزير . ولذلك يمكن أن نقول إن لحوم الكلاب كانت من اللحوم المحرمة الخبيثة التي لم يكن يأكلها الجاهليون . أما جسم الكلب ، فليس لدينا دليل يثبت تنجس الجاهليين منه .

ولا بد لنا في هذا الفصل من الإشارة الى موضوع مهم هو الوأد وقتل الأولاد عند الجاهليين . جاء ذكر الوأد في الآية : « واذا الموؤودة سئلت : بأيّ ذنبٍ قُتِلَتْ »[3] . وجاء ذكر قتل الأولاد في الآيتين : « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق »[4] و « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وايّاكم »[5] . والوأد على ما يذكر علماء التفسير وأهل الأخبار هو دفن البنات وهن أحياء ، وذلك خوفاً من العار أو لوجود نقص فيها أو مرض أو قبح كأن تكون زرقاء أو شيماء أو برشاء أو كسحاء وأمثال ذلك ، وهي من الصفات التي كان يتشاءم منها العرب[6] . أو خوفاً من الفقر والجوع . ويذكرون أنهم كانوا يحفرون حفرة ، فإذا ولدت الحامل بنتاً ولم يشأ أهلها الاحتفاظ بها رموا بها في الحفرة ، أو أنهم كانوا يقولون للأم بأن تهيء أبنتها للوأد ، وذلك بتطييبها وتزيينها . فإذا زينت وطيبت ، أخذها الى حفرة يكون قد أحتفرها ، فيدفعها فيها ، ويهيل عليها التراب حتى تستوي الحفرة بالأرض[7] . وذكر أيضاً أن بعضهم كان يغرقها ، أو يقوم بذبحها ، ليتخلص بهذه الطرق منها[8] .

---

(١) قاموس الكتاب المقدس (٢/٢٦٣) . (٢) قاموس الكتاب المقدس (١/٣٩٩) .

(٣) سورة التكوير : الآية ٧ . (٤) الأنعام : الآية ١٥٠ .

(٥) الاسراء : الآية ٣١ . (٦) بلوغ الأرب (٣/٤٣) .

(٧) الكشاف (٤/١٨٨) « سورة التكوير » ، بلوغ الأرب (٣/٤٢ وما بعدها) ، تاج العروس (٢/٥٢٠) .

(٨) بلوغ الأرب (٣/٥٢) .

ويرجع بعض الأخباريين تاريخ الوأد الى أيام النعمان بن المنـذر ملك الحيرة ، فيقولون إن بني تميم منعوا الملك ضريبة الإتاوة التى كانت عليهم ، فجرد الملك حملة عليهم كان أكثر رجالها من بني بكر بن وائل ، أوقعت بهم وسبت ذراريهم . فلمـا أرضوا الملك وكلموه فى الذراري ، « حكم النعمان بأن يجعل الخيار فى ذلك الى النساء ، فأية أمرأة أختارت زوجها ، ردت عليه ، فاختلفن فى الخيار . وكانت فيهن بنت لقيس بن عاصم ، فاختارت سـابيها على زوجها ، فنـذر قيس بن عاصم أن يدس كل بنت تولد له فى التراب ، فوأد بضع عشرة بنتاً . وبصنيع قيس بن عاصم واحيائه هذه السنة نزل القرآن في ذم وأد البنات »[1] . ورَجَّعَ بعض الأخباريين الوأد الى قبيلة ربيعة . زعموا أن بنتاً لرئيسها وسيدها وقعت أسيرة فى أيدي قبيلة أغارت عليها ، فلما عقد الصلح ، لم تشأ البنت العودة الى بيتها ، وأختارت بيت آسرها ، فغضب رئيس ربيعة لذلك، وأستن هذه السنة ، وقلدته بقية العرب حتى فشت بين القبائل[2] . وهي رواية قريبة في مضمونها وفي فكرتها من الرواية الأولى . والفرق بين الروايتين هو في تسمية القبيلة والأشخاص .

ويذكر الأخباريون أن « الوأد كان مستعملاً فى قبائل العرب قاطبة ، فكان يستعمله واحد ويتركه عشرة ، فجاء الاسلام وقد قل ذلك فيهـا إلاّ من بني تميم ، فإنهم تزايد فيهم ذلك قبيل الاسلام »[3] وقبيلة كِندة وقيس وأسـد وهُـذَيل وبكر وائل من القبائل التي عرف فيهـا الوأد[4] .

وفي القرآن الكريم : « وإذا بُشّرَ أحدهم بالأنثى ظَلّ وجهه مسوّداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سـوء ما بُشِّرَ به . أيمسكه على هُونٍ أم يَدُسُّـهُ فى التراب ؟ ألا سـاء ما يحكمون »[5] . وفى هذه الآية وصف للحالة النفسية التي كانت تعتور الأب عند إخباره بميلاد

---

(١) بلوغ الأرب (٣/٤٣) ، الأغاني (١٢/١٥٠) ، Kinship, P. 279.

(٢) بلوغ الأرب (٣/٤٣) .

(٣) بلوغ الأرب (٣/٤٢) ، Freytag , Arab. Pro. , II , 16.

(٤) Kinship , p. 281.

(٥) النحل ٥٨ .

بنت له ، وشرح لبعض الأسباب التي كانت تحمل الآباء على وأد البنات .

ومن النساء من تكون خصبة في ولادة البنات ، فيجلب هذا الخصب لها هجر زوجها لها وفراره منها ومن رؤية بناتها .

يحدثنا الأصمعي أن امرأة ولدت لرجل بنتاً سمتها الذلفاء ، فكانت هذه البنت سبباً في هرب الرجل من البيت ، فقالت :

ما لأبي الذلفاء لا يأتينا ... يظلُّ في البيت الذي يلينا ؟

يحرد أن لا نلِدَ البنينا ... وإنّما نأخذ ما يعطينا [1]

ومثل تلك المرأة المسكينة كثير من النساء هجرهن أزواجهن لكثرة ما كن يلدن لهم من البنات ، ولسان حالهن يكرّر كلمات أم الذلفاء .

غير من أن العرب من كان يسفّه رأي الوائدين ولا يرضى بذلك ، وكان منهم من يفتدي الموءودة من أهلها ، ومن هؤلاء زيد بن عمرو بن نُفَيْل وصعصعة بن ناجية . ويظهر من قصص هؤلاء مع أهل الموءودة ومن شرائهم للموءودات من أهلهن ، أن الدافع الأكبر الذي حمل الناس على الوأد هو الفقر والاملاق [2] .

ولست اعتقد أن الوأد كان متفشياً عند العرب على نحو ما صوره لنا بعض أهل الأخبار ، وما تصوره بعض مَن بحثوا في هذا الموضوع من المستشرقين . وورود الوأد في القرآن الكريم ، لا يدل على انتشاره بين العرب بالضرورة ، إنما وروده فيه إشارة الى أمر مارسه أهل الجاهلية ، فنزل الوحي

---

(1) بلوغ الأرب (٥١/٣) . ونسبت هذه الأبيات الى إمرأة أبي حمزة الضبي ، الذي هجر زوجته ولجأ الى خيمة جيرانه يبيت فيها فراراً من زوجته التي ولدت له بنتاً ، ولكنها وردت على هذا الشكل :

ما لأبي حمزة لا يأتينا ؟ ... يظل في البيت الذي يلينا

غضبان أن لا نلد البنينا ... تالله ما ذلك في أيدينا

وإنما نأخذ ما أعطينا ... ونحن كالأرض لزارعينا

ننبت ما قد زرعوه فينا

بلوغ الأرب (٥١/٣) ، البيان والتبيين (١٠٤/١) .

(2) بلوغ الأرب (٤٥/٣) ، الأغاني (٣/١٩) ، تيسير الوصول (١١٣/٣) .

بتحريمه ، فالإشارة اليه فى القرآن الكريم هو للتحريم ، ولا يعني التحريم الانتشار . وأما ماورد من كثرة ما أفتداه زيد بن عمرو بن نُفَيْل أو صعصعة بن ناجية ، فلا يمكن أن يكون أيضاً دليلاً على انتشارالوأد ، فالأخبار الواردة فى ذلك هي فى باب الفخر والمدح . والفخر والمدح لايخلوان من مبالغات ، ولا سيما اذا كانا من جماعة متعصبة للممدوحين وبدواعي التبجح بالقبيلة والنفس . والفرزدق الذي تبجح بكثرة ما أفتداه صعصعة هومن المبالغين المعروفين فى الفخر بقومه على خصومه ، فمدحه لا يكون سنداً يركن اليه فى إثبات تأريخ . فما ذهب اليه « ماك لينان Mac Lennan » وغيره عن أثر الوأد فى عدد النساء ، ومن أثر ذلك في الزواج الخارجي عند العرب [1] ، هو رأي مبالغ فيه ، وقد بني على روايات بنيت على مبالغات ، وبها حاجة شديدة الى النقد .

وأما ما ورد عن قتل الأولاد ، فذكر أنه كان أيضاً بسبب الخوف من الفقر والإملاق ، وأن الذين فعلوا ذلك هم فقراء العرب . وذكر أن المراد من كلمة « أولادكم » الواردة فى الآيتين البنات ، وأن المقصود بذلك الوأد [2] . وقد وردت فى القرآن الكريم آيات أخرى عن قتل الأولاد الذكور عند المشركين ، مثل : « وكذلك زُيّن لكثير من المشركين قتلَ أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم . ولو شاء الله ، ما فعلوه ، فذرهم وما يفترون » [3] ، ومثل : « قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم ، وحرّموا ما رزقهم الله افتراءً على الله ، قد ضلوا ، وما كانوا مهتدين » [4] . وفى هاتين الآيتين صراحة بقتل المشركين لأولادهم وبإبطال الاسلام ذلك العمل [5] .

ونحن أمام هذه الآيات تجاه موضوعين : وأد البنات وقتل الأولاد الذكور عند الجاهليين . وأد البنات للأسباب المذكورة الواردة فى كتب التفسير والحديث ، وقتل الأولاد للأسباب المذكورة

---

(١) الأمومة عند العرب (ص ٥٠) .
(٢) بلوغ الأرب (٣/٤٤) .
(٣) الأنعام الآية ١٣٧ .
(٤) الأنعام الآية ١٤٠ .
(٥) الطبرسي (٣/٣٨٢) ، الكشاف (٢/٤٨) .

في تلك الكتب أيضاً وفي كتب الحديث واللغة والأخبار . وفي كلتا الحالتين نتيجة واحدة ، هي القضاء على حياة إنسان حي .

ولم ينفرد العرب بقتل الأولاد والبنات ووأدهم ، بل نجد ذلك عند غيرهم من الشعوب كذلك ، مثل المصريين واليونان والرومان وشعوب أسترالية . أما العوامل التي حملت تلك الشعوب عليها ، فهي عديدة ، منها عوامل دينية مثل الاعتقاد بحلول الأرواح ، ومنها اقتصادية كالخشية من الفقر . ومنها ما يتعلق بالصحة كأن يكون المولود ضعيفاً فيقضي عليه الوالدان (١) .

ولست أستبعد وجود عوامل دينية قديمة حملت الجاهليين على الوأد وعلى قتل الأولاد ، بأن يكون ذلك من بقايا الشعائر الدينية التي كانت في القديم . وتقديم الضحايا البشرية الى الآلهة لخير المجتمع وسلامته وإرضاء الآلهة ، من الشعائر الدينية المعروفة . فليس بمستبعد أن يكون الوأد والقتل من بقايا تلك الشعائر ، والغريب في الوأد أنه يكون بالدفن ، بينما العادة في الضحايا التي تقدم الى الآلهة أن تكون بالذبح أو بالطعن وبأمثال ذلك كي يسيل الدم من الضحية ، والدم هو الغاية من كل ضحية ، لأنه هو الجزء المهم من الضحايا المخصص بالآلهة . وعلى الجملة إن الوأد هو نوع أيضاً من القتل . وذبح الأولاد وتقديمهم قرابين الى الآلهة « Infantcide » ، عبادة معروفة عند أمم أخرى ، كانت تمارسها لترضى بذلك الآلهة وتجيب مطالبها (٢) .

وقتل الأولاد الذكور عند الجاهليين هو أقل أستعمالا من وأد البنات بكثير . والسبب الوحيد المذكور عن سبب إقدامهم على قتل الأولاد هو عامل ديني كما يتبين ذلك من قصة إقدام عبد المطلب على قتل ابنه عبد الله بسبب النذر الذي أخذه على نفسه على ما جاء في روايات أهل الأخبار (٣) .

وهذا العامل هو الذي يفسر ما جاء في التوراة عن اقدام ابراهيم على ذبح أبنه ويشير الى وجود هذه العادة عند الاسرائيليين . وسبب قلة قتل الأولاد بالقياس الى وأد البنات أن الولد

---

(١) Ency. Brita. , 12' P. 322 , E.

(٢) Ency. Religi. , I , P. 669 , Smith , p. 370.

(٣) بلوغ الأرب (٣/٤٦ وما بعدها) .

عنصر مهم فى الحياة الاقتصادية وفى الحياة الاجتماعية حيث يكون عُدة لوالده ولأهله وعشيرته فى الحروب ، ثم أن أسره فى الحرب لا يُعَدُّ فى عرفهم شائناً مثل أسر البنات . واتصال الرجل بالمرأة ليس كاتصال المرأة بالرجل ، فالمرأة بالأسر تكون فريسة للآسرين . والمرأة ليست قادرة كالرجل على إعاشة نفسها وغيرها ولا على الغزو ، ولعل هذا السبب الأخير ، أي الخوف من وقوع البنت فى الأسر وظهور العار ، هو من أهم العوامل التي حملت على الوأد [1] .

هذا ، ولا بدّ لي من الإشارة هنا ، وقد انتهيت من هذا الفصل ، الى مؤلفات لم تصل الينا ويا للأسف ، مهما قيل فيها وفى أصحابها فإنها لا تخلو من فائدة ما فى الكشف عن عقائد أهل الجاهلية ، مثل مؤلف لابن الكلبي سمّاه ابن النديم « كتاب أديان العرب » ، وهو على مايظهر من ذكره له بعد كتاب الأصنام كتاب آخر مستقل [2] . ومؤلفات أخرى ذكر أسماءها ابن النديم كذلك ، هى : كتاب الموؤودات وكتاب وصايا العرب وكتاب الكهّان وكتاب الجن وكتاب ماكانت الجاهلية تفعله ويوافق حكم الاسلام ، وكتاب مناكح أزواج العرب [3] . و« كتاب بغايا قريش فى الجاهلية وأسماء من ولدن » وهو من مؤلفات « الهَيْثَم بن عَدِي » المتوفَى سنة (٢٠٧ هـ) [4] ، وهو من الشعوبيين المتحاملين على العرب ، وجملة كتب فى مناكح الأشراف وأخبار النساء من تآليف « المدائني » [5] ضاعت ، أو هي لم تزل موجودة ولكنها لم تطبع ، فلم نتمكن من الاستفادة منها ، وهو أمر يؤسف عليه .

ولما كان هذا الفصل من الموضوعات التي تخص الحياة الاجتماعية أيضاً ، ومكان الحياة الاجتماعية فى الجزء التالي من الكتاب ، رأيت أن أكتفي فى هذا الجزء بالقدر الذي يتعلق بالحياة الدينية ، وتأجيل ما يتعلق منه بالحياة الاجتماعية الى الجزء المذكور .

---

(١) الأمومة عند العرب (ص ٥٠) ، Kinship , p. 279.

(٢) الفهرست (ص ١٤١) « أخبار هشام الكلبي » .

(٣) الفهرست (ص ١٤١ وما بعدها) . (٤) الفهرست (ص ١٤٦) .

(٥) الفهرست (ص ١٤٩) .

الفصل التاسع

تسخير عالم الأرواح

للعالم الخفي ، وأقصد به عالم الأرواح بنوعيه الطيب منه والخبيث ، أثر خطير فى عقائد أهل الجاهلية ، وفى عقائد الشعوب القديمة ، وفى أنفس كثير من الناس حتى اليوم ؛ إذ يشغل ذلك العالم فى الواقع جزءاً خطير من الدين ومن حياة الناس عامة . فهناك صلوات وشعائر وأدعية مكتوبة وغير مكتوبة تتلى وتقال وتقرأ للسيطرة على ذلك العالم ، وللانتفاع منه ، ولتسخيره فى سبيل خير الإنسان ، ولتجنب أذى النوع الخبيث منه . واذا تتبعنا هذه الاعتقادات عند الجاهليين ، وجدنا أنها قد كونت الجزء الأكبر من عقيدتهم ودياناتهم ، وأنها والنابع من الأصول التي ارتكزت عليها ديانات العرب قبل الإسلام .

والواقع أن الاعتقاد بالأرواح يشغل حيزاً كبيراً من فناء الدين عند الجاهليين ، وإن بدا لنا أنه شيء لاعلاقة له بالدين . فنحن حين البحث فىموضوع العقيدة والدين عند أهل الجاهلية، لا نتحدث بالطبع عن العقيدة والدين بالنسبة الى معتقداتنا وبالنسبة الى تفكير الإنسان فى القرن العشرين ، إنما نتحدث عن رأي أناس عاشوا قبل الإسلام ، وعن جماعة أدركت الإسلام ، كانت الأرواح فى نظرها أكثر أثراً فى حياة الفرد من أثر الآلهة فيه ، بدلالة كثرة الكلمات والمصطلحات الجاهلية المتعلقة بها ، وما ورد فى القرآن الكريم وفى الحديث النبوي والأخبار من أثر الجن مثلاً فى نفوس القوم حتى تصوروهم آلهة وشركاء للأرباب فى ادارة دفة هذا الكون .

هذا ، ونحن إن ذكرنا الأرواح ، فاننا لا نقصد المعنى المفهوم منها فى رأينا ، بل نقصد هذا المعنى وشيئاً آخر أعم وأوسع منه معنى يشمل أيضاً بعض الأحجار والأشجار والآبار والكهوف وأمثال ذلك من أشياء تصوَّرَ أهل الجاهلية أنها تكمن فيها قوة خارقة تستطيع التأثير فى حياة الناس ، فتقربوا اليها بالزيارات وبالقرابين وبالتضرع والتوسل والأدعية لقدسيتها ولتلك القدرة العجيبة التي فيها ، فهي من حيث النفع أو الضرر كالأرواح ، فلا بد من التعرض لها من حيث إنها جزء من عقيدة ودين .

وقد وجه الإنسان جميع مواهبه منذ أقدم أيامه لتسخير عالم الأرواح ، وجعله فى خدمته وتحت تصرفه ، أو لتحويله بحسب رغباته ، وتجنب ضرره وأذاه . قام بذلك رجال الدين خاصة ورجال الدين بحكم اتصالهم بالآلهة وبالعالم غير المنظور ، هم خلفاء الآلهة على وجه الأرض ، وألسنة الأرواح الناطقة بين الناس . فكانوا حكاماً ورجال دين وسحرة وأطباء وعلماء . احتكروا كل ذلك لأنفسهم زمناً طويلاً حتى نافسهم المنافسون من رجال الحكم ، فأضعفت هذه المنافسة من مكانتهم ، وأوجدت لهم طبقة أخرى من المنافسين نافسوهم فى ميادين أخرى هي ميادين المعرفة. فظهر المنجمون والسحرة ، ثم توسعت المنافسة ، وخف احتكار رجال الدين للعلوم . لحاجة الحكام الى فروع المعرفة الجديدة ، ولإثبات أصحاب المعارف الجديدة كفاية ممتازة ومقدرة فى معالجة مشكلات المعرفة الانسانية لم تكن معروفة عند رجال الدين ، حتى استطاعوا بكفايتهم هذه وبسعة علمهم من الاتصال بالحكام أصحاب الحلّ والعقد ، ومن التمتع بحصانة قوية تحميهم من مقاومة رجال الدين لهم ، ومن محاربتهم ومحاربة علومهم الجديدة باُسم الآلهة والدين .

وقد تحدثت عن الآلهة وقلت إن من الصعب الوقوف على رأي الجاهليين فيها ووصفهم لها ، وعن أثرها فى هذا العالم وفى كيفية خلقها لهذا الكون أو اتصالها به ، فليس فى الذي بين أيدينا من شعر منسوب الى الجاهليين أو من نثر ما يعطينا صورة واضحة عن ذلك . أما عن الأرواح ، فإن أثرها على ما يتبين من ذلك الشعر والنثر أبرز وأوضح من أثر الآلهة فى العالم حتى ليمكن أن يقال إن سلطانها فى نظر أهل الجاهلية يفوق سلطان الآلهة ، وأثرها في الانسان أظهر من أثر

الآلهة فيه (١). وقد يكون مردّ ذلك الى اعتقاد الجاهليين بمخالطة الأرواح لهم ، وسكناها فى كل مكان من هذه الأرض مع قدرتها على النفع والضر ، فهي إذن أقرب الى الانسان من آلهته البعيدة عنه . والإنسان مهما كان ، يقدم القريب على البعيد .

وليس الجاهليون بدعاً فى هذه الأمور التي سنتحدث عنها في هذا الفصل ، بل كل ما سنتحدث عنه معروف وموجود أيضاً عند غيرهم من الشعوب كالعبرانيين والبابليين والإغريق والرومان والمصريين والهنود . والعبرانيون ثم بقية الساميين هم أقرب الناس إلى العرب فى هذا الباب ، حتى إن أسماء ما سنتحدث عنه هي واحدة أو متقاربة فى أكثر الأحيان مع أسمائه في العربية ، كما أن طرقه وتعاليمه تكون متشابهة كذلك . ومردّ ذلك الى الاحتكاك والاتصال الثقافي بين هذه الشعوب ، وتشابه الطبائع والأحوال في كثير من الأمور . ونجد جذور هذه العقائد راسخة قوية عند المتأخرين في الثقافة ، وفى الأديان البدائية لاعتقادها الراسخ بالأرواح (٢).

نجد فى التوراة وفى كتب العبرانيين الأخرى إشارات الى كل هذه الأمور التي نتحدث عنها ، ففي التوراة أن قدماء العبرانيين كانوا مفرطين فيها مغالين فى استعمالها ، سائرين فى ذلك على سنة الوثنيين ، بينهم العرّاف والعائف والساحر ومن يرقى الرقي ويسأل الجان والتابع ، ويتفرس فى أوجه الموتى (٣) . وقد نهوا عنها ، وأمروا بتركها والابتعاد عن ممارستها ، لِما فيها من التصادم مع عقيدتهم فى قدرة إله اسرائيل ، ولأنها من أعمال الوثنيين التي لا تتفق مع تعاليم الأنبياء فى الإله الواحد إله الشعب . ومع ذلك لم يقلع السواد الأعظم منهم عنها ، وظل يعمل بها . وكيف يقلع العبراني وغير العبراني عنها وفى عقله أن الأرواح ضارة ونافعة ، وأن فى قدرتها التأثير فى حياة الانسان ، وأنها تعيش على هذه الأرض ، وأنها بين يديه وفى كل مكان ؟ إن الاقلاع عنها مع قيام هذه العقيدة فيها ، أمر جد عسير .

---

(١) Ency. Religi., I, P. 669. (٢) Hastings, P. 566.

(٣) التثنية : الاصحاح الثامن عشر ، الآية ١١ وما بعدها .

وطبيعة الأرواح ، طبيعة غير مرئية ولا منظورة ، هي لطيفة خفية مستورة . إنما يجوز لبعضها الظهور في صورة أشباح ، والتجسم على هيأة الأجساد كما سنرى في مسألة الجن . ثم إنها على طبيعتين : شريرة وخيرة ، خبيثة وصالحة . من الطبيعة الأولى الشياطين وبعض أنواع الجن ، ومن الطبيعة الثانية الملائكة والشطر الثاني من الجن . وأثر الخبيث من الأرواح أوضح وأكثر في عقلية أهل الجاهلية من أثر الفريق الصالح . وهو شيء منطقي مفهوم ، فالإنسان الى الشر أقرب منه الى الخير ، ذلك أن من طبع الخير عدم الحاق الأذى بالغير ، فلا يخشى منه . أما الشرير ، ففي طبعه الحاق الضرر والأذى بكل واحد ، وفي كل لحظة يراها صالحة له مؤاتية ، لذلك التفتت اليه الأنظار حذراً منه ، وخشية من مكره ، وتقربت اليه وتوددت اليه ، لاحباً له ، ولا تقرباً اليه لأنه جدير به ، بل إنما تملقاً وتزلفاً لإبعاد شره ، وأمن جانبه على نمط ما يفعله الناس تجاه الأقوياء من الأشرار حيث يتقربون اليهم أو يبتعدون عنهم طمعاً ورهبة ، تمشية لأمور معاشهم ، لاحباً لهم واخلاصاً لاستحقاقهم ذلك الحب والإخلاص .

وتصنيف الجن الى طائفتين : خبيث وطيب ، تصنيف لا أظن أنه يمثل رأي الجاهليين الوثنيين . إنما يمثل رأي المتهودة منهم ، أومن تأثر منهم برأي اليهود . ثم هو تصنيف اسلامي . فالعبرانيون هم الذين قسموا الأرواح الى طائفتين : خبيث وطيب ، ومن الخبيث الشيطان ، ومن الطيب الملائكة جنود الله . أما رأي الجاهليين ، فهو أن الجن كلهم أشرار خبثاء ، يؤذون . ودليل ذلك تفسير اللغويين معنى كلمة « الجن » ، واستعمالهم إياها في معاني لايفهم منها الطيب وحسن الطوية . وترادف الكلمة للشر والخبث حتى في الاسلام ، مما يدل على أن هذا المعنى هو المعنى المقصود من تلك اللفظة عند الجاهليين الوثنيين .

ويقال للجن الجان ، و « الجنة » كذلك . و « الجان » اسم جمع للجن على رأي بعض علماء اللغة [١] . وقد ورد في مقابل « الإنس » في القرآن الكريم : « لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان » [٢] . وصير إسم أبي الجن بعض العلماء ، أي في مقابل آدم أبي البشر [٣] . وقد ذهب

(١) تاج العروس (٩/١٦٥) ، روح المعاني (١٤/٣٤ وما بعدها) .

(٢) الرحمن : الآية ، ٧٤ . (٣) تاج العروس (٩/١٦٥) Reste, S. 148. f.

بعض المستشرقين الى أن كلمة « الجن » من الكلمات المعربة ، وذهب بعض آخر الى أنها عربية[1]. وأرى أنها من الكلمات السامية القديمة ؛ لأن الايمان بالجن من العقائد القديمة المعروفة عند قدماء الساميين وعند غير الساميين كذلك . والجن قوم مستترون ، وكلمة « جنون » من هذا الأصل . ومن معاني أصل الكلمة الاستتار .

ولم يتوصل المستشرقون حتى الآن الى رأي ثابت فى أصل كلمة « الجن » . فمنهم من رأى أنها اسم صنم من أصنام العرب القديمة ، ومنهم من رأى أنها من أصل أعجمي ، ومنهم من وجد له صلة بالحبشية[2]. أما علماء العربيــة ، فرأوا أن معنى الكلمة الأصلي هو الاستتار والظلام ، وأنها من الاجتنان ، ولعدم إمكان رؤية تلك الأرواح أطلقت عليها كلمة « الجن » .

لقد لعب الإيمان بالجن عند بعض الجاهليين دوراً فاق الدور الذي لعبته الآلهة فى مخيلتهم ، فنسبوا اليهــا أعمالاً لم ينسبوها الى الأرباب ، وتقربوا اليها لاسترضائها أكثر من تقربهم الى الآلهة . إنها عناصر مخيفة راعبة ، تؤذي من يؤذيها وتلحق به الأذى والأمراض ، ولذلك كان استرضاؤها لازماً لأمن تلك الآفات . وهذه العقيدة جعلت الجن فى الواقع آلهة ، بل أكثر سلطة ونفوذاً منها ، وصيرت عمل الآلهة سهلاً يسيراً تجاه الأعمال التي يقوم بها الجن .

وليست هذه العقيدة عقيدة أهل الجاهلية حسب ، بل هي عقيدة أكثر من اعتقد بأثر الأرواح فى العالم وفى عمل الإنسان ؛ إذ صيرتها آلهة مقرّها الأرض ، أو آلهة من الدرجة الثانية . والغريب أننا نرى بعض الشعوب تخصص أعمال الآلهة الكبيرة بناحية معينة ، وتعتبرها آلهة رئيسة كبرى ، بينما تجعــل عمل الجن عملاً واسعاً يشمل كل الأرض والانسان ، أي أن عملها أوسع جداً من عمل تلك الآلهة وأهم .

وفى القرآن الكريم أن قريشاً جعلت بين الآلهة وبين الجنة نسباً : « وَجَعَلوا بَيْنَهُ وبين الجِنَّةِ نَسَباً ، ولقد عَلِمَتْ الجِنَّةُ إنهُمْ لَمُحْضَرُون »[3] ، وأنها جعلت الجن شركاء لها : « وجعلوا لِله شركاء الجنّ وَخَلَقَهُمْ ، وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ، سبحانه

(1) Ency. , I , P. 1045 . Smith , P. 121. Lane , Lexicon , P. 492.

(2) Ency. Religi. , I , P. 669 , Noldeke , Moallakat . I , 69 , 78 , Shorter Ency . of Islam , P. 91 , Ency. , I , 1045.

(3) الصافات : الآية ١٥٨ .

وتعالى عمّا يصفون » [١] ، وأنهـا تعبدت لها [٢] . وذكر ابن الكلبي أن بني مليح من خزاعة رهط طلحة الطلحات كانت ممن تعبد للجن من الجاهليين [٣] .

والرأي أن الذين قصدهم القرآن الكريم في الآيات المذكورة ، هم يهود ، أو جماعة من العرب قد تكون من قريش أو من غيرها تأثرت باليهودية ، فاُعتقدت بذلك الاعتقاد ، لأن الصفات والنعوت والأقوال التي نسبها المفسرون إلى القائلين بتلك الآراء مذكورة في أسفار العهد القديم وفي التلمود وفي التفاسير العبرانية ، ثم هي من التعابير المعروفة عند يهود ، وهي تعريب لهـا ، فلا يستبعد إذن أن يكون المراد بهم يهود الحجاز ، أو من تأثر برأي أهل الكتاب .

وفي الأساطير الجاهلية أن البقر إذا اوردت « فلم ترد ، ضربوا الثور ليقتحم الماء ، فتقتحم البقر بعـده . ويقولون إن الجن تصدّ البقر عن الماء ، وإن الشيطان يركب قرني الثور » [٤] . وقد ذكرت هذه الأسطورة في أشعار جاهلية ، يظهر من نقدها ودراستها أنها من آثار العقائد الجاهلية في الجن . وقد اُتخذت مثلاً لمن ينزل عليه مكروه في سبيل إخافة غيره ، فيكون بذلك كبش الفداء . واُعتقادهم أن الشيطان يركب قرني الثور ، هو الذي جعلهم يتصورون أن الثور يتقدم البقر في شرب المـاء ، ذلك لأن الشيطان ركب قرنيه ، فلا يخشى الثور إذن من الجن ، والشيطان أخبث أنواع الجن وأذكاها . أما ضرب الثور لتوجيهه الى الماء ، فلا دخل له في القصة ، إنما أدخل عليها ادخالا ، فليس في هـذا الضرب شيء عجيب ولا هو بمذهب خاص ؛ اذ يحدث ذلك لغير البقر أيضاً ، فلا غرابة فيه [٥] .

وقد حلت الأرض محل الشيطان في أسطورة شائعة عند العوام ، فأخذت مكانه من قرني الثور . وصار الرأي أن الأرض تنتقل في أول يوم من كل سنة من قرن الى قرن ، وبذلك

---

(١) الأنعام : الآية ١٠٠ . (٢) سبأ : الآية ٤١ .

(٣) الأصنام (ص ٣٤) ، الاشتقاق (ص ٢٧٦) .

(٤) للأعشى ،

لكالثور والجني يضرب وجهه ... وما ذنبه إن عافت المـاء باقر

ولغيره :

إني وقتلي سـليكا حين أعقله ... كالثور يضرب لما عافت البقر

بلوغ الأرب (٢/٣٠٣ وما بعدها) .

(٥) بلوغ الأرب (٢/٣٠٣) .

يمثلون دورة الأرض وحدوث عام جديد .

وأما الملائكة ، فقد تحدثت عنهم في الفصل الثاني من هذا الكتاب مع الجن ، وقلت : إن اعتقاد الجاهليين أن الملائكة هم بنات الله كما ورد فى القرآن الكريم حكاية على لسانهم ، يناقض ما كان معروفاً عند قدماء العبرانيين من أن الملائكة هم « أبناء الله »[1] . وقد يكون رأي الجاهليين هذا مأخوذاً من يهود الحجاز ، حرف عندهم فصيرت الملائكة بناتٍ بدلاً من بنين . وقد يكون الرأيان مستقلّين بعضهما عن بعض ، ولكنهما من أصل واحد قديم هو الأساطير السامية القديمة فى الأرواح .

وأما « الشياطين » ، فقد ذكروا كذلك فى القرآن الكريم . و « الشيطان » هو « Satan » في العبرانية ، ومنها أخذت كلمة « Satan » فى الانكليزية . وهي تقابل لفظة « ديابولس Diabolos » الإغريقية[2] . ويَرْجِعُ علماء اللغة كلمة « الشيطان » الى أصل « شطن » ، ويقولون : إن من معاني هذه الكلمة الخبث ، ولما كان الشيطان خبيثاً قيل له « شيطان »[3] ومعنى ذلك أن فكرة خبث الشيطان كانت معروفة لصاحبها قبل التسمية . فلما بحث عن لفظة مناسبة لها ، اختاروا هذه الكلمة التي تدل على الخبث . وهو تعليل من تلك التعليلات المعروفة المألوفة التي كان يرجع اليها علماء اللغة كلما أعياهم الوصول الى أصول الأشياء .

ولم ترد لفظة « الشيطان » فى شعر الشعراء الجاهليين ، خلا شعر أمية بن أبي الصلت وعديّ بن زيد العباديّ . والأول شاعر وقف ، على ما يظهر من شعره ، على شيء من اليهودية والنصرانية . وأما الثانى ، فهو نصراني ؛ وكلاهما لا يعطينا شعرهما إن صح أنه لهما صورةً صادقة عن عقيدة الجاهليين فى الشيطان وفي الشياطين .

وأما ما ورد في القصص عن شياطين الشعراء ، ومن أن لكل شاعر شيطاناً يطلقون عليه « شيطان الشاعر » ، فان الشيطان هنا بمثابة « الرَّئِي » و « التابع » للكاهن ، إذ تصور أهل الجاهلية أن لكل كاهن « رَئيّاً » ويسمونه « تابعاً » أيضاً يعلم الكاهن علم الغيب . فالتابع

---

(١) (ص ٤١) ، « بنى ها ايلوهيم » ، أيوب الاصحاح الأول الأية ٦ ، Ency. Religi. , 4, P. 597.

(٢) Hastings, P. 829, Ency. , IV, P. 286. f.   (٣) اللسان (١٧/١٠٤) .

أو الرَّئِيُّ والشيطان هم في الواقع شيء واحد ، هو روح تظهر للكاهن فتعلمه ما سيكون وما يريد الوقوف عليه . وتظهر للشاعر فتعلمه الشعر الذي ينظمه ويلقيه على الناس . فهم يقصدون بذلك « الوَحيَ » و « الإلْهامَ » والقوة الخفية التي يحسها أصحاب الأعصاب المرهفة الحساسة كالكهان والشعراء والكتاب والموسيقيين ومن لف لفّهم كأنها تحماهم على التكهن أو النظم أو الكتابة أوالتلحين دفعاً ، وتظل ملازمة لهم ، فإذا فترت ، فترت همّتهم ، وتوقفوا عن العمل ، وهم ينسبون ذلك التوقف الى غياب ذلك الشيطان .

ومن قصص التوراة والأساطير اليهودية المتأخرة والنصرانية عن الشيطان ، أُستمد بعض الجاهليين قصصهم عن ذكائه وعن حيله وبقية القصص . ومن هذا القصص ولا شك استعمل الناس مصطلح « تشيطن » و « الشيطنة » بمعنى الذكاء والحيلة ، لِما رسخ في ذهنهم من ذلك القصص عن ذكاء الشيطان وسعة حيله وتلاعبه بأذكى البشر . وهو في التوراة ذو طبع شرير ، وزعيم العصاة لأوامر الله ، يضل الناس ويسلك بهم سبل الخطيئة ، ولذلك تعوذوا منه [1] .

ومن القصص المذكور أُستمد أيضاً علماء اللغة ما ذكروه من أن كلمة « الشيطان » تعني الحيّة [2] ، ففي ذلك القصص ظهور الشيطان على صورة « حيّة » خدعت أَبوَينا آدمَ وحوّاء في الجنة . وتمثّل هذا القصص في الأدبين العبراني والنصراني. وسبب ذلك هو ما علق بأذهان العبرانيين من مكر الحيّات ودهائها وخبثها وميلها الى الشر ، وما علق بذهنهم عن هذه الصورة في الشيطان . والحيّة هي عند أكثر الشرقيين رمز يشير الى الثورة والعصيان والشر . وهذه الفكرة هي من أسطورة شرقية قديمة عن سقوط البشرية في الشر ، وتتمثل في سقوط آدم وحوّاء وطردهما لذلك من الجنّة ، وفي تعاليم زردشت من أن الشرير ظهر في هيأة حيّة ، وأخذ يعلم الناس الشر [3] .

---

(١) قاموس الكتاب المقدس (١/٦٥١) .

(٢) « الشيطان حية له عرف » ، اللسان (١٧/١٠٤) ، « والشيطان الحية وقيل نوع من الحيات له عرف قبيح المنظر ... وفي حديث قتل الحيات : حرجوا عليه ، فان امتنع فاقتلوه فانه شيطان » ، تاج العروس (٩/٢٥٣) « شطن » .

(٣) قاموس الكتاب المقدس (١/٤٠٠) ، Hastings , P. 829.

و « ابليس » من هذه الأفكار التي نفذت الى العرب عن طريق أهل الكتاب . والعلماء على أن الكلمة معربة [1] . وهي كذلك . فأصلها « ديابولس Diabolos » ، وهي كلمة يونانية استعملت في مقابل لفظة « شيطان » [2] . وقصة إبليس معروفة مشهورة ، وقد أطلقت كلمة « أباليس » ، في مقابل « الشياطين » .

وخلاصة ما يقال عن الأخبار الواردة عن الملائكة والجن والشياطين والأباليس عند أهل الجاهلية ، أنها أخبار لا تمثل رأي جميع الجاهليين ، وإنما تمثل رأي بعضهم ، وهم جماعة من أهل الحجاز ممن تأثر باليهودية وبالنصرانية ، أو تهود وتنصر ، وكثير من قصص الجن والشياطين والملائكة مرجعه التوراة والتلمود والقصص الاسرائيلي . أخذه المفسرون والأخباريون ممن أسلم من أهل الكتاب أو من أهل الكتاب رأساً في الاسلام . أما الوثنيون فقد كانت لهم عقيدة في الأرواح ، ما في ذلك شك ، بدليل ما ذكرناه وما سنذكره ، ولكنها عقيدة مجردة من جن سليمان ومن هذا القصص الذي يرويه أهل الأخبار ، تتمثل في اعتقادهم بالكهانة والعرافة وسكون الأرواح في كل مكان .

وفي طليعة بعض الناس الموهوبين ، بما لهم من قدرة خفية خارقة وإلهام ، الاتصال بالآلهة وبالأرواح ، والاستئناس بها والأخذ منها ، والحصول على علم غزير منها يتعلق بالمستقبل عامة وبمستقبل كل إنسان خاصة ، أو التأثير عليها بصرف الخير الى شخص ودفع الأذى عنه ، وبتوجيه الشر الى شخص يراد توجيهه اليه وإيذاؤه . ويقال للاتصال بالآلهة أو الأرواح لمعرفة المستقبل والتنبّوء عما سيحدث : « الكهانة Divination » ، ويقال لمن يقوم بذلك الكاهن. أما الذي يزعم أن في امكانه التحكمَ في الأرواح وتوجيهَها الوجهة التي يريدها ، فيقال له « ساحر » ، ويقال لعمله « السحر » . وتقابل كلمة « السحر » في العربية كلمتا « Magic » و « Sorcery » في الانكليزية .

والكهانة والسحر من اعمال رجال الدين في الأصل ، فرجل الدين — بحكم زعمه الاتصال

---

(1) المعرب للجواليقي (ص ٢٣) .

(2) Ency. Religi., 4, P. 600. Geiger, was hat Mohammed aus der Judenthume Aufgenommen, Leipzig, 1902, S. 107, weil, Biblische legenden der Muselmanner, S. 12. ff, The Shorter Ency. of Islam, P. 146. Grünbaum, Meue Beitrage zur sem. Sagen., S. 60.

بالأرباب وبالأرواح — قادر على الأخذ منها ، وهم فضلا عن ذلك موضع سرّها ، ولسانها الناطق بين النـاس ، فهو قادر بهذه الصفات على التكهن وتوجيه الأمور على وفق إرادته ورغبته (١) .

والكهانة في اللغة العربية تعاطي الخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان ومعرفة المغيبات والأسرار ، وتقابل بهذا التعريف في العربية كلمة « Soothsayer » في الانكليزية . وتكون معرفة المستقبل والتكهن عند الكاهن بوسيط هو من الأرواح يقال له « رَئِيٌّ » و « تابعٌ » يَسْتَرِقُ السمع ، فيعطي الكهان ما سمعه . أما نحن في هذا الكتاب ، فنريد بالكهانة والتكهن معنى أوسع من ذلك ، نريد بها الإخبار عن كل أمر مغيب ، والتنبؤ عن كل شيءٍ يراد معرفة شيءٍ عنه . سواء أكان ذلك بواسطة تابع أم بغيره ، فندخل فيها « العرافة » والقيافة والزجر والطِّيَرَة والعيافة والأحلام والاستقسام بالأزلام وطرق الحصى والخطّ على الرمل أو الأرض والتنبؤ بالتفرس في ملاحظة بعض أجزاء أجسام الحيوان أو الانسان ، ودراسة الكلف الذي يظهر على القمر ، وكل أنواع التنجيم . وقد أدخل بعض العلماء الإسلاميين العرافة والتنجيم والطرق بالحصى في أبواب الكهانة (٢) ، فهم في ذلك إذن قريبون منّا في هذا الاصطلاح .

وقد كان للكهانة بأنواعها المذكورة شأن خطير في نفوس الجاهليين ، حتى كانوا — كما يقول بعض الإسلاميين — « بين متكهن وحدّاس وراق ومنجس ومتنجم » (٣) . وبيوت الأصنام نفسها كانت في الواقع مواضع استعملت للتكهن ، يردها الناس للاستفسار من الكهنة عن أمور يريدون الوقوف عليها ، وعن الشروع في أعمال أرادوا الوقوف على نتائجها مقدماً . فهي بيوت تكهن ، لا بيوت عبادة على النحو الذي نفهمه من التعبد . وبقي الناس على اعتقادهم بالكهانة وبصدقها وبفائدتها وعلى مراجعة الكهان ، حتى أبطلها الإسلام بنزول الوحي على

---

(١) Hastings, P. 566.

(٢) عمدة القاري (٢٧٥/٢١) .

(٣) « وجارية ملبونة ومنجس وطارقة في طرقها لم تسدد

يصف أهل الجاهلية ، أنهم كانوا بين متكهن وحداس وراق ومنجس ومتنجم » ، اللسان (١١١/٨) .

الرسول وبانحباس السماء فى أوجه الشياطين ، فلم يبق لها مجال لاُستراق السمع وإعطاء الكهان ما تسرقه من أخبار[1] .

والكهان إنما صاروا كهاناً ، أي متنبئين بالغيب ، لاُن « الكهنة قوم لهم أذهان حادة ، ونفوس شريرة ، وطباع نارية ، فألفتهم الشياطين ، لِما بينهم من التناسب فى هذه الاُمور ، وساعدتهم بكل ما تصل قدرتهم اليه »[2] . وفى بعض هذا التعليل لمصدر علم الكاهن ، أصل قد يعبر عن رأي الجاهليين في الرئيّ والتابع . غير أني لا أستطيع أن أرجع ما ورد فيه عن طبيعة الكهان وعن صفة نفوسهم الى أولئك الناس ، لِما فيه من أزدراء للكهانة والكهّان . وهو ما لا يتفق مع ما ورد وما عرف عن الجاهليين فى هذا الباب فيما أورده أهل الاُخبار وما جاء فى الشعر المنسوب الى الجاهليين .

والكهان عند الجاهليين بمثابة الاُحبار عند يهود والرهبان عند النصارى ، غير أن علم الاُحبار والرهبان من الكتب المنزلة والتفاسير . أما علم الكهان ، فمن شياطين الجن . هذا ما قاله « ابن اسحاق » عن الكهان[3] . وقد قصد بالرهبان علماء الدين عند النصارى . والواقع أن الكهان هم متنبئون وفقهاء ومشرعون ، يستندون فيما يقولونه للناس الى دعوى الوحي .

---

(١) صحيح مسلم (٧/٣٥ وما بعدها) ، عمدة القاريء (٢١/٢٧٥) ، اللسان (١٧/٢٤٤) ، « سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ناس عن الكهان ، فقال : ليسوا بشيء ، فقالوا : يا رسول الله ، إنهم يحدثونا أحياناً بشيء ، فيكون حقاً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تلك الكلمة من الحق ، يخطفها من الجني فيقرها في أذن وليه ، فيخلطون معها مئة كذبة » ، ارشاد الساري (٨/٤٠٠) ، « عن عائشة قالت : قلت : يا رسول الله إن الكهان كانوا يحدثوننا بالشيء ، فنجده حقاً . قال : تلك الكلمة الحق ، يخطفها الجني ، فيقذفها في إذن وليه ، ويزيد فيها مئة كذبة » ، « سأل أناس رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكهان ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليسوا بشيء ، قالوا : يا رسول الله ، فانهم يحدثون أحياناً الشيء يكون حقاً ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تلك الكلمة من الحق ، يخطفها الجني فيقرها في أذن وليه قر الدجاجة فيخلطون فيها أكثر من مئة كذبة » ، صحيح مسلم (٧/٣٦) .

(٢) عمدة القاريء (٢١/٢٧٥) ، ارشاد الساري (٨/٣٩٨ وما بعدها) .

(٣) ابن هشام (١/١٣٥) « حاشية على الروض الأنف » « أخبار الكهان من العرب والأحبار من يهود والرهبان من النصارى » .

والكهان يرون تابعهم ، وقد يتجلى لهم في صورة انسان . ويظهر على صورة رجل للكواهن كذلك . فقد كان للغيطلة ، وهي على ما يزعمه أهل الأخبار كاهنة أبوها مالك بن الحارث بن عمرو بن الصعق بن شنوق بن مرّة وشنوق أخو مدلج ، تابع يفد اليهـا ، ويدخل غرفتها ، ويجلس تحتها . كما كان لفاطمة بنت النعمان النجارية ، وهي كاهنة كذلك ، تابع من الجن « كان اذا جاءها ، اقتحم عليها في بيتها . فلما كان في أول البعث ، أتاها ، فقعد على حائط الدار ولم يدخل ، فقالت له : لم لا تدخل ؟ فقال : قد بعث نبي بتحريم الزنى .. » [١] .

وقد كان لكل قبيلة كاهن منها أو عدة كهان ، تلتجيء القبيلة اليهم لاستشارتهم في كل أمر عظيم يحدث لهم . ولا يشترط أن يكون كاهن القبيلة رجلاً ، إذ يجوز أن يكون امرأة . وكان كاهنَ ثقيف عند ظهور الاسلام رجلٌ يقال له « خطر » ، وكان لجنب كاهنهم كذلك ، وكان لقريش حين ظهور الاسلام كاهنة تدعى سوداء بنت زهرة بن كلاب ، وهكذا كان شأن بقية القبائل . فلما ظهر الإسلام ، ودع أولئك الكهان رئيّهم وتابعهم ، وكهانتهم ، وقد كان لبعضهم أثر مهم في إعداد قبائلهم للدخول في الإسلام [٢] .

وما يُعطاهُ الكاهن ويجعل له على كهانته ، يقال له « الحُلْوان » و« حلوان الكاهن » [٣] ، وهو شيء غير معين ولا ثابت ، إنما يتفق عليه ، والرأي الشائع بين العامة حتى الآن أن الكهانة لاتصدق إذ لم يُعْطَ الكاهن أوالساحر « حلوانه » ؛ لأن ما يقدم الى الكاهن لايخصه ولا يكون له ، إنما هو للرَّئي ، والرئي لايقوم بعمله ولا يحسن أداءَهُ إلاّ بحُلوان ، يقبله مهما كان ، وعلى الكاهن استشارة « التابع » ، ومراجعته فيه حتى يقنع ، ويوافق على الأجر . ولمّا كان الإسلام قد منع الكهانة ، كان من الطبيعي نهيه أيضاً عن دفع « الحُلْوان » .

فالكاهن إذن ، هو الذي يتنبأ بواسطة تابع ، ولا يستطيع غير الكاهن رؤية التابع .

---

(١) الروض الأنف (١٣٧/١) . (٢) الروض الأنف (١٣٧/١ وما بعدها) .

(٣) نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ثمن الكلب ومهر البغي وحلوان الكاهن » ، ارشاد الساري لشرح صحيح البخارى للقسطلاني (٨/٤٠٠) ، اللسان (٢١١/١٨) .

وتكون الكهانة كلاماً يلقيه الكاهن نفسه ، أو تابعه ، جواباً عن أسئلة الكاهن . ولما كان التابع روحاً ، كان من الطبيعي تصور صدور ذلك الكلام من روح لا يمكن لمسها ولا رؤيتها ، ترى وتسمع وتعقل ، وتجيب ما يطلب منها الإجابة عنه . ولم يكن يخطر بالطبع على بال من يأتي الكهانَ للاستفسار منهم أن هناك إنساناً مستتراً في جهةٍ ما وخلف ستارٍ خبأه الكاهن ، ليجيب عما يطلب منه الإجابة عنه بأسم التابع المزعوم .

ويكون الكاهن في أثناء تكهنه في غيبوبة أو في شبه غيبوبة في الغالب ، ذلك بأنه متصل في هذه الأثناء بعالم مجهد صعب لا يتحمله كل إنسان ، ولاتصال الروح فيه ، وأتصال الروح بجسم الكاهن شيء جد عسير ، يتصبب العرق منه . خاصةً إذا كان المتكلم الكاهن نفسه .

ويكون التكهن ، في الغالب ، في مكان هادىء تكتنفه ظلمة أو عتمة ؛ لأن للهدوء والظلام أثراً عظيماً على النفوس ، ويسبقه حرق بخور في الأكثر يستمر الى ما بعد أنتهاء التنبؤ ؛ لأن البخور من الروائح الطيبة التي تؤثر في الأرواح ، فتجلبها الى المكان بسرعة . ثم إنّ له تأثيراً خاصاً في الأعصاب ، وهو بذلك مادة صالحة في الايحاء لمن يقصد أستشارة الكهّان .

ويطلق بعض علماء اللغة على الكاهن « العرّاف » ، فهو عندهم مرادف للكاهن . غير أن من العلماء من يفرّق بين الكلمتين ، ويرى بينهما فرقاً ، فالكاهن الذي يتعاطى الخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان ، ويدعي معرفة الأسرار ، والعرّاف هو الذي يدعي معرفة الشيء المسروق ومكان الضالّة ونحوهما ، أو الذي يزعم أنه يعرف الأمور بمقدمات أسباب يستدل بها على مواقعها من كلام من يسأله أو فعله أو حاله [١] . ومنهم من ذهب الى أن العرّاف من أختص بالانباء عن الأحوال المستقبلة . أما الكاهن فهو الذي اختص بالإخبار عن الأحوال الماضية [٢] . وقد فرق بين الكاهن والعرّاف في حديث : « من أتى عرّافاً أو كاهناً ... » [٣] . وأطلق بعضهم العرّاف على من يدعي الغيب مطلقاً وفي ضمنهم المنجم والحازي [٤] .

---

(١) النهاية (٤/٤٣) .

(٢) تاج العروس (٦/١٩٣) .

(٣) النهاية (٣/٩٨) .

(٤) تاج العروس (٦/١٩٣) .

وقد عدّ العبرانيون العرافة من الحيل الشيطانيـــة كالسحر والتفاؤل ؛ لأنها من رجس المشركين . وتشمل عندهم التنجيم والقرعة والزجر وما شـا كل ذلك [١] . وقد نهى عنها أيضـاً فى الاسلام .

وتعتمد العرافة — كما تعتمد الـكهانة — على الذكاء والتفرس في الأمور والتجارب . وقد خصصها أكثر الناس فى الإسلام بالتوصل الى معرفة الأشياء المفقودة . والعرّاف بمـا عنـده من الملـكات والمواهب المذكورة ، يقضي ويتنبأ للناس فيما يراه ، ومن أشهر العرّافين فى الجاهلية : عرّاف اليمامة وهو رَباح بن عجلة المذكور فى الشعر ، وعرّاف نجدٍ وهو الأبلق الأسدي [٢] .

وعلماء اللغة والأخبار ، على أختلاف فيما بينهم فى تعيين مفاهيم بقية المصطلحات التي تخص هذا الموضوع أيضاً ، وسبب ذلك — فى رأيي — هو تشابه طرق التكهن ، وتعـدد أسمائها فى لهجات القبائل ، واستعمال بعض القبائل كلمة لطريقة دعيت بأسم آخر عند قبيلة أخرى . وذهاب مفاهيمها الجاهلية عن ذاكـرة أهل الأخبـار . فلما جمع العلماء تلك المسمّيات ، حسبوهـا مختلفات . ثم إن بعض القبائل أخذت من الإرمية أو العبرانية بعض مصطلحاتها فى التكهن ، فاختلطت بالألفاظ العربية ، فنُتج من ذلك بعض الالتباس .

وخلاصة ما يفهم عن الكهانة والعرافة فى روايات الأخباريين أن الكهانة هى التنبؤ بواسطة تابع . وأن العرافة تكون بالملاحظات وبالاستنتاجات وبمراقبة الأشياء لاستنتاج أمور منها ، يخبر بها السائلون على سبيل التنبؤ ، أي أمور تتعلق بالمستقبل ، وقد تتعلق بالماضي كـذلك . وهي على ما يظهر من تلك الروايات ، دون الـكهانة فى المنزلة . وقد أورد الأخباريون ، كما قلت سابقاً ، كلاماً ذكروا أنه من سجع الـكهان ، ولم يوردوا شيئاً من كلام أهل العرافة ، كما ذكروا أسماء عدد من الـكهان كانوا كهاناً وحكّاماً وأصحاب شرف فى قومهم ، أما العرّافون ، فلم يكونوا يدانون أهل الـكهانة فى هذه المنازل ، ولم يكن لهم أتصال ببيوت العبادة والأصنام .

وفى اللغة العربية كلمة قديمة اخرى لها صلة بموضوعنا هذا ، هي « القيافة » . ويقصد بهـا

---

(١) قاموس الـكتاب المقدس (٢/٩٣) (٢) بلوغ الأرب (٣/٣٠٦ وما بعدها) .

التنبؤ والإخبار عن شيء بتتبع الأثر والشبه [1] . وتدخل في ذلك قيافة آثار الأقـدام والأخفاف والحوافر للاستدلال منها على أصحابهـا ، وما زالت القيافة معروفة عند العرب حتى الآن . ومن الـكلمات التي تقاربها وترادفها في المعنى « الحازر ». وقد اشتهرت بها « بنو مُدلج » خاصةً ، حتى قيل للقائف « مدلجيّ » بسبب هذا الاختصاص [2] . وبنو لهب [3] .

وأما « الفراسة » ، فتكون بالاستدلال بهيأة الانسان وأشكاله وأقواله على صفاته وطبائعه. وقد ذهب بعض المستشرقين الى أنها من الـكلمات المعربة التي أخذت من « بني إرم » ، وأنهـا أحدث عهداً من لفظة « القيافة » التي هي من الـكلمات العربية الجاهلية [4] . وقد توسـع في معناها وألف فيها الـكتب في الإسلام وتبحر فيها بعض أئمة الفقهاء مثل الشافعي [5] .

وأما العيافة ، فهي التنبؤ بملاحظة حركات الطيور والحيوانات ودراسة أصواتهـا ، وقراءة بعض أحشائها ، ولذلك قيل في العبرانية للعائف « الشاق » ، لشقه الحيوانات والطيور لدراسة أحشائها واستخراج الخبر مما يراه على تلك الأحشاء من ألياف يرى أن في أوضاعهـا معاني يذكرها للسائل على شكل نبوءة [6] . وكانت معروفة خاصة عند الـكلدانيين .

وقد اشتهرت « بنو أسـد » بالعيافة ، فقصدها الناس للأخذ منها ، حتى الجن سمعت بعيافتها ، وعجبت منها ، فجاءت اليها تمتحنها في هذا العلم [7] .

واشتهرت « بنو لِهْبٍ » بالعيافـة كذلك ، ولِهْبٌ حي من الأزْدِ . ومن هؤلاء

(1) اللسان (١١/٢٠١ وما بعدها) .

(2) Ency., II . P. 1048 , Muh. Stud. , I, S. 184.

(3) بلوغ الأرب (٣/٢٦٢) .

(4) Ency. , II. p. 108.

(5) النهاية (٣/٢٠٧ وما بعدها) ، بلوغ الأرب (٣/٢٦٣ وما بعدها) .

(6) تاج العروس (٦/٢٠٧) ، قاموس الـكتاب المقدس (٢/١٢٩) .

(7) « وبنو أسـد يذكرون بالعيافة ويوصفون بها ، قيل عنهم إن قوماً من الجن تذاكروا عيافتهم ، فأتوهم ، فقالوا : ضلت لنا ناقة ، فلو أرسلتم معنا من يعيف . فقالوا : لغليم منهم : انطلق معهم ، فاستردفه أحدهم ، ثم ساروا ، فلقيهم عقاب كاسرة احـدى جناحيها ، فاقشعر الغلام وبكى ، فقالوا : مالك ؟ فقال : كسرت جناحاً ورفعت جناحـاً ، وحلفت بالله صراحـاً ، ما أنت بانسي ولا تبغي لقاحـاً . » ، اللسان (١١/١٦٧ وما بعدها) ، تاج العروس (٦/٣٠٧) .

« العائف اللِهْبِي » ، « لهب بن أحجن بن كعب » ، وهو الذي تكهن بمقتل عمر بن الخطاب قبل وقوعه بعام[١] .

وتطلق لفظة « الحازي » على من يحزر الاشياء ويقدّرها بظنه ، فهي من الكلمات المستعملة في الكهانة ، ويطلق على من يشتغل بالنجوم اسم « حزّاء » ؛ لأنه ينظر في النجوم وأحكامها بظنه وتقديره[٢] . وأطلقت أيضاً على من يزجر الطير ، ولا سيما الغراب[٣] .

ومن طرق التنبوء « الاستقسام بالازلام » ويقابل ذلك ما يقال له « كاسم gasam » في العبرانية . وهي طريقة معروفة عند البابليين كذلك[٤] . ويكون الاُستقسام عند الأصنام في الغالب لاعتقادهم أن النتيجة تمثل إرادة الصنم ومشيئته ، غير أن ذلك ليس بشرط ، فقد كان الكهان والعرافون يحملون أزلامهم معهم ، ويستقسمون حيث يطلب ذلك منهم ، والأزلام هي أسهم مكتوب عليها جمل من نوع الجمل التي لها علاقة بفعل أو بنهي عن فعل ، وأمثال ذلك من الأمور التي لها صلة مباشرة بحياة كل إنسان ، توضع عند سادن الصنم أو كاهنه ، أو يحملها الكاهن أو العرّاف معه ، أو يضعها في بيته ، فإن جاء أحد يريد الاستقسام ، أجال الكاهن أو السادن الأزلام ، فما يخرج يعمل به . فإن جاء أمر عمل به ، وإن خرج نهي امتنعوا وتوقفوا عن العمل . وقد يضربون الأزلام الى أن تظهر لهم نتيجة ترضيهم ، فيقولوا حينئذٍ إن الصنم قد رضي بذلك ، ويعملوا بما أرادوه .

ولصاحب الأزلام وخازنها حق يتقاضاه من الطالبين في مقابل عمله . فكان سادن هُبَل يتقاضى مئة درهم أجراً عن الاستقسام ، فإن تكرر ذلك زيد أجره . ويقال للأزلام الأقداح كذلك . وكانت أقداح « هُبَل » سبعة على ما ذكره « ابن الكلبي » ، وضعت قدامه . فإن اراد أحدهم سفراً أو عملا أو تجارة أو زواجاً أو بتاً في نسب مشكوك فيه أو دفع دية ، أتوا هُبَل ، فاُستقسموا بالقداح عنده ، فما خرج عملوا به وإنتهوا اليه[٥] .

---

(١) الروض الأنف (١١٨/١ وما بعدها) . (٢) النهاية (٢٥٧/١) .

(٣) تاج العروس (٨٨/١٠) . (٤) Hastings, P. 567.

(٥) الأصنام (ص ٢٨) ، النهاية (٢٦٨/٣) ، تاج العروس (٣٢٦/٨) ، بلوغ الأرب (٦٦/٣) .

والقِدْح في تفسير علماء اللغة هو السهم قبل أن يراش ويُنْصَل [1] . وقد فسر بعض العلماء الأزلام بأحجار بيض تشبه أحجار الشطرنج ، كما جعل بعض آخر تلك السهام في مقابل « الكعاب » التي يستعملها الروم والفرس في الاستخارة [2] . وقد أورد المفسرون كل ما جاء في تفسير معنى الأزلام في أثناء شرحهم معنى « الأزلام » الواردة في موضعين من سورة « المائدة » [3] . وهو عرض يظهر أن أهل الأخبار لم يكونوا على علم تام بالمراد من الأزلام . غير أنهم جميعهم متفقون على أن الاستقسام نوع من أنواع استشارة الأصنام في القيام بعمل من الأعمال . وأرى أن الاستقسام بالأزلام يقوم على شيئين : أسهم ترمى ، وأقداح مكتوب عليها تتساقط عليها السهام ، والحجر أو القدح الذي يسقط عليه السهم يكون فيه الجواب ، يؤخذ فيقرأ ما هو مكتوب عليه ، وما هو مكتوب يكون هو الجواب ، إلا اذا كان الاستقسام بمدّ اليد في كيس وضعت فيه الأسهم المكتوبة ، أو برمي الأسهم على لوح أو على الأرض وأمثال ذلك ، فحينئذ ينظر الى السهم الأول المكتوب ، فيكون عندئذ هو الجواب . وفي هذه الحالة لا يشترط أن يكون الزلم سهماً ؛ إذ يجوز أن يكون على أي شكل آخر من أشكال الأشياء التي يستعان بها في الاستخارات ، ومعرفة النصيب ، وفي المقامرات .

وروايات الأخباريين وما جاء في كتب التفسير والحديث عن كيفية الاستقسام بالأزلام ، محاطة كلها بالغموض . فليس في كل الذي وصل الينا من شرح وتفسير ما يكشف لنا بوضوح عن طريقة قيام الكاهن أو السادن أو العرّاف بالاستقسام . فهناك طرق عدة عرفت عند الشعوب القديمة في التكهن بالسهام ، ومنها رمي السهام في الهواء لمراقبة حركاتها وكيفية سقوطها ، ففي هذه الحركات تظهر ارادة الآلهة والأرواح ، يقصها الكاهن على صورة نبوءة للناس . ويدخل في هذا النوع من التنبوء ، رمي العصا وما شاكل ذلك في الهواء [4] .

ويقال في العبرانية لمن يتكهن ويتنبأ « قوسيم Kosem » ، من أصل « قيسم Kesem »

---

(١) تاج العروس (٢/٢٠٢) .
(٢) تفسير الطبري (٦/٤٩) ، روح المعاني (٦/٥٩ وما بعدها) .
(٣) المائدة : ٣ ، ٩٠ .
(٤) Ency. Religi. , 4, P. 810.

وهو التكهن . والى هذا الأصل السامي تعود كلمة « الاستقسام » ، لا الى « قسم » بمعنى تقسيم الشيء وتجزئته . وهو المعنى الذي ذهب اليه أكثر علماء اللغة . وقريب من معنى « قيسم » ، ما ذكره علماء اللغة من أن القِسْمَ هو الحظ والنصيب [1] . فإن للحظ والنصيب علاقة وثيقة بالتكهن ، لما فيه من معرفة المستقبل والوقوف عليه .

وقد ذكر أهل الأخبار واللغة أن العرب اذا كانت فى مفازة ، وكان الماء قليلا عندها وخشيت العطش ، عمدت الى « قعب » ، فألقت حصاة فى أسفله ، ثم صبت عليه من الماء قدر ما يغمرها ، وقسم الماء بينهم على ذلك ، وتسمى تلك الحصاة « المقلة » و « حصاة القَسم » [2] .

والاستقسام بالأزلام ، والتنبوء بالتفرس فى الأشباح التي تظهر على الماء ، أو الزيت المصبوب فى الأقداح ، أو الحركات التي تظهر على سطح السائل بعد رمي شيء فيه ، لمعرفة الأسرار والمغيبات والإجرام كالسرقات والقتل ، والزنى ، ودراسة سطح المرآة : هذه وأمثالها كانت معروفة عند البابليين وعند العبرانيين ، وعقيدتهم أن الأرواح هي التي ترشد الى اظهار المخفيّات ، وأن هناك مأمورين من بينهم واجبهم إخبار الكاهن والعرّاف بما يطلب منهم معرفته ليقوله للسائل [3] .

ومن ضروب التنبوء « الطرقُ » ، وهو الضرب بالحصى للكشف عن المستقبل ، يقوم بذلك الرجال والنساء . ويقال للقائمين بذلك الطُرّاق والطوارق ، وهم المتكهنون والمتكهنات . ويدخل فى ذلك الخطّ « وهو الذي يخطه الحازي . يأتي صاحب الحاجة الى الحازي فيعطيه حلواناً ، فيقول له : اُقعد حتى أخط لك ، وبين يدي الحازي غلام له معه ميل ، ثم يأتي الى أرض رخوة فيخطّ فيها خطوطاً كثيرة بالعجلة لئلا يلحقها العدد ، ثم يرجع فيمحو منها على مهل خطين خطين ، وغلامه يقول للتفاؤل : « ابنى عيان ، أسرعا البيان » ، فإن بقي خطان فهما علامة النجح وان بقي خط واحد فهو علامة الخيبة ... وقيل : الخط هو أن يخط ثلاثة

---

(١) اللسان (١٥/٣٧٨) « قسم » .

(٢) اللسان (١٥/٣٧٨) ، « والمقلة بالفتح : حصاة القسم بفتح القاف وسكون السين » ، تاج العروس (٨/١١٨) .

(٣) Ency. Religi. , 4, P. 807.

خطوط ، ثم يضرب عليهن بشعير أو نوى ، ويقول : يكون كذا وكذا . وهو ضرب من الكهانة »[1] . ويدخل في ذلك أيضاً خلط القطن بالصوف ، وطرقها للتنبوء . وقد نهي عن الطرق فى الحديث ، وعدّ مثل الطيرة والعيافة . من الجبت [2] . ويعد الطرق من العرافة فى نظر بعض أهل الأخبار .

والطيور خاصة وبعض الحيوانات هى مادة صالحة للتنبوء ومعرفة ما يجب عمله ، وذلك بمراقبة حركاتها وسكناتها . وهو ما يقال له فى العبرانية « نيحوش Nihush » من أصل « ناحش » « نحش » و « الزجر » فى العربية . وتقابل لفظة « نحش » كلمة « حنش » فى العربية وتعني « الثعبان » . وقد ذهب بعض علماء التوراة أن لكلمة « نحش » ، صلة بالثعبان ، ذلك لأن الثعبان كان من الآلهة القديمة ، بينما يرى بعض آخر عدم وجود صلة ما للثعبان بهذا الموضوع ، لأن العبرانيين لم يتعبدوا البتة للثعابين ، فلا صلة للثعبان به[3] .

والزجر ، هو رمي الطيور بحصاة ، ثم يصيح الرامي ، ليفزعها ويزجرها ، وعندئذ يراقب حركة طيرانها ، فإن تيامنت أي جرت يمنة تفاءل به ، وإن تشاءمت أي تياسرت ، تشاءم به . فالتيمن هو بالتيامن والتشاؤم هو بالتياسر . ولذلك قيل للكاهن « زاجر » أيضاً ، « لأنه إذا رأى ما يظن أنه يتشاءم به زجر بالنهي عن المضي فى تلك الحاجة برفع صوت وشدة »[4] . ويقابل مصطلح « الزجر » كلمة « Augury » في الانكليزية[5] . ولاعتماد الزاجر على الطيور في الغالب فى هذا النوع من التكهن قيل له « الطيرة » . وتقابلها فى العبرانية لفظة « طيّر Tayyar »

---

(١) النهايـة (٣٣٨/١) « خطط » ، (٤٠/٣) « طرق » ، تاج العروس (٤١٧/٦) ، اللسان (٨٥/١٧) .

(٢) النهاية (٤٠/٣) .

لعمرك ما تدري الطوارق بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله صانع

اللسان (٨٤/١٧) ، « العيافة والطيرة والطرق من الجبت » ، « كان نبي من الأنبياء يخط ، فمن وافق خطه فذاك » ، سنن أبي داود (١٦/٤) ، « باب في الخط وزجر الطير » .

(٣) Ency. Religi. , 4, p. 807, Hastings, P. 568.

(٤) تاج العروس (٣٦٤/٣) ، اللسان (٤٠٧/٥) .

(٥) Hastings, P. 568, Ency. Religi., 4, P. 807.

المأخوذة من هذا الأصل العربي على ما يظن[1] .

والطيرة إذن تشمل التيمن والتشاؤم ثم خصصت بالتشاؤم ، فصارت تعني هذا المعنى عند الاستعمال . وأظن أن ذلك حدث قبيل الاسلام أو فى الاسلام . وقد وردت أحاديث فى النهي عن التطير[2] .

وتوسع فى معنى الطيرة ، فشملت الإنسان والحيوان والأسماء والكلمات . فبعض ذوي العاهات وذوي القبح الشديد هم شؤم فى نظرهم ، لذلك تجنبوا الالتقاء بهم . « حتى صاروا إذا عاينوا الأعور من الناس أو البهائم ، أو الأعضب أو الأبتر ، زجروا عند ذلك وتطيروا عندها ، كما تطيروا من الطير إذا رأوها على تلك الحال »[3] . وقد بقيت الطيرة معروفة حتى اليوم ، بالرغم من النهي عنها فى الاسلام .

ولا بد أن يكون للتطير صلة بعقيدة استحالة الأرواح طيوراً بعد مفارقتها الأجساد ؛ فقد كان من المتعارف عليه عند كثير من الشعوب القديمة أن بعض فصائل الطيور هى أرواح الموتى بعد مفارقتها الأجساد ، وأنها لذلك تعي وتفهم ، وأن في استطاعة بعض الناس فهم منطقها وتكليمها ، ومن هنا ظهرت فكرة « منطق الطير » . وقد كان « سليمان » يحادث الطير[4] . فإذا كانت الطير على هذه الصفة ، ففي حركاتها وسكناتها منطق لمن لا يحسن منطقها ، يشير الى ما يجب على الانسان أن يفعله أو يتركه من أعمال .

والطيرة معروفة عند جميع الشعوب ، ويقال لها في الانكليزية « Augury » ، ويرى بعض الباحثين أن الطيرة انتقلت الى العبرانيين من العرب[5] . وهناك نوع آخر من التطير يقال له « Haruspicy » فى الانكليزية ، ويقصد به الطيرة من الحيوانات الميتة ، أو مراقبة الحيوان فى أثناء ذبحه لمعرفة المستقبل من حركاته وهو يرتجف رجفة الموت[6] .

---

(١) جامع الأصول (٨/٤٦٧) « كتاب الطيرة » ، Ency. Religi. , 4, p. 807.

(٢) جامع الأصول (٨/٤٦٧) « كتاب الطيرة » ، سنن أبي داود (٤/١٧ وما بعدها) « باب في الطيرة » ، عمدة القارىء (٢١/٢٧٣) ، « باب الطيرة » .

(٣) الحيوان للجاحظ (٣/٤٣٨) « تحقيق عبد السلام محمد هارون » .

(٤) Ency. Religi. , 4, P. 808.

(٥) Ency. Religi. , Vol. , 4. P. 778, 807.

(٦) Ency. Religi. , 4, P. 778.

وقد كان للتطير والتفاؤل شأن كبير في حياة الجاهليين . كما كان لهما مثله فى حياة شعوب أخرى عديدة : ومن بينهم اليونان والرومان والفرس . والتطير هو نظير التشاؤم فى المعنى كما قلت. أما نظير التفاؤل ، فهو التيامن . وفى روايات أهل الأخبار أمثلة عديدة من أمثلة الطيرة وقعت لبعض القبائل عند إقدامها على الحرب ، فخسرت لتطيرها ، ونجد أمثلة عديدة من ذلك فى التأريخ الاسلامي . ويحدث من التطير النحس ، وأما من التفاؤل فيكون السعد .

وفى الأخبار : « كانت العرب إذا خرج أحدهم من بيته غادياً فى بعض الحاجة ، نظر : هل يرى طائراً يطير ، فيزجر سنوحه أو بروحه ، فإذا لم ير ذلك ، عمد الى الطير الواقع على الشجر ، فحركه ليطير ، ثم نظر الى أي جهة يأخذ ، فزجره . فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : « أقرّوا الطير على مكناتها : لا تطيّروها ولا تزجروها » [1] .

وهناك نوع آخر من التنبؤ يقال له فى الانكليزية « Hepatscopy » ، ويراد به استخراج الغيب من دراسة كبد الأضاحي التي تقدم الى الآلهة . وقد اشتهر به الكلدانيون على الأخص ، وتوسعوا فيه فشمل أيضاً قراءة الرئة أو بقية الأحشاء . وكان معروفاً أيضاً عند العبرانيين واليونان والرومان والمصريين وغيرهم [2] . وللكبد أهمية خاصة عند العرب وهي فى نظرهم معدن المداوة ومقر الحقد ، ولذلك يقال للأعداء : سود الأكباد ، لأن الحقد قد أحرق أكبادهم حتى أسودّت [3] .

وذكر الأخباريون أن الجاهليين تطيروا من أشياء ثلاثة : المرأة ، والدار ، والفرس [4] . ولا يعني هذا القول أن أهل الجاهلية كانوا لا يعرفون من الطيرة إلاّ هذه الأشياء الثلاثة ، فقد كان الجاهليون — كما ذكر أهل الأخبار وكما ورد فى الحديث — أهل طيرة ، إنما خصوا الطيرة بالأشياء المذكورة ؛ لأنها الأمور الرئيسة التي تتصل بحياة كل رجل ومعاشه . ولا

---

(١) جامع الأصول (٨/٤٥٢) .

(٢) Ency. Religi, , 4, p. 808, Hastings , p. 568 , Diodorus Sici. , II , 29.

(٣) اللسان (٤/٣٧٨) .

(٤) عمدة القاريء (٢١/٢٧٣ ، ٢٨٨ وما بعدها) .

تزال العوام تعتقد بالطيرة فى الأمور المذكورة وفى أشياء أخرى عديدة . وفى الحديث : « إن كان الشؤم ، ففي الدار والمرأة والفرس » [1] .

وكما يتغلب الإنسان على الأمراض بالأدوية والعلاج كذلك يمكن التغلب على النحس وشؤم ناصية المرأة وعتبة الدار بالذبائح فى بعض الأحيان ، ولهذا جرت العادة بذبح ذبيحة أو عدة ذبائح عند زفاف العروس الى بعلها ووصولها الى عتبة بيته طرداً للأرواح الشريرة وارضاء لها ، كما جرت العادة بذبح الذبائح حين الانتقال الى دار جديدة ، أو حين الشعور بوجود أرواح فيها ، ويقال لهذه الذبائح « ذبائح الجان » [2] .

ويدخل فى الطيرة بعض ما يصدر من الإنسان والحيوان من حركات ، مثل التثاؤب والعطاس ، والتثاؤب عمل من أعمال الشيطان [3] . وأما العطاس ، فقد كان أثره فى ايجاد الشؤم شديداً ، وهو من العادات الجاهلية المذكورة فى الشعر المنسوب الى الجاهليين . ذكر أنّ أمرأ القيس قال :

وقد أغتدي قبل العطاس بهيكل شديد مَشَكِّ الجنب فعم المنطّق

وأنه أراد بذلك أنه كان يتنبه للصيد قبل أن ينتبه الناس من نومهم ، لئلا يسمع عطاساً فيتشاءم بعطاسه .

والعطاس فضلاً عن ذلك داء فى نظر أهل الجاهلية ، لذلك كانوا يتجنّبونه بقدر إمكانهم ، ويحاولون جهدهم حبسه وكتْمه . فإذا عطس أحدهم وكان وضيعاً مغموراً أسمعوه كلاماً مرّاً فيه رد للشؤم على صاحب العطاس ، كأن يقولوا له : « ورياً وقحاباً » . والوري هو داء يصيب الكبد فيفسدها ، والقحاب هو السعال ، أو : « بك لا بي : أسأل الله أن يجعل شؤم عطاسك بك لا بي » . أما إذا كان العاطس معروفاً محبوباً ، قالوا له : « عمراً وشباباً » . وكلما كانت

---

(1) جامع الأصول (٣٩٦/٨) ، « لا عدوى ولا طيرة ، إنما الشؤم في ثلاث في الفرس والمرأة والدار » ، عمدة القارىء (٢٨٩/٢١) .

(2) تاج العروس (١٣٨/٢) .

(3) تاج العروس (١٦٢/١) « ثئب » ، جامع الأصول (٢٩٨/٧ وما بعدها) .

المطسة شديدة كان التشاؤم منها أشد [١] . ويقال للدعاء على العاطس « التشميت » و « التسميت » [٢] .

وقد نهى الاسلام عن التشاؤم بالعطاس ، وعكسه ، فجعله محبوباً ، بحديث : « إن الله يحب العطاس ، ويكره التثاؤب » [٣] .

وأشأم الطيور عند الجاهليين « الغراب » . « ليس في الأرض شيء يتشاءم به إلا والغراب أشأم منه » [٤] . ولذلك قالوا اذا نعب : خيراً خيراً ، وذلك من باب التفاؤل بالأضداد [٥] . ولعل هذه العادة هي التي جعلت الغراب مما يتفاءل به بعض الناس في الزمن الحاضر . وورد « غراب البين » و « الغراب الأبقع » [٦] و « الغراب الأسود » [٧] . ويراد بذلك التشاؤم بفراق الأحبة ، ويقال للغراب الأسود « حاتم » ، والحتمة السواد ، وهو مشؤوم لأنه يحتم بالفراق [٨] . « والعرب تتشاءم من الغراب ، ولذا اشتقوا من اسمه الغربة والاغتراب

---

(١) بلوغ الأرب (٢/٣٣٢) .
(٢) اللسان (٢/٣٥٧) ، تاج العروس (١/٥٥٩) « شمت » .
(٣) جامع الأصول (٧/٣٩٦ وما بعدها) .
(٤) تاج العروس (١/٤٠٧) « غرب » ، قال رؤبة :

فازجر من الطير الغراب الغاربا

اللسان (٢/٤٣٨) ، الحيوان للجاحظ (٢/٣١٦) .
(٥) « والعامة تتطير من الغراب اذا صاح صيحة واحدة ، فاذا ثنى تفاءلت به » ، « وإذا صاح الغراب مرتين فهو شر ، وإذا صاح ثلاث مرات فهو خير » ، الحيوان للجاحظ (٣/٤٥٧ ، ٤٥٨) « تحقيق عبد السلام محمد هارون » .
(٦) اللسان (١٦/٢١٠) ، قال عنترة :

ظعن الذين فراقهم أتوقع ... وجرى بينهم الغراب الأبقع
خرق الجناح كأن لحيي رأسه ... جلمان بالأخبار هش مولع

القاموس (٤/٢٠٤) ، « غراب البين » الحيوان للجاحظ (٣/٤٣١) « تحقيق عبد السلام محمد هارون » .
(٧) قال النابغة :

زعم البوارح أن رحلتنا غداً ... وبذاك خبرنا الغراب الأسود

الحيوان للجاحظ (٣/٤٤٢) « تحقيق عبد السلام محمد هارون » .
(٨) اللسان (١٠٥/٣) .

والغريب »[1] . وقد وصفوه باللؤم . وللجاحظ تفسير لطيف لأسباب تشاؤم العرب منه وكرههم له[2] ، وعدوا أكل لحمه عاراً يعير من يقدم عليه . وليس ذلك « لأنه يأكل اللحوم ، ولأنه سبع » لو كان ذلك منهم « لكانت الضواري والجوارح أحق بذلك عندهم »[3] . والظاهر أن امتناعهم من أكله يعود إلى الدوافع التي منعت العبرانيين من أكله نفسها ، ومن جملتها أنه يأكل الجيف والقاذورات ، ولذلك عدّه العبرانيون من الحيوانات النجسة ، والحيوانات النجسة هي في الغالب الحيوانات التي لا يجوز أكل لحومها ، والظاهر أنه كان على هذه النظرة عند أغلب الساميين . وفي الشعر الجاهلي اشارات الى شؤم الغراب[4] .

والغراب من الطيور التي ورد ذكرها في التوراة . والعبرانيون مثل العرب اعتقدوا بالطيرة منه ، أي بتأثير حركاته وسكناته في إحداث الفأل والشؤم[5] .

والبوم من الحيوانات التي يتشاءم منها بعض الناس ، ولعل ذلك بسبب منظرها الكئيب ولصوتها الحزين وظهورها في الليل ، والليل هو رمز الشرّ . وهي من الحيوانات النجسة عند العبرانيين[6] . ويدل وصفها بـ « أم الخراب » و « أم الصبيان » على النظرة السيئة التي كان يراها العرب لها[7] . ويقال إن من أنواعها الصدى والهامة . ولعلّ اعتقادهم أن الصدى

---

(١) « فالغراب أكثر من جميع ما يتطير به في باب الشؤم ، ألا تراهم كلما ذكروا مما يتطيرون منه شيئاً ذكروا الغراب معه ؟! .
وقد يذكرون الغراب ولا يذكرون غيره ، ثم اذا ذكروا كل واحد من هذا الباب لم يمكنهم أن يتطيروا منه إلا من وجه واحد ، والغراب كثير المعاني في هذا الباب ، فهو المقدم في الشؤم » ، الحيوان للجاحظ ، « تحقيق عبد السلام محمد هارون » ، (٢/٣١٦) ، (٣/٤٤٣) . حياة الحيوان للدميري (٢/١٩٠) « الغراب » .

(٢) الحيوان (٣/٤٣٩) « تحقيق عبد السلام محمد هارون » .

(٣) الحيوان للجاحظ (٢/٣١٧) . (٤) بلوغ الأرب (٢/٣٣٤ وما بعدها) .

(٥) الملوك الأول : الاصحاح السابع عشر ، الآية ٦ ، التكوين : الاصحاح الثامن ، الآية السابعة .
Ency. Religi . , 4 , P. 808.

(٦) قاموس الكتاب المقدس (١/٢٦٢) ، الحيوان (٣/٤٥٧) .

(٧) حياة الحيوان (١/١٨١ وما بعدها) .

والهامة أو ذكر البوم منها هي روح الميت المرفرفة على القبر هو الذي حمل أولئك المتشائمين على التشاؤم منها .

والعاطوس ، وهي سمكة في البحر أو دابة من الحيوانات التي كان العرب يتشاءمون منها [1] .

وكذلك « الأخيل » وهو « الشقراق » ، « يتطيرون منه ، ويسمّونه مقطع الظهور : يقال إذا وقع على بعير ، وان كان سالماً يئسوا منه ، وإذا لقي المسافر الأخيل تطير وأيقن بالعقر إن لم يكن موت فى الظهر » [2] . وهم يتشاءمون من الثور الأعضب أي المكسور القرن [3] .

وقد تطير العبرانيون من الحيّة والثعلب ومن أصوات الطيور ، وتفاءلوا بها ، فلحركات هذه الحيوانات وللأصوات أثر فى التنبيه بوقوع شر أو حدوث خير [4] . وقد رسخ اعتقادهم بذلك خاصة بعد السبي واحتلال الرومان والبيزنطيين لفلسطين بسبب الأحوال النفسية التي أثرت فيهم ، فجعلتهم يتأثرون كثيراً من أمثال هذه الخرافات .

ومن الألفاظ المستعملة في « الزجر » « سنح » و « برح » . وللفظة « برح » معان عديدة ، وهي من الكلمات السامية الواردة والباقية فى عدد من لهجاتها . ومنها لفظة « البارح » وهي ضد السانح . و « السانح ما مرّ من الطير والوحش بين يديك من جهة يسارك الى يمينك ، والعرب تتيمن به ؛ لأنه أمكن للرمي والصيد . والبارح ما مرّ من يمينك الى يسارك ، والعرب تتطير به ، لأنه لا يمكنك أن ترميه حتى تنحرف » [5] .

وقد ذكر بعض اللغويين عكس المعنى ، كما ذكر أن أهل نجد كانوا هم الذين يتشاءمون من البوارح . أما غيرهم من العرب ، فقد كانت تتيمن بالبارح ، وأن بعضاً منهم لم يكن له رأي فى شيء ما من هذا [6] .

---

(١) قال طرفة بن العبد :

لعمري لقد مرت عواطيس جمة ومر قبيل الصبح ظبي مصمع

تاج العروس (٤/١٩٢) ، حياة الحيوان للدميري (٢/١٢١ ، ٢٢١) .

(٢) بلوغ الارب (٢/٣٣٧) . (٣) بلوغ الأرب (٢/٣٣٨) .

(٤) Ency. Religi. , 4 , p. 808. (٥) النهاية (١/٨٥) .

(٦) الأغاني (٩/١٥٧) « أخبار النابغة ونسبه » ، Reste , S. 202.

والثعلب والأرنب من الحيوانات التي استعان بها « الزاجر » ، في «الزجر» [1] . والواقع أن أهل الزجر قد توسعوا في علمهم هذا حتى شمل كل المخلوقات ، فحركات الابل والخيل وسكناتها كلها ذات معان ومفاهيم يعرفهـا المشتغلون بالطيرة ، وكانو يستعينون بها كما يستعينون بغيرهـا من الحيوانات .

وقد ابتدع الجاهليون عدة طرق لإبعاد أثر كل ما يبعث على التشاؤم والطيرة من تفكيرهم ، من ذلك أنهم تجاهلوا ، بقدر إمكانهم ، المسميات التي تبعث على الطيرة بتسميتها بضدها من الكلمات التي لا يتشاءم منها ، فسمّوا اللديغ بالسليم ، والبرّية بالمفازة ، وكنوا الأعمى أبا بصير والأعور ممتعاً ، والأسود أبا البيضاء ، وسمّوا الغراب بحاتم [2] . وذلك لتشاؤمهم من الغراب [3] . والتسمية بالأضداد لدفع أثر الطيرة عن الأذهان ، ليست عادة جاهلية حسب ، إنما هي معروفة في الاسلام كذلك . كما أنها معروفة عند غير العرب من الأمم قديماً وحديثاً .

ولمراقبة الكلف الذي يظهر على وجه القمر ودراسة النجوم والظواهر الطبيعية التي تحدث للأجرام السماوية كالكسوف والخسوف ، أهمية كبيرة في التكهن . وقد كان الجاهليون يعتقدون أن للكسوف والخسوف أثراً في حياة الإنسان ، فإذا وقعا دلاّ على موت انسان عظيم أو حياته ، أو ولادة مولود صاحب حظ كبير [4] . وكذلك كان رأيهم في تساقط النجوم . وقد كان العبرانيون على هذه النظرة أيضاً . والذي هداهم الى ذلك هو ما شاهده الإنسان من أثر للكواكب والنجوم في الإنسان وفي المزروعات وفي تغير المواسم وما شاكل ذلك ، فظن أن تلك الأجرام أجسام حيّة ، لها روح مؤثرة وقدرة خارقة ، فخاطبها وتعبد لها ، ورأى فيها ما رأى في الأرواح . ولهذا كان من الطبيعي انصرافه الى دراستها لمعرفة أوامرها ونواهيها وليتوصل بواسطتها الى التنبوء ومعرفة المغيبات والمقدرات . ولهذا كان التنجيم فرعاً خطيراً من

---

(1) Reste . S. 202. (2) بلوغ الأرب (٢/٣٣٨) ، تاج العروس (٨/٢٣٦) .

(3) الحيوان : للجاحظ (٣/٤٣٩) « تحقيق عبد السلام هارون » ، بلوغ الأرب (٢/٣٣٨ وما بعدها) .

(4) اللسان (١١/٢٠٨) ، الروض الأنف (١/١٣٥ وما بعدها) .

فروع التكهن . وما زال كثير من الناس على هذا الرأي حتى الآن .

وقــد عرف من يتنبأ بالأحوال الجوّية وبأثر الأجرام السماوية فى الانسان خاصة وفى الأرض باسم خاص عند العبرانيين ، هو « معونين Me 'onen » ، من أصل « عين » ويراد بذلك المعاينة ، لانصرافه الى مشاهــدة الأجرام ومماينتها ، لدراستها واستخراج النبوءات منهــا[1] . وهى بحوث انصبت فى الأكثر على التكهن والاخبار عن المستقبل ، أي فى مقابل ما نقول له التنجيم .

وقد كان فى زعم الكهان من صنف المنجمين أن فى استطاعتهم التأثير فى الأجرام السماوية وفى احداث الضباب والأمطار والعواصف والرياح ، وقد نهى عن التصديق بها فى الاسـلام ، لتعارضها مع الايمان بسيطرة الله وهيمنته وحده على الكون .

و « القُرْعة » أي « السهمة »[2] . وإن استعملت فى معرفة النصيب والحظ ، نوع من الكهانة فى الأصل ؛ إذ هى فى الواقع نوع من التكهن والاستشارة ، إنها جواب الآلهة للسائل ، ولذلك فهي نوع من الاستقسام : والسهمة هى رضاء بحكم « السهم » أي بحكم وقوع السهام على الأشياء . وهى جواب فصل يمثل ارادة الآلهة للسائل أو المختصمين فى أمر من الأمور . وليس الاستقسام بالأزلام إلا وجهاً واحداً من أوجه عديدة للقرعة . ولذلك قيل للسهم الحظ والنصيب[3] .

والأحلام « Dreams » و « الرؤيا Visions » باب من أبواب الكهانة كذلك ، فهي تفسير لما سيقع فى المستقبل من حوادث . وقد تخصص بذلك أناس تعاطوا تعبير الرؤيا والأحلام . وقد أشير الى تفسير الأحلام فى التوراة . وإذ كان اعتقاد الشعوب القديمة أن الأحلام حقيقة ، لا كما نتصورها نحن ، كان الاهتمام بها كبيراً ، والاعتناء بها شديداً ولا يزال يخصها كثير من الناس بالعناية .

---

(١) Ency. Religi. , 4, P. 808.
(٢) تاج العروس (٥/٤٦٢) .
(٣) تاج العروس (٨/٣٥٢) « سهم » .

وقد فسرت بعض الشعوب القديمة الأحلام بأنها الآلهة أو الأرواح تتجلى في الإنسان في أثناء منامه ، فتطلعه على أشياء كثيرة تتعلق بحياته وبمصيره ، وتساعده بذلك على حل مشكلات عديدة عويصة لديه ، أو تهديه الى أمور لم يكن يعرف عنها شيئاً ، أو تحذره بقرب حلول كارثة أو خطر به أو بغيره ، أو بحصول خير له أو لغيره . وقد ترجع به الى أيام ماضية وحوادث قديمة سالفة كان قد نسيها وذهبت من ذاكراته . ونجد في المؤلفات اليونانية واللاطينية والسريانية وفي الكتابات الهيروغليفية والسمارية أشياء عديدة من القصص المتعلق بالأحلام . وفيها أن كثيراً من الملوك والخاصة كانوا يقيمون وزناً عظيماً لما يرونه ، أو يراه الناس من أحلام . وقد نجح كثير منهم كما خسر كثير منهم أيضاً بسبب تأثير الأحلام فيهم ، حتى إن بعضهم اتخذ له مفسراً للأحلام أو جملة مفسرين ، ليكونوا في خدمته حتى إذا ما رأى حلماً فسروه له .

ولما كانت بعض الأحلام مزعجة ، رَجَعَ الكهان المتخصصون بالأحلام أسبابها الى فعل الأرواح الشريرة . أما الأحلام المريحة الطيبة ، فقد جعلوها من إلهام الآلهة في الإنسان . ولأهمية الاعتقاد بالأحلام في ذلك العهد ، وضعت قواعد وتعاليم للأشخاص الذين يريدون معرفة مستقبلهم بالرؤيا والأحلام . وقد نصح في بعضها باجتناب الأكل وبشرب بعض الأشربة المعينة وبالنوم في المعابد ، للحصول على الرؤيا الحسنة ، والابتعاد عن أضغاث الأحلام . وضع تلك القواعد أناس تخصصوا بهذا الفن ، يلجأ اليهم من يرى حلماً ليجد تفسيره عندهم . فلكل شيء في الرؤية والحلم معنى خاص ، لا يمكن أن يعرفه الا ذوو الخبرة والعلم .

وفي كتب الحديث والسير أمثلة عديدة من الرؤيا ، تشير الى أن الاعتقاد بالأحلام كان معروفاً عند الجاهليين ، وأن أثره كان عميقاً في حياتهم . وقد يكون لأهل الكتاب أثر عليهم في كيفية تفسير الأحلام وتوجيه تعبير الرؤيا ، غير أن الاعتقاد بالأحلام هو اعتقاد عام ، وكان يقوم به الكهان ، لتعلقه بالآلهة وباتصالها في هذه الحالات بالانسان . وقد أُلف في هذا الموضوع

في الإسلام ، واشتهر به « أبن سيرين »[1] .

وقد عرف بعض العلماء الاسلاميين الحلم بأنه عبارة عمّا يراه النائم فى نومه من الأشياء المزعجة ، وخصصوا الرؤيا بما يراه الإنسان فى منامه من الخير والشيء الحسن[2] . وهم بذلك على طريقة القدماء في جعل الأحلام نوعين : أحلام من فعل الشيطان والأرواح الخبيثة ، وأحلام من إلهام الآلهة فى الإنسان ، وهي التي تنكشف عن رؤية أشياء جميلة وعن أشياء يرغب صاحب الحلم في الحصول عليها وتحقيقها .

وتتردد في الأخبار كلمة « هاتف » و « الهاتف » ، بمعنى صوت صادر من مصدر غير مرئي ، وردت في مواضع عديدة من القصص الجاهلي ، ووردت بعدها الجمل التي قالها الهاتف لمن وجه خطابه اليه . وهي تكهن في الغالب ، إما لتحذير من القيام بعمل ما ، وإما بارشاد الى عمل أو جهة أو ما شابه ذلك من الأمور . وقد تستعمل بمعنى « الرئي » الذي يهتف للكاهن[3] .

والفأل ضد الطِّيَرَة . ويكون برؤية شيء أو سماع أمر أو قول أو غير ذلك يُتفاءَلُ منه ، كأن يسمع مريض رجلاً يقول يا سالم فيقع في ظنه أنه يبرأ من مرضه ، أو يسمع طالب حاجة رجلا يقول يا واجد فيخال أنه يجد ضالته ، فيتوقع صحة هذه البشرى ، ويقال لذلك في الانكليزية « Omen »[4] . وهو معروف عند العبرانيين وقد ذكر في التوراة . وأصل الكلمة على ما يظهر للتشاؤم والتفاؤل ، أي أنها كالطيرة أريد بها الحالتان ، ثم تخصصت بالحسن ، كما تخصصت الطيرة بالشؤم[5] . وقد نهي في الحديث عن الطيرة . أما الفأل ، فقد ورد أن الرسول

---

(١) راجع كتب الحديث في : « كتاب التعبير » ، عمدة القارىء (١٢٦/٢٤) ، « كتاب التعبير » وكذلك كتب التفاسير ، الفهرست (٤٣٩) « الكتب المؤلفة في تعبير الرؤيا » .

(٢) النهاية (٢٨٩/١ وما بعدها) .

(٣) تاج العروس (٢٧٣/٦) « هتف » ، Reste, S. 206, Sprenger, Leben, III, S. LV11.

(٤) جامع الأصول (٤٦٧/٨) « كتاب الطيرة » ، اللسان (٢٧/١٤) ، Ency. II, P. 46, Reste, S. 203- ff.

(٥) في الحديث « أصدق الطيرة الفأل » ، النهاية (١٩٥/٣) .

كان يتفاءل ولا يتطير لِما في التفاؤل من أثر طيب في أعمال الإنسان[1] .

وضد « الشؤم » « اليمن » ، ومن معاني « اليمن » « البركة » ، و « الميامين » على نقيض « المشائيم » ، و « الميمون » ضد « المشؤوم »[2] . وورد « ميمون النقيبة »[3] و « ميمون الناصية » . ويلاحظ أن للناصية علاقة متينة بالشؤم والتيمن ، فكما يقال « ميمون الناصية » قيل « شؤم الناصية » كذلك ، وهي كناية عن الإنسان .

وهناك كلمات عديدة في « التشاؤم » و « الشؤم » ، مثل « شائم » و « شؤم » و « مشئوم » و « مشوم » و « مشائيم » و « تشاءموا » ، و « الاشأم » وأمثال ذلك[4] . ولا يقتصر استعمال هذه الألفاظ على جنس معين ، بل تقال لكل ما يجلب الشؤم على الإنسان . فمن البشر من هم شؤم على غيرهم ، يجلبون الشر لمن يتشاءم منهم يستوي في ذلك الرجال والنساء والاطفال . ولما كان التشاؤم قضية اعتبارية تتعلق بالنفس والمزاج ، كان بعض الأشخاص أو الحيوانات أو الأشياء شؤماً عند ناس ، بينما هم ليسوا كذلك عند جماعة آخرين . ولكن الغالب أن يكون التشاؤم من الأشياء القبيحة أو الناقصة أو الأمور الراعبة وماشابه ذلك ، فهذه المزعجات تؤثر في النفس ، فتجعلها تتشاءم منها ، وتتوقع حدوث النحس من رؤيتها ، ولا سيما في الصباح ، وعند الهمّ بالشروع في عمل مهم .

وللأسماء والكلمات أثرها في الفأل وفى الطيرة ، فالأسماء الحسنة الجميلة تبعث على التفاؤل ، اما الأسماء الخبيثة والرديئة فانها تولد التشاؤم . وقد عرف هذا النوع من التفاؤل فى الاسلام ، ولم ينه عنه . بل قيل إن الرسول كان يتأثر من الأسماء ، وكان يقول إذا أعجبته كلمة : « أخذنا فألك من فيك » ، وأنه يعجبه إذا خرج لحاجة أن يسمع : يا راشد ، يا نجيح ، وأنه قال : « لا عدوى ولا طيرة ، ويعجبني الفأل » وفى حديث : « الطيرة شرك »[5] .

---

(١) النهاية (٣/١٩٥) ، جامع الأصول (٨/٤٦٧) .
(٢) تاج العروس (٩/٣٧١) . (٣) تاج العروس (١٠/٤٩١) .
(٤) تاج العروس (٨/٣٠٤) . (٥) جامع الأصول (٨/٣٩٤) .

وللنحس والسعد صلة بالطيرة والفأل . فالطيرة تولد النحس ، وأما الفـأل فيولد السـعد . ويعتقد كثير من أهل الجاهلية أنهما مكتوبان على الإنسان ، وأن حظ الإنسان شيء مقرر مفروغ منه . ويقـال للحظ « البخت » كذلك . وهم مع ذلك يتفـاءلون ويتطيرون فراراً من النحس وتيامنا بالفأل والحـظ السعيد .

والخلاصة أن الـكهانة بأنواعها ، كانت كما رأينا ، ذات أثر فى نفوس الأمم القديمة ، حتى إن بعضها كالرومان مثلاً كانوا يلجأون الى العرافين لأخذ رأيهم فى نتائج الأعمال التي يعتزمون القيام بها ، ليكونوا على يقين من نجاحهم ومن صحة ما اعتزموه ، حتى قادة الجيش كانوا يستعينون بهم ويأخذون بآرائهم فى الأعمال الحربية التي قرروا القيام بها . وقد كان لجمعية العرافين بروما أثر فعال فى سياسة الدولة ، الى أن ألغيت بتأثير النصرانيـــة التي قاومت التكهن باعتباره من أعمال الوثنيين . غير أن هذا لا يعني أن تلك الأنواع قد ماتت ، وأن الـكهانة لم يبق لها وجود. إن أكثرها باق ، وإن سميت بأسماء أخرى . وقد حور بعضها في شكل يتناسب مع الزمن ، أما العقيدة ، فانها باقيـة كما هي ، فليس من السهل على الإنسـان أن يطرح معتقداته ، إنها ليست ملابس تخلع لتحل محلها ملابس أخرى جديدة .

والسحر من أهم الوسائل التي لجأ اليها البشر وأقدمها منذ أعتق أيامه فى التأثير على الأرواح ، وقد جعله جزءاً من الدين ، لذلك كان من اختصاص رجال الدين ، يقومون به فى المعابد قيامهم بالشعائر .

وإذا كان معظم الناس فى الزمن الحاضر يفرقون بين الدين والسحر ، ويعدون السحر شيئاً بعيداً عن الدين ، بل هو ضد الدين ، فإن قدمـاء البشر لم يكونوا ينظرون اليه هـذه النظرة ، كانوا ينظرون اليه كما قلت على أنه جزء مهم من الدين ، بل هو أهم جزء فيـه وأعظمه [١] ، بل ما زلنا نجد ديانات القبائل البدائيـة تعـد السحر جزءاً من الدين . وهو كذلك في كل دين

(١) R. Campbell Thompson , Semitic Magic , its Origins and Development , London , 1908 , p. XVII , Smith, p. 90.

بدائي . ونحن في بحث ديانات العرب قبل الاسلام لا نستطيع الفصل بين الاثنين ، فالسحر فصل خطير من فصول كتاب الدين عند الجاهليين ، لا يمكن أن نقرأه وأن نحيط به دون أن نقرأ ذلك الفصل .

وآية ذلك أن كهنة الأصنام وسدنتها ، وهم رجال الدين عند الجاهليين ، كانوا يقومون بأعمال السحر ، ويطببون الناس ، ويدفعون عنهم شر الأرواح الخبيثة وما يؤذي البشر [1] . ولهذا كان في جملة ما اتهم به الرسول ، حينما أخبرهم بنزول الوحي عليه ، أنه ساحر ؛ وأنه يستمد وحيه من الشياطين .

وقد جمع البخاري بين الكهانة والسحر ، بأن قدم الكهانة على السحر ، لأن مرجع الاثنين شيء واحد هو الشياطين [2] . وهو كالكهانة في نظر المسلمين ، أمر نزل النهي به ، وقد عدّ من الموبقات مثل الشرك في حديث : اجتنبوا الموبقات : الشرك بالله والسحر [3] . ومع ذلك ، فقد مارسه جماعة ، وألفت الكتب فيه . وقد عرفه ابن خلدون بأنه « علم بكيفية استعدادات تقتدر النفوس البشرية بها على التأثيرات في عالم العناصر بغير معين » [4] .

وقد صنف « ابن خلدون » السحر أصناف ثلاثة : السحر بالمعنى المفهوم عند الفلاسفة ، وهو التأثير بالهمة من غير آلة ولا معين . والطلسمات ، وهي التأثير بمعين من مزاج الأفلاك والعناصر أو خواص من الأعداد . والشعبذة والشعوذة ، وتكون بالتأثير في القوى المتخيلة والتصرف فيها بقوة نفس الساحر المؤثرة ، حتى يرى الرائي شيئاً في الخارج وليس هناك شيء [5] . وهذا التعريف الأخير هو الذي غلب على السحر .

وعمل الساحر هو السحر ، والسحر في عرف بعض علماء اللغة الاسلاميين هو « عمل يقرب فيه الى الشيطان » [6] . وقد فسر بعض العلماء كلمة « الجِبْت » في القرآن الكريم بمعنى

---

(١) Hastings , p. 566. (٢) عمدة القاريء (٢١/٢٧٨) .

(٣) عمدة القاريء (٢١/٢٨٢) .

(٤) مقدمة ابن خلدون (٣/١٢٤) « علوم السحر والطلسمات » « طبعة كاترمير » .

(٥) مقدمة (٣/١٢٦) « طبعة كاترمير » . (٦) تاج العروس (٣/٢٥٨) .

السحر ، كما ذكر أنها تعني الساحر والكاهن والصنم وكل ما عبد من دون الله . وفسر « الطاغوت » بمعنى الشيطان [١] . ويقال للرجل الذي يقع عليه السحر « مسحور » [٢] . وربما رادفت كلمة « شحر » الواردة مرتين في سفر « أشعياء » كلمة « سحر » [٣] . وقد وردت كلمة « السحر » و« سحر » و« ساحر » و « الساحر » و« الساحرون » و« السحرة » و « مسحوراً » و « مسحورون » في مواضع عديدة من القرآن الكريم ، ويدل ورودها فيه بهذه الكثرة على مبلغ أثر السحر في عقلية الجاهليين .

وترتبط الأخبار الواردة عن السحر بينه وبين اليهود ، وترجع كتبه الى « سليمان » والى جنّه ، مما يدل على أثر اليهود وأساطيرهم ، في هذا الباب ، في نفوس أهل الجاهلية .

والواقع أن أكثر السحرة كانوا من يهود ، يقصدهم الجاهليون من أنحاء بعيدة ، لاعتقادهم بسعة علمهم وباختصاصهم فيه . وكان اليهود يسندون علمهم الى بابل ، ولهذا نجد الأحاديث والأخبار العربية ترجع علم السحر الى بابل واليهود .

وقد حملت تلك المواضع من القرآن الكريم المفسرين على جمع ما علق بأذهان الناس عن السحر . أما كتب الحديث ففيها مادة مفيدة وردت ضمناً عن عقيدة أهل الجاهلية به . كما وردت في أخبار أهل الأخبار إشارات اليه ، تجمل جميعها أن الاعتقاد بالسحر بين الجاهليين كان شائعاً معروفاً ، وأن ممارسيه في جزيرة العرب كانوا عرباً ويهوداً ، وأنهم كانوا يرون أن أصوله في بابل وعند يهود ، كالذي يظهر من الأحاديث والتفاسير التي أوردها المفسرون عن الآية : « واتّبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان ، وما كفر سليمان ، ولكن الشياطين كفروا ، يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ، وما يعلمان من أحد حتى يقولا : إنما نحن فتنة ، فلا تكفر ، فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه » [٤] . وعن الآيات

---

(١) « ألم تر الى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ، يؤمنون بالجبت والطاغوت ، ويقولون للذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا » ، النساء : الآية ٥٠ ، تاج العروس (٥٣٥/١) .

(٢) تاج العروس (٦٥٠/١) . (٣) Ency. Religi. , 8 , p. 252.

(٤) البقرة : الآية ١٠٢ ، عمدة القاريء (٢٧٨/٢٠ وما بعدها) .

العديدة الأخرى التي وردت فيها اشارات الى السحر .

وقد أخذ المسلمون أكثر ما ذكروه من أخبار وروايات عن السحر ، من الموارد العبرانية ، وخاصة من وهب بن منبه وجماعته ممن أسلم من يهود . ولم تتمكن تلك الموارد من إخفاء أخذ العبرانيين السحرَ من البابليين ، كالذي يتبين من الشروح والتفاسير الواردة عنه عندهم . ونجد إشارة الى أثر بابل فيهم في القرآن الكريم ، في إشارته الى السحر والى الملكين « هاروت » و « ماروت » ، وفي تفاسير المفسرين للآية ، كما أشار المفسرون الى أثر المصريين في اليهود في السحر ، والى تجمع السحر كله في كتب جمعت وحفظت عند « سليمان » ، فكان يضبط الإنس والجن بهذا السحر . فلما مات ، أنبأ الشياطين زعماء إسرائيل بكنز سليمان العظيم ، فاستخرجوه وتعلموا منه السحر ، ومنه انتشر السحر بين الناس [1] .

والفرق بين الكهانة والسحر أن الكهانة تنبّؤ ، فسند الكاهن هو كلامه الذي يذكره للناس . أما السحر ، فإنه عمل في الأكثر ، للتأثير في الأرواح ، كي تقوم بأداء ما يطلب منها . ولا يمكن صنع سحر ما لم يقترن بعمل . ويصحب هـذا العمل كلام مفهوم أو غير مفهوم ، وإشارات ، يدعي الساحر أنه إنما يقوم به وبالاشارات لتسخير الأرواح [2] ، وأن ما يفعله مفهوم عند جنوده ، وهم الجن والشياطين .

وفن مثل هذا مُغْرٍ جداً ، فمن من الناس من لا يريد تسخير القوى خفية لخيره ولصالحه ، وإلحاق الأذى بأعدائه ومبغضيه . ولذلك كان للسحر والسحرة أثر خطير في التأريخ . بالرغم من مقاومة بعض الأديان له . فما يقوم به بعض السحرة من أعمال وخفة ، وما لشخصيات بعض السحرة من تأثير نفسي كبير ، تجعل من الصعب على بعض الناس أن يكذبوا أقوالهم وأفعالهم ، ولذلك يتأثرون بهم ، ويأخذون بما يقولونه لهم ، حتى تكون للساحر مكانة كبيرة في نفس ذلك الشخص .

---

(١) عمدة القارىء (١/٢٧٨) ، راجع مقدمة ابن خلدون في السحر ، وكذلك الفهرست لابن النديم في الفصل الذي عقده عنه .

(٢) Ency. Religi., 8, P. 301.

ويسمى « السحر » فى العبرانيــة « كيشيف Keshef » ، وهـذه الـكلمة مثل أكثر الاصطلاحات العبرانية التي لها صلة بالأرواح غامضة ، ولا يعرف أصلها معرفة أكيدة . وأما الساحر ، فإنه « كِشّوف Kishshuf » . واليهودية عنيفة على السحر والسحرة ، غير أنها مع ذلك لم تتمكن من القضـاء على السحر بين العبرانيين ، فمارسـه كثير منهم ، وانتشر بينهم أخذوا علمهم به من المصريين والبابليين والآشوريين [1] .

وللسحر طرق عديدة ، وقد أستخدم فى معالجة أمور كثيرة ، حتى ادارة الملك والقضاء على الأعداء للسحر والسحرة فيهـا صولات وجولات . ومن الطبيعي أن يكون للحب المـكانة البارزة فيه ، حتى ليكاد يتخصص بهذا الجانب من حياة الإنسان . ولما كانت العـادة أن يتزوج الرجل من جملة نساء صار السحر من أهم الوسائل التى أستعانت بهـا الزوجات للتأثير فى قلب الرجل ، ولـكسب المـكانة الأولى عنده ، وللتفريق بين الرجل وبين بقية أزواجه . ومصداق ذلك ما ورد فى القرآن الـكريم عن السحرة فى هذه الآية : « ولـكن الشياطين كفروا ، يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملـكين ببابل هاروت وماروت ، وما يعلّمان من أحد حتّى يقولا إنما نحن فتنة ، فلا تكفر ، فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه » [2] . فالتفريق بين المرء وزوجه ، كان ولا يزال من أهم أعمـــال السحرة . ونجد في الحديث تقريعاً ولوماً للسحرة لاستخدامهم السحر في هذا الغرض الفاسد .

ويبطل عمل السحر بالسحر ، فالمرأة التي تحـاول سحر زوجها ، والانفراد به دون سـائر الزوجات ، لا بد أن يقابل عملها بعمل مماثل من بقية الزوجات ، بعمل يحاول سحر الرجل أيضاً وأجتلابه الى صاحبة السحر الأخرى أو ابطال عمل ذلك السحر وإماتته ، وهكذا يكون الرجل ذو الزوجات العديده بين نساء تحاول كل واحدة منهن سـحره للاستئثار به . ومن الطبيعي أن يكون ذلك خاصاً بكبار الرجال من ذوي المال والسيادة والشرف ، وإلاّ فما الذي تفيده المرأة من رجل فقير محتاج !

---

(1) Hastings. p. 569.

(2) البقرة : الآية ١٠٢ .

والساحر في معالجة الحب على طريقين : اشعال جذوة نار الحب في قلب من يقصد إثارته عنده ، أو اطفاء نارها وإخمادها واماتتها في قلب المسحور . ولكل من الطريقين قواعد وأحكام وأصول يجب تطبيقها بعناية ، وإلاّ بطل فعل السحر .

أما اشعال نيران الحب ، فيكون بطرق متعددة يتبعها الساحر ، فقد يستعين بالنباتات والأعشاب ، يستخرج أدوية منها يقدمها الى المرأة لتُوجر الرجل ايّاها سرّاً . وقد يستعين بالجمر يقرأ عليه ، ثم يرمى فى الممرات التي يمر الرجل ، أو الشخص المراد سحره منها . وقد يدفن السحر فى موضع كمقبرة أو محل آخر ، ليؤثر من ذلك الموضع على المسحور . وقد يستعين بالخرز يسحر عليها ، فتحبب المرأة الى زوجها . وتسمى « التِوْلَة » [1] .

وكما يستعمل السحر لإشعال نيران الحب في القلب ، كذلك يستعمل لإيقاد البغض والكراهية فى النفوس . ففي أُستطاعة الساحر بما عنده من جنود مجنَّدة أن يلقي البغضاء والكراهية والحقد فى نفس أي شخص يودّ إنساناً آخر ، فينقلب مبغضاً حاقداً كارهاً لمن كان يحبّه ويعشقه . ومجال هذا الباب واسع جداً للنساء خاصة .

وفى استطاعة الساحر مداواة العاشق واماتة عشقه بوصفة يعطيها اليه تقضي على حبّه الجامح قضاءً تاماً يسمّونها « السُلوانة » و « السلوان » . وما هذه الوصفة إلا مادة ذات سحر عجيب يغتسل بها الانسان أو يشربها ، فتطفىء فى الحال أو بعد أمد كل نيران للحب مؤججة في قلب العاشق . والسلوانة هي شيء من تراب قبر ، أو خرزة تسحق ويشرب ماؤها ، فيورث شاربها سلوة . وتكون الخرزة شفافة ، تدفن في الرمل فتسودّ ، ثم تستخرج لسحقها وشربها ، وقد يكتفي بصب ماء المطر على تلك الخرزة لسقي العاشق ذلك الماء الذي يسمونه « السلوان » ، ليشفى من العشق [2] . ولا بد أن يكون لأُختيار الماء وتراب القبر أو مسحوق

---

(١) بالكسر وبالضم . « وقيل هي معاذة تعلق على الانسان » ، اللسان (١٣/ ٨٥) .

(٢) اللسان (١٩/ ١١٨ وما بعدها) .

ياليت أن لقلبي من يعلله أو ساقياً فسقاني عنك سلوانا =

الخرزة فى معالجة العشق ، سبب يمكن تفسيره بأنه لغسل قلب الميت وإماتة الحب فيه .

ومن أهم الأعمال الأخرى التي يعالجها السحرة ، اخراج الجن من المجانين . فالجنون هو من عمل الجن . تحل الجنة بالانسان فتأخذ عقله. ومن هنا قيل لهذا المرض « جنة » و « جنون »[1].

ومن واجب الساحر إخراج الجن من هؤلاء المرضى ، وهو عمل يقوم به الساحر حتى اليوم ، ويكون ذلك بضرب المريض بالعصا لإخراج الجنة منه ، أو بسقيه بعض الأشربة السحرية ، أو بتدليك جسمه وغسله ، وبإدخاله محلاً مظلما هادئاً يحرق فيه البخور ، وبتعليق بعض العزائم والحجب وما شاكل ذلك لإبعاد الجن عن المجنون وإعادة عقله اليه .

ويداوي الساحر أمراضاً عديدة أخرى ، بل كلّ أنواع الأمراض ، وما المرض فى نظر القدماء إلا أرواح شريرة حلت فى الأجساد أو بجزء منها ، فألحقت بها الأمراض . ولن يشفي الجسد أو الجزء المصاب منه إلا بطرد تلك الأرواح . وطرد الأرواح من أعمال السحر . والساحر هو سلف من أسلاف الأطباء . وكلمة « طبيب » العربية هي من هذا الأصل . فالطب فى اللغة السحر ، و « المطبوب » هو المسحور ، والطابّ هو الساحر يستخدم طبه في الشفاء[2] .

ومن أهم الأمور التي عالجها السحرة ، السيطرةُ على سقوط المطر ؛ لأن المطر حياة وممات ، فهطوله بكثرة يتلف المزروعات ويلحق بالمزارعين الأذى ، وانحباسه يؤدي الى هلاك الزرع والضرع والى ضيق العيش والاضطرار الى الارتحال عن المنطقة التي انحبس المطر عنها . ويظهر أثر المطر فى المناطق الجافّة خاصة ، ولذلك يكون لسقوطه وانحباسه أثر كبير فى حياتهم . ومن هنا صار له مكان فى أكثر الأديان .

= وورد :

شربت على سلوانة ماء مزنة	فلا وجديد العيش يامي ما أسلو

وجاء :

جعلت لعراف اليمامة حكمه	وعراف نجد إن هما شفياني
فما تركا من رقية يعلمانها	ولا سلوة إلا بها سقياني

(١) تاج العروس (٩/١٦٤ وما بعدها) « جنن » .

(٢) صحيح مسلم (٧/١٤) ، اللسان (٢/٤٢) .

وجزيرة العرب من المناطق التي تتأثر الحياة العامة فيها بنزول المطر وانحباسه ، ولهذا كان من الطبيعي لجوء الجاهليين الى أصنامهم وكهانهم وسحرتهم ، للتوسط فى نزول المطر أو ايقافه . وقد ذكر الأخباريون طريقة من طرق أهل الجاهلية في الاستسقاء ، أي التوسل الى الآلهة لإنزال الغيث ، ذلك أنهم كانوا إذا أجدبوا وانحبس المطر عنهم ، وضاقت حالهم ، عمدوا الى السلع والعشر ، فحزموها وعقدوها في أذناب البقر ، وأضرموا فيها النيران ، وأصعدوها فى جبل وعر قبل المغرب ، ثم أتبعوها يدعون ويستسقون ويقولون لذلك « المُسَلَّعةُ » . ويعلل الأخباريون إضرام النيران فى أذناب البقر بأن ذلك إنما فعلوه على سبيل التفاؤل ، فالنار اشارة الى البرق ، والبرق مجلب للمطر[1] .

والاُستمطار معروف في جميع الأديان تقريباً وعند أكثر الشعوب . وكذلك الدعاء بحبس المطر . وقد أبطل الإسلام العادات الجاهلية في الاستمطار ، وأحل محلها « صلاة الاُستسقاء»[2] .

ومن طرق السحر عند الجاهليين ، النفثُ في العُقَد ، وقد دلّت عليه هذه الآية الكريمة: « ومن شر النفّاثات فى العُقَد »[3] . ويكون ذلك بعقد عقد والنفث عليها[4] . ويذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية أن « لبيد بن أعصم اليهودي » سحر الرسول ، ودسّ ذلك

---

(١) بلوغ الأرب (٢/١٦١ ، ٣٠١ وما بعدها) قال حسان بن ثابت :

فان في حربهم فاترك عداوتهم ... شراً يخاض عليه السم والسلع

الروض الأنف (٢/٣٣٦) ، سيرة ابن هشام (٢/٣٣٦) ، حاشية على الروض ، « ومنه المسلعة كانت العرب في جاهليتها تأخذ حطب السلع والعشر في المجاعات وقحوط القطر فتوقر ظهور البقر منها ، وقيل يعلقون ذلك في أذنابها ثم تلعج النار فيها ثم يستمطرون بلهب النار المشبه بسنى البرق . وقيل يضرمون فيها النار وهم يصعدونها في الجبل فيمطرون . زعموا قال الورك الطائي :

لا در در رجال خاب سعيهم ... يستمطرون لدى الأزمات بالعشر

أجاعل أنت بيقوراً مسلعة ... ذريعة لك بين الله والمطر »

اللسان (١٠/٢٤ وما بعدها) .

(٢) راجع كتب الحديث في « باب الاستسقاء وخروج النبي في الاستسقاء » ، عمدة القارىء (٧/٢٤).

(٣) الفلق : الآية ٤ .

(٤) الكشاف (٤/٢٤٤) ، تاج العروس (١/٦٥٠) « نفث » ، صحيح مسلم (٧/١٤) « باب السحر » ، عمدة القارىء (٢١/٢٨٠ وما بعدها » .

السحر فى بئر لبني زريق تسمى « بئر ذروان » ، وأنه وضع ذلك السحر فى جف طلعة تحت راعوفة ، أي في قشر الطلع وتحت حجر فى أسفل البئر . فلما استخرج السحر ، وجدوه مشاطة رأس وأسنان مشطه ، واذا فيه معقد فيه إحدى عشرة عقدة مغروزة بالابر (١) . ويقوم بهذا السحر الرجال والنساء . غير أن المفسرين وأهل اللغة والأخبار حينما يذكرون هذا النوع من السحر يذكرون أن النساء النفاثات هن اللواتي كن يقمن بذلك . أخذوا رأيهم هذا من الآية المذكورة التي تشير الى بنات لبيد وكن ساحرات ، والإشارة فى هذه الآية عن حادث معيّن ، ولم يقصد بها الإطلاق .

والنفث فى العقد ، وعقد سبع عقد توضع فيها مادة السحر ، من طرق السحر القديمة المعروفة عند العبرانيين والأشوريين وغيرهم . وقد عثر فى الكتابات المسمارية على تعليمات فى كيفية أتقاء شرّ الأرواح الخبيثة وأرواح الأموات الشريرة التي تسحر الناس ، فكان مما جاء فيها عقد سبع عقد ووضع مادة سحرية فصلت فى تلك التعليمات لأتقاء شر سحر تلك الأرواح (٢) .

وقد كان السحرة اليهود يقرؤون شيئاً ويهمهمون عند عقدهم كل عقدة من هذه العقد ، ويقال لذلك « Ghabar » (٣) . ومن هؤلاء أقتبس السحرة العرب طريقتهم فى النفث على العقد .

ويقوم أكثر مداواة المرضى بواسطة السحر بالنفث على المريض أو في فمه وبامساك الرأس أو الجزء المريض ، لقراءة شيء عليه يضمن شفاءه ، أو بتدليك ذلك الجزء منه . وقد يعطى حجباً وتمائم تشفي المريض من مرضه . والنفث في الفم من العادات الجاهلية القديمة ، يقوم به الكاهن والساحر والأب في بعض الأحيان ، لاعتقادهم أن ذلك سيلهم الطفل فيملمه العلم والحكمة والذكاء ويمنحه الصحة الجيدة .

---

(١) الطبرسي : الجزء التاسع ، المجلد الخامس (٥٦٨) .

(٢) Semitic Magic, P. 33. (٣) Hastings, P. 569.

والموادّ التي يستعين بها الساحر لعمل السحر عديدة . أوراق بعض النباتات والملح والبخور والدماء والعظام وقرون الحيوانات يدفنها أو يحرقها أو يذيبها في الماء . وفي كل سحر لا بد أن يشفع الساحر سحره بحركات خاصة ، وبتمتمة تلقى في الروع أن الساحر يقول شيئاً ويخاطب أشخاصاً هم الجن . والتمتمة هي في الغالب كلام غير مفهوم عند الناس ، ولكنه عند الساحر وجنوده الجن كلام واضح بليغ .

ويعمد السحرة الى الصور والرموز فى سحرهم ، ومنهم من كانوا لا يعرفون الكتابة ولا القراءة فيرمزون إلى من يريدون سحره ، أو الحاق الأذى به ، أو يصورونه . وقد يشيرون بالصور والرموز الى الجن والشياطين . وهم فى الغالب يدفنون تلك الصور والرموز فى المقابر ، لأنها من أنسب الأماكن للسحر . وقد عثر على عدد من هذه الإشارات والصور السحرية . ومنها ما هو مكتوب بكتابات لها صلة بالسحر[١] .

وهناك حالات لا يحتاج فيها الإنسان الى مراجعة السحرة مدة طويلة ، أو الذهاب اليهم من أماكن بعيدة . فهناك أشياء مهيأة جاهزة يستطيع المحتاج اليها أن يذهب الى الساحر ليخبره بخبره ، وليأخذ منه ما هو محتاج اليه ، كما أن فى استطاعة الأشخاص فى حالات معينة القيام بأنفسهم بتجهيز تلك المواد وتحضيرها لشيوعها بين الناس . ويدخل فى ذلك القيام ببعض الشعائر الدينية وقراءة بعض الأدعية . فللتغلب على الأرواح الشريرة التي تطمع فى سرقة الأطفال ، أو الحاق الأذى بهم ، يستطيع الوالدان أو غيرهم عمل التميمة . ولارضاء الأرواح التي قد تحسد الإنسان فتزعجه وتؤذيه فى داره يمكن معالجة ذلك بالذبح ، وقد عرفت تلك الذبائح بـ « ذبائح الجن » . وبتقديم هذه الذبائح يأمن الإنسان من الطيرة ، ويكون فى وسعه السكنى فى البيوت التي يدخل اليها فى كل هدوء ، واستخراج الماء من البئر أو العين دون خوف ، لأنه قد أرضى الأرواح وتقرب اليها بدليل المودة والحب ، وهو الذبيحة . فرضيت به فلا خوف عليه إذن

---

(١) Hastings, P. 569.

منها . وقد نهى عن ذلك الإسلام [1] .

أما إذا أريد طرد الأرواح وإبعادها ، فيلجأ الى « التنفير » [2] . وطريقتهم فى ذلك شبيهة بطرقهم فى تنفير الثقلاء وغير المرغوب فيهم من الناس وابعادهم ، وذلك باتخاذ كل ما ينفر ويقزز ، لتعاف تلك الأرواح المواضع التي اختارتها والأشخاص الذين نزلت بساحتهم وحلت فى أجسامهم ، ومنها طريقة « التنجيس » . وطريقتهم في ذلك تعليق الأقذار من خرق المحيض وعظام الموتى وأمثال ذلك على الصبي ومن يُخافُ عليه عيون الجن ، لاعتقادهم أن الجن سوف تبتعد عن هؤلاء وتهرب منهم . ويقال للمعوذ « المُنَجِّس » ، وللشخص الذي عوّذ له « المُنَجَّس » [3] . والتنجيس يشفي إلاّ من العشق [4] .

و « النُّشْرَة » سلاح مفيد جداً لحل عقد الرجل عن مباشرة أهله . وقد كانت مشهورة فى أيام الرسول . وقد أباح العلماء « النشرة العربية التي لا تضر إذا وطئت ، وهي أن يخرج الإنسان في موضع عضاه ، فيأخذ عن يمينه وشماله من كل ، ثم يذيبه ويقرأ فيه ، ثم يغتسل به » [5] . ويدل نعت هذه النشرة بالنشرة العربية على وجود نشرات غير عربية ، وهي النشرات التي كان يعملها اليهود . وقد كانوا يستعملون الأدعية العبرانية ، لذلك نهى الاسلام عن استعمال تلك النشرات .

والنشرات المذكورة أدعية وأوراد كان يتلوها العبرانيون على بعض المواد ، لإكسابها خاصية

---

(١) تاج العروس (١٣٨/٢) ، « وذبائح الجن أن يشتري الرجل الدار أو يستخرج ماء العين وما أشبهه فيذبح لها ذبيحة للطيرة . وفي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن ذبائح الجن . كانوا إذا اشتروا داراً أو استخرجوا عينا أو بنوا بنياناً ذبحوا ذبيحة مخافة أن تصيبهم الجن فأضيفت الذبائح اليهم لذلك معنى الحديث : أنهم يتطيرون الى هذا الفعل مخافة أنهم إن لم يذبحوا أو يطعموا أن يصيبهم فيها شيء من الجن يؤذيهم ، فأبطل النبي صلى الله عليه وسلم هذا ونهى عنه » ، اللسان (٢٦٢/٣) .

(٢) اللسان (٨٥/٧) .

(٣) ورد : « وعلق انجاساً على المنجس » ، اللسان (١١١/٨) ، « نجس » ، بلوغ الأرب (٣١٩/٢) .

(٤) بلوغ الأرب (٣١٩/٢) .

(٥) عمدة القارىء (٢٨٤/٢١) . تاج العروس (٥٦٦/٣) ، سنن أبي داود (٦/٤) .

التأثير بفعل قراءة تلك الأدعية . ونجد لمسلمة أهل الكتاب ، مثل وهب بن منبه ، رأياً فيها [١] .

وحديثنا عن الرقى والمعوذات والنشرات يدفعنا الى الكلام عن « الحمائل » عامة ، وأقصد بالحمائل كل ما يحمل أو يعلق أو يوضع فى جهة ما للاستفادة منه . وهو ما يقال له فى الانكليزية : « Amulet » و « Charms » وكلمة « Amulet » و « Amatott » و « Amulete » و « Ammulett » وصورها الأخرى ، وكذلك لفظة « Amuletum » اللاتينية و « Amulatte » الفرنسية ، هي من أصل غير معروف ، وإن بدا بعض التشابه بينها وبين « حمالة » و « الحمائل » العربيتين [٢] . ويقصد بها كل ما يحمل أو يعلق أو يوضع على شيء ، لحمايته ، أو لدفع جميع أنواع الأذى عنه ، أو لمنحه القوة والخصب والبركة والتوفيق فى الصيد والنجاح فى الحرب وعلى الخصوم والحظ السعيد . وأمثال ذلك من طلبات وتمنيات .

واعتقاد الإنسان بوجود القوى الخفية السحرية المؤثرة الكامنة ، وشعوره بضعفه وبضرورة الاستعانة بتلك القوى الجبارة وبوجود أمور غير مفهومة تجلب له النحس والسعد والحظ والبخت : كل هذا هداه الى حمل أشياء توحي اليه أن فيها خواصّ سحرية مؤثرة ، قد تكون فى نظر غيره تافهة مضحكة . أما حاملها ، فله رأي وعقيدة فيها ، لإيمانه بأثرها السحري فيه . ولهذا نجد أن أكثر استعمالها للأطفال وللحيوانات والدور والأشياء الثمينة العزيزة ، كما نجد أن استعمالها بين النساء أكثر من الرجال ، وهي بين البدائيين أكثر تفشياً من الشعوب المتقدمة المتطورة [٣] .

والقوى السحرية التي يتصورها حامل الحمالة فى حمالته ، قد تكون كامنة فيها ، ملازمة لها . وقد تكون مكتسبة ، اكتسبتها بعمل ساحر ، أدخلها فيها بطرقه المعروفة ، أو بقراءة جمل مقدسة عليها ، أو بكتابة شيء من الحروف أو الرموز المقدسة عليها ، أودعت فيها سرّاً مقدساً

---

(١) عمدة القارىء (٢١/٢٨٤) .

(٢) The Oxford English Dictionary, Vol., I, P. 295, Ency. Religi.. 3, P. 392 ff., Hastings, P. 29.

(٣) Hastings, P. 29.

له قابلية التأثير . لهذا كان من الحمائل ما له صفة دينية وهو غير منهى عنه فى الأديان ، ومنها ما ليس له تلك الصفة وهو ما حرمته ونهت عنه بعض الأديان .

وليست للحمائل حدود وأوصاف ، فقد تكون حجراً وقد تكون نباتاً ، وقد تكون معدناً ، وقد تكون جزءاً من إنسان أو حيوان . غير أن الغالب فى الأختيار الميل الى الأشياء النادرة الغريبة ، ففي الأحجار مثلاً يفضل أستعمال الحصى الصغار ، أو الخرز التي تنفرد بألوان خاصة ، أو التي لها هيئات غريبة ، فتظهر على شكل قريب من الإنسان أو الحيوان أو النبات ، أو التي تستعمل سلاحاً مثل رأس سهم أو رمح . ولذلك مال الكثير من الناس الى أستخدام الأدوات الحجرية التي تعود الى العصر الحجري حجاباً ورقى وعوذة . ومال الى أستخدام النباتات والأثمار غير المألوفة إما فى شكلها ، وإما فى نموّها ، ومال الى مثل هذه الغرابة فى أختياره حمائله من المعادن أو الزجاج . أما أجزاء الإنسان أو الحيوان ، فالمستخدم منها هو العظام بالطبع لضمان بقائها مدة طويلة ، فالأسنان والأنامل وعظام الرأس أو الأرجل والأكتاف : كلها مادة صالحة فى هذا الباب .

والحمائل نوعان : طبيعي ، ومعمول . أما الطبيعي ، فهو المتخذ حميلة بدون إجراء تغيير أو تبديل عليه . وأما المعمول ، فهو المصنوع أو المكيف ، أي الذي أجريت عليه بعض التغييرات . وتدخل في هذا الصنفِ الحمائلُ المكتوبة ، أو المصورة ، أو المنقوشة . وأقصد بالمنقوشة الحمائل التي لا تحمل صوراً ولا كتابة ، إنما نقشت عليها رموزٌ وإشاراتٌ . ويلاحظ أن خطوط أكثر الحمائل المكتوبة مكتوبة بأسلوب خص أمتاز به السحرة ، فلم يراعَ فيه حسن الخط ووضوحه وصفاؤه ، إنما روعي فيه الغموض والغرابة فى تركيب الحروف وتأليفها لتتناسب مع السحر . ولا يستبعد أن يكون لجهل السحرة علاقة بهذا الموضوع ، فكثير منهم هم ممن لايحسن الكتابة جيداً ولا يتقنها إتقاناً حسناً ، إذْ لا يشترط فى الساحر أن يكون كاتباً ، ولهذا عمد الجهلة منهم فى التعبير عن سحرهم الى طريقة التصوير أو الاشارات والرموز تغطيةً لجهلهم معلنين للناس أن ذلك هو كلام فى عرف السحرة يفهمه الساحر وشيطانه . وما الذي يهم طالب الحاجة

من الكتابة ما دام فى إمكان الساحر وشيطانه فهم ذلك الكلام واجابة طلبه بأحسن وجه وأتمه . ثم إن طلاب الحاجات أنفسهم هم من هذا الصنف ، أميون لا يقرؤون ولا يكتبون وأكثرهم لا يفرق بين الكتابة والنقش والتصوير ، ولا يميز الإشارات من الحروف .

وقد تكون الكتابة جملاً منتزعة من الكتب المقدسة ، أومن الكلام المنسوب الى الآلهة . وقد تكون أدعية وتراتيل ، وقد تكون أسماء آلهة وأصنام وأسماء مقدسة أخرى مثل أسماء جن وملائكة وأباليس ، وقد تكون شعراً ، غير أن النثر هو الغالب فى الحمائل ، وقد تقترن الكتابة بصور تمثل الآلهة أو الأرواح أو الأشخاص المراد توجيه السحر اليهم ، وقد تقترن بالنقوش كذلك من إشارات ورموز [1] .

ولما كانت الحمائل لأغراض وغايات عديدة ، رأى السحرة والمشتغلون بصنعها تصنيفها وتنويعها بحسب تلك الحاجات . فحمائل خاصة بالحب ، وحمائل خاصة باتّقاء شر العين ، وحمائل خاصة بالصبيان ، وحمائل خاصة بالخصب والنماء وانجاب الولد ، وحمائل خاصة بالشجاعة والقوة . ولتميزها بعضها عن بعض ، وضعت عليها شارات خاصة ، أو صور معينة تشير الى الصنف . أما الذين يقرؤون ويكتبون منهم ، فقد كتبوا عليها اسم صنف الحميلة ، كأن يكتب عليها حجاب لحماية صاحبه من اللصوص أو من المرض أو العين ، أو حجاب للحب ، وأمثال ذلك من أبواب .

أما المادة التى يكتب أو ينقش أو يصور عليها ، فهي كل المواد المذكورة وأشياء أخرى كثيرة ، منها الورق والجلود والأقمشة وألواح الخشب والمعدن . وأما الأدوات التى تستخدم في ذلك ، فهي الأقلام والحبر والدم ، دم إنسان أو دم ضحية يستخدم فى مكان الحبر ، وبعض الأصباغ مثل صبغ الزعفران ، والأقلام الحادة ، والأدوات الأخرى التى تستعمل فى الحفر لحفر الكتابات أو الصور أو الرموز على الحمائل الصلبة .

وللجاهليين مصطلحات وأسماء عديدة خصت بأنواع من الحمائل ، منها « التمائم » ومفردها « التميمة » ، وهي عوذة على هيأة قلادة من سيور تضم خرزاً ، وقد تكون من خرزة واحدة

---

(١) Ency. Religi., III, P. 397. f.

تستعمل للصبيان والنساء في الغالب اتقاء النفس والعين . فإذا كبر الطفل ، انتزعت التميمة منه ، لأن التمائم في نظرهم منقصة للرجال ، فهي نوع من الزينة . ثم إن الرجل لا يخشى عليه من النفس والعين ، وله مقاومة لا تكون عند النساء والصبيان . وقد وردت اشارات اليها في الشعر الجاهلي [١] .

ويرى بعض المستشرقين أنها من أصل يوناني هو « **Telesma** » التي أشتقّ منها اسم « الطلسم » [٢] . وقد نهى عن أستعمالها الإسلام [٣] .

وللخرز عند الجاهليين وعند الأعراب حتى اليوم ، أهمية كبيرة في السحر ، وفي دفع أذى الأرواح والعين ، وفي النفع والحب ، وأمثال ذلك . ولما كانت الخرز فصائل وأنواعاً ، فقد خصوا كل فصيلة بأسم معين ، وجعلوا لكل قسم وصنف أثراً خاصاً يمتاز به عن بقية الأصناف الأخرى. فالتولة مثلاً الخرزة التي تحبب المرأة الى زوجها [٤] ، و « العُقرة » خرزة تشـــدها المرأة على حقويها لئلا تلد [٥] . و « اليَنْجلب » تفيد في رجوع الرجل بعد الفرار وفي اكتساب عطفه بعد وقوع بغضه [٦] . و « الخصُمة » ، وهي خرزة للدخول على السلطان والخصومة تجعل تحت الخاتم أو في زر القميص أو في حمائل السيف [٧] . و « العَطْفة » هي خرزة تجلب العطف لصاحبها [٨] .

---

(١) اللسان (٣٣٦/١٤) ، سنن أبي داود (٩/٤) .

(٢) Reste, S. 166. (٣) النهاية (١٤٣/١) . (٤) تاج العروس (٢٤٢/٧) .

(٥) تاج العروس (٤١٤/٣) « عقر » ، بلوغ الأرب (٧/٣) .

(٦) بلوغ الأرب (٧/٣) ، « والينجلب على صيغة المضارع خرزة للتأخيذ ، أي يؤخذ بها الرجال ، أوهي للرجوع بعد الفرار ، وللعطف بعد البغض . وحكى اللحياني عن العامرية أنهن يقلن : أخذته بالينجلب ، فلا يرم ولا يغب ، ولا يزل عنـــد الطنب . قلت : وقد حكى ابن الأعرابي . قال : تقول العرب : أعيذه بالينجلب إن يقم وان يغب » ، تاج العروس (١٨٧/١) .

(٧) تاج العروس (٣٧٩/٨) .

(٨) بلوغ الأرب (٧/٣) « والعطفة خرزة للتأخيذ ، تؤخذ بها النساء الرجال .... وبالتحريك نبت يتلوى على الشجر لا ورق له ولا أفنان .... يؤخذ بعض عروقه ويلوى ويرقى ويطرح على الفـــارك فتحب زوجها » ، تاج العروس (٢٠٠/٦) .

وفى أستطاعة بعض الخرز إهلاك الأعداء وقتلهم ، وإلحاق الأذى بهم ، ومن هـذا النوع « الفطسة » ، ورقيتها : « أخذته بالفطسه ، بالثؤبا والمطسـه ، فلا يزال فى تعسـة ، من أمره ونكسه ، حتى يزور رمسه »[1] . وهناك أنواع أخرى تستعمل فى إمراض الأعـداء وإلحاق الآفات والخبائث بهم ، مثل مرض السل ، وذلك بسحق الخرز ومزج ترابها بالماء ودس المـاء للشخص الذي يراد الحاق الأذى به . وهي طريقة لا يزال العوام يعملون بها اليوم .

ومن الخرز التي أستعملت فى أسـتعطاف قلوب الرجال « الهِـنّـمة » ، ولها رقية خاصـة ، هي : « أخذته بالهِـنّـمة ، بالليل زوج وبالنهار أمة »[2] . و « القَـبَـلة » و « الدردبيس » ، وهي خرزة مؤثرة ذات قوة فعّالة ، يتحبب بها النساء الى أزواجهن ، تؤخذ من القبور العادِيّة ، أي القبور الجاهلية القديمة . ولها رقيـة خاصـة ، هى : « أخذته بالدردبيس ، تدرّ العرق اليبيس ، وتذر الجديد كالدريس » . و « القِرْزحلة » ، وهى من خرز الضرائر[3] .

ومن تلك المصطلحات : « العوذة » و « الرقية » . أما « العوذة » ، فيقال لها « المعاذة » و « المعـاذات » كذلك ، وتستعمل في التعويذ من الفزع والجنون[4] . وتبعث تسـميتها على الظن بأنها من المصطلحات الإسلامية ، وأنها أخذت تسميتها من « المعوذتين » . غير أن ورودها في مواضع عديدة من الحديث ، وأستعمالها فى القرآن الـكريم للتعبير عن فـكرة معينـة معلومة ، يدلاّن على أنها من المصطلحات التي كانت معروفة بين أهل « يَثرِبَ » حتى إنّ بعض الصحابة ذكروا أنها نزلت للتعويذ . ومعنى « أعوذ » أعتصم والتجيء ، فلا يستبعد أن يكون أهل يثرب على الأقل قـد تعلموا ذلك من اليهود الذين كانوا يقرؤون بعض التعاويذ من التوراة لحماية أنفسهم من شر الأمراض .

وأما « الرقية » ، فتستعمل فى مداوة الآفات ، مثل الحمى والصرع والنظرة ولدغات العقارب

---

(١) بلوغ الأرب (٣/٧) .

(٢) « والهنمة مثال الهلعة ، الخرز التي تؤخذ بها النساء أزواجهن . حكى اللحياني عن العامرية أنهن يقلن : أخذته بالهنمة بالليل زوج ، وبالنهار أمة » ، اللسان (١٦/١٠٧) .

(٣) بلوغ الأرب (٣/٦ وما بعدها) . (٤) اللسان (٥/٣٤) .

والحيّات وأمثال ذلك ، وتكون بقراءة شيء على المريض أو على موضع المرض ثم النفث عليه ، أو بحمل شيء مكتوب . وقد جاء في بعض الأحاديث جوازها في الاسلام ، وفي بعضها النهي عنها . وقد ذكر علماء الحديث أن الإسلام قد نهى عن الرقية التي تكون بلسان غير عربي[1]، ويدل هذا على أن الجاهليين كانوا يذهبون الى أهل الكتاب ولا سيما اليهود منهم ، فيرقونهم بالعبرانية أو السريانية ، ولذلك نهوا عنه . وقد عرضت بعض أنواع الرقية التي كان يستعملها أهل الجاهلية على الرسول لأخذ رأيه فيها ، فأباحها لهم ، وأباح لهم كلّ رقية ليس فيها شيء من الشرك[2] .

و « الرقية » كما يتبين لي من دراسة ما ورد عنها ، هي العبارات التي تقرأ على الحائل وعلى ما يستخدم لمعالجة الآفات . فقد كان « للينجلب » ، وهي خرزة الرجوع بعد الفرار رقية ، هي: « أخذته بالينجلب ، فلا يَرِمْ ولا يَغِبْ ، ولا يزل عند الطنب »[3] . وكان لـ « كَرار » وهي خرزة تؤخذ بها نساء الأعراب ، أوخرزة تؤخذ بها النساء والرجال ، رقية تقولها الساحرة عليها ، هي: « يا كَرار كُرّيه ، إن أقبل فُسرّيه ، وإن أدبر فضرّيه ، من فرجه الى فيه »[4] . أما رقية « الهَجرة » ، وهي خرزة من خرز الحب يستعطف بها الرجال أو هي خرزة للتأخيذ، فكانت : « يا همرة أهمريه ، ويا غمرة أغمريه ، إن أقبل فسريه ، وأن أدبر فضريه »[5] .

وقد حفظت الكتب لنا أنموذجات من بعض الرقى ، منها هذه الرقية التي استعملت في اشمال نيران الحب : « هوابه هوابه ، البرق والسحابة ، أخذته بمركن ، فحبه تمكن . أخذته بإبره ، فلا يزل في عَبْره.. جلبته بإشفى فقلبه لا يهدا . جلبته بمبرد ، فقلبه لا يبرد »[6] .

---

(1) اللسان (١٩/٤٩) ، تاج العروس (١٠/١٥٤) ، سنن أبي داود (٤/١٠ وما بعدها) .

(2) شرح الإمام النووي على متن مسلم (٩/٣٩) « حاشية على إرشاد الساري ، وكان صلى الله عليه وسلم نهاهم عن الرقى ، لما عسى أن يكون منها من ألفاظ الجاهلية » ، إرشاد الساري (٨/٣٩١) .

(3) بلوغ الأرب (٣/٧) .

(4) تاج العروس (٣/٥١٩ وما بعدها) ، بلوغ الأرب (٣/٧) .

(5) اللسان (٧/١٢٨) ، تاج العروس (٣/٦٣٣) « همر » .

(6) بلوغ الأرب (٣/٧) .

فهذه الرقية تلهب قلب الرجل ، وتهيجه ، وتجعله كأنه فى إجانة غسل الثياب . يعمل على وفق إرادة المرأة التي استعملت تلك الرقية .

أما إذا سئمت المرأة زوجها وأرادت الابتعاد عنه ، وطردها عنه ، فسبيلها فى ذلك رقية تبعد الرجل ، وتنفره منها ، وذلك بأن تقول : « بأفول القمر ، وظل الشجر ، شمال تشمله ، ودَبُور تدبره ، ونكباء تنكبه . شيك فلا انتقش » . فإذا أتمت ذلك ، رمت فى أثره بحصاة ونواة وروثة وبعرة . ثم تقول : حصاة حصت أثره ، ونواة نأت داره ، وروثة راثت خبره ، لفعته ببعرة » . [1] .

وكثير من أنواع الحلي ، هو فى الأصل من هذا النوع الذي نتحدث عنه ، أي حمائل حملت لتأدية غرض من الأغراض التي يعلقها صاحبها فيها . ولهذا نجد العبرانية تسمها ببعض النعوت التي تعبر عن هذه الفكرة [2] . وقد كان الجاهليون يعلقون الحليّ والجلاجل على اللديغ ، يفعلون ذلك لاعتقادهم أنه يفيق بذلك ، فلا ينام . ولو نام ، سرى السم في جسمه ، فمات . وذهب بعضهم الى أن تعليق الحلي الذهب على اللذيع يبرئه من ألمه . أما إذا علق الرصاص عليه ، أو حلى به ، فإنه يموت [3] .

والكلام على الحمائل يدفعنا الى الكلام على إصابة « العَيْن » ، فقد كان للجاهليين رأي وعقيدة فى « العين » وفى أثرها فى الحياة ، حتى أنهم خصصوا أكثر الحمائل بالوقاية من أثرها وردّ فعلها ، ويقولون لأثر العين واصابتها : « العين » ، و « النفس » ، و « السَفْعة » [4] ، و « النَظْرة » ، وقد يخصصون « النظرة » بإصابة عين الجن [5] . أما الرجل الذي تصيب

---

(١) بلوغ الأرب (٣/٧ وما بعدها) .

(٢) Reste , S. 165.

(٣) بلوغ الأرب (٢/٣٠٤) .

(٤) تاج العروس (٥/٣٨١) .

(٥) اللسان (١٧/١٧٦) ، تاج العروس (٤/٢٥٩) « باب رقية العين » « أن النبي صلى الله عليه وسلم ، رأى في بيتها جارية في وجهها سفعة ، فقال : استرقوا لها فإن بها النظرة » ، عمدة القارىء (٢١/٢٦٤ وما بعدها) . « نفس » . Reste . S. 165.

عيونه ، فيقولون له : « عائن » و « مِعْيان » و « عَيُونٌ » . وأما المصاب ، ف « معين » و « مسفوع » و « منفوس » . ويقولون له : « نفس بنفس » و « منظور » . وقد خصص بعض علماء اللغة « السفعة » بالضربة التي تصيب الانسان من الشيطان [1] .

والاعتقاد بأثر العين وإصابتها ، اعتقاد عام بين جميع البشر ، وتكاد تجد له كلمة خاصة في كل لغة من اللغات . وعقيدة بعض الناس أن إصابة العين قد تؤدي الى الهلاك والموت . ولخطر هذه الإصابة وأهميتها ، تفنن الناس في أبتداع وسائل الوقاية منها ، وحماية أنفسهم من أثرها . وعاقبت بعض الشعوب « العيون » عقاباً صارماً وصل الى حدّ الموت . ويلاحظ أن النـــاس يكادون يتفقون فيما بينهم على أن إصابة العين لا تنتج إلا شراً ، وهي لا تكون في خير مطلقاً . بينما جعلوا للأرواح عملين . خيراً وشراً . ولهـذا فسرت بعض الشعوب البدائيـة أثر العين بأنه من أثر الأرواح الشريرة وعمل الشياطين .

ولا يقتصر النفس على نفس الإنسان ، فقد يصيب نفس الحيوان كذلك . وهناك حيوانات عديدة لها قدرة على الاصابة بعينها مثل الحيّات والثعلب والطاووس . وأكثر الحيوانـات التي تكون لعيونها بريق أو لمعان خاص ، هي من هذا القبيل . وقد حمل هذا الاعتقاد بعض الناس على التخوف من تلك الحيوانات والابتعـاد منها ، بل بلغ الخوف ببعضهم أن أمتنعوا من ذكر أسم أمثال تلك الحيوانات أو تهجي حروف أسمائها خشية العين [2] .

ولحماية النفس من العين ، استعملت الخرز والتعاويذ والرقى . ومن الخرز التي استخدمت في حماية الأطفال من إصابة النفس ، « الكحلة » ، وهي خرزة سـوداء تجعل على الصبيان لمنع العين عنهم . و « القبلة » ، وهي خرزة بيضاء تجعل في عنق الفرس من العين [3] .

---

(١) « ورواها أبو عبيدة شفعة ومرأة مشفوعة » ، اللسان (٩/٢٢) .

(٢) روح المعاني (٣٠/٢٨٤) . Ency. Religi. , 5. 610.

(٣) بلوغ الأرب (٣/٧) . « ضرب من الخرز يؤخذ بها ، يكون عند نسـاء الأعراب . يقلن في كلامهن : يا قبلة اقبليه ويا كرار كريه . وأنشد اللحياني في القبل :

جمعن من قبـل لهن وفطسـة ... والدرديس مقـابلا في المنظـم

...... شيء من عاج مستدير يتلألأ يعلق في صدر المرأة أو الصبي أو الفرس وقيل حجر عريض يعلق على الخيل تدفع بها العين » ، تاج العروس (٨/٧١) .

ونعالج « الخطفة » و « النظرة » عند الصبيان بتعليق سن ثعلب ، أو سن هرّة على الصبي ، فإن تلك الأسنان تهرب الجن . ويهربها كذلك تنقيط شيء من صمغ « السمرة » ، وهي شجرة من شجر الطلح ، بين عيني النُفَساء وخط شيء منه على وجه الصبي خطاً ، فلا تجرؤ الجنية على التقرب من الصبي ، ويقال لذلك « النفرات » [1] .

وللحسد بعض الصلة بالنفس . فكما أن للعائن نفساً على غيره ، كذلك للحاسد نفس على محسوده . وقد يصل نفس الحاسد الى حد الاهلاك ، فهو فى خطره وأذاه مثل خطر النفس . والعائن ربما لا يتعمّد الأذى ، إنما عينه هي التى تصيب بمجرد المقابلة أو وقوع النظرة على الشيء ، ولذلك كان أذاه عند المقابلة ووقوع عين العائن على المعيون . أما الحاسد ، فانه يصيب فى الغيبة وفى الحضور ، لأن عينه تنفذ وتصل الى المحسود ، وإن كان غائباً عن الحاسد [2] . ولخطر الحسد وشدة أذاه ، اتخذت التمائم الخاصة بمقاومة عيون الحسود .

رأينا أن كثيراً من الأمراض كان يعالجها الناس بالتمائم والرقى والتعاويذ ، يقوم بذلك السحرة فى الغالب . ولا عجب من ذلك ، فالأمراض فى عرف أكثر الجاهليين وشعوب تلك الأيام ، هي حالات تولدت من أثر الأرواح الخبيثة وعملها . ومداواتها تكون بإخراج تلك الأرواح وطردها من الجسم أو من العضو المصاب ، ولا يقوم بذلك إلا الساحر . ومن معاني الطب السحرُ ، والمطبوب فى العربية هو المسحور [3] . وقد أدخلت كتب الحديث السحر فى كتاب الطب [4] . فالساحر هو طبيب يعالج أشياء عديدة ، ثم تخصص الطبيب بالطب ، غير أن الأطباء ظلوا يمارسون حتى فى أوربة السحر فى معالجة مَرْضاهم مدةً طويلة ، إلى أن تطور العلم وظهر البحث الحديث .

وهناك عادات سار عليها أهل الجاهلية فى معالجة بعض مشكلاتهم لها علاقة وصلة بهذا الموضوع ، فكان بعضهم إذا وقع العُرّ فى إبلهم ، « اعترضوا بعيراً صحيحاً من تلك الإبل ،

---

(١) بلوغ الأرب (٢/٣٢٥) ، تاج العروس (٣/٥٧٨ وما بعدها) « نفر » .
(٢) روح المعاني (٣٠/٢٨٤) . (٣) تاج العروس (١/٣٥١) ، عمدة القاريء (٢١/٢٢٩).
(٤) راجع كتب الحديث : « باب السحر » ، عمدة القاريء (٢١/٢٧٧ وما بعدها) .

فكووا مشفره وعضده وفخذه ، يرون أنهم اذا فعلوا ذلك ذهب العُرُّ عن إبلهم . كما كانوا يعلقون على أنفسهم كعوب الأرانب خشية العطب ، ويفقأون عين فحل الإبل ، لئلا تصيبها العين » [1] .

وإذا أرادت المرأة المقلاة أن يعيش ولدها ، ففي إمكانها ذلك إذا تخطت القتيل الشريف سبع مرّات ، وعندئذ يعيش ولدها [2] . أما إذا صعب على المرأة العثور على خاطب لها ، فإن في الامكان تيسير ذلك بنشر جانب من شعرها ، وتكحيل إحدى عينيها ، وتحجيل احدى رجليها ، ويكون ذلك ليلا ، ثم تقول : « يا لكاح ، أبغي النكاح ، قبل الصباح » ، فيسهل أمرها ، وتتزوج عن قرب [3] .

وأما اذا غاب إنسان ، فلم يقفوا على أثره ، ففي الوسع الاهتداء اليه ، وذلك بأن يذهبوا الى بئر قديمة أو حفر قديم . ثم ينادوا في البئر أو الحفر اسم الغائب ثلاث مرّات ، فإن سمعوا صوتاً ، علموا أنه حي معافى ، وإن لم يسمعوا شيئاً علموا أنه قد مات [4] .

وإذا أراد الرجل امتحان زوجه والتأكد من أنها لم تتصل بغيره ولم تخنه ، « عمد الى خيط فعقده في غصن شجرة أو في ساقها ، فإذا عاد نظر الى ذلك الخيط فإن وجده بحاله علم أن زوجته لم تخنه ، وإن لم يجده أو وجده محلولاً قال : قد خانتني . وذلك العقد يسمّى الرَّتَم . ويقال : بل كانوا يعقدون طرفاً من غصن الشجر بطرف غصن آخر » [5] . فذلك مقياس صحيح للخيانة عند بعض سواد الجاهليين .

وعلى الرجل إذا خرج من بلده الى آخر ألاّ يلتفت ، فإن فعل جلب التفاته له العودة ، ولذلك لا يلتفت إلا العاشق الذي يريد العود [6] .

أما اذا أراد أحدهم دخول قرية ، نخاف وباءها أو جنها ، فله سبيل سهل يحميه ويقيه ، هو

---

(١) بلوغ الأرب (٢/٣٠٦) ، اللسان(٦/٢٣٠ وما بعدها) . صبح الأعشى (١/٣٩٨ ومابعدها).
(٢) بلوغ الأرب (٢/٣١٧ وما بعدها) . (٣) بلوغ الأرب (٢/٣٣٠) .
(٤) بلوغ الأرب (٣/٣ وما بعدها) .
(٥) بلوغ الأرب (٢/٣١٦) ، اللسان (١٥/١١٦) . صبح الأعشى (١/٤٠٨) .
(٦) بلوغ الأرب (٢/٣٢٦) .

أن يقف على باب القرية والموضع الذي يريد دخوله ، ثم ينهق نهيق الحمار ، ثم يعلق عليه كعب أرنب ، فيدخل عندئذ الموضع دون خوف . فقد فعل ما يتقي به الأذى والسوء . ويسمون ذلك « التعشير »[1] . أما اذا ضل في فلاة ، فيكفيه قلب قميصه ، والتصفيق بيديه كأنه يومىء بهما الى إنسان ، فيهتدي الى طريقه[2] .

ولكعب الأرنب أهمية كبيرة في معالجة مثل هذه الأمور عند الجاهليين ، إذ كانوا يعتقدون أن تعليقه ينفي « جنان الدار » و « عمار الحي » ، و « شيطان الحماطة » ، و « جار العشيرة » ، و « غول القفر » . و « الحماطة » شجرة شبيهة بالتين تأوي اليها الحيّات[3] . ولهذا صارت لها صلة بالجن .

وعادة أخذ الغلام للسن الساقط ووضعه اياه بين السبابة والإبهام واستقبال الشمس ، وقذف السن اليها ، لا تزال معروفة حتى الآن . وهم يقولون في ذلك : « أبدليني بسن أحسن منها ، ولتجر في ظلمها إياتك »[4] .

ولم يعدم الناس حيلة في ضمان عدم رجوع الثقلاء ومن لا يرغب في عودتهم ؛ فإن الثقيل إذا غادر المحل ، عمد صاحب البيت والمكان الى كسر شيء من الأواني أو رمي حجر خلفه ، وفي ذلك ضمان بألاّ يعود[5] .

وفي حركات الإنسان دليل ومعان تنبيء عن أشياء . فإذا اختلجت العين ، دل ذلك على توقع قدوم شخص غائب محبوب . أما إذا أريد وقف حركة العضو ، ففي الامكان ذلك . فإذا خدرت الرجل مثلا ، ذكر اسم من يحب ، فيذهب الخدر[6] .

وما ذكرته هنا هو في الواقع شيء قليل من كثير ، فليس هذا الفصل فصلاً في العادات

---

(١) بلوغ الأرب (٢/٣١٥) . (٢) بلوغ الأرب (٢/٣١٦) .

(٣) بلوغ الأرب (٢/٣٢٤) ، « شيطان حماط » ، قال الراجز وقد شبه المرأة بحية له عرف :

عنجرد تحلف حين أحلف كمثل شيطان الحماط أعرف

اللسان (٩/١٤٦) .

(٤) بلوغ الأرب (٢/٣١٨) . (٥) بلوغ الأرب (٢/٣٣٠) .

(٦) بلوغ الأرب (٢/٣٢٠ وما بعدها) .

وليس في الامكان تدوين كل تلك العادات وتحليلها ورَجْعها الى عناصرها وأصولها ، ومقارنتها بتمثيلاتها عند الشعوب السامية الأخرى ، فإن الحديث فى ذلك وحده يقتضي جملة مجلدات .

ولا تزال أكثر عادات الجاهليين في هذه الأمور باقية ، وإن تبدلت أسماؤها فى الأغلب ، فليس من السهل الإقلاع عن عادات موروثة من أجيال . ودراستها وجمعها والكتابة فيها ، من الأمور النافعة المفيدة للوقوف على هذه النواحي من الحياة العربية فى مختلف العصور .

الفصل العاشر

ديانات أهل الجاهلية قبيل الاسلام

الحديث في هذا الفصل ، هو عن ديانات أهل الجاهلية قبيل الإسلام ، وعن النزعات والآراء الدينية التي كانت عند بعض الجاهليين . أما الكلام عن اليهودية والنصرانية في جزيرة العرب ، فسيكون فى فصلين خاصين بهاتين الديانتين .

وأقصد بديانات أهل الجاهلية القريبين من الإسلام ، ما ورد فى القرآن الكريم وفى الحديث من إشارة الى المجوسية والصابئة والحنيفية واليهودية والنصرانية ، وما أورده المفسرون وشرّاح الحديث عنهم ، ثم ما ورد فى شعر الجاهليين ونثرهم من آراء وعقائد دينية ، وما جاء فى الأخبار من مصطلحات وقصص وروايات تفيـــد جملتها بوجود آراء دينية عند الجاهليين ومفكرين أنكروا على قومهم بعض دياناتهم ورأوا فيها ما يخالف المنطق والعقل .

وهذا العهد من أيام الجاهلية ، عهد خطير جداً ، لاتّصاله بالإسلام ، والإسلام حدث خطير كما نعلم ليس لجزيرة العرب وحدها ، بل لجميع العالم الإسلامي . وعلى دراسة هـذا العهد ودراسة الآراء الدينية فيه ، يتوقف حلّ مشكلات عديدة من تأريخ ظهور الاسلام . وأسباب ظهور البعث . ففي الأخبار التي يوردها الرواة عن هــذه الأيام يُذْكَرُ أناس كانت لهم آراء ومقالات فى الدين ، ولبعضهم اطلاع على اليهودية والنصرانية ، ولبعض آخر دعوة ورسالة فى الحث على الدخول فى ديانة من تلكما الديانتين ، كما كان بعض آخر حائراً لا يدري ماذا يفعل ، يرى ديانات قومه فلا تعجبه ، ثم يرى اليهودية والنصرانية بين طوائف من أبناء قومه فلا تعجبه

كذلك ، فيقف مفكراً حائراً بين هذه العقائد والآراء ، ومنهم من مزج بينها فأوجد خليطاً مركباً من الوثنية والتوحيد .

وقد رأينا نوعاً من الآراء الدينية تظهر فى اليمن ، تدعو الى عبادة إلـه أعلى واحد ، هو إلـه السماء والرحمان ، وهي آراء تتجسم فيها فكرة التوحيد ، فهي ثورة على الآلهة القديمة ، ظهرت بتأثير من العقيدة اليهودية خاصّةً فى التوحيد ، وبتأثير النصرانيه كذلك . ونجد مثل هذه الحركة الدينية فى أنحاء أخرى من جزيرة العرب ، تتحدث عن ذلك روايات أهل الأخبار .

ثم نجد من بين من كانوا يعيبون على قومهم عبادتهم ، أناساً طمعوا أن تكون النبوة فيهم لمّا سمعوا الرسول يبلّغ رسالته للناس ، أو أن يوافق فيشركهم فيها معه على الأقل . لقد جاء الرسول بدعوة وجاؤوا هم بدعوة ، فَلِمَ تكون النبوة اذن خاصة بالرسول ، ولا يكون لهم نصيب فيها ؟ وفى حركة التنبّؤ التي ظهرت فى أيام الرسول وبعد وفاته تأييد صريح لوجود مثل هذه الآراء عند بعض الجاهليين والمعاصرين للرسول .

وموضوع التنبّؤ والآراء الدينية قبيل الاسلام ، يحملنا على التنبيه على أن الآراء الدينية عند الجاهليين كانت ، ككل ناحية من نواحي حياتهم وحياة كل أمة ، عرضةً للتطور والتغير ، وأن الحالة التي كانت عليها قبيل البعث هي نتيجة تطور مستمر دام آلافاً من السنين ، قام به رجال من أهل الجاهلية إما بشعور ذاتي مبعثه عاطفة دينية وحس مرهف ، وإما بتأثير من الخارج ، وإما بواسطة أناس من المبشرين أو التجار أو السياسيين الذين وفدوا على جزيرة العرب فى أوقات مختلفة ، فاحتكوا بأهلها ، وأثّروا فيها ، وأدخلوا اليها آراءهم ومعتقداتهم ، فكان لكل ذلك أثر فى التطور الفكري للجاهليين .

ولم يخف على أهل الأخبار أثر الأيدي الدخيلة فى الحياة الدينية للجاهليين ، إذ نجد فى رواياتهم إشاراتٍ عديدةً الى ذلك . فالى بعض الأحبار نسب الأخباريون انتشار اليهودية فى اليمن ودخول بعض تبابعتها هذا الدين . والى « أفتيموس » نسبوا دخول النصرانية اليمنَ ، والى أثر الحيرة فى بعض أهل مكة من قريش عزوا دخول الزندقة وهي المجوسية الى مكة ، كما

أشاروا الى وجود نصارى من الروم لم يكونوا يتقنون العربية في مكة وفي نواحي عـديدة من جزيرة العرب . بعضهم أرسلهم القياصرة للتبشير ، ولم يكن ذلك التبشير تبشيراً خالصاً لوجه الله والدين ، إنما كان يخفي وراءه غايات سـياسية وتجارية هي أهم درجـة ومنزلة للقياصرة وللإنبراطورية ولا شك من الدين .

وتحملنا اشارتنا الى المتنبئين والتنبؤ قبيل الإسـلام على بحث وجود فكرة النبوة عنـد الجاهليين . فالمعروف عند الأكثرين أن النبوة أحتكار خاص ببني اسـرائيل ، وأن العرب لم تعرف لها نبياً قبل الرسول . ولـكن القرآن الـكريم يخالف هذا الرأي ، فـ « هود » نبي عربي أرسل الى قوم عرب من العرب العاربة ، جاءهم بلسانهم ، وحدثهم بلغتهم [1] . و « صـالح » نبي عربي آخر أرسل الى قوم عرب ، هم من العاربة الأولى كذلك ، هم قوم « ثمود » . والاشارة في القرآن الـكريم الى نبيين عربيين في مَعْرِض مخاطبـة الجاهليين ، فيها دلالة واضحة على أن نبوة هذين النبيين كانت معروفة عند بعض الجاهليين ، إذ لا يعقـل مخاطبتهم بشيء لا يعرفونه وهم في جهل من أمره . ثم أن الموضوع الذي ذكروا به ، موضوع يخص قوماً عرباً ، وهو ليس من قصص الأنبياء الوارد في التوراة أو الإنجيل حتى نقول إنه تذكير لهم بما ورد في الـكتاب المقدس من سير الرسل والأنبياء . حتى أن قدماء أهل الأخبار ممن كان يلجأ الى أهل الـكتاب للأخذ منهم ، في موضوع سير الرسل والأنبياء ، لشرح ما جاء عنهم مقتضباً في كتـاب الله ، لم يجدوا شيئاً ما عندهم ، لذلك أعتمدوا على القصص العربي وبعضـه قديم ، وأنتحلوا أشياء لسد الفراغ الذي شعروا به ، فأوردوه في قصصهم عن قوم عاد وثمود . ولم يوردوا شيئاً ولو كان حرفاً من هذه الأسماء الواردة عند العبرانيين .

وهناك رجل آخر لم يرد أسمه في القرآن الـكريم ، غير أنه كان نبيـاً في رأي كثير من أهل الأخبار ، هو : خالد بن سنان بن غيث العَبْسي ، زعموا أنه كان نبياً عاش في زمان الفترة ، أي بين أيام عيسى والنبي ، وأنه هو الذي دعا على العنقاء فذهبت وأنقطع نسلها ، وأن الرسـول قال

---

(1) Shorter Ency . of Islam, P. 140.

عنه : « ذاك نبي أضاعه قومه » [1] .

ثم نبي آخر أسمه حنظلة بن صَفْوان ، كان نبياً بعثه الله الى « أهل الرسّ » ، فكذبوه وقتلوه ، عاش فى أيام بختنصر ، وقد نسب الى حِمْير . وقيل إنه كان من أنبياء الفترة كذلك ، وإنه هو الذي دعا على العنقاء ، فانقطع نسلها [2] . فلم يعدم العرب إذن من الأنبياء ، وليست النبوة إذن حقاً خاصاً و مِلكاً خصصه الله ببني اسرائيل ، بل شاركهم أبناء عمهم فيه ، وبهم أختتمت النبوة بظهور « خاتم الأنبياء » .

وفى القرآن الكريم سورة تسمى « سورة لقمان » [3] ، وكان لقمان كما روى بعض المفسرين نبياً من أنبياء الله [4] ، وعند آخرين كان حكيماً صاحب أمثال ومواعظ لها صلة وثيقة بالدين ، وكان من « المعمرين » . وقصصه الذي رواه المفسرون وأصحاب سير الرسل والأنبياء ، قصص يدل جرحه وتعديله على أنه منتزع من قصص آخر قديم تعود أصوله الى ما قبل الإسلام . وإن جاء فى ثنايا روايات أهل الأخبار ما يفيد أن « وهب بن منبه » كان ممن أسهموا فى وضع قصص « لقمان الحكيم » ، وأنه قرأ « مَجَلّة لقمان » واستخرج منها ما شاء الله ، وأن لقمان كان فى الأصل عبداً حبشياً رزقه الله الحكمة والعقل وفصل الخطاب . وكان قاضياً على بني اسرائيل .

صحيح أن أكثر القصص الوارد عن لقمان ولا سيما المتأخر منه ، هو من صنع معامل عرفت بأخذ موادها من أهل الكتاب . غير أن من السهل التمييز بين الدخيل منه والعربي الأصيل القديم . فللقصص الجاهلي طابع مميز خاص ، يميزه عن القصص الاسرائيلي ، وفى أستطاعتنا ، أعتماداً على تحليل ما ورد الينا عن لقمان ، أن ندعي وجود عنصر جاهلي فيه ، وقد وردت فى الشعر الجاهلي إشارات اليه وردت فى شعر امرىء القيس و لَبيد والأعشى

---

(١) بلوغ الأرب (٢/٢٧٨ وما بعدها) .
(٢) اللسان (١٢/١٤٩) « عنق » ، تاج العروس (١/٤١٠) « غرب » .
(٣) رقم ٣١ .
(٤) تفسير الطبري (٢١/٤٣ وما بعدها) ، ارشاد الساري (٥/٤٠٣ وما بعدها) .

وطَرَفة [1] . وذكر لقمان فى هذا الشعر ، إن صح أنه شعر جاهلي أصيل ، يشير إلى معرفة الجاهليين بأمر هذا الرجل الذي يشبه ما نسب اليه من قول الحكم والأمثال ما نسبه غير العرب الى رجال آخرين من أمثاله من مثل « بلعام » و « إيسوب » .

ونسب الرجم الى « لقمان » ، فقيل : إنه أول من سن الرجم ، رجم زوجه لما خانته ، وقالوا : إنه أول من سن قطع يد السارق [2] ، وعلى سنته هذه سار الجاهليون على زعم أهل الأخبار .

وأمثال لقمان وقصصه فى الحكم والإرشاد معروفة مشهورة . وهي عند المسلمين ، مثل أمثال « إيسوب » عند الغربيين . ظهرت في الإسلام ، ولا يستبعد أن يكون الكثير منها قد دخل الى العربية عن طريق التعريب . وقد نشر المستشرق « ديرنبورك » إحدى وأربعين قصة صغيرة وضعت على ألسنة الحيوان والإنسان والنبات [3] ، وذكر بعد كل واحدة منها مغزاها والمراد منها ، وهي بعربية ركيكة ، يظهر أنها ترجمة ، ولا أستبعد كونها من المنبع الذي تكونت منه قصص « ألف ليلة وليلة » .

واذا كانت صلة لقمان غير وثيقة بموضوعنا هذا ، فإن أناساً آخرين لهم صلة حسنة به . ومن أشهر هؤلاء : عمرو بن لحي الذي ذكرته فى بحث الأصنام . وقد رأينا الأخباريين ينسبون اليه بدعة نشر عبادة الأصنام بين العرب ، وإبعادهم عن دين اسماعيل وابراهيم . أخذ بدعته هذه على ما ذكروه من أهل البلقاء بالشأم . ثم رأيناهم ينسبون اليه أموراً أخرى لبعضها صلة بالدين [4] . وسترد في كلامنا على الحنفاء أسماء أشخاص آخرين كان لهم أيضاً رأي فى دين وعقيدة ، وقد أثروا ولو أثراً جزئياً فى بني قومهم .

و « قُصَي » من هؤلاء النفر الذين كان لهم أثر في تطور العقيدة والدين فى الحجاز . وقد

---

(1) Shorter Ency. of Islam , P. 289.

(2) Shorter Ency. of Islam , P. 289.

(3) راجع : أمثال لقمان الحكيم : .Fables de Loqman le Sage
تحقيق : « ديرنبورك J. Derenbourg » « ١٨٥٠ » .

(4) ابن هشام (١/٨١) ، بلوغ الأرب (٢/٢٠٠ وما بعدها) .

أشرت الى ما سنه لقومه من أحكامٍ يذكر أهل الأخبار أنها صارت لهم قانوناً وشـريعة .
وكذلك « أبن أبي كبشه » : « جزء بن غالب بن عامر بن الحارث بن غَبْشان الخُزاعيّ » ، داعية عبادة « الشِّعْرَى العَبُور » [1] .

ثم الكهان ، فلم يكن الكهان كما أشرت سابقاً مجرد متنبئين ، اختصاصهم الرجم بالغيب ، والإخبار عن الأسرار والخوافي ، بل كانوا أكثر من ذلك بكثير . كانوا رجال دين أيضاً ، لهم آراء فيه ، وأثر في تطور الدين عند الجاهليين ، وفى توجيه الفكر . وقد أحدثوا في الدين أحداثاً كما يقول أهل الأخبار ، فهم فى ذلك كالأنبياء الصغار فى بني اسرائيل . يرون أن علمهم عن وحي وتنزيل ، فهو أمر وشريعة ، وعلى السامع أن يعمل به . وقد جرت أقوالهم في الناس مجرى الأحكام ، وعملت بموجبها . وكان أكثرهم قضاة بين النـاس ، يفقهون الناس فى أمور الدنيا والدين [2] .

وللكهان نمط معين ساروا عليه في عرض نبوءاتهم وحكمهم وأقوالهم للناس ، نمط لا هو شعر ولا هو نثر مرسل ، بل هو بين بين ، هو ما يقولون له « السجع » « سجع الكهان » ، وهو اسلوب البلاغة فى ذلك الزمان ، وأسلوب البلاغة في الإسلام الى عهد طويل . وهو أسلوب رجال الدين قروناً طويلة عند أهل الجاهلية قبل الإسلام ، ثم هو الأسلوب الذي نهجه « مُسَيْلَمَةُ الكذاب » فى وحيه المزعوم كما يتبين ذلك من الجمل القليلة الباقية المنسوبة اليه . ولهذا كان فى جملة ما طعن به المشركون على الرسول أنه كاهن ، وأن كلامه هو من نوع كلام الكهان . فنزل الوحي بردهم فى هذه الآية : « إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعرٍ ، قليلاً ما تؤمنون . ولا بقول كاهن ، قليلاً ما تذكَّرون . تنزيلٌ من ربِّ العالمين » [3] . وفى الآية الأخرى : « فذكِّرْ ، فما أنت بنعمة ربّك بكاهنٍ ولا مجنون » [4] .

وهناك مصطلحات لها معان دينية خاصة ، وردت في القرآن الكريم أو في شـعر أهل الجاهلية ونثرهم ، يدل ورودها فيها على معرفة الجاهليين بها واستعمالهم لها ، منها : « المجوس » ،

---

(1) تاج العروس (٣٤١/٤) .
(2) صبح الأعشى (٣٩٨/١) .
(3) الحاقة : الآية ٤٠ وما بعدها .
(4) الطور : الآية ٢٩ .

وهي من الـكلمات التي وردت في القرآن الـكريم : « إنّ الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ، إن الله يفصل بينهم يوم القيامة ، إن الله على كل شيء شهيد » [١] . وكلمة مجوس ، من الـكلمات المعربة [٢] ، عربت عن لفظة « مجوس » اليونانية المأخوذة من أصل فارسي قـديم هو « مـكوش Magush » . دخلت العربية إما من اليونانية وإما بواسـطة « بني إرم » [٣] . و « مجوس » مثل « يهود » ، اسم جمع . أما المفرد ، فهو « مجوسي » .

والأخبار عن تمجس العرب قليلة جداً ، حتى عن تمجس بعض تميم . أما بشأن وجود مجوس فى جزيرة العرب ، ووقوف العرب على تلك الديانة ، فتلك قضية ثابتة لا تحتاج الى دليل . وفى ذكرها فى القرآن الـكريم دليل كاف على معرفة أهل الحجاز بها ، ووقوفهم عليها . وكيف لا يكون لهم علم بها ووقوف عليها ، وقد كان لأهل مكة اتصال وثيق بالحيرة ، كما كان لأهل الحجاز اتصـال باليمن ؟ وقد دخل اليمن مجوس لطرد الحبشة منها ، ومساعدة أهلهـا على إخراج الحبش عن بلادهم ، ثم إنه كان فى حضرموت وفى العربية الشرقية أناس منهم أقاموا هناك . وقد أشير الى وجودهم في أخبار الفتوح [٤] ، حيث دفع الجزية من أبى منهم الدخول فى الاسـلام ؛ والظاهر أن هؤلاء كانوا مقيمين فيها من أمد طويل بدليل ورود جملة فى بعض الروايات تفيد ذلك ، هى : « وأسلم معها جميع العرب هناك وبعض العجم . فأما أهل الأرض من المجوس واليهود والنصارى ، فإنهم صالحوا العلاء » [٥] .

ويريد الأخباريون بالمجوسية عبادةَ النار . وإذا صح ما ورد فى شطر بيت منسـوب الى الشاعر الجاهلي « التوأم اليشكريّ » المعاصر لأمرىء القيس ، هو : « كنـار مجوسَ تستعر استعاراً » [٦] ، فإن فيه دلالةً على أن هذا الشاعر هو وأمرؤ القيس كانا على علم بنار المجوس ،

---

(١) الحج : الآية ١٧ . (٢) اللسان (٨/٩٨ وما بعدها) ، المعرب (ص ٣٢٠) .
(٣) Shorter Ency. of Islam , P. 98. ff. Ency. , III , P. P. 97
(٤) عمدة القاريء (١٥/٧٨ وما بعدها) . (٥) البلدان (٢/٧٤) .
(٦) اللسان (٨/٩٨) .

وأنها كانت تستعر دائماً ، وربما كانا على علم ببعض تعاليمها أيضاً . ولا يستبعد أن يكون ذلك صحيحاً ، فقد ذكر الأخباريون أن أشتاتاً من العرب عبدت النار ، سرى اليها ذلك من الفرس المجوس [1] . ومن هؤلاء قوم من تميم ، ذكروا منهم زُرارة بن عدس التميمي وأبنه حاجب بن زرارة ، ومنهم الأقرع بن حابس وأبو الأسود جدّ وكيع بن حسّان [2] .

ولا أستبعد أن يكون مراد بعض الأخباريين من « الزندقة » التي أشاروا الى وجودها بين قريش ، أخذوها ، على حد قولهم ، من الحيرة [3] ، المجوسية . فقد كان في الحيرة جماعة من الفرس هم مجوس . وقد كان لقريش وتجار مكة اتصال دائم بالحيرة ، لهم معها روابط وتجارات . فلا يستبعد أن يكون بعضهم قد تذوّق تلك الديانه فدخل فيها وتمجس . ولا أستبعد أيضاً وجود جالية من المجوس في مكة ، فقد كان الفرس كاليونان يتاجرون مع العرب ، ويرحلون مع القوافل اليهم ، ويمثلون حكومتهم عند الملوك والأمراء وسادات القبائل ، فأقام نفر منهم لهذه الأسباب هناك .

أما إذا كان « الزنديق » هو القائل ببقاء الدهر ، وبعدم وجود عالم ثان بعد الموت كما ذهب الى ذلك أهل الأخبار وعلماء اللغة ، فتكون الزندقة « الدهرية » ، ويكون الزنديق هو « الدهري » لقوله بالدهر [4] .

وقد أشير في القرآن الكريم الى وجود القائلين بالدهر : « وقالوا ما هي إلاّ حياتنا الدنيا ، نموت ونحيا ، وما يهلكنا إلاّ الدهر » [5] . وهم ، على حد قول المفسرين والأخباريين ، مَنْ لا يؤمن بالآخرة وبوحدانية الله . وهو مذهب ودين كان عليه كثير من أهل الجاهلية ، يسخر من البعث بعد الموت ، ويرى أستحالة ذلك . فإذا كان هذا هو المراد من « الزندقة » ، فإن

---

(١) بلوغ الأرب (٢/٢٣٣) .

(٢) المعارف (ص ٢٦٦) « تحقيق الصاوي » ، « والمزدكية والمجوسية في تميم » البدء والتأريخ (٤/٣١) .

(٣) « وكانت الزندقة والتعطيل في قريش » ، البدء والتأريخ (٤/٣١) ، بلوغ الأرب (٢/٢٢٨) .

(٤) المعرب (ص ١٦٦ وما بعدها) ، اللسان (١٢/١٢) .

(٥) الجاثية (٢٤) .

الزندقة لا تعني إذن المجوسية ، إنما تعني القائلين بالدهر .

والزندقة كلمة معربة ، أخذت من الساسانية ، أريد بها فى الأصل الخارجون والمنشقّون على تعاليم « مزدك » ، فهي تعني ما يقال له « هرطقة » . وقد صار لها فى العهد العباسي مدلول خاص حيث قصد بها « الموالي الحمر »[1] الذين تجمعوا فى الكوفة ، وكانوا يظهرون الإسلام ويبطنون تعاليم المجوسية والإلحاد[2] .

وهي من الكلمات التي عرفت فى الإسلام ، فما ذكره أهل الأخبار عن زندقة جماعة من قريش ، لا يعني أن تلك الجماعة كانت قد عرفت بتلك التسمية فى ذلك الحين ، وأنها كانت سمة لها ميزتها عن بقية شيع الجاهليين ، إنما هي تسمية أرى أنها أستحدثت فى الإسلام للتعبير عن الجماعة التي لم تكن تؤمن بشيء من وجود الله والبعث ، وإنما كل أعتقادها بالفناء والهلاك بعد الموت ؛ أو أنهم قصدوا بهم كما قلت آنفاً المجوس ، وكثيراً ما كان المسلمون يقصدون بالزندقة وبالزنادقة الشعوبيين الذين كانوا مجوساً أو من أصل مجوسى فأسلموا ، وكانوا يبطنون غير ما يعلنون ، ولم يكن من الهيّن عليهم ترك عقائدهم التي ورثوها من آبائهم وأجدادهم لو لا الطمع فى الجاه والتقدم والسلطان .

وللنار عند العرب شأن يحملنا على القول بأنه كان للجاهليين أو لبعضهم على الأقل رأي ديني فيها ، أو أنهم كانوا يرون أن فيها قدرة وإدراكاً . فقد تحدث الأخباريون عن نار دعوها « نار التحالف » و « نار الهول » ، قالوا إنها إنما دعيت بذلك ؛ لأن أهل الجاهلية كانوا إذا اختصموا فى شيء ، وأتفقوا على اليمين ، حلفوا على النار . ولهذا قيل لها « نار التحالف » ، وألقوا عليها ملحاً وكبريتاً ، وعندئذ يقول صاحب النار للحالف : « هذه النار تهددتك » ، فإن كان مبطلاً نكل ، وإن كان بريئاً حلف ، ولذلك قيل لها « نار الهول » . وذكروا أيضاً أن هذه النار كانت معروفة فى اليمن ، مستمرة دائماً ، ولها سدنة يقومون بأخذ اليمين ، ويسمون تلك

---

(١) « والحمراء العجم ، لبياضهم ، ولأن الشقرة أغلب الألوان عليهم » اللسان (٥/٢٨٨) « حمر » .

(٢) Shorter Ency. of Islam . P. 659 , Muh. Stud . , I. S. 150.

النار الـ « هولة » و « المهولة » [1] . ويفهم من هـذا الوصف لهذه النار أن الموضوع لم يكن مجرد حلف ويمين ، إنما هو رأي وعقيدة ، وأن الذين كانوا يحلفون بها كانوا يعتقدون بوجود قدرة فى هذه النار ، وأنها تميز بين الأشياء وتعرف الحق من الباطل ، ولهذا هابها أهل الباطل ، فلم يحلفوا بها زوراً ، لاعتقادهم بفتكها فيمن يحلف بها كذباً . ولو لم تكن هذه العقيدة لديهم ، لحلف بها كل إنسان .

ثم إن « نار الاستمطار » لم تكن ، فيما أرى ، مجرد تشبيه للنار التي يسعرونها فى أذناب البقر وعراقيبها بالبرق ، لينزل الغيث . والبرق فى نظر العرب منزل للغيث . إنما القضية شيء آخر له صلة بعقيدتهم فى النار . فإسعارهم النار ، وإصعادهم البقر الى الجبل الوعر ، له صلة فى ظني بأصل قديم له نسب وسبب بعقيـــدة قدماء الجاهليين فى النار . ولا بد أن يكون لحرارة أشعة الشمس ، وللظى النيران أثر فى جزيرة العرب ، جعل بعضهم يتقرب اليها بالعبادة ، لأثرها هنا فى الأرض وفى الحيوان والإنسان .

وللجاهليين استعمالات أخرى للنار ، فكانوا إذا خافوا شرّ رجل ، وتحوّل عنهم أوقـدوا خلفه ناراً ، ليتحوّل شرّهم معه [2] . ولا بد أن يكون لهذا الاعتقاد أسطورة عنـــد قدماء الجاهليين .

ولا بد أن يكون للنار الموقدة على المزدلفة صلة ما بعقائد الجاهليين القديمة فى النار . وينسب الأخباريون هـذه النار الى « قُصَيّ بن كِلاب » ، يقولون إنه أوقدها على المزدلفة حتى يراها من دفع من عَرَفة [3] .

وهناك نيران أخرى ، قد تكون لها صلة برأي بعض قدماء الجاهليين فى النار . منها « نار الغدر » ، وتوقـــد بمنى أيّام الحج على أحد « الأخشبَيْن » جبَلَيْ مكة : أبي قُبَيْس وقُعَيْقِعان ، أوأبو قبيس والأحمر . فإذا استعرت ، صاح مُوقِدُها : هـــذه غدرة فلان ، ليحذره الناس ، وليعلموا أن فلاناً قد غـدر بجاره [4] والغدر من أقبح الرذائل عند العرب ،

---

(١) اللسان (٧/١٠٢) ، بلوغ الأرب (٢/١٦٢ ، ١٦٦) .

(٢) اللسان (٧/١٠٢) .

(٣) صبح الأعشى (١/٤٠٩) .

(٤) بلوغ الأرب (٢/١٦٢) .

يكسب صاحبه الذل والعار والاسم القبيح ، وهو من المنكرات ، فكأنه عندهم من الإثم في الدين .

وأما « نار السلامة » ، فهي التي توقد للقادم من سفر سالماً غانماً . أما إذا أرادوا الدعاء على شخص ثقيل بألاّ يرجع اليهم ، فإن النار التي يوقدونها لذلك يسمونها « نار الطرد » ، يوقدونها ويقولون : « أبعده الله وأسحقه ، وأوقد ناراً في أثره » . و « نار السليم » هي النار التي توقد للملدوغ وللمجروح ولمن ضرب بالسياط ولمن عضه الكلب الكَلِبُ ، ويقولون إنها إنما توقد لكي لا يناموا ، فيشتد بهم الأمر ويؤدي الى الهلاك [1] .

كذلك تفهم عبادة بعض العرب للنار من القصة التي ذكروها عن « خالد بن سنان العَبْسيّ » ، النبي العربي الذي منحه بعضهم في الإسلام جملة : « عليه السلام » بأعتبار أنه من أنبياء الله ؛ إذ ذكروا أن ناراً ظهرت « بالبادية بين مكة والمدينة في الفترة ، فسمتها العرب بدا ، وكادت طائفة منهم أن تعبدها مضاهاةً للمجوس . فقام خالد هذا ، فأخذ عصاه ، واقتحم النار يضربها بعصاه ، حتى أطفأها الله تعالى . ثم قال : إني ميت ، فإذا أنا متّ ، وحال الحول ، فارصدوا قبري . فإذا رأيتم حماراً عند قبري ، فارموه واقتلوه ، وانبشوا قبري ، فإني أحدثكم بكل ما هو كائن . فمات . فلما حال الحول ، رأوا الحمار فقتلوه ، وأرادوا نبشه ، فمنعهم أولاده ، وقالوا : لا نُسمّى بني المنبوش » [2] .

أما عبادة النجوم والكواكب ، فقد تحدثت عنها سابقاً ، ويرى بعض المستشرقين أن عبادة العرب القديمة هي عبادة كواكب . وقد رأينا أن بعضهم رَجّعَ آلهة العرب الجنوبيين الى ثالوث ، هو : القمر ، والشمس ، والزُّهَرَةُ . ورجع أسماء الآلهة المختلفة الى هذا الثالوث . وذكرت أن بعض الأخباريين أورد شعراً نعتت فيه « الشمس » بالإلهة . فلا غرابة إذن أن نجد بعض الجاهليين يلتمسون الخير من الكواكب والنجوم .

---

(١) راجع بقية انواع نيران العرب في صبح الأعشى (١/٤٠٩) ، بلوغ الأرب (٢/١٦١ وما بعدها) .

(٢) محاضرة الأبرار (١/٧٧) .

وفى كتب الأخباريين أن طائفة من تميم عبدت « الدَّبَران » ، وأن « العَيُّوق » فى زعمهم « عاقَ الدَّبَران لمّا ساق الى الثُرَيّا مهراً ، وهى نجوم صغار نحو عشرين نجماً ، فهو يتبعها أبداً خاطباً لها ، ولذلك سموا هذه النجوم القلاص »[1] .

وفى كتبهم أيضاً أن بعض قبائل لخم وخزاعة وقريش عبدوا « الشعرى العبور » ، وأن أول من سنّ ذلك لهم ، وأدخل تلك العبادة اليهم ، « أبو كبشة » . وهو « جزء بن غالب بن عامر بن الحرث بن غبشان الخزاعي جدّ وهب بن عبد مناف » أبو « آمنة » أم النبي . فهو على هذا الوصف ليس ببعيد عهد عن أيام الرسول . ويقولون : إن الرسول لمّا نزل عليه الوحي ، وخالف قريشاً فى عقائدها ، قالوا له : « ابن أبي كبشة » ، لمخالفته لهم مخالفة « أبي كبشة » لهم فى عبادة آلهتهم . وأن « الشعرى » هي المقصودة فى الآية : « وإنه هو رب الشِّعْرَى »[2] . ذكرت فى القرآن الكريم إشارة الى عبادة أولئك لها[3] .

ويذكرون أن بعض طيء عبدوا « الثريا » ، وبعض قبائل ربيعة عبدوا « المرزم » ، وأن « كنانة » عبدت القمر[4] .

وقد أشير فى القرآن الكريم الى « الصابئة »[5] . والصابئة ، على ما يذكره أهل التفسير ، صنفان : صابئة حنفاء ، وصابئة مشركون . والمشركون منهم هم عبدة الكواكب ، ولهم هياكل هي بالنسبة لهم كالبِيَع بالنسبة لليهود والكنائس بالنسبة للنصارى . وقد ذكروا أنهم إنما دعوا صابئة لخروجهم على دينهم ، ومحاولتهم أخذ ما يروقهم من كل دين . ويستشهدون على ذلك بما ورد فى الأخبار من أن قريشاً دعت النبيّ وصحابته « الصباة » ؛ لأنهم خرجوا من

---

(١) بلوغ الأرب (٢/٢٣٩) .

(٢) النجم الآية ٤٩ .

(٣) « كان ناس في الجاهلية يعبدون هذا النجم الذي يقال له الشعرى ..... والشعرى النجم الوقاد الذي يتبع الجوزاء يقال له المرزم .. » ، تفسير الطبري (٢٧/٤٥ وما بعدها) ، بلوغ الأرب (٢/٢٣٩) ، تاج العروس (٤/٣٤١) .

(٤) بلوغ الأرب (٢/٢٤٠) ، « المرزم » ، تاج العروس (٨/٣١١) .

(٥) المائدة ٦٩ ، البقرة ٦٢ ، الحج ١٧ .

دين الى دين ، وأنها دعت الرسول « الصابئ » ؛ لأنه خرج من دينهم ودعت من دخل فى الإسلام « مصبو » ، وأن بني جذيمة كانوا يقولون لمّا أسلموا : صبأنا صبأنا [١] .

ولكن الذي يفهم من القرآن الكريم أن الصابئة جماعة كانت على دين خاص ، وأنها طائفة مثل اليهود والنصارى ، أي أن الكلمة مصطلح ولها مدلول معين مفهوم . فما ذهب اليه المفسرون من هذا التعريف للصابئة ومن هذا التقسيم ، إنما تكوّن عندهم فى الإسلام ، بعد وقوفهم على أحوال الصابئة واتصالهم بهم ، وفرق بين هؤلاء الصابئة والصابئة الذين قصدهم القرآن الكريم .

وقد جاء ابن النديم فى « الفن الثاني من المقالة الأولى » ، وهو الفصل الذي عقده فى أسماء كتب الشرائع ، بجمل أقتبسها من كتاب قديم ، ورد فيها : « قال أحمد بن عبد الله بن سلام مولى أمير المؤمنين هارون . . . . ترجمت هذا الكتاب من كتاب الحنفاء ، وهم الصابيون الإبراهيمية الذين آمنوا بإبراهيم عليه السلام وحملوا عنه الصحف التي أنزلها الله عليه . وهو كتاب فيه طول ، إلاّ أني أختصرت منه ما لا بد منه ، ليعرف به سبب ما ذكرت من أختلافهم وتفرقهم » [٢] . ويفهم من كلام هذا المترجم أن الذي كان معروفاً عنده ، وربما عند العلماء فى أيامه ، أن المراد من الحنفاء الصابئين . ولكن الصابئين فى عرف أهل الجاهلية والمخضرمين هم غير هؤلاء الصابئين الذين يقصدهم علماء الكلام .

وقد تحدثت فى فصل سابق من هذا الجزء عن جماعة لم ترض عن أديان قومها ، ولم يعجبها ما كان عليه قومهم من عبادة للأصنام . وهم قوم يطلق عليهم أهل الأخبار « الأحناف » ، قالوا : إنهم كانوا على دين ، غير أن دينهم لم يكن دين أهل الجاهلية أي الوثنية ، ولم يكن على اليهودية ولا النصرانية . إذن فأيّ دين كان ؟ وقد أوردوا لبعضهم مقالة ورأياً دوّنوه . غير أن أكثر ما ذكروه وما دوّنوه عنهم ، هو من ذلك النوع الّذي يشكّ فيه . فليس يصح لمؤرخ

---

(١) النهاية (٢/٢٩٦) « صبأ » ، بلوغ الأرب (٢/٢٢٥) ، تاج العروس (١٠/٢٠٧) ، اللسان (١٩/١٨٢) .

(٢) الفهرست (ص ٣٢) ، Sprenger, Leben, I. S. 46.

أن يجعله أساساً يبني حكماً ورأياً عليه .

والرجال الذين قالوا عنهم إنهم كانوا على دين ، وكانوا من هـــذه الطبقة ، هم : قُسّ بن ساعدة الإيادي ، وزيد بن عمرو بن نُفَيل ، وأمَيّة بن أبي الصَّلْت ، وأرباب بن رئاب ، وسُوَيْد بن عامر المصطلقي ، وأسعد أبو كرب الحميري ، ووكيع بن سلمة بن زهير الإيادي ، وعمير بن جندب الجُهَنِيّ ، وعَدِيّ بن زيد العبادي ، وأبو قيس صرمة بن أبي أنس ، وسيف بن ذي يزن ، وورقة بن نوفل القرشي ، وعامر بن الظَّرب العَدْواني ، وعبد الطابخة ابن ثعلب بن وبرة بن قضاعة ، وعلاف بن شهاب التميمي ، والتلمّس بن أميّة الكناني ، وزُهَير بن أبي سُلْمَى ، وخالد بن سنان بن غيث العَبْسِيّ ، وعبد الله القُضاعيّ ، وعَبيد بن الأبرص الأسدي ، وكعب بن لُؤيّ بن غالب .

وقبل أن ندخل فى بحث كل واحـــد من هؤلاء الأحناف والاشارة الى مبادئهم والى « كلمات ابراهيم » وسنته التي سنها للعرب من أولاده ، أودّ أن أبين أن كلمة « الأحناف » لا تعني جماعة معينة وديناً خاصاً على نحو ما يفهم من اليهودية والنصرانية والإسلام ، أي إنها أسم علم ، إنما هي صفة أطلقت على من عرف بنبذه الشرك وبميله الى التوحيـد ، كما هو واضح من أستعمال كلمة « حَنيفاً » و « حنفاء » فى القرآن الكريم[1] . ولو كانت ديانة خاصة على النحو المفهوم من الديانات فى عرف الجاهليين ، لذكرت فى جملة الديانات التي أشير اليها فى كتاب الله بذكر الأسماء .

وأكثر هؤلاء الرجال المذكورين ، هم ممن عاش قبيل أيام الرسول ، وفيهم من أدركه وشهد مبعثه . وفيهم شعراء لهم شعر رواه الأخباريون ، وان كان لأكثر المذكورين أبيات زعم أنها لهم ، وأن الناس حفظوها ورووهـا عنهم ، وأنهم توارثوا رواية ذلك الشعر ، حتى وصل الى أيام التدوين ، فدوّن . وفيهم من نصّ أهل الأخبار على تنصّره ، فهو إذن ليس من هـذه

---

(١) البقرة الآية ١٣٥ ، آل عمران الآية ٦٧ ، النساء الآية ١٢٥ ، الأنعام الآية ٧٩ ، ١٦١ ، يونس الآية ١٠٥ ، النحل الآية ١٢٠ ، ١٢٣ ، الروم الآية ٣٠ ، الحج الآية ٣١ ، البينة الآية ٥ .

الطبقة طبقة الأحناف ، ويجب اذن إخراجه منهم ، مثل عدي بن زيد وأرباب بن رئاب .
وفيهم من أختلط أمره على الأخباريين ، فرفعوه فى الزمان قروناً ، وأعطوه من السنين فى الحياة ما يطمع فيه كل إنسان فجعلوا أعمارهم مئين سنين . ونسبوا اليهم التنبّؤ والتكهّن بمجيء الرسول وبمبعثه وما شاكل ذلك من أقاصيص يجب ألّا يعبأ بها ، فليس الوحي بحاجة الى من يثبته من الماضين ، وما كان أولئك رسل الله ولا ملائكته حتى يقولوا للناس هذا القول ، وحتى يعلموا ما كان وما سيكون .

ومهما كان شأن أولئك الأشخاص من الحقيقة أو الخيال ، فإننا نريد أن نتحدث عن كل واحد منهم بقدر ما وصل الى علمنا من أخبار عنهم ، لنرى ما كانوا يرونه ويعتقدونه . وهل كانوا جميعاً على رأي واحد وعقيدة واحدة ، أو كان كل واحد منهم على رأي لم تكن بينه وبين آراء الآخرين رابطة ولا صلة ولا وحدة فى رأي ولا دين .

فأما قُسّ بن ساعدة الإيادي [1] ، فقد رفعه الأخباريون من مصاف أسوياء البشر ، ووضعوه فى صف المعمرين الذين عاشوا مئين من السنين قيل سبع مئة سنة ، وقيل ست مئة سنة ، أو أقل من ذلك بكثير ، غير أنه لا يقل عن ثلاثمئة سنة على كل حال .

وأما مولده ، فمجهول . وأما وفاته ، فيكاد يحصل الاتفاق على أنه كان قبيل البعثة . وقد ورد فى رواية أن الرسول أدركه ورآه يخطب فى سوق عكاظ خطبته الشهيرة المعروفة ، غير أنه لم يحفظها ؛ وأن أبا بكر ، وكان من جملة من حضر السوق وسمع الخطبة ، كان قد حفظها ، فأعادها على الرسول . وهي الخطبة الشهيرة المتداولة بين الناس والمحفوظة فى الكتب [2] .

---

(١) وقيل : قس بن ساعدة بن حذافة بن زفر ، وقيل : حذافة بن زهر بن إياد بن نزار . وقيل : قس بن ساعدة بن عمرو بن عدي بن مالك بن ايدعان بن النمر الخ ... وقيل : هو ابن ساعدة بن عمرو بن شمر بن عدي بن مالك ، وهكذا . بلوغ الأرب (٢/٢٤٦) ، البيان والتبيين (١/٥٠) « طبعة السندوبى » « ١٩٢٦ » ، شعراء النصرانية (٢/٢١١) .

(٢) الإصابة (٥/٢٨٥) « قس » ، « وقدم وفد بكر بن وائل على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال له رجل منهم : هل تعرف قس بن ساعدة ؟ فقال رسول الله : ليس هو منكم . هذا رجل من إياد ، تحنف في الجاهلية ، فوافى عكاظ والناس مجتمعون ، فيكلمهم بكلامه الذي حفظ عنه » ، طبقات ابن=

وأوصل بعض الأخباريين قساً الى القيصر ، فزعموا أنه ذهب اليه واتصل به ، وأن القيصر أكرمه وعظمه ؛ وأنه سأله عن العلم قائلاً له : ما أفضلُ العلم ؟ قال : معرفة الرجل بنفسه . قال : فما أفضل العقل ؟ قال : وقوف المرء عند علمه . قال : فما أفضل الأدب ؟ قال : استبقاء الرجل ماء وجهه . قال : فما أفضل المروءة ؟ قال : قلة رغبة المرء فى اخلاف وعده . قال : فما أفضلُ المال ؟ قال : ما قُضِيَ به الحق [1] . وهو كلام ينبئك أسلوبه وطبيعته عن أصله وفصله ، وله أصل يرجع الى الفلاسفة اليونان . ونسبوا له قبراً جعلوه فى موضع « رَوْحين » على مقربة من حلب فى لحف جبل ينذر له [2] .

وقُسّ هو مخترع أوجد للعرب أشياء عديدة على زعم أهل الأخبار ، أحدث لهم أموراً كثيرة . فهو أول من آمن بالبعث من أهل الجاهلية ، وأول من توكأ على سيف أو عصا ، وأول من علا على شرف وخطب عليه ، وأول من قال « أمّا بَعْدُ » ، وأول من كتب « الى فلان بن فلان » [3] . وأول من قال : « البينة على من ادعى واليمين على من أنكر » ، فكل ما عرفه العرب من هذه الأمور ، هو من صنعة قس وعمله . ثم إنه كان أحد حكماء العرب ، وكان أسقفّ نجران [4] ، وخطيب العرب كافة . وذكروا أن له ولقومه فضيلة ليست لأحد من العرب ؛ لأن الرسول روى كلامه وموقفه على جمله بعكاظ وموعظته ، وعجب من حسن كلامه ، وأظهر تصويبه [5] ، وأنه قال فيه : « يحشر أمة وحده » [6] .

ولو صح ما ذكروه من أنه كان أسقفاً على نجران ، لوجب اخراجه اذن من الحنيفية وادخاله فى عداد النصارى . ولكن ليس من المؤكد أنه كان أسقفاً على ذلك الموضع ، ويرى الأب

= سعد : الجزء الأول : القسم الثاني (ص ٥٥) « وفد بكر بن وائل » ، محاضرة الأبرار (ص ٤٨ وما بعدها) .

(١) شعراء النصرانية (٢/٢١١) . (٢) شعراء النصرانية (٢/٢١٦) .

(٣) بلوغ الأرب (٢/٢٤٦) ، المؤتلف والمختلف للمرزباني (٣٣٨) .

(٤) اللسان (٨/٥٨) ، شعراء النصرانية (٢/٢١١) .

(٥) بلوغ الأرب (٢/٢٤٦) . (٦) الأغاني (١٤/٤٠) .

« لامانس » أحتمال كونه نصرانياً ؛ لأن ما نسب اليه يبعث على هذا الظن[1] !

وقد أدخل الأب « لويس شيخو » قساً في جملة النصارى الجاهليين ، وأورد أكثر ما نسب اليه في ترجمته[2] . غير أن كثيراً من هذا المنسوب اليه منسوب الى غيره . وقد أشار الى من نسب اليهم العلماء .

وذهب « شبرنكر » الى أن قساً كان من « الركوسية » ، وهم فرقة عرّفهم أهل اللغة بأنهم بين النصارى والصابئين[3] ، شملت جماعة من الحائرين فى أمر دينهم ، ولذلك عمدوا الى السياحة والترهب والانزواء . وقد حسبهم العرب نصارى ، فأدخلوهم فيهم فى أثناء كلامهم على هؤلاء[4] .

ويرى « لامانس » أنه لوكان قس شخصية تأريخية حقاً ، فإن زمانه لا يمكن أن يكون فى أيام الرسول أو في أيام مقاربة من أيامه . إذ لا يعقل عنده أن يتكون هذا القصص الذي صير قساً شخصية من الشخصيات الخرافية ، لوكان من المعاصرين أو المقاربين له . ثم إنّ إياداً لم تكن فى أيام الرسول كتلة واحدة ، حتى ينسب قس اليها . فلا بد اذن أن تكون أيام هذا الرجل بعيدة بعض البعد عن أيام الرسول[5] .

غير أن حجج لامانس المذكورة لا يمكن أن تكون سنداً يؤيد أدّعاءه فى أن قساً كان شخصية خرافية ، أو أنه كان رجلاً حقاً ، ولكنه كان بعيد العهد عن الرسول . فقد روى الأخباريون قصصاً كثيراً عن سلمان الفارسي وعن غير سلمان من الصحابة ، لا يقل نسيجاً عن نسيج قصص قسّ ، فهل يتخذ هذا القصص حجة لإنكار شخصيّة سلمان وغيره ممن ورد هذا القصص عنهم ؟ وهل يجوز أن نقول إن سلمان إن كان شخصاً حقاً فوجب أن تكون أيامه بعيدةً عن أيام الرسول .

ولدى الرواة أبيات ينسبونها الى بعض الشعراء الجاهليين ، هم الأعشى والحطيأة ، ولبيد ،

---

(١) Ency., II, P. 1161, Sprenget, Leben, I, S. 45

(٢) شعراء النصرانية (٢/٢١١ وما بعدها) .

(٣) تاج العروس (٤/١٦٣) . (٤) Sprenger, Leben, I, S. 43.

(٥) Ency., II, P. 1161.

ذكر فيها اسم قُسّ . وقد أشيد فيها بفصاحته وببلاغته وحكمته ، وجعل لبيدٌ لقمانَ دون قُسّ في الحكم [1] .

وورود اسم « قُسّ » فى هذا الشعر وفى أمثاله إن صح أنه من شعر الجاهليين حقاً ، وورود اسمه فى الحديث وفى الأخبار ، هو تعبير عن رأي أهل الجاهلية فى خطيب مفوه عدّ في نظرهم المثل الأعلى فى الخطابة وممثل البلاغة عندهم فهو كشيوخ الخطباء عند اللاتين .

والواقع أن جميع هذا القصص المروي عن قُسّ ، هو من النوع الذي يحتاج الى تمحيص . وقد نسبوا إليه شعراً ، ذكرو أنه قاله وهو يبكي بين قبرين بنى بينهما مسجداً ، هما قبرا أخويه ، على حين أن أكثر الرواة يقولون إن هذا الشعر لغيره ، وان قصة القبرين لا تخص قساً ، بل تخص أناساً آخرين ، وقد كانا فى ايران وأصحابهما قبرا فيهما فى الإسلام . ورواة هذا الخبر ، هم رواة خطبة قُس الشهيرة ، وهم محمد بن السائب الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس [2] وجماعة آخرون أشار « ابن حجر » الى بعضهم في كتابه « الإصابة فى تمييز الصحابة » ، وقد ضعف « ابن حجر » هذه الطرق فقال : « وقد أفرد بعض الرواة طريق حديث قس ، وفيه شعره وخطبته ، وهو فى الطوالات للطبراني وغيرها . وطرقه كلها ضعيفة » [3] ثم عرج بعد ذلك الى ذكر بعض الطرق التي وردت فيها خطبة قس .

---

(١) قال لبيد :

وأخلف قساً ليتني ولعلني ... وأعيا على لقمان حكم التدبر

الإصابة (٥/٢٨٥) « قس » ، قال الأعشى :

وأحلم من قس وأجرى من الذي ... بذي الغيل من خفان أصبح حارداً

وفي رواية أخرى :

وأحلم من قيس وأجرء مقدماً ... لدى الدرع من ليث إذا راح حاردا

ديوان الأعشى (ص ٤٩) « تحقيق R. Geyer »

المؤتلف والمختلف (ص ٣٣٨) ، وقال الحطيأة :

وأقول من قس وأمضى إذا مضى ... من الرمح إذ مس النفوس نكالها

المؤتلف والمختلف (ص ٣٣٨) .

(٢) الأغاني (١٤/٤٠ وما بعدها) .

(٣) الإصابة (٥/٢٨٦) .

وأما « زيد بن عمرو بن نُفَيْل بن عبد العُزّى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح ابن عدي بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر » ، فهو من قريش من بني عَدِيّ ، لم تعجبه عبادة قومه ، فأنتقدها وسخفها وهزأ منها ووقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية ، وفارق دين قومه ، فاعتزل الأوثان ، ونهى عن قتل الموؤدة ، وأمتنع من الذبح للأنصاب ومن أكل الميتة والدم وما ذبح للأصنام . فكان في آرائه هذه مثل نفر آخر من قريش منهم : ورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث وعبيد الله بن جحش ، لاموا قومهم على عبادتهم الأصنام ، وأتخاذ الأنصاب وعبادة ما لا يضرّ ولا ينفع [1] . وهم طائفة من المفكرين ، رأى بعضهم بلاد الشأم ، وأتصل ببعض المبشرين النصارى ، ووقف على التطورات الفكرية في الخارج ، ولعله كان يقرأ ويكتب ، وله أطّلاع على مؤلفات في الفلسفة والدين .

وقد زار زيد الشأم والبَلْقاء ، وعاش الى خمس سنين قبل البعث ، فهو من أولئك الرهط الثائرين على قومهم ، والذين أدركوا أيام الرسول . وقد نسبوا اليه شعراً في تسفيه عبادة قومه ، وفي فراقه دينهم وما لقيه منهم . وكان قد أوذي لمقالته هذه في دين قومه ، حتى أكره على ترك مكة والنزول بـ « حراء » ، وكان « الخطاب بن نفيل » عمه ، قد وكل به شباباً من شباب قريش وسفهاء من سفهائهم كلفهم ألاّ يسمحوا له بدخول البلدة ويمنعه من الإتصال بأهلها ، مخافة أن يفسد عليهم دينهم وأن يتابعه أحد منهم على فراق ما هم عليه . وأضطر زيد الى العيشة في هذا المحل ، معتزلاً قومه ، إلاّ فتراتٍ ، كان يهرب خلالها سرّاً ، ليذهب الى موطنه

---

(١) ابن هشام (١/٢٤٤ وما بعدها) ، ارشاد الساري (٦/١٩٠) « وكان يحيي الموؤدة . يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته مهلا : لا تقتلها أنا أكفيك مؤونتها ، فيأخذها ، فاذا ترعرعت قال لأبيها إن شئت دفعتها اليك ، وان شئت كفيتك مؤونتها » ، طبقات ابن سعد ، الجزء الثالث : القسم الأول (ص٢٧٦ وما بعدها) ، « سئل عنه النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يبعث أمة وحده يوم القيامة . وكان يتعبد في الجاهلية ويطلب دين ابراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم . ويوحد الله تعالى . ويقول : إلهي إله ابراهيم ، وديني دين ابراهيم . وكان يعيب على قريش ذبائحهم ويقول : الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء ماء وأنبت لها من الأرض ، ثم تذبحونها على غير اسم الله تعالى ! انكاراً لذلك واعظاماً له » ، أسد الغابة في معرفة الصحابة (٢/٢٣٦) ، طبقات الشعراء (ص ٦٦) « طبعة ليدن » ، بلوغ الأرب (٢/٢٤٨) .

ومسكنه ، فكانوا إذا أحسوا بوجوده هناك ، آلموه وآذوه [1] .

ويذكر أهل الأخبار أن حرصه على الحنيفية وتمسكه الشديد بها ، حمله على السفر الى بلاد شاسعة بحثاً عنها وعن مبادئها الصحيحة ، مبادىء ابراهيم الأصيلة الخالية من كل درن وشائبة. فذهب الى الموصل والجزيرة ، ثم طاف في بلاد الشأم حتى انتهى الى راهب بـ « ميفعة » من أرض البَلْقاء ، فسأله عما أقدم من أجله ، فأرشده إلى أن ما يبتغيه ويراه لا يجده في النصرانية ، فغادره وتركه ، وعاد يريد مكة موطنه . فلما توسط بلاد لخم ، عدوا عليه وقتلوه . وقالوا أيضاً إنه التقى في أثناء أسفاره هذه بأحبار اليهود وبعلماء من النصارى ، ولكنه لم يجد عندهم ما يطمئن نفسه ، وما يرى فيه التوحيد الخالص ، ومبادىء ابراهيم ، لذلك لم يدخل في ديانةٍ ما من تلك الديانتين ، حتّى قتل [2] .

وهناك روايات أخرى تفيد رجوع زيد الى قومه بعد عودته من الشام ، ووفاته وفاة طبيعية لا قتلاً بيد إنسان . « تُوُفّي وقريش تبني الكعبة قبل أن ينزل الوحي على رسول الله بخمس سنين » ودفن بأصل « حراء » . وكان بعد رجوعه من الشام على عادته في تقريع بني قومه ولومهم ، لتعبّدهم للأصنام ، واتخاذهم حجراً أو خشبة إلهاً يعبد من دون الله وهو لا ينفع ولا يضرّ [3] .

ومن ولد زيد رجل كان له سبق وقدم في الاسلام ، هو سعيد بن زيد . كان من السابقين الأولين ومن المهاجرين ، شهد المشاهد والأحداث المهمة ، إلاّ بدراً ، فإنه لم يكن حاضراً بالمدينة إذ ذاك . وهو أحد العشرة المبشرة . ولا بد [4] أن يكون لرأي والده في دين قومه وما

---

(١) ابن هشام (٢٤٧/١ وما بعدها) ، بلوغ الأرب (٢٥١/٢ وما بعدها) .

(٢) ابن هشام (٢٤٩/١ وما بعدها) ، طبقات ابن سعد : الجزء الثالث القسم الأول (ص ٢٧٦ وما بعدها) ، بلوغ الأرب (٢٥١/٢ وما بعدها) .

(٣) طبقات ابن سعد : الجزء الثالث : القسم الأول (ص ٢٧٧) .

(٤) عمدة القاريء (٤/١٧) ، طبقات ابن سعد : الجزء الثالث : القسم الأول (ص ٢٧٥ وما بعدها) ، بلوغ الأرب (٢٤٨/٢) .

أبدله من ثورة صريحة جامحة على عقائدهم أثر في نشوء هذا الابن وفي إقدامه مع السابقين على الدخول في الإسلام ، بعد أن كان والده قد سبق إسلامه برحيله الى الآخرة بسنين .

وذكر ابن هشام أن زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل وعبيد الله بن جحش وعثمان ابن الحويرث ، اتفقوا في الرأي وفي العقيدة ، وتعاهدوا على نبذ عبادة قومهم وما كانوا عليه من ضلال ، وتصادقوا ، وكونوا عصبة خرجت على عبادة قريش ، فلم يشتركوا معهم في أعيادهم ، ولم يشاركوهم في عبادتهم ، وظلوا حتى ماتوا عن عبادة قومهم صابئين [1] .

أما عبيد الله بن جحش بن رِئاب بن أسد بن عبد العُزَّى بن قُصَيّ ، فقد بقي مرتاباً في دين قومه ، بعيداً عنهم وعن عبادتهم ، حتى إذا ظهر الإسلام دخل فيه ، ثم هاجر مع من هاجر الى الحبشة ، ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان ، وكانت مسلمة كذلك . فلما صار في الحبشة ، فارق الإسلام وتنصّر ، وهلك هناك [2] .

وأما عثمان بن الحويرث ، فقد بقي مغاضباً قومه في دينهم ، ثم رأى الذهاب الى الروم ، فذهب إليهم ، وتقرب الى قيصر ، وحسنت منزلته عنده ، وتنصّر ومنحه لقب « البطريق » ، وأراد تنصيبه ملكا على مكة ، ولكن قومه أبوا عليه ذلك ، فلم يتم له مراده ، ومات بالشام مسموماً ، سمه عمرو بن جفنة الغساني [3] .

وأما « أمية بن أبي الصلت » ، فهو أحسن الحنفاء حظاً في بقاء الذكر ، بقي كثير من شعره ، وحفظ قسط لا بأس به من أخباره . وسبب ذلك بقاؤه الى ما بعد البعث ، واتصاله بتأريخ النبوة والإسلام اتصالاً مباشراً وملاءمة شعره بوجه عام لروح الاسلام . لم يكن مسلماً ، ولم يرض أن يدخل في الاسلام ؛ لأنه كان يأمل أن تكون النبوة فيه ، وأن ينزل الوحي عليه ،

---

(١) ابن هشام (١/٢٤٣) « طبعة محمد محي الدين عبد الحميد » ، المحبر (ص١٧١ ، ١٧٥ ، ٢٣٧) ، الروض الأنف (١/١٤٥) .

(٢) ابن هشام (١/٢٤٣) ، المحبر (ص ٧٦ ، ٨٨ ، ١٧٢ ، ١٧٣) ،
L. Krehl. Das Leben Muhammed, S. 14.

(٣) ابن هشام (١/٢٤٣) ، الاشتقاق (ص ٥٩) ، المحبر (١٦٥ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٥ ، ٣٠٧) ، الروض الأنف (١/١٤٦) ، L. Krehl, Das Leben, S. 14. .

فيكون نبي العرب والعالم أجمعين . فلما رأى النبوة فى الرسول ، حسده ، وأثار المشركين عليه ، ورثى قتلاهم فى معركة بدر ، وحرض قريشاً عليه ، حتى مات على حسده وعناده سنة تسع للهجرة بالطائف قبل أن يسلم قومه الثقفيون [١] . لم يمت مسلماً ، ولم يمت على دين الوثنيين من قومه ، بل مات كافراً بالديانتين .

ورثاؤه قتلى معركة بدر ، محفوظ فى قصيدة حائية ، مطلعها :

ألا بكيت على الكرا م بني الكرام أولى الممادح

كبكا الحمام على فرو ع الأيك فى الغصن الصوادح

وهي قصيدة يتوجع فيها أمية لسقوط قتلى المشركين ، ودفنهم فى القليب ، وفيهم « عتبة » و « شيبة » أبنا « ربيعة بن عبد شمس » ، وهما أبنا خالة أمية . وقد ذكر بعض الرواة أن الذي حمله على قول هذا الشعر ، هو أنه لما وصل الى القليب موضع مدفن قتلى قريش فى بدر ، وكان ذاهباً الى المدينة يريد الدخول فى الاسلام ، قال له بعض من كان معه من غلاظ الأكباد من المشركين : هل تدري ما فى هذا القليب ؟ قال : لا . قيل : فيه شيبة وربيعة وفلان وفلان . فجدع أنف ناقته ، وشق ثوبه ، وبكى ، وعاد الى الطائف [٢] .

وذكر أن أمية نال فى بيتين من هذه القصيدة من أصحاب رسول الله ، ولذلك أهملها « ابن هشام » صاحب السيرة [٣] ، وذكر أيضاً أن النبي نهي عن روايتها [٤] . ولكن الرواة رووها وحفظوها ودونوها فى الكتب ، فكيف تجرؤوا على حفظها وتدوينها لو صح أن النبي نهى عن روايتها على نحو ما يزعمه أهل الأخبار .

---

(١) شعراء النصرانية (٢/٢١٩ وما بعدها) ، الأغاني (٤/١٢٠ وما بعدها) « طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة » ، شرح السيرة النبوية : لأبي ذر بن محمد بن مسعود الخشني « تحقيق بولس برونله » ، (١/٢٣ ، ٢٤) ، بلوغ الأرب (٢/٢٥٥ وما بعدها) ، ابن هشام (١/١١ ، ٤٨ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٨) ، (٢/١٦٠ ، ٣٢١ ، ٤٠١ ، ٤٠٦) ، (٣/٦٥) « تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد » ، Ency., IV, P. 997.

(٢) ابن هشام (٢/٤٠١ وما بعدها) ، بلوغ الأرب (٢/٢٥٦) ، راجع القصيدة في (ص ٢٠) من ديوان أمية ، بيروت ١٩٣٤ .

(٣) ابن هشام (٢/٤٠٥) . (٤) الأغاني (٤/١٢٣) « ذكر أمية بن أبي الصلت ونسبه وخبره » .

وأميّةُ مثلُ سائر المتألهين الآخرين من طبقة الحنفاء ، سافر الى الشام ، واُتّصل بأهلها ، وآوى الى الأديرة ورجال الدين يسأل منهم عمّا يهمه من مشكلات دينية وعما كان يجول فى خاطره من عبادة قومه وحقيقة العالم . وكان تاجراً ، يذهب مع التجار فى قوافلهم الى تلك الديار التي كانت فى أيدي الروم . ثم إنه كان على ما يظهر من الروايات التي وردت فى ترجمته وسيرته قارئاً كاتباً ، قرأ الكتب ، ووقف عليها ، ومنها ومن اتصاله برجال الدين وبأهل الكتاب تكوّنت عنده فكرته عن الدين، وشكه فى عبادة قومه وفيما كانوا عليه من عقائد وعبادات . وقد بدا هذا التأثر فى الكلمات والمصطلحات الأعجمية والغريبة المستعملة فى شعره وفى الأمثلة والقصص المنتزع من الكتابين : العهد القديم والعهد الجديد ومن موارد أخرى عديدة من الموارد الشائعة المستعملة عند أهل الكتاب [1] .

ومما ذكره الأخباريون ورواة شعر أمية من أمثلة على أستعماله للكلم الغريب ، أنه أستعمل « الساهور » للقمر ، وهي كلمة لا تعرفها العرب ، وأنه ذكر « السلطيط » ، اسماً لله تعالى . وأنه أطلق كلمة « التغرور » على الله تعالى فى موضع آخر من شعره ، وأنه سمى السماء « صاقورة » و « حاقورة » وأنه استعمل أشياء أخرى من هذا القبيل . ولولعه هذا بأستعمال الغريب ، رفض علماء اللغة الاحتجاج بشعره [2] . وهذا الشعر المنسوب الى أمية وغريبه خاصة مادة مهمة جداً تجب دراستها بعناية ، لمعرفة مبلغ صحة ما جاء فى أخبار الرواة عن هذه الكلمات وعن أصولها ومواردها الأولى ، إن صح أنها من أشعار تلك الأيام حقاً ؛ إذ ترشدنا أمثال هذه الدراسات الى معرفة المنابع التي استقى منها هذا الشاعر علمه والهامه ومدى تأثره وتأثر أمثاله من الجاهليين بالآراء والتيارات الفكرية التي كانت فى مكة وفى خارج جزيرة العرب قبيل الإسلام .

---

(١) الأغاني (٤/١٢١ وما بعدها) « طبعة دار الكتب المصرية » .

(٢) الأغاني (٤/١٢١) ، شعراء النصرانية (٢/٢١٩) .

كزجاجة الفسول أحسن صنعها ... لما بناها ربنا بتجرد
لمصفدين عليهم صاقورة ... صماء ثالثة تماع وتجمد
وكأن رابعة لها حاقورة ... في جنب خامسة عناس تمرد

ديوان أمية « جمع بشير يموت » (ص ٧ ، ٢٤) .

ولا يمكن بالطبع دراسة هذه إلا بالوقوف على اللغات الأعجمية : الإرمية والعبرانية واليونانية والحبشية ، وهي لغات أثرت في الجاهليين بواسطة التجارة والدين ، لاستخراج أصول الكلمات المنسوبة الى هذا الشاعر ومشابهاتها من تلك اللغات .

وقد روى الأخباريون قصصاً عن التقاء أمية بالرهبان ، وعن توسمهم معالم النبوة فيه ، فكانوا يسألونه أسئلة تستخرج من أجوبتها في نظرهم معالم النبوة . فلما كانوا يقفون على الأجوبة ، يقولون له : كادت النبوة تكون فيه ، لولا بعض النقص في علاماتها عنده ، كما رووا قصصاً عن شق طيرين لقلب هذا الشاعر ، لتنظيفه ، وتهيئة النبوة فيه . ولكنهما عند ما وقفا عليه لم يجدا أن النبوة خلقت له (١) . وقد حاكى أهل الأخبار في قصصهم هذا ما رواه رجال السير عن علامات النبوة عند الرسول (٢) . كذلك رووا أنه كان يتفرس في لغات الحيوانات ، فيعرف ما تقوله وما تريده ويقصه على الناس ، وأنه تنبأ بموته حينما نعب عليه الغراب (٣) . فجعلوه بأخبارهم هذه في مرتبة تضاهي مرتبة سليمان (٤) .

وهذا القصص الوارد عن أمية ، هو — بالطبع — من القصص المصنوع الموضوع ، مثل كثير من أخباره وأخبار غيره ، قص على ذوي القلوب الطيبة من الرواة والأخباريين ، فأخذوه ونقلوه كما نقلوا ما شاء الله من الإسرائيليات والأساطير ، وروي على أنه مما كان يعلمه الأحبار والرهبان والخاصة من أهل الكتاب .

ولا أستبعد أن يكون هذا القصص قد ظهر في أيام الحجاج عصبية وتقرباً اليه ، فقد كان الحجاج من ثقيف ، وكان أمية من ثقيف كذلك . وقد أنتج الوضاعون في أيامه شيئاً كثيراً من الأخبار في قبيلة ثقيف ، كما أنتجوا شيئاً في ذمها وفي ذم رجالها نكاية به .

ويذكرون عنه أنه بعد أن صبأ عن قومه وتحنف ، لبس المسوح على زي المترهبين الزاهدين

---

(١) الأغاني (٤/١٢٣ وما بعدها) .

(٢) Sprenger, Leben, I, S. 119. M. Cl. Huart, Le Livre de la Creation Et De L'Histoire, I, P. 55, 153, 155, 156, 190, 191, 195.

(٣) البداية والنهاية (٢/٢٢٧ وما بعدها) . (٤) النمل الآية ١٥ وما بعدها .

في هذه الدنيا ، ورافق الكتب ونظر فيها ، ليستلهم منها العلم والحكمة والرأي الصحيح . ثم حرم الخمر على نفسه مثل بقية المتألهين ، وتجنب الأصنام ، وصام ، والتمس الدين ، وذكر ابراهيم واسماعيل ؛ وأنه كان أول من أشاع بين قريش افتتاح الكتب والمعاهدات والمراسلات بجملة : « باسمك اللهم » ، وهي الجملة التي نسخت في الإسلام بجملة : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

وفي رواية أنه : « كان قد قرأ الكتب القديمة ، وعلم أن الله تعالى مرسل رسولاً ، فرجا أن يكون هو ذلك الرسول ، فاتفق أن خرج الى البحرين ، وتنبأ رسول الله صلى عليه وسلم ، فأقام هناك ثماني سنين . ثم قدم ، فلقي رسول الله صلى عليه وسلم ، في جماعة من أصحابه ، فدعاه إلى الإسلام ، وقرأ عليه (سورة يسين) ، حتى إذا فرغ منها ، وثب أمية يجرّ رجليه ، فتبعته قريش تقول : ما تقول يا أمية ؟ فقال : أشهد أنه على الحق . قالوا : فهل تتبعه ؟ قال : حتى أنظر في أمره . فخرج الى الشام ، وقدم بعد وقعة بدر يريد أن يسلم ، فلما أخبر بها ، ترك الإسلام . وقال : لو كان نبياً ما قتل ذوي قرابته ، فذهب الى الطائف ومات »[1] .

وفي هذه الرواية المنسوبة الى الزهري ، عن سماع أمية بن أبي الصلت بنبوة النبي وهو في البحرين ، ثم مجيئه الى مكة والتقائه بالرسول ومحاجّته له في ظل الكعبة ، ثم انكسافه وتراجعه وذهابه الى الشام ، ثم عودته منها[2] ، تكلفٌ ظاهر ، وفي تفاصيلها ما يناقض بعضه بعضاً .

وذكر أنه كان الشخص الذي نزلت في حقه الآية : « واتلُ عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا ، فانسلخ منها »[3] . وهي آية قيل أيضاً إنها نزلت في « بلعام بن باعر » ، أو في زوج البسوس ، أو في « النعمان بن صيفي الراهب » . وكان قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح ، فقدم المدينة فقال للنبي صلى الله عليه وسلم : ما هذا الذي جئت به ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : الحنيفية دين ابراهيم عليه السلام . قال : فأنا عليها . فقال عليه الصلاة والسلام لست عليها ولكنك أدخلت فيها ما ليس منها . فقال : أمات الله تعالى الكاذب منا طريداً وحيداً ، ثم

---

(1) روح المعاني (٩/١٣٢ وما بعدها) . (2) البداية والنهاية (٢/٢٢٦) .

(3) الأعراف الآية ١٧٥ .

خرج الى الشأم ، وأرسل الى المنافقين أن استعدوا السلاح . ثم أتى قيصر ، وطلب منه جنداً ، ليخرج النبي صلى الله عليه وسلم من المدينة ، فمات بالشام طريداً وحيداً »[1] .

وأمية كأكثر الشعراء له شعر فى المدح وله تعريض . وأكثر مدحه فى « ابن جُدعان » من أجواد العرب المعروفين المشهورين في الجاهلية[2] . وهو فى المدح أو الرثاء أو في كل مناسبة أخرى ، مستعمل لكلمات ذات صلة بالدين وبالأفكار الدينية ولمصطلحات لا ترد إلاّ نادراً فى الأشعار المنسوبة الى الشعراء الجاهليين ، مما يدل على غلبة التفكير الديني عليه ، وتأثير ما قرأه أو ما أخذه من غير العرب فيه .

ويتلخص ما جاء فى شعر هذا الشاعر من عقائد وآراء فى الاعتقاد بوجود إله واحد ، خلق الكون وسوّاه وعدله ، وأرسى الجبال على الأرض ، وأنبت النبات فيها ، وهو الذي يحيي ويميت ، ثم يبعث الناس بعد الموت ويحاسبهم على أعمالهم ، وليجازيهم بما كسبت أيديهم ، فريق فى الجنة وفريق فى النار . يساق المجرمون عراة الى ذات المقامع والنكال مكبلين بالسلاسل الطويلة وبالأغلال ، ثم يلقى بهم فى النار يصلونها يوم الدين ، يبقون فيها معذبين بها ، ليسوا بميتين ، لأن فى الموت راحة لهم ، بل قضى الله أن يمكثوا فيها خالدين أبداً .

أما المتقون ، فإنهم بدار صدق ناعمون تحت الظلال ، لهم ما يشتهون[3] ، فيها عسل ولبن وخمر وقمح ورطب ، وتفاح ورمان وتين وماء بارد عذب سليم ، وفيها كل ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ، وحور لا يرين الشمس فيها ، نواعم فى الأرائك قاصرات ، على سرر ترى متقابلات، عليهم سندس وجياد رَيْطٍ وديباج ، حلّوا بأساور من لجين ومن ذهب وعسجد كريم ، لا لغو فيها ولا تأثيم ، ولا غول ولا فيها مُليم ، وكأس لا تصدع شاربها ، يلذّ بحسن

---

(١) روح المعاني (٩/١١١) .

(٢) المحبر (ص١٣٨) ، ديوان أمية بن أبي الصلت : تحقيق « فريدرش شولتس Friedrich Schulthetz» المطبوع بمدينة « لا يبزك » سنة ١٩١١ ، وكذلك ديوانه المطبوع ببيروت سنة ١٩٣٤ جمع بشير يموت .

(٣) وسيق المجرمون وهم عراة ... الى ذات المقامع والنكال

ديوان أمية (ص ٤٩) .

رؤيتها النديم . تحتهم نمارق من دمقس ، فلا أحد يرى فيهم سئيم [١] .

ويروى أن النبي كان يسمع شعر أميّـة ، وأن « الشريد بن سويد » كان ينشد له شيئاً منه ، في أثناء أحد أسفاره ، فكان كلما أنشد له شيئاً منه ، طلب منه المزيد ، حتى إذا ما أنشده مئة بيت ، قال النبي له : كاد ليسلم ، أو كاد ليسلم في شعره . وذكر أن الرسول قال في حديث له عنه : آمن شعره وكفر قلبه ، أو آمن لسانه وكفر قلبه [٢] . وأنه قال : أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

وكاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم [٣] .

وللوقوف على آراء « أمـيّة » ، وعلى معتقداته الدينية يجب الرجوع بالطبع الى أشعاره وما نسب اليه من كلام . ففي هـذا التراث الذي تغلب عليه النزعة الدينية والحـكمية ، تتمثل آراء ذلك الشـاعر الجاهلي الذي أدرك أوائل المبعث ، وهي آراء قريبة جداً من الإسلام ، وبعضهـا يكاد يكون قولاً اسـلامياً في لفظه وفي معناه مسبوكاً في شـعر . وفى هذا الشعر قصص الرسل والأنبياء : آدم ونوح وقصة طوفانه [٤] وقصة ذي القرنين وبلقيس وحـكاية الهدهد [٥] وقصة

---

(١) راجع القصيدة المنسوبة اليه في وصف الجنة والنار ، ومطلعها :

جهـنم تلك لا تبقي بغيـا وعـدن لا يطالعهـا رجيم

ديوان أمية (ص ٥٣) « بشير يموت » .

(٢) صحيح مسلم « كتاب الشعر » ، (٤٨/٧) « طبعة محمد علي صبيح » ، طبقات ابن سعد : الجزء الخامس (ص ٣٧٦) « الشريد بن سويد » ، « الرشيد بن سويد » ، بلوغ الأرب (٢٥٣/٢ وما بعدها) وهو خطأ مطبعي يجب تصحيحه .

(٣) صحيح مسلم (كتاب الشعر) (٤٨/٧ وما بعدها) ، الأغاني (١٣٠/٤) .

(٤) جزى الله الأجـل المرء نوحاً جزاء البر ليس لـه كذاب

ديوان أمية (ص ١٨ وما بعدها ، ٥٨) « بشير يموت » .

(٥) قد كان ذو القرنين قبلي مسلماً ملـكاً علا في الأرض غير معبد

* * *

من قبـله بلقيس كانت عمتي حتى تقضى ملـكها بالهـدهـد

ديوان أمية (ص ٢٦) ، « بشير يموت » .

ابراهيم وتقديم أبنه للذبح [١] وداوود وفرعون وموسى وأبن عاد [٢]. وعيسى وأمه مريم وكيفية حملها به ، فوصف ذلك بانياً وصفه على نحو ما جاء فى القرآن الكريم عن تكون عيسى ، مضيفاً الى ذلك زيادات فى حديث مريم مع الملائكة وجواب الملائكة لها [٣] ، كما أورد فى هذا الشعر قصة « لوط أخي سدوم » [٤] ، وهي من القصص المذكور فى التوراة [٥] ، وأشياء أخرى عديدة من هذا القبيل .

وفى أكثر ما نسب الى هذا الشاعر من آراء ومعتقدات دينية ووصف ليوم القيامة والجنة والنار ، تشابه كبير وتطابق فى الرأي جملة وتفصيلاً لما ورد عنها في القرآن الكريم . بل نجد فى شعر أمية أستخداماً لألفاظ وتراكيب واردة فى كتاب الله وفى الحديث النبوي ، فكيف وقع ذلك ؟ وكيف حدث هذا التشابه ؟ هل حدث ذلك على سبيل الاتفاق أو أن أمية أخذ مادته من القرآن الكريم ، أو كان العكس ، أي أن القرآن الكريم هو الذي أخذ من شعر أمية فظهرت الأفكار والألفاظ التي استعملها أمية فى آيات الله وسوره ؟ فكتاب الله إذن هو صدى وترديد لآراء ذلك الشاعر المتأله ، أو أن هذا التشابه مردّه شيء آخر هو تشابه الدعوتين واتفاقهما فى العقيدة والرأي ، أو اعتماد الاثنين على مورد أقدم ، هو الكتابان المقدسان : التوراة والانجيل ، وما لهما من شروح وتفاسير ، أو كتب أو موارد عربية قديمة كانت معروفة ثم بادت وبقي أثرها فى للقرآن الكريم وفى شعر أمية بن أبي الصلت ، أو أن كل شيء من هذا الذي

---

(١) ديوان أمية (ص ٥٠) « بشير يموت » .

(٢) حي داوود وابن عاد وموسى — وفريق بنيانه بالثقال
إنني زارد الحديد على النا — س دروعاً سوابغ الأذيال

ديوان أمية (ص ٥٢) « بشير يموت » .

(٣) وفي دينكم من رب مريم آية — منبئة بالعبد عيسى بن مريم

ديوان أمية (ص ٥٨ وما بعدها) « بشير يموت » .

(٤) ثم لوط أخو سدوم أتاها — إذ أتاها برشدها وهداها

ديوان أمية (ص ٦٩) « بشير يموت » .

(٥) راجع التوراة ، ومادة « Lot » و « Sodom » في المعجمات المؤلفة عن التوراة . أيضاً :
Shorter Ency. of Islam , P.290.

نذكره ونفترضه افتراضاً لم يقع ، وأن ما وقع ونشاهده ، سببه أن هـذا الشعر وضع على لسان أمية فى الإسلام ، وأن واضعيه حاكوا فى ذلك ما جاء فى القرآن الكريم فحدث لهذا السبب هذا التشابه .

أما الاحتمال الأول ، وهو فرضُ أخذِ أمية من القرآن ، فهو احتمال إن قلنا بجوازه ووقوعه ، وجب حصر هذا الجواز فى مدة معينة ، وفى فترة محدودة تبتدئ بمبعث الرسول ، وتنتهي فى السنة التاسعة من الهجرة ، وهي سنة وفاة أمية بن أبي الصلت . أما ما قبل المبعث ، فلا يمكن بالطبع أن يكون أمية قد اقتبس من القرآن ، لأنه لم يكن منزلاً يومئذ . وأما ما بعد السنة التاسعة ، فلا يمكن أن يكون قد اقتبس منه أيضاً ؛ لأنه لم يكن حيّاً ، فلم يشهد بقية الوحي . ولن يكون هذا الفرض مقبولاً معقولاً فى هذه الحالة ، إلا اذا أثبتنا بصورة جازمة أن شعر أمية الموافق لمبادئ الإسلام قد نظم فى هذه المدة المذكورة ، أي بين المبعث والسنة التاسعة من الهجرة ، وإلاّ سقط الفرض . فإذا أثبتنا ذلك وثبتنا تأريخ نظم هذا الشعر ، أمكنت المقابلة عندئذ بين شعر أمية وما جاء في معناه وفى موضوعه من آيات نزلت بين ابتداء نزول الوحي على الرسول وبين السنة التاسعة ، أما الآيات التي نزلت بعد هذه السنة ، فلا تكون شاهداً على أخذ أمية منها ، لأنه كان قد توفي فى السنة التاسعة ، فلا يقع هذا الافتراض .

ولكن من فى استطاعته تثبيت تواريخ شعر أمية وتعيينه ، وتعيين أوقات نظمه ؟ إن فى استطاعتنا تعيين بعضه من مثل الشعر الذي قاله فى مدح عبد الله بن جُدْعان ، أو معركة بَدْر . ولكننا لا نستطيع أن نفعل ذلك بالغالبية منه ، وهي غالبية لم يتطرق الرواة الى ذكر المناسبات التي قيلت فيها . ثم إن بعض هذا الكثير مدسوس عليه ، مروي لغيره ، وبعضه إسلامي ، فيه مصطلحات لم تُعرَف إلا فى الإسلام ، فليس من الممكن الحكم على آراء أمية الممثلة في شعره هذا بهذه الطريقة . ثم إن أحداً من الرواة لم يذكر أن أمية كان ينتحل معاني القرآن الكريم ، وينسبها الى نفسه . ولو كان قد فعل ، لما سكت المسلمون عن ذلك ، ولكان الرسول نفسه أول الفاضحين له .

بقي لدينا أفتراض آخر ، هو أخذ القرآن الكريم من أمية . وهو افتراض ليس من الممكن تصوّره ، فعلى قائله إثبات أن شعر أمية في هذا الباب هو أقدم عهداً من القرآن الكريم ، وتلك قضية لا يمكن اثباتها أبداً . ثم إن قريشاً ومن لف لفّهـا ممن عارض الرسول لو كانوا يعلمون ذلك ويعرفونه ، لما سكتوا عنه ، ولقالوا له إنك تأخذ من أمية ، كما قالوا له : إنك تتعلم من غلام نصراني كان مقيماً بمكة ، واليه أشير في القرآن الكريم بقوله : « ولقد نعلم أنهم يقولون: إنما يعلمه بشر ، لسانُ الذي يلحدون اليه أعجمي ، وهذا لسان عربي مبين »[1] . ولقد أشار المفسرون الى اسم الغلام ، كما سأتحدث عن ذلك في الفصل الخاص بالنصرانيـة عند العرب قبل الإسلام ، ولم يشيروا الى أمية بن أبي الصلت[2] . ثم إنّ أمية نفسـه لو كان يعلم ذلك أو يظن أن محمداً إنما أخذ منه ، لما سكت عنه وهو خصم له ، منافس عنيد ، أراد أن تكون النبوة له ، وإذا بها عند شخص آخر ينزل الوحي عليـه ، ثم يتبعه النـاس فيؤمنوا بدعوته . أما هو ، فلا يتبعه أحد . هل يعقل سكوت أمية لو كان قد وجد أي ظن وإن كان بعيداً يفيد أن الرسول قد أخذ فكرة منه ، أو من المورد الذي أخذ أمية نفسه منه ؟ لو كان شَعُر بذلك ، لنادى به حتماً ، ولأعلن للناس أنه هو ومحمد أخذا من منبع واحد ، وأن محـمداً أخذ منه ، فليس له من الدعوة شيء ، ولـكانت قريش وثقيف أول القائلين بهذا القول والمنادين به .

نعم ، لقد ورد في الحديث ، كما قلت قبل قليل ، أن الشريد بن سويد كان قد أنشد الرسول شعر أمية ، وأنه كان كلما أنشده شيئاً منه طلب منه المزيد ، حتى إذا ما أنشده مئـة بيت ، قال له الرسول : آمن شعره وكفر قلبه ، أوآمن لسانه و كفر قلبه ، ولـكننا هنا بنا حاجةٌ الى تثبيت تأريخ هذا الإنشاد ، وإثبات صحة الرواية وتدقيق رجال السند ، لإثبات أن ما أنشد لم يكن قد نزل في مثله الوحي .

وممن ذهب الى هذا الافتراض من المستشرقين «كليمان هوار » الفرنسي و« بور Power » .

---

(١) النحل الآية ١٠٣ .

(٢) ابن هشام (١/ ٤٢٠) ، « قريش تزعم أن النبي يتعلم من غلام نصراني اسمه : جبر ، وما نزل في ذلك من القرآن » .

زعم « بور » أنه حيث يوجد تشابه بين شعر أمية والقرآن الكريم ، فإن ذلك يدل على أن الرسول أخذ من « أمية » ؛ لأن أمية أقدم من الرسول [1] . وهذا الافتراض مقبول كما قلت لو أثبتنا أن هذا النظم شعر أصيل صحيح ، وأنه نظم قبل نزول مشابهه فى القرآن الكريم ، وأنه لم يُضف اليه فى الاسلام . فإن أثبتنا أنه له ، جاز لهما مثل هذا الإدعاء .

وأما الرأي الثالث ـ وأعني به رأي من يَرْجع التشابه بين شعر أمية وما ورد من مثل معانيه فى القرآن الكريم الى أخذ الاثنين من التوراة والانجيل وتفاسيرهما ، والى بعض « الصحف » و « المجلات » التي أشير الى وجودها عند العرب ـ فهو رأي قديم ، وليس بجديد . رأيٌ قيل عن الوحي كله ، لا عن القرآن وشعر أمية أو غير أمية ، قبل أن يخلق المستشرقون بأكثر من ١٣٠٠ سنة ، فقد زُعم « أن النبي يتعلم من غلام نصراني اسمه جبر ! ! » [2] . وقد أشير الى هذا الزعم فى كتاب الله ، وجاء الرد عليه فى قوله تعالى : « ولقد نعلم أنهم يقولون ، إنما يعلمه بشر ، لسان الذي يلحدون اليه أعجمي ، وهذا لسان عربي مبين » . فلم يُخفِ القرآن الكريم ذلك الطعن والمغمز ، ولم يتجاهل المفسرون اسم من قيل إنه كان يعلمه ، فذكروا « جبراً » هذا ، وكان غلاماً مقيماً بمكة ، وقال بعضهم بل هو رجل رومي اسمه غير ذلك ، سأتحدث عنه على كل حال فى الفصل الخاص بالنصرانية قبل الإسلام ، فلا حاجة بي الآن الى الدخول فى الفروع والتفاصيل .

ولو كان الرسول وأمية قد أخذا من منهل واحد ، وأستقيا من مورد واحد ، لما سكتت قريش عن القول به ، ولما سكت أمية نفسه وهو الغاضب الحاقد على الرسول عن الجهر به . وكيف يعقل سكوته عن هذا ، وهو أمر مهم جداً بالنسبة اليه . وسيف يحارب به الإسلام ؟ ولما سكت مسيلمة ومن كان على شاكلته من المتنبئين من الإشارة اليه فى أثناء حروب الردّة ، وقد كانت فرصة سانحة لإظهار هذه المقالة .

ثم إن هذا التشابه ، على ما يتبين من نقده وتمحيصه ، ليس من نوع ما يحصل عن أخذ

---

(١) ديوان أمية (ص ٧) « المقدمة الألمانية » « تحقيق فردرش شولثيس » .

(٢) ابن هشام (١/٤٢٠) .

شخصين مستقلين من مورد معين . إنما هو من قبيل ما يحدث من أعتماد أحد الشخصين على الآخر ، بدليل ورود أمور فى القرآن الكريم ، لم ترد فى التوراة ولا فى الانجيل ، ولكنها وردت فى شعر أمية ، وبدليل ورود أكثر قصص الأنبياء والآراء والمعتقدات في شعر أمية على شكل إسلامي ، لاعلى النحو الوارد عند أهل الكتاب . واستعمال هذا الشعر لجمل وألفاظ وتراكيب أسلامية واردة فى القرآن الكريم وفى الحديث لا فى الكتب السماوية المذكورة . فلو كان مرد هذا التشابه الأخذ من مورد واحد . لوجب انحصار هذا التشابه فى الأمور المشتركة التي ترد فى الكتب المقدسة : التوراة والانجيل والقرآن ، وفى شعر أمية حسب ، لا فى المسائل التي ترد فى شعر أمية وفى القرآن الكريم ، ولا ترد فى الكتابين المقدسين أو فى الكتب الأخرى .

ثم ان المقابلة بين نصين لمعرفة صلة أحدهما بالآخر ، وأخذ أحدهما من الآخر ، تستوجب التأكد من صحة نسبة هذا الشعر الى أمية . فني هذا الشعر مقدار لا يمكن أن يشك فى وضعه وصنعه ، ومقدار نص العلماء نصاً على أنه لغيره ، وهم إنما ذكروه فى شعر أمية ؛ لأن بعض أهل الأخبار نسبه اليه . ولذلك استدركوا هذا الخبر ، بالإشارة الى اسم قائله الصحيح . فلم يبق من هذا الشعر ما يصلح للمقابلة غير القليل منه ، وهو القليل الذي له صلة بعقيدة ودين . وهذا القليل هو ، فى الغالب أيضاً ، تبع لما ورد فى القرآن وحده ، لا لما ورد فى الكتابين القدسين . ولما كان القرآن محفوظاً ثابتاً ، فلم يرتق اليه الشك . أما شعر أمية ، فليس كذلك ، وهو غير معروف من حيث تعيين تأريخ النظم . فهذه المقابلة إن جازت ، فانها تكون حجة على القائلين بالرأي المذكور ، لا لهم . وقد كان عليهم أن يثبتوا أولا إثباتاً قاطعاً صحة رأيهم فى أصالة هذا الشعر ، لا أن يفترضوا مقدماً أنه شعر أصيل صحيح ، وأن يذهبوا رأساً إلى أنه هو والقرآن الكريم من وقت واحد ، بل إنه على حد قول بعضهم أقدم منه ، فكتاب الله منتزع منه . والحق إن العصبية تلعب بعقول بعض المستشرقين ، ومتى لعبت العصبية بعقل إنسان أبعدته عن فقه أبسط قواعد النقد .

وممن قال باحتمال أخذ القرآن الكريم وأمية من مورد مشترك واحد ، « فردرش شولثيس » « Friedrich Schulthetz » ناشر ديوان أمية . وقد زعم أيضاً احتمال أخذ أمية من بعض آيات الله التي كانت منزلة يومئذ ، ونظمها في شعره . استند في زعمه القائل باقتباس الرسول من مورد مشترك الى ورود بعض كلمات في القرآن الكريم وفي الحديث وفي كتب السير ، يفهم منها على زعمه أن الرسول كان قارئاً كاتباً ، ولكنه لم يشترط في هذه المؤلفات كونها الانجيل والتوراة ، بل ذهب الى أنها « مجلة » و « صحيفة » ، تتضمن أحاديث وتفاسير وقصصاً دينياً قديماً [1] . أما دليله ، فافتراض واحتمال ، وليس له غير هذين . ولا يقوم علم إلا على دليل ملموس .

أما أنا ، فأظن أن مرد هذا التشابه والإتفاق الى الصنعة والافتعال . لقد كان أمية شاعراً ، ما في ذلك شك ، لإجماع الرواة على القول به . وقد كان ثائراً على قومه ، ناقماً عليهم ، لتعبدهم للأوثان . وقد كان على شيء من التوحيد والمعرفة باليهودية والنصرانية ، ولكني لا أظن أنه كان واقفاً على كل التفاصيل المذكورة في القرآن وفي الحديث عن العرش والكرسي وعن الله وملائكته وعن القيامة والجنة والنار والحساب والثواب والعقاب ونحو ذلك . إن هذا الذي أذكره هو شيء إسلامي خالص ، لم ترد تفاصيله عند اليهود ولا النصارى ، ولا عند الأحناف ، فوروده في شعر أمية وبالكلمات والتعابير الاسلامية ، هو عمل جماعة فعلته في عهد الإسلام : وضعته على لسانه ، كما وضعوا أو وضع غيرهم على ألسنة غيره من الشعراء والخطباء ، لاعتقادها أن ذلك مما يفيد الإسلام ، ويثبت أن جماعة من الجاهليين كانوا عليه ، وأنه لم يكن لذلك غريباً ، وان هؤلاء كانوا يعلمون الغيب ، يعلمون بقرب ظهور نبي عربي ، وأنهم لذلك بشروا به ، وأنهم كانوا يتمنون لو عادوا فولدوا في أيامه ، أو لو طال بهم العمر حتى يدركوه فيسلموا ، وأمثال ذلك من قصص راج وانتشر ، كما راج أمثاله في كل دين من الأديان .

---

(١) (ص ٧) من « المقدمة » . Ency., IV P. 998, Tor Andrae, Die Entstehung des Islams und das Christentums, Upsale, 1926. S. 48,

وتتبين آية الوضع في شعر أمية في عدم اتساقه وفي اختلاف أسلوبه وروحه . فبينما نجد شعره المنسوب اليه في المدح أو في الرثاء أو في الأغراض الأخرى مما ليس لها صلة مباشرة بالدين ، في ديباجة جاهلية على نسق الشعر المنسوب الى شعراء الجاهلية ، نجد القسم الديني منه والحكمي في أسلوب بعيد عن هذا الاسلوب ، بعيد عن الأساليب المعروفة عن الجاهليين ، أسلوب يجعله قريباً من شعر الفقهاء والصوفيين المتزمتين ، ونساك النصارى ، فهو بعيد جداً من أسلوب الجاهليين ، حتى أسلوب مثل عدي بن زيد العبادي وبقية من نسب الى النصرانية من شعراء الجاهلية القريبين من الإسلام [1] . يضاف الى ذلك ما ذكره الرواة وأهل الأخبار من نسبة بعض ذلك الشعر الى غيره من الشعراء .

ولكن من الذي وضع هذا الشعر ، ثم أنكره على نفسه وأسنده الى أمية ؟ ومن الذي رصع شعر أمية بأبيات من وزنه وقافيته ، ولكنها أبيات إسلامية ؟ ومن كان أول من جمع شعر ذلك الشاعر في ديوان نسبه اليه ؟ هذه أسئلة يجب أن توجد لها أجوبة ، ولكن أجوبتها مكانها كتاب يؤلف في حياة هذا الشاعر وفي شعره وديوانه ، عندئذ يكون هناك مجال واسع للتنقيب عن هذه الأمور ، رُوي أن الحجاج قال ، وهو على المنبر : « ذهب قوم يعرفون شعر أمية »[2]. فهل ذهب العالمون به حقاً قبل أيام الحجاج ؟ وهل كان شعره ضخماً واسعاً ؟ أو هو قول من أقوال الحجاج ، وهو ثقفي من قوم أمية ، أو هو قول وزعم من زعم الرواة . وما أكثر مزاعم الرواة وحملة الأخبار .

وأثر الوضع على بعض شعر أمية واضح ظاهر لا يحتاج الى دليل ، وهو وضع يثبت أن صاحبه لم يكن يتقن صنعة الوضع جيداً . فالقصيدة التي مطلعها :

لك الحمد والمن رب العبا د أنت المليك وأنت الحكم

هي قصيدة إسلامية ، لا يمكن أبداً أن تكون من نظم شاعر لم يؤمن بالإسلام إيماناً عميقاً من كل قلبه ولسانه . خذ هذا البيت منها مثلاً :

---

(1) Ency., IV, P. 998.

(2) الأغاني (٤/١٢٣) .

محمداً أرسله بالهدى	فعاش غنياً ولم يُهْتضم

ثم خذ الأبيات التالية له وفيها :

عطاء من الله أعطيته	وخصَّ به الله أهلَ الحرم
وقد علموا أنه خَيْرهم	وفى بيتهم ذي الندى والكرم
يَعيبون ما قال لمّا دعا	وقد فرج الله إحدى البُهَمْ
به وهو يدعو بصدق الحديـ	ـث الى الله من قبل زيغ القدم
أطيعوا الرسول عبادَ الإلـ	ـهِ تنجون من شر يوم ألمْ
تنجون من ظلمات العذاب	ومن حر نارٍ على من ظلم
دعانا النبيّ به خاتم	فمن لم يُجِبْه أسرّ الندم
نَبيٌّ هدىً صادق طيب	رحيم رؤوف بوصل الرحم
به ختم الله من قبله	ومن بعده من نبي ختم
يموت كما مات من قد مضى	يردّ الى الله باري النسم
مع الأنبياء فى جنان الخلودِ	هُمُ أهلها غير حلّ القسم
وقدس فينا بحب الصلاة	جميعاً وعلّم خط القلم
كتاباً من الله نقرأ به	فمن يَعْتريه فقدماً أثم[1]

اقرأ هذه المنظومة ، ثم أحكم على صاحبها ، هل تستطيع أن تقول إنه كان شاعراً مغاضباً للرسول ، وإنه مات كافراً ، وأن صاحبه رثى كفار قريش فى معركة بدر وأنه قال ما قال فى الإسلام وفى الرسول ؟ اللهم ، لا يمكن أن يقال ذلك أبداً فصاحب هذا النظم رجل مؤمن عميق الإيمان ، هو واعظ ومبشر ، يخاطب قومه فيدعوهم الى الإسلام والى طاعة الله والرسول . إنه مؤمن قلباً ولساناً ، مع أنهم يذكرون أن الرسول قال فيه : آمن شعره وكفر قلبه ، أو آمن

---

(١) ديوان أمية قصيدة رقم ٢٣ في طبعة « فردرش شولثيس » ، (ص٢٣ وما بعدها) ، (ص ٥٥ وما بعدها) « طبعة بشير يموت » .

لسانه وكفر قلبه ، وإنه مات وهو على كفره وعناده وحسده للرسول . ثم إن صاحب المنظومة رجل يتحدث عن وفاة الرسـول ، مع إن أمية ، كان قد توفى في السـنة التاسعة من الهجرة ، فهل يعقل أن يكون إذن هو صاحبها وناظمها ؟

أليست هذه المنظومة وأمثـالها إذن دليلاً على وجود أيد لصناع الشعر ومنتجيه فى شعر أمية . نحمد الله على أن صنّـاعها لم يتقنوا صنعتها ، ففضحوا أنفسهم بها ، ودلّوا على مَقاتل النظم.

ثم أخذ قصيدة أخرى من القصائد المنسوبة لأمية ، وهي فى وصف الجنة والنـار أستهلت بهذا البيت :

جهنّـم تلك لا تبقى بَغِيّـاً ... وَعدنٌ لا يطالعها رجيمُ

ثم أستمر فى قراءتها ، وفي ما جاء فيها من وصف للجنة والنار ، ثم أنعم النظر فى عبارات هذه الأبيـات :

فَـذا عسـلٌ وذا لبن وخَمْـرٌ ... وقمح فى منابتـه صَـريمُ
ونخل ساقط الأكتـاف عـد ... خـلالَ أصولِهِ رطَب قميمُ
وتفـاحٌ ورُمّـانٌ ومَوْزٌ ... وماء بارد عَذْبٌ سـليمُ
وفيهـا لحم سـاهرة وبحر ... وما فاهوا بـه لهُمُ مقيمُ
وحُورٌ لا يَرَيْنَ الشمس فيها ... على صُوَرَ الدُّمَى فيها سُهومُ
نواعمُ فى الأرائك قاصـرات ... فهنّ عقـائلٌ وَهُمُ قرومُ
على سُررٍ تُرَى متقـابلاتٍ ... ألا ، ثَمَّ النّضـارةُ والنعيمُ
عليهمْ سُندُسٌ وجيادُ رَيْطٍ ... وديبـاجٌ يرى فيهـا قتـومُ
وحُلّوا من أساورَ من لُجَيْنٍ ... ومن ذهب ، وعسجده كريمُ
ولا لغوٌ ولا تـأثيمَ فيهـا ... ولا غَوْلٌ ولا فيهـا مُليمُ
وكأس لا تصدّع شـاربيها ... يَلَذُّ بحسن رؤيتهـا النـديمُ
تصفّق فى صحاف من لُجَيْنٍ ... ومن ذهب مبـاركة رذُومُ (١)

---

(١) تجد اختلافاً في كلمات هذه القصيدة وأبياتها ، وكذلك فيقصائد هذا الشاعر الأخرى ، فارجع =

ثم احكم بعد ذلك على صاحب هـــذه الأبيات . لقد حاول ناظمها إدخال بعض الـكلمات الجاهلية فيها ، لإلباسها ثوباً جاهلياً ، ولإظهـارها بمظهر الشعر الجاهليّ الأصيـل ، ولـكنه لم يتمكن من ذلك ، بل صيرها فى الواقع نظماً لوصف الجنة والنار في الإسلام . وما بي حاجة الى أن أحيلك على الآيات التي أخذ منها صاحب هذا الشعر وصفه من القرآن الـكريم .

ومن الغريب أن بعض الأخباريين اتخذ هذا النظم وأمثاله حجة لتبيان عقائد الجاهليين ، فذكر مثـلاً أن العرب فى جاهليتها كانت تؤمن بالجزاء ، وأن منهم من نظر فى الـكتب وكان مقراً بالجنّة والنار . وحجته فى ذلك هذه المنظومة المنسوبة إلى أمية [1] . وقد نسي أن ما قاله على سبيل التعميم أو التغليب ، يناقض ما جاء فى القرآن الـكريم وما أورده الأخبـاريون عن الجاهليين .

ثم خذ قصيدته فى عيسى ابن مريم وحمل أمه به [2] ، وسائر قصائده الأخرى ، تجد عليها هذه المسحة الإسلامية بارزة ظاهرة ، ولـكنّ هذا لايمنع مع ذلك من القول بوجود أبيات قد تـكون من نظم أمية حقاً ، في هذا المنظوم الديني . غير أن هذا الموجود ، هو على كل حال مما لايتعارض مع عقائد الإسلام . ومن الممكن إدراكه بدراسة ألفاظه وأسلوبه وأفـكاره ، وبهذه الطريقة نتمكّـن من استخلاص الأصيل من شعره من الهجين .

وكلّ ما يعرف عن سُوَيْد بن عامر المصطلقيّ أنه كان على دين الحنيفية وملّـة ابراهيم ، وأنه قال شعراً ، وصلت منه بضعة أبيات فى « المنايا » وفى القدر على الإنسان ، وأن المنـايا محتومـة لا مفرّ منها ، وأن الخير والشر مكتوبان على النواصي ، وليس لأمرىء يدٌ فيما يصيبه من مقدور . فهي فى هـذه المشكلة المعضلة التي شَـغَلَـتْ بال الإنسان ولا تزال تشغله مشكلة

= في ذلك الى طبعات ديوانه والى كتب الأدب لمعرفة مواضع الاختلاف : كتاب البدء والتأريخ (١/٢٠٢ وما بعدها) ، ديوان أمية (ص ٥٣) « طبعة بشير يموت » ، ديوان أمية (ص ٥١ وما بعدها) « طبعة فردرش شولثيس » .

(١) كتاب البدء والتأريخ (١/٢٠٢) . « طبعة كليمان هوار » « النص العربي » .

(٢) ديوان أمية (ص ٥٨) « طبعة بشير يموت » .

« الجبر والاختيار » ، أو « القدر » ، المشكلة التي احتلت منزلة الصدارة في « علم الكلام ».
ويقال إنها أنشدت للرسول ، فلما سمعها ، قال : لو أدركته لأسلم [1] .

ورفع بعض الأخباريين أيام أسعد أبي كرب الى سبعمئة سنة قبل مبعث النبي ، وقالوا إنه هو تبّع الأوسط ، وأنه أكثر الغزو ، ولم يدع مسلكاً سلكه آباؤه إلا اتبعه . وكان يغزو بالنجوم ويسير بها ويمضي أموره بدلالتها ، وطالت مدته ، واشتدت وطأته بهم ، فملّته حِمْيَر ، لما كان يأخذهم به من الغزو ، فقتلوه . وقالوا إنه كان أول من كسا البيت الأنطاعَ والبرودَ ، ونسبوا اليه شعراً زعموا أنه قاله يشهد فيه بنبوة الرسول قبل مبعثه بسبعمئة سنة ؛ لأنه كان قد علم بذلك ، فآمن به ؛ وأنه ذكر أن ذا القرنين كان مسلماً قبله ، وكذلك كانت بلقيس ابنة عمه مسلمة من قدماء المسلمين .

وأما وكيع بن سلمة بن زهير الإياديّ ، فهو من إياد ، زعم ابن الكلبي أنه ولي البيت بعد جُرْهُم ، فبنى صرحاً بأسفل مكة ، وجعل فيه أمة يقال لها « حزورة » ، وبها سميت حزورة مكة ، وجعل في الصرح سلّماً ، فكان يرقاه ويزعم أنه يناجي الله . وكان ينطق بكثير من الخبر ، ويزعم الناس أنه صِدِّيق من الصِدِّيقين [2] . فهو ، على هذا الوصف ، رجل مدع للوحي والنبوة . ذكروا له كلمات مسجعة ، ليس فيها ما يشرح لنا معتقده الديني ويوضحه وضوحاً تاماً . والظاهر أنه كان بعيد العهد بعض البعد عن المبعث ، بدليل قولهم إنه ولي البيت بعد جرهم ، لذلك لم تعِ ذاكرتهم من آرائه ومعتقداته شيئاً يذكر . غير أن هذا لا يعني أنه كان بعيداً جداً عن الإسلام ، وإلاّ سقط اسمه من ذاكرة الأخباريين ، أو تحوّل إلى شخصية من نمط الشخصيات التي بعدت أيامها بعض البعد عن أيام الرسول ، فصارت أسطورة من الأساطير ، أو قصة اختلط فيها الواقع بالخيال [3] .

---

(١) بلوغ الأرب (٢/٢٥٩) .

(٢) « وكيع بن سلمة بن زهر بن إياد وهو صاحب الصرح بحزورة مكة . وقد أكثروا فيه ، فقالوا كان كاهنا ، وقالوا كان صديقاً من الصديقين » ، المحبر (ص ١٣٦) ، بلوغ الأرب (٢/٢٦٠) .

(٣) « وقال : الإيادي صاحب الصرح ، الذي اتخذ سلماً لمناجاة الرب ، وهو القائل : مرصعة =

وكلُّ ما عرفه أهل الأخبار عن عُمَيْر بن جندب الجُهَني أنه كان من جُهَيْنَة ، وأنه كان موحّداً لم يشرك بربه أحداً ، وأنه مات قبيل الإسلام [1] .

وزعموا عن أبي قيس صرمة بن أبي أنس أنه كان قد ترهب ولبس المسوح ، وفارق الأوثان ، واغتسل من الجنابة ، وهمَّ بالنصرانية ، ثم أمسك عنها ، ودخل بيتاً اتخذه مسجداً لا تدخله طامث ولا جنب ، قائلاً : « أعبد ربّ ابراهيم » . فلما جاء النبي الى يثرب ، أسلم وهو شيخ كبير . وذكر أنه كان له شعر ، وأن ابن عباس كان يختلف اليه ، يأخذ عنه الشعر [2] .

وليس للأخباريين شيء يقولونه عن إيمان سيف بن ذي يزن ، واعتقاده بالله وبالتوحيد ، غير ما ذكروه من قصص عن ذهاب عبد المطلب اليه وزيارته له في قصره « غُمدان » ، وتنبؤ سيف بن ذي يزن بولادة الرسول وبأماراته وباسمه ، وبأنه سيموت قبل مبعثه . وقد افتتح الألوسيّ قصة سيف بن ذي يَزَن بهذه العبارات : « قال الإمام الماوَرْدِي في « أعلام النبوة » : لما ظفر سيف بن ذي يزن بالحبشة ، وذلك بعد موت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بسنين ، أتى وفود العرب وأشرافها وشعراؤها لتهنئته ومدحه ... الخ » [3] . وجملة « وذلك بعد موت النبي » لا تستقيم مع القصة ، وقعت سهواً بالطبع ، فرأيت التنبيه على ذلك .

وكان عامر بن الظِرب العَدْواني من الحكماء ، نسبت اليه أقوال في الحكم والدين : منها : « إني ما رأيت شيئاً قط خلق نفسه ، ولا رأيت موضوعاً إلا مصنوعاً ، ولا جائياً إلا

= وظالمة ، القطيعة والفجيعة ، وصلة الرحم وحسن الكلام ، زعم ربكم ليجزين بالخير ثواباً ، وبالشر عقابا . وإن من في الأرض عبيد لمن في السماء . هلكت جرهم وربلت إياد ، وكذلك الصلاح والفساد . من رشد فاتبعوه ، ومن غوى فارفضوه . كل شاة معلقة برجلها .

وإياه يعني الشاعر بقوله :

ونحن إياد عبيد الإله ورهط مناجيه في السلم
ونحن ولاة حجاب العتيق زمان الرعاف على جرهم »

البيان والتبيين (٢/١٠٩ وما بعدها) أمثال الميداني (٢/٨١) .

(١) بلوغ الأرب (٢/٢٦١ وما بعدها) .
(٢) الإصابة (٣/٢٦٢) « صرمة » ، أسد الغابة (٣/١٨) ، بلوغ الأرب (٢/٢٦٦) .
(٣) بلوغ الأرب (٢/٢٦٦) .

ذاهباً . ولو كان يميت الناس الداء ، لأحياهم الدواء » . ثم قال : « إني أرى أموراً شتى وحتى. قيل له : وما حتى ؟ قال : حتى يرجع الميت حيّاً ، ويعود اللا شيء شيئاً ، ولذلك خلقت السماوات والأرض ، فتولوا عنه ذاهبين »[1] . وقـد كان على راوي هذا القول وناسبه الى صاحبه الانتباه لوجوب مراعاة أسـاليب الحكماء والكهان فى الخطاب ، وتجنب استعمال مصطلحات لا يمكن أن تصدر من الجاهليين .

وقد نسبوا اليه جملة أحكام ، منها حكمه فى « الخنثى » ، وقد ذكروا أن حكمه هـذا قـد أقرّه الاسلام . وقالوا إن العرب كانت إذا أشكل عليها أمر فى قضاء ، أو حارت فى أمر معضل ترى وجوب الحكم فيـه برأي صائب وعقل وتدبير ، ذهبت اليه ، فإذا حكم كان حكمه الحكم الفصل ، فلا رادّ له[2] . وقد أدخله الجاحظ فى عداد الخطباء البلغاء والحكام الرؤساء ، مثل أكثم بن صَيْفيّ وربيعة بن حُذار وهرم بن قطبة ولَبيد بن ربيعة الشاعر[3] .

---

(١) المحبر (ص١٣٥ ، ١٨١ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩) ، بلوغ الأرب (٢/٢٧٥ وما بعدها) .

(٢) الروض الأنف (١/٨٦ وما بعـدها) ، ابن هشام (١/١٣٤) ، « طبعة محمد محي الدين عبد الحميد » ، المعمرون (٤٤ وما بعدها) ، عيون الأخبار (١/٢٦٦) .

(٣) البيان والتبيين (١/٢٦٤ ، ٣٦٥ ، ٤٠١) (٢/٧٧ ، ١٩٩) (٣/٣٨ ، ٣٩ ، ٢٩٩ ، ٣٦٩) ، « وربيعـة بن حذار بن عامر العكلي . كغراب : جواد ، معروف ، وهو الذي تحـاكم اليه عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية . وفي هذا يقول الأعشى :

وإذا أردت بأرض عكل نائلا   فاعمد لبيت ربيعة بن حذار

وذكر ابن حبيب عن ابن الكلبي مثل ذلك : وفيه زيادة بعد قوله عكلى من بني عوف بن عبد مناة بن أد بن طابخة . وفيه : تحـكم لعبد المطلب . قلت وهو غير ابن حذار الأسدي حكم العرب الآتي ذكره . قال الصغاني : وإياه عنى الذبياني بقوله :

رهط ابن كوز محتبي أدراعهم   فيها رهط ربيعـة بن حذار

وذو حذار من ألهان بن مالك بن زيد بن أوسلة بن ربيعة بن الخيار أخي همدان بن مالك ، وحبيبة بنت عبد العزى بن حذار شاعرة ، توصف بالـكرم . وهي من بني ثعلبة بن سعد بن ذبيان .

وربيعة بن حذار الأسدي ، من بني أسد بن خزيمة ثم بني سعد بن ثعلبة بن دودان . وحذار هو ابن مرة ابن الحرث بن سعد بن ثعلبة بن دودان . والمشهور بالنسبة اليها قبيصة بن جابر بن وهب بن مالك بن عميرة بن حذار بن مرة الأسدي الحذاري من التابعين ذكره السمعاني . وذكر ابن الـكلبي قيس بن الربيع الأسدي الـكوفى من ولد عميرة بن حذار بن مرة حكم العرب وقاضيها في الجاهلية » ، تاج العروس (٣/١٣١) .

وللحكام منزلة كبيرة بين العرب ، ولهذا كانت القبائل تفتخر بوجود حاكم مطاع فيها ، وبخاصةً إذا كان من طبقة الحكام الذين يقصدهم الناس من مختلف القبائل لشيوع الأصالة في الرأي عنه . وأحكامهم ، وإن لم تكن لها قوة منفذة ، تنفذ وتراعى ، وتعدّ مخالفتها منقصة وإهانة عظيمة ونكثاً بالعهد الذي يتعهد به المتخاصمان أمام الحاكم قبل اعطائه الحكم وقبوله النظر في الدعوى بوجوب الامتثال له وإطاعته . وقد خلدت بعض تلك الأحكام ، وصارت سنة للناس وقانوناً يسيرون عليه . وقد أقر الكثير منها الإسلام .

وأما وَرَقة بن نَوْفَل ، فهو ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العُزَّى بن قُصَيّ ، يلتحم نسبه بنسب الرسول في جد جده . ذكروا أنه ساح على شاكلة من شَكٍّ في دين قومه ، وتتبع اليهود والنصارى ، وقرأ الكتب حتى اهتدى الى النصرانية . ولذلك سأرجيء الحديث عنه الى الفصل الخاص بالنصرانية عند الجاهليين .

ونسبت الى كل من عبد الطابخة بن ثعلب بن وبرة بن قضاعة وعلاف بن شهاب التميمي أبيات ، فيها إقرار بوجود إله واحد خالق لهذا الكون ، وبوجود الحساب والثواب والعقاب [1] .

وأما المتلمس بن أميّة الكناني ، فذكروا أنه كان قد اتخذ من فِناء الكعبة موضعاً يخطب فيه ، ويعظُ قومه عظات دينية ، فكان في جملة ما قاله لهم : « إنكم قد تفردتّم بآلهة شتى ، وإني لأعلم ما الله راض به . وإن الله تعالى ربّ هذه الآلهة ، وإنّه ليحب أن يعبد وحده » فنفرت كلماته هذه وأمثالها القوم منه وتجنبته ، وقالوا عنه إنه على دين بني تميم [2] .

وفي أبيات منسوبة الى زُهَير بن أبي سُلْمَى الشاعر المعروف إقرارٌ بوجود إله عالم بكلّ ما في النفوس ، هو « الله » ، لا تخفى عليه خافية ، فلا يجوز كتمان شيء عنه ؛ وبوجود يوم حساب يحاسب فيه الناس على ما قاموا به من أعمال ، وقد ينتقم الله من الظالم في الدنيا قبل

---

(١) بلوغ الأرب (٢/٢٧٦ وما بعدها) .

(٢) بلوغ الأرب (٢/٢٧٧) .

الآخرة ، فلا مخلص له [1] .

ونسب الإيمان بالله وباليوم الآخر الى أشخاص آخرين ، منهم : عبد الله القضاعي ، والشاعر عَبيد بن الأبرص الأسدي ، وكعب بن لُؤيّ بن غالب . والأول منهم هو أبن تغلب بن وبرة بن قضاعة ، وكان من الحكماء الخطباء ، يتبع الحنيفية ، وينهج على نهجها مثل بقية الحنفاء [2] .

وأما الثاني ، وهو عَبيد بن الأبرص ، فشاعر جاهلي شهير ، له فى قتله قصة ، هي من ذيول قصة « الغَرِيَّيْن » للمنذر بن ماء السماء . نجد فى الشعر المنسوب اليه أسم « الله » يتردد فى كثير من المواضع ، ونراه من المتشائمين المؤمنين بالمنايا وبالمحتم المكتوب ، ونراه فى القصيدة البائية يتوكل على الله ، ويدعو الناس الى الاعتماد عليه فيقول :

من يسأل الناس يحرموه	وسائل الله لا يخيب
بالله يدرك كُلُّ خير	والقول فى بعضه تلغيب
والله ليس له شريك	عَلاّمُ ما أخفت القلوب [3]

ونراه يقول فى المنايا :

فأبلغ بنيّ وأعمامهم	بأن المنايا هي الوارده
لها مدّة فنفوس العباد	اليها وإن كرهت قاصده
فلا تجزعوا الحمام دنا	فللموت ما تلد الوالدة [4]

وفى كثير من مواضع شعره يذكر المنايا ويتذكر الموت ، ثم هو يتجلد ويتصبر فى ملاقاة

---

(1)

فلا تكتمن الله ما في صدوركم	ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيودع في كتاب فيدخر	ليوم الحساب أو يعجل فينقم

شرح ديوان زهير بن أبي سلمى للامام ثعلب (ص ١٢) « مقدمة » « طبعة دار الكتب المصرية : سنة ١٩٤٤ » ، بلوغ الأرب (٢/٢٧٧ وما بعدها) ، شعراء النصرانية (القسم الرابع ص ٥١٨) .

(2) بلوغ الأرب (٢/٢٨٠) .

(3) البيان والتبيين (١/٢٢٦) ، شعراء النصرانية (القسم الرابع ص ٦٠٧ وما بعدها) .

(4) شعراء النصرانية (القسم الرابع ص ٦٠٤ وما بعدها) .

الشدائد والأهوال ، وينصح للناس بالسير على هذا المنوال . والذي يقرأ شعره ، يشعر أنه أمام رجل حضري رقيق عاطفي المزاج ، ذي نفس ميالة الى التقشف والتصوّف ، مؤمن بالعدل ، كاره للظلم ، فهل كان عبيد على هذه الشاكلة ؟ وهل هذا الشعر وخاصة ما جاء منه في البائية هو نظم من منظومه ؟ أو هو من نظم من عاش بعده في الاسلام ؟

وأما كعب بن لؤي بن غالب . فهو من أجداد النبي . وقد كان على الحنيفية ، واليه كانت تجتمع قريش في كل جمعة ، فكان يعظهم ويوجههم ويرشدهم ، يأمرهم بالطاعة والتفكر في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار وتقلب الأحوال والاعتبار بما جرى على الأولين والآخرين ، ويحثهم على صلة الأرحام وإفشاء السلام وحفظ العهد ومراعاة حق القربة والتصدق على الفقراء والأيتام [1] .

هذه خلاصة موجزة لسير من حشرهم أهل الأخبار في زمرة الحنفاء ، تُريك آراء تلك الجماعة تكاد تكون واحدة : كفر بالأصنام وبالشرك كله ، وإعراض عن عادات قومهم ، وثورة على عقائدهم ، وامتناع عن أكل ذبائحهم لأنها مما أُهِلَّ به لغير الله ، وترقّب لحدوث تطور وإصلاح يقضي على الجهالة ، وقد مهدوا له بدعوتهم تلك التي أشاعوها بين بني قومهم فجلبت عليهم السخط والغضبَ الشديد ، مما حمل أكثرهم ، وهم في الغالب من مكة وأطرافها ، على الفرار من بلدتهم الى أطرافها المنعزلة الآمنة وغيرها من الأماكن الخالية ، ليكونوا في أمان من ايذاء قومهم لهم ، وفي وسط يفكرون فيه في خلق السماوات والأرض تفكيراً هادئاً ، فلا يزعجهم مزعج ، ولا ينغّص حياتهم هناك منغّص .

ويؤكد أهل الأخبار أن بعض أولئك الحنفاء كانوا يسيرون على سنة إبراهيم وشريعته ، وأن بعضاً آخر منهم كان يلتمس كلماته ويسأل عنها ، وأنهم في سبيل ذلك تحملوا المشاق والأسفار والصعاب . وقد جعلوا وجهة أكثرهم أعالي الحجاز وبلاد الشام وأعالي العراق . أي المواضع التي كانت غالبية أهلها على النصرانية يومئذ ، وجعلوا أكثر كلامهم وسؤالهم مع

---

(١) طبقات ابن سعد الجزء الأول : القسم الأول (ص ٣٩) ، بلوغ الأرب (٢/٢٨٢) .

الرهبان . وقد أضافوا اليهم الأحبار فى أكثر الأحايين ، وذكروا أن الرهبان والأحبار أشاروا عليهم بوجوب البحث والتأمل ، فليس عندهم ما يأملونه ويرجونه من دين ابراهيم واسماعيل ، ولذلك لم يدخلوا فى نصرانية ولا يهودية ، بل ظلوا ينتظرون الوعد الحق ، ومنهم من مات وهو على هذه العقيدة . مات معتقداً بدين ابراهيم حنيفاً ، غير مشرك بربه أحداً .

أما كيف كانت شريعة ابراهيم ، وعلى أي نهج سار الحنفاء ، وهل كان لهم كتاب منزل ونحو ذلك ؟ فأسئلة لم يجب عنها أهل الأخبار اجابة صريحة واضحة . وقد رأيناهم فى حالات عديدة يقولون إن العرب جميعهم كانوا فى ماضيهم القديم على ملة أبيهم ابراهيم من التوحيد وعبادة خالق خلق الأرض والسماوات ، الى أن أغواهم الشيطان بأن هيّأ لهم عمرو بن لُحَيّ ، فأضلهم عن سواء السبيل ، وزيّن لهم عبادة الأصنام . وهي عبادة تلقاها من البلقاء ، فوزع الأصنام فى القبائل : خص كل قبيلة بعبادة صنم ، وعرفهم كيف يذبحون لها ويتقربون اليها . فالعرب منذ أيامه على هذه الضلالة والبدعة ، لم يشذ عنها سوى القليل منهم ، وهم الحنفاء .

ويذكر أهل الأخبار أنه كان لأتباع ابراهيم من العرب علامات وعادات ميزوا أنفسهم بها عن غيرهم ، منها : الختان ، وحلق العانة ، وقص الشارب . وهي علامات جعلها بعض المفسرين من « كلمات ابراهيم » التي ذكرت فى القرآن الكريم ، فى الآية : « وإذِ أبتلى إبراهيمَ ربُّهُ بكلمات فأتمّهن »[1] . ذهب القائلون بهذا الرأي الى أن تلك الكلمات هى عشر : « خمس فى الرأس ، وخمس فى الجسد . فأما التي فى الرأس ، فالمضمضة والاستنشاق وقص الشارب وفرق الرأس والسواك . وأما التي فى الجسد ، فالاُستنجاء وتقليم الأظافر ونتف الإبط وحلق العانة والختان »[2] .

وحصر « كلمات ابراهيم » بعشر كلمات ، يذكرنا بالوصايا العشر المذكورة فى التوراة ،

---

(١) البقرة الآية ١٢٤ .

(٢) الطبري (١/٤١٤ وما بعدها) ، روح المعاني (١/٣٧٤) ، بلوغ الأرب (٢/٢٨٧) ، المحبر (ص ٣٢٩) .

ويقال لها « الكلمات العشر » كذلك[1] . ولكن هذه الكلمات هي وصايا كتبها الله على لوحين من الحجر ، في الأول منهما الوصايا المتعلقة بالله وهي أربعة ، وفي الثانية الوصايا الست الباقية وهي مما تتعلق بالإنسان . أما « كلمات ابراهيم » على تفسير المفسرين ، فإنها ليست وصايا ، بل هي كما رأينا مجرد كلمات تخص عادات قوم وشمائرهم ، فهي تختلف من حيث جوهرها عن الوصايا العشر . ويشبه تقسيمُ المفسرين للكلمات الى قسمين تقسيمَ العبرانيين للوصايا أيضاً ، غير أن تقسيم المفسرين للكلمات روعي فيه التساوي . ثم إن القسمين يخصان جسد الإنسان ، أما تقسيم الوصايا فإنه غير متكافىء ثم إنه يخص الله والإنسان ؛ لأن الوصايا أوامر أمر الله بها شعبه شعب اسرائيل بوجوب اتباعها والعمل بموجبها ، فعين ما يجب أن يقوم به المخلوق تجاه خالقه ، وهو القسم الأول من الوصايا وعدده أربعة ، ثم عيّن في القسم الثاني ما يجب أن يقوم به المخلوق تجاه أخيه المخلوق مثله ، وهي بقية الوصايا العشر .

وقد أشير إلى هذه العادات في الحديث ، وأشير إلى بعضها في كتب اليونان واللاتين والعبرانيين والسريان . وقد أشير إلى « الختان » من بين هذه العادات خاصةً . وقد ذكر العبرانيون أنه كان من الفروض المحتمة عند الإسماعيليين ، أي عرب العربية الشمالية الغربية ، الذين كانوا يرجعون أنسابهم الى « يشمائيل » ، وهو « اسماعيل » . والختان وإن كان من العادات الاجتماعية ، هو من الشعائر الدينية في الأصل . وهو معروف عند العبرانيين أيضاً ، ويرجعون تأريخه الى ما ورد عنه في التوراة . وهو على ما يظهر من الشعائر السامية القديمة التي ترجع إلى عقيدة التضحية بقطع جزء من أعضاء الجسم ، دلالة على الفداء والفناء في خدمة الأرباب والتقرب اليها . وقد كان معروفاً عند قدماء النصارى ، ثم تركوه . فهو إذن في الأصل قربان من القرابين .

---

(١) الخروج : الاصحاح ٣٤ ، الآية ٣٨ ، الاصحاح ٣١ الآية ١٨ ، الاصحاح ٢٥ الآية ١٦ ، التثنية : الاصحاح ٣٩ الآية ١ ، قاموس الكتاب المقدس (٢/٤٧٦) .

لقد جعل أهل الأخبار معظم من تحدثنا عنهم إن لم نقل كلهم من القارئين الكاتبين، ونسبوا الى بعضهم قراءة « الصحف » وقراءة « مجلة لقمان » وقراءة الكتب السماوية و « الزبور » . ويفهم من كلامهم فى بعض الأحيان أن منهم مثل أمية بن أبي الصلت من كان يحسن فهم العبرانية أو لغة بني إرم ، والى أكثر هذه المعرفة فى أميّة عزوا استعماله للكلم الغريب . ولكن الأخباريين عفا الله عنهم لم يتبسطوا لنا فى الحديث عن ماهية تلك الصحف وعن محتويات مجلة لقمان وعن الكتب المنزلة ، ولم يأتوا بنماذج مفصلة طويلة أو قطع ترشد إلى المظانّ التي نقلت منها . فأضاعوا علينا ، بإهمالهم الإشارةَ إلى هذه الأمور ، أشياء كثيرة مهمة، بنا حاجة ماسّة الى معرفتها ، للوقوف على الحالة الدينية فى جزيرة العرب قبيل الإسلام وإبّانَ ظهوره .

ولكن الوقوف على « مجلة لقمان » ، وعلى « الصحف » والكتب السماوية لم يكن خاصاً بالحنفاء ، بل شاركهم فى ذلك أناس لم يدخلهم أهل الأخبار فى هذه الزمرة ، ولم يشيروا إلى أنهم كانوا على دين ابراهيم ، كالذي ذكروه عن « سويد بن الصامت » . ذكروا أنه « قدم مكة حاجاً أو معتمراً ، فتصدى له رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاه الى الله عز وجل والى الإسلام. فقال له سويد : لعلّ الذي معك مثل الذي معي . فقال له رسول الله : وما الذي معك ؟ قال : مجلة لقمان . يعني حكمة لقمان . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أعرضها عليّ . فعرضها عليه . فقال : إن هذا الكلام حسن ، والذي معي أفضل منه : قرآن أنزله الله عليّ ، وهو هدى ونور . فتلا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن ، ودعاه إلى الإسلام ، فلم يبعد . وقال : إن هذا القول حسن ، ثم انصرف ، وقدم المدينة على قومه ، فلم يلبث أن قتلته الخزرج . فكان رجال من قومه يقولون : إنّا لنراهُ مات مسلماً . وكان قتله يوم بعاث »[1] . ففي هذا الخبر أن غير الحنفاء كانوا يتملكون « مجلة لقمان » ويعرفونها . وهو خبر لم يشر إلى لغة « مجلة

---

(١) أسد الغابة (٢/٣٧٨) .

لقمان » ، ولكن القرائن والظواهر تشير من غير شك إلى أنها عربية ، ورأيي أنهـا باللهجة التي نزل بها القرآن الكريم .

وإذا كان معظم ما ذكر عن الحنفاء هو مما يتعلق بالعقائـد والآراء ، فإن الأخباريين يذكرون أنه كان لأهل الجاهلية سنن ساروا عليها ، أبقى الإسلام بعضها ، وأسقط بعضاً منها . ولما كان لهذه السنن علاقة بالشريعة وبالدين ، فلا بد من الإشارة اليها فى هذا الفصل .

ومن هذه السنن : الطلاق الثلاث ، وقد ذكروا أن أول من طلّق إسماعيل بن ابراهيم ، والخِطْبة ، أي خطبة المرأة الى أبيها أو أخيها أو عمها أو بعض بني عمها وأولياء أمرها . والحج الى البيت ، والعمرة ، والطواف ، والتلبيـة ، والوقوف بعرفات ، والهَدْي ورمي الجمـار ، والاغتسال من الجنابة ، وتغسيل الموتى وتكفينهم والصلاة عليهم ، والإيمان بالحساب ، وقطع يد السارق وصلب قاطع الطريق ، والوفاء بالعقود ، والامتناع عن أكل الميتة [1] ، والصوم .

وقد تحدثت عن بعض هذه السنن فى الفصول السابقة . أما السنن الباقية ، فقد حكم أهل الأخبار على انتشارها بين العرب من ورود ذكرهـا فى بعض الأشعار الجاهلية ، أو فى بعض الأخبـار . ولكن ورود الإشارة الى شيء فى شعر أو فى خبر أو فى قصة لا يمكن أن يكون حجة كافية للحكم بتعميم حكم على جميع العرب ، ولا سيما أن بعضه مما يتنـافى وجوده مع ماورد عنه فى القرآن الكريم وفى الحديث . ثم إننا لانستطيع بأية حال من الأحوال تعميم أي شيء مما ذكره أهل الأخبار عن الجاهلية على جميع جزيرة العرب . فقد رأينا أن علم الأخباريين لايتجاوز فى الغالب حدود الحجاز والقسم الغربي والقسم الشمالي من نجد . أما ما دون ذلك ، فلم يكن لهم علم به . ويمكن عدّها فى حكم الأرضين المجهولة عند الأخباريين . والإسلام هو الذي فتح آفاقها لأهل الأخبار بدخول أهلها فيه ، واتصالهم ببعض الاتصال مع بقية إخوانهم فى الدين . وهو اتصال ظلّ مع ذلك محدوداً حتى الآن .

---

(١) المحبر (ص ٣٠٩ وما بعدها) « السنن التي كانت الجاهلية سنتها ، فبقى الإسلام بعضها ، وأسقط بعضها » .

ثم إن الآثار المكتشفة فى اليمن وفى الأنحاء المذكورة ، تثبت عدم إمكان القول برأي هؤلاء الأخباريين وتعميمه ، فقد كانت عبادات أصحابها وسننهم تختلف كثيراً عن العبادات والسنن التي يذكرها أهل الأخبار ، وأدلة الآثار أقوى ولا شك من أقوال الأخباريين ورواياتهم .

والتلبية ، هي من الشعائر الدينية التي أبقاها الإسلام ، غير أنه غير صيغتها القديمة بما يتفق مع عقيدة التوحيد . وقد ذكر أهل الأخبار أنه كان لكل صنم تلبية خاصة به . والتلبية هي بمثابة الإجابة لنداء الصنم . وهي تعني اللزوم للطاعة والإجابة [1] . فكانت تلبية قريش ، وكان نسكهم لإساف : « لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ ، لَبَّيْكَ لا شريكَ لك ، إلا شريك هولك ، تملكه وما ملك » [2] . وكانت تلبية من نسك للعُزَّى : « لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لبيك ، لبيك وسَعْدَيْك ، ما أحَبَّنا إليك ! » .

ولا تختلف تلبية بقية الأصنام عن هذه التلبية إلا اختلافاً يسيراً ، وفى بعضها إشارة إلى قبائل أخرى ، أشير اليها على سبيل التعريض بها أو دفعاً لأذاها وشرها . وهي قصيرة مسجَّعة ، يستنتج منها أن كل قبيلة كانت تلجأ الى صنمها الذي اختصت به فى الحج لتلبي عنده ، وإلا ما كانت تلبيتها خاصةً بصنم معيَّن ، بل كانت عامّةً تشمل جميع الأصنام [3] .

وتردد جمل التلبية بصوت مرتفع ، ولعل ذلك لاعتقاد الجاهليين أن فى رفع الصوت إفهاماً للصنم الذي يطاف له بأن الطائف قد لبّي داعيه ، وأنه استجاب أمره وحرص على طاعته . وقد أشار بعض الكتّاب « الكلاسيكيين » إلى الصخب والضجيج الذي كان يرتفع فى مواضع الحج بسبب هذه التلبية .

وقيل إن من شعائر الجاهليين فى الحج أن الرجل منهم كان اذا أحرم ، تقلد قلادة من

---

(١) تاج العروس (١/٤٦٤) « لبب » .

(٢) المحبر (ص ٣١١) ، البخاري : « كتاب الحج » ، الحديث ٣١ وما بعده ، « أن تلبية رسول الله صلى الله عليه وسلم : لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك . إن الحمد والنعمة لك ، والملك لا شريك لك » ، عمدة القارىء (٩/١٧٢ وما بعدها) ، « باب التلبية » ، بلوغ الأرب (٢/٢٨٨) .

(٣) راجع صيغ بقية التلبيات في كتاب المحبر (ص ٣١١ وما بعدها) .

شعر ، فلا يتعرض له أحد . فإذا حج وقضى حجَّـه ، تقلد قلادة من « إذْخِر » ، والإذْخر نبات زكي الرائحة ؛ وأن الرجل منهم يقلد بعيره أو نفسه قلادة من لحِاء شجر الحرم ، فلا يخاف من أحد ، إذ لا يمكن أن يعترضه أحد بسوء ؛ لأنه ضيف في بيت الله ، ثم إنه في شهر حرام ، والأشهر الحرم أشهر مقدسة لا يجوز أن يقع فيها اعتداء ولا غارة . توارثوا ذلك كابراً عن كابر طبقاً لما جاء في دين ابراهيم (١) .

وأما الاغتسال من الجنابة وتغسيل الموتى ، فمن السنن التي أقرت في الإسـلام ، وقد أشير الى غسل الميت في شعر للأفوه الأوْدِيّ . وأشير الى تكفين الموتى والصلاة عليهم في أشـعار منسوبة الى الأعشى والى بعض الجاهليين (٢) . وتشمل هذه السـنن النوعين : الذكر والأنثى ، فغسل الجنابة واجب على الرجل والمرأة ، وهما يُعَدّان نجسين ، فلا يجوز لهما مسّ الأشياء المقدسة أو الدخول فيها ، إلا بعد الاغتسال ، كذلك لا يجوز لهما أداء الشعائر والفرائض الدينية في الشريعة الاسلامية ما لم يغتسلا ، أو التيمم عند الضرورة مثل فقدان الماء .

وأما الصوم ، فهو من الشعائر الدينية في الأديان القديمة ، ويذكر أهل الأخبار أن قريشاً كانت تصوم يوم عاشوراء . وفي هذا اليوم كانوا يحتفلون ، ويعيّدون ، ويكسون الكعبة . وعللوا ذلك بأن قريشاً أذنبت ذنباً في الجاهلية ، فعظم في صدورهم ، وأرادوا التكفير عن ذنبهم ، فقرروا صيام يوم عاشوراء ، فصاموه شكراً لله على رفعه الذنب عنهم (٣) .

والأخبار عن الصيام قبل الاسلام ، قليلة جداً . وهذا القليل الذي وصل الينـا ، لا يكفي لإعطاء رأي واضح مقبول عنه . ولم يرد في الشعر المنسوب الى الجاهليين شيء عنه . أما ما ورد عن الصيام في « يوم عاشوراء » ، فيفيد أن هذا الصيام كان خاصاً بقريش ، ولا يفيـد أنه كان عامّاً بين جميع القبائل ؛ لهذا ذهب بعض المستشرقين الى أن قريشاً أخذت صيامها من اليهود أو النصارى (٤) . وللصوم عند اليهود مكانة خاصة في ديانتهم ، وهم يصومون في مناسبات عديدة .

---

(١) بلوغ الأرب (٢/٢٨٩) .

(٢) المحبر (ص ٣١٩ وما بعدها) . (٣) بلوغ الأرب (٢/٢٨٨) .

(٤) Ency., IV, P. 192, f. Noldeke, Beirtage Zur Sem. Sprach. Wiss., S. 36.

وقد كان قدماؤهم يتقشفون فيه [1] .

وقد أشير الى الصيام في السورة المكية من القرآن الكريم كما أشير اليه فى سوره المدنية ، ويدل نزول الوحي به فى مكة وفى المدينة أنه كان من الفرائض القديمة التي فرضت فى أول الوحي ، وأن قريشاً كان لها علم به . ويظهر من بعض الآيات أن المراد من الصوم لم يكن الامتناع من الأكل والشرب حسبُ ، بل كان يعني فى أول عهد الوحي الامتناع عن الكلام كذلك [2] . وهو صوم معروف عند النصارى وعند غيرهم أيضاً ، ولا بد أن قريشاً كانت تعرفه ، لوجود جاليات من اليهود والنصارى كانت تقيم هناك .

وقد أشار أهل الحديث الى صيام « يوم عاشوراء » ، فجعله بعضهم الصيام الذي كان فى الإسلام قبل فرض صيام شهر رمضان ، وذكر بعضهم أنه كان مفروضاً الى السنة الثانية من الهجرة ، ثم نسخ بصوم رمضان [3] . وفى خبر أن هذا الصوم كان أو صار فى اليوم التاسع من المحرم ، وليس فى اليوم العاشر منه ، ولذلك قالوا له « صوم يوم التاسوعاء » . ويظن بعض المستشرقين أن صيغة « عاشوراء » ليست صيغة عربية ، بل هي إرمية . وقد كان بنو إرم من سكان يثرب القدماء ، أُستعربوا وأُندمجوا فى العرب ، ولكنهم تركوا أثراً فى ألسنة أهل المدينة ، ومن جملة هذا الأثر كلمة « عاشوراء » [4] .

ورواية أن قريشاً كانت تصوم فى يوم عاشوراء ، لا تتفق مع الروايات الأخرى فى كيفية فرض صيام شهر رمضان . ففي هذه الروايات أن النبي « حين قدم المدينة رأى يهود تصوم يوم عاشوراء ، فسألهم ، فأخبروه أنه اليوم الذي غرّق الله فيه آل فرعون ، ونجّى موسى ومن معه

---

(١) قاموس الكتاب المقدس (٢/٤٣١ وما بعدها) ، لاويون ١٦ الآية ٢٩ ، الخروج : الأصحاح ٣٢ ، العدد الاصحاح ١٣ الآية ٢٥ ، ارميا الاصحاح ٥٢ الآية ٤ ، الملوك الثاني الاصحاح ٢٥ ومواضع أخرى من التوراة .

(٢) « فإما ترين من البشر أحداً ، فقولي : إني نذرت للرحمن صوماً ، فلن أكلم اليوم إنسياً » ، سورة مريم الآية ٢٦ .

(٣) راجع كتب الحديث : كتاب الصوم .

(٤) Ency. , IV , P. 486 , ff., Sprenger , Leben , III , S. 53. ff.

منهم . فقال : نحن أحق بموسى منهم ، فصام ، وأمر النـــاس بصومه . فلما فرض صوم شهر رمضان ، لم يأمرهم بصوم يوم عاشوراء ، ولم ينههم عنه » [(١)] .

ويقصدون بصوم اليهود يومَ عاشــوراء ، ما يقــال له « يوم الكفارة » ، وهو يوم صوم وانقطاع ، ويقع قبل عيد المظال بخمسة أيام ، أي في يوم « ١٠ تشرى » ، وهو يوم« الكبور» « Kipur » . ويكون الصوم فيه من غروب الشمس الى غروبهـا في اليوم التالي ، وله حرمـة كحرمة السبت ، وفيه يدخل الكاهن الأعظم قدس الأقداس لأداء الفروض الدينية المفروضة في ذلك اليوم [(٢)] .

ومما يلاحظ أن الأخباريين لم يذكروا الصيام بين الشمائر الدينية التي كان يتبعها الحنفاء ، فهل يتخذ إغفال الأخباريين الإشارة الى وجوده عندهم حجة يستند اليها في إثبات عدم ممارسة العرب له قبل الإسلام ؟ يرى « شبرنكر » أن خبر صيام « قريش » قبل الإسلام إنما هو خبر متأخر ، ظهر على زعمه لإثبات أن الصيام من الســنن العربيــة القديمة ، وأنه لا أثر لسنة اليهود هذه مباشرة في ظهور الصيام في الاسلام [(٣)] .

والى هذا الزعم نفســه ذهب نفر آخر من المستشرقين ، وهم يرون أن المحرم ، وإن كان من الأشهر الحرم عند الجاهليين وللعشرة الأولى منه قدسية خاصة عندهم ، لا علاقة لحرمته وقدسيته بالصيام ، وأن كلمة « عاشـــــوراء » لا صلة لها بكلمة « عاشر » العربيــة ، بل هي من لفظة « عاسور ʿâsôr » العبرانية ، وتعني اليوم العاشر ، ألحق بها حرف « آ â » على طريقة لغة بني إرم . وتعني « عاسـورا » أو « عاشـوراء » يوم « الكبور Kipur » ، وهو يوم الغفران الذي يصام فيــه في اليوم العاشر من تشرين « تشرى Tischri » . ويرى بعض المستشرقين أنه بالنظر الى حرمة الأيّام العشرة الأولى من شـهر « تشرى » تشرين عنـد العبرانيين منـذ القديم ، وحرمة هذه الأيام عند الجاهليين ، لا يستبعد أن تكون حرمتها عنـد الجاهليين قد

---

(١) الطبري (٢/٢٦٥) « ذكر بقية ما كان في السنة الثانية من سني الهجرة » .
(٢) قاموس الكتاب المقدس (٢/٢٦٠) .
(٣) Sprenger , Leben III, S. 54.

ظهرت من اتصالهم باليهود ومن تأثرهم بهم ، ولهذا التأثير نفسه أثر فى جعل المحرم الشهر الأول فى التقويم [1] .

وأما ما نسب الى بعض الجاهليين من تحريمهم الخمر على أنفسهم ، فالظاهر أنه لم يكن عن عقيدة دينية ، وإنّما كان رأياً شخصياً انبعث من الأضرار والآفات التي تبينت لأصحاب هـذا التحريم ، فنادوا به . وقد كان أهل الجاهلية قد أفرطوا فى شرب الخمر إفراطاً سبب لهم مشكلات كثيرة جداً ، وأنزل بهم أضراراً فادحة فى المال والأنفس ، ولهذا جاء تحريمه في الإسلام . وتجد هذا التعليل الذي ذكرته مذكوراً فى النثر وفى الشعر المنسوب الى القائلين بتحريمه والامتناع من تناوله من الجاهليين [2] .

وليس فى إمكاننا أن نختم هذا الفصل دون التعرض لموضوع خطير كان له أثر مهم فى عقيدة أهل الجاهلية ، هو موضوع القدر ، الموضوع الذي أُحتل منزلة كبيرة فى الاسلام ، ولا سيما عند علماء « الكلام » . فأنت لا تكاد تقرأ شعراً منسوباً الى الجاهليين إلاّ ترى فيه اعتقاد الشاعر أن الإنسان يسير على وفق خُطّة رسمت له ، وقدر كتب عليه ، إن خيراً أو شراً ، وليس لما هو مكتوب من مردّ . وهذا يحملنا على البحث عن هذه العقيدة الدينية الفلسفية فى الشعر الجاهلي .

وقد تناول المسلمون هذا الرأي من ناحية علمية ، فأوجدوا أدلة ومصطلحات ، وألفوا فيه وناقشوه من ناحية الاعتقاد بوجود الله وقدرته وصفاته ، ومن ناحية أتّصافه بالعدل . وهي أمور لم يصل الى علمنا أن الجاهليين بحثوا فيها وعالجوها على هذا النحو ، فكل ما وصل عنه هو ما ورد فى الشعر المنسوب اليهم وفى النثر فى بعض الأحيان من أعتقاد أنه ليس للإنسان أثر فيما هو مكتوب له ولا اختيار ، وأنه لذلك يسير على وَفْقِ ما قُدّر له .

وقد عبروا عن هذا الرأي بكلمات لم تجد لها فى الإسلام المكانة التي كانت لها فى الجاهلية ؛ لأنها من المصطلحات التي كانت تختص بالوثنية ، وبآراء لا تتفق مع التوحيد ، فاختفى بعضها ، وقل أُستعمال بعضها بظهور مصطلحات جديدة نبتت فى الإسلام . ومن هذه الألفاظ الجاهلية:

---

(1) Noldeke, Qorans, I. S. 179.

(2) المحبر (ص ٢٣٧ وما بعدها) .

الدهر ، والحمام ، والمنايا ، والحتف ، والآجال ، والمحتوف ، والمنون ، والمنية ، وقضاء الموت و « ما حُمَّ واقعٌ » ، وحمام الموت ، والقدر والمقدر ، والزمان والأيام . ومن هذه ما ورد فى القرآن الكريم ، ومنها ما ورد فيه وفى الحديث .

أما الدهر ، فقد تحدثت عنه سابقاً ، ولا بأس من إعادة الكلام فيه ، لعلاقته بهذه العقيدة التي يجري الحديث عنها الآن . ومن معاني الدهر ، الزمان ، وقيل الزمان الطويل ومدة الدنيا كلها ومدة العالم من ابتداء وجوده الى انقضائه . وهو فى نظر أكثر أهل اللغة أطول من الزمان ، ولذلك قالوا إن العادة الباقية مدى الحياة يقال لها « الدهر » على سبيل المجاز ، فيقال : ما دهري بكذا ، وما ذاك بدهري ، أي عادتي [١] .

والمعنى الذي نفهمه من « الدهر » فى الشعر الجاهلي ، هو الأبدية مع التأثير فى حياة الإنسان وفى العالم [٢] .

ولهذا أضافوا اليه بعض الألفاظ التي تشير الى وجود هذا التأثير فى الحياة ، فقالوا : يد الدهر ، وريب الدهر ، وعُدَواء الدهر ، وأمثال ذلك من كلمات ، فنسبوا اليه الفعل فى الكون وفى كل ما فيه . والى هذا المعنى الذي كان فى عقيدة الجاهليين ، أشير فى القرآن الكريم ، فى آية : « وقالوا : ما هى إلا حياتُنا الدنيا ، نَموتُ ونحيا وما يهلكُنا إلا الدهر ، وما لهم بذلك من علم ، إن هم إلاّ يظنون » [٣] .

وقد بقي هذا الاعتقاد راسخاً في نفوس الجاهليين ، وفى نفوس السذج ممن أدرك الإسلام فأسلم ، فكانوا إذا أُصيبوا بأمر نسبوا ذلك الأمر اليه ، وكانوا إذا أُصيبوا بمكروه وبحادث

---

(١) تاج العروس (٣/٢١٩) ، اللسان ٥/٣٧٨ وما بعدها) .

(٢) « والدهر لا يبقى على حدثانه » ، « والدهر يحصد ريبه ما يزرع » ،
Caskel, DaS Schicksal in der Altarabischen Poesie, Leipzig, 1926, S. 48, W. L. Schramaier, uber den Fatalismus der Vorislamischen Araber, S. 12. ff. (Bonn, 1881).

ألم أخبرك أن الدهر غول ختور العهد يلتهم الرجالا

. . .

ألا إنما الدهر ليال وأعصر وليس على شيء قويم بمستمر

السندوبي (ص ٨٣ ، ١٧١) .

(٣) الجاثية الآية ٢٤ .

مزعج نسبوا حدوثه الى الدهر ، فسبّوه كما يتضح من حديث : « لاتسبوا الدهر ، فان الله هو الدهر » أو « فإن الدهر هو الله » ، ومن حديث « يؤذيني ابن آدم يسبُّ الدهرَ ، وإنما أنا الدهر : أقلب الليل والنهار » [1] . وأحاديث أخرى من هذا القبيل .

ومن الجمل التي تنسب الفعل الى الدهر قولهم : « أصابتهم قوارع الدهر وحوادثه ، وأبادهم الدهر » والدهر يجلب الحوادث ، ففي هذه الجمل وأمثالها معنى أن ما ينزل بالإنسان من قوارع ، وما يحل به من إبادة هو بفعل الدهر ، فهو إذن المهيمن على العالم والمسخر له [2] .

وقد اتخذ الزنادقة والدهرية هذين الحديثين دليلاً لهم احتجوا به في القول بالدهر ، وفي أن ما يحدث فى هذا العالم هو بفعله وعمله . ولهذا ردّ عليهم العلماء بقولهم : « معنى « لا تسبوا الدهر » أي ما أصابك من الدهر ، فالله فاعله ، ليس الدهر ، فإذا شتمت بـه الدهر ، فكأنك أردت به الله ؛ لأنهم كانوا يضيفون النوازل الى الدهر . فقيل لهم : لا تسبوا فاعل ذلك بكم ، فإن ذلك هو الله تعالى » [3] .

وفى هذين الحديثين توفيق لفكرة الجاهليين فى الدهر ، وللعقيدة الإسلامية فى التوحيد بأن صير الدهرُ اللهَ ، وصيره بعض العلماء من أسماء الله الحسنى . والذي حملهم على ذلك ، على ما أرى ، صعوبة إزالة تلك الفكرة التي رسخت فى النفوس منذ القدم عن فعل الدهر ، وعن أثره

---

(1) تاج العروس (٣/٢١٨) ، اللسان (٥/٣٧٨ وما بعدها) ، المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي (٢/١٥٥) .

(2) ديار بني سـعد بن ثعلبة الألى ... أذاع بهم دهر على الناس دائب
فأذهبهم ما أذهب الناس قبلهم ... ضراس الحروب والمنايا العواقب
Caskel, S. 45.

ولست إذا ما الدهر أحدث نكبة ... ورزءاً بزوار القرائب أخضعا
Caskel, S. 50

وإلا تعـاديني المنيـة أغشكم ... على عـدواء الدهر جيشـاً لهاما
ابن قتيبة : الشعراء (٢٢٩) ، Caskel, S. 51

غنينـا زمانـاً بالتصعلك والغنى ... كما الدهر في أيامه العسر واليسر
Caskel, S. 51

قال زهير بن أبي سلمى :

واستأثر الدهر الغـداة بهم ... والدهر يرميـني ولا أرمي
ديوان زهير (ص ٣٨٥) .

(3) تاج العروس (٣/٢١٨) .

فى الـكون ، فرأى القائلون بذلك إزالتها بجعل الدهر اسماً من أسماء الله ، أو هو الله تعـالى ، وهو واحد أحد ، والدهر واحد أبدي أزلي كذلك ، فلا تصادم فى هذا التوفيق بين الرأيين .

وقد وقع هذا التوفيق على ما أعتقد بعد وفاة الرسول فى أمور عديدة نسبت الى الرسول ، وقد ثبت عدم إمكان صدورها منه . وللحكم على صحة نسبة الحديثين الى الرسول أحيل القارئ على الطرق التي وردا بها ، والى آراء العلماء فيهما ، وأعتقد أنه إن فعل ذلك فسيجد فى نسبتهما الى الرسول بعض الشك ، إن لم قل كل الشك .

وتعبر لفظة « الزمان » عن عقيدة القضاء المحتم على الإنسان . هذا « زهير بن أبي سُـلمى » يتشكى منه في قصيدته التي يمدح بها « هَـرِم بن سنان » ، فيقول في مطلعها :

لمنَ الديـارُ بقُـنَّـة الحجر أقوين من حجج ومن دهر

لعب الزمان [1] بها وغـيَّرها بَعدي سَوافي المُـورِ والقَـطْـر

وتجد اللفظة في أشعار غيره من الشعراء الجاهليين والإسلاميين تعبر عن « غدر الزمان » وعن كذبه [2] وتلونه وتلاعبه بمقدرات الإنسان [3] ، وفي كل هذه المواضع التي استعملت فيها تعبير عن تلك العقيدة التي لا تزال راسخة فى نفوس كثير من الناس ، وهي أن الحيـاة قسمة ونصيب وحظ وبخت ، وأنه ليس لمخلوق على مايقدره له القدر من سلطان .

وقد أُستعملت لفظة « عَوْض » في معنى الدهر والزمان ، وردت فى شعر شاعر من شعراء بـكر بن وائل ، فعبر بهذه اللفظة عن زمانه . واستخدام بكري لهذه الـكلمة ، يشير إلى الصنم « عوض » الذي كانت بكر قبيلة هذا الشاعر تتعبد له [4] . والظاهر أن هذه القبيلة نسيت صنمها

---

(١) وفي بعض الروايات « لعب الرياح » ، شرح ديوان زهير (ص ٨٧) ، Caskel , S. 44.

(٢) أفرحت أن غدر الزمان بفارس قلح الـكلاب وكنت غـير مغلب

يا صر قد كذب الزمان عليـكم ونـكأت قرحتكم ولما أنـكب

Caskel , S. 51

(٣) ولو سـألت سـراة الحي عني عـلى أني تـلوت بي زماني

Caskel , S. 52.

(٤) « وعوض معناه أبداً أو الدهر . سمي به لأنه كلما مضى جزء عوضه جزء أو قسم . أو اسـم صنم لبكر بن وائل » ، القاموس (٢/٣٣٧) ، Ency. Religi. Ethic. , I , P. 662 , Caskel, S. 43.

القديم وصيرته في معنى الزمان ، أو أن الشاعر كنى به عن الزمان .

وتؤدي لفظة « الأيام » هذا المعنى كذلك ، بل أستعملت أجزاء اليوم مثل « الليالي » للتعبير عن تلك الفكرة أيضاً [1] . فالليالي هي كالأيام ، لا يمكن أن يطمأنّ اليها ، ولا أن يوثق بها ، إنها تتلون وتتبدل ولا تخلص لأحد . وحيث أن الليالي هي أوقات الراحة والاستقرار والهدوء ، وأوقات الأنس والطرب والإنفراد بالأحبة ، فيكون ذكرها في الشعر وتفضيلها على « النهار » شيئاً طبيعياً .

أما « الحِمَامُ » ، فإنه قضاء الموت وقدره ، يقال « حُمّ أجله » أي قضى وقدر [2] . وقد وردت لفظة « حمّ » ومتعلقاتها في أشعار عديدة بهذا المعنى . أي القضاء والتقدير . فورد : « ما حُمّ واقع » . وورد « أحم الله ... » و « حمه الله » و « حمت لميقاتي » و « حمتي » و « حمام الموت » و « حمام النفس » و « حمام المنون » و « حمام » [3] . وهي من حيث هذا المعنى كالحتف والأجل والآجال والحتوف والمنون [4] .

و « القدر » و « المقدر » و « المقدور » و « الأقدار » و « القضاء » ، من الألفاظ القديمة التي كانت تؤدي هذا المعنى الذي نبحث فيه قبل الإسلام . وأستعمال المتكلمين « للقضاء والقدر » وللقدرية ، لايعني أن تلك الكلمات من الألفاظ التي نبعت في الإسلام . بل إن

---

(1) فإن تك غبراء الخبيبة أصبحت ... خلت منهم واستبدلت غير أبدال
بما قد أرى الحي الجميع بغبطة ... بها والليالي لا تدوم على حال
Caskel , S. 45.

(2) تاج العروس (٨/٢٥٨) .

(3) قال البعيث :
ألا يا لقوم كل ماحم واقع ... وللطير مجرى والجنوب مصارع
وقال الأعشى :
تؤم سلامة ذا فائش ... هو اليوم حم لميعادها
وقال خباب بن غزى :
وأرمي بنفسي في فروج كثيرة ... وليس لأمر حمه الله صارف
تاج العروس (٨/٢٥٨) .

(4) Caskel , S. 11.

ظهورها فى هذا العهد وأُشتهارها فيه ، هو لاستخدام العلماء لها فى مدلولات معينة وفى مصطلحات وأفكار توسعت وأُستقرّت فى هذا العهد .

ونجد الإشارة إلى القدر فى شعر الجاهليين والمُخَضْرَمين بالمعنى الذي نقصده هنا ، أي شيءْ مقدر مفروض على كل إنسان . هذا لَبيدٌ الشاعر يذكر أن ما يرزقه هو من فضل الله عليه ، وما يُحْرَمُهُ فإنه مما يجري به القدر[1] . وتجد أمثال ذلك فى شعر غيره من الشعراء .

وتؤدي لفظة « منا » معنى القدر ، ومنها « الماني » بمعنى القادر ، و « المنية » بمعنى الموت ؛ لأن الموت مقدر بوقت مخصوص[2] . وهي من الكلمات السامية المشتركة الواردة فى مختلف لهجات هذه المجموعة . ولهذه الكلمة صلة بأُسم الإِلَه الكنعاني « منى » ، وهو إِلَه القدر . ولها أيضاً صلة بالصنم « منوات » من أصنام ثمود ، وبـ « منات » من أصنام الجاهليين[3] .

ومن أصل « منا » « المنايا » الواردة فى أشعار الجاهليين[4] . و « الماني » الواردة فى

(١) فما رزقت فإن الله جالبه — وما حرمت فما يجري به القدر

ديوان لبيد (ص ٥٤) « طبعة ليدن ١٨٩١ » .

ولا أقول إذا ما أزمة أزمت — يا ويح نفسي مما أحدث القدر

Caskel, S. 20

(٢) تاج العروس (٣٤٧/١٠ وما بعدها) .

(٣) Caskel, S. 22. ff, Ency. Religi. Ethic., I, P. 661.

إن المنية منهل — لا بد أن اسقى بكأس المنهل

الأغاني (٧٩/١٥) ،

وإذا المنية أنشبت أظفارها — ألفيت كل تميمة لا تنفع

. . .

ولو كنت في بيت تسد خصاصه — حوالي من أبناء نكرة مجلس

ولو كان عندي حازيان وكاهن — وعاق أنجاساً علي المنجس

إذاً لأتتني حيث كنت منيتي — يخب بها هاد الى معرس

Caskel, S. 29.

(٤) وأن المنايا تغر كل ثنية — فهل ذاك عما يبتغي القوم محضر

. . .

وغبراء مخشيّ رداها مخوفة — أخوها بأسباب المنايا مغرر

ديوان عروة بن الورد (ص ٣٨) « تحقيق نولدكه » « كوتنكن ١٨٦٣ » .

شعر منسوب الى سويد بن عامر المصطلقي ، هو :

لا تأمن الموت فى حلّ ولا حرم إن المنايا توافي كل إنسان

وأسلك طريقك فيها غير محتشمٍ حتى تلاقي ما يمني لك الماني

فى رواية . و :

لا تأمنن وإن أمسيت فى حرم حتى تلاقي ما يُمْني لك الماني

فالخيرُ والشرُّ مقرونانِ فى قَرَنٍ بكلّ ذلك يأتيك الجديدان

على رواية أخرى .

وفى هذا البيت الذي ينسبه بعض الرواة الى أبي قلابة الهُـذَلي :

فلا تقولن لشيء سوف أفعله حتى تلاقيَ ما يُمْني لك الماني [1]

وتؤدي كلمة « المنون » معنى الدهر والموت [2] ، وقـد تسـبق بكلمة « ريب » فى بعض الأحيان ، فيقال « ريب المنون » كما يقال « ريب الدهر » [3] .

ويرى « نولدكه » أن هذه الـكلمات هي أسماء آلهة ، وليست أسماء أعلام ، هي أسماء تعبر عن معان مجردة للألوهية ، وهي مما أُستخدم فى لغة الشعر للتعبير عن هـذه العقائد الدينية . فالزمان مثلا أو الدهر ، لا يعنيان على رأيه هذا إلـهـا معيناً ، ولا صنماً خاصاً ؛ إنما هي تعبير عن فعل الآلهة فى الإنسان [4] .

وبعض هـذه الـكلمات — فى رأي « ولهوزن » — مثل قضاء ومنية ، هي بقايا جمل أُختصرت ، ولم يبق منها غير بقايا ، هي هـذه الـكلمات . فكلمة قضاء هي بقية جملة أصلها

---

(١) تاج العروس (١٠/٣٤٧) .

(٢) تاج العروس (٩/٣٥٠ وما بعدها) .

(٣) « أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون » الطور : الآية ٣٠ .

أ أن رأت رجلا أعشى أضر به ريب المنون ودهر مفند خبل

تخوفني ريب المنون وقد مضى لنا سلف قيس معاً وربيع

ديوان عروة بن الورد (ص ٤٣) « تحقيق نولدكه » « كوتنكن ١٨٦٣ » ،

أمن المنون وريبها تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع

Caskel, S. 41.

(٤) Ency. Religi. Ethic., I, P. 661.

« قضاء الله » ، سقطت منها الكلمة الأخيرة منها ، وبقيت الأولى . وكذلك الحال في منية ، فإنها بقية جملة هي : منية الله ، سقط عجزها ، وبقي صدرها . وهي تعني أن المنية هي منية الله تصيب الإنسان [١] .

يبدو أن من الغريب ذكر الدهر والزمان والحمام والمنايا وأمثالها في الشعر ونسبة الفعل اليها ، بينما يهمل ذكر الأصنام فيه أو نسبة الفعل الى الله . فهل يعني هذا أن الجاهليين لم يكونوا يعلمون أن لله سلطاناً وحَوْلاً ، وأن المنايا والحتوف وكل خير أو مكروه هو من فعل الله ؟ الواقع أن هذا الذي نذكره لم يذهب اليه أهل الجاهلية ولم يقصدوه . وما ذكر الدهر في الشعر ، إلا كتشكي الناس من الزمان أو الحظ أو النصيب في هذه الأيام . وشكواهم من ذلك لا يعني تحديد سلطان الله ، أو نكرانه ؛ وإنما هو بقية من تصور إنساني قديم بنسبة كل فعل وعمل الى قوة خفية هي القوة العاملة ، وهي ما عبرت عنها بالدهر وبالزمان . وذلك لما يتصورونه من مرور الأيام والسنين وبلاء الإنسان فيه ، وبقاء الأرض والكون ، ومثل هذه النسبة والشكوى عامة عند جميع الشعوب البدائية والمتطورة المتقدمة ، فنراها عند القبائل البدائية ونراها عند الغربيين .

ولا يقتصر هذا الاستعمال على الشعر وحده ، بل نجد ذلك في النثر وفي كلام الناس الاعتيادي . لذلك لا أرى صحيحاً ما ذهب اليه بعض المستشرقين من أن نسبة الفعل الى الدهر هو من الاستعمالات الخاصة بالشعر [٢] .

وهناك كلمات أخرى تشير معانيها الى هذه الفكرة فكرة القدر ، وأن الخير والشر وكل ما يصيب الإنسان هو مقدر مكتوب . وهي نظرة لا بد أن تكون قد انبعثت من الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، ومن أثر المحيط في الإنسان [٣] .

ونجد فكرة القدر مركزة قوية صريحة في شعر « لَبِيد » ، وهو شاعر مُخَضْرَم ، يعد

---

(١) Reste, S. 222.   (٢) Caskel , S. 54.

(٣) والمال ما خول الإله فلا بد له أن يحوزه قدر

شرح ديوان زهير (ص ٣١٤) .

من طبقة المُعَمَّرين (١) . أعتقاد هذا الشاعر أن القدر خيره وشرّه من الله ، وأن ما يصيب الإنسان مكتوب عليه ، ولا راد لما هو مكتوب . ولا دخل لامرىء فى عمله ، فليحمد الله على خيره ، وليشكره على شره أيضاً ، فهو العالم وحده بما هو صالح وضارّ (٢) . وشعره هذا لا بد أن يكون مما نظمه فى الإسلام ، إذْ لا يعقل أن يكون من نظم عصر وثني . كذلك نجد هذه العقيدة عقيدة القدر فى شعر زُهَيْر بن أبي سُلْمَى وفى شعر غيره من الشعراء . هذا زهير يقول : إن المنايا أمر لا مفر منه ، وإن من جاءت منيته لا بد أن يموت ، ولو حاول الارتقاء الى السماوات فراراً منه (٣) .

وتؤدي عقيدة القدر بصاحبها الى التشاؤم ، فهم يبكون أيامهم ، ويتذكرون الماضي ، ويتوجعون ؛ لأنهم سائرون نحو مستقبل مؤلم موجع ، لا حول فيه لإنسان ولا قوة . إنه عالم الشيخوخة أو عالم الموت أو عالم الفقر ، وأمثال ذلك من العوالم المفزعة . يستوي فى ذلك أمرؤ القيس والشعراء المخضرمون . فأنت إذا تصفحت دواوينهم قلما تجد فيهم شاعراً متفائلاً ، أو شاعراً غير مبال بالأيام ، لا يهمه ما يأتي به الدهر ، حتى ليخيل الينا أن هذا طبع . والواقع أننا نجد الشعراء فى الجاهلية والإسلام وأكثر الكتاب والخطباء على هذا المنوال ، مما يحمل المرء على القول بوجود التشاؤم فى طبع العربي .

والآن ، وقد عرفنا فكرة الجاهليين فى القدر ، نود أن نعرف ما رأيهم فيه ؟ هل هو رمز الى عمل إلــه واحد أو جملة آلهة ؟ أو أن القدر هو فعل الحركة الأبدية المستمرة الفاعلة فى الحياة ؟ هي القوة الفعّالة التي بيدها مصير كل إنسان وكل شيء ، تعرف بفعلها دون أن تدرك ماهيتها ، فرمز عنها الجاهليون بتلك الألفاظ والكلمات ، لأنهم لم يكونوا يتصورون كيفيتها وماهيتها ؟ فالقوة هذه إذن هي القدرة الراسمة لكل شيء المهيمنة على القدرات ، وهي أبدية ، لا يُهْلِك

(١) كتاب المعمرين (٦١) « طبعة كولدزهير » ، Ency. . III. P.I.

(٢) من يبسط الله عليه إصبعاً   بالخير والشر بأي أولعا

ديوان لبيد (ص ٨ ، ١١ ، ٢٨ ، ٣٣ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥) « طبعة بروكلمن » .

(٣) ومن هاب أسباب المنايا ينلنه   ولو نال أسباب السماء بسلم

شرح ديوان زهير بن أبي سلمى لثعلب (ص ٣٠) ، « وطر بالذي قد حم » ، Caskel . S. 54.

غيرُها ، أما هي فلا تَهْـلَكْ ، فهي بهذا التعريف قريبة من فكرة « الله » فى الإسلام .

ولـكن إذا صح أن فكرة الجاهليين فى الدهر قريبة من فكرة « الله » فى الإسلام أو هي الفكرة ذاتها ، فلم نفرت قريش من الإسلام ، ولم كفرت بنبوة الرسول ، ولم غضبت عليه وحاربته وأنكرت عليه الدعوة الى التوحيد ؟

الواقع أن الإجابة عن هذه اسئلة وأمثالها يجب أن تقوم على الرجوع الى الآيات التى أثارت أهل مكة ، وحملتهم على مقاومة الرسول وتصميمها على قتله ، مما حمل الرسول على الهجرة الى المدينة. فإذا فعلنا ذلك ، استطعنا ، على ما أعتقد ، أن نقف على الأسباب الحقيقية التي هاجت أهلَ مكة على الرسـول ، وجعلتها ترى في دعوة الإسلام خطراً يتهـدد عقيدتها ونظامها ومبدءاً هدّاماً لا يمكن التغاضي عنـه . ودراسة مثل هـذه لا بد منها فى البحث فى تأريخ نشـوء الإسـلام وظهوره ، وعندئذ يمكن البحث فيها بتبسط وتفصيل .

إن القرآن الـكريم لم ينكر على أهل مكة تعبدهم لإلـه واحد ، بل هو يصرح أن قريشـاً كانت تتعبد لله . أما بشأن الأصنام ، فقد ورد فيـه أن قريشاً كانت تدعي أنها لا تعبـدها إلا لتقربها الى الله ، فهي لا تعبدها لذاتها ، إذن فهي مادة لا نفع يرتجى منها ولا ضر ، إنما كانت تدعي أنها تتقرب إليها ، لأنها تقربها الى الله ربِّ العالمين ، فهي رمز له ، وهي واسطة وسبب . ثم إننا نجد أنها لم تتحرش بالرسول ، ولم تقاومه حينما بشّر بإلـه واحـد ، وحينما كان يدخـل الـكعبة ويصلي فيها ويرفع رأسه الى السماء ، إنما قاومته حينما تجاوز ذلك ، فأخـذ يدعو الى التوحيـد الخالص ، والى نبذ الأصنـام والأوثان ، لأنها شرك ، لا تتفق مع القول بوجود إلـه واحد . وحينما أخذ يسخر من أوثانهم ، ويسفه أحلامهم ، ويدعوهم الى العمل بأشياء لم يعرفها آباؤهم الأولون ، عندئذ هاجوا وثاروا ، وقد هاجهم من الدعوة خاصةً ما مس عُرْفَهم ، ومـا ورثوه من عادات سار عليها آباؤهم وآباء آبائهم . وللعادات عند الأعراب أهمية كبيرة ، بل هي فى نظرهم أساس الدين .

وقد عبر عن هذه العقيدة فى القرآن الـكريم ، فى الآية : « وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا ،

نموت ونحيا ، وما يهلكنا إلاّ الدهر ، وما لهم بذلك من علم ، إنْ هم إلاّ يظنون » [1] .

فالدهر هو المهلك ، وهو واحد ، فعله مستمر . وهو الذي بيده المنايا وأمور الناس والكون .

فنحن إذن أمام دين نستطيع أن نسميه عبادة الدهر ، وهو دين نستطيع أن نسميه أيضاً دين عبادة الله ، وذلك من حيث العقيدة . فالدهر في الواقع هو الله الواحد الأحد . ومن هنا قال بعض العلماء إن الدهر اسم من أسماء الله .

ويحملنا ذكر أسم « الله » على الكلام مرة أخرى على كلمتي « الله » و « الرحمان » . وقد ورد اسم « الله » خاصة في الأشعار المنسوبة إلى الجاهليين ، وهو اسم الإله في الإسلام . فهل عرف الجاهليون هذا الاسم ونطقوا به حقاً ؟ أو هو لم يكن معروفاً لديهم ، وإنما شاع وعرف لنزول الوحي به ، فهو من الأسماء المستحدثة التي لم يكن يعرفها ولم يسمع بها العرب قبل الإسلام .

لقد ذهب « نولدكه » إلى أن رواة الشعر وحملته في الإسلام هم الذين أدخلوا أسم الجلالة في هذا الشعر ، وذلك بأن حذفوا منه أسماء الأصنام ، وأحلوا محلها اسم الله . فما جاء فيه أسم « اللات » ، حلّ محله أسم « الله » [2] . ولكن ما سندنا في ذلك ؟ ومن يؤكد لنا صحة هذه الدعوى ؟ وكيف نقول بها وليس في أيدينا دليل محسوس ينص على وجود مثل هذا التغيير والتبديل . ثم إن « اللات » لم يكن صنم جميع العرب ، فلم خص « اللات » بالقسم في الشعر مثلا دون سائر الأصنام ؟ ثم إن ادخال « الله » في مواضع أسماء الأصنام الأخرى لا يمكن أن يستقيم دائماً ، فلا بد أن يؤثر ادخاله على وزن الشعر ؟ فكيف عولج الميزان ؟ وكيف صحح الشعر؟ ثم ما الفائدة التي حصل عليها الرواة من هذا التغيير إن كانوا أرادوا طمس أسماء الأصنام ، فلِمَ لَمْ يطمسوا أثرها جملة في الشعر والنثر ؟ ولِمَ أبقوا بعضاً وحذفوا بعضاً ؟ وإذا كان الحذف في أماكن القسم وحدها ، فما هو دليلنا على أنه كان في هذه الناحية ولم يتجاوزها الى غيرها ؟ ثم إن هذا الشعر لأناس ماضين ، وليس هو من نظم شعراء إسلاميين فيقال إنه كفر ،

---

(1) الجاثية : الآية ٢٣ .

(2) Noldeke, Beitrage, S. IX. ff.

وقد ورد : ناقل الـكفر ليس بكافر .

وذهب أيضـاً الى أن رواة الشعر فى الإسلام حذفوا من شعر الجاهليين ما لم يتفق مع عقيدتهم ، وما وردت فيه أسماء الأصنام . وفى جملة ما أستدل به على أثر التغيير والتحريف فى الشعر الجاهلي ورود كلمة « الرحمان » فى شعر شاعر جاهلي من هذيل ، زعم أن ورود هـذه الـكلمة فى هذا الشعر دليل كاف لإثبات أثر التلاعب فيه ؛ لأن هذه اللفظة إسلامية ، استحدثت فى الاسلام ، ولا يمكن أن ترد فى شعر شاعر جاهلي [١] . وقد فات « نولدكه » صاحب هـذا الرأي أن الـكلمة بهذا المعنى كلمة جاهلية ، وردت فى نصوص المسند ، وأن من جملة من أستعملها « أبرهة » الحبشي فى نصّـه الشهير المعروف بنص سـدّ مأرب ، وقد أفتتحه بجملة : « بنعمة الرحمن ومسيحه سطرت هـذه الـكتابة » . وقد تحدثت عن هـذا النص فى المجلد الرابع من هذا الكتاب .

أما « ولهوزن » ، فيرى أن عدم ورود أسماء الأصنام فى الشعر الجاهلي إلاّ فى النادر وإلا فى حالة القسـم أو فى أثناء الإشارة الى صنم ، أو موضع عبادة ، ليس بسـبب تغيير الرواة الإسلاميين وتبديلهم لأسماء الأصنام . وإنما سببه هو أدب الجاهليـين وعادتهم فى عدم الإسراف والإسفاف فى ذكر أسماء الآلهة الخاصة ، وذلك على سبيل التأدب تجاه الأرباب ، فأستعاضوا عن الصنم بلفظة « الله » التي لم تكن تعني إلـهاً معيناً ، وإنما تعني ما تعنيه كلمة ربّ وإلـه . ومن هنا كثر أستعمالها فى القسم وفى التمني أو التشفي وأمثال ذلك من حالات [٢] .

وقد ورد أسم الجلالة فى أشعار أكثر الشعراء الجاهليين إن لم نقل جميعهم : ورد فى شعر إمرئ القيس وغيره ، فأمرؤ القيس يقول : « من الله » و « لله » [٣] و « تالله » [٤]

---

(١) Noldeke, Beitrage, S. X. (٢) Reste, S. 217 f.

(٣) فاليوم أشرب غير مستحقب إثماً من الله ولا واغل

. . .

لله زبدان أمسى قرقراً جلداً وكان من جندل أصم منضودا

شرح ديوان امرىء القيس للسندوبي (ص ٦٣ ، ١٥٢) وسيكون رمزه : السندوبي .

(٤) تالله قد علمت قيس إذا قذفت ريح الشتـاء بيوت الحي بالعنن

=

و « قبح الله » (١) و « والله » (٢) ، ويستعمل جملة « يمين الإله » (٣) . و « الإله » مي الله ، و « الحمد لله » (٤) . ونرى العرب عامة تستعمل فى كلامها : « لله دره » (٥) و « لا يبعد الله » (٦) ، و « لحى الله » (٧) و « جزى الله » (٨) ، ونجد اسم الجلالة هذا وأمثال الجمل المذكورة فى أشعار الشعراء الجاهليين الآخرين .

= شرح ديوان زهير (ص ١٢١) .

يا لهف هند اذ خطئن كاهلا ... تالله لا يذهب شيخي باطلا

السندوبي (ص ١٥٤) .

تالله ذا قسماً لقد علمت ... ذبيان عام الحبس والأصر

شرح ديوان زهير (ص ٨٨) .

(١) ألا قبح الله البراجم كلها ... وجدع يربوعاً وعفر دارها

السندوبي (ص ١٨٠) .

(٢) فقد أصبحوا والله أصفاهم به ... أبر بميثاق وأوفى بجيرات

. . .

والله لا يذهب شيخي باطلا ... حتى أبير مالكا وكاهنا

السندوبي (١٥ ، ١٨٩) .

فوالله إنا والأحاليف هؤلا ... لفي حقبة أظفارها لم تقلم

شرح ديوان زهير (ص ٢٤) .

(٣) كلا يمين الإله يجمعنا ... شيء وأخوالنا بنو جشما

السندوبي (ص ١٨١) .

(٤) أرى ابلي والحمد لله أصبحت ... ثقالا إذا ما استقبلتها صعودها

السندوبي (ص ٦٤) .

(٥) كم شامت بي إن هلكـ ... ـت وقائل : لله دره !

ديوان لبيد (ص ٢) « تحقيق كارل بروكلن » .

(٦) وقولي ألا لا يبعد الله أربدا ... وهدى به صدع الفؤاد المفجعا

ديوان لبيد (ص ٦) .

(٧) لحى الله صعلوكا إذا جن ليله ... مصافي المشاش آلفاً كل مجزر

. . .

ولله صعلوك صفيحة وجهه ... كضوء شهاب القابس المتنور

ديوان عروة بن الورد (ص ٢٦ ، ٥٣) .

(٨) جزى الله خيراً كلما ذكر اسمه ... أبا مالك إن ذلك الحي اصعدوا

ديوان عروة (ص ٥٠) .

وأكثر استعمال الجمل المذكورة هو في القسم[1]، ولهذا ذهب بعض المستشرقين الى أن استعمال الشعراء لاسم الجلالة في الشعر بسبب أن هذا الاسم هو اسم عام لا يخص صنماً معيناً، لذلك فهو مستعمل عند جميع القبائل، في حين أن ذكر اسم صنم الشاعر في شعره، لا يرضي إلا قبيلته التي تدين له. ولهذا السبب اختفى ذكر الأصنام من الشعر إلا في النادر، لاستعمال اسم الله في الشعر عوضاً عن تلك الأصنام[2].

وورود اسم الجلالة في أشعار الجاهليين يحملنا على البحث في أصله: هل هو إسلامي محدث، أو هو اسم جاهلي قديم؟ وبحث مثل هذا يجب أن يستند الى النصوص. غير أننا ويا للأسف لا نملك نصاً جاهلياً يمكن أن يفيدنا في هذا الباب، فكل النصوص الجاهلية التي وصلت الينا خرس لم تنطق بحرف واحد عن اسم الجلالة، فليس أمامنا إلا اللجوء الى الطريقة المألوفة في مثل هذه الأحوال، وهي الرجوع الى آراء علماء اللغة، والى المقابلة بين العربية واللهجات السامية الأخرى. أما آراء علماء اللغة، فإنها مثل آرائهم الأخرى في أصول الكلمات الصعبة التي على شاكلتها، كلها حدس وتخمين. وأما المستشرقون، فمنهم من يرى أن اللفظة عربية أصيلة، ومنهم من يرى أنها من «الاها Alaha» ومعناها «الإلـه» بلغة بني إرم. أما الذين قالوا بعربيتها، فيرون أنها من «اللات». واللات اسم صنم، تحرف وتولد منه هذا الاسم[3]. وقد سبق أن تحدثت عن لفظة «الإلـه» في أثناء كلامي على أصنام ثمود والصفويين.

ثم إن ورود هذا الاسم في الشعر الجاهلي إن صح أنه جاهلي حقاً، يفيد أن الجاهليين كانوا يعتقدون بوجود إلـه واحد أعلى، خلق هذا الكون، ولذلك توجهوا اليه وأقسموا به. ونجد لهذا الرأي سنداً في القرآن الكريم، ففيه أن قريشاً كانت تعترف بأن الله هو ربّ السماوات

---

(١) تعلماها لعمر الله ذا قسماً ... فاقصد بذرعك وانظر أين تنسلك

شرح ديوان زهير (ص ١٨٢).

تعلمن ها لعمر الله ذا قسماً ... فاقدر بذرعك وانظر اين تنسلك

شعراء النصرانية (ص ٥٠٣).

(٢) Reste, S. 219.

(٣) Ency. Religi., I, P. 661. Ency., I, P. 302.

والأرض : « قل من ربّ السمٰوات والأرض ؟ قل : الله . قل : أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً . قل : هل يستوي الأعمى والبصير . أم هل تستوي الظلمات والنور ، أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه ، فتشابه الخلق عليهم . قل : الله خالق كل شيء ، وهو الواحد القهار »[1] .

ونجد إقرار قريش بوجود إلـه واحد خالق للسماوات والأرض في مواضع أخرى من القرآن الكريم . ففي سورة العنكبوت « ولئن سألتهم من خلق السمٰوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولنّ : الله ، فأنى يؤفكون »[2] . وفي هذه السورة نفسها سؤال آخر موجه الى المشركين « ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ، ليقولن : الله . قل : الحمد لله ، بل أكثرهم لايعقلون »[3] . وفي سورة لقمان سؤال آخر موجه إلى أولئك المشركين ، وجواب صادر منهم ، هو هذا الجواب نفسه : إقرار بوجود خالق واحد خلق السماوات والأرض : « ولئن سألتهم من خلق السمٰوات والأرض ، ليقولن : الله . قل : الحمد لله ، بل أكثرهم لايعلمون »[4] . وهناك آيات أخرى على هذا النحو ، فيها أسئلة موجهة الى المشركين عن خالق السماوات والأرض ، وأجوبة على ألسنتهم فيها اعتراف بأن خالقها وصانعها هو الله[5] .

وفي القرآن الكريم أن قريشاً كانت تعتقد أن الله هو الذي ينزل المطر ويحيي الأرض بعد موتها : « ولئن سألتهم من نزّل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ، ليقولنّ : الله . قل : الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعقلون »[6] . وفيه أنهم كانوا يقسمون به[7] ، وأنهم كانوا قد جعلوا له نصيباً مما ذرأ من الحرث والأنعام[8] ، وأنهم كانوا يقولون إن الله هو الذي شاء فجعلهم وآباءهم مشركين ، وأنه لو لم يشأ لما أشركوا بعبادته أحداً[9] ، وأنهم كانوا

---

(١) الرعد : الآية ١٦ . (٢) الآية ٦١ . (٣) الآية ٦٣ . (٤) الآية ٢٥ .
(٥) سورة الزمر ، الآية ٣٨ ، سورة الزخرف الآية ٩ ، ٨٧ .
(٦) العنكبوت : الآية ٦٣ . (٧) الأنعام : الآية ١٠٩ ، النحل : الآية ٣٨ .
(٨) الأنعام : الآية ١٣٦ . (٩) الأنعام : الآية ١٤٨ .

يتضرعون اليه ويستغيثون به في الكوارث والملمّات ، وأنهم جعلوا له بناتاً وبنين وشركاء الجن[1] . وقد رأينا فيما مضى رأيهم في الملائكة والجن . فلا حاجة بنا إلى إعادة الكلام .

وفي الشعر المنسوب الى الجاهليين اعتقاد بوجود الله ، واتّقاء منه ، وتقرب اليه باحترام الجوار وقِرى الضيف . هذا عمرو بن شأس يقول في شعره :

ولولا اتقاء الله والعهد قد رأى منيته مني أبوك اللياليا[2]

فلولا اتقاء شاسٍ اللهَ ، لفتك بخصمه ، وجعله في الهالكين . وفي بعضه اعتراف بأن هذه الأرض الواسعة هي « بلاد الله » ، أينما حللت فيها فهي أرضه وبلاده[3] . وهذه نظرة مهمة جداً عن رأي الجاهليين في الله وفي الأرض ، إن صح أن هذا الشعر الوارد فيه هو حقاً من شعر أهل الجاهلية .

و (اللهُ) كما جاء في شعر زهير بن أبي سُلْمَى ، عالم بكل شيءٍ ، عارف بالخفايا وبالأسرار ، وبما ظهر من الأعمال وما بطن .

فلا تكتمنّ الله ما في نفوسكم ليخفى ، ومهما يكتم الله يعلم[4]

وهو عدوّ للاشقياء شديد عليهم ، لا يرحم ظالماً ، وأمره بُلْغٌ به تشقى به الأشقياء[5] .

---

(١) الأنعام : الآية ١٠٠ .

(٢) الأغاني (١٠/٦٢) « نسب عمرو بن شاس وأخباره في هذا الشعر وغيره » .

بدا لي أن الله حق فزادني الى الحق تقوى الله ما قد بدا ليا

شرح ديوان زهير (ص ٢٨٧) .

(٣) فسر في بلاد الله والتمس الغنى تعش ذا يسار أو تموت فتعذرا

ديوان عروة (ص ٥١) .

(٤) شرح ديوان زهير (ص ١٨) .

(٥) فهداهم بالأسودين وأمر الله بلغ يشقى به الأشقياء

اللسان (١٠ /٣٠٢) « بلغ » ،

فهداهم بالأسودين وأمر الله بلغ تشقى به الأشقياء

تاج العروس (٦/٤) « بلغ » ،

Caskel , S. 54.

وهو يثيب على الإحسان ، ويجزي المحسن على جميل إحسانه [1] . وهو الذي يعصم من السيئات والعثرات [2] .

فلم يكن أهل مكة إذن كما يتبين من القرآن الكريم ومن الشعر المنسوب الى الجاهليين قوماً وثنيين على النحو المفهوم من الوثنية ، وجماعة جاهلة مشركة لاتفهم شيئاً عن وجود خلق وخالق، اعتقدت بآلهة عديدة وبأن الأصنام هي أرباب حقاً تنفع وتضر . لا ، لم يكن الجاهليون على هذا النحو من الدين ، بل كانوا يعتقدون بوجود إلـه واحد خالق السماوات والأرض ، فهم إذن في عقيدتهم بالله موحدون .

ولكن ، إذا كان أهل مكة على هذا النحو من العبادة ، فلم خاصموا الرسول وحاربوه ؟ ولم آذوه ، وتآمروا فيما بينهم على قتله ، وعبادتهم هي عبادته وتوحيدهم توحيد إسلامي أو توحيد قريب من التوحيد الإسلامي ؟

أما الجواب ، فهو ما سبق أن قلته قبل أسطر : لم تخاصم قريش الرسول لعقيدته في الله ، ولم يخاصمهم الرسول ويسفه أحلامهم لعقيدتهم تلك في الله ، إنما سفه أحلامهم وخاصمهم لإضافتهم أموراً الى هذا التوحيد ، أبعدته عن التوحيد الخالص ، بأن جعلته شركاً أو نوعاً من التوحيد المشرك . فجعلوا مع الله شركاء ، وتقربوا الى الأصنام ، وذبحوا لها على الأوثان ، وجعلوا له بنين وبناتاً ، وآمنوا بالجن إيماناً عطل كل سلطان وأمر لله ، واعتقدوا بالقربات وبالشفاعات ، لتقربهم اليه زلفى . فعقيدتهم في التوحيد ، نوع من عقائد النصرانية في الملائكة والقديسين الشفعاء بين الله والناس . وهذا ما حاربه ورفعه الإسلام [3] ، بأن اجتث الوساطة وجبّها ، وجعل الدين خالصاً لله وعبادة بينه وعبده ، وطهر التوحيد من زوائد الشرك . وهدّم

---

(١) رأى الله بالإحسان مافعلا بكم ... فأبلاهما خير البلاء الذي يبلو
شرح ديوان زهير (ص ١٠٩) .

(٢) ومن ضريبته التقوى ويعصمه ... من سيء العثرات الله والرحم
شرح ديوان زهير (ص ١٦٢) .

(٣) Ency., I, P. 302.

ما لم يتفق مع هذا التوحيد . ولهذا غضبت صناديد قريش وأظهروا للرسول ما أظهروه من كفر وعنـاد .

وقدكان أصعب شيء على صناديد مكة تغيير ما توارثوه عن آبائهم وأجدادهم من سنن وعادات، فقد كان الخروج عليها عاراً ومنقصة لاتليق بالشهم الكريم . « بل قالوا إنّا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مهتدون » [١] . ثم إنهم كانوا يتعيشون من هذه المنعمات ومن وصايتهم على الأصنام ومن سدانتهم للبيت ، وإسلامهم وإيمانهم برجل لم يرث مالاً ولا يملك تجارة وعقاراً جاء بدين لم يألفوه ، يساوي بين الغني والفقير والأسود والأبيض ، شيء لايتفق مع ما ورثه القوم من سنن وعوائد اجتماعية . ومن هنا كان الاسلام في عرفهم هدماً وتقويضاً لعقيدة راسخة ونظام اجتماعي وسياسي يجب أن يدوم دوامَ السنين والأيام .

إن استعمال الجاهليين لاسم الجلالة ، يشير الى أنهم كانوا ينظرون اليه نظرة المسلمين ، أي أنه كان أسم علم خاص بالجلالة ، فهو مقابل « يهوه » عند العبرانيين . ومن هنا عبر عنه بإلـه واحد ، وهو اسم مفرد ليس له جمع ؛ لأنه إلـه واحد . أما لفظة « إلـه » ، فإنهـا تعبر عن مفرد له جمع ، هو « آلهة » . والإلـه في مقابل « ايلوهيم Elohim » عند العبرانيين[٢] .

وأما لفظة « الرحمان » ، فيظهر من أستعمالها في جملة « بسم الله الرحمن الرحيم » أنها صفة من صفات الله . ويظهر مما ورد عن كتابة كتاب الصلح بين قريش والنبي في السنة السادسة من الهجرة ، وذلك في صلح الحديبية ، أن ممثل أهل مكة « سهيل بن عمرو » ، رفض أفتتاح كتاب الصلح بجملة : « بسم الله الرحمن الرحيم » ، قائلا : « لا أعرف هذا ، ولـكن أكتب بأسمك اللهم » ، وأن رسول الله حينما سمع أمتناعه قال لعلي بن أبي طالب : « أكتب بأسمك اللهم » ، فكتبها[٣] . وهذا الرفض ، إن صحت الرواية ، ينفي ما ذكرناه من أستعمال الجاهليين للفظة « الله » و « الرحمان » ، ويؤيد ما يذكره المستشرقون من أن أستعمال اسم الجلالة هو استعمال

---

(١) سورة الزخرف الآية ٢٢ ، المعجم المفرس لألفاظ القرآن الكريم (ص ٧٤٢) .

(٢) Ency. , I , P. 302.

(٣) الطبري (٣/٧٩) « ذكر الخبر عن عمرة النبي صلى الله عليه وسلم التي صده المشركون فيها عن البيت . وهي قصة الحديبية » « ذكر الأحداث التي كانت في سنة ست من الهجرة » .

اسلامي ، لم يعرفه الجاهليون . ولـكن وروده في الشعر المنسـوب الى الجاهليين ليس بدليل على أنه جاهلي ، لأنه أدخل في الإسلام . غير أننا لا نستطيع مع ذلك الأخذ بهـذا الرأي ؛ لأن أعتراض « سهل بن عمر » لم يكـن على أسـم الجلالة ، بل على الجملة كلها . والجملة هي مصطلح إسلامي من غير شك ، أسـتعمل في موضع : « بأسمك اللهم » ، وهو أسـتعمال جاهلي متأخر كذلك ، أشرت سابقاً الى اسم مبتكره ومخترعـه على نحو ما قصه علينـا أهل الأخبار . ولفظة « اللهم » تشتمل أيضاً على اسم الجلالة ، وهو « الله » . وفي جملة « بأسمك اللهم » دلالة صريحة على التوحيد وعلى الإقرار بوجود آلـه واحد . فاعتراض ممثـل قريش هو على الشكل العـام ، وعلى صورة الاستعمال التي لو أقرت ، كان في إقرارها أعتراف المبعوث أعترافاً شرعياً بالإسلام ، وهذا ما لم يرده ولا يقره . ثم إن استعمال لفظتي الرحمان والرحيم على هذا النحو أستعمال إسلامي ، فلا يمكن قبوله من وثني .

ولـكن ورود لفظة « الرحمان » في نص أبرهة يدل على أنهـا كانت معروفة مستعملـة في العربية الجنوبية الغربية وفي نصوص المسند . ورأيي أنها من المصطلحات الدينية المتـأخرة التي استقرت واتخذت هذا المعنى بعد ظهور عقيدة التوحيد وأنتشارها في اليمن . ويقول العلماء إنها كانت اللقب الذي يتلقب به صاحب « اليمامة » ، فكان يلقب بـ « رحمان اليمامة »[1] . فهي على هذا الرأي في معنى « ربّ » التي أطلقها الجاهليون مرادفةً لسيد وصاحب ، كما في « رب الخورنق والسدير » . ولـكنها أستعملت أيضاً في معنى إلـه ، واستعمل جمعها وهو « أرباب » مرادفـاً للآلهة . واستعملت بهذا المعنى الديني في القرآن الـكريم ، وفي الإسـلام . وقد أستعمل النصارى « الرب » في معنى الله . استعملها نصارى الجاهليين والاسلاميين .

ولم ترد « لفظة الرحمان » إلا مفردة ، فليس لها جمع ؛ لأنهـا تعبير عن توحيد ، وليس في التوحيد تعدد ، فالتعدد شرك . على عكس لفظة « رب » ، التي تؤدي معنى « إلـه » ، وهي تعبير عن أعتقاد ، لا اسم لإلـه ، ولذلك وردت لفظة « أرباب » بمعنى آلهة تعبيراً عن تعـدد الآلهة ، وهو الشرك . وقد كان أهل الطائف ، وهم من ثَقِيف ، يقولون لـ « الات » « الرَّبة »

---

(١) تاج العروس (٨/٣٠٧) .

بمعنى الإلهة . وكان الجاهليـون يقولون ربي وربك وربنـــا ، كما يقولون إلهي وإلاهك وآلهتنا [1] .

ويرى « ولهوزن » أن لفظة « الله » كانت بهذ المعنى فى الأصل . كانت تعني إلهاً على وجه التعميم ، دون التخصيص أي أنها لا تشير الى إلـه معين . أستعملتها كل القبائل بهذا المعنى ، فهي صفة تشير الى الألوهية المجردة ، وان كان أفراد كل قبيلة يقصدون بها صنمهم الخاص بهم . استعاضوا بذكرها عن ذكر اسم الصنم . وان استعمالها جملاً مثل: « حاشا لله » و« لله دركُ » و « لاهـــا الله » و « تالله » و « أيمُ الله » و « لحا الله » و « جزى الله » و « جعلني الله فداك » و « لك الله » و « أرض الله » وأمثالها ، هو من هـذا القبيل ، الله فيهـا بمعنى الرب والإلـه . ولما كانت أداة التعريف تفيد التخصيص ، فدخولهـا فى أسم الجلالة أفاد التخصيص والعلمية . وهذا ما حدث ، إذ فقدت الـكلمة معناها العام ، واتجهت نحو التخصص حتى صارت بهذا المعنى الذي صارت عليه فى الإسلام [2] .

والعهود عند العرب ، وان كانت من الأمور الخاصة ، لها صفة دينية وقدسـية تكسب الناكث بها الخزي والعار ، وتلحق السمعة السيئة التى تلتصق بآله وذويه ما بقي فيهم أنـاس ينسبون اليه . وتقترن لقدسيتها هذه بأسماء الآلهة ، وتقترن باسم الجلالة بأن يقال : باسمك اللهم ، أو الله بيني وبينك، أو لك الله ، واللهم نعم ، وعمر الله . فالله هو الشاهد ، وهو الحافظ للعهود ، وهو الوازع ، ومن خالف ونكث ، فهو عدو الله ، وله إثم من الله [3] . والـكذب والخـداع والزور من الصفات التى يمقتها الله ، فلا يتصف بها إلا عداته [4] .

---

(١) هناك ربك ما أعطـاك من حسن ... وحيثما يك أمر صالح فكن
شرح ديوان زهير (ص ١٢٣) .

(٢) Reste S. 218.

(٣) قعيدك ، عمر الله ، هل تعلمينني ... كريماً إذا اسود الأنامل أزهرا
ديوان عروة بن الورد (ص ٢٢) « تحقيق نولدكه » (كوتنكن ١٨٦٣) ، Reste, S. 224.

(٤) سـقوني النسء ، ثم تكنفوني ... عداة الله من كذب وزور
ديوان عروة بن الورد (ص ١٩) .

وفي شعر بعض الشعراء الجاهليين اشارات الى أمور مذكورة في القرآن الكريم ، وفيه روح تصوفية ذات نزعة إسلامية ، فهي إما أن تكون قد قيلت على ألسنة أولئك الشعراء في الإسلام ، وإما أن تكون مما كان شائعاً معروفاً بين الجاهليين ، فنزل به الوحي لتذكير القوم به . ومن هؤلاء الشعراء زهير [1] ولَبيد وأمية وشعراء آخرون .

إن عقيدة الجاهليين هذه في الله ، وحجهم الى البيت وقسمهم به [2] ، نتيجة تطور طويل مرّ على الحياة الدينية لعرب الجاهلية اختتم بظهور الإسلام وبدخول أكثرهم فيه . تطور سنرى وصفه في الجزء التالي من الكتاب . سنرى فيه أهل مكة وقد كانوا على مقالة من التوحيد والدين ، وعلى تيقّظ وشك في أمر الشفعاء والشركاء والأصنام ، حمل الكثير منهم على الشك في ديانة قومهم وعلى الدعوة الى الاصلاح .

---

(1) بدا لي أن الله حق فزادني ... الى الحق تقوى الله ما قد بدا ليا
بدا لي أني لست مدرك ما مضى ... ولا سابقي شيء إذا كان جائيا
وما إن أرى نفسي تقيها كريمتي ... وما إن تقي نفسي كريمة ماليا

• • •

ألا لا أرى على الحوادث باقيا ... ولا خالداً إلا الجبال الرواسيا
وإلا السماء والبلاد وربنا ... وأيامنا معدودة والليـاليا
أراني إذا ما شئت لاقيت آية ... تذكرني بعض الذي كنت ناسيا
ألم تر أن الله أهلك تبعاً ... وأهلك لقمان بن عاد وعاديا
وأهلك ذا القرنين من قبل ما ترى ... وفرعون أردى جنده والنجاشيا

شرح ديوان زهير (ص ٢٨٨) ، راجع قصة الفيل في ديوان لبيد .

(2) قال زهير بن أبي سلمى :

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله ... رجال بنوه من قريش وجرهم
يميناً لنعم السيدان وجدتما ... على كل حال من سحيل ومبرم

شرح ديوان زهير (ص ١٤) .

فهرس الجزء الخامس

الصفحة

الصفحة

الفصل الخامس

أصنام الكتابات

الصفحة

الفصل السادس

الانسان والآلهة

الصفحة

الصفحة

الفصل السابع

الحج وشعائر دينية أخرى

الصفحة

الصفحة | الصفحة

الفصل الثامن

الحياة والموت

الصفحة

الفصل التاسع

تسخير عالم الأرواح

الصفحة

الفصل العاشر

الصفحة

الصفحة